مكتبة لسان العرب

٥٠ صفحات من تاريخ مصر

دكتور أحمد فؤاد سيد

تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيوب

(٥٦٧هـ-٦٤٨هـ)

زوال الخلافة الفاطمية والفكر الشيعى الإسماعيلى، وعودة سيادة الخلافة العباسية على مصر، والفكر السنى إليها؛ وتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج، لاسترداد بيت المقدس

مكتبة لسان العرب

الناشر: مكتبة مدبولي - القاهرة

مكتبة لسان العرب

هذه السلسلة تضم :

١- فتح العرب لمصر
٢- تاريخ مصر إلى الفتح العثمانى
٣- الجيش المصرى البرى والبحرى فى عهد محمد على
٤- تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى
٥- تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل
٦- تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر
٧- ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
٨- تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل باشا (مجلد أول)
٩- تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل باشا (مجلد ثانى)
١٠- فتوح مصر وأخبارها
١١- تاريخ مصر الحديث مع فزلكة فى تاريخ مصر القديم
١٢- قوانين الدواوين
١٣- تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث
١٤- الحكم المصرى فى الشام
١٥- تاريخ الخديوى محمد باشا توفيق
١٦- آثار الزعيم سعد زغلول
١٧- مذكراتى
١٨- الجيش المصرى فى الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
١٩- وادى النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر البطاركة
٢٠- الجمعية الأثرية المصرية فى صحراء العرب والأديرة الشرقية
٢١- الرحلة الأولى للبحث عن ينابيع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
٢٢- السلطان قلاوون تاريخه - أحوال مصر فى عهده - منشآته المعمارية)
٢٣- صفوة العصر
٢٤- المماليك فى مصر
٢٥- تاريخ دولة المماليك فى مصر
٢٦- سلاطين بنى عثمان
٢٧- محمود فهمى النقراشى
٢٨- دور القصر فى الحياة السياسية
٢٩- مذكرات اللورد كيللرن
٣٠- عادات المصريين
٣١- خنقاوات الصوفية ج ١
٣٢- خنقاوات الصوفية ج ٢
٣٣- تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين
٣٤- تاريخ عمرو بن العاص
٣٥- دور القبائل العربية فى صعيد مصر
٣٦- علاقات الفاطميين فى مصر بدول المغرب
٣٧- عبد الرحمن الجبرتى ٥ أجزاء
٣٨- مصر فى العصر العثمانى فى القرن ١٦
٣٩- خطط المقريزى ٣ أجزاء (محققة منقحة فى ٢٧٥٠ صفحة)
٤٠- صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامى)
٤١- صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعى)
٤٢- سلار الأمير التترى المسلم
٤٣- مالية مصر
٤٤- الموسيقا الشرقية
٤٥- الدليل فى موارد أعالى النيل
٤٦- الموسيقى الشرقى
٤٧- النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-٢٠٠٠
٤٨- الكافى فى تاريخ مصر - ٤ أجزاء
٤٩- الملحمة المصرية فى عهد المماليك الجراكسة ورد الاعتبار
٥٠- تاريخ مصر الإسلامية فى زمن سلاطين بنى أيوب
٥١- مشرفة بين الذرة والذروة
٥٢- قادة الشرطة فى السياسة المصرية دراسة تاريخية وموسوعة شخصيات

MADBOULI BOOKSHOP — **مكتبة مدبولى**

6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١

تاريخ مصر الإسلامية
زمن سلاطين بنى أيوب

(٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ)

« زوال الخلافة الفاطمية والفِكْر الشيعى الإسماعيلى ، وعودة سيادة الخلافة العباسية على مصر ، والفِكْر السُنّى إليها ؛ وتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج ، لاسترداد بيت المقدس »

مكتبة مدبولى

العنوان : ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ - فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤
الكتاب : تاريخ مصر الإسلامى زمن سلاطين بن أيوب
تأليف : د. أحمد فؤاد سيد
رقم الإيداع : ١٥١٧٨ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى : 4 - 350 - 208 - 977

الطبعة الأولى : ٢٠٠٢

عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ & ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣ - فاكس : ٣٢٩١٤٩٧

(٥٠) صفحات من تاريخ مصر

تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بنى أيُّوب

(٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ)

« زوال الخلافة الفاطمية والفِكْر الشيعى الإسماعيلى ، وعودة سيادة الخلافة العباسية على مصر ، والفِكْر السُنّى إليها ؛ وتوحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج ، لاسترداد بيت المقدس »

تأليف

دكتور أحمد فؤاد سيد

جامعة عين شمس - كلية الآداب - قسم التاريخ

الناشر

مكتبة مدبولى

2002

الإهداء

إلى ابنتي دعاء، حفظك الله ورعاك،

ووهبك النجاح والتوفيق.

والدك

أحمد فؤاد سيد

المحتويات

الموضـــــــــوع	الصفحة

المقدمة

لاتزال المكتبة العربية الحديثة تفتقر إلى كتاب شامل مفصل موثق عن عصر سلاطين بنى أيوب ؛ رغم أهمية هذا العصر بين عصور مصر الإسلامة ، وارتباطه بتأصيل تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى ، وتاريخ فتوح الإسلام لمدينة القُدس .

وأهم ما يميز عصر سلاطين بنى أيوب ، هو توحيد الجبهة العربية الإسلامية لاسترداد القُدس من الفرنج ؛ وعودة سيادة الخلافة العباسية على مصر ، والفكر السنى إليها ؛ وإنزواء الفكر السياسى الإسماعيلى عنها .

وإذا كان تقى الدين المقريزى ، شيخ مؤرخى مصر الإسلامية المتأخرين ، قد حقق فى كتابيه : إتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، والمواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، صحة نسب الخلفاء الفاطميين ؛ فلا ريب أن من مفاخر مصر وفضائلها ، أنها شهدت قيام دولة الخلافة الفاطمية على أرضها ؛ والواقع أن هذه الدولة العلوية المنسبه الشريفة ، تُعَدّ من أعظم دول الإسلام ، وفى عهدها ، تحولت مصر إلى حاضرة دولة الخلافة الإسلامية ، وأصبح الخلفاء الفاطميون بمصر ، يزاحمون أبناء عمومتهم من خلفاء بنى العباس بالعراق ، زعامة العالم الإسلامى .

وهنا تجدر الإشارة ، إلى أن التشكيك والطعن فى نسب الخلفاء الفاطميين ، إنما جاءأولاً من قِبل دولة الخلافة العباسية المنافسة لها فى بلاد العراق ؛ ثم جاء ثانيًا من قِبل الدولة الأيوبية الموالية لدولة الخلافة العباسية ، التى استبطنت دولة الخلافة الفاطمية فى عصرها المتأخر ، وقامت على أنقاضها .

ولا يخفى أن حُبّ الشعب المصرى لآل البيت النبوى الشريف ، والعترة النبوية الشريفة ، قد استقوى بمصر واستمر إلى اليوم ، بسبب انحدار الخلفاء الفاطميين الذين اشتهروا بـ (المصريين) من النسل النبوى الشريف ؛ فضلاً أن مصر منذ العصر الأموى وطوال العصر العباسى ، قد عاش فيها بطون كثيرة من الأشراف والقُرشيين بصفة عامة ، ومن العلويين بصفة خاصة ، وخرج بها عدد كبير من الأئمة العلويين مطالبين بالخلافة ؛ على نحو ما تتبع ذلك المؤرخ أبو عمر الكندى فى كتابه ولاة مصر ، والمقريزى والقلقشندى فى كتبهم عن تاريخ القبائل العربية بمصر . بمعنى أن عددًا كبيرًا من آل البيت النبوى الشريف ، قد أحبوا مصر ، وعاشوا بها ؛ وأحبهم أهل مصر ، وتعلقوا بهم ، وشادوا لهم الأضرحة والمزارات ، وتبركوا بها ، مثل مشاهد : السيدة نفيسة ، والإمام الحسين ، والإمام زين العابدين ، والإمام الحسن الأنور .

ولكن بضعف دولة الخلافة الفاطمية فى عصرها المتأخر ، بسبب صغر سن الخلفاء ، واستبداد وزراء السيوف المفوّضين ، والانقسامات السياسية والمذهبية التى ألمت بالدعوة الإسماعيلية الفاطمية، ونجاح الفرنج فى احتلال القُدس وساحل الشام ، وعجز خلفاء الفاطميين الأواخر عن النهوض بفريضة الجهاد فى وجه الروم والفرنج ، وتتابع الأزمات الاقتصادية على مصر ؛ فقدت الدولة الفاطمية مبرر بقاءها ووجودها ، وتعيّن أن تقوم على أنقاضها دولة فتية قوية ، تسعى لجمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم ، لقتال الفرنج ، واسترداد القُدس وساحل الشام .

ومما لا شك فيه ، أن انقسام العالم الإسلامى منذ القرن الرابع الهجرى ، إلى خلافة عباسية سنية وخلافة فاطمية شيعية ؛ هو الذى أدّى إلى اختراق حركة الفرنج لبلاد الشام ، واستيلائهم على ساحله، واحتلالهم للقُدس .

***

ولم يغب عن خلفاء وسلاطين الإسلام الذين عاصروا حركة الفرنج للاستيلاء على بيت المقدس وساحل الشام ، أن الخِطّة المثلى ، والاستراتيجية العامة ، للتصدى لهذا الغزو ، واستئصال شأفته من بلاد الشام ، ترتكز على عِدّة محاور :

أولاً : توحيد مصر والشام والعراق فى قيادة مشتركة ، أو على الأقل فى تعاون مشترك ، لحصر الفرنج وإماراتهم ببيت المقدس وساحل الشام بين شِقّى الرّحى ؛ على نحو ما تَمّ ـ كما أفاد المقريزى فى كتابه اتعاظ الحنفا ـ بين السلطان نور الدين محمود زنكى ـ سلطان الشام والجزيرة الفراتية ـ ودولة الخلافة الفاطمية ، زمن وزارة الوزير الفاطمى العادل بن سلار ، ثم زمن وزارة الوزير الفاطمى الصالح طلائع بن رزيك ، ثم زمن وزارة الوزير الفاطمى أسد الدين شيركوه ، ثم زمن وزارة الوزير الفاطمى صلاح الدين الأيوبى ، ثم بعد إعلان صلاح الدين الأيوبى سقوط دولة الخلافة الفاطمية بمصر ، والدعوة بها للخليفة العباسى المستضىء بالله ، والسلطان نور الدين زنكى ولنفسه بعدهما .

وقد رَضى نور الدين زنكى ، رغم حماسه للمذهب السُّنّى ، أن يلبس خِلَعَ خلفاء الفاطميين الشيعة ، لتفويضه للنهوض بفريضة الجهاد ؛ ورضى شيركوه وصلاح الدين هذا الأمر أيضًا ، لنفس الهدف السامى ؛ وقَبل الخليفة الفاطمى العاضد الإستنجاد بنور الدين زنكى للحيلولة دون احتلال الفرنج لمصر ، ورحب بشيركوه وصلاح الدين ، وهما من قواد نور الدين ، لتمكنهما من ضبط

الدولة الفاطمية ؛ وصرّح الخليفة العاضد أنه مستعد للتضحية بملكه ودولة خلافته ، فى سبيل أن تظل مصر « إسلامية » ، ولا يحتلها الفرنج ؛ حكى ذلك كله المقريزى فى كتابه اتعاظ الحنفا .

ثانيًا : العناية بالأسطول المصرى بصفة خاصة ؛ الذى بقى طوال العصر الفاطمى ، وحتى بعد احتلال الفرنج لبيت المقدس وساحل الشام ، أقوى قوة بحرية إسلامية ضاربة ، تستطيع مواجهة أساطيل الفرنج والجمهوريات الإيطالية فى البحر المتوسط ، وتهديد إماراتهم فى ساحل الشام ، وعزلها عن إمداداتها القادمة عليها من وراء البحر من سواحل غرب أوروبا ، وجزر البحر المتوسط التى استولى عليها الفرنج ؛ وقد رَصَد المؤرخون (سبط ابن الجوزى ـ المقريزى) جهود الأسطول الفاطمى فى هذا المجال ، بعد احتلال الفرنج للقُدس سنة ٤٩٢ هـ ، وتكوين إماراتهم فى أنطاكية والرُّها وطرابلس وعكا (٤٩٠ هـ ـ ٤٩٥ هـ) ؛ وذلك إبان تولى الأفضل بن بدر الجمالى ، ثم العادل سلار ، ثم الصالح طلائع بن رزيك ، لوزارة التفويض والسيف لخلفاء الفاطميين الأواخر .

وفى ضوء هذا المحور الثانى ؛ ندرك الأهمية الكبرى لوصية شيركوه ، حين أحَسّ بدنو أجله ؛ بضرورة العناية بالأسطول المصرى ، كما حكى المقريزى فى اتعاظ الحنفا ، وهو الأمر الذى امتثله إبن أخيه صلاح الدين الأيوبى بعده ، فأفرد ديوانًا للأسطول ، وأوقف عليه أوقافًا وأحباسًا ، وعَهِدَ بالإشراف عليه ، وبنيابة ثغر الإسكندرية إلى أخيه الملك العادل أبى بكر بن أيوب ؛ وهو الأمر الذى تَفَهَّمَه بعد ذلك السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، حين بنى قلعة جزيرة الروضة فى بحر النيل ، لتكون قلعة وحصنًا له ولجيشه ، فى حالة تفكير الفرنج فى غزو مصر ، وفى نفس الوقت لتكون دار صناعة وقاعدة حربية بحرية للأسطول المصرى فى بحر النيل ، للدفاع عن مصر ، إذا ما حاول الفرنج غزوها بَرًّا وبحرًا .

وقد تجلّى بعد نَظَر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ـ الذّى عَدّه أبو المحاسن بن تغرى بردى أعظم سلاطين بنى أيوب بعد السلطان صلاح الدين ـ وحُسن تدبيره ، فى الانتصارات الحاسمة العظيمة ، التى حققها الأسطول المصرى على أساطيل الفرنج عند احتلالهم لدمياط سنة ٦٤٨ هـ فى معارك : المنصورة ، وفراسكور ، ودمياط ؛ إذ تمكن الأسطول المصرى بقيادة أمراء المماليك الصالحية البحرية ، من تحطيم أغلب أساطيل الفرنج التى حاولت تأمين احتلالهم لدمياط ، وأسر أغلب سفنها وأغلب مُقاتليها وبَحّارتها ؛ مما يشير إلى أن سبب تسمية المماليك الصالحية البحرية باسم «البحرية» :

وصيرورة هذا الاسم علمًا على دولتهم المماليكية الأولى بمصر ، هو تدربهم على القتال البحرى وقيادة الأساطيل البحرية ؛ وهو أمر تتوفر له قرائن كثيرة ، وسوف نفرد له بحثًا إن شاء الله .

وقد أفصح القاضى بهاء الدين إبن شداد فى سيرته للسطان صلاح الدين الأيوبى المسماه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، إن الخطة العامة لصلاح الدين فى قتال الفرنج واستئصالهم من ساحل الشام ، كانت فى استخدام الأسطول فى قطع وصول الإمدادات إليهم من غرب أوربا ، ثم استئصال شأفتهم من بلاد الشام ، ثم تتبعهم فى سواحل بلادهم وجزرهم فى قارة أوربا وجزر البحر المتوسط ؛ ذكر ذلك ابن شداد ، فى الفصل الذى أفرده لذكر حب السلطان صلاح الدين للجهاد .

هذا وقد أوضح أبو شامة فى كتابه الروضتين فى ذكر أخبار الدولتين النورية والصلاحية ؛ إن الخطة العامة لنور الدين وصلاح الدين للتعاون فى قتال الفرنج بالشام ؛ كانت تقضى بأن يقصدهم نور الدين من بلاد الشام من السهل والجبل ، ويقصدهم صلاح الدين من مصر ، من البرّ والبحر .

ويستخلص من أحداث العصر الأيوبى ، أن ثغر الإسكندرية ودار صناعته ، كانت قاعدة بحرية للأسطول المصرى المهاجم لإمارات الفرنج بساحل الشام ، ثم مهاجمة الجزر التابعة للفرنج فى البحر المتوسط وبحر إيجة (قبرص - أرواد - رودس - صقلية) ؛ وأن قلعة جزيرة الروضة ودار صناعتها ، كانت قاعدة بحرية للأسطول المصرى المدافع عن مصر أمام حملات الفرنج الهادفة إلى غزو مصر ؛ والجدير بالذكر أن الهروى السائح فى كتابه الإشارات إلى معرفة الزيارات ، ذكر أنه زار جزيرة صقلية ، بعد استرداد السلطان صلاح الدين الأيوبى للقدس سنة ٥٨٤هـ ، فناشده أهل صقلية المسلمون ، أن يخبر السلطان صلاح الدين برغبتهم أن يقوم بفتح صقلية ، واستردادها من الفرنج . وقد حاول سلاطين المماليك - تلامذة سلاطين بنى أيوب - إكمال وتنفيذ استراتيجيتهم الحربية البحرية ، فقاموا باستئصال الفرنج من ساحل الشام ، بإسقاط إمارة عكا ؛ كما قاموا أيضًا بفتح جزيرتى قبرص ورودس .

ثالثًا : جعل البحر الأحمر والقرن الأفريقى والخليج العربى والمحيط الهندى ، بحيرة إسلامية ؛ وذلك بهدف حماية بلاد الحجاز والحرمين الشريفين وجزيرة العرب ، من محاولات الفرنج تهديد قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ وذلك عن طريق قيام جبهة إسلامية موحدة ، ودولة خلافة إسلامية كبرى ، تضم بلاد العراق والشام والجزيرة الفراتية ومصر واليمن ؛ وعن طريق

القضاء على ممالك البجة والنوبة والحبشة المتعاونة مع الفرنج ، وإدخالها فى الإسلام ؛ وهو ما تم فى العصر المماليكى ، فى عهود سلطنات بيبرس وقلاوون وأولاده .

ولم يتأت تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة ، إلا بعد القضاء على الكيانات السياسية الشيعة الإسماعيلية فى بلاد الشام واليمن ، التى ألم بها الضعف والتفكك فى نهاية العصر الفاطمى ؛ بعد انقسام الدعوة الفاطمية بمصر ، إثر وفاة الخليفة الفاطمى المستعلى ، إلى مستعلية ونزارية ؛ وبعد تغلب وزراء السيوف المفوضين على خلفاء الفاطميين الأواخر ، والاستبداد بالسلطة دونهم .

وفى هذا ما يفسر الفتح الأيوبى الأول لليمن زمن صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٩هـ ، وإدخال بنى أيوب لكتب الفكر الأشعرى السنى إلى اليمن ، كما أفاد المؤرخ اليمنى يحى بن الحسين فى كتابه أنباء الزمن فى تاريخ اليمن ؛ وما يفسر فتح السلطان الصالح نجم الدين أيوب لليمن فى عهد سلطنته، وتلقبه بـ (ملك السند والهند واليمن) ، ونقشه هذه الألقاب على نقوشه الرسمية فى قبته ومدرسته الصالحية بمصر ، وغيرها .

لقد تحولت مصر ، منذ قيام الدولة الأيوبة بها (٥٦٧هـ) ، من دار خلافة ، إلى ولاية استيلاء تابعة للخلافة العباسية ؛ ولكنها سرعان ما تبوأت فى ظل سلاطين بنى أيوب ، مكانة لا تقل أهمية عمّا كانت عليه فى ظل الخلافة الفاطمية ؛ وذلك لميراثها للخلافة الفاطمية بمصر (٥٦٧هـ) ، واليمن (٥٦٩هـ) ، والحجاز (٥٦٩هـ) ؛ وللسلطنة الزنكية بالشام (٥٦٩هـ ٥٧١هـ) ، والجزيرة الفراتية (٥٧٧هـ) ؛ ولنجاحها فى ضم القيروان ، من ممتلكات الخلافة الموحدية بالمغرب (٥٦٨هـ - ٥٨٣هـ) ؛ وضم إقليم أرمينية الإسلامية ، وهى بلاد خلاط وميافارقين ونواحيهما (٥٧١هـ - ٥٨١هـ) ، وهو إقليم لم يخضع من قبل للخلافة الفاطمية ، وتم ضمه إلى مصر ، لأول مرة فى تاريخها الإسلامى ، على يد الأيوبيين .

وعلى يد الأيوبيين أيضًا ، تمت موجة جديدة من الفتوحات الإسلامية ؛ فغزا الأيوبيين مملكة النوبة المسيحية (٥٦٨هـ) ، ومملكة أرمينية المسيحية (٥٧١هـ) ؛ وحققوا أعظم انتصاراتهم الحربية بتصديهم لجهاد الفرنج بالشام ، واسترداد بيت المقدس من أيديهم (٥٨٣هـ) ؛ وقد كلّل الأيوبيون جهودهم فى إعلاء شأن مصر ، بأن عقدوا حلفًا مع الإمبراطورية البيزنطية (٥٨٥هـ) ، يقضى بعزلها عن تأييد الحركة الصليبية ، وإعلان الخطبة بالمسجد الجامع بمدينة القُسطنطينية عاصمة البيزنطيين ، للخليفة العباسى ، وسلطان مصر (٥٨٦هـ) ؛ كما وقع سلاطين بنى أيوب (صلاح

الدين ـ العادل الأول ـ الكامل ـ الصالح نجم الدين أيوب) معاهدات مشروطة مع الجمهوريات الإيطالية التجارية (بيزا ـ البندقية ـ جنوه) ، قضت بعزل هذه الجمهوريات عن الحركة الصليبية ، وبيعها السلاح والعبيد المسيحى والمواد اللازمة لصناعة السفن لسلاطين بنى أيوب والمسلمين ، دون الفرنج ، وهو ما يمثل خيانة صريحة من هذه الجمهوريات للحركة الصليبية وللبابوية الكاثوليكية .

***

والواقع ، أن دولة الخلافة الفاطمية ، كانت أعظم دول الإسلام التى حكمت مصر ؛ وناهيك دليل على ذلك كتاب إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزى شيخ وكبير مؤرخى مصر الإسلامية ، والدلالة الواضحة لعنوان كتابه فى هذا الصدد ؛ والمجلد الضخم والأجزاء المطولة التى أفردها وخصصها المقريزى للحديث عن تاريخ الخلفاء الفاطميين بمصر ونظمهم ورسوم دولتهم والاحتفالات والأعياد والمواسم الدينية والقومية والوطنية التى ازدهرت بمصر فى عصرهم ، فى كتابه الخطط ، نقلاً عن مؤرخى العصر الفاطمى نفسه مثل ابن زولاق والقُضاعى والمسبحى وابن المأمون وابن الطوير وغيرهم ؛ لنقف على مدى الإزدهار السياسى والثقافى والحضارى والاقتصادى والاجتماعى ، الذى شهدته مصر وشهده شعب مصر ، فى ظل هذه الدولة الإسلامية العُظمى ، دولة الخلافة الفاطمية ؛ وهذا الاهتمام بتاريخ الدولة الفاطمية ، فى مؤلفات المقريزى ، لم تحظ به أى دولة إسلامية أخرى حكمت مصر ؛ وهذا ما نلمسه أيضًا فى موسوعة صبح الأعشى للقلقشندى ، عند حديثه عن رسوم المكاتبات الفاطمية .

والمعروف ، أن أجمل رسوم وعادات وتقاليد الاحتفالات والأعياد والمواسم الدينية الباقية بمصر إلى الآن ؛ سواء فى الأعياد الدينية (عيد الأضحى ـ عيد الفطر ـ رمضان) ؛ أو الأعياد القومية (وفاء النيل ـ شم النسيم) ، وما يصاحبها من مأكولات جميلة شهية ، يرجع أغلبه إلى عصر الخلافة الفاطمية؛ بدليل أننا لا نجد هذه الاحتفالات والعادات والتقاليد ، فى البلاد العربية والإسلامية التى لم يمتد إليها النفوذ السياسى لدولة الخلافة الفاطمية .

وليس أدلّ على حُبّ الشعب المصرى لدولة الخلافة الفاطمية ، واعتزازه بها ؛ لأنها قامت على يد آل البيت النبوى من العِترة النبوية المطهرة ، من تردُّد صلاح الدين الأيوبى فى إعلان سقوطها ، وإسقاط اسم الخليفة الفاطمى العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر من الخطبة الجامعة على المنابر ؛ رغم الإلحاح المتكرر لنور الدين زنكى بسرعة إنجاز هذا الأمر ، والخطبة للخليفة العباسى على منابر

مصر ؛ حتى أن صلاح الدين الأيوبى لم يجرؤ على إتمام هذه الخطوة الأخيرة فى إعلان سقوط الخلافة الفاطمية بمصر ، إلاّ بعد إرسال نور الدين زنكى له أباه نجم الدين أيوب ، ليتولى بنفسه إعلان هذا الأمر الجلل ، وليجد فيه صلاح الدين المشجع والسند والمشير والمُوَجِّه ؛ وعَلَّلَ صلاح الدين لنور الدين إحجامه وتردده فى إعلان زوال الخلافة الفاطمية بمصر ، بخوفه من انتفاضة المصريين وثورتهم عليه .

وأفصَحَتّ الثورات ومحاولات الانقلاب المتكررة على صلاح الدين الأيوبى ، أول استقلاله بالحكم بمصر ، على مدى حُبّ المصريين للدولة الفاطمية ، وولائهم لها ، وتعلقهم بها ؛ والذكريات الجميلة التى حملوها واحتفظوا بها لهذه الدولة ، حين كانت فى أوج مجدها وقِمّة ازدهارها ، ومنتهى نفوذها وسطوتها وقوتها ؛ وهى ثورات وانقلابات عديدة ، لم تقتصر على مدينة القاهرة ، بل تعدتها إلى مدينة الإسكندرية ، ومدن صعيد مصر .

وَوَشَتّ تصرفات سلاطين بنى أيوب أنفسهم عن اقتناعهم الشخصى الداخلى بصحة نسب الخلفاء الفاطميين ، وآل البيت الفاطمى ؛ فنجد أن صلاح الدين الأيوبى ، وخلفاءه من سلاطين بنى أيوب ، كانوا يتورعون عن قتل آل البيت الفاطمى ، ويكتفون بسجنهم أو نفيهم بعيدًا عن مصر ، حتى لو اتضح أنهم حاولوا بالفعل قلب نظام الحكم الأيوبى ، وإعادة الخلافة الفاطمية .

وإذا كان بعض كبار مؤرخى العصر المماليكى مثل أبى العباس القلقشندى فى كتابه مورد اللطافة ، قد ألمح إلى ترجيحه صحة نسب الفاطميين ؛ فإن الحافظ المؤرخ شمس الدين السخاوى قد تجاهر فى كتابه استجلاب ارتقاء الغُرّف بحب أقرباء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذوى الشرف، بحبه لمن عاش بمصر من العترة النبوية ، وأشاد بكثرة أسانيد آل البيت بمصر التى وصلت إليه، واحتفظت بها مصر فى العصر الفاطمى ؛ وفى نفس الوقت ، راح حفاظ ومؤرخو مصر فى العصر المماليكى ، يستعيضون عن عدم إظهار مودتهم لدول الخلافة الفاطمية ، ـ مجاملة لسلاطين بنى أيوب ولتلامذتهم سلاطين المماليك ـ بالتأليف بكثرة تمثل ظاهرة ثقافية ، عن فضائل ومناقب آل البيت النبوى والعترة النبوية الشريفة .

ولكن رغم الحب الدفين الذى أخفاه مؤرخو العصر الأيوبى والمماليكى للخلفاء الفاطميين ، لكونهم من نسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؛ فقد أجمعوا على أن الله سبحانه وتعالى ، قد أعان السلطان صلاح الدين الأيوبى وأيده ، فى القضاء على دولة الخلافة الفاطمية ، بعد أن ألم بها

الضعف نتيجة لسلبيات الفكر السياسى الشيعى الإسماعيلى ، وأصبحت غير قادرة على توحيد العالم الإسلامى ، والنهوض بفريضة الجهاد ؛ بل أصبحت حتى غير قادرة على حماية الديار المصرية ذاتها من أخطار غزو الفرنج لها فى عُقر دارها .

***

وقد حقق تقى الدين المقريزى ، وهو شريف حسينى ، يشارك الفاطميين فى الانتساب إلى العترة النبوية الشريفة ، فضلاً عن إعجابه الشديد بتاريخ الدولة الفاطمية ـ ؛ حقق المقريزى ، أن جميع النظريات السياسية الفاطمية الإسماعيلية ، التى غَلّتْ فى ذات الخليفة الفاطمى والأئمة الفاطميين ، غريبة عن الإسلام ؛ وأن أصلها يرجع إلى آراء الفرقة السبأية من غُلاة الشيعة ، الذين نسبوا إلى عبد الله بن سبأ ، وهو أحد مسالمة اليهود ، ممن أبطنوا اليهودية وتظاهروا بالإسلام ، وادّعى ألوهية الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فأعلن الإمام على تبرؤه منهم ، وتكفيره لهم ؛ كما حقق المقريزى أيضًا أن جانبًا آخر من النظريات السياسية الفاطمية ، يرجع إلى مذاهب الشعوبية من مسالمة الفرس ، الذين أبطنوا المجوسية .

وقد قصد دُعاة الفاطميين ، من وراء هذه النظريات السياسية ، تقوية مبدأ « الولاية » أى الطاعة لأئمة الفاطميين ، وإعلاء شأن خلفاء الفاطميين على خلفاء بنى العباس المنافسين لهم فى الخلافة والسيادة على العالم الإسلامى ؛ وهذا ما حققه محمد كامل حسين فى كتابيه : « الأدب المصرى فى العصر الفاطمى » و « دراسات فى الشعر الأيوبى » ، وفسّر به نظريات وعقائد الشيعة الإسماعيلية فى القول بعصمة الأئمة ، وميراثهم للعلم اللدنى ، والقول باستتار الأئمة ورجعتهم ، وكون الإمام الفاطمى ، هو المجتهد المطلق فى الشريعة الإسلامية .

ولم يستطع الفاطميون بعد قيام خلافتهم فى إفريقية التونسية وبلاد المغرب ، ثم انتقالها إلى مصر واستقرارها بها ؛ أن يتراجعوا عن هذه النظريات السياسية الغريبة عن الإسلام ، بعد أن استقرت فى نفوس وأذهان وقلوب العوام من أنصار وأتباع دولتهم ، وأصبحت من محاور الدعاية الفاطمية ، لإعلاء شأن الخلفاء الفاطميين على شأن أبناء عمومتهم من خلفاء بنى العباس بالعراق .

***

والجدير بالإلتفات والتأمل والتدبر ، أن علوم الحديث والسُّنة ، ظلت مزدهرة وفى نماء وتطور ونضوج دائم فى العصر الفاطمى ؛ رغم تشدد الفكر السياسى الإسماعيلى الفاطمى فى عدم قبول الأحاديث والأخبار عن غير أئمة الشيعة ومن غير آل البيت النبوى ؛ ونقده وتجريحه لغير أئمة الشيعة وغير آل البيت من حفظة ورواة الحديث .

وقد ترجم لوفيات النقلة من نقلة العلوم الدينية النقلية السمعية الشرعية ، وحُفّاظ الحديث ورواته ، الذين عاشوا بمصر فى عصر الخلافة الفاطمية ، عالمان من علماء الجرح والتعديل المصريين من أهل السّنة ، وهما : ابن الحَبّال ، وابن الطحان ، ولكل منهما كتاب فى الجرح والتعديل ونقد رجال الحديث وصل إلينا مطبوعًا .

أما من أدرك من حفاظ ومحدثى مصر العصر الأيوبى ، وعاصر الدولتين الفاطمية والأيوبية ، فقد ترجم لهم الحافظ ابن نُقطة فى كتابه وفيات النقلة ، والحافظ المُنذرى فى كتابه التكملة لوفيات النقلة .

ولم يُجبر الخلفاء الفاطميون المصريين من العامة أو العلماء والخاصة ، على الالتزام بالفكر السياسى والكلامى الإسماعيلى الفاطمى ؛ وظل تدريس كتب الدعوة الفاطمية الإسماعيلية مقتصرًا على دار الحكمة وعلى الجامع الأزهرى ؛ أما بقية جوامع ومساجد مصر ، فلم يُلزم خلفاء الفاطميين أئمتها وخطباءَها وعلماءَها بتدريس الفكر الفاطمى وكتب الدعوة الإسماعيلية ، وتركوا لهم حرية الفكر والتدريس .

ولم يمانع الخلفاء الفاطميون فى إسناد منصب قاضى القُضاة لبعض العلماء السّنيين الشافعية ، مثل القاضى مجلى ؛ على نحو ما أفاد السيوطى فى كتابه حُسن المحاضرة عند ذكره لقُضاة مصر ، وعلى نحو ما أسهب السبكى فى كتابه طبقات الشافعية عند ترجمته للقاضى مجلى ، من التنويه برحابة صدر الخلفاء الفاطميين وتقديرهم الكبير لفقهاء أهل السنة بمصر فى عهد خلافتهم .

ولقد حافظ الجامع الأزهر ـ بعد تحوله فى العصرين الأيوبى والمماليكى إلى جامعة إسلامية سنّية ؛ نتيجة لهجرة علماء الفسطاط السنة إلى القاهرة بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ ، ومجاورتهم بالجامع الأزهر ، وتوليهم التدريس به ـ ؛ على اتصال سند الرواية فى العلوم الدينية الشرعية النقلية ، رواية ودراية ، بين أهل مصر بصفة خاصة وأمة الإسلام بصفة عام ، وبين رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) ، عن طريق من شهد فتح مصر ونزلها واستطونها من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وروى عنه وتفقه به أهل مصر .

ولقد شهد العصران الأيوبى والمماليكى بمصر والشام ، نهضة كبرى فى علوم الحديث ، كان من أعلامها أئمة وحفاظ من أعلام الإسلام ، تركوا مصنفات كثيرة ضخمة فى علوم السنة النبوية المشرفة ، والفقه الإسلامى ، لا تزال إلى اليوم تُعَدّ من عيون التراث الإسلامى ، وأمهات المصنفات الإسلامية ، ومن هؤلاء الأئمة الأعلام : محى الدين النووى ، وابن الصلاح الكردى ، وتقى الدين المنذرى ، وابن حجر العسقلانى ، وشمس الدين الذهبى ، وابن كثير ، وشمس الدين السخاوى ، وجلال الدين السيوطى ، وبدر الدين العينى ، والقطب القسطلانى ، والزين العراقى ، وأبو زكريا الأنصارى ، وابن دقيق العيد ، والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية ، وابن القيم الجوزية .

* * *

وما أحرانا اليوم ، ونحن نستقرىء عِبَرّ التاريخ ، أن نُشيد بأهمية الجهود الصادقة المؤثرة الفعالة ، التى بذلها علماء الإسلام المحدثون من علماء الشيعة وعلماء السنة على حَدّ سواء ، لتبنى فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية ؛ وهى دعوة لها تاريخها الراسخ بين مصر وإيران ، منذ الثلاثينيات من القرن العشرين ؛ بذل خلالها علماء الأزهر جهودًا فقهية عظيمة ، حمل لواءها أعلام من شيوخ الأزهر ؛ كان فى مقدمتهم الشيخ محمود شلتوت (شيخ الجامع الأزهر آنذاك) ، والشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ عبد العزيز عيسى ، وغيرهم من مصر ؛ ومن أئمة الشيعة فى إيران ، آية الله القُمّى ، وآية الله البروجردى .

وقد أفتى الشيخ محمود شلتوت بجواز التعبد بالمذاهب الإسلامية المختلفة ، وكانت له علاقات علمية ومراسلات مع آية الله البروجردى وسائر علماء الشيعة .

وكانت مصر هى المهد الذى ولدت فيه فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، لنبذ الخلافات وتوحيد كلمة المسلمين وتأليف قلوبهم ؛ وكانت مصر أيضًا هى التى احتضنت الفكرة ورعاها أزهرها وعلماؤه ؛ ومن ثَمّ ظهرت هيئات ، وصدرت مجلات ، وانعقدت مؤتمرات ، حَقّقتّ للأمة الإسلامية أجَلّ الخدمات والفوائد ، وقَلّصَتّ خلافاتها ؛ وكَرّست هذه الهيئات والمجلات والمؤتمرات جهودها ، فى مساحة الاتفاق بين المذاهب الإسلامية ، وهى مساحة واسعة تبلغ ٩٥٪ تقريبًا ؛ ونَأَتّ

عن النبش في المسائل الخلافية ، التي تمثل الـ ٥٪ الباقية ؛ تاركة ذلك لمزيد من الاجتهاد ، وإيراد الأدلة التي تُطمئن كل طرف على صواب ما يعتقد .

وإذا كانت فكرة التقريب تلك ، قد نشأت للمرة الأولى ، إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية في الأربعينيات من القرن العشرين ، وكانت بمثابة رَدّ فعل لها ، وحاجة المسلمين الماسة آنذاك إلى نبذ خلافاتهم والدخول كقوة بارزة إلى عالم ما بعد الحرب ؛ فإن فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية اليوم ، تأتي في وقت تشتد فيه الحاجة إلى تآلف المسلمين وتقاربهم ، ووحدة صفوفهم ؛ وهي الوحدة التي تحاربها قوى الغرب ، وتبذل كل جهودها للحيلولة دونها .

والجامع الأزهر الشريف ، هو المؤسسة الوحيدة في العالم الإسلامي ، القادرة على جمع كلمة المسلمين ؛ وقد حقق الجامع الأزهر التقارب بين المذاهب الإسلامية ، عندما أجاز تدريس جميع المذاهب الفقهية ، ضمن البرامج التعليمية في المعاهد الأزهرية وجامعة الأزهر ، وتقديمها في حيدة تامة ، وموضوعية كاملة .

وحين تَمّ تأسيس جماعة التقريب سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٧م ، وافتتحوا دار التقريب بالقاهرة وطهران ، انعقد عزم الجماعة على إصدار مجلة : (رسالة الإسلام) ؛ وصَدّروها بالبيانات التي تُشير في مجملها إلى ضرورة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، إنطلاقًا منها إلى الوحدة الإسلامية .

وكانت مجلة (رسالة الإسلام) ، تنشر الفكر التقريبي بين المسلمين ، وتجمع العلماء على صعيد الحوار العلمي في مختلف المجالات . كتب فيها كبار علماء الشيعة ، من أمثال : الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ، والشيخ محمد رضا الشبيبي ، والسيد صدر الدين شرف الدين ، والسيد هبة الله الشهرستاني ، والشيخ محمد تقي القُمّي ، ومحمد صادق الصدر ، وغيرهم . وكبار علماء السُّنّة ، من أمثال الشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ محمود شلتوت « وكلاهما من أئمة الأزهر وشيوخه » ، والشيخ محمد محمد المدني « رئيس تحرير المجلة » ، والشيخ محمد أبو زهرة ، والدكتور محمد البهي ، والأستاذ محمود فياض ، والشيخ محمد على علوبة باشا ، والشيخ محمد عبد الله دراز ، والشيخ عبد المتعال الصعيدي ، والأستاذ محمد فريد وجدى ، والأستاذ أحمد أمين ، والأستاذ على عبد الواحد وافي ، والأستاذ عباس محمود العقاد ، وغيرهم كثير .

ولقد صدر العدد الأول من مجلة رسالة الإسلام ، في ربيع الأول سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م ؛ وتواصلت تصدر كل ثلاثة أشهر ، وتعثرت في الصدور بعض الأعوام ، وصدر عددها الستون

والأخير فى رمضان ١٣٩٢هـ أكتوبر ١٩٧٢م ؛ ومجموعة ما تضمنته من مقالات ودراسات وأخبار، يشكل سفرًا مهمًا من أدبيات التقريب فى عالمنا المعاصر ؛ إذ أن المجلة انفتحت على كتاب أهل السُّنة والشيعة ، وانعكست فيها مسيرة دار التقريب ، ومسيرة التقريب فى العالم الإسلامى ؛ ومن هنا فإنها تشكل رصيدًا مهمًا للتقريب ، ومعلمًا لمسيرته .

ولا يغيب عن بالنا ، ونحن بصدد بيان أهمية دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، فى توحيد أمة الإسلام ؛ إن أساس الخلاف بين الشيعة وأهل السنة ، كان بسبب قصر الشيعة أحقية الخلافة على الإمام على وذريته ؛ وهو خلاف سياسى محض ، لا داعى له ، ولا وجه له اليوم ، بعد نجاح الدول الأوروبية فى إسقاط دولة الخلافة الإسلامية فى مطلع القرن العشرين ؛ وقد أفاد الدكتور محمد كامل حسين ، أنه قرأ كتاب دعائم الإسلام للقاضى النعمان بن حيون داعى دعاة الفاطميين ، وهو كتاب فى فروع الفقه ، فوجده يتطابق مع الفقه المالكى .

وبعد ، فإن دراستنا هذه عن جهود سلاطين بنى أيوب فى توحيد الجبهة العربية الإسلامية لاسترداد القُدس من الفرنج ، وإعادة الفكر السنى والشعائر السنية إلى مصر ؛ تمثل الجزء الأول من سلسلة دراسات عن عصر سلاطين بنى أيوب ، تتناول هذا العصر الحيوى الهام من شتى جوانبه ، مع التركيز على تاريخه السياسى ، والسياسة الخارجية والداخلية لسلاطين بنى أيوب ، ونظم الحكم والإدارة فى دولتهم ، والحياة الثقافية والاجتماعية فى عصرهم ؛ وأدعو الله أن يمتعنا بالصحة والعافية ، ويوفر لنا الأسباب ، لإصدار هذه الدراسات ، التى من شأنها إجلاء حقائق تاريخية هامة عن عصر سلاطين بنى أيوب بصفة خاصة ، وعن تاريخ مصر الإسلامية بصفة عامة .

والله ولى التوفيق ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

دكتور / أحمد فؤاد سيد

الفصل الأول

توحيد الجبهة العربية الإسلامية ضد الفرنج ، لاسترداد القُدس ، تحت لواء دولة الخلافة العباسية ، بين نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى

لم يشهد التاريخ الإسلامى ، وضعًا سياسيًا شرعيًا ، بلغ أوج التداخل والتشابك بل والتناقض ، مثلما كانت عليه حال مصر الإسلامية ، غداة ارتقاء صلاح الدين لوزارة التفويض الفاطمية ، خلفًا لعمه الراحل شيركوه . إذ أضحى صلاح الدين وزيرًا سنيًا للخليفة الفاطمى الشيعى ، يتلمس الأسباب للإطاحة بخليفته ، والقضاء على دعوته واجتثاث جذور التشيع من مصر ؛ وفى نفس الوقت، آل إليه ملكًا وراثيًا طابعه الاستبداد ، عن عمه شيركوه ، يسانده فيه ولاء الجنود الشوام النورية له لكونه قائدهم ، وتعصب القوات الكرديه فى الجيش الشامى له لكونه من أرومتهم ؛ وفوق هذا وذاك كان صلاح الدين نائبًا فى ولاية مصر ، عن أقوى السلاطين السنيين بالمشرق الإسلامى آنذاك ، نور الدين زنكى ، الذى ورث عن السلاجقة مهمة الانتصار للمذهب السنى ، وإعلان الدعوة لبنى العباس على منابر ديار الإسلام ، التابعة للخلافة الفاطمية الشيعية .

فبعد تولى صلاح الدين لوزارة العاضد « رسخ ملكه ، والخُطبه مع ذلك على المنابر بالديار المصرية للخليفة العاضد ، وبعده للملك العادل نور الدين » فالملك فى الظاهر له ولا يتصرف صلاح الدين إلا عن أمره »[(١)] ، فكان « نائبًا عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين فى البلاد كلها »[(٢)] ، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الاسفهسلار ، ويكتب علامته فى الكتب تعظيمًا ، أن يكتب اسمه ، ولا يفرده فى كتاب بل يكتب : الأمير الإسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا[(٣)] .

---

(١) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٨ .

(٣) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، أبو شامة الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٨ ، واسفهسلار كلمة مكونة من لفظين ، أحدهما فارسى ، وهو « اسفه » ، ومعناه المقدم ، والثانى تركى وهو « سلار » ومعناه العسكر ، فكأن معناهما : « مقدم العسكر » ، أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٤٨٣ ، و ج ٦ ، ص ٧ ، ص ٨ .

ونحن لا نميل إلى الآراء التى رددها عز الدين بن الأثير - مؤرخ البيت الأتابكى - فى كتابيه الكامل فى التاريخ ، والباهر فى تاريخ الدولة الأتابكية ، ونقلها عنه عدد من المؤرخين ؛ وفحواها أن صلاح الدين لم يكن وفيًّا لأستاذه نور الدين ، بل كان يجتهد منذ استقرار نفوذه فى مصر ، إلا الاستقلال عنه ، ومزاحمته السيادة السياسية ببلاد الشام ، فكل هذه الأراء[1] ، كتبها ابن الأثير بعد وفاة صلاح الدين ، واضطرار صلاح الدين إلى الخروج على رأس عساكره إلى بلاد الشام ، وضم ممتلكات أستاذه نور الدين بها إلى ممتلكاته بمصر ؛ إذ أن خروج صلاح الدين إلى الشام كان من أجل إعادة الجبهة العربية الموحدة ، التى كان عماد الدين زنكى ثم ابنه نور الدين قد أجهدا نفسيهما طويلاً فى تكوينها ؛ وكانت بعد وفاة نور الدين على وشك أن تنفصم ، بعد انقسام البيت الزنكى ، حزب فى دمشق ، وحزب فى حلب ، ولم يتسطع ابنه الطفل الصالح إسماعيل إعاد توحيد مملكة والده[2] ؛ ولقد كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسى[3] ، وإلى ابن نور الدين ، يخبره أن خروجه للشام ؛ هو لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج[4] .

وأغلب الظن أن هذه الأقوال التى رددها ابن الأثير ، ونقلها عنه بعض المؤرخين بخصوص عدم ولاء صلاح الدين للبيت الزنكى ، والروايات التى قيلت حول هذا الموضوع ، قد صاغها المؤرخون

(١) مال إلى ترجيح هذه الأراء ، والأخذ بها الأستاذ على بيومى ، على أساس انها تؤيد رأيه بخصوص طموح الأسرة الأيوبية فى تكوين ملك وراثى لها منذ أن كانت فى قلعة تكريت ، ثم فى خدمة الدولتين البورية والزنكية ، أنظر على بيومى : قيام الدولة الأيوبية ، ص ١٤٧ - ١٩٨ . ولكن يجب ألا يفوتنا أن نور الدين نفسه ، قد أعد صلاح الدين وعائلته ليكونوا نوابه فى مصر ، وباقى ما يفتح من ممتلكات الخلافة الفاطمية الشيعية البائدة سواء فى اليمن أو المغرب . وإن تدَخُّل نور الدين فى مصر إبان نيابة صلاح الدين عنه فى حكمها ، مثل إرساله وزيره إبن القيسرانى ، لكشفها ومراجعة حساباتها ، كان نوع من الإشراف الإدارى ، الذى مارسه نور الدين على نائبه بمصر . أنظر خبر كشف إبن القيسرانى للديار المصرية وارتفاعها ٥٦٨هـ - ٥٦٩هـ ، ثم تحديد القطيعة المالية التى يدفعها صلاح الدين إلى نور الدين رمزًا لتبعيته ، عند المقريزى : السلوك ج ١ : ٥١ - ٥٢ ، أبو شامة : الروضتين ١ : ق ٢ ، ص ٥٢٥ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٢) انظر ابن الأثير : الباهر ، ص ١٦٢ - ١٦٣ ، ١٨١ - ١٨٤ ، ابن واصل : مفرج، ج ٢ ، ص ١ - ١٠.

(٣) أنظر قبله .

(٤) يقول سبط ابن الجوزى : أن صلاح الدين كتب إلى الملك الصالح بن نور الدين كتابًا يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ، ويقول : إنما جئت من مصر خدمة لك ولؤأدّى ما يجب من حقوق المرحوم فلا تسمع ممن حولك فتفسد أحوالك وتختل أمورك ، وما قصدى إلا جمع كلمة الإسلام على الفرنج ، سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .

ـ وعلى رأسهم ابن الأثير ـ لتعليل مسلك صلاح الدين بعد موت أستاذه كان الدافع وراءها ولاء ابن الأثير للبيت الزنكى ، من ناحية ، ثم عدم تعاطفه مع صلاح الدين ، الذى قضى على هذا البيت وممتلكاته من ناحية أخرى ، خاصة وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن ابن الأثير ، قد تحامل على صلاح الدين ، فى تاريخه الكامل والباهر ، وتلمس له مواضع الزلل ، وأسباب الخطأ[1] ، ويرجح ما ذهبنا إليه ، أن أغلب هذه الأقوال ، حاولت استقراء ما فى نفس نور الدين وصلاح الدين ، كل منهم ناحية الآخر ، ولايعلم خفايا الأنفس والقلوب إلا الله[2] .

لهذا فنحن نؤيد ما ذهب إليه بعض مؤرخى صلاح الدين[3] ، وأيده بعض المؤرخين المحدثين[4] ، من أن صلاح الدين ، ظل يأتمر بأمر نور الدين ولا يخرج عنه ، حتى وفاة نور الدين .

لقد لاحظ العماد أن صلاح الدين كان « لا يخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوى الأمين ، ويرجع فى جميع مصالحه إلى رأيه المتين[5] ، أما أبو شامة ، فقد عمد إلى تفنيد اتهامات إبن الأثير لصلاح الدين بخصوص خروجه عن طاعة نور الدين ، وفى رأى أبى شامة ، أن نور الدين لم ينتقد على صلاح الدين إلا إسرافه فى تفريق الأموال وصرفها واستبداده بذلك من غير مشاورته[6] ، ويؤكد أبو شامة رأيه ، بوثيقة وقف عليها بنفسه ، بخط نور الدين ، يقرر فيها للقاضى شرف الدين بن أبى عصرون ، الذى تولى القضاء له بالشام ثم لصلاح الدين بمصر ، إعجابه الشديد بما قام به صلاح الدين من نصره المذهب السنى بمصر ، والقضاء على الدولة الفاطمية ، والمذهب الشيعى ، ويطلب من أبى عصرون مساندة صلاح الدين ، فى هذا الأمر الجلل[7] .

---

(١) راجع عباس العزاوى : التعريف بالمؤرخين فى عهد المغول والتركمان ، ص ٣٨ - ٤٩ .

(٢) أنظر تفاصيل الأزمة السياسية بين الملك العادل نور الدين ، وبين صلاح الدين نائبه بمصر سنة ٥٦٧هـ ، ولقد سماها ابن الأثير « الوحشة بين صلاح الدين ونور الدين » وعنه أخذ أغلب المؤرخين هذه التسمية ، أنظر ابن الأثير : الباهر ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ١ : ق ٢ ، ٤٤١ - ٤٤٣ ، ص ٥٠٣ .

(٤) أنظر جمال الشيال : مصر الإسلامية ، ص ٣١ - ٣٩ فى فصل طريف بعنوان : حقيقة العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٣ ، س ١ - س ٢ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٤٤١ .

(٧) راجع نص هذه الوثيقة ، نفس المصدر ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

والواقع أن جميع الخطوات الحاسمة ، التى اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية بمصر ، والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بها ، جاءت بأمر مباشر من نور الدين ، ولم تتم إلا بعد أن وصل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين من طرف نور الدين إلى مصر ، ليباشر بنفسه تنفيذها[١] ، بل إن صلاح الدين ظل مترددًا فى قطع الخطبة للفاطميين بمصر ، حتى سنة ٥٦٧هـ ، خشية انتفاض شيعتهم بها ، حتى ألزمه نور الدين بذلك إلزامًا[٢] ، وقام نور الدين بنفسه بإرسال بشارة الخطبة لبنى العباس بمصر إلى الخليفة العباسي[٣] ، فكان نور الدين هو « الآمر » ، وصلاح الدين هو « المباشر »[٤] بل يعلق أبو شامة على الخطبة لبنى العباس بمصر ، وانقراض الدولة الفاطمية بقوله : « واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه ، وكلهم من قبل نور الدين رحمه الله ، هم أمراؤه وخدمه وأصحابه »[٥] .

وليس أدل على التبعية الكاملة لصلاح الدين تجاه نور الدين ، وكونه نائبًا عنه فى حكم مصر ، من كونه كان يخطب له على المنابر فى أرجاء الدولة الفاطمية ، إبان وزارته للخليفة الفاطمى العاضد[٦] ، وأثر نقل الخطبة للعباسيين ، كان الخطيب بمصر وأعمالها ، يدعو لنور الدين بعد الخليفة[٧] ، وقُرِّرت السكة باسم المستضىء بأمر الله وباسم الملك العادل نور الدين ، فَنُقِشَ إسمُ كل منهم فى وجه[٨] ، وكان مجىء ابن القيسرانى وزير نور الدين إلى مصر سنة ٥٦٨ - ٥٦٩هـ - لكشف البلاد ، وإرتفاعها ، ومراجعة حساباتها ، لتقرير القطيعة أو الوظيفة السنوية التى يدفعها صلاح الدين لنور الدين[٩] ، أمرًا طبيعيًا يؤكد تبعية مصر لنور الدين ؛ ولم يكن استغراب صلاح الدين لهذا العمل بقوله : « إلى هذا الأمر وصلنا » ، إلا لكون هذا قد يشكك فى نزاهته وزمّته لو كان قام بنفسه برفع تقرير إرتفاع مصر إلى نور الدين ، دون مجىء إبن القيسرانى ، خاصة وإن الوزير الفاطمى شاور ، كان

(١) أنظر قبله ، الفصل الأول الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية بمصر ، والفصل الثانى الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر ونشر الفكرة الأشعرية السنية بها .

(٢) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٤٨٨ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٩ ، وانظر قبله.

(٣) نفس المصدر ، ص ٥٠٢ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٥٠٩ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٤٠٨ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، أنظر قبله .

(٧) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ص ٨ وأنظر قبله .

(٨) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥ ، وأنظر قبله .

(٩) أبو شامة : الروضتين / ١ : ق ٢ ص ٥٢ ، ابن واصل : مفرج ج ١ : ٢٥٧ - ٢٥٨ ، المقريزى السلوك ج ١ ، ص ٥١ - ٥٢ .

حين لجأ إلى نور الدين في المرة الأولى ، قد وعده إذا ما أمدّه بالجيوش النورية لطرد الفرنج من مصر ، إن يكون نائبًا عن نور الدين في حكم مصر ، ويرفع له سنويًا ثُلثَ خراجها[١] .

ولقد أدركت الخلافة العباسية ، هذه الحقيقة الجوهرية ، فميزت بوضوح بين الخِلَعَ الخليفية لنور الدين ، وبين الخِلَع الخليفية لصلاح الدين ، وجعلت خِلَع صلاح الدين أقل من خلع نور الدين ، في حين قلّدت نور الدين بالسّيفَيْن ، إشارة إلى تقليده لقطرى الشام ومصر ؛ وفي نفس الوقت أرسل نور الدين من قبله خَلعَ شَيّرَها من بلاد الشام إلى صلاح الدين وأهله وأمرائه بمصر[٢] ، تأكيدًا لتبعيتهم المباشرة له .

ولدينا وصف شائق لحفل وصول الخلع الخليفية لنور الدين ، على لسان شاهد عيان هو العماد الأصفهاني ، الذى يخبرنا أن رسول دار الخلافة ، في جواب بشارة نور الدين بالخطبة لبني العباس بمصر ، كان عماد الدين صندل ، أستاذ دار الخلافة ، ونص في ذلك اليوم على من يحضر مجلس نور الدين من أكابر دولته ، وتولى قراءة كتاب الخليفة الموفق ابن القيسراني ، وكان عند نور الدين في مقام الوزير « فاجتاب نور الدين الأهَبَة العباسية »[*] ، ولبس الفرجية فوقها ، وتقلد مع تقلد السّيفَيْن طوقًا ، وخرج وركب من داخل القلعة ، وهو حال بما عليه من الخلعة ، واللواء منشور ، والنضار (الذهب) منثور ، والرّكبان الشريفان أحَدَهُما مركوبه ، والآخر بحليته مجنوبه (أى بجانبه دون أن يركبه) . قال العماد « وسألت عن معنى تقليده السيفين .. فقيل لى هما للشام ومصر ، والجمع له بين البلدين » وخرج نور الدين إلى ظاهر دمشق ، حتى انتهى إلى منتهى الميدان الأخضر ، وكان وزن الطوق مع أكرته ، ألف دينار من الذهب الأحمر[٣] ؛ أى أن الخلعة الخليفية لنور الدين كانت فرجيه سوداء ، وظرف مُذَهّب[٤] . ولواء أسود ، وسَيفَيْن ، وفرَسَيْن ، وحُلَلٌ موشيه[٥] .

---

(١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٣٩٦ ، ص ٤١٨ .

(٢) أنظر المصدر ، ص ٥٠٦ ، ابن واصل : مفرج ج ١ ، ص ٢١٩ .

(*) أهبة الحرب عدتها ، والجمع أهب (ابن منظور – اللسان) .

(٣) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ : ٥٠٥ – ٥٠٦ ، وهو ينص على النقل عن العماد في البرق الشامية .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢١٨ – ٢١٩ ونص ابن واصل أكثر وضوحًا لعدم استخدامه السجع وهو في الغالب شرح لوصف العماد ، فيقول « وورد .. التشريف الشريف لنور الدين مكملاً بالأهبة السود والحلل الموشية والطوق الذهب الثقيل واللواء الجليل لبس نور الدين الفرجيه وتقلد بالسيفين ووضع في عنقه الطوق وخرج راكبًا من داخل القلعة واللواء الأسود مقشور على رأسه ، وقدم له مركوبان أحدهما ركبه ، والآخر كان جنبيًا بين يديه ، محلى بجلبته وجمع له بين تقليدى السيفين الإشعار بتقليده الإقليمي : الشام والديار المصرية ... » .

كذلك أرسلت الخلافة ، تشريفًا وخلعًا إلى صلاح الدين ، ولكنها كانت أقل من خِلَع نور الدين ، إذ لاحظ المؤرخون المعاصرون مثل العماد أن تشريف نور الدين أميَز وأفضل ، وأجمل وأكمل[1] ، لذلك فحين وصلت خِلْعة صلاح الدين إليه بمصر « إستقصرها واستنزرها واستصغرها دون قدره[2] ، مما جعل نور الدين يُطيِّب خاطره ، بأن سيَّر تشريفه برمَّته إلى مصر[3] ، وكانت هذه أول خِلْعة عباسية دخلت الديار المصرية ، بعد انقراض الدولة الفاطمية[4] ؛ وذلك في ٩ رجب سنة ٥٦٧ / ١١٧١ فخرج قاضي القضاة صدر الدين إبن ديرباس والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمة الواصل بالخِلْعة وزيّنت البلد[5] ؛ وفي ٢١ رجب من السنة المذكورة لبس صلاح الدين الخلعة الخليفية وركب بها[6] ، وكانت وصلت مع الرسل أعلام وبنود ، ورايات سُود ، وأهب عباسية للخطباء في الديار المصرية ، فسُيِّرت إلى صلاح الدين ، ففرقها على المساجد والجوامع والخطباء والقضاة والعلماء[7] .

وكما فرّقت الخلافة بين خِلَع نور الدين وخلع صلاح الدين ، على أساس أن الثاني كان تابعًا للأول ، ونائبه بمصر ؛ فإن صلاح الدين نفسه ، كان يراعي التأدُّب في رسوم الملك ، فلا يُساوي نفسه بسيده نور الدين . ففي رجب في نفس هذه السنة ، ضُرِبَتْ نُوَب الطبلخانة[8] بالباب الناصري ثلاث مرات في كل يوم ، وضربت بدمشق خمس مرات كل يوم بالباب النوري[9] ؛ وفي نفس هذه السنة سارت الرُّسُل من القاهرة إلى نور الدين ، تخبره بلبس صلاح الدين للخلع وباستجابة صلاح الدين على مُداومة إرسال ما قُرِّر عليه من مال إلى نور الدين في كل سنة[10] .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ : ٥٠٦ .
(٢) المقريزي : السلوك : ج ١ ، ص ٤٦ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ٥٠٦ .
(٤) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٢٠ ، أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ص ٥٠٦ .
(٥) المقريزي : السلوك ، ١ / ٤٦ .
(٦) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .
(٧) أبو شامة : الروضتين ، ٢/١ ، ص ٥٠٦ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .
(٨) الطبلخانة كلمة فارسية معناهاالموسيقى السلطانية ، وكانت العادة أن تدق نوبة في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة السلطان في الأسفار والحروب، القلقشندي : صبح ، ج ٤ ، ص ٨ – ٩، و ص ١٣.
(٩) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦ .
(١٠) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٤٧ .

وإذا كانت جميع الإجراءات التى اتخذها صلاح الدين لإسقاط الخلافة الفاطمية ، والخطبة لبنى العباس والقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، قد تمّت بتوجيه مباشر من نور الدين ، وبعد إرساله لنجم الدين أيوب والد صلاح الدين من الشام ليُباشر هذه الأمور بنفسه[1] ؛ فإن ضمّ صلاح الدين لليمن ، تمّ بإذن نور الدين ، للقضاء على الدعوة الإسماعيلية هناك ، بحيث أرسل نور الدين هذه البشارة ، بنفسه للخليفة العباسى[2] ؛ كما أرسل إليه أيضًا يبشره بالخطبة لبنى العباس على منابر القيروان على يد بنى أيوب ، ويزف إليه غزو مملكة النوبة المسيحية وهى بلاد لم تطأها من قبل سنابك الخيل الإسلامية ، ويبشره بقرب فتح القسطنطينية وبيت المقدس[3] .

ومنذ استقرار صلاح الدين بمصر ، حتى وفاة نور الدين ، داوم صلاح الدين على إرسال تحف القصر الفاطمى ، إلى سيده نور الدين رمزًا للولاء والتبعيّة[4] ، وداوم صلاح الدين على إطلاع نور الدين على كل صغيرة وكبيرة داخل مصر ، فنجده مثلاً يرسل إليه كتابًا يتضمن ذكر ثورة عمارة اليمنى[5] ؛ وليس أدلّ على تعاون كل من صلاح الدين ونور الدين ، من تفاهمهما الاستراتيجى فى قتال الفرنج ؛ فيذكر أبو شامة أنه فى سنة ٥٦٨ / ١١٧٢ « تولى السُلطانان نور الدين فى الشام وصلاح الدين من مصر فى هذه السنة جهاد الصليبيين ، ولقد وصف العماد هذا الحدث بـ « جهاد السُّلطانين للفرنج »[6] ؛ وهذا ما أكّده صلاح الدين فى كتاب له للخليفة العباسى بقوله أنه « كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله ، فى أن يتجاذبا طرفىّ الغزاه من مصر والشام ، المملوك (أى صلاح الدين) بعسكره برّه وبحره ، ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره[7] .

---

(١) أنظر قبله .

(٢) المقريزى : السلوم ، ١ : ٥٣ ، ابن واصل : مفرج ١ : ٢٣٧ ، سبط : مرآة ٨ : ٢٩٩ .

(٣) كتب نور الدين إلى الخليفة العباسى « وقسطنطينه والقدس يجريان إلى أمَد الفتوح فى مضمار المنافسة والله تعالى بكرمه يدنى قطاف الفاتحين لأهل الإسلام ويوفق الخادم لحيازة مراضى الإمام .. ومن جملة حسَنَات هذه الأيام الزاهرة ، ما تيسر فى هذه النوْبَة ، من افتتاح بعض بلاد النُوبَة ، والوصول إلى مواضع منها ، لم تَطْرُقها سنابك الخيل الإسلامية فى العصور الخَالية ؛ وكذلك استولى عساكر مصر أيضًا على برقة وحصونها .. حتى بلغوا إلى حدود المغرب (ابن واصل : مفرج ج ١ : ٢٣٥ ، أنظر ص ٢٣٦) حيث يفيد ابن واصل أن فتح بلاد المغرب تم بأمر نور الدين .

(٤) أنظر أبو شامة : الروضتين ٢/١ ص ٥٢٤ – ٥٢٥ ، ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٢٤ – ٢٢٥، ٢٢٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج ١ : ٢٤٨ ، ولقد أورد ابن واصل فقرات من هذا الكتاب ١: ٢٤٨ – ٢٥١ .

(٦) أنظر أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ٥٢٦ – ٥٣٠ .

(٧) نفس المصدر / ٢ ص ٦٢٤ .

ولقد أبدى صلاح الدين تبعيته لبيت نور الدين حتى بعد وفاته سنة ٥٦٩ / ١١٧٣ ، بحيث خطب صلاح الدين لابنه الصالح إسماعيل ، وضرب السكة باسمه[١] ، ووافى إرسال الرسائل في العزاء بنور الدين[٢] ؛ وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول أنه حتى وفاة نور الدين ، كانت مصر والشام ، قد توحدتا تحت زعامة نور الدين ، وهذا ما عبر عنه العماد الأصفهاني ، حتى حين قال يمتدح نور الدين :

بملك مصر اهنىء ممالك الأمم ... فثق وأبشر بنصر الله عن أمم

فملك مصر وملك الشام قد نظما ... في عقد عز من الإسلام منتظم[٣]

وفي رأى ابى شامة ، أن خروج صلاح الدين إلى بلاد الشام ، بعد موت نور الدين لأنّ بموته « إنفردت مصر عن الشام ، وطَمَعَ أهلُ الكفر في بلاد الإسلام »[٤] ؛ أى أنه يؤيد ما أعلنه صلاح الدين ، من أن خروجه إلى الشام « لتوحيد كلمة المسلمين ضد الفرنج »[٥] ؛ لكن بعد فشله في إصلاح ذات البَيْن بَيْن الأوصياء على عرش إبن نور الدين[٦] ، ونجاحه في هزيمتهم في موقعة قرون حماه ، وتوقيعه الصلح معهم على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها ؛ قطع صلاح الدين الخطبة للصالح ، وأزال إسمه عن السكة في بلاده[٧] ، وبهذا انتهت مرحلة نيابة صلاح الدين عن البَيْت الزّنكى في حكم مصر ، واستقل استقلالاً تامًا بالديار المصرية .

***

وما لبث صلاح الدين في سنوات وجيزة ، أن ورث جميع ممتلكات نور الدين ، وورث رسالته في توحيد المشرق الإسلامي لجهاد الصليبيين ، وكان نور الدين قد اتسع ملكه ، ففتح الموصل والجزيرة وديار بكر والشام والعواصم ودمشق وبعلبك وبانياس ومصر واليمن ، وخُطِبَ له

(١) المقريزى : السلوك ١: ٥٥ ، أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ : ٥٨٥ .
(٢) أنظر الرسائل التى أوردها أبو شامة : المصدر السابق ٢/١ ، ص ٤٨٦ - ٥٨٨ .
(٣) أنظر أبو شامة : نفس المصدر ، ١ / ٢ ، ص ٤٤٤ - ٤٤٥ .
(٤) أنظر أبو شامة : الروضتين ٢/١ ، ص ٥٩٧ - ٥٩٨ .
(٥) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ .
(٦) راجع أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ص ٦٠٣ - ٦٠٦ ، ص ٦٣٣ - ٦٤٠ ، ص ٦٤٧ - ٦٥٥ .
(٧) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩ .

في الدنيا[١] . بل حاول قبيل وفاته ، ضم ممتلكات سلطنة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى إليه وذلك في سنة ٥٦٨هـ[٢] ، ولكنه توفى قبل أن يحقق أمله . كما كان نور الدين يتطلع أيضًا إلى فتح مملكة

---

(١) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ، وبالنسبة للوضع الشرعي للدولة الإتابكية بالشام ، كما تبلور في الربع الأول من القرن السادس الهجرى في عهد عماد الدين زنكي ، فقد كان اتابكة الموصل والجزيرة الفراتية والشام ، يظهرون تبعيتهم وطاعتهم للخلافة العباسية والسلطان السلجوقي ، فيحضرون إلى بغداد أحيانًا (سنة ٥٠٨هـ) لخدمة السلطان السلجوقي في دار السلطنة (سبط : مرآة ج ٨ ، ص ٥٣) وكانوا يظهرون ولاءهم للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي ببغداد ، بالهدايا والتحف التي يرسلونها إلى بغداد ، وفي نفس الوقت كانوا يتلقون « الخلع الخليفتية » و « السلطانية » و « المنشور السلطاني » ؛ بالولاية حربًا وخراجًا (سبط : مرآة) ٨: ٥٦ ، ولقد استقوى نفوذ عماد الدين زنكي ، والد نور الدين زنكي ، على جميع أتابكة الموصل والشام والجزيرة ، حين حالت مشاغل السلطان السلجوقي في العراق في سنة ٥٠٧هـ من جمع ملوك الأطراف لمحاربة الفرنج بالشام (سبط : مرآة : ٨ : ٤٦) ، ولما كان السلطان السلجوقي قد أعْلَنَ مِنْ قَبْل (سنة ٥٠٤هـ) عماد الدين زنكي ، قائدًا لقوات جميع أتابكة الشام والجزيرة بعد أن أبلى بلاءً حسنًا في قتال الإمارات الصليبية بالشام (سبط : مرآة ، ٨ : ٣٥ - ٣٦) بل استطاع بالفعل هزيمة ملك بيت المقدس الصليبي سنة ٥٠٦هـ ، وأرسل بشارة النصر للسلطان السلجوقي (سبط : مرآة ، ٨ : ٤١ - ٤٣) . فلا ريب أن عَهِدَ السلطان السلجوقي في سنة ٥٠٧هـ لعماد الدين زنكي بمهمة جهاد الصليبيين بالشام نيابة عنه وأَمَرَ أتابكته في بلاد الموصل والجزيرة على الدخول في طاعته ، (سبط : مرآة ، ٨ : ٥٢) ، وقد عمد عماد الدين زنكي على الاستنجاد بجيوش السلطان السلجوقي في الأوقات الحَرِجَة من صراعه مع الصليبيين (ابن واصل ، ١: ٧٩ - ٨١) واستقرت الأمور بين عماد الدين زنكي والسلطان السلجوقي ببغداد على هذا الأساس ، وحين توفى عماد الدين ، سنة ٥٤١هـ أقر السلطان أولاده على ممتلكاته (ابن واصل ج ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٩ ، سبط : مرآة ، ص ١٨٩ - ١٩٠) .

ولا شك أن عماد الدين زنكي قد نجح في تكوين الجبهة الإسلامية الموحدة من ملوك الجزيرة الفراتية والشام وضم الإمارات الكردية والتركمانية ، للتصدى للوجود الصليبي بالشام ، واستطاع إسقاط إمارة الرها الصليبية ، سبط : مرآة ، ج ٨ ص ١٨٩ - ١٩٠) واسترداد أغلب حصون الساحل من الصليبيين ثم تابع ابنه نور الدين رسالته هذه ، أنظر سبط : مرآة ج ٨ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٤ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٨٢ . ولقد أفاد سبط ابن الجوزى أن جميع فتوحات نور الدين زنكي وما ضمه من البلاد ، كان بأمر الخليفة فيقول « وكان نور الدين قد أخذ الموصل ، وهذا كله بأمر الخليفة لأن نور الدين ما كان يعمل شيئًا حتى يستأذنه » (سبط : مرآة ، ص ٢٨٢- ١٨٣) . واتخذ نور الدين وسائل لجمع القلوب حوله للجهاد ؛ (أنظر سبط مرآة ج ٨ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦) اتبعها من بعده تلميذه صلاح الدين .

ومن هذا يتضح أن الوضع الشرعي لممتلكات الدولة الزنكية كان هو نفس الوضع الشرعي لممتلكات الدولة الأيوبية ، على أساس تبعية كلا الدولتين من الناحية الشرعية للخلافة العباسية .

والجدير بالذكر أن عماد الدين زنكي ، في محاولته لتقوية نفوذه الدعائي في مقاتلة الصليبيين ، كان قد فكر في إزالة نفوذ السلاجقة من العراق ، ونقل الخلافة العباسية والخليفة العباسي إلى مقر حكمه بالموصل ٥٣٠هـ ، ولكن محاولته باءت بالفشل ؛ وعن محاولة عماد الدين زنكي نقل مقر الخلافة العباسية إلى الموصل أنظر ابن الأثير : الباهر ص ٤٥ ، ص ٤٨ ، ص ٥١ ، ص ٥٣ . وفي رأينا أن محاولة عماد الدين هذه ، قد بعثها من جديد المماليك حين نقلوا مقر الخلافة العباسية إلى القاهرة سنة ٦٥٩هـ .

(٢) عن هذه المحاولة راجع ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٣٣ - ٢٥٣ ، أبو شامة : الروضتين ٢/١ ، ص ٥٤٣ - ٥٤٩

أرمنية المسيحية ، واسترداد بيت المقدس ، وكتب إلى الخليفة العباسي في نفس هذه السنة يبشره بقرب تحقيق هذه الآمال ، ويزفُّ إليه خبر غزو نوابه بمصر (بني أيوب) لمملكة النوبة المسيحية[1] .

وأفاد سبط ابن الجوزي في ترجمة نور الدين ، أنه « كان في عزمه أن يفتح بيت المقدس ، فعمر منبرا وقبله بجامع حلب على اسم القدس ، فتوفي قبل الفتوح ؛ فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس ، حمل المنبر إليه ، وأبقى القبلة بجامع حلب[2] . كذلك أكد أبو شامة وراثة صلاح الدين لرسالة نور الدين ، حين لاحظ أن صلاح الدين « بنى على ما اسسه نور الدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها ؛ ولو علم نور الدين ماذخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه[3] .

ويبدو أنَّ سلطان سلاجقة الروم ، قد فطن بعد ضم صلاح الدين لأغلب ممتلكات نور الدين بالشام والجزيرة الفراتية[4] ، أنه كان في عزمه أيضا ضم مملكة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ، وهو ما حاوله نور الدين قبيل وفاته ، فكاتب سلطان سلاجقة الروم صلاح الدين وأعلن دخوله في طاعته[5] ، كما أرسل إلى صلاح الدين يرجو النصر على ملك الأرمن المسيحي ابن لاون وذلك بعد أن تم بينهم الصلح سنة ٥٦٧هـ (كذا)[6] ، وكان صلاح الدين عند حسن ظن سلطان سلاجقة الروم به إذ نجح في نفس هذه السنة في فتح مملكة أرمنية المسيحية[7] ، الأمر الذى حاوله نور الدين قبيل وفاته .

وبدخول الزنكيين ، وسلطان سلاجقة الروم في طاعة صلاح الدين ، ونجاحه في فتح مملكة أرمنية المسيحية، تأكد لصلاح الدين أنه أصبح أقوى ملوك الأطراف في الشرق الإسلامي، فكتب[8]،

---

(١) نفس المصدر ، ج ١ : ص ٢٣٥ .

(٢) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣١٣ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ١ / ٢ ، ص ٥٨٢ .

(٤) أنظر قبله .

(٥) العماد : الفتح ، ص ٥٧٢ - ٥٧٦ .

(٦) أبو المحاسن : النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٢٧ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٢٨ .

(٨) عن نصوص هذه الرسائل المتبادلة بين صلاح الدين والخلافة العباسية لتعديد أيادية البيضاء على الخلافة ، أنظر أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٦١٤ ، ٦١٦ - ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ص ٦٤٨ - ٦٤٩ ، ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٦٢ - ٦٥، ١١٤ ، القلقشندى : مآثر الإنافة ، ج ٣ ، ص ٣١٥ - ٣١٨ ، العماد : البرق ، ليدن ، ق ١٠٦ - ١٠٩ ، ق ١١٨ - ١١٢ ، ق ١٢٤ - ١٢٥ ، ق ١٢٦ - ١٣١ ، القلقشندى : صبح ج ٦ ، ص ٥٠٤ - ٥٠٦ ، ٥٠٦ - ٥١١ ، ٥١١ - ٥١٥ ، ٥١٥ - ٥١٦ .

إلى الخليفة العباسي ببغداد سنة ٥٧٠هـ ؛ يذكر فتوحاته وجهاده للفرنج ، وإعادته الخطبة العباسية بمصر ، واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب ، وعلى بلاد اليمن كلّها ، وأنه قدم عليه في هذه السنة وفد سبعين راكبًا ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدًا . وطلب صلاح الدين من الخليفة تقليده مصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما يفتحه بسيفه ، فوافته بحماة رُسل الخليفة المستضيء بأمر الله ، بالتشريف والأعلام السُّود وتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها[1] .

والجدير بالإلتفات ، أن صلاح الدين ، أراد بطلبه للتقليد الخليفي ، أنّ يجعل ما آل إليه من الممتلكات الفاطمية والنُّورية ، وما يسترده بسيفه من بلاد الفرنج ، أو ما يفتحه من دار الحرب ، مُلكًا وراثيًا له ولذريته مِن بَعده ، بحَيث يُحقِّقُ له التقليد الخليفي ، السَّنَدّ الشرعي لهذا المُلك الوراثي ، لذلك نجد صلاح الدين ، في أحد رسائله لديوان الخليفة ، يُناشدّ الخليفة العباسي لتحقيق هذا الغَرَضّ بقوله : أنّه يريد ، تقليدًا جامعًا ، بمصر والمغرب واليمن والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العبّاسية بسيوفه وسيف عساكره ، ولمن يقيمه من أخ أو ولد من بعده، تقليدًا يتضمن للنّعمة تخليدًا ، وللدعوة تجديدًا[2] .

* * *

ولا رَيبَ أنّ التفويض الخليفي لصلاح الدين وخلفه ، كان بالإضافة إلى إسباغة الشّرعيّة ، في نظر العالم الإسلامي ، على الممتلكات النُوريّة والفاطمية التي ضمها إلى دولته الفتية ، فإنه كان تفويضًا من الخليفة العباسي ، إلى صلاح الدين ، بجميع السلطات الشرعية ، التي يُعَدّ الخليفة هو القائم بها ، من واقع تفويض الأُمّة الإسلامية له هذه السلطات من واقع البيعة[3] .

ولقد حدد القلقشندي ، الوظائف الرئيسية ، في الدولة الإسلامية ، بوظائف عشرة ، يُفوّضُها الخليفة إلى مَنّ يَرَى فيه الكفاءَة على القيام بها على خير وجه ، ثم أفاد أن هذه الوظائف العشر ؛ أصبحت يفوضها الخليفة إلى السلطان ، ثم يفوضها السلطان بدوره إلى من يستطيع النهوض بأعبائها[4] .

---

(١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩ – ٦٠ ، وأنظر قبله .

(٢) ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) أنظر قبله .

(٤) أنظر الفصل السابع ، من الجزء الأول ، من كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، ج ١ ، ص ٧٤ – ٨٠ حيث يقول : « الفصل السابع : في ذكر الوظائف التي كانت تصدر عن الخليفة في الزمن المتقدم ، وما يصدر عنه الآن من تفويض السلطنة إلى السلطان ، ويرجع المقصود من ذلك إلى عشر وظائف » ، القلقشندي : مآثر ، ج ١ ، ص ٧٤ ، ص ٧ – ص ١٠ .

ولقد عَلّقَ القلقشندى على هذه الوظائف العشر التى يُفوّضها الخليفة إلى السلطان بقوله : « وقد كان فى الزمن المتقدّم ، يُكتبُ بكُلِّ ولاية من هذه الولايات عَهْدٌ عن الخليفة بما يَقعُ به التَولِيَة ، وتَشمَلُها عَلامَةُ الخليفة على عادة الولايات فى ذلك ، ولم يَزَلْ ذَلِكَ مُستَمِرًا إلى حين إنقراض الخلافة من بغداد . أمّا بعد انتقال الخلافة إلى الديار المصرية ، فقد صارت علامة الخليفة مقصورة على عهد السلطان بتفويض الأمور العامّة إليه ، وتفاصيل الأمور يَشملها خط السلطان بحكم تفويض الخليفة ذلك إليه[1] .

وواضح أنّ الشق الثانى من كلام القلقشندى ، ينسحب على العصر المماليكى بعد انتقال الخلافة العباسية إلى مصر ، ونحن نستطيع أنّ نقرّر مطمئنين إعتمادًا على وثائق العصر الأيوبى ، أنّ الخليفة العباسى ببغداد كان يُفوّض هذه الوظائف ، أو السُلطات العَشر ، أوّ ما يُعادِلها إلى السُلطان الأيوبى بمصر ، لِيُفوّضها بدوره لمن يباشرها ويقوم بأعبائها وتتوفر فيه شروط النهوض بها على خير وجه .

ولدينا لحسن الحظ ، وثيقتان هامّتان ، إحداهما خاصة بتقليد الخليفة الناصر لدين الله العباسى لصلاح الدين[2] ، وثانيهما تقليد الخليفة المستنصر بالله العباسى للمَلِكْ الكامل محمد بن العادل أبى بكر[3] ، وبدراستنا لهاتين الوثيقتين دراسة مُقارَنة ، نستطيع أنّ نحَدّد السُلطات الشَرعِيّة التى فَوّضَهَا الخُلفاء العباسيون ، لسلاطين بنى أيوب ، على أساس أنّ الوثيقة الأولى ، ترجع إلى عهد قيام الدولة الأيوبية ، والوثيقة الثانية ترجع إلى عصر استقرارها وبلوغها أَوْجَ اتساعها فى عصر السلطان الملك الكامل محمد .

كما لدينا أيضًا وصفًا دقيقًا شائقًا ، لرسوم وصول الخِلَعْ الخليفتية مع رُسُل وسُفراء الخلافة العباسية إلى مصر ، واستقبال سلاطين الأيوبيين لهولاء السفراء ، وركوب السلاطين المصريين فى موكب رسمى ، بالآلات الملوكية والخِلَعّ والأعلام الخليفتية المميزة باللون الأسوَدّ شعار بنى العباس ،

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٨٠ ، س ١ – س ٨ .

(٢) أنظر نص هذا التقليد عن القلقشندى : مآثر الإنافة ، ج ٣ ، ص ٨٦ – ٨٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ١٤٥ – ١٥٢ .

(٣) أنظر نص هذا التقليد عند القلقشندى : مآثر الإنافة ، ج ٣ ، ص ٩٩ – ١٢١ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٩٨ – ١١١ .

وبين يدى السلطان وزيره راكبًا فرسه ، حاملاً عهد الخليفة ـ التقليد الخليفى ، للسلطان ـ قاطعين أهم شوارع القاهرة ، فى موكب مُهيب ، إعظامًا للخلّع والتقليد الخليفى ، الذى يَسبغ الشرعية على سَلطنة بنى أيوب ، أما رعاياهم المصريين وأمام العالم الإسلامى كله[1] .

(١) أفادنا المقريزى بالرسوم الملكية التى استحدثها الأيوبيون بمصر لاستقبال الخلع الخليفتية والتقليد الخليفى ، وما صاحب ذلك فى عهدهم من احتفالات عامة فى الدولة ، ولقد أوضح المقريزى أن المماليك قد ورثوا هذه الرسوم عن الأيوبيين حتى نقل الظاهر بيبرس الخلافة العباسية إلى مصر ، فغير من هذه الرسوم ، لوجود الخليفة نفسه فى مصر ، وخضوعه لسطوة بيبرس السياسية ، فيقول المقريزى فى الخطط ج ٣ ص ١٧٤ - ١٧٥ إن السلطان من ملوك بنى أيوب ، ومن قام بعدهم من ملوك الترك ، لابد إذا استقر فى سلطنة ديار مصر ، أن يلبس خلعة السلطان بظاهر القاهرة ، ويدخل إليها راكبًا ، والوزير بين يديه على فرس ، وهو حامل عهد السلطان الذى كتبه له الخليفة بسلطنة مصر على رأسه ، وقد أمسكه بيديه ، وجميع الأمراء ورجال العساكر مشاة بين يديه ، منذ يدخل إلى القاهرة من باب الفتوح أو من باب النصر ، إلى أن يخرج من باب زويلة ، فإذا خرج السلطان من باب زويلة ركب حينئذ الأمراء وبقية العسكر .. وأول من ركب بخِلَعَ الخليفة فى القاهرة ، السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب .

«قال القاضى الفاضل فى متجددات سنة سبع وستين وخمسمائة (٥٦٧هـ) تاسع شهر رجب : وصلت الخلع ، التى نفذت إلى السلطان الملك العادل نور الدين محمود زنكى ، من الخليفة ببغداد ؛ وهى جبة سوداء، وطوق ذهب ؛ فلبسها نور الديم بدمشق ، إظهارًا لشعارها ، وسيرها إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ليلبسها .. وكانت أُنفذت له خلعة ، ذكر أنه استقصرها واستزراها ، واستصغرها دون قدْره . واستقر السلطان صلاح الدين بداره ، وباتت الخلع مع الواصل بها شاه ملك ، برأس الطابية ، فلما كان العاشر منه خرج قاضى القضاة والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمته ، واستقر المسير بالخلعة - وهو من الأصحاب النجمية - وزُينت البلد ابتهاجًا بها . وفيه ضُرِبَت النُوَب الثلاث بالباب الناصرى ، على الرسم النورى ، فى كل يوم ؛ فأما دمشق ، فالنوب المضروبة بها خمس ، على رسم قديم ؛ لأن الأتابكة لها قواعد ورسوم مستقرة بينهم فى بلادهم . وفى حادى عشرة ، ركب السلطان بالخلع، وشَقّ بين القصرين والقاهرة ؛ ولما بلغ باب زويلة ، نزع الخلع وأعادها إلى داره ، ثم شَمَّرَ للعب الأكرة . ولم يزل الرسم كذلك فى ملوك بنى أيوب ، حتى انقضت أيامهم ، وقام من بعدهم مماليكهم الأتراك ، فجروا فى ذلك على عادة ملوك بنى أيوب » .

الفصل الثانى

القضاء على الخلافة الفاطمية

- وزيران سنيان للفواطم وقيام السلطنة السنية بمصر
- وسائل القضاء على المذهب والتراث الفاطمى بمصر والشام واليمن
- طعن الدولة الأيوبية بمصر فى النسب الفاطمى
- القضاء على فتن متشيعى المصريين المناصرين للدولة الفاطمية
- محاولة القضاء على بقايا التشيع فى الشام واليمن

القضاء على الخلافة الفاطمية

وزيران سُنيان للفواطم :

لاحظ مؤلفو كتب ودساتير ومراسيم ديوان الإنشاء في مصر الإسلامية المتأخرون ، مثل الخالدى[1] والقلقشندى[2] ، إن وزراء السيوف ، في العصر الفاطمي الثاني ، الذين تولوا وزارة التفويض لخلفاء الفاطميين الضعاف ، وحجروا على الخلفاء واستبدوا بالسّلطنة الزمنية الفعلية في أيديهم ، كانت سلطاتهم بالنسبة لأوضاع الخلافة الفاطمية في ذلك الوقت ، مطابقة لسلطات السلاطين الذين تغلبوا على الخليفة العباسي بالعراق ، واستبدوا بالأمر دونه ، شأن البويهيين والسلاجقه في القرنين الرابع والخامس الهجرى على التوالى[3] ، فكانت الوزارة في العصر الفاطمي

---

(١) يقول الخالدى : أما تفويض الخليفة الأمور في البلاد والأقاليم إلى من يديرها ، فعلى ثلاثة ضروب : الضرب الأول : وهو أعلاها " وزارة التفويض " ، وهو أن يستوزر الخليفة من يفوض إليه تدبير الأمور وإمضائها على اجتهاده ، وينظر فيها على العموم ، وعلى ذلك كانت الوزارة في زمن الفاطميين بمصر . الضرب الثانى : إمارة الإستكفاء . الضرب الثالث : إمارة الإستيلاء . فلما استولى الفاطميون واستوزروا أرباب السيوف في أواخر دولتهم ، وعظمت كلمتهم عندهم ، صارت سلطنتها وزارة تفويض ، فكان الخليفة يحتجب ، والوزير هو المتصرف كالملوك الأن (أنظر الخالدى : المقصد العالى المنشأ – خ ، لوحة ١٩٢ أ – ١٩٣ ب) .

(٢) أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٩ ، ص ٣٩٩ – ٤٠٤ . ونصه يكاد يطابق نص الخالدى السابق .

(٣) عن استقلال البويهيين والسلاجقه بالسلطنة دون الخلفاء ، أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ – ٢٧٢ ، ج ٥ ، ص ٤٤٧ – ٤٤٨ ، ج ٩ ، ص ٤٠٣ – ٤٠٤ ، حيث يلاحظ القلقشندى : أولاً إن كل من البويهيين والسلاجقه ، سلاطين ملازمين للحضره ببغداد ، والأيوبيين سلاطين غير ملازمين للحضره الخليفتيه العباسية ببغداد ، بل أقاموا بمصر ، ولكنه يلاحظ أيضًا أن تقليدهم الخليفى ، وخلعهم الخليفيه ، هي مطابقة لتقليد وخلع سلاطين البويهيين والسلاجقه ، أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ – ٢٧٢ ، وخاصة ص ٢٨٧ س ٨ – ١٩ ، وعن لقب سلطان يقول القلقشندى " السلطان : هو اسم خاص في العرف العام ، للملوك ، ويقال أن أول من تلقب به خالد بن برمك . ثم انقطع التلقيب به إلى أيام بنى بويه ، فتلقب به ملوكهم، فمن بعدهم من الملوك السلاجقه وغيرهم ، وهلم جرا إلى زماننا ، (أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٥ ، ص ٤٤٧ – ٤٤٨ ، ج ٩ ، ص ٤٠٣ – ٤٠٤) . ويقول أبو المحاسن : وبنو زنكى هؤلاء ، هم أوسط الدول ، فإن أول من ملك مع الخلفاء ، وتلقب بالسلطان والألقاب العظيمة بنو بويه ، ثم أنشأ بنو بويه بنو سلجوق ، وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق واقسنقر جد بنى زنكى هؤلاء ، ثم أنشأ بنو زنكى ، أعنى الملك العادل نور الدين محمود الشهيد ، بنى أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ بنو أيوب المماليك ودولة الترك " . ولقد أوضح المؤرخ الكبير ابن خلدون ، بحاسته التاريخية المرهفة تطابق كل من وظيفة إمرة الأمراء ، و " وزارة التفويض " و " السلطنة " ، مع بعضها البعض وكون بنى بويه وزراء سيوف ، استنكفوا اتخاذ ألقاب الوزراء ، فتلقبوا بالسلطان بقوله : " ... فلما جاءت دولة بنى العباس .. =

المتأخر « تقوم مقام السلطنة » على حد قول القلقشندى[1] ، فلا غـروان استلفت مؤرخى الأيوبيين الذين أتوا معهم من الشام ، إن الوزير الفاطمى شاور ، وزير التفويض الذى استنجد بنور الدين ، كان يركب بالطبل والبوق والعلم ، على قاعدة الوزراء المصريين[2] ، وأن « عادة المصريين » ، أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب ، وعجز صاحب المنصب عن دفعه ، وعرفوا عجزه ، وقعوا للقاهر منهم ورتّبوه ومكّنوه ، فإن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم ، وهو ملقب عندهم بالسلطان[3] .

= وعظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة فى إنفاد الحل والعقد .. ، فصار اسم الوزير جامعًا لخطتى السيف والقلم .. فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ ، وهى حال ما يكون السلطان قائمًا على نفسه ، وإلى وزارة تفويض وهى حال ما يكون الوزير مستبدًا عليه ، ثم استمر الاستبداد وصار الأمر للملوك العجم (بنو بويه) ، وتعطل رسم الخلافة ، ولم يكن لهؤلاء المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب ، لأنهم خول لهم فتسموا بالإمارة والسلطان ، وكان المستبد بالدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان ، إلى ما يحتليه به الخليفة من ألقابه كما تراه فى ألقابهم وتركوا اسم الوزارة إلى ما يتولاها للخليفة من خاصته ، ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم (أنظر ابن خلدون المقدمة ، طبع المطبعة الأدبية ببيروت ١٩٠٠م ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩) أى أن ابن خلدون يقول : أن بنى بويه قد اتخذوا ألقاب السلاطين ، دون إذن الخليفة العباسى . ويلاحظ حسن الباشا : أن لقب سلطان لم يرد على النقوش البويهية ، فى حين ورد على نقش خاص بالسلطان محمود الغزنوى مؤرخ سنة ٤٢١هـ ، وأن ذكر المقريزى فى شذور العقود أن بنى بويه قد سكوا لقب سلطان على عملتهم (أنظر حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤) أما السلاجقه ، قد تفشى لقب سلطان على نقوشهم كلقب عام لهم (حسن الباشا : المرجع السابق) ، كما سكوه على العملة أيضًا (ماجد : الخليفة المستنصر ، ٢٣٥ هامش ١١٨) وقد ذكر السيوطى " إن أول من لقب بالسلطان فى الإسلام محمود بن سبكتكين .. ، وأول من لقب بالملك عضد الدولة فناخسروا " (السيوطى : الوسائل إلى مسامرة الأوائل ، تحقيق أسعد طلس ، طبع بغداد ص ٧٨) ، ولقد أورد أبو نصر العتبى مؤرخ سيرة محمد بن سبكتكين ألقابه كاملة أولها لقب سلطان. أنظر الشيخ المنينى: شرح التاريخ اليمينى المؤلف ليمين الدولة محمود ، المسمى بالفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى ، طبع مصر طبعة قديمة د.ت (فى عهد الخديوى توفيق) ٣٠ - ٣١ وأغلب الظن أن لقب سلطان قد أخذ على عهد محمود بن سبكتكين أول السلاطين العسكريين السنيين بالشرق الذين أعادوا للخلافة العباسية هيبتها ، معنى جديد وهو حجة الخليفة الظاهرة ويده القوية تزيد خلافته . كان لقب " يمين الدولة " أهم الألقاب الرسمية لهذا السلطان ، أنظر المنينى : الفتح ص ٣١ ، وتوارث هذا اللقب بعده السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين ثم المماليك (حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦) وأنظر بعده .

(١) أورد القلقشندى عهد شيركوه بالوزارة عن العاضد الفاطمى ، وقال قبل إيراده ، والوزارة يومئذ - أى فى العصر الفاطمى المتأخر - قائمة مقام السلطنة ، أنظر صبح ١٠ : ٨٠ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٦ ، س ١ - ٦ .

والواقع أن وزراء التفويض الفاطميين ، كانوا قد حجروا على الخلفاء تمامًا ، ولم يقتصر هذا الحجر على مجرد الاستيلاء على السلطة الزمنية ، بل امتد نفوذ وزراء التفويض إلى السلطات القضائية والدينية الخاصة بالخلفاء ، والمتعلقة بصميم أحقيتهم للإمامة ، من وجهة نظر الفكر السياسي الفاطمي ، أعنى شئون القضاء والدعوة[1] ، لكون الخليفة هو المجتهد المطلق في الفقه الإسماعيلي لميراثه للعلم اللدني الذى إختص به الأئمة من آل البيت وما اكسبهم هذا من قدرة على تأويل آيات القرآن[2] ، ولكون الهدف الأول من الدعوة الفاطمية ، هو تأكيد عقيدة « الولاية » أى الطاعة للأئمة ، في نفوس المستجيبين للدعوة [3] ، ووصل الحد بتهاون وزراء التفويض بالخلفاء ونفوذهم الروحى ، إلى الحد الذى تلاعبوا به بالنص ، وهو الوصية بولاية عهد الخلافة ، التى يعتقد الشيعة أن الخليفة الفاطمى موحى بها من الله[4] ، فكان وزراء التفويض يبعدون أولياء عهود الخلفاء الكبار ، ويدّعون النص على أمراء صغار من البيت الفاطمى ، ليسهل السيطرة عليهم وعلى الدولة[5] .

وسواء صدق ما ذهب إليه البندارى ، من القول بأن شيركوه ، بعد حملاته المتكررة على مصر كقائد لجيوش نور الدين ، قد راودته فكرة أن يصبح « عزيز مصر »[6] وهو اللقب الذى ورد فى القرآن للدلالة على فرعون مصر الذى عاصر نبى الله يوسف الصديق[7] ، فإن الواقع يؤكد ما لاحظه ابن الأثير من أن شيركوه بعد توليه للوزارة الفاطية قد استقرلات له السلطنة بمصر[8] . وقد ذكر بعض المؤرخين أن صلاح الدين قد تولى الوزارة بوصية من عمه شيركوه[9] ، ويؤيد هذا ما ذكرته المصادر من أن صلاح الدين كان يقوم بتدبير جميع الأمور ، ويُباشر مهام الحكم ، إبان وزارة

---

(١) كان وزير التفويض يتلقب بـ " كافل قضاة المسلمين ، ويلقب " هادى دعاة المؤمنين ، ماجد نظم الفاطميين ، ج ١ ص ٨٤ .

(٢) نفس المرجع : ج ١ ص ٥٩ - ٦٠ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٦ - ٨ .

(٣) يقول د. محمد كامل حسين : " وخلاصة القول فى العقائد الفاطمية " ، إن الولاية هى محور هذه العقائد ، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام وتمجيده ، أكثر من أى شىء آخر ، أنظر فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٩ . وعن مبدأ الولاية عند الإسماعيلية أنظر ماجد : نظم الفاطمين، ج ١، ص ٦١ - ٦٤ .

(٤) ماجد : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦١ - ٨٢ .

(٥) جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ١٩ - ٢٢ ، ص ٢٦ - ٣٢ .

(٦) البندارى : تاريخ آل سلجوق ، ص ١٥٢-١٥٣ .

(٧) القرآن الكريم ، سورة يوسف ، الآية ٣٠، ٥٠، ٥١، ٥٤ .

(٨) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٣٧ .

(٩) ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ ، س ١٥-١٦ .

شيركوه[1] ، فى حين ذهب البعض الآخر ، بأن الخليفة العاضد ، هو الذى اختار صلاح الدين ليوليه الوزارة ، لكونه صغير السن ، قليل الاتباع والعسكر فى الجيش النورى بمصر ، مما يسهل انقياده له[2] ، وبالغ بعض المؤرخين ، فذكروا أن شيركوه كان قد سم فى خِلعه الوزارة ، لما خلع عليه[3] .

وأياً كان الأمر فإن تولى وزيرين سنيين على التوالى ، لوزارة التفويض ، أى السلطنة ، لخلفاء الفاطميين الشيعة بمصر ، جعل حال الخليفة العاضد فى ذلك الوقت ، أقرب بأحوال الخلافة العباسية السنية ، حين سيطر عليها سلاطين البويهيين الشيعة[4] ، ولقد أكد ابن شداد أن صلاح الدين بعد توليه للوزارة الفاطمية ، قد تغلب على الأمر كله ، وأدرك ما ينتظره من مهام ضخمة فى استرداد ساحل الشام من الصليبيين ، بل شرع صلاح الدين فى إزالة الخلافة الفاطمية والدعوة الإسماعيلية من مصر ، وهو لا يزال وزيرًا للفاطميين ، إذ يقول ابن شداد : « ولقد سمعت منه يقول : لما يسر الله لى الديار المصرية ، علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك فى نفسى . ومن حين استتب له الأمر ، مازال يشن الغارات على الأفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادها ، وغشى الناس من عجائب الأفضال والنعم مالم يؤرخ عن غير تلك الأيام ، هذا كله وهو وزير متابع للقوم ، ولكنه مقو لمذهب السنة ، غارس فى أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ؛ ويفدون عليه من كل جانب ، وهو لا يخيب قاصدًا ، ولا يعدم وافدًا إلى سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م[5] .

والطريف أن صلاح الدين ، إبان وزارته للعاضد ، قد أشاد بحرص العاضد على الجهاد ، وإمداده بالأموال الطائلة لرد الفرنج حين حاصروا دمياط ٥٦٥هـ / ١١٦٩م[6] ولا شك أن انتصار صلاح الدين فى دمياط قد وطد أقدامه[7] كذلك ضغط صلاح الدين على العاضد لإعطائه أموال يفرقها على الناس لاستمالة الأنصار ، فاستجاب له العاضد ، فكان كما لاحظ المؤرخون كالباحث

(١) نفس المصدر ، ص ٤٠ .
(٢) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٢ .
(٣) ابن خلكان : وفيات ، ج ٧ ، ص ١٥١ .
(٤) راجع ماجد : الناصر صلاح الدين الأيوبى ، بيروت ١٩٦٧ ، ٧٢ - ٧٤ .
(٥) ابن شداد النوادر ، ص ٤٠ - ٤١ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٠٦ .
(٦) النابلسى : لمع القوانين ص ١١ كان صلاح الدين يقول : ما رأيت أكرم من العاضد ، جهز إلى فى حصار الفرنج ألف ألف دينار ، سوى الثياب وغيرها . (سبط : مرآة ٨ : ٢٧٩) .
(٧) وصف ابن شداد صلاح الدين إبان حملة الفرنج على دمياط ، وما قام به من استعدادات عسكرية ، وما وهبه من العطايا والهبات بأنه " كان وزيرًا متحكمًا لا يرد أمره فى شيء " ، (ابن شداد: النوادر، ص ٤٣ ، س٩).

عن حتفه بظلفه[1] .ثم ما لبث صلاح الدين ، حسب قول الخالدى ، أن نقل ما كان من وزارة التفويض والعهد بها إلى السلطنة ، وصارت الوزارة عن السلطان معدوقة بقدر مخصوص من التصرف ، وبقى الأمر على ذلك إلى زماننا[2] ، أى إلى العصر المماليكى . فلا غروان اعتبر ابن واصل ، تاريخ تولى صلاح الدين للوزارة الفاطمية سنة ٥٦٥هـ ١١٦٩م تاريخ إبتداء الدولة الأيوبية . إذ قال معلقًا على المنشور العاضدى بوزارة صلاح الدين . « وهذا آخر منشور كتب عنهم، أى الفاطميين ، وانقرض أمرهم ، وانقصمت عرى دولتهم . وفى هذا التاريخ ابتداء الدولة الأيوبية ، وأخذت الدولة المصرية فى الوهن والضعف والإنحطاط إلى أن انقرضت بالكلية بعد سنتين[3] .

ولعل مما يؤكد تطابق منصبى وزارة التفويض ، والسلطنة ، ما حدث فى مصر عند قيام الدولة الأيوبية بها . إذ إتخذ كل من شيركوه وصلاح الدين دار الوزارة الفاطمية مقرًا رسميًا لهما[4] ، بل دفن فيها كل من شيركوه[5] ونجم الدين أيوب[6] بعد وفاتهما .

وإذا كان شيركوه ، هو أول من نال وزارة التفويض والسلطنة من البيت الأيوبى ، فإن أخاه الأكبر نجم الدين أيوب ، هو ولا ريب عميد الأسرة الأيوبية ، وإليه انتسب جميع أفراد هذا البيت ، سواء من نسله ، أو من نسل أخيه شيركوه ، لهذا وصفه المؤرخون بـ « والد الملوك »[7] فنجد أن

---

(١) ابن واصل : مفرج ، ص ١ ، ص ١٧٤ ، ابن خلكان : وفيات ،ج ٧ ، ص ١٥١ - ١٥٤ . يقول ابن شداد : " وبذل المال " ، وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا فملكها ، (النوادر ، ص ٤٠ ، ١٦ - ١٧) يقول ابن واصل : ثم شرع صلاح الدين فى استمالة قلوب الناس إليه وبذل من الأموال ما كان أسد الدين جمعه وطلب من العاضد شيئًا يخرجه ، فلم يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العضاد ، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ص ٤٠٨ ، س ٦ - ٨ ، وانظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٤ .

(٢) الخالدى : ١٩٣ ب - ١٩٤ أ ، وأيضًا القلقشندى : صبح ، ج ٩ ، ص ٣٩٩ - ٤٠٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧١ .

(٤) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٦٤ . س ١ .

(٥) ابن خلكان : وفيات ج ٧ : ١٥١ س ٦ ، سبط : مرآة ، ٨ : ٢٩٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٣ - ٥٤٢ .

(٦) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٣ ، س ١٥ - ١٦ .

(٧) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ٢٣٠ ، س ٢ ، وأنظر محمد عبد الغنى حسن : والد الملوك الأيوبية ، مقال بمجلة الرسالة ، السنة التاسعة ، ١٣٦١هـ - ١٩٤٢م ، ص ٩٩١ ، وأنظر أيضًا جمال الدين الشيال : والد الملوك الأيوبية ، مقال بمجلة الرسالة ، السنة التاسعة ص ١٠٧٩ - ١٠٨٠ . وقد وصفه مترجموه بأن " إليه نسبه الأيوبيين كافة " ، بمعنى أنه حتى الفرع الذى من نسل شيركوه والذى حكم فى حمص ، عرف أيضًا بالأيوبيين .

ولده صلاح الدين يخرج إليه إبان وزارته لاستقباله عند دخوله مصر ، ومعه الخليفة العاضد[(١)] ، وفي هذا استهانه بالخليفة الفاطمي ، ومبالغة في تمجيد والد صلاح الدين كبير البيت الأيوبي . الذى استقرت له السلطنة بمصر ، بعد أن ورث صلاح الدين عمه شيركوه فـي وزارة التفويض الفاطمية . وهذا ما أكده تقليد العاضد لصلاح الدين[(٢)] .وما حاول صلاح الدين تثبيته في الأذهان ، حين عرض على أبيه وزارة مصر ، فأبى ذلك عليه أبوه ، فحكمة صلاح الدين في الخزائن بأسرها[(٣)] .

ولقد ظل صلاح الدين يسكن دار الوزارة الفاطمية طوال فترة استقراره بمصر ، ثم سكنها من تلاه من ملوك الأيوبيين بمصر ، وصاروا يسمونها الدار السلطانية[(٤)] . حتى انتقل الملك الكامل محمد إلى قلعة الجبل بعد اكتمال بنائها[(٥)] ، ولقد ظلت قلعة الجبل مقرًا لسلاطين مصر الأيوبيين ثم المماليك ، ثم ملوك أسرة محمد على ، حتى عهد الخديوى اسماعيل[(٦)] .

---

(١) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٨٦ ، س ٤ .

(٢) أنظر القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٩٥ ، س ٨ - ١١ ، وانظر قبله . وقد رأينا ظاهرة تولى وزراء التفويض الوزارة وراثة عن آبائهم أكثر من مرة في العصر الفاطمي المتأخر ، حتى أن آخرهم شاور ، جعل ابنه نائبًا عنه في الوزارة إبان حياته . ولقد حفظ لنا القلقشندى ، السجل الصادر بتوليه ابن شاور نيابة الوزارة عن أبيه ، أنظر جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٣٢ - ٣٣) .

(٣) يقول ابن واصل : ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته ، وفوض إليه الأمر كله فأبى ذلك عليه أبوه وقال له : " يا ولدى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤ له ، فلا ينبغى أن تغير مواقع السعادة ، فحكمة في الخزائن بأسرها (ابن واصل : مفرج ، ج ١ ص ١٨٦ ، س ٧ - ١٠) . ويقول سبط ابن الجوزى : " ولما قدم نجم الدين أيوب مصر سأله صلاح الدين أن يكون هو السلطان فقال أنت أولى (مرآة ٨ : ٢٩٥) وهذا النص قرينه أخرى على تطابق وظيفتى وزارة التفويض والسلطنة .

(٤) ذكر المقريزى أن دار الوزارة أنشأها الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، ولهذا كان يقال لها أيضًا الدار الأفضلية وكانت تقوم بجوار القصر الكبير الشرقى تجاه رحبة باب العيد ، ومازال وزراء الفاطميين أرباب السيوف من عهد الأفضل يسكنون بدار الوزارة إلى أن زالت الدولة ، فاستقر بها الملك الناصر صلاح الدين ثم من تلاه من ملوك الأيوبيين ، وصاروا يسمونها الدار السلطانية ، وأول من انتقل عنها وسكن بالقلعة الملك الكامل محمد ، وجعلت منذ ذلك الحين منزلاً لضيافة الرسل (المقريزى : الخطط ، ٢ : ٣٠١ - ٣٠٤) ، من مطبعة بولاق و ج ٢ ص ١٥٧ من طبعة مطبعة النيل .

(٥) ابتدى العمل بقلعة الجبل ٥٧٢هـ - ١١٧٦م في عهد صلاح الدين وأثناء العمل توفى صلاح الدين ٥٨٩هـ - ١١٩٢م ، ثم أوقف العمل إلى أن كمل في سلطنة العادل ٦٠٤هـ - ١٢٠٧م . ولم يبق من بناء القلعة الأيوبية سوى بعض الأسوار بأبراجها وبعض الأبواب وأهمها باب المدرج وقد أدخلت على الأسوار وعلى كثير من الأبراج والأبواب تعديلات وزيادات في أزمنة مختلفة منذ الدولة الأيوبية حتى عصر محمد على ، أنظر بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة الجبل ترجمة أحمد دراج القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، د. أ. كريزويل : ووصف قلعة الجبل ترجمة جمال محرز القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، وأنظر زكى محمد حسن : قلعة الجبل ، مقال بمجلة الكاتب ، ١٩٤٦ ، ص ٨٧٣ - ٨٨٢ ، وأنظر قبله .

(٦) أنظر حسن عبد الوهاب : جامع السلطان حسن وما حوله ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٦٤ - ٩٦ .

فإذا كنا قد انتهينا إلى تطابق منصب وزارة التفويض الفاطمية ، مع منصب السلطنة الذى عرف بالعراق العباسى اعتمادًا على ملاحظة المؤرخ المشرقى ابن الأثير وملاحظة مؤرخى دساتير الإنشاء المصريين ، وإذا كان تقليد الخليفة الفاطمى العاضد بالوزارة لصلاح الدين ، قد نص على أنه نالها وراثة عن عمه شيركوه شأن الأفضل بن بدر الجمال ، وغيره من وزراء التفويض الفاطميين الذين ورثوا أباءهم فى هذا المنصب ، وشأن توارث البيت البويهى ثم السلجوقى بالعراق لمنصب السلطنة ، فإن فى اعتبار ابن واصل ، تاريخ اعتلاء صلاح الدين للوزارة ، هو ابتداء قيام الدولة الأيوبية بمصر ، وفى دفن صلاح الدين لعمه وأبيه فى دار الوزارة الفاطمية ، ثم اتخاذه هو وملوك بنى أيوب من بعده هذه الدار مقرًا رسميًا لسكناهم وسميت « بالدار السلطانية » ، ما لا يدع أى مجال للشك فى تطابق منصبى وزارة التفويض والسلطنة .

والأن ما هى السلطات التى تمتع بها كل من شيركوه وصلاح الدين ، كوزيرى تفويض للخليفة الفاطمى العاضد ؟ يلاحظ الشيال ، أن الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى ، لم يعدوا يقنعون بالتفويض الشامل ، الذى ينص عليه الخليفة فى السجل الصادر بتعيين الوزير ، بل أصبح من التقاليد المتبعة أن تصدر وثيقة جديدة تسمى بالتوقيع ، وتلحق بالسجل ، وفيها يوقع الخليفة بخطه بكلمات فيها معنى التأييد لوزيره والإشارة بفضله وسجاياه . وقد احتفظ القلقشندى بثلاث وثائق من هذا النوع أحدهما توقيع بخط الخليفة الفائز على طرة السجل بتعيين الصالح طلائع بن رزيك الوزارة ، والآخران توقيعان بخط الخليفة العاضد على طره سجل كل من أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين بالوزارة[1] .

ولاشك أن صدور هذه الوثيقة الجديدة ، التى يكتبها الخليفة بخطه ، دلالة على الازدياد المستمر لسلطات وزراء التفويض على حساب السلطة الروحية للخليفة ، تلك السلطة التى لم يعد الخليفة يمتلك غيرها فى الواقع ، خاصة إذا عرفنا أن الخلفاء الفاطميين ، لا يكتبون بخط أيديهم إلا نادرًا[2] ، وبالإضافة إلى كل هذا ، ومع ما عرف من استحواذ وزراء التفويض لجميع سلطات الخليفة ، فلقد استهل العاضد توقيعه على طره سجل شيركوه بالوزارة بهذه العبارة « هذا عهد لم يعهد لوزير مثله »[3] ، فهذه العبارة ولا ريب تؤكد بداية سقوط الخلافة الفاطمية بمصر ، بخط يد آخر خلفاء

---

(١) جمال الدين الشيال : مجموع الوثائق الفاطمية ، ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين الأيوبى ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) أنظر ابن واصل : مفرج ، ١ : ١٦٥ ، القلقشندى : صبح ٩ : ٤٠٦ - ٤٠٧ ، أبو شامة : الروضتين ، ١/٢ : ٤٠٢ .

الفاطميين، كما يستشف من حرص الخليفة العاضد على أخذ الإيمان والمواثيق ، بالوفاء للدولة ، على كل من شيركوه ثم صلاح الدين ، إن العاضد ، كان يشعر فى داخلية نفسه ، ما يعده وزيراه السنيان لإزالة خلافته الشيعية[1] .

أما سجل تقليد العاضد لشيركوه بالوزارة ، فهو يبدأ بتعداد ألقاب شيركوه التى منحها له الخليفة ، وهى تطابق ألقاب وزراء التفويض الفاطميين قبله[2] ، يتلو هذا فقرات وصيغ تؤكد ميراث الخلفاء الفاطميين للإمامة ، لكونهم أحفاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبناء على بن أبى طالب ، ومن ذرية آل البيت الطاهرين من الأئمة المهديين[3] ، كما تؤكد حق الخلافة الفاطمية فى السيادة على جميع أرجاء العالم الإسلامى ، لكون الخليفة الفاطمى هو حجة الله فى الأرض وشاهد على عصره[4] ، ثم يعقب السجل على هذه الفقرات ، المؤيدة للنظريات السياسية الإسماعيلية الخاصة بالإمامة ، بفقرات أخرى تظهر شيركوه على أنه نعمة أنعم بها الله على الخليفة الفاطمى ودولته[5] ، وأنه جاء لنجدة الخلافة الفاطمية وتأييدها ، وإنقاذها من الخطر الصليبى المتمثل فى جيوش ملك بيت المقدس التى دهمت الديار المصرية أكثر من مرة ، حتى هزمها شيركوه وأرغمها على الانسحاب[6] ، كما أنقذها أيضًا من شرور وزراء التفويض المستبدين الذى نهبوا خزائن الخلفاء واجتلبوا الصليبيين إلى البلاد[7] .

ثم يمضى السجل بحذر ، للمواءمة بين هاتين الفكرتين ، فيعرض فقرة تؤكد أحقية الفاطميين ، فى ميراث الخلافة ، ثم يُذّيلها بفقرة أخرى تشيد بشيركوه الذى أنقذ الخلافة وأيّدها ؛ أى أن السجل يحاول أن يمسك العصا من منتصفها ، ويخفى الوضع المتناقض ، الذى أضحت عليه الدولة الفاطمية ، من حَجْر وزير تفويض سنى ، لا يقر بالدعوة الإسماعيلية ، وبحق الفاطميين فى الخلافة ، على خليفة فاطمى شيعى ، يقوم حقه فى الخلافة على الإقرار بالدعوة الإسماعيلية ، والاعتقاد بأن الولاية والطاعة للإمام الفاطمى ، أساس العقيدة الفاطمية ، فيظهر السجل الأمر ، كما لو أن الله قد ألهم

---

(١) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١ أبو شامة : الروضتين ١/ ٢ ، ٤١٤ .

(٢) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٣) أنظر القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٨١ - ٨٣ .

(٤) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ .

(٥) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٤ .

(٦) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٤ .

(٧) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٤ .

العاضد ، لإختصاصه بالعلوم والأسرار النبوية باختيار شيركوه لوزارته[١] وإبعاد منافسيه (شاور) ، بحيث عدد السجل مثالب شاور ومفاخر شيركوه[٢] .

ولقد حاول كاتب السجل - وهو القاضي الفاضل - أن يخفي بخبرته الطويلة في صياغة السجلات الرسمية هذا التناقض ، كما حاول أن يدس بين ثنايا السطور ، تلميحات وتقريرات للأفكار الإسماعيلية الخاصة بالنفوذ الروحي للائمة الفاطميين ، كما أقرّته العقيدة الإسماعيلية : فالخليفة هو سليل النبوة [٣] ، ووارث أسرارها وعلومها[٤] ، وله حق الطاعة على جميع المسلمين[٥] ، بل زاد هذا السجل في إظهار نفوذ روحي مزعوم للخليفة العاضد ، لا نجد له مثيلاً في النظريات الإسماعيلية ، مثل ظهور معجزات وكرامات خاصة به[٦] ، وأن الله قد اختصه بالشفاعة يوم القيامة للمستجيبين لدعوته[٧] ، وأنه مؤيد من الله عند الانتقام ممن عصا أو حاول سلب حقوقه[٨] ؛ ولا يخفى أن هذه السلطات الروحية الجديدة ، التي زعمها هذا السجل للخليفة العاضد ، ما هي في الواقع إلا محاولة مستميتة للاحتفاظ بما بقي من ولاء ، للخليفة الفاطمي في نفوس أنصار دعوته ، بعد أن ابتذل وزراء التفويض سلطاته الروحية ، واستهانوا بها ، وبعد أن أمسى نفوذه الروحي مهددًا بالتلاشي النهائي على يد وزيره السني الجديد .

واختتم سجل شيركوه بتكرار أخذ المواثيق والعهد على هذا الوزير السنّي ، بأن يخلص الولاء للدولة الفاطمية وللخليفة الفاطمي ، وأن يلتزم بما حدده له الخليفة من مهام وسلطات في هذا السجل[٩] . وسجل تقليد صلاح الدين الوزارة ، لا يختلف في مجمله عن سجل عمه ، إلا في الإشارة بأنه قد نال الوزارة وراثة عن عمه شيركوه ، كما ورثها الأفضل عن أبيه بدر الجمالي أول وزراء التفويض الفاطميين ، وفي التأكيد على صلاح الدين في الاقتضاء بسيرة عمه في الوفاء للدولة الفاطمية ، وللخليفة الفاطمي[١٠] .

---

(١) أنظر القلقشندى ، ج ١٠ ، ص ٨٥ – ٨٦ .
(٢) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٧ .
(٣) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ٨٦ – ٨٧ .
(٤) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ ، س ١٢ – ١٣ .
(٥) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٢ ، س ٦ – ٩ .
(٦) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ ، س ١٠ – ١٢ .
(٧) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٢ س ١٠ – ١١ .
(٨) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٣ ، س ١٨ – ١٩ .
(٩) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٨ ، س ٥ – ٦ ؛ ج ١٠ ، ص ٩٠ .
(١٠) أنظر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٩١ ، ص ٩٤ ، س ١٩ – ٢٠ ، ج ١٠ ، ص ٨١ ، ص ٩٤ .

أما مضمون سجل تقليد شيركوه بالوزاره ، فهو كما لاحظ ابن واصل : « تفويض أمور الخلافة إليه ، والقيام بأعباء حفظها ، والذب عنها ، والتوصية بتقوى الله تعالى ، والعمل بفرائضه ، والانتهاء عن مناهيه[1] وهذا في الواقع ما نص عليه التقليد ، إذ جاء به :

« وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته ، وتدبير مملكته ، وحياطة ما وراء سرير خلافته ، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة أمامته ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين ، وتدبير ما عدقه الله بأمير المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، المقيمين منهم والقادمين ، وكافة رعايا الحضرة بعيدها ودانيها ، وسائر أعمال الدول باديها وخافيها ، وما يفتحه الله تعالى على يديك من البلاد ، وما تستعيده من حقوقه التي اغتصبها الأضداد ، وألقى إليك المقاليد بهذا التقليد .. وناطبك العقد والحل ، والولاية والعزل .. ، وما توجب السياسة إمضاءه من الأحكام »[2] .

وجلي إذا أن الخليفة قد تنازل عن جميع سلطات الخلافة ، سواء الإدارية الخاصة بتدبير المملكة ، أو الدينية الخاصة بالدعوة الإسماعيلية والقضاء ، أو العسكرية الخاصة بالإشراف على الجيش واسترداد الأراضي التي احتلها الصليبيون من ممتلكات الدولة الفاطمية ، أى بيت المقدس ، بالإضافة إلى رعاية شئون رعايا الخليفة ، والملاحظ من هذه السلطات ، أنها قد جمعت لشيركوه الإشراف الأعلى على السلطتين التنفيذية ، والقضائية أى التشريعية ، وذلك لأن الفكر السياسي الفاطمي ، إمعانًا في تقوية نفوذ الخليفة ، لم يأخذ بنظام فصل السلطات ، الذى يعد من أهم خصائص النظرية السياسية في الإسلام[3] ، على أساس أن الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ، واستنباط الأحكام منها ، طبقًا لقواعد علم أصول الفقه وهو علم مناهج البحث في الفقه الإسلامي[4] ، هو من حق أهل الحل

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) أنظر عبد الوهاب خلاف : السلطات الثلاث في الإسلام ، بحث بمجلة القانون والاقتصاد التي تصدرها جامعة القاهرة في السنوات ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ ، سليمان محمد الطماوى : السلطات الثلاث في الدساتير العربية المعاصرة ، وفي الفكر الإسلامي ، تكوينها واختصاصاتها ، جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية سنة ١٩٦٧ ، محمد صادق الصدر : سلطة القضاء في الشريعة الإسلامية ، مجلة رسالة الإسلام، العددان : الثالث والرابع ، السنة الثانية عشرة ، سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م ، ص ٣٢٦ - ٣٥٥ .

(٤) عن علم أصول الفقه ، أنظر محمد أبو زهرة : أصول الفقه ، دار الفكر العربي ، د.ت. محمد طاهر النيفر : أصول الفقه ، طبع تونس ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .

والعقد والفقهاء الممثلين لإجماع الأمة[1] . بمعنى أنه إذا كانت السلطة التنفذية من حق الخليفة السنى ، فإن السلطة التشريعية من حق الأمة ، أما الفكر السياسى الإسماعيلى ، فقد جعل الخليفة المجتهد المطلق فى الفقه الإسماعيلى [2] ، ومن ثم فقد فوض شيركوه ، السلطتين التنفيذية والتشريعية ، بمقتضى تفويض الخليفة العاضد له أمور الخلافة كلها ، وهذا التفويض للسلطتين قد آل أيضًا إلى صلاح الدين ، فلقد جاء فى سجل تقليده الوزاره :

« .. وخرج أمره (أى الخليفة العاضد) إليك ، بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء ، يكتب هذا السجل لك بتقليد وزارته التى أحلك ربوتها ، فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبتها التى تناهت فى الإنافة ، إلا أن لا رتبة فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخلافة[3] ، وليس أكثر من هذا تصريح وإفصاح ، عن استحواذ صلاح الدين لجميع سلطات الخليفة الفاطمى .

ويتفق سجلا تقليد شيركوه وصلاح الدين للوزارة ، فى تحديد المطلوب من هذين الوزيرين تجاه كل شأن من شئون الدولة ، فبالنسبة لعساكر الدولة ـ وكان الخليفة يقصد جنود دولته وليس الجنود الشامية النورية التى قدمت مع شيركوه ، لقول الخليفة « العساكر المنصورة .. ، الذين غذوا بولاء أمير المؤمنين ، وربوا فى حجور فضله وكرمه » ، طالب الخليفة وزيريه بتوفير الإقطاع لهم وأدرار النفقات ، وإن يجريهم على ما جرت عليه العادة من تقليد الولايات [4] ، يعنى ولاية الأقاليم

---

(١) أنظر محمود اللبابيدى : نظام الإسلام السياسى ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الرابعة العدد الرابع ، محرم سنة ١٣٧٢هـ - أكتوبر سنة ١٩٥٢م ، ص ٣٧٦ - ٤٠٢ ، محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٢٩٠ - ٣١٠ ، عبد الحميد متولى : مبادىء نظام الحكم فى الإسلام مع مقارنته بالمبادىء الدستورية الحديثة ، دار المعارف ، ١٩٦٥م .

ويذهب هؤلاء الباحثون إلى أن فكرة السيادة العامة للدولة ، هى بالنسبة للفكر السياسى الإسلامى (عند أهل السنة) متمثلة فى الأمة وأنظر رسالة للدكتوراه عن فكرة السيادة فى الفكر الإسلامى أجيزت من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٥ ، علـى محمد جريشه : المشروعية الإسلامية العليا ، نشر مكتبة وهبة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م . أما بالنسبة للفكر السياسى الشيعى ، فإن فكرة السيادة أى الحق الذى تحكم به الدولة ، أو المشروعية العليا للدولة فهى تستند فى رأينا على فكرة " الولاية " ، أى الطاعة للخليفة الفاطمى ومن ثم فإن الأمة فى الفكر السياسى السنى هى مصدر السلطات ومصدر السيادة اما فى الفكر السياسى الشيعى ، فإن الإمام هو مصدر السلطات ومصدر السيادة .

(٢) ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٣٩ .

(٣) القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٩٥ .

(٤) القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٨٨ - ٨٩ ، ص ٩٦ س ١٢ - ١٦ .

والإدارات المحلية ، وبالنسبة للقضاء ، فقد طالب الخليفة وزيريه بحفظ نظامه ، وتنفيذ أحكامه ، وإقامة حدوده ، وإمضاء عقوده ، واستعمال الكفاه[1] ، أما الدعوة ، ففي حين أكد العاضد على شيركوه ، بالقيام على تشييد أساس الدعوة وبنائها ، وتمييز آخذى عهودها وأبنائها[2] ، فإنه قد اكتفى بالقول لصلاح الدين ، وأما القضاه والدعاه فهم فى كفالتك وهديك ، والتصريف على أمرك ونهيك[3] ، وكأنه يقول له ، لقد سلمت إليك أمر دعوتى ، فافعل فيها ما يمليه عليك ضميرك .

ولقد اتفق التقليدان ، في الحض على حفظ أموال بيت المال ، وصرفها في وجوهها الشرعية والعمل على تثميرها وتعمير البلاد ، وأهم ما نلاحظه بخصوص السلطات الإدارية أن الخليفة قد طالب وزيره شيركوه ، برفع المكوس - وهى الضرائب غير الشرعية - التى عمد الجباه على جبايتها مما أثقل كاهل الرعية[4] ، كذلك ناشد السجلين شيركوه وصلاح الدين ، معاملة الرعية بالعدل والرأفة ، على أساس تقوى الله ، وليحظوا من الرعية بالدعاء الذى من شأنه أن يوفقهما فيما نهضا به من أعباء المملكة[5] .

ويتميز هذان السجلان بتخصيص فقرات طويلة بليغة تؤكد عظم فريضة الجهاد وتشيد ببطولة كل من شيركوه وصلاح الدين فى جهاد الصليبيين ، سواء فى الشام أو بمصر ، ولقد تنبأ السجلان ، بأن فتح بيت المقدس، واسترداد ساحل بلاد الشام من الصليبيين ، سيكون على يد هذين الوزيرين[6] .

ونحن لا نعرف ما اشتملت عليه خلعة الوزارة ، التى خلعها العاضد على شيركوه ، فى حين وصلنا وصف دقيق كامل للخلع التى خلعت على صلاح الدين عند توليته الوزارة ، ولقد أورد هذا الوصف أبو شامة الأصفهانى فقال : « وكانت خلعة الوزارة : عمامة بيضاء تنيسى بطرز ذهب ، وثوب دبيقى بطرازى ذهب ، وجبة سقلاطون بطرازى ذهب ، وطيلسان ديبقى بطراز دقيق ذهب ، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار ، وسيف محلى مجوهر قيمته خمسة آلاف دينار ، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار ، لم يكن بالديار المصرية أسبق منها ، وطوق وتخت ، وسرفسار ذهب مجوهر ، وفى رقبة الحجر مشده بيضاء وفى رأسها مائتا حبة جوهر ، وفى أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر ، وقصبة ذهب فى رأسها طالعه مجوهره ، وفى رأسها مشدة

(١) القلقشندى : ج ١٠ ، ص ٨٩ ، ٩٧ .
(٢) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٩ .
(٣) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٩٧ .
(٤) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٨٩ - ٩٠ .
(٥) نفسه ، ج ١٠ ، ص ٩٧ - ٩٨ .
(٦) نفسه ، ح ١٠ ، ص ٩٠ ، ٩٧ .

بيضاء بأعلام ذهب ، ومع الخلعة عدة بقج ، وعِدّة من الخيل ، وأشياء أخرى[1] ، كما أفاد أبو شامة أيضًا أن منشور تقليد صلاح الدين الوزارة ، كان ملفوفًا فى ثوب من الأطلس الأبيض[2] .

والملاحظ أن هذه الخلعة ، قد اشتملت على أزياء رسمية خاصة بالوزراء الفاطميين مثل العقد الجوهر ، كذلك فأغلب الظن أن الثوب الديبقى المطرز بالذهب ، هو الدراعة ، وهى ثوب قصير مشقوق من أمام محلى بعرى وأزرار ، عن الثوب المميز للوزراء الفاطميين[3] ؛ كما يلاحظ أيضًا خلو هذه الخلعة من الدواه المحلاة بالذهب ، وهى من علامات الوزارة ، وترمز إلى سلطة الوزير الإدارية[4]. أغلب الظن لأن صلاح الدين كان وزير سيف وليس وزير قلم .

ومن ناحية أخرى نلاحظ تشابه خلع الخليفة الفاطمى لوزير تفويضه صلاح الدين مع خلع الخليفة العباسى لكل من سلاطين بنى بويه وبنى سلجوق وبنى أيوب على التوالى[5] . فيما عدا اختلاف جوهرى واحد ، وهو أن الخلع العباسية قد اتخذت لون السواد[6] وهو الشعار المميز للعباسيين[7] ، فى حين اتخذت الخلع الفاطمية لصلاح الدين لون البياض[8] ، وهو الشعار المميز

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ح ١ ، ص ١٧٣ (من الطبعة القديمة) ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٩ ، من طبعة د. حلمى . ولقد قال أبو شامة : ج ١ ، ٤٠٧ س ٧ - ٨ ، أن خلعة الوزارة لصلاح الدين كانت الجبة والعمامة وغيرهما .

(٢) نفس المصدر ، ١ : ١٧٣ أيضًا (من الطبعة القديمة) ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٩ ، من ط د. حلمى . ويذكر سبط ابن الجوزى أن العاضد قد خلع على صلاح الدين خلعة الوزارة فى إيوان القصر ، ولقبه بالملك الناصر ، وقيل إنما لقبه المستضىء بعد ذلك مرآة ، ج ٨ ، ص ٢٧٩) .

(٣) أنظر ماجد : صلاح الدين ، ص ٧٣ ، وأيضًا ماجد : نظم الفاطميين ، ١ : ٨٩ - ٩٠ .

(٤) ماجد : نظم الفاطميين ، ح ١ : ص ٩٠ .

(٥) عن هذه الخلع العباسية ، أنظر القلقشندى : صبح ، ٣ : ٢٧٢ وانظر قبله وبعده .

(٦) أنظر القلقشندى : صبح ، ح ٣ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ .

(٧) سبب اتخاذ بنى العباس السواد فى ملابسهم ، يعلله المؤرخون بأكثر من تعليل ، فربما يرجع ذلك إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم عقد لعمه العباس يوم حنين ويوم الفتح راية سوداء ، وقيل بل حزنا على إبراهيم الإمام (أخو أبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور) وأوفى مرجع جمع كل ما يتعلق باتخاذ بنى العباس للسواد ، هو كتاب شمس الدين السخاوى . عمدة الناس فى مناقب بنى العباس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ ، ولقد تناول السخاوى هذا الموضوع فى فصل خاص عنونه بـ : " كون شعارها أى الخلافة العباسية - السواد ، ورقة ١٠١ - ١٠٣ ظ ، وانظر أيضًا السيوطى : رفع الباس عن بنى العباس ، مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٢٠١ مجاميع ، ق ٢٤٠ ، وانظر أيضًا السيوطى : رسالة بعنوان " ثلج الفؤاد فى أحاديث لبس السواد " ، مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٤٣ مجاميع ، الحسن بن عبد الله ، آثار الأول فى تراتيب الدول ص ١٠٢ - ١٠٣ ، القلقشندى : مآثر الإنافة ، ٢ : ٢٣٥ - ٢٣٧ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ح ٣ ، ص ٢٧٤ المقريزى : الخطط طبع بولاق ٢: ٢٢٨ السيوطى : الوسائل إلى مسامرة الأوائل ، ص ٦٩ - ٧٠ ، أحمد تيمور باشا : التذكرة التيمورية ، ص ٢٦٤ - ٢٦٨ .

(٨) ماجد : صلاح الدين ، ص ٧٣ .

للفاطميين[1] ، وأخيرًا فإن احتواء الخلعة على « الطيلسان » ، وهو زى القُضاة ، يشير إلى أن صلاح الدين ، كوزير تفويض ، كان له الإشراف على القضاء والدعوة .

كذلك نجد تشابهًا فى رسوم تقليد الخليفة العاضد لكل من شيركوه وصلاح الدين للوزارة ؛ من ناحية إنفاذ الخلعة لهم ثم استقبالهما فى قصره ، ومخاطبتهم بلقبهم الرسمى الذى خصهم به ، بحيث خوطب شيركوه بالملك المنصور[2] ، وخوطب صلاح الدين بالملك الناصر[3] ؛ ثم مسير هذين الوزيرين وهما مرتديين الخلع الخليفتية إلى دار الوزارة ؛ مع رسوم تقليد خلفاء بنى العباس لسلاطين بنى بويه وبنى سلجوق الذين كانوا ملازمين للحضرة السلطانية فى بغداد[4] .

أما ألقاب شيركوه وصلاح الدين ، التى منحها لهما الخليفة العاضد ، فهى تطابق ألقاب وزراء التفويض الفاطميين ، إذ لقب كل منهم بـ « السيد » ، الأجل ، الملك ، المنصور ، سلطان الجيوش ، ولى الأمة ، فخر الدولة ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، كما نسب كل منهما إلى الخليفة الفاطمى أى وصفا بـ « العاضدى »[5] وأن تميز كل من هذين الوزيرين السنيين بلقب جديد ، هو « سلطان الجيوش » ، أغلب الظن لتوليهما الإشراف على الجيوش المصرية الفاطمية والشامية النورية، الموجودة تحت قيادتهما بمصر[6] .

---

(١) عن كون البياض هو شعار الفاطميين أغلب الظن لمخالفة ومناقضة شعار أعدائهم العباسيين وهو السواد ، القلقشندى : صبح ٣ : ٤٧٣ ، المقريزى : الخطط ١ : ٤٤٨ ، ٤٥٥ ، ٢ : ٢٨١ ، الحسن بن عبد الله : أثار الأول ، ص ١٠٢ ، المقدس : أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٨ ، ابن خلدون : المقدمة ج ١ : ٢١٦ ، أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ٢٦٢ – ٢٦٤ .

(٢) أنظر ابن خلكان : وفيات ٧ :١٥١ ، ابن واصل : مفرج ١ : ١٦٣ – ١٦٤ ، ابن الأثير : الباهر ص ١٤٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ط. د . حلمى ، ج ١ ق ٣ ص ٤٠٢ – ٤٠٣ ويقول أبو شامة : ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين ، أمر بقراءته على رؤوس الإشهاد وفرح به غاية الفرح وأعيدت قراءته عليه عدة دفعات استحسانًا لمعانيه ، واستطرافًا لما أودع من بدائع الكلام فيه (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢، ص ٤٣٦ – ٤٣٧) .

(٣) ابن واصل : مفرج ١ : ٦٦٥ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ق ٢ : ٤٣٩ حيث يقول "وقُرئ المنشور بين يدى الملك الناصر يوم جلوسه فى دار الوزارة وحضر جميع أرباب الدولتين المصرية والشامية ، وكان يومًا عظيمًا ، وخلع السلطان (كذا) على جماعة الأمراء والكبراء ، ووجوه البلد ، وأرباب دولة العاضد " .

(٤) القلقشندى : مآثر ٢ : ٢٣٧–٢٤٠ ، القلقشندى : صبح ٣ : ٢٦٩–٢٧٢ ، وانظر قبله .

(٥) القلقشندى : صبح ، ح ١٠ ، ص ٨٠ ، س ١٥ – ١٨ .

(٦) ماجد : نظم الفاطميين ، ح ١٠ ، ص ٨٤ .

والجدير بالذكر أن لقب الملك[1] ، الذى حمله جميع أفراد الأسرة الأيوبية ، خاصة ملوك الأطراف منهم ، وذلك بعد قيام السلطنة الأيوبية بمصر ، قد ورثوه أيضًا عن وزراء السيوف الفاطميين ، إذ حمل هذا اللقب بملاحظة الخالدى والقلقشندى كل من الملك الأفضل رضوان وزير الحافظ ، وهو أول من لقب بالملك منهم ، والملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز ثم العاضد ، ثم شيركوه وصلاح الدين ، وذلك قبل أن يستقل بالملك ويخطب بالديار المصرية لبنى العباس ؛ ويضيف الخالدى ، أن الخليفة كان يحتجب والوزير هو المتصرف كالملوك[2] ، كذلك لاحظ أبو شامة أن وزير السيف الفاطمى كان يلقب عندهم[3] بالسلطان ، لذلك اعتقد بعض الباحثين ، أن لقب سلطان قد ورثه الأيوبيون عن طريقين ؛ إحداهما ، وراثة عن أستاذهم نور الدين الذى حمل هذا اللقب بدوره وراثة عن أساتذته السلاجقة ، إذ كان نور الدين ، أتابكا تابعًا لهم بحلب ودمشق ؛ وثانيهما ، وراثة عن وزارة التفويض من رجال السيوف فى العصر الفاطمى[4] ، ويؤيد هذا الرأى ما

---

(١) عن لقب ملك ، وكون ملوك بنى بويه هم أول من حملوه فى الإسلام ، أنظر القلقشندى : صبح ، ج ٥ ، ٤٤٧ - ٤٤٨ ، وأنظر السيوطى : الوسائل إلى مسامرة الأوائل ، ص ٨٤ ، حيق يقول : " أول من خوطب فى الإسلام (بالملك) ، عضد الدولة بن بويه ، وقام بعده ولده بهاء الدولة فزاده الطائع فى ألقابه (قوام الدين غياث الأمة) ، فهو أول من خوطب بالدين والأمة " ويقول القلقشندى : الفرق بين الملك والسلطان ، أن الملك أخص (أنظر صبح الأعشى ، ج ٩ : ٣٩٨) .

(٢) الخالدى : المقصد - خ لوحة ١٩٢ أ - ١٩٣ ب ، القلقشندى : صبح ، ٩ : ٣٩٩ - ٤٠٤ وفى رأى السيوطى أن هؤلاء الوزراء - الملوك ، يشبهون فى سيطرتهم على خلفاء الفاطميين ، البويهيين مع خلفاء العباسيين ، السيوطى : حسن المحاضره ، ٢ : ١٧ ، عن ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ : ٨٧ حيث يلاحظ أن الأيوبيين تلامذتهم المماليك ورثوا لقب الملك عن وزراء السيوف الفاطميين ، ثم ورث هذا اللقب عن الأيوبيين تلامذتهم المماليك .

(٣) يقول أبو شامة : وكانت عادة المصريين (يقصد الخلفاء الفاطميين) أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه فإن قوتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم ، وهو الملقب عندهم بالسلطان ، وما كانوا يرون المكاشفة وأغراضهم مستتبة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال (أبو شامة : الروضتين ١ ق ٢ ، ص ٣٣١ س ١٤ - ١٧) وهذا ما يعلل إطلاق الشاعر عمارة اليمنى لقب سلطان على وزير التفويض الفاطمى طلائع بن رزيك . أنظر عمارة اليمنى : النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ، تحقيق درنبرج ١ : ٤٤ و ١٢٢ ، عن ماجد : نظم الفاطميين ١ : ٨٧ وإن ذهب إن هذه التسمية صادرة أغلب الظن عن خيال الشاعر .

(٤) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ . وقد ورث السلاجقة لقب سلطان عن القرنويين ، راجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ص ١٤٥-١٧٢، وخاصة ص ١٥٠ - ١٥٨ .

سبق أن لاحظه الخالدى والقلقشندى عن تطابق منصب وزارة التفويض الفاطمية مع منصب السلطنة العراقية وما لاحظناه من استقرار الأيوبيين الأول حتى عصر السلطان الكامل فى دار الوزارة الفاطمية وتسميتها بالدار السلطانية[1] .

---

(١) أنظر قبله . والواقع أن الفقيه السنى أبو الحسن الماوردى ، قد ألمح فى كتابيه الأحكام السلطانية ، وقوانين الوزارة ، إلى أن وزارة التفويض ، التى اقتصرت على رجال السيوف ، قد تطورت فى عصره وقبله ، فأصبحت تعنى مفهوم السلطنة . والجدير بالملاحظة هنا أن الماوردى ألف كتابيه فى نهاية القرن الخامس أى فى نهاية العصر البويهى وبداية العصر السلجوقى ، إذ عدد الماوردى اشتقاق كلمة الوزارة ثم علق بقوله :" ولاى هذه المعانى كان مشتقًا ، فليس فى واحد منها ما يوجب الاستبداد بالأمور ، (الأحكام السلطانية ، ص ٢٣ ، س ٢٠ - ٢١) ، ثم حرص الماوردى على أن يظهر أوجه الفرق بين وزارة التفويض والخلافة . فقال : " ويعتبر فى تقليد هذه الوزارة شروط الإمامة إلا النسب وحده .. ويحتاج فيها إلى شرط زائد على شروط الإمامة ، وهو أن يكون من أهل الكفاية ، فيما وكل إليه من أمرى الحرب والخراج .. وعلى هذا الشرط مدار الوزارة وبه تنتظم السياسة ، (الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢١ ، س ٨ - ١٤) ، كما حرص الماوردى أن يفرق بين سلطات الإمام وسلطات وزير التفويض . فقال عن وزارته : " فالنظر فيها .. بشرطين يقع الفرق بينهما بين الإمامة والوزارة ، أحدهما يختص بالوزير ، وهو مطالعة الإمام لما أمضاه من تدبير .. ، والثانى مختص بالإمام وهو أن يتصفح أفعال الوزير .. ، وكل ما صح من الإمام صح من الوزير إلا لثلاثة أشياء ، إحداها ولاية العهد ، فإن للإمام أن يعهد إلى من يرى وليس ذلك للوزير ، الثانى أن للإمام أن يستعفى الأمّة من الإمامة وليس ذلك للوزير ، والثالث أن للإمام أن يعزل من قلده الوزير ، وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام (الماوردى : الأحكام ، ص ٢٣ - ٢٤) . فعلى هذا الأساس فإن الوضع الشرعى لوظيفة وزارة التفويض أو السلطنة كما أوضحه الماوردى لا يعنى استبداد رجال السيوف من الوزراء المفوضين والسلاطين بالسلطة دون الإمام ؛ كما يجعل حق ولاية العهد من حق الإمام - وهو ما لم يحترمه وزراء التفويض الفاطميين بتلاعبهم بالنص ؛ كما يجعل للإمام حق مراجعة تصرفات وزيرة وإبطالها إذا لزم الأمر . وهذا شيء لم يحدث أبدًا . سواء بالعراق العباسى أو بمصر الفاطمية . وعن أحكام وزارة التفويض ، أنظر الماوردى : قوانين الوزارة وسياسة الملك ، ص ١٠ - ٣٥) . ولقد أوضح ابن خلدون بحاسته التاريخية المرهفة كيفية تحول وزارة التفويض إلى وظيفة إمرة الأمراء أو السلطنة فى العصر العباسى الثانى وكون بنى بويه وزراء سيوف استكفوا اتخاذ ألقاب الوزراء ، فتلقبوا بالسلطان . يقول ابن خلدون : " فلما جاءت دولة بنى العباس .. وعظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد .. ، فصار اسم الوزير جامعًا لخطتى السيف والقلم .. ، فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهى حال ما يكون السلطان قائمًا على نفسه ، وإلى وزارة تفويض وهى حال ما يكون الوزير مستبدًا عليه ، ثم استمر الإستبداد وصار الأمر للملوك العجم البويهيين وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب لأنهم خول لهم فتسموا بالإمارة والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الأمراء أو بالسلطان إلى ما يحليه به الخليفة من ألقابه كما تراه فى ألقابهم وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة من خاصته ، ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم (أنظر ابن خلدون : المقدمة ، طبع المطبعة الأدبية بيروت ، ١٩٠٠م ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩) .

وسائل القضاء على المذهب والتراث الفاطمى بمصر والشام واليمن :

وعلى هذا النحو ، كانت أمور الدعوة الفاطمية ، عندما نجح كل من شيركوه وصلاح الدين ، فى استحواذ وزارة التفويض الفاطمية ، التى تكفل لهم سلطاتهم ، حجر الخليفة الفاطمى ، وانتزاع جميع سلطاته السياسية ، وفى نفس الوقت الهيمنة على شئون الدعوة الفاطمية : تقوقعت النزارية الشرقية فى إيران ، تحت عنف الضربات العسكرية لسلاطين السلاجقه ، وتشتت النزارية بالشام وضعف التشيع به ، نتيجة للسياسة الدينية والتعليمية لنور الدين ، بحيث لم يبق لهم إلا قلعة مصياف الذى استقر بها سنان بن سليمان بن راشد ، وامتنع فيها عن نور الدين ، وإن ظل للنزارية بالشام بعض النفوذ السياسى ، فى كبرى معاقلهم الشامية ، وهى مدينة حلب ، فى حين أدت الانقلابات العسكرية والانشقاقات المذهبية المتكررة التى واجهت الدعوة الإسماعيلية والخلافة الفاطمية بمصر ، إلى ذبذبة العقيدة الإسماعيلية ، وهى تستند فى المقام الأول ، على منصب الخلافة والطاعة «الولاية» للسلطة الروحية للإمام ، بحيث شك كثير من المصريين الذين استجابوا للدعوة الفاطمية واعتنقوها فى صحة النظريات السياسية الإسماعيلية ، ومن ثم فى صحة العقيدة الفاطمية ذاتها ، بحيث ضعف التشيع فى قلوب المصريين ، وكبار رجال الدولة الفاطمية(1) ، مما سهل لشيركوه وصلاح الدين القضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، أما الدعوة الطيبية فى اليمن فيبدوا أنها كانت مازالت تحتفظ ببعض التماسك السياسى والمذهبى : بحيث لجأ توارنشاه الأكبر ، أخو صلاح الدين ، إلى اللجوء إلى العنف الدموى ، للقضاء على الكيانات السياسية الإسماعيلية باليمن(2) . كما شتتوا أيضًا المذاهب الشيعية الأخرى ، مثل الزيدية بمكة(3) .

ويؤكد واقع الأحداث ، أن كلاًّ من شيركوه وصلاح الدين قد خالفا أهم العهود والمواثيق ، التى أخذها عليهما الخليفة الفاطمى ، فى تقليده لهما بالوزراة ، فلقد أكد على كليهما ، ضرورة الإبقاء على إقطاعات أمراء الجيش الفاطمى وتوليتهم ولايات الأقاليم والإدارات المحلية بمصر ، كما جرت عادة الخلفاء الفاطميين معهم فى ذلك(4) . فكان أول عمل أقدم عليه شيركوه بعد استقراراه

(1) أنظر مناقشة عن مدى ضعف العقيدة الإسماعيلية فى نفوس الشعب المصرى ، وفى نفوس كبار رجال الدولة الفاطمية فى نهاية العصر الفاطمى بمصر ، أنظر محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى ، ص - ١٠ .

(2) أنظر قبله . وأنظر ابن شداد : النوادر ، ص ٤٦ .

(3) ذكر الصفدى فى ترجمة الملك المسعودا قسيس بن الملك الكامل ، ت ٦٢٦هـ ، الذى ناب عن أبيه فى حكم اليمن ومكة تسع عشر سنة أنه " قمع الخوارج باليمن ، وطرد الزيدية عن مكة . (الصفدى: الوافى ، ج ٩ ، ص ٣١٦) .

(4) راجع ما تقدم فى فصلنا هذا .

فى الوزارة ، هو إقطاع البلاد المصرية بمناشير لأمرائه الشوام[1] ، وقد ظل إقطاع البلاد ، والإدارات المحلية بالأقاليم بمناشير إقطاعية على كبار أمراء الدولة ، من أهم مظاهر السلطنة طوال العصر الأيوبى، خاصة عند حدوث تقلبات سياسية بعد خلع أحد السلاطين ، وتولية غيره عقب انقلاب عسكرى ، إذا كان هؤلاء المقطعين بمثابة الحكام الإداريين المحليين - أى المحافظين بالمصطلح الإدارى الحديث - فى هذه الولايات ، خاصة المدن ذات الأهمية العسكرية الخاصة ، مثل الثغور ، التى تستلزم وجود حامية عسكرية محلية بها[2] ، وهذا ما قام به صلاح الدين أيضًا بعد أن صفى له الأمر فى الوزارة بانسحاب الحزب المنافس له المتمثل فى الأمراء التركمان الموالين لنور الدين ، وعودتهم إلى بلاد الشام ، فشرع صلاح الدين فى نقض إقطاع المصريين ، فقطع منهم الدابر ، من أجل من معه من العساكر[3] ، ثم اقطع البلاد بمناشير إقطاعية لأفراد أسرته ، وبذلك تمت سيطرته التامة على الديار المصرية[4] ، كذلك أكد تقليد العاضد على كل من شيركوه وصلاح الدين رعاية شئون الجيوش الفاطمية ، التى أصبحت تحت قيادتهما المباشرة ، والسهر على توفير النفقات لهم ، وإعدادهم لفريضة الجهاد[5] . ورعاية خواص الدولة الفاطمية[6] ، ففعل صلاح الدين نقيض ما أمر به ، إذ أباد الجيش الفاطمى عن بكرة أبيه ، كما قضى على حاشية القصر[7] .

وفى رأى المؤرخ الشيعى ابن أبى طىء ، أن القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر ، لم يبدأ إلا فى عهد وزارة صلاح الدين ، إذ وصف فترة وزارة شيركوه بقوله : « إن أسد الدين لما ولى الوزارة ، لم يغير على أحد شيئًا ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم إلى أن انقضت أيامه »[8] ، وقد أوضح ابن شداد أن صلاح الدين ، قد عمد على نشر المذهب السنى بمصر ، منذ أن كان وزيرًا للفاطميين ، فكان « وزير متابع للقوم ، ولكنه مقو لمذهب السنة ، غارس فى أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين[9] . وأغلب الظن أن التكوين العلمى لصلاح الدين ، ونقاء عقيدته

---

(١) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٠ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(٢) أنظر بعده . ويشبه هذا الإجراء الذى استنه شيركوه ، وظل طوال العصر الأيوبى بمصر ، ما جرى عليه العُرف فى العصر الفاطمى عند تولى الخليفة العرش ، فكان يصدر سجلات بتجديد ولاية الولاه فى الأقاليم (الشيال : مجموع الوثائق الفاطمية ، ص ٢٥) .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ ، س ١٢ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ .

(٥) أنظر قبله .

(٦) أنظر قبله .

(٧) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ – ٤٥٢ ، المقريزى : الخطط ، ج ٣ ، ص ٢–٥ .

(٨) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٨ ، س ١– ٢ .

(٩) ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ – ٤١ .

السنية[1] ، وشغفه بعلوم الحديث والسنة[2] ، وتعظيمه للعلماء والفقهاء من حملة الشريعة وحماتها ، إلى جانب كراهيته للفلاسفة والمتكلمين ، سواء من المعطلة (الذين ينفون الصفات الإلاهية) أو المشبهة (الذين يثبتونها) أو الدهرية (القائلين بقدم العالم) ، وهذا ما دفعه إلى الأمر بقتل الفيلسوف الصوفي الشهير السهروردي[3] . وإن كنا نظن أن السهروردي ، وهو من متكلمي الصوفية ، كان يبطن التشيع ويدعو إليه ، شأن المتصوف الشهير الحلاج[4] ، فأغلب الظن أن مقتل السهروردي كان وراءه سببًا سياسيًا لم يفصح عنه مؤرخي صلاح الدين ، خاصة وقد ظلت مكانة

---

(١) يقول ابن شداد : في سيرة صلاح الدين ، تحت عنوان ، ذكر ما شهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية " .. كان – رحمة الله عليه – حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث عن مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه ، موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء . وقد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب وكان يعلمها الصغار من أولاده لترسخ أذهانهم (ابن شداد : النوادر ، ص ٧) .

(٢) قال ابن شداد : " وكان – رحمة الله – شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه ، وسمع عليه ، تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية .. ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، وكان رحمة الله تعالى – يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرني في خلوته ، ويحضر شيئًا من كتب الحديث ، ويقرؤها هو ، فإذا مر بحديث فيه عبرة دق قلبه ، ودمعت عينه ، (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٩ – ١٠) .

(٣) يقول ابن شداد : " وكان – رحمة الله عليه – كثير التعظيم لشعائر الدين ، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار ، مصدقًا بجميع ما وردت به الشرائع ، مبغضًا للفلاسفة والمعطلة والدهرية ومن يعاند الشريعة ، ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر ، أعز الله أنصاره ، بقتل شاب نشأ يقال له السهروردي ، قيل عنه أنه كان معاندًا للشرائع مبطلاً ، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره ، وعرف السلطان به ، فأمر بقتله ، وصلبه أيامًا ، فقتله " (ابن شداد : النوادر ، ص ١٠ ، س ٣-٧).

(٤) وصف ابن النديم المتصوف الشهير الحسين بن منصور الحلاج بأنه كان " جسورًا على السلاطين ، مرتكبًا للعظائم ، يروم انقلاب الدول ، .. ويظهر مذاهب الشيعة للملوك ، ومذاهب الصوفية للعامة ، (ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٦٩ – ٢٧٠) .

الصوفية مرموقة ومحلاً للتبجيل والاحترام من سلاطين بنى أيوب[1] ، ومن بعدهم فى عهد تلامذتهم سلاطين المماليك[2] .

ولا جدال فى أنه ليس من السهل اليسير ، أن يقتلع مذهب من المذاهب ، بمجرد تغيير النظام السياسى فى بلد من البلاد ، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة ، وإلى تدابير ليست هى من تدابير القوة والبطش فحسب[3] ، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين ، قد استخدم وسائل وأساليب عديدة ، فى سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر ، جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف ، والحسم الفورى المباشر ، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج ، واستخدم بعضها العنف العسكرى الدموى ، فى حين نَهَجَ البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع ، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية الدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف للصرف عليها .

لقد بدأ صلاح الدين بإذلال شخص الخليفة الفاطمى العاضد ، للقضاء على فكرة « الولاية »، التى تبنى عليها جميع النظريات والعقائد الإسماعيلية ، ويستمد منها الخلفاء الفاطميون قداستهم ، فأرغم الخليفة العاضد ، على الخروج بنفسه لاستقبال والده نجم الدين أيوب ، عند وصوله إلى مصر ، رغم ما جرى عليه العرف ، وحرصت عليه الرسوم الفاطمية ، من استعلاء الخليفة الفاطمى ، واحتجابه عن الناس ، لعدم ابتذاله بكثرة ظهوره أمام الناس ، ولإكسابه مسحة من القداسة والتعظيم ، بل يذكر أبو شامة ، أن العاضد قد خرج لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح ، ولم يجر بذلك عادة لهم ، وكان من أعجب يوم شهده الناس[4] ، بل اضطر العاضد إلى مخالفة التقاليد والعرف وقواعد

---

(١) يقول الشيزرى فى كتابه المنهج المسلوك فى سياسة الملوك الذى ألفه لصلاح الدين فى الباب العشرون ، الذى عنونه فى الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك : " أعلم أن استيلاء الدنيا على الملوك وإقبالها عليهم ، ربما شغلتهم عن أمر الآخرة وأغفلتهم عن مهمات الدين ، فيجنحون إلى اللذات ، ويهملون أمر الديانات ، لأن النفوس مطبوعة على الميل إلى الترف وايثار التنعم وكراهة التكليف فلا ينبغى أن تخلو مجالسهم من علماء الدين ، وصلحاء المسلمين ، لينبئوهم عند طرق الغفلة ، ويذكروهم عند حرارة الشهوة ، ويُوضحوا لهم نهج الآخرة ومعالم الشريعة ، وقد كان شعار الملوك العارفين والخلفاء الراشدين أن يدعوا إلى مجالسهم الحكماء ، ويتخلوا لاستماع مواعظ العلماء (الشيزرى : المنهج المسلوك ص ١١٧ - ١١٨) .

(٢) بلغ احترام سلاطين المماليك لشيوخ الصوفية حدًا كبيرًا جعل هؤلاء الصوفية يتطاولون أحيانًا على السلاطين، وهذا ما استكفه الفقيه ابن جماعة ، فأوضح أن احترام السلاطين وتعظيمهم من واجبات الرعية على السلاطين ثم قال : وما يفعله بعض المنتسبين إلى الزهد من قلة الأدب معهم بخلاف السنة (أنظر ابن جماعة : تحرير الأحكام ، خ ، ورقة ١٤ - ١٥) .

(٣) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ١٠ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ ، س ٥ - ٦ .

ورسوم الدولة ، فمنح والد صلاح الدين ألقاب وزراء السيوف ، إذ خلع عليه ، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا[١] ،ثم ما فتىء صلاح الدين ، يعمل على الاستهانة بالخليفة ، وابتذال مكانته الروحية بين أتباعه وأنصار دولته ، فأخذ يستولى على موجوداته وممتلكاته الشخصية وخيوله ، بحجة شدة الحاجة إليها فى أمور الجهاد ، حتى أن الخليفة فى آخر الأمر ، عرض على صلاح الدين أن يتنازل له عن فرسه الخاص الذى لا يملك غيره ، فأجاب صلاح الدين بالاعتذار عن الحاجة[٢] . ولا يخفى أن هذا الابتذال المتكرر المتعمد الموجه للخليفة ، للاستهانة به أمام رعيته ، كان يهدف أيضًا إلى إجبار الخليفة على الاعتزال ، وتجنب الظهور فى المناسبات العامة ، حتى ينساه المصريون .

والغريب أن صلاح الدين قد أخذ فى إمضاء وتنفيذ أهم وسيلة تدريجية تعليمية للقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، وهى المدارس المذهبية السنية ، التى كانت هى السبب الأول فى تحول الشيعة فى مصر إلى رأى الجماعة والسنة[٣] . وهو من الناحية الرسمية لايزال وزير تفويض فاطمى[٤]. من المفروض أن يعمل على نشر الدعوة الإسماعيلية ورعاية شئونها ، لكونه « داعى الدعاه ، وقاضى القضاه » ، المفوض من قبل الخليفة الفاطمى[٥] .

ويفيدنا الأديب المغربى ، ركن الدين الوهرانى ، وقد عاصر قيام الدولة الأيوبية بمصر : إن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، هو الذى حضه على سرعة إنشاء هذه « المدارس » السنية بمصر ، فور قدومه عليه من بلاد الشام ، وأنه قد باشر بنفسه الإشراف على إنشاء هذه المدارس : بالإضافة إلى تنظيمه « لمجالس » أغلب الظن أنها مجالس للوعظ الصوفى ، ـ وهى إحدى وسائل نشر المذهب الأشعرى ـ كما قام نجم الدين أيوب بإنشاء « الزوايا » فى مشاهد كبار ائمة السنة وآل البيت المدفونين بمصر ، وأيضًا أشرف بنفسه على بناء عدد من المساجد[٦] .

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٦٦ ، س ٦ – ٧ .
(٢) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص .
(٣) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٢٨ .
(٤) أنظر ابن شداد : النوادر ، ص ٤٠ – ٤١ ، وانظر قبله .
(٥) أنظر قبله .
(٦) نورد نص الوهرانى لأهميته الشديدة ، لكونه معاصر لقيام الدولة الأيوبية ، ولأنه لم يستفد منه من قبل ، فيقول الوهرانى : " ولما وصل الملك الأفضل نجم الدين أيوب أبو السلطان ، انمع به حزب الشيطان ، ورد الناس إلى الأوطان ، ففتح الله به أبواب الجنة ورفع ببركته منار السنة ، فأحدث المدارس ، و " المجالس " وشيد المساجد والمشاهد وتفجرت يمينه بالنفقات حتى عم أهل الأرض بالصدقات وجعل قبر الإمام محمد بن إدريس " زاوية " للفقه والتدريس فقويت به عرى الإسلام ، واشتد به دين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام (الوهرانى : المنامات والمقامات ، ص ١٣ – ١٤) .

وأغلب الظن أن قدوم والد صلاح الدين من الشام ، كان بتكليف من نور الدين ، ليشرف بنفسه وهو الشيخ المحنك ، على إبطال الشعائر الشيعية من مصر ، وإظهار شعار أهل السنة بها ، إذ تجمع المصادر أن صلاح الدين كان مترددًا في قطع الخطبة للفاطميين ، وأنه لم يقدم على هذا العمل رغم إلحاح نور الدين المتكرر ، إلا بعد قدوم والده ، الذى أشرف بنفسه على هذا العمل ، بعد أن حرص صلاح الدين ، أن يبدو وكأنه لم يأمر هو بهذا ، خشية انتقاض المصريين وثورتهم ، وليتملص من هذا العمل الخطير إذا لزم الأمر[1] . ولقد أفادنا ركن الدين الوهراني أيضًا ، أن نجم الدين أيوب ، قد مهد لقطع الخطبة لخلفاء بنى العباس ، بعدة إجراءات تمهيدية ، أهمها التصريح بأسماء الصحابة العشرة المبشرين بالجنة والدعاء لهم على المنابر ، وهو أمر مخالف للشعائر الإسماعيلية ، وذلك لكى تبدأ أذهان المصريين فى تقبل اختفاء الشعائر الإسماعيلية رويدًا رويدًا ، ثم صلى نجم الدين الجمعة أربعة ركعات لعدم اكتمال العدد اللازم لإقامتها جماعة ركعتين ، ثم صرح أخيرًا بقطع الخطبة للفاطميين والخطبة لبنى العباس ، بحيث نظر العالم الإسلامى ، لهذا الانتصار السنى الحاسم ، على أنه قد تم على يد « بنى شادى » وليس على يد صلاح الدين فقط ، لكون والده ، هو الذى باشر هذا الأمر بنفسه[2] .

---

(١) عن قطع الخطبة للعاضد فى افتتاح سنة ٥٦٧ ، أنظر أبو شامة : الروضتين ، ح ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ ، ٤٩٦ - ٤٩٩ ، ٥٠١ وأنظر قبله وبعده .

(٢) وكما أسند الوهرانى لنجم الدين أيوب ، فضل إنشاء المنشآت السنية بمصر ، لرفع منار السنة ، أسند إليه أيضًا فضل قطع الخطبة الفاطمية فى مصر ، فيقول الوهرانى فى نص هام آخر : " وصلى الملك الزاهد ، والبطل المجاهد ، نجم الدين وسيف المجاهدين ، أول جمعة صلاها أربعًا ، ولم يجد فيها للسنة مجمعًا ، فصعب عليه تبطيل هذا الفصل وإسقاط ذلك الأصل ، فأقبل يمهد القواعد ويهيها ، ويخمد البدع ويخفيها ، حتى كمل الإسلام ، وتم دين النبى عليه السلام ، وأتى البيت من بابه ، ورد الأمر إلى أربابه أجرًا ساقه الله إليه ، وفتحًا مبينًا قضى به على يديه . فأمر بذكر العشرة الكرام البررة ، وصرح بأسمائهم على المنابر .. ، ثم خرج من الشك والإلتباس ، ودعا للأئمة من بنى العباس ، لعلمه أنه لا يتم الإيمان إلا بولايتهم ، ولا تحسن المنابر إلا بسواد رايتهم ، ولكونه قد غذى بلبانهم ، ونشأ فى إحسانهم ، فحصل بنو شادى على الرتبة الفاخرة .. وفازوا بنعيم الدنيا وثواب الآخرة ، فسار ذكرهم فى الأقطار . (الوهرانى : المنامات والمقامات ، ص ٦ ، س ١ - س ٩) . ولقد أيد المؤرخ الشيعى بن أبى طىء ، ما ذهب إليه الوهرانى من أن نجم الدين أيوب هو الذى قطع الخطبة بأمر نور الدين ، قال أبو شامة : قال ابن أبى طئ الحلبى : قد قدمنا ذكر مكاتبة نور الدين وإلحاحه على صلاح الدين فى إقامة الخطبة بمصر للعباسيين ، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد ألى نور الدين فى ذلك . راجع هذا النص الهام ، ورواية طويلة لابن أبى طيء ، توضح تدرج نجم الدين أيوب فى قطع الخطبة وأن هذا الأمر دام على مدى جمعتين كاملتين وأنه بدأ بإبطال الأذان بـ " حى على خير العمل " ، أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

وإلى جانب هذه الوسائل التدريجية التى استخدمها الأيوبيون للقضاء على المذهب الإسماعيلى بمصر ، استخدم الأيوبيون فى نفس الوقت . وسائلاً سياسية اتسمت بالحسم والفورية ، وتميز بعضها بالشدة والعنف ، وذلك للقضاء على بقايا الوجود السياسى للفاطميين وأنصارهم بمصر والشام .

وكان أول إجراء حاسم ، أمضاه صلاح الدين ، فى سنة ٥٦٦هـ - ١١٧٠م ؛ إذ يخبرنا المؤرخ الشيعى ابن أبى طى ؛ أنه « أمر فى هذه السنة بتغير شعار الإسماعيلية ، وقطع من الأذان حى على خير العمل ، وشرع فى تمهيد أسباب الخطبة لبنى العباس» [١] ، وفى افتتاح سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م، تم قطع الخطبة للخليفة العاضد ، وخطب لخلفاء بنى العباس ، بعد أن تزيىّ الخطيب بلباس السواد شعار العباسيين[٢] ، ثم جعل صلاح الدين من شعار السواد زيّا رسميًا للخطباء والقضاه بمصر[٣] ، والملاحظ أن الخطبة للعباسيين قد تمت بالإسكندرية قبل القاهرة ومصر بنحو إسبوعين[٤] . وذلك لأنها ظلت على المذهب السنى طوال العصر الفاطمى[٥] ، ويصور لنا المؤرخ الشيعى ابن أبى طئ الحلبى ، رد فعل قطع الخطبة الفاطمية من مصر ، تصويرًا مبالغ فيه يوحى بوقوع اضطهاد عنيف لأتباع الدعوة الإسماعيلية ؛ ويوهم بأن أكثر أهل مصر كانوا من أنصار الدعوة الإسماعيلية ؛ بحيث هاجر عدد كبير منهم من مصر[٦] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤٨٨ ويقول ابن أيبك الدوادارى فى حوادث ٥٦٧هـ ، وفيها بطل الأذان بحى على خير العمل وعاد لما عليه أولاً ، واستمر للآن (الدرر ، ص ٤٩) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٩ . يقول ابن أيبك الدوادارى أن صلاح الدين خلع العاضد من الخلافة بفتاوى الأئمة والفقهاء ، الدرر المطلوب ، ص ٤٧ ، وذكر أن أكثر الفقهاء مبالغة فى الفتيا وتصميمًا على زوال أمر العاضد كان فقيه صوفى اسمه الخبوشانى وهو كما سبق القول اعتمادًا على نقوش الإمام الشافعى ، فقيه أشعرى سنى كان أول من تولى التدريس بمدرسة قبة الشافعى وهى أول مدرسة سنية أنشأها الأيوبيون فى مصر .

(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٦ ، ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٤ - ٢٥ ، أنظر قبله .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٥٠٤ ، حيث يقول أبو شامة : قال العماد فى ديوانه ونقلته من خطه ، قال : ووصل الخبر بأن الخطبة قامت فى الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان وفى مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشرى شهر رمضان لمولانا الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين وإقامته شعار بنى العباس بها .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ ، س ١ ، وأنظر قبله .

(٦) قال ابن أبى طىء : " ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الإسماعيلية ، وتتبعوهم واذكوهم ، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم ، وإذا وجد أحد من الأتراك - المقصود أمراء صلاح الدين - ، مصريًا (أى إسماعيليًا فاطميًا) أخذ ثيابه ، وعظمت الأذية بذلك وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد وفرح الناس بذلك وكتبت الكتب به إلى الأقطار وتحدث به السمار ، (أبو شامة : الروضتين ، ١ / ٢ ، ص ٥٠١).

وفى نفس هذه السنة عمد صلاح الدين إلى تغيير رسوم الدولة الفاطمية[1] ، ذلك لأن الفاطميين كانوا قد طبعوا بلاطهم الملكى وقصورهم بطابعهم المذهبى الخاص[2] ، وكانوا يتخذون من حفلاتهم الرسمية مناسبة لتأكيد عقيدتهم بحيث صبغوا حفلاتهم بطابع شيعي مذهبى ، كان دليلاً على طابع دولتهم المميز[3] .

ثم وضع صلاح الدين من مكانة قصر الخلافة الفاطمية، بأن أسكن فيه أمراء دولته الأكراد[4]، وكان هذا العمل تأكيداً لسقوط الدولة الفاطمية من مصر ، إذ ظلت الدولة الفاطمية تعرف طوال عصور ازدهارها « بالدولة القصرية »[5] ، نسبة لسكنى خلفاء الفواطم لقصور عاصمتهم القاهرة ، ففي سنة ٥٦٦هـ - ١١٧٠ م ، قبض صلاح الدين على القصور الفاطمية وسلمها لمملوكه قراقوش الخادم[6] ، ثم أسكنها لجنوده وأهله وأسكن أباه بقصر اللؤلؤة على الخليج ؛ ولقد علق ابن أبى طئ على هذا بقوله « وانقضت تلك الدولة برمتها ، وذهبت تلك الأيام بجملتها ، بعد أن كانوا قد احتلوا على البلاد ، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورًا »[7] ، وينقل المقريزى عن مياومات القاضى الفاضل أنه فى ربيع الآخر سنة ٥٦٧هـ - ١١٧١م ، كشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر وكان الكاشف بهاء الدين قراقوش ، وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن بها أمراء صلاح الدين ، ويعلق القاضى الفاضل عن هذا بقوله « ومُلِئت المناظر المصونة عن الناظر والمنتزهات التى لم يخطر ابتذالها فى الخاطر ، فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ، ووارث الأرض ومورثها »[8] .

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ص ٢٧٣ ، س ١٦ - ١٧ حيث يقول : " لما استبد الناصر صلاح الدين .. بملك مصر بعد وفاة العاضد غير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة ، وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد".

(٢) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، س ١٧ - ١٨ .

(٥) القفطى : أنباه الرواه على أنباه النحاه تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، ص ٩٥ س ٧ ، وهو يسميها فى موضع آخر " الدولة العلوية القصرية ، نفس المصدر ج ٢ ، ص ٧٣ ، س ٨ ، وهو يسمى الفاطميين فى موضع ثالث " المصريين " أنظر نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢١ والمعروف أن القفطى عاصر سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية وعمل وزيرًا للأيوبيين بالشام ، أنظر بعده .

(٦) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ .

(٧) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ .

(٨) المقريزى : الخطط ، ج ٢ : ٣٩٤ - ٣٩٦ .

ولقد رثى القصور الفاطمية ، رثاءًا مبدعًا ، الشاعر عمارة اليمنى ، الذى ظل رغم كونه شافعى سنى ، على وده للفاطميين ، إخلاصًا لذكرى خلفائهم ، الذين أحسنوا إليه أبان إزدهار دولتهم ، فوقف يصف أطلال قصورهم ويبكى من بناها قائلاً ضمن قصيدة الشهيرة التى مطلعها : « رميتَ يا دهر كفَّ المجدِ بالشلل » ، .. يقول :

بالله زر ساحة القصرين وابكى معى ... عليهما لا على صفين والجمل
وقل لاهلهما : والله ما التحمت ... فيكم قروحى ، ولا جرحى بمندمل
مررت بالقصر والأركان خالية ... من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد ... من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسبلت من أسف دمعى غداة خلت ... أرجائكم وغدة مهجورة السبل[1]

ولقد سكن القصور الفاطمية الملك العادل إبان نيابته للسلطة بمصر عن أخيه صلاح الدين[2] .

وعمد صلاح الدين إلى الآلات الملوكية الفاطمية ، وكنوز القصر الفاطمى ، فعمل على إفسادها[3] ، وأهدى بعضها إلى نور الدين زنكى[4] ، والبعض الآخر إلى الخليفة العباسى[5] ، ثم طرح باقيها للبيع ، بحيث دام البيع فيها مدة عشر سنين ، وتنقلت إلى البلاد بأيدى المسافرين الواردين والصادرين[6] .

وتحول إلى كتب الدعوة الإسماعيلية ، التى احتوت عليها مكتبة القصر الفاطمى ، فأحرقها ، وألقاها على جبل المقطم ، بحيث صارت تعرف بكميان الكتب ، ثم فرق الكتب غير المذهبية التى صودرت من مكتبة القصر ، على كبار علماء وأنصار دولته ، مثل العماد الأصفهانى والقاضى

---

(١) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧٠ .
(٢) أبو شامة : المصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٨ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٦ ، نقلاً عن ابن أبى طىء .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٤ – ٥٢٥ ، ٥٢٥ – ٥٢٦ ، ٥٥٦ – ٥٥٩ .
(٥) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٥ .
(٦) نفس المصدر ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٨ – ٥٠٩ ، المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ ، نقلاً عن مياومات القاضى الفاضل .

الفاضل ، وأبى شامة الأصفهانى[1] ، مما يؤكد أن هدف صلاح الدين ، كان إحراق كتب الدعوة فقط ، لترويجها للقضية السياسية التى ينادى بها خلفاء الفاطميين .

وفى رأينا أن إحراق مكتبة القصر الفاطمى ، لم يكن خطأ كبيرًا وجريمة ثقافية ، من جانب صلاح الدين كما ذهب البعض[2] ، بل هو عمل مقصود ، استهدف القضاء على كتب الدعوة الإسماعيلية فقط ، والحقيقة أن إحراق كتب الدعوة الإسماعيلية بمصر يذكرنا بإقدام الخليفة العباسى القادر بالله ، والسلطان السنى محمود بن سبكتكين الغزنوى ، على إحراق كتب الرافضة (الشيعة) والمعتزلة والمتكلمين ، فى بلاد الرى والعراق وخراسان فى سنتى ٤٠٨هـ - ١٠١٧م و ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م ، واستتابتهم عن المناظرة فى مذاهبهم[3] ، ولا ريب أن كتب الدعوة الإسماعيلية ، كانت من أهم وسائل التأثير التى يتخذها دعاة الفاطميين للترويج لدعوتهم ، بحيث أقدم المؤيد فى الدين الشيرازى ، داعى دعاة الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، على تهريب كتب الدعوة الإسماعيلية من مصر ، حين شهد الضعف السياسى الذى تردّى فيه خلفاء الفاطميين ، ثم أرسلها على يد القاضى اليمنى لملك بن مالك، ليحفظها أنصار الدعوة الإسماعيلية باليمن والهند[4]. فكان كأنه يقرأ لوح العيوب ، إذ أحرق صلاح الدين كتب الدعوة بمكتبة القصر الفاطمى ، وقامت السلطات الأيوبية بالشام بإحراق كتب الإسماعيلية والمعتزلة والقدرية والمتكلمين ، والقبض على كل من يضبط

---

(١) راجع أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٦٨٦ - ٦٨٧ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٧ حيث يذكر عن القاضى الفاضل ، أنه وقف مكتبته وكانت مائة ألف مجلد على مدرسته المعروفة بالمدرسة الأفضلية ، وأنها ظلت بها إلى سنة ٦٩٤هـ حيث حدث الغلاء ، فكان طلبة المدرسة يبيعون كل جزء منها برغيف . ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعَارِيّة فتفرقت ولكن يبدو أن عددًا ضخمًا آخر من كتب مكتبة القصر الفاطمى التى آلت إلى القاضى الفاضل ، قد انتقلت بعد وفاته إلى المكتبة السلطانية الأيوبية بالقلعة ، فيقول المقريزى : فى حوادث سنة ٦٢٦هـ " وفيها وقعت الحوطة على دار القاضى الأشرف أحمد ابن القاضى الفاضل وحملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلد وحمل من داره خشب خزائن الكتب مفصلة وحملها تسعة وأربعون جملاً وكانت الجمال التى حملت الكتب تسعة وخمسون جملاً . ثلاث دفعات (السلوك : ج ١ ص ٢٣٢) وبعد عدة شهور حملت الكتب والخزائن من القلعة إلى دار الفاضل وقيل أن عدتها أحد عشر ألف كتاب وثمانمائة وثمانية كتب منها كتاب الأيك والغصون لأبى العلاء المعرى ، فى ستين مجلدًا (السلوك ، ١ : ٢٣٣) .

(٢) أنظر الشيال : مصر الإسلامية ، ص ٤٩ .

(٣) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٧ ، ص ٢٨٧ ، ج ٨ ، ص ٣٨ - ٤٠ .

(٤) المؤيد فى الدين الشيزرى : ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاه ، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى ، ١٩٤٩ ، ص ١٨٥ ، وأنظر أيضًا ص ٤٩ ، و ص ١١ وهى فى مقدمة المحقق .

في منزله شيء منها[1] ، بحيث لم يتبق من كتب الدعوة الإسماعيلية التي وصلنا إلا الكتب التي احتفظ بها أنصار الفاطميين باليمن والهند [2] . بعد سقوط دولتهم بمصر ، وإن وصلنا بعض الكتب الأدبية الخزائنية برسم ماكتبه القصر الفاطمي[3] .

ولم يغب عن فكر صلاح الدين ، أثر الأعياد المذهبية للشيعة[4] ، في الترويج لمذهبهم وترسيخ معتقداتهم في نفوس المصريين ، فألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين مما أدى إلى إنقراضها من مصر منذ ذلك الوقت ؛ وبخبث سياسي شديد ، عمل الأيوبيون على مسخ أشهر الأعياد الشيعية ، المقترنة بأولى مآسي الشيعة الطالبين ومقاتلهم في سبيل خروجهم بطلب الخلافة ، وأعني عيد عاشوراء ؛ الذي كان يعبر فيه الشيعة عن حزنهم الشديد بمقتل الحسين في كربلاء ، وكان يحتفل به في العاشر من محرم من كل سنة ، بحيث أصبح يوم عاشوراء ، عيدًا بهيجًا طوال العصرين الأيوبي[5]

---

(١) ضياء الدين بن الأثير : رسائله ، نشر المقدسي ، ص ١٤٠ ، س ١٧ - ٢١ ، وهي ضمن سجل تقليد لمحتسب أيوبي بالشام ، وأنظر قبله .

(٢) محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ٤٥ - ٦٥ ، ولقد صورت ، بعثة دار الكتب المصرية إلى اليمن سنة ١٩٥١م و ١٩٦١م عددًا من كتب الدعوة الإسماعيلية وكتب المعتزلة التي احتفظ بها الشيعة الزيدية باليمن ، للتقارب الفكري والعقائدي بينهم وبين كل من المعتزلة والإسماعيلية ومما اعتز به أن والدي المرحوم الأستاذ فؤاد سيد رئيس قسم المخطوطات الأسبق بدار الكتب المصرية ، كان عضوًا بهاتين البعثتين .

(٣) أنظر كتاب النوادر والتعليقات ، لأبي علي الهجري ، الذي حقق أخيرًا في العراق سنة ١٩٨٠م إذ إعتمد في تحقيقه على نسخة قديمة خزائنية برسم خزانة الخلفاء الفاطميين .

(٤) عن هذه الأعياد المذهبية للفاطميين أنظر ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، ج ١ ، ص ١٢٥ - ١٣١ وأهمها عيد الغدير ، في ١٨ ذي الحجة ، وهو ذكرى وصاية النبي لعلي في موضع يسمى غدير خم ، وعيد عاشوراء ، وهو ذكرى مقتل الحسين بكربلاء في ١٠ محرم .

(٥) عن الرسوم الحزينة ليوم عاشوراء في عهد الفاطميين ، أنظر المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ٢٨٩ - ٢٩١ ، وعن الرسوم البهيجة ليوم عاشوراء في عهد الأيوبيين والمماليك ، أنظر أيضًا المقريزي : الخطط ، ج ٢ ص ٣٨٥ حيث يقول تحت عنوان (يوم عاشوراء) " كانوا يتخذونه يوم حزن ، تتعطل فيه الأسواق ، ويعمل فيه السماط العظيم المسمى سماط الحزن .. وكان يصل إلى الناس منه شيء كثير ، فلما زالت الدولة اتخذ الملوك من بني أيوب يوم عاشوراء يوم سرور ، يوسعون فيه على عيالهم ، ويتبسطون في المطاعم ، ويصنعون الحلاوات ، ويتخذون الأواني الجديدة ، ويكتحلون ويدخلون الحمام جريًا على عادة أهل الشام التي سنها لهم الحجاج في أيام عبد الملك بن مروان ، ليرغموا بذلك آناف شيعة علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء ، وحزن فيه على الحسين ابن علي ، لأنه قتل فيه ، وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب من اتخاذ يوم عاشوراء ، يوم سرور وتبسط ، وكلا الفعلين غير جيد ، والصواب ترك ذلك ، والاقتداء بفعل السلف فقط . (المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٨٥) .

والمماليكى[1] ، وعلى هذا النحو وصل إلينا موسم عاشوراء ، واقترن بصنع أطباق الحلوى من حبوب القمح ، رغم أن هذا الاحتفال البهيج بعاشوراء ، كان فى الأصل وسيلة يلجأ إليها أعداء الشيعة فى مصر الأيوبية ، لإغاظة بقايا المتشيعين للفاطميين بمصر[2] ، والطريف أن عيد عاشوراء ، ظل يحتفل به احتفالاً حزينًا بالعراق العباسى حتى بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر[3] .

---

(١) أوضح المفسر والمؤرخ والفقيه الحافظ ابن كثير ، أن أصل الرسوم الحزينة التى اتخذها الفاطميون لعيد عاشوراء يرجع أول ظهورها إلى ملوك بنى بويه الشيعة بالعراق ، أما الرسوم البهيجة التى اتخذها الأيوبيون ليوم عاشوراء ، فيرجع أول ظهورها إلى الأمويين والنواصب (أعداء الشيعة) فى العصر الأموى : فيقول ابن كثير : " وقد أسرف الرافضة فى دولة بنى بويه فى حدود الأربعمائة وما حولها ، فكانت الدبادب تضرب ببغداد ونحوها من البلاد فى يوم عاشوراء . ويذر الرماد والتبن فى الطرقات والأسواق ، وتعلق المسوح على الدكاكين ، ويظهر الناس الحزن والبكاء ، وكثير منهم لا يشرب الماء ليلتين، موافقة للحسين لأنه قتل عطشانًا. ثم تخرج النساء حاسرات عن وجوههن ، ينحن ويلطمن وجوههن وصدورهن ، حافيات فى الأسواق إلى غير ذلك من البدع الشنيعة .. وإنما يريدون بهذا وأشباهه ، أن يشنعوا على دولة بنى أمية ، لأنه قتل فى دولتهم . وقد عاكس الرافضة والشيعة يوم عاشوراء ، النواصب من أهل الشام ، فكانوا إلى يوم عاشوراء ، يطبخون الحبوب ويغتسلون ويتطيبون ، ويلبسون أفخر ثيابهم ، ويتخذون ذلك اليوم عيدًا ، يصنعون فيه أنواع الأطعمة ، ويظهرون السرور والفرح ، يرون بذلك عناد الروافض ومعاكستهم . راجع ابن كثير : استشهاد الحسين ، طبع بمطبعة المدنى ، بتحقيق محمد جميل غازى ، القاهرة ١٣٩٧هـ ، ص ١٣٠ - ١٣٣ ، وعن رسوم بنى بويه والفاطميين فى عاشوراء وتفنيد الفقيه السنى ابن تيمية لها : أنظر ابن تيمية : رأس الحسين ، طبع فى ذيل كتاب استشهاد الحسين لابن كثير ، وانظر على الخصوص ، ص ١٦٨ - ١٦٩ . كذلك تتبع ابن تيمية ، أصل التناقض فى الاحتفال بيوم عاشوراء عند الشيعة والمعادين لهم فى رسالة ألفها بعنوان : " سؤال فى يزيد بن معاوية ، نشرت بتحقيق صلاح الدين المنجد ، الطبعة الثالثة ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م ، ص ١٧ - ١٩ ، حيث يقول ابن تيمية : " .. كان بالعراق طائفتان : طائفة من النواصب تبغض عليا وتشتمه ، وكان منهم الحجاج بن يوسف ، وطائفة من الشيعة ، تظهر موالاة أهل البيت، منهم المختار ابن عبيد الثقفى .. ، فصار النواصب والروافض يحتفلون بيوم عاشوراء ، هؤلاء يتخذونه يوم مأتم وندب ونياحة ، وهؤلاء تتخذونه يوم عيد وفرح وسرورًا ، وكل ذلك بدعة وضلالة .. وليس فى دين الإسلام أن يجعلوا يوم قتل أحد مأتمًا وكذلك اتخاذه عيدًا بدعة .. والجدير بالالتفات أن يوم عاشوراء كان عيدًا دينيًا أيضًا عند العرب فى الجاهلية ، أنظر ابن حجر العسقلانى : فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ، طبعة الحلبى ، ج ٥ ، ص ١٤٧ - ١٥٣ .

(٢) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٣٥ .

(٣) حدث ذلك سنة ٥٧٢هـ ، نتيجة لتشيع أهل حى الكرخ الشيعة ، راجع تفاصيل هذا الاحتفال الشيعى فى العراق العباسى عند سبط ابن الجوزى : مرآة ج : ١ ٣٨ - ٣٨٧ .

واستكمالاً لهذه الخطوة ، أقدم الأيوبيون على صبغ الأعياد والمواسم الدينية بمصر ، بصبغة سنية ، بقيت إلى اليوم فى جميع احتفالاتنا الدينية ، واهتم الأيوبيون اهتمامًا خاصًا بذكرى المولد النبوى [1] . وذلك لتعويض المصريين ، ما تعودوا عليه وافتقدوه من الأعياد الشيعية المرتبطة بآل البيت النبوى ، وأهمها عيد عاشوراء . وأغلب الظن أن الاحتفال بالمولد النبوى ، على النحو الذى نقيمه اليوم من نصب السرادقات والقباب والخيام فى الساحات ، وملئها بأنواع الألعاب المختلفة ، وأنواع الحلوى ، يرجع أول ظهوره بمصر على هذه الهيئة إلى العصر الأيوبى وإن كان الفاطميين هم أول من أحدثوه بمصر ، ويبدو أن الأيوبيين قد استعاروا رسوم الاحتفال بالمولد النبوى ، عن مظفر الدين كوكبرى ، صاحب أربل ، وهو حاكم إسلامي تركماني ، توارثت أسرته حكم مدينة أربل ، وهي إحدى عواصم إقليم الجزيرة الفراتية ، إذ وجه هذا الحاكم - وكان معاصرًا لصلاح الدين ، وتابعًا له - اهتمامًا كبيرًا بالاحتفال بالمولد النبوى[2] ، ويبدو أن منذ العصر الأيوبى وخلال العصرين المماليكي والعثماني ، اشتهر نظم الشعراء لأحداث المولد النبوى شعرًا فى قصيدة تعرف بـ «المولد» وتنشد عند الاحتفال بهذه الذكرى الدينية الكريمة[3] .

---

(١) راجع تعداد القلقشندى لأعياد المسلمين ، فى صبح الأعشى ، ج ٢ : ٤١٦ - ٤١٧ . أحمد تيمور باشا : التذكرة التيمورية ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

(٢) يقول ابن خلكان فى ترجمة مظفر الدين كوكبرى : " وأما احتفاله بمولد النبى " (صلى الله عليه وسلم) ، فإن الوصف يقتصر عن الإحاطة به ، لكن نذكر طرفًا منه : وهو أن أهل البلاد ، كانوا قد سمعوا بحسن اعتماده فيه ، فكان فى كل سنة ، يصل إليه من البلاد القريبة من أربل ، مثل بغداد والموصل والجزيرة وسنجار ونصيبين وبلاد العجم وتلك النواحي - خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء ولايزالوا يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول ، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب ، كل قبة أربع وخمس طبقات ، ويعمل مقدار عشرين قبة وأكثر ، منها قبة له ، والباقى للأمراء وأعيان دولته لكل واحد قبة ، فإذا كان أول صفر ، ذينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المستجملة ، وقعد فى كل قبة جوق من المغانى ، وجوق من أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهى ، ولم يتركوا طبقة من تلك الطباق فى كل قبة ، حتى رتبوا فيها جوقًا ، وتبطل معايش الناس فى تلك المدة وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم ، (ابن خلكان : وفيات ج ٤ ، ص ١١٧ - ١١٨) ، وبعد أن يصف ابن خلكان بالتفصيل رسوم اشتراك مظفر الدين كوكبرى وأمراء دولته وصوفيه الخوانق بمدينة أربل فى الاحتفال بالمولد النبوى (أنظر ابن خلكان ، وفيات ج ٤ ص ١١٨ - ١١٩) وهى تفاصيل شيقة جدًا ، يقول ابن خلكان : وقد ذكرت فى ترجمة الحافظ أبى الخطاب ابن دحيه ، وصوله إلى أربل ، وعمله لكتاب : التنوير فى مولد السراج المنير ، لما رأى من اهتمام مظفر الدين به وأنه أعطاه ألف دينار ، كما وصف ابن خلكان مظفر الدين كوكبرى بأنه شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة ، وأنظر أيضًا ترجمة مظفر الدين كوكبرى ودخوله فى طاعة صلاح الدين الأيوبى ومنشآته الاجتماعية ورسوم احتفالاته بالمولد النبوى ، عند سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨ : ٦٨٠ - ٦٨٣ .

(٣) عن المؤلفات والقصائد المؤلفة بعنوان " المولد النبوى " أنظر حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ، طبع استانبول ، ج ٢ ، ص ١٩١٠ - ١٩١١ .

ولاشك أن اقترن بمحو الرسوم الفاطمية من مصر ، أبطال التعامل بالعملات الفاطمية ، خاصة وأنها كانت تحمل نقش العقيدة الفاطمية المؤيدة لحقهم فى الخلافة « لا إله إلا الله ، محمد رسوم الله، على ولى الله » وكما أنها كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين ، وصيغ عقائدية فاطمية ، كما أن بعضها كانت عملات تذكارية تفرق فى المواسم والأعياد المذهبية الشيعية على المقربين ، استمالة لهم لعقيدة الدولة[١] ، وإن لم يخل هذا من ظهور صدى هذه الصيغ على بعض العملات الأيوبية ذاتها[٢] ، إذ لم ينسى عمال السكة المصريين هذه الصيغ التى عهدوها لمدة طويلة بسهولة .

ومع ذلك ، فقد بقيت بعض خصائص الاحتفالات الفاطمية بالمواسم الدينية بمصر ، عالقة فى أذهان المصريين ، محببة إلى نفوسهم ، بحيث لم يستطع الأيوبيون ، بكل ما بذلوه من جهد ، اقتلاعها من قلوبهم ، إذ بقيت الاحتفالات الرمضانية مثلاً إلى اليوم ، تحمل ولاشك أثرًا فاطميًا ، حتّى أننا لا نجد للاحتفالات الرمضانية المصرية ، أثر فى البلاد العربية والإسلامية التى لم يستقر بها حكم الفاطميين .

ولما كان نسل البيت الفاطمى ، يمثل بالنسبة للسلطنة الأيوبية السنية بمصر ، الوريث الشرعى للخلافة الفاطمية المنهارة ، بعد موت الخليفة العاضد ، كبير البيت الفاطمى ، والقائم بالخلافة ، وكان الأيوبيون يصبون لإقامة سلطنة وراثية فى أسرتهم المالكة بمصر ، فإن دواعى السياسة وطبائع الملك ، حتمت على الأيوبيين ، طوال حكمهم بمصر ، أن يتحفظوا على جميع أفراد البيت الفاطمى ، خشية أن يظهر من دعاتهم من يجمع حولهم الأتباع والمريدين والراغبين فى إعادة دولتهم ، وفى هذا ما قد يزلزل عروش الأيوبيين ، خاصة وأن الفاطميين ينتسبون إلى بيت النبوة ، فى حين أن الأيوبيين ، ينحدرون من أصل كردى ، وتبوأ آباءهم المناسب الحربية والإدارية بالكدح والسعى والطموح الدؤب ، فلا ريب أن أى مقارنة بين الأسرتين الفاطمية والأيوبية ، المتصارعتين على عرش مصر ، كان من شأنه أن يرجع كفة الفاطميين لانتسابهم إلى البيت النبوى .

لذلك عهد صلاح الدين ، بأفراد البيت الفاطمى ، إلى مملوكه بهاء الدين قراقوش الذى احتجزهم أولاً فى بعض حجرات القصر ، بعد أن فرق الرجال عن النساء كى لا يتناسلوا ، تمهيدًا

---

(١) أنظر عبد المنعم ماجد : النقود الفاطمية بمصر ، حوليات كلية الآداب ، جامعة إبراهيم (عين شمس) المجلد الثانى ، ١٩٥٣ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٨ .

(2) p. Balog, monnaies islamiques rares fatimidis et ayoubites B.I.E. XX VI, 2, P 827-846, LE Cairo, 1955.

لانقراض نسلهم(١) ، ثم أخلى القصور من سكانها وأقفل أبوابها(٢) ، وحبس أفراد البيت الفاطمى فى دار الضيافة(٣) ، ويبدو أنهم ظلوا بهذه الدار ، حتى أنتقل الملك الكامل فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م بمقر سلطنة من دار الوزارة بمدينة القاهرة ، إلى قلعة الجبل بعد الفراغ من بنائها ، واصطحب معه بقايا الفاطميين ، وحبسهم فى سجن القلعة ، على هيئة البيت(٤) ، ولقد ظل بقايا الفاطميين محبوسين بالقلعة حتى نهاية العصر الأيوبى ، بحيث رآهم المؤرخ ابن واصل فى سجن القلعة وتحدث إلى بعضهم(٥) ، ولما كان المماليك هم ورثة سلطنة الأيوبيين ، وكانوا فى الأصل أرقاء ، عارون من أى نسب ، فطبيعى أن بقى المماليك على بقايا الفاطميين ، فى سجنهم بالقلعة ، حتى حولوا منه فى ٦٧١هـ / ١٢٧٢م(٦) . وأغلب الظن أن بقاء بقايا نسل الفاطميين فى سجون الأيوبيين والمماليك حوالى قرن ونصف ، يؤيد كونهم فعلاً من النسل النبوى ، وإلا فما الداعى لسجنهم هذه المدة المديدة ، وما الخطورة التى عساها أن تنشأ من بعض المدعين بعد زوال دولتهم بقرن ؟! .

---

(١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٣ - ٤٩٥ .

(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٧٩ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ عند الحديث عن دار الضيافة . ولقد ذكر المقريزى فى موضع آخر ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ ، أنهم بعد أن أخرجوا من القصر سكنوا أولاً دار المظفر ، ثم نقلوا إلى القلعة ، ولقد أورد المقريزى حصر لعدد هؤلاء الفاطميين ، سواء من الرجال أو النساء ، ولقد أفاد أنه كان فيهم الأمير داود بن العاضد ، وكان ولى العهد ويُنعت بالحامد لله ، وجميع أخوته وجماعة من بنى أعمامه أولاد الخليفة الحافظ لدين الله . ولقد ذكر المقريزى أسماء هؤلاء الأفراد بأسمائهم كاملة ، فيراجعوا هناك . وانظر عن بقايا النسل الفاطمى أيضًا ابن واصل ، مفرج ، ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١ .

Casanova: Les Derniers Fatinides, Memoires de la Mission Archologique Francaise du Caire, Tome VI, 1893. pp. 415-445.

S. M. Stern: The Succession of the Fatimid Imam Al-Amir The Claims of the Later Fatimids to the Imamate, and the Rise of Tayyibi Ismailism. Oriens, Vol. 4. No 2, pp.93.

(٤) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٥) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢١١ .

(٦) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٩ ويذكر المقريزى فى الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، خبرًا طويلاً فحواه أن الملك الظاهر بيبرس قد جمع فى سنة ٦٦٠هـ ، من بقى من أمراء الفاطميين من أبناء العاضد فى سجن القلعة ، وأشهد عليهم فى وثيقة رسمية أنهم لا يمتلكون أى شيء من بقايا القصور الفاطمية ولا المنشآت الواقعة داخل مدينة القاهرة الفاطمية وأخذوا خطوطهم بذلك ، وأرخ هذه الوثيقة بتاريخ ١٣ ربيع الأول سنة ٦٦٠هـ .

وفى رأى البعض أن بناء الأيوبيين لقلعة الجبل ، خارج مدينة القاهرة ، كان بهدف أن تكون معقلاً لهم من ثورات وانتقاضات الشيعة ، الرامية إلى إعادة الدولة الفاطمية(١) ، ويبدو أن لهذا الرأى ما يؤيده فى وثائق الأحداث فى عصر بنى أيوب ، فلقد حاول بعض دعاة الإسماعيلية بالقاهرة فى ٥٨٤هـ / ١١٨٨م استصراخ الشيعة من المصريين ليلاً ، للتجمع ومهاجمة القلعة لإطلاق الفاطميين المحبوسين بها ، وإعادة الخلافة الفاطمية(٢) ، كذلك يذكر المؤرخون أنه كلما قامت ثورة شيعية فى مصر أو فى الصعيد أو فى أى جزء من الأقاليم المصرية ، كان الأيوبيون ، يشددون إجراءات الحبس والاعتقال على الفاطميين بالقلعة ، بل ربما كبلوهم بالأغلال(٣) ، خشية محاولة شيعتهم إطلاق سراحهم ، ومع ذلك فإنه لا يمكن أن يعد بناء قلعة الجبل مجرد وسيلة لاحتماء الأيوبيين من الثورات الشيعية بمصر ، فلاشك أن بناء القلعة كان عملاً عسكريًا بعيد المدى ، يهدف إلى تحصين مصر ضد هجمات الفرنج ، خاصة وأن مشروع بناء القلعة ، قد ارتبط به مشروع آخر لم يكتمل ، هدف إلى إحاطة عواصم مصر الإسلامية الأربع ، الفساط والعسكر والقطائع والقاهرة ، بسور واحد ، خاصة وأن الصليبيين قد تهددوا القاهرة نفسها عاصمة الفاطميين ، أكثر من مرة ، فى نهاية عصر دولتهم .

وبعد نقل الأيوبيين مقر الحكم بمصر إلى قلعة الجبل ، انتهزوا هذه الفرصة ، لابتذال مدينة القاهرة ، عاصمة الفواطم ، التى ظلت طوال مدة دولتهم ، مدينة ملكية ، خاصة بسكنى الخلفاء ، وطوائف العسكر ، ورجال البلاد ، وأرباب الدواوين ، كما كانت فى نفس الوقت حصنًا عسكريًا ، بحيث كان أغلب أهل مصر ، يسكنون مدينة الفساط(٤) ، وقد علق المقريزى على ابتذال عاصمة الفاطميين بقوله : « فصارت القاهرة مدينة سكنى ، بعد ما كانت حصنًا يعتقل به ، ودار خلافة يلتجأ إليها ، فهانت بعد العز ، وابتذلت بعد الاحترام ، وهذا شأن الملوك ، مازالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر أعدائهم »(٥) .

---

(١) أنظر بول كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة الجبل ، ترجمة أحمد دراج ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ، ذكى محمد حسن : قلعة الجبل ، مجلة الكتاب ، أكتوبر ١٩٤٦ ، ص ٨٧٣ - ٨٨٢ .

(٢) أنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٠١ ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٩٥ نقلاً عن مياومات القاضى الفاضل ، وأنظر بعده .

(٣) أنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٨٧ هـ ، حيث يذكر أنه فى سنة ٥٨٠ ، رسم السلطان بتقييد أولاد الخليفة العاضد الفاطمى ومن بقى من أقاربه ، أنظر بعده .

(٤) راجع فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

(٥) عن مناقشة هذه القضية أنظر : Mamour: Polemics on the origin of Fatimi Caliphs. London, 1934 .

النسب الفاطمى وطعن الأيوبيين بمصر فيه :

وارتبط بإبادة الأيوبيين ، لجميع التراث الفاطمي من مصر ، أحياءهم لقضية قديمة شهيرة ، أغلب الظن أن أول من ابتدعها وروّجها خلفاء بنى العباس ، وهى قضية انتحال النسب الفاطمى إلى البيت النبوى ، وإشاعة أن الفاطميين ينحدرون من نسل يهودى أو مجوسي ؛ فلا شك ، أن الخلافة الفاطمية ، كانت تهدد شرعية الخلافة العباسية ، لانتسابها إلى بيت من قريش ، أكثر قرابة للنبى من البيت العباسي ، وهو البيت العلوى ، فكان الطعن فى حقيقة انتساب الفاطميين لعلى بن أبى طالب في الواقع ، محاولة لهدم السند الشرعى للخلافة الفاطمية ، والسلاح الذى يستطيع الفاطميين عن طريقه تهديد أحقية بنى العباس فى الخلافة[1] .

وبلغت قضية الطعن فى نسب الفاطميين ، أوج تصعيدها ، فى عهد الخليفة العباسى ، المقتدر بالله ، الذى كتب محضرًا وقع عليه فقهاء العراق ، وبعض كبراء العلويين العراقيين ، مثل الشريف الرضى ، يشهدون فيه بانتحال نسب الخليفة المصرى الفاطمى الحاكم بأمر الله[2] ، ثم ما لبثت هذه القضية أن فترت ، وقلّ الاهتمام بها ، ربما لعدم صحتها[3] ، وتهاوى أدلتها وظهور تدليسها ، وعدم جدوى الخوض فيها .

ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية من مصر ، وحبس الأيوبيين لبقايا النسل الفاطمى ، وتربع بنى أيوب على عرش مصر ، أصبحت الفرصة مواتية للطعن فى نسب الفاطميين مرة أخرى بعد أن زالت دولتهم ، وكثر أعداؤهم ، وكُسرت شوكة شيعتهم وأنصارهم ، وأبيد تراثهم .

فنجد عددًا كبيرًا من المؤرخين المعاصرين لسقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، مثل ابن خلكان[4] ، وابن حماد[5] ، وأبى شامة[6] ، وابن واصل[7] ، يطلقون على الفاطميين اسم

---

(١) عن مناقشة هذه القضية راجع Mamour, Polemies on the origin of fatimi Caliphs. london, 1934. ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٦٢-١٦٨ ، عباس العقاد : فاطمة الزهراء والفاطميون ، مجموعة الهلال ، سنة ١٩٥٨ ، وهذه المراجع الثلاثة تؤيد صحة النسب الفاطمى ، وتُدَلّل على ذلك فى حين ذهب البعض مثل الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية إلى اعتقاد زيف النسب الفاطمى ، أنظر : محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله .. إلخ . الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ، ص٤٧ - ٧٦ .

(٢) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ، ص ٧ ، ص ٢٥٥ .

(٣) راجع ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٦٢ - ١٦٧ .

(٤) أنظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٣: ١١٦-١١٩ (ترجمة عبد الله ، المهدى العبيدى) ، و ج ٣ : ١٠٩-١١٢ ترجمة الخليفة العاضد (آخر ملوك مصر من العهدين " كذا ") .

(٥) أنظر ابن حماد : أخبار ملوك بنى عبيد .

(٦) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٩-٥١٦ .

(٧) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ٢١٠-٢١١ .

« بنى عبيد » إشارة إلى انتسابهم إلى عبيد الله بن ميمون القدّاح المجوسى ، بل نجد أبو شامة ، يخبرنا بأنه ألف كتابًا منفردًا ، يدلل فيه على زيف نسب الفاطميين ، سماه : « كشف ما كان عليه بنو عبيد، من الكفر والكذب والمكر والكيد »[1] ، والكتاب رغم أنه فقد ولم يصل إلينا إلا أن الهدف الدعائى الهادف إلى الطعن فى نسب الفاطميين ، ظاهرًا من عنوان الكتاب ، بحيث يكاد يعلن صراحة عن تحامل أبى شامة على الفاطميين .

ولقد خصص أبو شامة فى كتابه الروضتين ، صفحات طوال ، حاول فيها التدليل على انتحال نسب الفاطميين ، اعتمادًا على نقول نقلها عن كبار دعاة المذهب الأشعرى ، من مؤلفات خصصوها فى الطعن على الفاطميين ومذاهبهم وأحقيتهم فى الخلافة . مثل كتاب كشف أسرار الباطنية ، لأبى بكر الباقلانى[2] . وكتاب « الرد على الباطنية لأبى القاسم الشاسى[3] ، إلى جانب محاولته الإيهام بأنه تتبع نسب الفاطميين فى كتب الأنساب العلوية ، التى ألفها الأشراف العلويين ، فلم يجد للنسب الفاطمى أى صلة بهذه الأنساب العلوية[4] ، كما راح يعلل الأبيات المشهورة التى قالها الشريف الرضى ، نقيب العلويين بالعراق ، والتى يعترف فيها بانتمائه هو والخليفة الفاطمى إلى النسل العلوى والبيت النبوى ، تعليلات لا تصمد أمام أقل تفنيد[5] .

واستند كل من أبى شامة وابن واصل ، على حجة قوية فى الواقع ، لازال الباحثين إلى اليوم لا يجدوا لها تعليلاً ، وهى أن الفاطميين بعد ظهورهم من فترت الستر ، وقيام دولتهم بالمغرب ، ثم انتقالها إلى مصر ، واستمرارها أكثر من قرنين من الزمان ، ظلوا يكتمون أخبار أئمتهم المستورين، الذين ظلوا فى فترة الستر ، أكثر من مئة عام ، ولا يذكرون شيئًا عنهم ، وهنا يلاحظ كل من ابن واصل[6] ، وأبو شامة[7] . إن كتمان الفاطميين لأخبار هؤلاء الأئمة المستورين حتى بعد قيام دولتهم واستقرارهم يؤكد زيف انتسابهم للبيت النبوى ، لأنه لا داعى لكتمان أخبارهم بعد انتهاء فترة الستر وقيام الدولة .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٤ .
(٢) أبو شامة : نفس المصدر ، ص ٥١١ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٩٤ وأنظر أيضًا . بالإضافة إلى هذه الكتب فى الرد على الباطنية الفاطميين لدعاة الأشاعرة الباقلانى والشاشى ، كتاب آخر لداعى أشعرى آخر هو أبو حامد الغزالى : كتاب فضائح الباطنية ، تحقيق أختانيوس جولد تسيهير ، مطبعة بريل ليدن سنة ١٩١٦ .
(٤) أبو شامة : نفس المصدر ، ص ٥١٥ ، ص ٥١٦ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٥١٥ .
(٦) راجع ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢١٠ - ٢١١ .
(٧) راجع أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٠٩ - ٥١٦ .

ولاشك أن هذه الحجة التى استند إليها مؤرخو بنى أيوب للطعن فى نسب الفاطميين قوية ، ووجيهة ومنطقية ، إلا أنه يبدو لنا أن أئمة الفاطميين فى دور الستر أضطروا بالفعل إمعانًا فى التخفّى بإدعاء انتسابهم لنسل يهودى أو مجوسى ، لإبعاد أى شبهة حولهم من كونهم أبناء بيت النبوة ، وربما أيضًا اضطروا إلى امتهان بعض المهن المتواضعة ، إمعانًا أيضًا فى التخفّى مثل قدح الحديد والكحالة ، فلما قامت دولتهم استنكف أحفادهم الأئمة الفاطميين بالمغرب ومصر ، تسجيل ذكريات هذه الأيام الأليمة ، التى اضطر آباؤهم وأجدادهم إمعانًا فى التقية ، وخشية من تتبع بنى العباس وبطشهم من امتهان مهن مستحقرة ، والانتساب إلى ديانات يهودية ومجوسية ، ففى هذا ولا ريب ما يسىء إلى خلفاء الفاطميين ، بعد أن تربعوا على عرش الخلافة ، والواقع أن ابن واصل قد ذكر واقعة حوار حدث بينه وبين بعض أبناء الفاطميين بسجن القلعة ، يفهم من بين سطورها : إن ابن واصل يحاول التخلص من طعنه فى النسب الفاطمى[1] .

ويقوى من اعتقادنا بأن إحياء مؤرخى بنى أيوب ، لقضية انتحال النسب الفاطمى ، قد أوحى إليهم بها تملقهم للدولة الأيوبية الجديدة ، وزوال الخلافة الفاطمية من مصر ، وانقراض شيعتها من البلاد ، إن هؤلاء المؤرخين قد عمدوا إلى تشويه تاريخ الفاطميين على نحو ينكره أى عالم بتأريخ دولتهم وما حققوه للإسلام من انتصارات ، وما حققوه للحضارة الإسلامية من رفعة وإزدهار ؛ نحن لا ننكر على أبى شامة أن يربط بين الحركة الفاطمية ، وحركة القرامطة فى العراق والبحرين ، وحركة الزنج بالبصرة[2] ، فكلها فى الواقع حركات علوية شوهتها أيضًا الدعاية العباسية ؛ ولكننا ننكر عليه أن يربط بين الدعوه الإسماعيلية والدعوة النصيرية والدرزية بالشام[3] ، لأن هذه الدعوات كانت دعوات متطرفة ، أعلن الخلفاء الفاطميون أنفسهم تبرؤهم منها[4] ، كما أننا نرى فى اتهامه للفاطميين بالكفر فى العقيدة وخروجهم عن الإسلام ، وقولهم بالإراء الإلحادية ، وأن دولتهم كانت نكبة على الإسلام ، لأن الصليبيين أخذوا بلاد الشام فى عصرهم[5] ، تشويهًا متعمدًا لتاريخ الفاطميين ، وقلبًا لحقائق التاريخ ، بطريقة يأباها المؤرخ المنصف .

---

(١) يقول ابن واصل : " وبقى منهم (الفاطميون) رجلان محبوسان بقلعة الجبل ، شيخان ، جدهما العاضد ، وكان أحدهما واسمه القاسم ، قد بلغه أنى صنفت تاريخًا للسلطان الملك الصالح وذكرت فيه أخبار هؤلاء القوم ، وما قاله النسابون فيهم ، وأن بعضهم قال أن أصلهم من اليهود ، فطلعت يومًا إلى القعلة المحروسة ودخلت على باب الحبس ، والقاسم ابن العاضد هذا قاعد على بابه فسأل عنى ، فعرف بى ، فاستدعانى ، فأتيته ، فقال : " أنت ذكرت أن نسبنا يرجع إلى اليهود ؟ ، فخجلت منه وما أمكننى له إلا الاعتراف بذلك ، وأحلت الأمر على أقوال المؤرخين فسكت ، (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢١١) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٥١٠ .

(٤) أنظر ماجد : الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه ، ص ١٠٥ - ١٢٦ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٥ .

والطريف أنه في نفس الوقت الذى راح فيه مؤرخو بني أيوب ، ومتملقوا دولتهم الفتية ، يشوهون فيه تاريخ الخلافة الفاطمية ، ويحاولون الطعن فى نسب الفاطميين ، راح فريق آخر من المؤرخين الذين عاصروا سقوط الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية ، يؤلفون في تاريخ ونسب الخلفاء العباسيين ، الذين يتبنى سلاطين بنى أيوب دعوتهم السياسية ، وخطبوا لهم على منابر دولتهم [1] ، بل وفي المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية[2] ، عاصمة العالم المسيحى آنذاك .

فألف كل من أبي السرور السروجي[3] ، وهو مؤرخ مصرى عاصر نهاية حكم الفاطميين ، وابن دحيه الكلبي[4] ، وهو محدث ومؤرخ أندلسي ، نال الحظوة في بلاط الأيوبيين ، كتابين في تاريخ خلفاء بني العباس ، منذ ظهور دعوتهم حتى عصر الخليفة العباسي المعاصر لهم ، ثم أصبح التأريخ لخلفاء بنى العباس ، تقليدًا احتذاه الكثيرون من شيوخ مصر الإسلامية في العصر المماليكى ، مثل شمس الدين السخاوى[5] ، وجلال الدين السيوطى[6] ، وغيرهم .

---

(١) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٠٠-٢٠١ ، ص ٢٣٦ ، ص ٢٣٧-٢٤٣ ، حيث خطب الأيوبيون للخلافة العباسية بمصر عاصمة الخلافة الفاطمية ، وفي القيروان التابعة للخليفة ابن عبد المؤمن الموحدى المغربى ، وفي اليمن وكان تابعه أيضًا للفاطميين ، أنظر قبله .

(٢) أنظر ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٢٤-١٢٦، ١٣٢-١٣٣ . سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج١ ، ج ٨ ، ٤٠٤ حوادث سنة ٥٨٦ حيث يقول " ووصل رسول ملك القسطنطينية يعتذر إلى السلطان من الروم ، وكان صديق السلطان ، وأنه خطب للخليفة بقسطنطينية ، وأنظر محى الدين بن عبد الظاهر : الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، ص ٣٧-٤٢ ، ولعل هذا تم بعد المعاهدة بين صلاح الدين والإمبراطور البيزنطى سنة ٥٧٧هـ . فيها قدم رسول ملك القسطنطينة إلى القاهرة ، فوقع الصلح مع صاحبها وأطلق مائة وثمانين أسيرًا من المسلمين ، أنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٢ ، ثم عقد صلاح الدين حلفًا بينه وبين الإمبراطور البيزنطى إسحاق الثانى سنة ٥٨٥هـ : أنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٩٨ هامش (١) للدكتور زيادة ، وفي سنة ٥٨٦هـ ، يقول المقريزى : وافى كتاب ملك الروم بقسطنطينية ، بخبر وصول المنبر من عند السلطان ، وكذلك الخطيب والمؤذنين والقراء ، وأن الخطبة تمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة الناصر لدين الله (المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ١٠٤) .

(٣) هو الفقيه أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى عبد الله محمد بن أبى السرور السروجي المتوفى بعد سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م واسم كتابه بلغة الظرفاء فى ذكر تواريخ الخلفاء ، طبع بمطبعة النجاح بمصر ، سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .

(٤) توفى ابن دحيه الكلبى سنة ٦٣٣هـ وكتابه اسمه " النبراس في تاريخ خلفاء بنى العباس ، طبع فى بغداد ، لجنة التأليف والنشر في وزارة المعارف سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

(٥) أنظر السخاوى ، ت ٩٠٢هـ : عمدة الناس في مناقب سيدنا العباس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ .

(٦) أنظر السيوطى ، ت ٩١١هـ : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، القاهرة ، ١٣٥١هـ .

والحقيقة أن كل هذه التدابير والوسائل التى استخدمها الأيوبيـون ، لإبـادة التـراث الفـاطمى ، وتشويه تاريخ الخلافة الفاطمية ، كانت من الشمول والإحكـام ، بحيث كـادت تـودى بـالفعل بذكـر الفاطميين ، وتشوه الدور التاريخى الضخم الذى أدته دولتهم فى تاريخ الإسـلام ، لـولا جهـود بعـض المنصفين من المؤرخين المتأخرين مثل ابن خلـدون[1] ، والمقريـزى[2] ، الأول فـى تفنيـد قضيـة انتحـال النسب الفاطمى ، والثانى فى عرض تـاريخ الفـاطميين عرضًـا مفصـلاً مسهبًا اعتمـادًا علـى المصـادر الأصلية لمؤرخى دولتهم ومعاصريها من المصريين ، ولولا جهود الباحثين المحدثين فى التفتيش عن بقايا كتب الدعوة الإسماعيلية فى خزائن اليمن والهند والعمل علـى نشـرها ، وتعليـل الغلـو والاشـتطاط فى عقائد الإسماعيلية ، ذلك الغلو الذى أملاه عليهم رغبتهم فـى تـأييد أحقتهـم فـى الخلافـة ، وحـق ائمتهم فى الولاية ، أى الطاعة على جميع المسلمين[3] .

ولقد أفصح صلاح الدين عن خطته التدريجية فى محو العقيدة الإسماعيلية من مصـر ، حـين قـال لأبيه حين وفد عليه سنة ٥٦٦هـ - ١١٧٠م : « إن المصريين لهم جماعة كبيرة ، متفرقة فى بلاد مصـر من السودان وغيرهم ، وإن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج ، وإلا فسدت الأحوال»[4] .

القضاء على فتن متشيعى المصريين المناصرين للدولة الفاطمية :

وأكدت الأيام ، صدق حدث صلاح الدين ، وبعـد نظـره ، إذ أبـدى بقايـا الشـيعة فـى مصـر ، وأنصار الدولة الفاطمية مقاومة مستميته للحكم الأيوبى ، بل لم تمنع الإجراءات التعسفية التى اتخذها الأيوبيون ضد أفراد البيت الفاطمى ، وأمراء دولتهم ، وحاشيتهم وجنودهم ، أحد الشـعراء المحبّـين لدولتهم مثل عمارة اليمنى ، من أن ينظم قصيدة ، طار ذكرها فى الآفاق ، ينعى فيهـا أيـام الفـاطميين وأياديهم البيضاء على الوافدين إلى عاصمة ملكهم من كافـة أرجـاء العـالم الإسـلامى ، ويعلـن حنينـه إلى ذكرى مواسمهم وأعيادهم البهيجة ، وينعـى قصورهـم ومنـاظرهم ، ويشـيد بالازدهـار الصنـاعى والحضارى الذى عاشته مصر فى أيامهم ، خاصة طراز تنيس ، الـذى لـم يسـتطع الأيوبيـون فـى رأيـه تعويضه بمثيل له . بل لقد تحدى عمارة الدولة الأيوبية الجديدة ، وتحدّى دعاياتها المغرضـة للطعـن فـى

---

(١) أنظر ابن خلدون : المقدمة ، طبع بيروت ، ١٩٠٠ ص ٢١ - ٢٣ .

(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفا فـى أخبـار الفـاطميين الخلفـاء ، ولقـد طبـع الجـزء الأول من هذا الكتاب مرتين الأولى لتحقيق جمال الدين الشـيال . ج ١ والثانيـة بتحقيـق محمـد محمـود حلمـى احمد .

(٣) أنظر قبله ، وأنظر ماجد : نظم الفـاطميين ، ج ١ ، ص ٦١ - ٦٤ ، محمـد كـامل حسـين : فـى أدب مصـر الفاطمية ، ص ١٨ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ، ق ٢ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

نسب الفاطميين ، وصرح في هذه القصيدة بانتماء الفاطميين للنسل النبوى . ونعى على الأيوبيين ، ما أنزلوه بأبناء النبى ، من إهانات فيقول :

يا عاذلى فى هوى ابناء فاطمة ... لك الملامة أن قصرت فى عذلى
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة ... فى نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الأمر شيء غير قسمة ما ... ملكتم بين حكم السبى والنفل
وقد حصلتم عليها واسم جدكم ... محمد وأبيكم ، غير منتقل[1]

بل نظم عمارة قصيدة أخرى صرح فيها بأن الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين بمصر ، من نسل النبى ، ولا مجال للشك فى ذلك ، فقال :

أسفى على زمن الإمام العاضد ... أسفُ العقيم على فراق الواحد
لهفى على حجرات قصرك إذ خلت ... يا بن النبى من ازدحام الوافد[2]

بل سرعان ما انخرط الشاعر عمارة اليمنى ، فى أول ثورة شيعية حاولت الإطاحة بالسلطنة الأيوبية ، وإعادة الخلافة الفاطمية . ففى ٢ رمضان سنة ٥٦٩هـ - ١١٧٣م ، أجمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضد ، وأن يفتكوا بصلاح الدين ، منهم القاضى المفضل ضياء الدين ابن كامل القاضى ، والشريف الجليس ، ونجاح الحمامى ، والفقيه عمارة اليمنى ، وعبد الصمد الكاتب ، والقاضى الأعز سلامة العوريس متولى ديوان النظر ثم القضاء ، وداعى الدعاة عبد الجبار إسماعيل بن عبد القوى ، والواعظ زين الدين ابن نجا ، فوشى ابن نجا بخبرهم إلى السلطان ، فأحيط بهم ، وشنقوا بين القصرين ، وشنق معهم جماعة من الأجناد والعبيد والحاشية ، وبعض أمراء صلاح الدين - ربما لتعاونهم مع الثوار - وتتبع من له هوى فى الدولة الفاطمية ، فقتل منهم كثيرًا ، وأسر كثيرًا ، ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد[3] .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧٠ .
(٢) نفس المصدر ، ق ٢ ، ص ٥٦٩ .
(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٥١ . أبو شامة : الروضتين / ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٠ - ٥٦٥ .

ولم تمضى إلا أيام قلائل على إخماد الأيوبيين لهذه الثورة القاهرية ، التى انخرط فيها جميع كبار رجال الدولة الفاطمية تقريبًا ، حتى اشتعلت ثورة شيعية أخرى فى ثغر الإسكندرية رغم غلبة المذهب السنى عليه طوال العصر الفاطمي ، مما كان موضع تعليق صلاح الدين واندهاشه(١) ففى يوم الأحد ١٥ رمضان سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م ، قبض على رجل يقال له قديد بالإسكندرية ، من دعاة الفاطميين ، وقبض على كثير من السودان ، وكووا بالنار فى وجوههم وصدورهم(٢) .

ويبدو أن الشيعة رأنصار الفاطميين بمصر ، قد فروا إلى صعيد مصر ، والتفوا حول أحد أمراء العرب المتحمسين للدولة الفاطمية . كان يلقب كنز الدولة . وكان واليًا لمدينة أسوان ، فجمع كنز الدولة العرب والسودان فى سنة ٥٧٠هـ ـ ١١٧٤م ، وقصد القاهرة يريد إعادة الدولة الفاطمية ، وأنفق فى جموعه أموالاً جزيلة ، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم ، فقتل عدة من أمراء صلاح الدين ؛ وخرج فى قرية طود ، رجل يعرف بعباس بن شادى ، وأخذ بلاد قوص ، وأنهب أموالها . فجهز السلطان صلاح الدين أخاه الملك العادل فى جيش كثيف ، فسار وأوقع بشادى ، وبدد جموعه وقتله ؛ ثم سار فلقيه كنز الدولة بناحية طود ، وكانت بينهم حروب ، فر منها كنز الدولة ، بعد ما قُتل أكثر عسكره ، ثم قتل كنز الدولة(٣) .

وتشير الحوادث ، أن أغلب بلاد صعيد مصر ، كانت مؤيدة ، لعودة الخلافة الفاطمية ، متمسكة بالدعوة الشيعية . ففى سنة ٥٧٢هـ ـ ١١٧٦م ، حدثت فتنة كبيرة بمدينة قفط ، سببها أن داعيًا من بنى عبد القوى ـ آخر داعى دعاة للفاطميين بمصر ـ ادعى أنه دواود بن العاضد ، فاجتمع الناس عليه ، فبعث السلطان صلاح الدين أخاه الملك العادل ، على جيش ، فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف ، وصلبهم على شجرها ظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم(٤) ، مما يؤكد قوة هذه الثورة ، وكثرة مؤيديها .

ورغم تمثيل الأيوبيين ، بثوار مدينة قفط الشيعة ، فإن نشاط دعاة الإسماعيلية لم يفتر فى مدن الصعيد ، ففى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م ، ظفر والى قوص برجلين من أهل إسنا يدعوان إلى مذهب الباطنية(٥) ؛ ولاشك أن هـذا النشاط المتزايد لدعاة الإسماعيلية فى صعيد مصر ، قد أقلق بال

---

(١) أبو شامة : الروضتين ، ق ٢ ، ص ٥٦٦ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٥٠ . المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٤ .
(٢) المقريزى : السلوك / ج ١ ، ص ٥٤ .
(٣) أبو شامة : الروضتين ، ق ٢: ٥٣١ ، ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ١٦-١٧، المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٧ - ٥٨ .
(٤) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .
(٥) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦ .

السلطات الأيوبية بالقاهرة ، بحيث رُسم فى سنة ٥٨٠هـ ـ ١١٨٤م ، بتقييد أولاد الخليفة العاضد ومن بقى من أقاربه[١] .

وكان قلق الأيوبيين فى موضعه ، فلقد زحف الدعاه والثوار الشيعة من الصعيد إلى القاهرة ؛ وفى سنة ٥٨٤ هـ ـ ١١٨٨م ، ثار فى القاهرة إثنا عشر رجلاً من الشيعة فى الليل ، ونادوا « يا آل على يا آل على »، وسلكوا الدروب وهم ينادون كذلك، ظنّا منهم أن رعية البلد يلبون دعوتهم، ويقومون فى إعادة الدولة الفاطمية ، فيُخرجون مَنّ الحبوس ، ويملكون البلد ، فلما لم يجبهم أحد تفرقوا[٢] ، فكانت هذه المحاولة دافعًا للسلطات الأيوبية ، إلى نفى بعض أنصار الدولة الفاطمية خارج مصر . ففى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م ، كُتب بنقل جماعة من أتباع الدولة الفاطمية المحبوسين فى الإيوان ودار المظفر ليلاً ، بحيث لا يشعر بهم أحد ، حتى يوصلهم المكلف بذلك صرخد[٣] . ومرة أخرى أيدت الأحداث قلق الأيوبيين وأغلب الظن أنهم كانوا يستعينون فى تتبع نشاط دعاة الشيعة بمصر بأصحاب الأخبار . ففى نفس السنة (٥٨٨هـ / ١١٩٢ م) عُثِر على رجل اسمه عبد الأحد من أولاد حسن بن الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ، وأحضر إلى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين بالقاهرة ، فقيل له أنت تدعى أنك خليفة ؟ قال نعم ، فقيل له : أين كنت فى هذه المدة ، فذكر أن أمه أخرجته من القصر فتاه ، ووصل إلى طنبذة ، فاختفى بها ، ثم خرج إلى مصر ، فآواه رجل وشرع يتحدث له فى الخلافة ، وأنه تردد على عدة بلاد دعى لنفسه فيها ، وأقطع أناسًا ممن بايعه الإقطاعات ، على أساس قرب توليه للخلافة ، فسجن هذا الفاطمى ، وفى نفس هذه الأيام عثر أيضًا على بعض أقارب الوزير الفاطمى القديم شاور ، وقد ثار بالقاهرة ، فسجن هو وجماعته[٤] .

وكانت آخر ثورة شيعية لإعادة الدولة الفاطمية شهدها العصر الأيوبى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧م ، فى عصر السلطان الكامل حين كان إبنه الملك العادل ولى عهد ، ففى هذه السنة توفى الأمير داود بن العاضد فى محبسه ، وكانت الإسماعيلية تزعم أن العاضد عهد إليه ، وأنه الإمام من بعده ، فاستأذن أصحابه الملك الكامل أن ينوحوا عليه ويندبوه ، فأذن لهم ، فبرزت النساء حاسرات، والرجال فى ثياب الصوف والشعر ، وأخذوا فى ندبه والنياحة عليه ، واجتمع معهم من كان

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٨٧ ، وأنظر قبله .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٠١ ، المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ نقلاً عن مياومات القاضى الفاضل .
(٣) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١١١ .
(٤) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١١٠ – ١١١ .

في الاستتار من دعاتهم ، فلما تكامل جمعهم أرسل الكامل إليهم طائفة من الأجناد نهبوا ما عليهم ؛ وقبضوا على المعروفين منهم ، فملأ بهم السجون ، واستصفى أموال ذوى اليسار منهم ، ففر من بقي. ويُعلق المقريزى على هذه الثورة بقوله : « وزال من حينئذ ، أمر الإسماعيلية من ديار مصر . ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم »[1] .

محاولة القضاء على بقايا التشيع فى الشام واليمن :

هكذا قضى الأيوبيون على الخلافة الفاطمية بمصر ، وأبادوا تراثها ، وتتبعوا شيعتها بالقاهرة والصعيد ، حتى لم يجسر أحد على التظاهر بمذهبها ، فانقرضت دعوتها من مصر ، ونحن نؤيد المقريزى فيما ذهب إليه من أن زوال المذهب الإسماعيلى بمصر ، بدأ بقدوم عساكر نور الدين زنكى إليها سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م[2] ، ولقد أدرك الإسماعيلية أن دعوتهم لم تصب طوال تاريخها المديد، على يد السلاطين السنيين مثل الغزنويين والسلاجقة والزنكيين بمثل النكبة التى نكبوا بهم بسقوط الخلافة الفاطمية ، وهى أعظم دولة شيعية قامت فى التاريخ الإسلامى استحوذت الخلافة ، وكادت تضم العالم الإسلامى كله تحت لوائها حين خطب لها ببغداد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م[3] ، فلا غرو أن نظر الشيعة الإسماعيلية كلهم إلى صلاح الدين ، على أساس أنه هو الذى أزال دولتهم الكبرى من مصر ، بحيث أننا نجد أن ثوار القاهرة الشيعة فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، ضد صلاح الدين ، قد كاتبوا سنان بن سليمان زعيم النزارية بالشام - رغم عداء الدعوة النزارية الشامية مع الدعوة الحافظية بمصر[4] التى ورثها الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين - لينهض لمساعدتهم ، لأن الدعوة واحد والكلمة جامعة[5] .

فلا غرو أن حاول الإسماعيلية النزارية السنانية بالشام اغتيال صلاح الدين مرتين عند خروجه للشام لضم ممتلكات أستاذه نور الدين زنكى ، وكانت محاولة الاغتيال الأولى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م إبان حصاره لحلب[6] ، والمحاولة الثانية سنة ٥٧١هـ - ١١٧٥م إبان حصاره لمدينة عزاز[7] فحاول صلاح الدين الانتقام من نزاريه الشام بأن رحل فى عاشر محرم ٥٧٢هـ - ١١٧٦م إلى بلادهم

(١) نفس المصدر ، ج ١ ، ص ١٦٩ .
(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .
(٣) أنظر قبله .
(٤) أنظر قبله .
(٥) أنظر أبو شامة : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٥ ، س ٥ - ٦ ، ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .
(٦) أنظر ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢١ - ٢٢ ، سبط ابن الجوزى : مرآة ، ص ٣٢٨ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٣ - ٦١٤ .
(٧) سبط : مرآة ، ٨ : ٣٣٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٨ - ٦٦٣ .

ونازل قلعة مصياب وفيها مقدمهم وزعيمهم راشد بن سليمان بن محمد صاحب قلاع الإسماعيلية التى تنسب إليه الطائفة السنانية من الإسماعيلية ، ونصب على قلعتهم المجانيق والعرادات عدة أيام ثم رحل ولم يقدر عليهم[١] ، ثم إضطّرّ الفريقان تحت ظروف جهاد الصليبيين إلى توقيع الصلح والتعاهد على التعاون على قتال الفرنج[٢] .

والجدير بالتنويه ، أن أنصار الدعوة الطيبية باليمن ، بعد أن أسقط صلاح الدين الدولة الفاطمية بمصر ، كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الحقيقيين للدعوة الإسماعيلية القديمة ، المتمثلة فى الدولة الفاطمية بمصر ؛ وذلك لأن مبدأ النص قد خولف بتولى الخليفة عبد المجيد الملقب بالحافظ الخلافة بعد ابن عمه الخليفة الآمر ، وهذا ما عبر عنه دعاة الدعوة الطيبية بقولهم : قد ذكرنا تغلب عبد المجيد (الخليفة الحافظ) وادعائه الخلافة والإمامة ، وإمرة المؤمنين ، وإنكار الحرة السيدة (أروى ملكة اليمن الصليحية) ذلك .. ودفع الاختلاط فى الناس ، فصار بناء دينهم على غير أساس ، ووقع الستر ، واختفى ولى الأمر (المقصود الخليفة الطيب بن الأمر) فلم يعرف مكانه إلا أولياته المخلصون .. وخفيت نجوم الدين وأقماره وخمل أوليائه وأنصاره ، ما خلا الدعوة فى جزيرة اليمن[٣] .. ثم يتتبع الداعى إدريس تلاعب وزراء السيوف بالنص فى نهاية العصر الفاطمى ويعلق بقوله : فكثر لذلك الاضطراب ووقع فى المملكة الخراب ، وكثر الريب والارتياب ، ونسخت أحكام الدعوة الهادية وعطلت ، وتركت وبطلت ، وعاث الناس فى المملكة وأفسدوا ، وغلبت الشيعة واضطهدوا[٤] ، ثم يذكر صراحة أن خلافة الخليفة العاضد آخر الفاطميين بمصر لم تكن شرعية لمخالفتها مبدأ النص

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٣٢ - ٣٤ ، سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٢٩ ، ص ٣٣٥ ، المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(٢) أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ - ٦٧٠ ولقد صاغ أحد الشيعة الإسماعيلية المحدثين ، قصة على أساس هذه المعاهدة للجهاد المشترك بين صلاح الدين وسنان زعيم الإسماعيلية بمصياب ضد صلاح الدين ، أنظر عارف تامر : سنان وصلاح الدين قصة تاريخية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٥٦ . وأنظر :

- S. Guyard: Un grand maitre des Assassins au temps de Saladin, Hournal Asiatique, VII serie, 9 Janviers - Juin 1877.
- Lewis, B.: Saladin and the Assassins, B.S.O.A.S. 15 (1953), PP. 239-245.
- Lewis, B.: The sources for the History of Syrian Assassins (Speculum 1952, XXVII/4).
- Lewis, B.: Kamal al dins biography of Rasid al-din Sinan, Arabica, Tome XIII, 1966, Fasciule (3) pp. 225-262.

وهو يروى فى هذا المقال ، النص العربى الكامل ، لترجمة مقدم النزارية بالشام ، رشيد الدين سنان بن سليمان من كتاب بغية الطلب فى تاريخ حلب لابن العديم .

(٣) الداعى إدريس : عيون الأخبار ، ورقة ٢٣٠ .

(٤) نفس المصدر ، ورقة ٢٣١ - ٢٣٢ .

عند الإسماعيلية وأنه فى الأبناء فقط ، وفى رأيه أن صلاح الدين قد استغل تسليم الشيعة بمصر بعدم شرعية خلافة العاضد ، وأعلن سقوط الخلافة الفاطمية ، إذ يقول الداعى إدريس : ولما مات الفائز بن الظافر ، وحمل من القصور إلى المقابر ، سعى أرباب الدولة فى إقامة ابن عمه الموسوم بالعاضد عبد الله بن يوسف بن عبد المجيد الحافظ ، فأقاموه فى الخلافة ، فادعى إمرة المؤمنين ، وكتب بذلك إلى القاصين والدانين فى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م ، واستوزر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وملكه ، وفوض إليه جميع ما حازه وملكه ، فقام الملك الناصر بأمر الملك وشدّه ، وتولى حله وعقده ، وضمن أطرافه ومنع أكنافه ، ودعا للعاضد بالإمامة والخلافة ، ثم أن الملك الناصر رأى الأمور قد انقلبت ، وتحقق أن بنى عبد المجيد على الخلافة بغير حق قد تغلبت ، وأئمة الحق قد استترت فلم يعلم حيث حلت وذهبت ، فازداد طمعه فى الملك ، مع أنه كله قد صار إليه ، ولم يقنع نفسه ، إلا أن يصير الأمر إليه ، ومعول جميعه عليه .. وزالت الدولة العلوية ، فسبحان الذى لا يزول ولا تغيره الحول ، واستولى الملك الناصر يوسف بن أيوب على المملكة فى مصر والشام[١] .

وعلى هذا النحو قضى الأيوبيون على الدعوة الإسماعيلية بمصر واليمن والشام ، واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون فى محاربة الدعوة الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية فى إيران والشام ، بحيث لم يبق من فرق الشيعة بالعالم الإسلامى اليوم إلا الدروز بلبنان والشيعة الإثنا عشر يه بإيران والشيعة الزيدية باليمن وبعض الشيعة الإسماعيلية بجبال حراز باليمن إلى جانب بقايا الإسماعيلية الطيبية بالهند الذين يعرفون اليوم بالبُهَره والدوادية والسلمانية[٢] ، وبقايا الشيعة النزارية الذين يعرفون اليوم بالأغاخانية . أما « الحافظية » فماتت دعوتهم بسقوط دولة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م[٣] .

وظل التشيع يضعف فى مصر شيئًا فشيئًا ، حتى كاد يمحى منها ، وأصبحت مصر فى القرن العاشر الهجرى وما بعده تدين بمذهب أهل السنة والجماعة[٤] ، وإن ظلت بعض شرازم الشيعة متقوقعة فى مدن صعيد مصر ، مثل بنو الكنز بأسوان الذين أدرك منهم المؤرخ أبو الفضل الأدفوى

---

(١) الداعى إدريس : عيون الأخبار ، ورقة ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٧ ، ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٣) طه شرف : دولة النزارية ، ص ٤ .

(٤) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٤٨ - ٤٩ .

فى القرن الثامن الهجرى اثنين من أمرائهما ، كانا مشهورين بالمكارم والإحسان[1] ، ويقول الأدفوى عن مدينة أسوان أنه : لما كانت البلاد للعبيدين (أى الفاطميين) غلب على أهلها التشيع ، وكان بها قديمًا أيضًا وقد قل ذلك واضمحل ولله الحمد والمنة[2] ، أما مدينة إدفو « فكان التشيع بها فاشيًا ، وأهلها طائفتان : الإسماعيلية والإمامية ، ثم ضعف حتى لا يكاد ينبز به إلا أشخاص قليلة جدًا »[3] ، كذلك مدينة إسنا : كان التشيع بها فاشيًا ، والرفض بها ماشيًا فجف حتى خف ، ونزل بها الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطى (ت : ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م بإسنا) فزال بسببه كثير فى ذلك وهدى الله على يديه خلقًا كثيرًا[4] ، وكانت « إسفون أيضًا بلدة معروفة بالتشيع الشنيع ، لكنه جف بها وقل »[5] .

كذلك ظلت ذكرى تشيع المصريين ، تترك أثرها فى صور تشبيهات الشعراء المصريين من أهل السنة بعد سقوط الدولة الفاطمية[6] ، كما ظهر بمصر بعد سقوط الخلافة الفاطمية أيضًا بعض الشعراء المتشيعين عقيدة[7] ، وظلت ذكرى الفاطميين ماثلة إلى اليوم فى نفوس المصريين ونلمسها بوضوح فى حَنين المصريين الجارف لآل البيت ، واعتزازهم بأضرحتهم بمصر ، رغم أن السيدة نفيسة ، هى الوحيدة من آل البيت الثابت تاريخيًا أنها مدفونة بمصر[8] .

---

(١) الأدفوى ، ت ٧٤٨هـ ، الطالع السعيد ، الجامع أسماء نُجَباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن ، مراجعة طه الحجرى ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، ص ٣٠ .
(٢) الأدفوى : الطالع السعيد ، الجامع أسماء نُجَباء الصعيد ، ص ٣٤ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٣٧ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٣٨ – ٣٩ ، ص ٦٩١ – ٦٩٨ ترجمة هبة الله القفطى .
(٥) نفس المصدر ، ص ٣٩ .
(٦) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٣٥ – ٤٨ .
(٧) نفس المرجع ، ص ٢٨ – ٣٥ .
(٨) الزركلى : الإعلام ، ج ٩ ، ص ١٦ – ١٧ ، ابن خلكان : وفيات ، ج ٢ ، ص ١٦٩ ، ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج ١٢ ، ص ٣١٠ .

الفصل الثالث

إعادة الشعائر السنية إلى مصر

ونشر الفكر الأشعرى بها

- استحداث المدارس السنية بمصر .
- إنشاء دار الحديث .
- قصر القضاء على المذهب الشافعى وبسط إشرافه على المدارس .
- قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وإبطال تدريس الفكر الفاطمى به .
- استخدام الحسبة لإعادة شعائر السنة .
- تشجيع التصوف والفكرى الصوفى .
- رصد الأحباس والأوقاف للمنشآت الخيرية والتعليمية .
- نشر العقيدة الأشعرية والفقه الشافعى بمصر .

إعادة الشعائر السنية إلى مصر
ونشر الفكر الأشعرى بها

استطاع سلاطين المشرق السنيون ، منذ القرن الخامس الهجرى ، التضييق على الدعوة الإسماعيلية ، فى الهند وإيران والعراق وبلاد الشام ، وتتبع دعاتها والقضاء على كياناتها السياسية، وإرغام معتنقيها على التخلى عنها ، بعد أن زالت سطوتها السياسية ، خاصة بعد حلول الضعف والتدهور بالخلافة الفاطمية بمصر ، التى كانت تمثل الخلافة الشيعية الشرعية القائمة ، والتى كانت تدين لها أغلب الفرق الشيعية ، والكيانات السياسية ، المعتنقة لدعوة التشيع ، بالولاء السياسى والعقائدى(١) .

وكان لزامًا على هؤلاء السلاطين السنيين المشارقة ، فى خراسان وإيران والعراق وبلاد الشام ، أن يشغلوا الفراغ الفكرى والعقائدى للدعوة الإسماعيلية ، بفكر سياسى وعقائدى بديل ، يناقض الفكر الإسماعيلى الشيعى ، ويتواءم مع جوهر الفكر السياسى والعقائدى لأهل السنة .

ومن ثم عمد سلاطين المشرق السنيون ـ الغزنويون ومن بعدهم السلاجقة والزنكيين والأيوبيين ـ إلى اعتناق الفكر السياسى والعقائدى للدعوة الأشعرية السنية ، وتعميم وسائل هذه الدعوة ، التى هدفت إلى القضاء على الدعوة الإسماعيلية من جميع أرجاء العالم الإسلامى ، وعلى الخصوص فرعها الأساسى ، المتمثل فى الخلافة الفاطمية بمصر(٢) .

والواقع أن أغلب الوسائل التى اتخذها هؤلاء السلاطين ، بإيران والعراق والشام ، ثم طبقها الأيوبيون بمصر ، منذ كانوا وزراء سيوف للخليفة الفاطمى العاضد ، كانت من وسائل الدعوة الأشعرية ، وخاصة المدارس والتصوف ، كما استخدم الأيوبيون أيضًا فى سبيل نشر الفكر السنى بمصر ، جميع النظم الدينية السنية ، التى طبقوها بمصر .

---

(١) أنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على المذهب الفاطمى ، وبعده الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(٢) أنظر بعده ، نفس هذا الفصل الحالى .

استحداث المدارس السنية بمصر :

لقد لاحظ القلقشندى ، أن أول من أحدث المدارس بالفسطاط بنو أيوب[1] ، وأنها كانت في الدولة الفاطمية وما قبلها قليلة الوجود ، بل تكاد تكون معدومة ، ثم جاءت الدولة الأيوبية ، فكانت الفاتحة لباب الخير ، والغارسة لشجرة الفضل[2] ، في حين لاحظ المقريزى أن صلاح الدين بإنشائه المدارس بمصر ، قد اقتدى بالملك العادل نور الدين الذى بنى بدمشق وحلب وأعمالهما عدة مدارس للشافعية والحنفية ، فبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر ، وكانت أول مدرسة أحدثت بديار مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر ، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضًا ، ثم المدرسة السيوفية التى بالقاهرة ، ثم اقتدى بالسلطان صلاح الدين فى بناء المدارس بالقاهرة ومصر وغيرهما من أعمال مصر ، وبالبلاد الشامية والجزرية ، أولاده وأمراؤه ، ثم حذا حذوهم من ملك مصر بعدهم من ملوك الترك وأمرائهم وأتباعهم . وقدأفاد المقريزى أن حركة بناء المدارس ظلت نشطة دؤوبة إلى أيامه[3] ، كما تتبع جميع المدارس التى أنشأها الأيوبيون ، وترجم لمنشئيها وأساتذتها ، وحدد أماكنها فى مدينتى القاهرة والفسطاط ، وميز الباقى منها إلى عهده والمندرس[4] . كما قام النعيمى المؤرخ الدمشقى ، بالتأريخ للمدارس التى أنشأها الأيوبيون بدمشق والترجمة لمنشئها

---

(١) القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ ، س ٢٠ - ٢١ .

(٢) نفس المصدر : ج ٣ ، ص ٢٦٢ ، ص ١٥ .

(٣) أنظر المقريزى : الخطط ج ٤ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ ، أنظر قبله .

(٤) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٩٣ - ٢٠٠ ، وهى المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق ، ثم عرفت بمدرسة زين التجار ، وقد بناها صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ وجعلها برسم الفقهاء الشافعية . يقول المقريزى : وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة وهى أول مدرسة عملت بديار مصر (الخطط ج ٤ ص ١٩٣ س ١٧ - ١٩) والمدرسة القمحية بجوار الجامع العتيق بمصر ، وكان الشروع فيها للنصف من المحرم سنة ٥٦٦هـ . ورتب فيها أربعة من المدرسين ، عند كل مدرس عِدّة من الطلبة ، وهى أجل مدرسة للفقهاء المالكية (الخطط ص ١٩٣ - ١٩٤) ومدرسة يازكوج ، ومدرسة ابن الأرسوفى ، ومدرسة منازل العز ، وقد بناها الملك تقى الدين عمر بن أخ صلاح الدين ، كما بنى بمدينة الفيوم مدرستان إحداهما للشافعية والأخرى للمالكية ، وبنى مدرسة بمدينة الرها ببلاد الجزيرة الفراتية (الخطط ، ج ٤ ، ص١٩٤ - ١٩٥) ومدرسة العادل ومدرسة ابن رشيق والمدرسة الفائزية والقُطبية والسيوفية ، أوقفها صلاح الدين على الحنفية ورتب لمدرسها مجد الدين الجبتى فى كل شهر أحد عشر دينارًا وباقى ريع الوقف يصرفه على ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده على قدر طبقاتهم وهذا ما نقله المقريزى من وَقْفِيَّة المدرسة التى ترجع إلى عصر صلاح الدين ومؤرخه بسنة ٥٧٢هـ وأفاد المقريزى أن هذه المدرسة هى أول مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر (الخطط ٤: ١٩٦ - ١٩٧) ومحلها اليوم جامع الشيخ مطهر ، أثر رقم ٤٠ شارع المعز لدين الله ، والمدرسة الأفضلية وقفها القاضى الفاضل على الشافعية والمالكية (الخطط ٤: ١٩٧ - ١٩٩) والمدرسة الأزكشية والمدرسة الفخرية والمدرسة السيفية والمدرسة العاشورية والمدرسة القطبية ، وأنظر عن المدرسة الصالحية المقريزى : الخطط ٤: ٢٠٩ - ٢١١ والمدرسة الكاملية ، الخطط ٤: ٢١١ - ٢١٦ .

ومدرسيها[1] ، وقد حدد ابن واصل تاريخ بداية إنشاء صلاح الدين للمدارس بمصر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، إبان وزارة صلاح الدين للعاضد ، وفى رأى المقريزى ، أن إنشاء المدارس السنية بمصر ، كان من أعظم ما نزل بالدولة الفاطمية[2] .

ولحسن الحظ فقد وصل إلينا وصفًا شائقًا دقيقًا لحركة بناء المدارس وترتيب الأساتذة والمدرسين والقومة عليها ، وتوفير الرعاية الصحية لطلابها وخاصة من الغرباء ، إلى جانب وقف الأوقاف الكثيرة ، للصرف على منشآت هذه المدارس وأساتذتها والمشرفين عليها ، على لسان شاهد عيان زار مصر فى مطلع العصر الأيوبى ، وهو الرحالة المغربى الشهير ابن جبير الأندلسى ، الذى زار مدارس الإسكندرية التى أنشأها صلاح الدين هناك ، وخصصها لطلاب العلم الوافدين من بلاد الأندلس والمغرب ، ووفر لهم فيها المساكن والحمامات والبيمارستانات « المستشفيات » ، كما وفر لهم الأساتذة والأطباء وأجرى عليهم الأرزاق والمرتبات والوجبات الغذائية اليومية[3] والطريف ما لاحظه

---

(١) أهم المدارس الشافعية التى أسسها الأيوبيون بدمشق ، هى : المدرسة الصلاحية بالقرب من البيمارستان النورى بانيها نور الدين زنكى ونسبت إلى صلاح الدين (النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ١: ٣٣١ – ٣٣٣ ، والمدرسة العمادية الصلاحية وهى مختلف فيها ، قيل بناها نور الدين زنكى وقيل بل ابنه عماد الدين اسماعيل والواقف عليها صلاح الدين وأول مدرس بها العماد الأصبهانى كاتب الإنشاء لنور الدين ثم لصلاح الدين (النعيمى ١: ٤٠٧ – ٤١٣) المدرسة الأسدية أنشأها أسد الدين شيركوه الكبير (النعيمى ١: ١٥٢ – ١٥٧) المدرسة الإقبالية بناها جمال الدين إقبال الشرابى ، حاجب نور الدين ثم صلاح الدين (نفسه ١: ١٥٨ – ١٦٦) المدرسة العزيزية لصيق الجامع الأموى ، أول من أسسها الملك الأفضل ابن صلاح الدين ، ثم أتمها الملك العزيز أخوه ونقل إليها رفات والده فى قبة جوارها (نفسه ١: ٣٨٢ – ٢٩٨) ولقد درس فيها سيف الدين الآمدى المتكلم الأشعرى الشهير طوال فترة استقراره فى بلاد الشام (نفسه ١: ٣٩٣ – ٣٩٨) المدرسة العادلية الكبرى وأول من بناها نور الدين لم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أيوب ثم أتمها ابنه المعظم عيسى ودفن فيها أباه ونسبها إليه (نفسه ١: ٣٥٩ – ٣٦٧) المدرسة العادلية الصغرى (ص ٣٦٨ – ٣٨٢) المدرسة العصرونية (١ : ٣٩٨ – ٤٠٦) المدرسة الأتابكية (١: ١٢٩ – ١٥٠) وأهم المدارس التى أنشأها الأيوبيون لفقراء الحنفيه بدمشق فهى المدرسة الأسدية (١: ٤٧٣) المدرسة الإقبالية (١: ٥٤٩ – ٥٥٠) أما أهم المدارس المالكية التى أنشأها الأيوبيون بدمشق فهى المدرسة الصلاحية (٢: ١٠ – ٢٨) ومدرسة العالمة (٢ : ١١٢ – ١١٣) والمدرسة الصالحية (٢ : ٧٩ – ٨٦) .

(٢) قال ابن واصل فى حوادث سنة ٥٥٦هـ : وفى هذه السنة حرر صلاح الدين دارًا كانت للمعونة بمصر مدرسة للشافعية ولم يكن بمصر للشافعية ولا لغيرهم مدرسة لأن الدولة كانت اسماعيلية ولم يكن لهم مَيْل إلى شىء من هذه المذاهب ثم بنى رحمه الله – دار الغزل ، مدرسة للمالكية (ابن واصل : مفرج ١ : ١٩٧ – ١٩٨) ويتضح من هذا النص أن بناء المدارس السنية ، كان عملاً مناقضًا للدعوة الإسماعيلية . وهذا النص بالإضافة إلى نص المقريزى المتقدم بأن بناء المدارس إبان وزارة صلاح الدين للفاطميين ، كان من أعظم ما نزل بالدولة الفاطمية يؤكد كون إنشاء المدارس السنية بمصر كان أحد وسائل الدعوة السنية ومن أهم عوامل نشر السنة بمصر ، وانقراض المذهب الإسماعيلى منها .

(٣) يقول ابن جبير عن مدينة الأسكندرية : ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه : المدارس والمحارس (أى الروابط ، أنظر بعده) الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية =

الدارسون المحدثون ، ونصت عليه المصادر القديمة ، من أن الأيوبيين هم أول من عين المرتبات الثابتة للأساتذة والمعيدين ، في المدارس السنية التي أنشأوها بمصر[1] ، كذلك ترك لنا ابن جبير وصفًا شائقًا لكيفية سير العمل في بناء مدرسة الإمام الشافعي بالقرب من ضريحه ، ومدى اهتمام صلاح الدين والفقيه الخبو شاني بإظهار هذه المدرسة ، كأحسن ما تكون عمارة وروعة وضخامة[2] .

وثمة ملحوظة هامة أبداها بعض الباحثين المحدثين ، تتعلق بأماكن المدارس التي شيدها صلاح الدين بمصر والقاهرة ، وهي أنها كانت مجاورة لأماكن العبادة والتبرك القديمة عند المصريين مثل جامع عمرو وضريح الشافعي والمشهد الحسيني ، مما يوحي بأن صلاح الدين قد حاول ربط المدارس السنية بالجديدة بأماكن العبادات التي لها الاحترام في نفوس المصريين ، فضلاً عن إكساب الشهرة لمدارسه نتيجة لارتباطها بأسماء هذه الأماكن[3] ولازالت بعض المدارس التي شيدها الأيوبيون بمصر والشام باقية إلى اليوم[4] .

= فيلقى كل واحد منهم مسكنًا يأوى إليه ومدرسًا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، وإجراء (مرتب) يقوم به جميع أحواله . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانًا لعلاج من مرض منهم ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب أيضًا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكلفوا بمعالجتهم .. راجع النص بأكمله لأهميته عند ابن جبير : الرحلة (١٥ - ١٦) .

(١) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، الطبعة الثانية ١٩٧٢ ص ١٦٢ - ١٦٣ فكانت أجور المدرسين بالمدارس في أيام صلاح الدين ، أربعون دينارًا للمدرس ، وعشرون دينارًا للعميد ، وكل يوم له ستون رطلاً من العيش وأنظر القفطي تأريخ الحكماء ، ص ٩٨ .

(٢) راجع ابن جبير : الرحلة ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣) عبد الغني عبد العاطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير جامعة القاهرة ، ١٩٧٥، ص ٥٧ .

(٤) أنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية في العصر الأيوبي ٥٦٧هـ / ٦٤٨هـ (دراسة مقارنة بمصادر تاريخ مصر الإسلامية في العصر المماليكي ، مع ترجمة ونشر ١٤ وثيقة أيوبية من الأرشيفات الإيطالية، تنشر لأول مرة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، والجدير بالملاحظة أن الأيوبيين قد اتخذوا من إنشاء المدارس وسيلة لإعادة نشر الإسلام وعلوم الدين في البلاد التي تم استردادها من أيدى الصليبيين ، فبعد استرداد صلاح الدين لبيت المقدس سنة ٥٨٤هـ ، أبطل صلاح الدين الكنائس وأنشأ المدارس للفقراء الشافعية كما أنشأ رباط للصلحاء الصوفية وأوقف عليهما وقوفًا . أنظر العماد : الفتح ص ١٤٥ . وهنا تقتضى الإشارة إلى أن مفهوم كلمة مدرسة في الإسلام تختلف عن مفهوم المدرسة في المصطلح المعاصر لنا ، في الإسلام تعنى بناء خاص يخصص له من الأوقاف والموارد ما يكفى لإطعام وإسكان الطلبة والمدرسين وسواء إذا كانت هذه المدرسة قد تولت إنشاءها الدولة أو الأفراد فقد كان للمدرس الحرية في اختيار المؤلفات التي يدرسها للطلبة إلا إذا كان من شرط وقفية المدرسة أن تكون مخصصة بنوع من العلوم (علم الحديث مثلاً) أو بمذهب من المذاهب (الشافعي مثلاً) ولم يكن ثمة التزام بالنسبة لحضور جميع العلوم التي تدرس كذلك لم تكن تعطى شهادات للتخرج كذلك لم يكن يشترط سن معين للالتحاق بالمدرسة - معلومة شفوية عن الأستاذ محمود شاكر ؛ وإن لوحظ في العصر الأيوبي نوع من التدريس الموجه للعلوم الحديث وللفقه السني ، اعتمادًا على شروط وقفية المدرسة .

ولقد تطورت حركة بناء المدارس بمصر طوال العصر الأيوبى ، سواء من ناحية تخصصات هذه المدارس ، أو من ناحية التخطيط المعمارى الهندسى ، أو من ناحية التنظيم الإدارى ، الخاص بالإشراف على المدرسة . أو من ناحية تسجيل مواقيت الحضور والانصراف للطلبة ، وتسجيل أسماء المتخلفين عن الحضور ، والإشراف على مرافق المدرسة ، وتعيين متخصصين للإشراف على مكتبتها العامة ، ومتخصصين للإشراف على التأذين لإقامة شعائر الصلوات الخمس فى أوقاتها[1] . ويبدو أن سلك الترقى كما عرف فى أوربا فى أكاديميات عصر النهضة ، وكما انتقل إلى جامعاتنا الحديثة ، قد تبلور فى صورته الأخيرة التى نقلتها أوربا عن المدارس السنية التى أنشأها الأيوبيون بمصر . فنسمع عن سلك أكاديمى يأتى على رأسه المنتهى من الفقهاء ثم المدرس ثم المفيد ثم المعيد[2] ؛ وأغلب الظن أن الصورة النهائية لبناء المدارس ، بتصميمها الهندسى القائم على الأيوانات الأربع المبنية ، قد تبلور ونضج واستقر بمصر ، فى نهاية العصر الأيوبى ، استجابة للحاجة التى أملت إنشاء مدارس سنية تجمع المذاهب الفقهية الأربعة الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية ، وقد وضح هذا فى مدرسة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، القائمة إلى اليوم بحى الصاغة بمدينة القاهرة[3] . وغنى عن البيان أن الأيوبيين قد أنشأوا المدارس السنية ، لتحل محل الجامع الأزهر ، الذى كان بمثابة جامعة شيعية ضخمة.

إنشاء دار الحديث :

وواكبت حركة إنشاء المدارس الفقهية بمصر فى العصر الأيوبى ، ظاهرة على قدر كبير من الأهمية ، وهى إنشاء مدارس متخصصة لدراسة علوم الحديث عرفت بدار الحديث . وكان السلطان الملك الكامل محمد ، ـ من أعظم سلاطين الأيوبيين ، وأشهر من عرف عنه العناية بالعلوم وتشجيعها ـ ، هو أول من أنشأ دارًا للحديث بمصر . وأسند التدريس فيها للمحدث الأندلسى الشهير ابن دِحْيه الكلبى[4] . والمعروف أن أول من أنشأ دار للحديث بالشام كان نور الدين زنكى[5] . ولا ريب أن المدرسة الكاملية التى أنشئت بمصر كدار للحديث النبوى ، ولازالت إطلالها باقية إلى اليوم[6] ، قد بنيت على غرار دار الحديث النورية بدمشق ، لنفس الهدف الذى شيدها من أجله نور الدين ، وهو نشر علوم السنة كوسيلة لمحاربة الدعوة الإسماعيلية ببلاد الشام ، وقد أنشأ

---

(١) أنظر السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ .

(٢) نفسه : ص ١٠٥ – ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٨ –١٠٩ ، ١١١ ، ٦٧ – ١٠١ ، وعن التدريس للصغار فى الكتاتيب أنظر الشيزرى : نهاية أرتبه ص ١٠٣ – ١٠٥ .

(٣) أنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، ص ١٧٣ – ١٩٠ (آثار الدولة الأيوبية) .

(٤) عن المدرسة الكاملية والسلطان الكامل ، وابن دِحْيَه الكلبى ، أنظر المقريزى : الخطط ج ٤ ، ص ٢١١ – ٢١٦ .

(٥) أنظر النعيمى : الدارس ، ج ١ ، ص ٩٩ – ١١٣ .

(٦) راجع أحمد فؤاد سيد : المرجع السابق ص ١٧٣ – ١٩٠ (آثار الدولة الأيوبية) .

الأيوبيون ببلاد الشام أيضًا دارًا ضخمة أخرى للحديث بدمشق هى دار الحديث الأشرفية[1] التى أنشأها الملك الأشرف موسى أخو الملك الكامل وعهد بأستاذيتها إلى المحدث الكردى الشهير تقى الدين ابن الصلاح[2]، وهو صاحب أشهر كتاب ألفه المتأخرون فى علم مصطلح الحديث، أى فنون الحديث وعلومه، وهو الكتاب المعروف باسم «مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث»، ولقد صرح ابن الصلاح فى هذا الكتاب أن علوم الحديث كانت قد قل الاهتمام بها فى عصر الفاطميين، مما دعاه إلى التأليف فيها[3].

ولا شك أن فكرة إنشاء دار للحديث بمصر، كان الغرض منها إحياء علوم السنة النبوية القائمة على الرواية والنقل والإسناد عن النبى صلى الله عليه وسلم، كوسيلة لمحاربة المذاهب الفلسفية التى روج لها الفاطميون من قبل فى «دار الحكمة»[4].

---

(١) أنظر النعيمى : الدارس ١: ١٩ - ٤٧، ٤٧ - ٥٥ وأنظر أيضًا عن دور الحديث التى أنشأها الأيوبيون بالشام، دار الحديث الفاضلية، النعيمى ١: ٨٩ - ٩٦، ص ١١٥ - ١٢٢.

(٢) أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات ١: ٣١٢ (الطبعة القديمة)، طبقات الشافعية، ج ٥ ص ١٣٧ (الطبعة القديمة أيضًا).

(٣) صور لنا ابن الصلاح فى مقدمته لعلوم الحديث كيف أن علوم الحديث عند مجيء الأيوبيين كانت فى شبه محنة بحيث قال ابن الصلاح : " لقد كان شأن الحديث فيما مضى عظيمًا عظيمة جموع طلبته، رفيعة مقادير حفاظه وحملته .. فلم يزل حملته فى انقراض ولم يزل فى اندثار، حتى آلت به الحال إلى أنصار أهله إنما هم شرذمة قليلة العدد، ضعيفة العدد (أنظر مقدمة ابن الصلاح - خطبة الكتاب)، وعن أحوال علوم الحديث فى العصر الفاطمى بمصر، أنظر قبله ؛ ولقد وصفه ابن خلكان بقوله : مكان أحد فضلاء عصره فى التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال وما يتعلق بعلم الحديث ونقل اللغة وهو أحد أشياخى الذين انتفعت بهم، وكان من جلة مشايخ الأكراد المشار إليهم (ابن خلكان : وفيات، ج ٣ : ص ٢٤٣ من طبعة بيروت).

(٤) عن دار الحكمة الفاطمية أنظر المقريزى : الخطط ج ٢ : ص ٣٣٢ - ٣٣٥.

ونظرًا لموقف الفاطميين من علم الحديث، نظرًا لتحفظهم فى الراوية إلا عن انتهم من الشيعة للعداوة السياسية بينهم وبين أهل السنة، وهذا ما شرحه بالتفصيل القاضى النعمان فى أحد فصول كتابه دعائم الإسلام، ونظرًا لتأثرهم بفكر المعتزلة التى كان بعض مشايخها يرى فى علم الحديث، أخبار آحاد ؛ تدهورت علوم الحديث فى عصرهم بعض الشيء، رغم أن كتابى ابن الحبال وابن الطحان عن محدثى مصر فى العصر القاطمى عامر بتراجم الحفاظ والمحدثين وكذلك كتابى مُشْتَبَه النِّسْبَة والمؤتلف والمختلف للحافظ عبد الغنى المقدسى.

- لذا فقد شهد العصر الأيوبى بمصر والشام، حركة علمية ضخمة سعت إلى نشر علوم الحديث والسنة النبوية، ونبغ فى هذا العصر عدد من كبار حفاظ الإسلام الذين ألفوا فى شتى علوم الحديث وعلى رأسهم ابن عساكر الدمشقى ت ٥٧١هـ، وابن الصلاح، والنووى، والمنذرى، والذهبى، وابن كثير. (راجع حسن المحاضرة للسيوطى، باب ما كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده، وباب من كان بمصر من المحدثين ممن لم يبلغ درجة الحفظ) ؛ ويبدو أن نهضة علوم الحديث فى العصر الأيوبى، هى امتداد لحركة الإصلاح السنى السلجوقى، التى كانت قاعدتها بلاد العراق. =

قصر القضاء على المذهب الشافعي وبسط إشرافه على المدارس :

وكما أقدم صلاح الدين ، وهو وزير للخليفة العاضد الفاطمي ، له الإشراف على شئون الدعوة الفاطمية بمصر ، لكونه « هادي دعاة المؤمنين » على مناقضة عهود ومواثيق العاضد ، في رعاية دعوته ، بأن عمل على محاربتها بإنشاء المدارس السنية ؛ فلقد قرن صلاح الدين ، إنشائه للمدارس السنية بمصر ، ومحاربته للدعوة الإسماعيلية ، بإزالة القضاء الشيعي من مصر ، وتفويض القضاء بالديار المصرية ، إلى قاضي شافعي المذهب في الفقه ، أشعري العقيدة في أصول الدين ، كردي الجنس ؛ ولا ريب أن صلاح الدين بهذا العمل قد ناقض أيضًا عهود مواثيق العاضد ، وما فوضه إليه من تفويض أمر القضاء الشيعي بمصر ، لمن ينهض به من فقهاء الشيعة ، لكونه كوزير فاطمي « كافل قضاة المسلمين »[1] . ففي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، فوض صلاح الدين القضاء بالديار المصرية إلى قاضي القضاه صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني الشافعي ، فجعل صدر الدين القضاه في سائر الديار المصرية شافعية ؛ فاشتهر مذهب الشافعية ، واندرس مذهب الفاطمية

= – ولا شك أن هذه النهضة في علوم الحديث التي شهدها العصر الأيوبي بمصر والشام ؛ هي التي تفسر ظهور طائفة من كبار حفاظ الإسلام بمصر والشام في العصر المملوكي ، فظهر بمصر زين الدين العراقي ، ونور الدين الهيثمي ، وابن حجر العسقلاني ، وشمس الدين السخاوي ، وجلال الدين السيوطي ، وشهاب الدين القسطلاني وغيرهم ، وظهر بالشام ابن ناصر الدين الدمشقي حافظ الشام في عصره كما وصفه السخاوي في الضوء اللامع . وقد ذكر السخاوي في كتابه استجلاب ارتقاء الغرَف بحب أقرباء الرسول وذوي الشرف إن لديه من مَسانيد آل البيت مُجلدات ضخمة تفوق الحصر ، وإن أصح أسانيد آل البيت عن جعفر الصادق رضي الله عنه ، بشرط أن يكون الراوي عن جعفر ثقة .

– ويستفاد من مقدمة الحافظ زكي الدين المنذري لكتابه مختصر سنن أبي داود ، أنه قد أقدم على اختصار الكتب الستة الصحاح ، بادئًا بصحيح البخاري ثم صحيح مسلم ثم سنن الترمزي ، بهدف إملاء هذه المختصرات وتدريسها لطلبة العلم من طلاب مدرسة دار الحديث الكاملية بمصر . كما يستفاد من مقدمة الحافظ ابن الصلاح لكتابه مقدمة في علوم الحديث ، أن علوم الحديث قد شهدت تدهوراً في العصر الفاطمي .

ودار الكتب المصرية ، ومكتبة الجامع الأزهر بمصر ، والمكتبة الظاهرية بدمشق ، والمكتبة الوطنية بتونس ؛ هذه المكتبات على الخصوص لا تزال إلى اليوم عامرة بعدد كبير من مخطوطات كتب الحديث التي ألفت في العصرين الأيوبي والمماليكي بمصر والشام ، وظلت تدرس بمدارس مصر الأيوبية والمماليكية ، والجامع الأزهر بمصر ، وبمدارس الحديث بالشام ، وبجامع الزيتونة بتونس ؛ كما أن عددًا ضخمًا من هذه المؤلفات قد تم نشره بالفعل ويمثل جانبًا له أهميته بل لا يستغنى عنه ضمن كتب مصطلح الحديث وشرح وتفسير الحديث ، وكتب الزوائد ، وكتب الجرح والتعديل ونقد الرجال .

كذلك امتدت هذه النهضة الخاصة بنشر علوم الحديث والسنة إلى بلاد العراق في ظل الخلافة العباسية السنية ، فظهر الإمام أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي البغدادي سنة ٥٩٧هـ .

(١) أنظر قبله ..

بالكلية ، وانمحى أثره ، ولم يبق أحد من أهل البلاد يمكنه التظاهر به[1] ، وقام ابن درباس بعزل سائر القضاه ، واستناب قضاه شافعية ، فتظاهر الناس من تلك السنة بمذهب مالك والشافعي .. ، واختفى مذهب الشيعة إلى أن نُسي من مصر[2] .

وتأكيدًا لسرعة تطبيق وتعميم الفقه السنى بمصر ، سواء فى الحياة اليومية فى الأسواق ، أو فى المصالح الحكومية ، وكذلك لنشر الفقه السنى بين المصريين المترددين على المساجد ، أضافت الحكومة الأيوبية فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، الخطابة والإحباس والحسبة ودار الضرب ، إلى ولاية القضاء ، وعهد بهذه الولايات مجتمعة إلى قاضي القضاه صدر الدين ابن درباس[3] ؛ وصارت مهمة الإشراف على المدارس السنية ، بل وجلوس قاضي القضاه بنفسه لتدريس الفقه السنى فى هذه المدارس ، من أهم وظائف قاضي القضاه بمصر ، بحيث تذكر فى تقليد تعينه ، كما ورد فى تقليد قاضي القضاه ، عين الدولة ابن بندار ، الذى خلف ابن درباس على قضاء الديار المصرية[4] . والمتتبع لتراجم

---

(١) ابن واصل : مفرج ج ١ ص ١٩٨ ويعلق الشيال على هذا الحدث بقوله : وهذه النسبة تدل على أن القاضي كردى كصلاح الدين ومن نفس القبيلة التى ينتمي إليها ، وتحويل القضاء فى مصر إلى المذهب الشافعي ، وتعيين قاضي قضاه كردى والخليفة الفاطمي لا زال حيًا - إجراء له دلالته السياسية الواضحة . الشيال هامش " ٢ " على مفرج الكروب ، ١: ١٩٨ ، سبط : مرآة ٨: ٢٨٣ ، أنظر ترجمة صدر الدين بن درباس ، عند السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، الطبعة القديمة ٨: ٣٣٧ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ١: ٤٠٨ ، ابن حجر : رفع الأصر ، طبع القاهرة ١: ٣٦٧ - ٣٧٠ ، وفى ترجمة أخيه ضياء الدين ، وقد ناب عنه فى القضاء ، عند ابن خلكان : وفيات ٣: ٢٤٢ - ٢٤٣ وأنظر عودته إلى القضاء سنة ٥٩٥هـ ، عند ابن تغرى بردى : النجوم ٦: ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، ١: ٣٥٨ - ٣٥٩ ، وأنظر أيضًا السيوطي : حسن المحاضرة ، ٢: ١٨٠ وما بعدها . يقول : لما استولى الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب على القاهرة ، وزيرًا عن العاضد ، أزال الرفض والشيعة ، وصرف ابن كامل (أبو القاسم جلال الدين هبة الله ابن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصعدى) ، وولى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردى الشافعي قضاء القضاه بالقاهرة .

(٣) ابن حجر : رفع الأضر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١١ - ١٥ .

(٤) جاء فى نص التقليد ، الذى صاغه ضياء الدين بن الأثير ، لتوليه زين الدين بن بندار قاضي قضاة للديار المصرية سنة ٥٩٥هـ : " فقد رأينا أن نجمع لك بين تنفيذ الأحكام وحفظ أصولها ، وإلا نخليك من النظر فى دليلها ومدلولها ، فإن الترك يوحش العلوم من معهود أماكنها ، ويذهب بها من تحت أقفال خزائنها ، ومنصب التدريس كمنصب القضاء ، أخ يشد من عضده ويكثر من عوده ، فتول المدرسة الفلانية ، عالمًا أنك قد جمعت بين سيفين فى قراب ، وسلكت بابين إلى تحصيل الثواب ، وركبت أعز مكان وهو تنفيذ الحكم ، وجالست خير جليس وهو الكتاب " ، (أنظر نص هذا التقليد كاملاً عند السيوطي ، حسن المحاضرة ٢: ١٥٤ - ١٥٩ ، وأنظر نص تقليد قاضي سنجار ، بعد أن ضمها صلاح الدين إلى ممتلكاته عند العماد : البرق الشامي ج ٥ لوحة ٢٨ أ -٢٩ ب، وأنظر منشور لمدرس بحلب من إنشاء العماد: البرق ج ٥ لوحة ٤٦ ب- ٤٨ أ، ومما يفيد تولى ابن درباس لتدريس علوم الفقه لسنوات طويلة ، ما ذكره الأديب المغربى الساخر ركن الدين الوهرانى، وهو يسخر من صدر الدين بن درباس : وهو من كوادن المدارس ، له أرجون سنة يقرأ، لا يحفظ مسألة من الفقه ، ولا أية من كتاب الله تعالى (الوهرانى : المنامات والمقامات، ص ٥٥ س ٧ - ٨) .

قضاة مصر فى العصر الأيوبى ، ونوابهم فى أقاليم الديار المصرية يجدهم جميعًا بلا استثناء تقريبًا ، قد جلسوا بأنفسهم للتدريس فى المدارس السنية التى أنشأها الأيوبيون بالقاهرة والفسطاط وأغلب أقاليم الديار المصرية[1] .

وقامت الدولة الأيوبية ، منذ عهد صلاح الدين ، بتفويض قضاء الشام ، لبيتين من كبار البيوتات السنية ، التى اشتهرت بتولى القضاء والوظائف الدينية منذ عهد نور الدين زنكى ، وهما بيتا الشهر زورى وابن عصرون[2] ، وبهذا تم نشر الفقه السنى بمصر والشام ، إبان العصر الأيوبى ؛ وغنى عن التدليل ، أن تولى قضاة سنيون ، لمنصب قاضى القضاه فى العصر الفاطمى ، الذى كان له الإشراف على الدعوة الفاطمية ، ـ وأغلب الظن أن ذلك تم على يد وزراء التفويض السنيين مثل

---

(١) جاء فى ترجمة القاضى أبو طاهر الأسوانى ت ٥٩٩ أنه : أقام بأسوان حاكمًا ومدرسًا (السيوطى : حسن : ١ : ٤٠٨ الأدفوى : الطالع السعيد ص ٩٦) ، وفى ترجمة ابن الخراط الدمياطى ت ٦١٩هـ أنه تميز فى الفقه والخلاف ، ورجع إلى بلده فأقام بها قاضيًا مدرسًا ثم ولى قضاء مصر والوجه القبلى (السيوطى : حسن : ١ : ٤١٠) وفى ترجمة عماد الدين بن عصرون الكردى ت ٦٢٠هـ ، أنه قدم مصر ، فتولى قضاء دمياط ، ثم ناب بالقاهرة ودرس بالجامع الأقمر وغيره (السيوطى : ١ : ٤١٠ - ٤١١) وفى ترجمة صدر الدين موهوب الجزرى . ت ٦٦٥هـ ، أنه : تخرجت به الطلبة ، وجمعت عنه الفتاوى المشهورة ، وولى القضاء بمصر (السيوطى ١: ٤١٥) وفى ترجمة نجم الدين الخضراوى ت ٦٦٢ أنه : تولى قضاء أسيوط وتدريس الفائزية بها (السيوطى ١: ٤١٥ - ٤١٦) وفى ترجمة شيخ الشيوخ ، صدر الدين بن شيخ الشيوخ ابن حمويه ، أنه : أفتى ودرس ، وولى تدريس الشافعى والمشهد الحسينى ومشيخة سعيد السعداء ، (السيوطى ١: ٤١٧) وجاء فى ترجمته إسماعيل ابن قاضى القضاه عبد الملك ابن درباس ت ٦٢٤هـ أنه ناب عن والده فى القضاء ودرس بالسيفية بالقاهرة (الصفدى : الوافى ، ٩ : ١٥٣ ترجمة ٤٠٥٨) .

(٢) سبط : مرآة ، ج ٨ ص ١٢١ ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، ص ٣٤٠ - ٣٤٢ ، أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٧١ - ٦٧٥ . حيث يقول نقلاً عن العماد الأصفهانى : كان السلطان لإحياء القضاء فى البيت الزكوى مؤثرًا ، وذلك بعد أن استعفى من القضاء ، القاضى ضياء الدين الشهرزورى الذى تولاه منذ العصر النورى ، وفى نفس هذه السنة سنة ٥٧٢هـ ، وهى التى سيطر فيها صلاح الدين على أغلب بلاد الشام ، وقف صلاح الدين قرية من قرى حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه أو لمن يحضر لسماع الدروس بالزاوية الغربية من جامع دمشق وعلى من هو مدرسهم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعى ، وجعل النظر لقطب الدين النيسابورى . ثم أضاف أبو شامة : ورأيت كتاب الوقوف بذاك على هذه الصورة وعليه علامة السلطان رحمه الله ، الحمد لله وبه توفيق ، أنظر الروضتين ص ٦٧٥ ، وعن نشاط تدريس علوم السنة بالجامع الأموى بدمشق ، فى عصر صلاح الدين ، أنظر ابن جبير: الرحلة ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، وعن المنشآت التعليمية والخيرية بدمشق فى العصرين النورى والصلاحى أنظر أيضًا ابن جبير : الرحلة ص ٢٥٥ - ٢٥٧ . وعن اقتران وظيفة التدريس ببلاد الشام مع وظيفة قاضى القضاه ، جاء فى ترجمة يونس بن بدران المعروف بجمال الدين المصرى ت ٦٢٣ ، أنه ولد بمصر سنة ٥٥٥هـ وسمع من السلفى وغيره ، واختصر الأم للشافعى ، وولى قضاء الشام ، ودرس التفسير بالعادلية بدمشق (السيوطى : حسن ١ : ٤١١) .

ابن السلار وشيركوه وصلاح الدين ، أو قليلي الولاء للمذهب الفاطمي مثل المأمون البطائحي ـ ، كان من أقوى أسباب ضعف الدعوة الفاطمية بمصر ، في النصف الثاني من العصر الفاطمي[1] .

---

(١) قال السيوطي : وفي القرن الرابع الهجري ، ملكت العبيديون مصر ، وأفتوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة ، مثلاً ونفيًا وتشريدًا ، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة ولم يزالوا منها إلى أواخر القرن السادس ، فتراجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب (السيوطي : حسن ١: ٤٨٠) ، ولكن لا شك أن في هذا القول تعصب ضد الفاطميين وإنكارًا لتسامح الفاطميين تجاه المذاهب الفقهية السنية بمصر ، خاصة وأن الفقه الإسماعيلي نفسه لا يخالف فقه أهل السنة إلا في مسائل نادرة جدًا ، أصلها الخلاف حول نظرية " الإمامة " بين السنة والشيعة ، (أنظر محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص ١٢ - ١٣ ، وأنظر ماجد : نظم الفاطميين ١ : ١٣٦ حيث يذكر أنه في عهد المعز ترك أبو الطاهر الذهلي في وظيفة القضاء في ظل النظام الفاطمي الجديد ، رغم أنه تولى القضاء منذ العصر الأخشيدي وبالرغم من أنه مالكي المذهب ، كما أقام المعز بمصر مع هذا القاضي قضاة شيعة جاءوا مع المعز من المغرب مما يبرهن على تشابه التشريعين السني والشيعي . (أنظر : ماجد نفس المرجع ص ١٣٦) . والواقع أن عبارة السيوطي سالفة الذكر لا يخفى فيها التعصب والكراهية للفاطميين ؛ ولقد أنصف القلقشندي حين ذكر أن الفاطميين تركوا مذاهب مالك والشافعي ظاهرة الشعار في مصر . أنظر القلقشندي : صبح ج ٣ ، ص ٥٢٤ . وعن تسامح الفاطميين مع أهل السنة طوال عصرهم أنظر نصوص هامة أوردها كل من المؤرخين السنيين المصريين الذين عاصروا حكم الفاطميين بمصر وهما ابن الطحان وابن الحبال ، ونص أورده القفطي وهو مؤرخ مصري عاصر سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية خاص بأسرة شيث الإسنائي التي تظاهرت بالمذهب المالكي طوال العصر الفاطمي دون معارضة من الدولة . وراجع ما ذكرته المصادر عن مدرسة السلفي ومعجم السفر للحافظ السلفي ، و عن أسرتي ابن قريش المخزومي ، والنابلسي .

غير أن تولى قضاء على غير المذهب الإسماعيلي ، منصب قاضي القضاه بمصر ، تم في نهاية العصر الفاطمي كعمل سياسي الغَرَض منه القضاء على الدعوة الإسماعيلية التي تندرج ، تحت إشراف وتوجيه قاضي القضاه . حدث ذلك في سنة ٥٢٥ ، على يد الوزير أبو أحمد علي بن الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالي الملقب كتيفات . الذي رتب في الحكم أربع قضاه ، يحكم كل قاضي بمذهب ، ويورث بمذهبه ، فكان قاضي الشافعية سلطان بن رشا ، وقاضي المالكية أبا محمد عبد المولى بن الليثي ، وقاضي الإسماعيلية أبا الفضل ابن الأزرق ، وقاضي الإمامية ابن أبي كامل ، ولم يسمع بمثل هذا في الإسلام (أنظر : تقي الدين المقريزي : المنتقى من اخبار مصر لابن ميسر ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨١ ، ص ١١٤ - ١١٥ وقد نقل عنه هذا النص السيوطي: حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٦٥ ، س ١١ - ١٧. ويخبرنا السيوطي أنه في سنة ٥٣٣هـ ، شغرت مصر من قاضي ثلاث أشهر ، فعرض القضاه على أبي العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد بن هشام بن الحطيئه اللخمي القاسر ، فاشترط ألا يقضي بمذهب الدولة ، فأبوا وتولى غيره . السيوطي : حسن المحاضرة ٢: ٤٥٣ ، القفطي : اباه الرواه ، ١: ٣٩ ، وحين تولى القاضي مجلي المخزومي لمنصب قاضي القضاه بمصر ، رغم أنه شافعي المذهب ، إبان وزارة العادل بن سلار ، وزير التفويض السني الكردي ، أنظر الذهبي : العبر ، ج ٤: ١٤١ . كذلك كان المؤرخ المصري ، القاضي القضاعي ، سني المذهب وتقدم في الدولة الفاطمية ولكن يبدو أنه كان يظهر التشيع للفاطميين . (أنظر محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ص ١١٢ - ١١٣ . وعن الإصلاحات السنية التي قام بها وزير التفويض الفاطمي المأمون البطائحي ، بالنسبة للنظم القضائية بمصر ، استجابة لتوجيهات الفقيه السني الطرطوشي ، أنظر قبله .

قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به :

وما لبث صلاح الدين في سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م أن وجه للدعوة الفاطمية بمصر ، طعنة قاتلة ، كانت كفيلة ولا ريب بالإجهاز عليها ، وذلك بقطعه للخطبة الجامعة من الجامع الأزهر ، الذى اتخذه الفاطميون جامعة لنشر علوم الدعوة الإسماعيلية[١] . وذلك بعد أن قلد وظيفة القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس ، فعمل بمقتضى مذهبه ، وهو امتناع إقامة الخطبتين للجمعة في بلد واحد ، كما هو مذهب الإمام الشافعي ، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقر الخطبة بالجامع الحاكمي من أجل أنه أوسع ، فلم يزل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام ، من ذلك التاريخ ، إلى أن أعيدت الخطبة في أيام الملك الظاهر بيبرس[٢] .

وأيد صلاح الدين هذه الخطوة الجريئة ، بإزالة الشعائر الشيعية ، التى أدخلها الفاطميون إلى مصر ، واستمرت بها طوال عصر دولتهم ، من الآذان ، وإبان إقامة الصلاوات ، فأبطل من الأذان قول (حى على خير العمل) ، وصار يؤذن في سائر إقليم مصر والشام بأذان أهل مكة ، وفيه تربيع التكبير ، وترجيع الشهادتين ، فاستمر الأمر على ذلك إلى أن انتشر مذهب أبى حنيفة بمصر في العصر المماليكى ، فصار يؤذن في بعض المدارس التى للحنفية بأذان أهل الكوفة ، وتقام الصلاة أيضًا على رأيهم ، وما عدا ذلك ، فقد استمر الأذان بمصر كما أقره صلاح الدين[٣] . ومنع صلاح الدين ما كان قد تعود عليه المؤذنون في العصر الفاطمي ، من السلام على الخليفة الفاطمي في الأذان ، وذلك احترامًا للخيفة العباسي ببغداد ، فجعلوا عوض السلام على الخليفة السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر ذلك قبل الأذان للفجر في كل ليلة بمصر والشام والحجاز[٤] .وكان الذى أملى هذا التعديل السنى في الأذان أنه كان ينتحل مذهب الإمام الشافعي ، وعقيدة الشيخ أبى الحسن

---

(١) يذكر المقريزى أنه بعد بناء جوهر الصقلى للجامع الأزهر في سنة ٣٦٠هـ ، كانت الجمعة تقام في جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر ، وجامع القرافه الذى يعرف في عصر المقريزى بجامع الأولياء ، ثم أن الخليفة العزيز بالله ، ثانى خلفاء الفاطميين بنى في ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح ، الجامع الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم في سنة ٣٨٠هـ وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله وبنى جامع المقس وجامع راشده ، فكانت الجمعة تقام في هذه الجوامع كلها إلى أن انقرضت دولة الخلفاء الفاطميين في سنة ٥٦٧هـ ، فبطلت الخطبة من الجامع الأزهر ، واستمرت فيما عداه . (المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٧) .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٦ ، س ١٨ – ٢٥ .

(٤) نفس المصدر ، ٤: ٤٥ س ٢٦ – ٢٩ ، ويذكر سبط ابن الجوزى انه في سنة ٥٨٢هـ ، دخل سيف الإسلام طغتكين الأيوبى إلى مكة (وكان أمرائها شيعة) ومنع من الأذان بحى على خير العمل ، (مرآة ، ج ٨: ٣٨٨) .

الأشعرى[١] ،وكان تحمس صلاح الدين وقاضيه ابن درباس للعقيدة الأشعرية ، حتى كانا يكفران من خالف اعتقاد الأشعرى ، سببًا فى ترتيبهم المؤذنين لقراءة العقيدة المسماة بـ « المرْشِدَة » الأشعرية ، طوال الليل على المآذن ، بدلاً من تقليد التسبيح طوال الليل على المآذن ، الذى عرف بمصر منذ العصر الطولونى ، وكان يرتب له المؤذنين والقراء من قبل الدولة[٢] .

وأقيمت الخطبة الجامعة بجامع الحاكم بأمر الله ، على نحو يأخذ الخطيب فيها مأخذًا سنّيًا ، يجمع فيه الدعاء للصحابة ، رضى الله عنهم ، وللتابعين ومن سواهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبى ؛ صلى الله عليه وسلم ، ولعميه حمزة والعباس رضى الله عنهما ، ويأتى للخطبة لابسًا السواد على رسم العباسية ، وصفة لباسه بردة سوداء عليها طيلسان شرب أسود ، وعمامة سوداء ، متقلدًا سيفًا . وعند صعوده المنبر ، يضرب بنعل سيفه المنبر فى أول ارتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين ، كأنها أيذان بالإنصات ، وفى توسطه أخرى ، وفى انتهاء صعوده ثالثة . ثم يسلم على الحاضرين يمينًا وشمالاً ، ويقف بين رايتين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزتا على أعلى المنبر . وجاء دعاء الخطيب فى تاريخ زيارة الرحالة ابن جبير لمصر ، للإمام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ابن الإمام أبى محمد الحسن المستضىء بالله ابن الإمام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله ، ثم لمحيى دولته أبى المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين ، ثم لأخيه ولى عهده أبى بكر سيف الدين[٣] .

---

(١) يقول المقريزى : وأما مصر ، فلم يزل الأذان بها على مذهب القوم (أى الفاطميين) إلى أن استبد السلطان صلاح الدين .. سلطنة ديار مصر ، وأزال الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ ، وكان ينتحل مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وعقيدة الشيخ أبى الحسن الأشعرى رحمه الله ، فأبطل من الأذان قول حى على خير العمل، وصار يؤذن فى سائر إقليم مصر والشام بأذان أهل مكة .(الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٦، س ١٨-٢١) .

(٢) يقول المقريزى : ومن حينئذ (عصر أحمد بن طولون) اتخذ الناس قيام المؤذنين فى الليل على المآذن ، وصار يعرف ذلك بالتسبيح ، فلما ولى السلطان صلاح الدين .. سلطنة مصر ، وولى القضاء صدر الدين عبد الملك ابن درباس الهذبانى المارانى الشافعى ، كان من رأيه ورأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى الأصول ، فحمل الناس إلى اليوم على اعتقاده حتى يكفر من خالفه ، وتقدم الأمر إلى المؤذنين أن يعلنوا فى وقت التسبيح على المأذن بالليل يذكر العقيدة التى تعرف بالمرشدة ، فواظب المؤذنون على ذكرها فى كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا (الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٨ – ٤٩) .

(٣) راجع تفاصيل هذا الوصف الشيق للرسوم السنية العباسية للخطبة الجامعة بمصر كما رآها ابن جبير ، فى رحلته (ابن جبير ص ٢٤ – ٢٥) . وثمة ملحوظة هامة أمدنى بها الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب وهى أن المدارس والخوانق الأيوبية كانت مساجد لإقامة الصلوات الخمس ، وليست مساجد لإقامة الخطبة الجامعة يوم الجمعة ، ويؤيد هذا المقريزى عند ذكره لموكب صوفية خانقاه سعيد السعداء ، عند انتقالهم من الخانقاه إلى المسجد الحاكمى لإقامة صلاة الجمعة أنظر المقريزى : الخطط ٤: ٢٧٣ . كما أفادنى الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب أيضًا أن المدارس الأيوبية لم يكن بها منبر ، ولم تقام خطب الجمعة فى هذه المدارس الأيوبية إلا منذ العصر المماليكى ، كما أفادنى الأستاذ عبد التواب أن القلقشندى قد فرق فى كتابه صبح الأعشى ، بين المسجد الخاص بالصلاوات الخمس ، والمساجد التى تقام بها شعائر الجمعة ، قلت : وهكذا فعل النابلسى أيضًا عند حصره لمساجد إقليم الفيوم من واقع ديوان الأحباس ، أنظر النابلسى : إظهار صنعة الحى القيوم ، ص ٢٠ – ٢٢ .

ولدينا نص تقليد بخطابة المسجد الجامع بدمشق ، في العصر الأيوبي ، من إنشاء ضياء الدين بن الأثير ، يوصي فيه الخطيب ، أن تكون الصلاة طويلة والخطبة قصيرة ، وأن يدعو في الخطبة للإمام العباسي ، ثم للسلطان الأيوبي ، وإن أمر الصلاة هو أيضًا موكول إلى الخطيب مقرونًا بمهمته ، وبالتبكير يوم الجمعة لوعظ الناس وترتيل القرآن . كما أوصى التقليد متولي الخطابة بأن يحتفل بصلاة الرغائب ، وصلاة النصف من شعبان ، وصلاة التراويح المسنونة في شهر رمضان ، كذلك أوصى بالاحتفال لمصليات الأعياد ، لكون الناس في مواظبتها أشد حرصًا من الجمعة ، كما أوصى بأن يذكر الناس في هذه المصليات بأحسن الأذكار ، ويعرفهم ما يجب عليهم في ذبيحة الأضاحي وصدقة الإفطار ، ويشوقهم في العيد الأكبر إلى بيت الله الحرام[1] . ويستشف من مهام الخطبة اهتمام الأيوبيين ، بنوافل الصلاوات ، وخاصة صلاة التراويح ، وهو ما يخالف الشعائر الشيعية ، والجدير بالملاحظة أن الأيوبيين جعلوا الخطابة تابعة لولاية القضاء وإشراف قاضي القضاه[2] .

وحرص صلاح الدين ، على إزالة جميع النقوش والآثار التي تخلد أسماء خلفاء الفاطميين ، على الجوامع الكبرى بمصر ، ففي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، قلع المناطق الفضة التي كان قد عملها الخليفة المستنصر بالله الفاطمي في صدر المحاريب بجوامع القاهرة ، وخاصة جامع عمرو بن العاص[3] . ومن ناحية أخرى جدد جامع عمرو في السنة التالية ٥٦٨هـ / ١١٧٢م ؛ وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ، ورسم عليه اسمه ، وعمر في الجامع أغلب أجزائه ، ولقد تتبع المقريزي بالتفصيل إصلاحات صلاح الدين المعمارية في هذا الجامع[4] . وفي سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٢م ، التي كان فيها انتهاء خلفاء الفاطميين ، خلع صلاح الدين المنطقة الفضة من محراب الجامع الأزهر ، وقلع أيضًا المناطق من بقية الجوامع[5] .

وأغلب الظن أن الأيوبيين قد عنيوا ، ـ منذ قدوم نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى مصر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، بهدف الإشراف بنفسه من قبل نور الدين على إعادة شعائر السنة إلى مصر ومحو المذهب الإسماعيلي منها ـ ، على إنشاء عدد كبير من المساجد بمصر ، وترتيب مجالس الوعظ

---

(١) أنظر نص هذا التقليد بخطابة المسجد الجامع ، بإنشاء ضياء الدين بن الأثير ، في رسائل ابن الأثير ، تحقيق أنيس المقدسي ، بيروت ١٩٥٩ ، ص ١٢٤ – ١٢٧ . وعن وظيفة الخطابة كما استقرت في العصر المماليكي ، أنظر السبكي : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١١٢ ، ١١٤ – ١١٥ .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١٥ ، وانظر قبله .

(٣) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٢ .

(٤) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٣ .

(٥) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٥٢ .

السنى بها . وهذا ما أفادنا به الوهرانى وهو معاصر لهذه الأعوام الحاسمة[1] ، ولقد نسب المقريزى إلى نجم الدين أيوب مسجدًا عرف باسمه ، فى ظاهر باب النصر وهو من أبواب القاهرة ، وذكر أنه أنشأه فى سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، وجعل إلى جانبه حوض ماء للسبيل ترده الدواب[2] . كذلك أشاع الأيوبيون ظاهرة بناء المساجد فى المشاهد والقبور المنسوبة لآل البيت أو للصحابة والأولياء ، بغرض التبرك بها واجتذاب العامة إليها . ويخبرنا ابن جبير أنهم رتبوا على هذه المشاهد القومة ، وأجروا عليهم الأرزاق[3] ، وذلك فى منطقة قبر الشافعى[4] . وفى منطقة القرافة الكبرى[5] .

ويبدو أن مدينة الإسكندرية ، لغلبة المذهب السنى عليها طوال العصر الفاطمى قد حظيت بمزيد اهتمام الأيوبيين عند بنائهم للمساجد ، فبنوا بها عددًا ضخمًا من المساجد رآها ابن جبير عند زيارته للإسكندرية ، وأبدى إعجابه الشديد بآثارها وعظمتها[6] ؛ وربما يكونوا قد أقدموا على بناء المساجد بالإسكندرية ، قبل مصر ، خاصة وأن ظهور المدارس السنية بمصر ، قد ظهر بالإسكندرية منذ وقت مبكر ، كما أن قطع الخطبة الفاطمية والدعوة لبنى العباس قد تمت بالإسكندرية قبل إعلانها بمصر

---

(١) أنظر الوهرانى : المنامات والمقامات ، ص ١٣ - ١٤ . وعن مجالس الوعظ السنى فى العصر المماليكى ، أنظر السبكى: معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

(٣) ذكر ابن جبير مشاهد مصر بالقرافة الكبرى ، أنظر الرحلة ، ص ١٩ - ٢٤ : وقد وكل بها قومه ، يسكنون فيها ويحفظونها . والجرايات متصلة لقوامها فى كل شهر ، ابن جبير الرحلة ص ٢٠ ، س ٢٠ - ٢١ ، ص ٢٢ س ١ - ٢ . ثم يقول : ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء ، والإجراء على كل موضع فيها متصل من قبل السلطان فى كل شهر ، والمدارس بمصر والقاهرة كذلك وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على الفى دينار مصرية فى الشهر ، وهى أربعة آلاف دينار مؤمنية (ابن جبير : الرحلة ص ٢٤ س ٧ - ١٢) .

(٤) ابن جبير : نفس المصدر ، ص ٢٢ - ٢٤ .

(٥) أنظر بالتفصيل عن هذه المساجد . المقريزى : الخطط ، ج ٤ : ٣٠٦ ، ص ٣٢١ .

(٦) يقول ابن جبير عن الإسكندرية : وهو أكثر بلاد الله مساجد ، حتى أن تقدير الناس لها يطفف ، فمنهم المكثر والمقلل ، فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد ، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط ، فمنهم من يقول ثمانية آلاف ، ومنهم من يقول غير ذلك . وبالجملة فهى كثيرة جدًا تكون منها الأربعة والخمسة فى موضع وربما كانت مركبة (أى مسجد ومدرسة وغيرهما) ، وكلها بائمة مرتبين من قبل السلطان ، فمنهم من له الخمسة دنانير مصرية فى الشهر .. ومنهم من له فوق ذلك ومنهم من له دونه . وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان (ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧ ، س ١٠ - ١٨) .

بحوالى أسبوع[1] . ولكن للأسف أن هذه المساجد التى شيدها الأيوبيون بمدينة الإسكندرية ، قد اندرست كلها ولم يبق منها اليوم مسجد واحد ، وأغلب الظن أنها أبيدت كلها إبان حملة القبارصة على مصر فى القرن السابع الهجرى[2] .

والواقع أن نص الوهرانى وابن جبير وكلاهما معاصر لصلاح الدين ، إلى جانب نصوص المقريزى عن مسجد نجم الدين أيوب ، وعن مساجد أيوبية أخرى أنشأها سلاطين بنى أيوب ووزرائهم[3] ، تشكك فيما ذكره الدكتور أحمد فكرى فى أنه لم يجد فى المصادر ذكرًا لأى مسجد أنشاه الأيوبيون[4] .

ومما لا شك فيه أن قطع الخطبة الجامعة من الجامع الأزهر ، الذى ارتبط باسم السيدة فاطمة الزهراء ، بنت النبى صلى الله عليه وسلم ، والأم الكبرى التى تفاخر أئمة وخلفاء الفاطميين بالانتماء إليها ، وما صاحب هذا من تعطيل دراسة مذاهب الشيعة بالأزهر ، الذى ظل طوال العصر الفاطمى أضخم مراكز الدعوة الإسماعيلية بمصر[5] ، ثم تحويل الأزهر إلى جامعة سنية لتدريس علوم السنة ، وهو ما استمر عليه الحال حتى اليوم ، - إذا أتاحت أهمية مصر بالنسبة للعالم الإسلامى للجامع الأزهر ، أن يصبح أكبر جامعة إسلامية ، بحيث عُدّ شيخ الجامع الأزهر ، شيخًا للإسلام ؛ والواقع أن هجرة علماء أهل السنة ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، من الفسطاط إلى القاهرة ، وجلوسهم لتدريس علوم السنة بالجامع الأزهر ، بالإضافة إلى توافد علماء السنة من العراق وباقى أرجاء العالم الإسلامى[6] وتصديهم للتدريس بالأزهر ، وكان منهم الرحالة العراقى الشهير عبد اللطيف البغدادى[7] - ؛ قد أدى إلى نشر علوم السنة بمصر ، وفى أغلب أرجاء العالم الإسلامى ، واستمر غلبة المذهب السنى على العالم الإسلامى إلى اليوم .

---

(١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٤ ، وأنظر قبله وبعده .
(٢) راجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ص ١٧٨ - ١٨٥ .
(٣) انظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٦٦ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٩ .
(٤) أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، الجزء الثانى ، العصر الأيوبى ، دار المعارف بمصر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م ، ص ٤٥ ، والمقدمة ص (و) .
(٥) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ٥٥ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٣ - ٢٥ ، عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ج ١ ، ص ١٨٦ .
(٦) أنظر عبد المتعال الصعيدى : تاريخ الجامع الأزهر ، عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر ، ص ١١٤ . د. عبد العزيز الشناوى : الأزهر جامع وجامعة .
(٧) عبد اللطيف البغدادى : تذكرة الأسفار .

استخدام الحسبة لإعادة شعائر السنة :

وشأن الدولتين المرابطية والموحدية ، اللتين قامتا فى أعقاب زوال السيطرة والنفوذ الفاطمى الشيعى من بلاد المغرب ، واستخدمتا وظيفة الحسبة السنية[1] ، للقضاء على الدعوة الإسماعيلية والتشيع ببلاد المغرب ؛ استخدمت الدولة الأيوبية أيضًا عند قيامها بمصر ، وظيفة الحسبة - وهى الوظيفة التى رتبتها النظم الإسلامية لمراقبة الأسواق والحياة اليومية العامة للتأكد من مطابقتها لأحكام الشريعة - كوسيلة للقضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر ، والتأكد من إزالة الشعائر الشيعية فى الآذان والصلاوات بالمساجد . وفى رأى كل من الدكتور العبادى والعرينى أن عبد الرحمن الشيزرى ، الذى عاصر صلاح الدين وأهدى إليه كتاب المنهج المسلوك فى سياسة الملوك[2] ، قد ألف كتابه « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » بطلب من صلاح الدين ولمساعدة الحكومة الأيوبية فى مراقبة أرباب الحرف لميولهم للدولة الفاطمية[3] ؛ لذلك حرصت الدولة الأيوبية على إضافة الحسبة فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، إلى جملة ولاية قاضى القضاه بالديار المصرية ، القاضى الكردى ابن درباس[4] . ولما كانت الدولة الأيوبية ، كما مر بنا قد جعلت التدريس والإشراف عليه شريكًا لمهمة فصل الأحكام ومباشرة القضاء بالنسبة لقاضى القضاه[5] ، فإن إشراف القاضى على الحسبة أيضًا يعنى أن الأيوبيين قد جعلوا من منصب قاضى القضاه ، الذى كان له الإشراف الكامل على جميع شئون الدعوة الإسماعيلية فى العصر الفاطمى ، له الإشراف الكامل على تتبع مراحل القضاء على بقايا الدعوة الإسماعيلية بمصر فى العصر الأيوبى ، وفى نفس الوقت الإشراف الكامل على نشر مذهب أهل السنة وعلوم السنة فى أرجاء الديار المصرية .

---

(١) أنظر إقبال موسى : الحسبة فى المغرب ، مع بعض نصوص خاصة بها ، رسالة مقدمة إلى قسم التاريخ ، كلية الأداب ، جامعة عين شمس ، للحصول على درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى سنة ١٩٦٨ .

(٢) عن دراسة وافية لهذا الكتاب ، راجع الجزء الثانى من كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى، تحت الطبع إن شاء الله ، وراجع الأن ، نقد مصادر رسالتنا للماجستير ، التى نوقشت بجامعة عين شمس سنة ١٩٨١م ، وكانت بعنوان نظم الحكم والإدارة فى العصر الأيوبى بمصر .

(٣) عبد الحميد العبادى : كتب الحسبة وفائدتها فى وضع المعجمين الوسيط والكبير ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثامن ، سنة ١٩٥٥ ، ص ٤٢٢ - ٤٢٧ ، وعلى الخصوص ص ٤٢٤ - ٤٢٥ ؛ الباز العرينى : مقدمة لكتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى ، طبع مصر ١٩٦٥ ، ص ى - ص ك .

(٤) ابن حجر : رفع الأصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١٥ .

(٥) أنظر قبله .

وثمة ملحوظة على قدر كبير من الأهمية ، لاحظها المؤرخ الكبير ابن خلدون ، خاصة بالتطور الذى طرأ على نظام الحسبة فى الإسلام ، مما اقتضى فصلها عن القضاء ، وإندراجها فى وظائف الملك السياسية ، وأفرادها بالولاية ، وذلك لما أنفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظر السلطان عامًّا فى أمور السياسة ؛ إذ قال ابن خلدون عن الحسبة : وقد كانت فى كثير من الدول الإسلامية ، مثل العبيدين (أى الفاطميين) بمصر والمغرب ، والأمويين بالأندلس ، داخله فى عموم ولاية القاضى ، يولى فيها باختياره . ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة ، وصار نظره عامًّا فى أمور السياسة ، اندرجت فى وظائف الملك وأفردت بالولاية[1] .

ويفسر عبد الحميد العبادى ، هذه الملحوظة الخلدونية ، على أساس أنه منذ ظهور منصب « إمرة الأمراء » فى بغداد سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م ، وما تلاه من أنظمة عسكرية استحوذت السلطات الفعلية العامة فى شئون الحكم الفعلية وبقى للخلفاء الإسم والسلطة الروحية فقط ، صادف هذا الحدث السياسى قيام حالة خطيرة فى الأمصار الإسلامية الكبرى ، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، مثل غزة وبغداد ودمشق والقاهرة وفاس ومراكش ومدن الأندلس ، إذ غدت هذه المدن العظام مراكز صناعية وتجارية كبيرة وبيئات اجتماعية مختلطة تتزاحم فيها الميول السياسية المتعارضة ، والمذاهب الدينية المختلفة ، الأمر الذى اقتضى من ولاة الأمور ، فى الدول الإسلامية المختلفة ، سهرًا ويقظة ، حتى لا يضطرب حبل الأمن وتعم الفوضى ، خاصة وقد كان معظم أهل الحرف والصناعات ، ذوى ميول سياسية ، ونزعات مذهبية ، وكان كثير من أهل المذاهب الدينية متعصبين لمذهبهم ، مستعدين فى سبيل نصرته لحمل السلاح وإراقة الدماء ؛ وقد ضرب العبادى أمثلة لهذه الصراعات السياسية والمذهبية بين السنة والشيعة ببغداد وبلاد الشام فى القرن الخامس الهجرى ، وبمدينة القاهرة ، بعد أن قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية ، إذ كان هوى كثير من أهل الحرف والصناعة مع الدولة الفاطمية الذاهبة[2] .

وأغلب الظن ، أن وظيفة الحسبة ، كوظيفة سياسة مستقلة عن القضاء ، قد اتخذت كوسيلة سياسة لمحاربة المذهب الفاطمى ، وتتبع أنصاره المندسين فى النقابات الصناعية ، على يد سلاطين السلاجقة ، ونوابهم فى حكم بلاد الشام ، الذين عرفوا بالاتابكة ، منذ القرن الخامس الهجرى ، وذلك لاستقواء دعوة الإسماعيلية النزارية فى بلاد إيران والشام فى هذا القرن[3] ، لذلك فإن كتاب

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٦ ، س ٢ – ٥ .

(٢) عبد الحميد العبادى : كتب الحسبة ، ص ٤٢٢ – ٤٢٣ . وأنظر برنارد لويس النقابات الإسلامية ، ترجمها إلى العربية عبد العزيز الدورى ، مجلة الرسالة سنة ١٩٤٠م أعداد ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ .

(٣) أنظر قبله .

عبد الرحمن بن أبي بكر الدمشقي المعروف بالجويرى ، الذى يعد من أقدم كتب الحسبة المشـرقية التى وصلت إلينا . كان مؤلفه من كتاب الدولة الأرتقية[1] ، وهم أتابكة السلاجقة ونوابهم فى حكم بـلاد الجزيرة الفراتية التى كانت معبر النزارية من بلاد إيران إلى بلاد الشام[2] . وقد وضعـه الجوبـرى كمـا يقول فى مقدمته بطلب من السلطان مسعود ، وبناه على ثلاثين فصلاً ، كلها فى التعريف بطرق الغش والتدليس فى الصناعات المختلفة وما يقع من طـوائف معينـة مـن النـاس ـ والمقصـود أغلب الظن النزارية ـ من الشعوذة والاحتيال ؛ فلا غرابة أن جمـع لأحـد المحتسـبين فـى العصـر الأتـابكى البـورى بدمشق بين نظر الحسبة ونظر الشرطة[3] .

وإذا كان انفصال الحسبة عن القضـاء وصيرورتهـا أداة رقابـة وضبـط وتنفيـذ سـريع ، قـد أدى إلى اتضاح شخصية المحتسب[4]، فإن إحدى وثائق العصر الأيوبى ، الخاصة بسجل تقليد محتسـب[5]، تؤكد لنا أن متولى الحسبة فى هذا العصر ـ وخاصة فى بلاد الشام التى ظلت الفرق الشيعية والكلاميـة بها ، تظهر مقاومة مستميتة ـ ، قد منحته الدولة الأيوبية سـلطات ضخمـة جـدًا ، تجـاوزت السـلطات التى عرفت للمحتسب من قبل ، وخاصة فى العصـر الفـاطمى ، على نحو مـا شـهدت وثيقـة خاصـة بسجل تقليد محتسب فاطمى[6] .

ولقد اصطلح على تسمية سلطة المحتسب ، وعقوباته التى ينزلها بالمخالفين بـ« التعزيـر »[7] ، بمعنى توقيع العقوبة على مرتكب إحدى المنكرات ، على أساس الاجتهاد الشخصى للمحتسب الـذى

---

(١) أنظر عبد الرحيم (أو الرحمن) بن عمر الدمشقي الجوبرى : المختار من كشف الأسرار ، المطبعة المحمودية ، القاهرة ، د. ت .

(٢) طه شرف : دولة النزارية ، ص ٢٠٤ .

(٣) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٧ – ٨ .

(٤) عبد الحميد العبادى : كتب الحسبة ، ص ٤٢٣ .

(٥) أنظر تقليد أنشأه ضياء الدين بن الأثير لمنصب الحسبة ، عند ضياء الديـن بـن الأثير : رسـائله ، تحقيـق أنيـس المقدسى ، ص ١٣٩ – ١٤٨ .

(٦) أنظر سجل فاطمي بولاية الحسـبة ، مـن إنشـاء القـاضى الفـاضل ، القلقشـندى : صبـح الأعشـى ، ج ١٠ ، ص ٤٦٠ – ٤٦٢ .

(٧) عن التعذير ، أنظر الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ٩ ، س ١٦ – س ١٨ ، ص ١٠٩ – ١١٠ ، ابـن تيميـة : الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية ، طبع بمطبعة المؤيد ١٣١٨هـ ، ص ٣٨ – ٤٦ وهـو يفـرق بين " الحدود " ، و " التعذير "وهو يقرر فى ص ٤٠ أن المحتسب ليس له القتل والقطـع ، لـم يضيـف أن مـن أنواع التعزير النفى والتعريب ، وأن التعزيـر بالعقوبـات الماليـة مشـروع أيضًـا ، وأنظـر أيضًـا نفـس المصـدر ، ص ٤٨ – ٤٩ فصلاً بعنوان : " الثواب والعقاب يكونان من جنس العمل " .

كان يشترط في اختياره تفقه في علوم الشريعة[1] ، وكانت القاعدة الأساسية في تحديد طريقة «التعذير» ، المبدأ القائل بأن الجزاء على قدر جنس العمل ، وقد كانت سلطة المحتسب في تنفيذ عقوباته ، تسمح له بمعاقبة صاحب الجرم ، بأى عقاب يراه من تشهير أو زجر أو مصادرة للسلعة المغشوشة ، أو إخراج التاجر المتلاعب من السوق ، أو ضربه ضربًا يسيرًا بـ « الدرة »[2] ، وهي آلة الحسبة ، على ألا تتجاوز العقوبة التي يقررها المحتسب ، إطار « التعذير » ، إلى إطار إقامة الحدود الشرعية التي نص عليها الشرع ، بالنسبة للجرائم الكبرى ، مثل السرقة والقتل والزنا ... إلخ . وهي عقوبات ثابتة ، يحكم فيها القاضي ، وينفذها صاحب الشرطة[3] ، بحيث لم تكن عقوبة التعذير تتجاوز الضرب بأى حال من الأحوال .

إلا أننا نجد المحتسب الأيوبي ببلاد الشام ، يمنح حق إقامة الحدود في الأسواق ، وقتل معتنقي المذاهب الشيعية والكلامية والفلسفية بحد السيف[4] ، وهذا أمر لم يسمع به من قبل بالنسبة لسلطة المحتسب ، وهو إذ دل على شيء ، فعلى مدى المقاومة القوية التي واجهها الأيوبيون من فرق الشيعة وأنصارهم في بلاد الشام ، لذلك فإننا نجد في سجل آخر ، خاص بتقليد محتسب أيوبي بمدينة حلب ،

---

(١) يقول الشيزرى : لما كانت الحسبة أمرًا بمعروف ، ونهيًا عن منكر ، وإصلاحًا بين الناس ، وجب أن يكون المحتسب فقيهًا عارفًا بأحكام الشريعة ، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه . فإن الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ، ولا مدخل للعقول في معرفة المعروف والمنكر إلا بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم (نهاية الرتبة ص ٦) .

(٢) يقول الشيزرى : ويتخذ المحتسب له سوطًا ، ودره ، وطرطورًا وغلمانًا وأعوانًا ، فإن ذلك أرعب لقلوب العامة وأشد خوفًا : (الشيزرى : نهاية الترتبة ، ص ١٠ س ١ - ٣ ، و ص ١٠٨ - ١٠٩) .

(٣) أنظر ابن تيمية : الحسبة في الإسلام ص ٣٨ - ٤٠ ، وأنظر أيضًا ابن تيمية : السياسة الشرعية ، تحقيق على سامي النشار، وأحمد زكى عطية، الطبعة الثانية ١٩٥١، القسم الثاني: "الحدود والحقوق" ص ٦٦ - ١٦٦.

(٤) جاء النص على منح المحتسب سلطة القتل وإقامة الحدود على المنتسبين للفرق المبتدعة المخالفين لعقائد السلف أول أمر في تقليد المحتسب الذى أورده ضياء الدين يقول : أعلم أن الناس قد أماتوا سننًا وأحيوا بدعًا ، وتفرقوا فيما أحدثوه من المحدثات شيعًا ، ونحن نأمرك أن تتصفح أحوال الناس في أمر دينهم فابدأ أولاً بالنظر في العقائد ، وأهد فيها إلى سبيل الفرقة الناجية الذى هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا موطن الحق .. ومن عداهم فتشعب دانوا أديانًا ، واتبعوا ما لم ينزل به سلطانًا ، فمن انتمى من هؤلاء إلى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولاً ، وليكن قتله على رؤس الأشهاد (ضياء : رسائله ، ص ١٤٠) وكرر الأمر بعد ذلك بقوله (فإن أبت هذه الطوائف إلا الأضرار فخذهم عند ذلك بحد الجلد . (نفس المصدر ص ١٤١) .

مناشدة للنواب وولاة الشرطة بتقوية يد المحتسب ومعاونته على إنفاذ أحكامه[1] ، في حين كانت هيبة المحتسب الشخصية في الأسواق ، واحترام التجار له ، واستجابه نقبائهم[2] لتوجيهاته ، إلى جانب « أعوان »[3] المحتسب المكلفين بتتبع مظاهر المنكرات وإبلاغه بها ومساعدته في مهامه ، كفيلة بإذعان المدلسين من التجار لعقوباته و « تعذيره » ، طالما كان الأمر متعلقًا بالمخالفات التجارية العادية .

وقد نص سجل تقليد المحتسب ، على البحث عن كتب أهل الملل والنحل ، والفلاسفة والمتكلمين ، والمنتمين إلى الفرق الإسلامية المخالفة في المذهب لأهل السنة والجماعة ، وأمر المحتسب بتمزيق وإحراق كتبهم التي ألفوها للدعوة إلى مذاهبهم ، بل ذهب إلى حد القبض على كل من يوجد في بيته مثل هذه الكتب ، والتنكيل والتشهير به[4] ، ولقد خص السجل بالذكر بعض الفرق الإسلامية ، يبدو أنه كان لها خطرها بالنسبة للنظام الأيوبي ، كنظام يقوم على أساس نصرة الدعوة السنية ، ومحاربة الدعوة الإسماعيلية الشيعية ، وما يتعاطف معها من فرق إسلامية أخرى ، بسبب ميلها لقضية الشيعية السياسية ، أو للتقارب العقائدي بينها وبين العقائد الإسماعيلية ، خاصة وأن أغلب الفرق الإسلامية ، المغايرة لمذهب أهل السنة والجماعة ، القائم على ظاهر النصوص ، والاعتماد على العلوم الشرعية النقلية ، تشابه مذهب الإسماعيلية في تؤيل متشابه القرآن ، وتفسير آياته تفسيرات باطنية ، هذا إلى جانب جنوح أغلب هذه الفرق الإسلامية إلى التأثر بالفلسفات القديمة وخاصة الفلسفة اليونانية .

---

(١) أورد العماد الأصفهاني منشور من إنشائه لمحتسب حلب ، متضمنًا شروط الاحتساب أنظر البرق الشامي - خ ج ٥ لوحة ١٠١ ب - ١٠٤ جاء فيه : وليذع المتلبسين بالتنجيم والشعبذة والكهانة .. وليصن المساجد .. من اتخاذها .. حلقًا لذوى الخرافات وليكف صوت المحدثين فى العقائد بما يوتغها (كذا) ، ويقطع عما يطلقها في أغراض السلف الصالح ويولفها .. وسبيل الولاة والأمراء والشحن والنواب معاونية على ما وليناه .. وتنفيذ أحكامه .. وموافقته على حبس من يراه .. وإرهاق حد من نبا على الحق ..

(٢) عن وظيفة العريف ، أنظر الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٢ - س ٣ - ٧ .

(٣) عن أعوان المحتسب / أنظر نفس المصدر ص ١٠ ، س ٨ - ١٠ .

(٤) جاء في سجل تقليد المحتسب : وما يجده من كتبها التي هي سموم ناقعة لا علوم نافعة ، وأفاع ملففة لا أقوال مؤلفة ، فاستأصل شافتها بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعله الله بأهلها من التحريق ، ولا ينفعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها ، والكشف عن مكامن أسرارها ، فمن وجدت في بيته ، فليؤخذ جهاراً ، ولينكل به إشهارًا (ضياء الدين ابن الأثير : رسائله ، نشر المقدسي ، ص ١٤٠ س ١٧ - ٢١) . ومن كان ذا مكانة نابهة فلتهبط ، أو شهادة عادلة فلتسقط ، (نفس المصدر ، ص ١٤١ ، س ٣ - ٤) .

فلم يقتصر السجل بإلزام المحتسب بالقبض على الإسماعيلية الذين سماهم بالرافضة ، واتهمهم بالخروج عن الإسلام ، وقيام مذهبهم على العصبية ، والأهواء السياسية المخالفة لجوهر الشريعة والعقيدة الإسلامية ، وإساءتهم للإمام على بن أبى طالب بإدعائهم أنه أحق بالخلافة ممن سبقه من الخلفاء الراشدين ، كما اتهم الإسماعيلية أيضًا بوضع الأحاديث الخاصة بولاية على ؛ وأنهم قد أولوا هذه الأحاديث بالباطل لخدمة دعوتهم السياسية[1] ، بل نجد السجل يلزم المحتسب أيضًا بالقبض على القدرية[2] ، والمشبهة والمجسمة[3] ، والقائلين بخلق القرآن[4] ، ثم يأمر السجل المحتسب بعرض التوبة على أتباع هذه الفرق المخالفة لأهل السنة ، فإن أصروا على مذاهبهم فليأمر بجلدهم ، فإن بقوا على إصرارهم ، فليأمر بقتلهم[5] .

ولقد عقد الفقيه السنى ابن تيمية ، فى كتابه عن الحسبة فى الإسلام - الذى ألفه فى العصر المماليكى - فصولاً هامة، ناقش فيها أهمية الاحتساب على من سماهم بأهل «التدليس فى الديانات»،

---

(١) جاء فى نفس هذا السجل : وأما الفرقة المدعوة بالرافضة ، التى هى لما رفعة الله خافضة ، فإنهم أناس ليس لهم من الدين إلا اسمه ، ولا من الإسلام إلا رسمه ، وإذا نقب عن مذهبهم ، وجد على العصبية موضوعًا ، ولغير ما شرعه الله ورسوله شروعًا ، ذبوا على عن على فأسلموه ، وأخروه إذ قدموه ، وهؤلاء وضعوا أحاديث فنقلوها وأولوها على ما أولوها ، فتبع الآخر منهم الأول على غمه ، وقالوا أنا وجدنا آبائنا على أمه (نفس المصدر ، ص ١٤١ ، س ١٦ - ٢١) .

(٢) جاء فى نفس السجل : وأما من تحدث فى القضاء والقدر ، وقال فيه بمخالفة نص الخبر ، فليس فى شيء من ربعه الإسلام ، وإن تنسك بمداومة الصلاة والصيام . قال النبى صلى الله عليه وسلم ، القدرية مجوس هذه الأمة . والمراد بذلك أنهم ماثلوا بين الله والعبد والضياء والظلمة ، فعلاج هذه الطائفة أن تجزى بأن تجزى فليقابل حمقها بالتكسير واسمها بالتصغير ، ولتنقل إلى يقل الحدود عن خفة التعذير (نفس المصدر ، ص ١٤٠ - ١٤١) . والقدرية هم القائلين بحرية اختيار الإنسان لأفعاله ورفضهم لقول الجبرية بأن الإنسان مجبر ومصير غير مخير فى اختيار أفعاله .

(٣) كذلك مجرى الحكم فيمن قال بالتشبيه والتجسيم ، (نفس المصدر ، ص ١٤١ س ٤) . والقول بالتشبيه هو الاعتقاد بأن الصفات الإلهية والأسماء الإلهية التى وردت فى القرآن ، يجب أخذها وفهمها على نصها الحرفى وليس المجازى ، وفى هذا تشبيه الله عز وجل ببعض خلقه من الإنسان . أما التجسيم فهو الاعتقاد بأن الله عز وجل جسم ، يمكن أن تحده الأبصار وتراه ، والقول بالتجسيم فى الواقع ، قد ترتب على القول بالتشبيه .

(٤) أو قال بحدوث القرآن القديم . ومن ملحدى القرآن ، فرقة فرقت بين المعنى والخط ، وفرقة قالت فيه بالشكل والنقط ، وكل هؤلاء قوم خبثت سرائرهم ، وعميت بصائرهم ، وعظمت عند الله جرائرهم ، (نفس المصدر ص ١٤١ س ٤ - ٦) وأول من قال بحدوث القرآن أو خلق القرآن هو المتكلم القدرى الشهير الجعد بن درهم ، الذى عاش فى نهاية العصر الأموى ، وعنه أخذ المعتزلة ، القول بخلق القرآن .

(٥) فخذهم بالتوبة .. فإن أبت هذه الطوائف إلا الأصرار .. فخذهم عند ذلك بحد الجلد ، فإن لم ينجح فنجد ذوات الحد (نفس المصدر ص ١٤١ س ٧ - ١٥) .

وأصحاب البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة من الأقوال والأفعال ، والملاحظ أن الأراء الكلامية التى ذكرها ابن تيمية . واتهمها بتهمة التدليس فى الديانات ، لا تنسحب إلا على فرق الشيعة ، وخاصة الشيعة الإسماعيلية ، وإن لم يصرح باسم الإسماعيلية صراحة ، وقد اتهم دعاتهم باللجوء إلى وسائل السحر والشعبذة[1] ، وهو أمر سبق وروده فى سجل محتسب حلب[2] واعترف به كبير دعاة الفاطميين القاضى النعمان ، حين لم ينكر أن الداعى أبو عبد الله الشيعى ، عند أول قدومه إلى المغرب ، قبل قيام الخلافة الفاطمية بها ، قد استخدم وسائل السحر والشعبذة للتأثير فى القبائل البربرية التى استجابت لدعوته[3] .

كذلك ، وجه ابن تيمية اهتمامًا خاصًا بالنسبة لفرقة كلامية أخرى ، هى فرقه المعتزلة ، على أساس أنها تأخذ من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، الذى هو الأساس الشرعى لوظيفة الحسبة فى الإسلام ، زريعة للخروج على أئمة المسلمين وإعلان خلعهم والمطالبة بتولية غيرهم ممن تتوفر فيهم شروط الخلافة ؛ وفى رأى ابن تيمية أن الخروج على خلفاء الإسلام ، مُخالف لمذهب أهل السنة والجماعة ، لأنه يوقع الأمة فى الفتن[4] ، التى تبدد شمل وحدتها ؛ وغنى عن البيان ، أن اتخاذ مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ذريعة للخروج على الخلافة الإسلامية القائمة ، وهو المبدأ الذى عدته فرقة المعتزلة أحد أصول مبادئها الخمس الشهيرة ، على أساس أن الخروج على الأئمة الظالمين ، يعد من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كان يعطى لأنصار الدعوة الإسماعيلية ، بعد سقوط خلافتهم بمصر ، سندًا شرعيًا للعمل على إسقاط الخلافة العباسية .

وعلى هذا الأساس نفسر عداء الأيوبيين بالشام لفرقة القدرية ، وهى من أقدم فرق المعتزلة بالشام[5] ، كما نفسر أيضًا قتل الأيوبيين بالشام للفيلسوف والمتصوف الشهير السهروردى[6] ، الذى كان فى الغالب يظهر التصوف وعلوم الكلام والفلسفة ، ويبطن التشيع والمذهب الإسماعيلى .

---

(١) أنظر ابن تيمية . الحسبة فى الإسلام ، ص ٣٧ – ٣٨ وهو نص هام فليراجع .

(٢) أنظر قبله .

(٣) أنظر القاضى النعمان بن حيون : كتاب افتتاح الدعوة ، طبع بيروت ، ومقدمة المحققة الدكتورة وداد القاضى .

(٤) أنظر ابن تيمة : الحسبة فى الإسلام ، ص ٥٥ ، وهو نص هام فليراجع .

(٥) كان ظهور هذه الفرقة فى بداية العصر الأموى ، أنظر زهدى محمد جابر الله : المعتزلة طبع مصر ١٣٦٦هـ ص ٦ – ٩ .

(٦) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٠ ، س ٣ – س ٧ .

وثمة إشارات عديدة أوردها الشيزرى ، توضح أهمية وظيفة الحسبة فى العصر الأيوبى ، فى محاربة المذهب الشيعى ، فقد كان المحتسب يشرف على تعليم الصبيان والصغار فى الكتاتيب ، ويمنع مؤدبيهم فى هذه الكتاتيب من تحفيظهم أشعار الشعراء الذين اشتهروا بتشيعهم ومدحهم للخلفاء الفاطميين بمصر مثل الشاعر صريع الدلا ، الذى مدح الخليفة الفاطمى الظاهر ، ومثل الشاعر أبو عد الله بن الحجاج ، الذى اشتهر اسمه ببغداد فى عهد ملوك بنى بويه الشيعة ؛ كما أمر الشيزرى المحتسب أن ينهى مؤدبى الصبيان عن تحفيظهم الأشعار التى عملتها الروافض (أى الإسماعيلية) فى أهل البيت ، بل يعلمهم الأشعار التى مدح بها الصحابة ، ليرسخ ذلك فى قلوبهم[1].

كما أفاد الشيزرى أنه كان على المحتسب أن يتقدم إلى جيران كل مسجد ، بالمواظبة على صلاة الجماعة عند الأذان ، لإظهار معالم الدين وإشهار شعار الإسلام ، وأوضح الشيزرى أهمية هذه المأمورية بالنسبة لعصره ، لوجود بقايا للشيعة ، وإن فى هذا العمل تقوية لعقائد عوام الناس ، الذين قد تنجح وسائل الشيعة فى استمالتهم إلى دعوتهم[2] . كما كان على المحتسب أن ينهى الشعاذين وأهل الكدية والعميان : عن إنشاد الشعر الذى عملته الروافض فى أهل البيت ، ومن ذكر المصرع (أى ملحمة قتل الحسين فى كربلاء) وإشباهه لأن هذا كله فتنة للعامة[3] .

فمجمل القول أن وظيفة الحسبة فى العصر الأيوب ، إلى جانب المهام التقليدية للحسبة الإسلامية ، قد خضعت للإشراف المباشر لقاضى القضاه ، واتصفت بصفة سياسة لخدمة الاتجاه السياسى للسلطنة الأيوبية السنية فى محاربة بقايا الوجود الشيعى فى مصر والشام ، سواء المتمثل فى دعاة الإسماعيلية والقدرية[4] بالشام ، الذين عمد المحتسب إلى القبض عليهم وتمزيق كتبهم

(١) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٠٣ - ١٠٥ . والجدير بالذكر أن الأيوبيين فى بلاد الشام ، كانوا يعهدون بالحسبة إلى من تفقه على كبار علماء أهل السنة بالشام ، وعرف عنه التمسك بتعاليم المذهب السنى . وأنظر الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج ٤ ، ص ٩٨ ، فى ترجمة جمال الدين ابن كروس المحتسب الدمشقى ، الذى وصف بأنه كان رئيسًا محتشمًا قيمًا بالحسبة ، وأنظر عن حسبة القاهرة ، المقريزى : السلوك ج ١ ق ١ ، ص ٣٠٥ .

(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١١ ، س ٢ - س ٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٣ ، س ٥ - س ٨ .

(٤) هى فرقة جمعت بين القول بحرية الإرادة ، أى أن الإنسان له حرية الاختيار فى أفعاله وليس مجبرًا وليس ميصر ، وتعاطفوا مع الدعوة الشيعية وأظهروا العداء للحكومة الأموية التى روجت للقول بالجبر وبررت به انتقال الخلافة من البيت العلوى إلى البيت الأموى .

وإحراقها ثم استتابتهم وتوقيع حد الجلد ثم القتل على من أصر منهم على دعوته ومذهبه ؛ أو المتمثل في النقابات الحرفية والمهنية في أسواق القاهرة ، التي كان هوى أصحابها لا يزال مع الدولة الفاطمية الزائلة ؛ ولم تقتصر جهود الحسبة الأيوبية في مقاومة الدعوة الإسماعيلية على التصدى لفئة المثقفين الممثلة في دعاة المذاهب الكلامية ومعتنقها وفي أرباب الصناعات والحرف ، بل اهتمت اهتمامًا خاصًا بالعوام الذين قد تؤثر فيهم الملاحم الشيعية الخاصة بوصف مصرع الحسين ومصارع الطالبيين ، فعمدت إلى منع أهل الكُدْية من ترديدها في الأسواق ، كما منعت الصبيان في الكتاتيب من حفظ الأشعار التي نظمها الشعراء المتشيعين في حب آل البيت ، ومدح خلفاء وملوك الشيعة ، هذا بالإضافة إلى التأكد من أن شعائر الآذان والصلاوات تقام وفق الشعائر السنية[1] ، حتى لا يستمر العامة على ما ألفوه من شعائر شيعية ، فرضها الفاطميون إبان دولتهم ؛ هذا بالإضافة إلى احتفاء المحتسب ، بالصلاوات الخاصة بالأعياد والمواسم السنية[2] .

تشجيع التصوف والفكر الصوفى :

وإذا كان إنشاء الأيوبيين للمدارس السنية بمصر سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ؛ قد هدف إلى نشر علوم السنة بين مثقفي الشعب المصرى ، ثم جاء قطع الخطبة والدراسة في سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٢م من الجامع الأزهر معقل الدعوة الشيعية بمصر ، تأكيدًا لعدم منافسة علوم الدعوة الإسماعيلية الفلسفية ، للعلوم الفقهية السنية التي عملت المدارس السنية على نشرها بين المصريين ؛ وإذا كان تحويل المذهب الفقهي الرسمي للدولة المستخدم في القضاء إلى الفقه الشافعي ، قد أكد أن المذهب الفقهي الرسمي للدولة الأيوبية هو المذهب الشافعي السني ؛ وجاء إسناد مهمة الإشراف المباشر على المدارس السنية بمصر لقاضي القضاه ، نوعًا من الإشراف الرسمي للدولة على التعليم - رغم ما جرى

(١) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص ١١١ ، س ٣ - ٦ .

(٢) ضياء الدين بن الأثير : مجموع رسائله ، تحقيق المقدسي ، ص ١٤٢ ، الذى يوصي المحتسب بالاهتمام بالإشراف على صلاة يوم الجمعة الذى هو في الأيام بمنزلة الأعياد في الأعوام .. ، والصلاوات الخاصة بالمواسم والأعياد السنية ، فيقول : وفي الأعوام مواسم لصلوات مخصوصة ، كالتراويح في شهر رمضان والرغائب في أول جمعة من رجب ، وليلة النصف من شعبان . فلتملأ المساجد في هذه المواسم .

عليه العرف منذ صدر الإسلام ، واعتبار التعليم ملكًا للأمة[1] ، بحيث لم تتدخل الدولة في تنظيم شئون التعليم ، إلا في حالات خاصة أملتها الظروف السياسية ، كما حدث في العصرين الفاطمي والأيوبي ـ قد استهدف أيضًا نشر علوم السنة بين المثقفين .

وإذا كانت وظيفة الحسبة السنية قد قامت بدور مزدوج لمحاربة التشيع والتأكد من تطبيق الشريعة السنية على مستوى الفقهاء والمتكلمين ومثقفي الصناع والتجار من ناحية ، وفي نفس الوقت على مستوى طلبة الكتاتيب والعامة والجهال في الأسواق ؛ فإن الحكومة الأيوبية ، قد لجأت إلى وسيلة أخرى ، لمحاربة الدعوة الإسماعيلية بمصر ، ونشر المذهب السني ؛ استهدفت أيضًا استمالة قلوب المصريين من المثقفين والعامة الأميين على حد سواء ، وإن كانت قد استهدفت بالدرجة الأولى ؛ طبقة العوام ، وأعني بهذه الوسيلة « التصوف » .

---

(١) المقصود بأن التعليم في الإسلام كان ملكًا للأمة ، يعني أن المسلمين منذ صدر الإسلام قد شغفوا بدراسة العلوم الدينية النقلية مثل الحديث ، والفقه والتفسير وباقي علوم القرآن ، فكان طلبة العلم يرتحلون في تحصيله وجمعه من أفواه الشيوخ والأئمة ، من أطراف العالم الإسلامي ، الذي امتد في بعض الأوقات من حدود الصين شرقًا إلى بلاد الأندلس غربًا . وكانت العلاقة بين الشيوخ وطلبة العلم ، أي بين العالم والمتعلم ، تقوم على أساس المعرفة الشخصية المباشرة بين العلماء وتلامذتهم ، وإن عنيت كثيرًا كتب آداب التعلم بوضع قواعد وأصول تنظيم أداب التعامل والسلوك في مجالس الدرس والتعليم ، وقد استمدت هذه المؤلفات مادتها من كتب الفقه وتفريعاتها ؛ أنظر مثلاً الخطيب البغدادي : تقييد العلم ، تحقيق يوسف العش ، طبع دمشق ١٩٤٩ ، ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله ، طبع المطبعة النيرية بمصر ، طبعة قديمة ، د. ت ، أحمد فؤاد الأهواني : التعليم في رأي القابسي (من علماء القرن الرابع) ، طبع القاهرة، ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م ، أحمد فؤاد الأهواني : التربية في الإسلام ، طبع القاهرة ١٩٥٥ ، أحمد شلبي : التربية والتعليم في الإسلام ، طبع القاهرة سنة ١٩٦٠م ؛ مجموعة رسائل عن التعليم من تأليف إخوان الصفا ، والغزالي ، والطوسي ، وابن جماعة ، وابن خلدون ، وابن حجر ، جمعها وقدم لها مجهول لم يذكر اسمه ، وطبعت على نفقة السيد حسن الشربتلي ، بدار الفتوح للطباعة بالقاهرة ، د. ت. ؛ ابن جماعة : تذكرة السامع والمتكلم في آدب العالم والمتعلم ، طبع الهند ١٣٥٣هـ .

والجدير بالالتفات ، أن مفهوم كلمة مدرسة في الإسلام ، تختلف عن مفهوم المدرسة في المصطلح المعاصر لنا اليوم ، فكلمة مدرسة في الإسلام تعني بناء خاصًا ، يخصص له من الأوقاف والموارد ، ما يكفي لإطعام وإسكان الطلبة والمدرسين ؛ وسواء إذا كانت هذه المدرسة قد تولت إنشاءها الدولة أو الأفراد ، فقد كان للمدرس ، مطلق الحرية في اختيار المؤلفات والتصانيف التي يدرسها للطلبة ، إلا إذا كان من شرط وقفية المدرسة أن تكون مختصة بنوع من العلوم (الحديث مثلاً) ، أو بمذهب معين من المذاهب الفقهية (الشافعي مثلاً) – وهذا ما وجدناه في العصرين الزنكي والأيوبي – ؛ ولم يكن ثمة التزام بالنسبة للطلبة لحضور جميع العلوم التي تدرس ، كذلك لم تكن تمنح شهادات للتخرج ، كما لم يكن يشترط سن معين للالتحاق بالمدرسة .

ويخبرنا ابن شداد أن صلاح الدين بدأ فى غرس التصوف فى أهل مصر لمحاربة التشيع ، وهو لايزال وزيرًا للفاطميين[1] ، ويفسر محمد كامل حسين ، اتخاذ الأيوبيين للتصوف ، كوسيلة لمزاحمة بقايا العقائد الإسماعيلية بمصر ، بأن الأراء الصوفية ، كانت منذ أواخر العصر الفاطمى ، هى التى شغلت الفراغ الذى تركه دعاة الإسماعيلية ، إذ كان المصريون قد تأثروا بمعتقدات وتعاليم الإسماعيلية ، ولما وجدوا أنفسهم بعد إنقراض الدولة الفاطمية قد حرموا مما يغذى عاطفتهم الدينية ، اتجهوا إلى التصوف ، وأحلوه فى نفوسهم وحياتهم محل ما كانوا يسمعونه من الدعاة الإسماعيلية ، ويعتقد كامل حسين أن القائمين على الدولة الأيوبية ، فهموا هذه الناحية النفسية فى الشعب ، فحاربوا العقائد الفاطمية بمصر بتعاليم الصوفية[2] .

وذهب الباحثون مذاهب شتى فى تفسير سبب انتشار التصوف بمصر فى نهاية العصر الفاطمى وبداية العصر الأيوبى ، فأرجع بعضهم هذه الظاهرة من ناحية إلى سوء الأحوال السياسية والاقتصادية التى عاشها الشعب المصرى فى مرحلة الانتقال بين العهدين الفاطمى والأيوبى ، من فتن داخلية ومجاعات ، وحروب صليبية ، ردت مصر إلى لون من الحياة فيه شعور حقيقى بالفقر مما خلق فى الناس استعدادًا للخضوع لدينهم وأملاً فى نعيم الآخرة[3] ، وقوى الاتجاه الصوفى عند المصريين دخول الفكر الأشعرى إلى مصر على يد صلاح الدين وأثر ذلك فى ميل أهل مصر للعلوم الدينية النقيلة ، أكثر من ميلهم إلى العلوم الفلسفية العقلية[4] ، هذا بالإضافة إلى أن الشعب المصرى ، شعب متدين بطبيعته ، وأن للدين عليه سلطانًا عظيمًا[5] ، وأن التصوف قد عرف بمصر الإسلامية منذ وقت مبكر يرجع إلى القرن الثالث الهجرى ، واشتهر بمصر منذ القرن الثالث الهجرى ، متصوفه أحرزوا شهرة كبيرة ، وإن لم تنتشر مذاهبهم الصوفية الفلسفية بها مثل المتصوف ذو النون المصرى[6] . هذا بالإضافة إلى طائفة عرفت بـ « الصوفية » ظهرت بمصر بالقرن الثالث الهجرى أيضًا ، وقامت بالاحتساب على الحكام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[7] ، كما تميز التصوف بمصر الإسلامية،

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٠ - ٤١ .
(٢) أنظر محمد كامل حسين : بين التشيع وأدب الصوفية بمصر ، بحيث نشر بمجلة كلية الأداب بجامعة القاهرة ، الجزء الثانى ، المجلد السادس عشر ، ٥ ديسمبر ١٩٥٤م ؛ محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ٦٣ .
(٣) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ٩٥ .
(٤) نفس المرجع ، ص ٨٧ - ٩٤ ، وأنظر بعده .
(٥) نفس المرجع ، ص ٩٦ .
(٦) نفس المرجع ، ص ١٢٠ ، أنظر محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٥٣ .
(٧) نفس المرجع ، وأنظر محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

باعتناق عدد كبير من الفقهاء المصريين له ، كمنهج لحياة الزهد والورع ، وذلك رغم الخصومة التقليدية بين الصوفية والفقهاء[1] .

في حين يرى البعض الآخر تقاربًا بين آراء الصوفية وآراء الإسماعيلية ، ويلاحظ أن دعاة الإسماعيلية الذين أنبثوا في جميع أقاليم الديار المصرية في العصر الفاطمي ، كانوا يظهرون الزهد والورع والتقوى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويظهر بهذا المظهر الخارجي من التقوى لجذب من لم يعتنق الدعوة ، بحيث لم يختلفوا في مظهرهم عن الصوفية ، وكانوا يأمرون العامة بالتمسك بالعبادة العملية ، التي تعرف عند الإسماعيلية « بالعلم الظاهر » ، وينشرون بين الخاصة العبادة العلمية التي سموها علم الباطن أو التأويل ، مما قارب بين آراء المتصوفة وآراء الإسماعيلية ،

---

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ص ١٣٢ ، وأنظر محمد كامل حسين : دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، ص ٥١ . ولكن مع تسليمنا بهذه الآراء التي علل بها عبد اللطيف حمزة انتشار التصوف بمصر في نهاية العصر الفاطمي وبداية العصر الأيوبي إلا أننا نتشكك فيما ذكره مسايرًا لآراء آدم متز ونيكسلون والشيخ مصطفى عبد الرازق من أن التصوف الإسلامي قد ظهر بمصر ، قبل أي بلدة أخرى من بلاد العالم الإسلامي ، وذلك لكون مصر ، كانت هي المبتكرة لنظام الرهبنة المسيحية في العصر البيزنطي ، وعن مصر انتشر نظام الرهبنة والأديرة في كافة أنحاء العالم المسيحي ؛ ونحن نؤيد رأينا على أساس أن أول ظهور للتصوف الإسلامي كان مرتبطًا بأهل الصفة وهم جماعة من فقراء الصحابة في أول عهد الدعوة الإسلامية ، هاجروا مع النبي إلى المدينة وأسكنهم صفة مسجده النبوي بالمدينة ، فعاشوا عيشة أشد ما تكون زهدًا وتقشفًا واشتغلوا بدراسة القرآن والسنة ، وكان أغنياء المسلمين يتصدقون عليهم ويطعمونهم ، ومن هنا جاء فتوة الفقهاء المتأخرين كما لاحظ السخاوي بأن المنقطعين للعلم والدراسة يستحقون أن تجرى عليهم الأرزاق والجرايات وتوقف للصرف عليهم الأوقاف ؛ وأكد نشأة التصوف في الإسلام ونشأة الأوقاف التعليمية في الإسلام اعتمادًا على أحوال أهل الصفة المؤرخ شمس الدين السخاوي ت ٩٠٢هـ في رسالة مخطوطة له سماها : رجحان الكفة في أحوال أهل الصفة ؛ ومن هذه الرسالة الهامة التي تعالج نشأة التصوف في صدر الإسلام نسخة وحيدة بالجمعية الآسيوية بالهند برقم ١٣٢١ ومعهد المخطوطات برقم ١٠٦٣ت . هذا وقد أفاد المقريزي ميله لاعتبار أحوال أهل الصفة كالأصل الأول الذي بني عليه نظام خوانق الصوفية في الإسلام (الخطط : ٤: ٢٧٢) فهو يناقش إذا ما كان اسم الصوفية مشتقًا من أهل الصفه ثم يقول عن الرباطات والزوايا : والرباط هويت الصوفية ومنزلهم ، وشابهوا أهل الصفة في ذلك . قال مؤلفه ولاتخاذ الربط والزوايا أصل من السنة وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل ولا مال مكانًا من مسجده عرفوا بأهل الصفه (الخطط ٤: ٢٣٩) ويزيد ما ذهبنا من رفض الرأى القائل أن التصوف الإسلامي ظهر بمصر متأثرًا بنظام الرهبنة المسيحي الذي ظهر في مصر أيضًا ، ملاحظة محمد كامل ، أن الفقهاء الذين عرفوا بالصوفية من المسلمين لم يتأثروا بالرهبنة المسيحية في مصر ، ولم يكن لهم تعاليم خاصة تمايزوا بها عن غيرهم من المسلمين إلا مغالاتهم في هذه الناحية فقط (الزهد) (محمد كامل حسين : دراسات س ٥١ – ٥٢) .

وفي اعتقاد صاحب هذا الرأى ، أن بعض الصوفية بمصر كانوا من دعاة الفاطميين[1] ؛ هذا وقد دللت الأبحاث الحديثة التى تدارست ظهور التشيع وتطوره ، تأثر التشيع منذ نشأته بالفكر الصوفى ، وتقارب فرق الشيعية فى أغلب فترات التاريخ الإسلامى ، مع طوائف وفرق الصوفية[2] ؛ ومما يؤكد هذا ما ردده الصوفية، من أن لخرقة التصوف سندين، أولهما ينتهى إلى على بن أبى طالب، وثانيهما ينتهى إلى على الرضى[3] .

وإذا كان عبد اللطيف حمزة ، قد لاحظ أن المدرسة السنية ، هى مؤسسة ابتكرتها الدعوة والدعاة للمذهب الأشعرى السنى[4] ؛ اعتمادًا على النقش التأسيسى لمدرسة قبة الإمام الشافعى ؛ فالذى

---

(١) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى العصر الأيوبى ، ص ٥٧ - ٥٨ . والتأويل الباطن للقرآن معروف أيضًا عند الصوفية ، وإن لم يكن لهدف سياسى مثل الحال عند الشيعة الإسماعيلية .

(٢) أنظر على الشيبى : الصلة بين التشيع والتصوف ، طبع دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨م .

(٣) قال سبط ابن الجوزى : وكان الشيخ عبد القادر الجيلى لبس خرقة المشايخ من أبى سعد المخزومى ، ولبس المخزومى من أبى الحسن على بن محمد القرشى ، ولبس القرشى من أبى الفرح الطرسوسى ، ولبس الطرسوسى من أبى الفضل بن عبد الواحد التميمى من والده عبد العزيز ، ولبس عبد العزيز من أبى بكر الشبلى ، ولبس الشبلى من أبى القاسم الجنيد ، ولبس الجنيد من خاله سرى السقطى ، ولبس سرى من معروف الكرخى ، ولبس معروف من داود الطائى ، ولبس داود من حبيب العجمى ، ولبس حبيب من الحسن البصرى ، ولبس البصرى من على بن أبى طالب عليه السلام ، وللخرقة طريق آخر إلى على بن موسى الرضا ولا يثبت سنده . (مرآة الزمان : ٨: ٢٦٦) وأنظر بعده سند " الفتوة وسراويل الفتوه " حيث ينتهى أيضًا إلى على بن أبى طالب .

(٤) يلاحظ عبد اللطيف حمزة : أن أول من ولى التدريس فى مدرسة قبة الإمام الشافعى ، التى كانت أول مدرسة أنشأها صلاح الدين بمصر ، كان الفقيه الخبوشانى . ثم يضيف أن الخبوشانى ، كان من أخطر الفقهاء السنيين ، الذين وقعوا على الوثيقة التى خلعوا فيها آخر خلفاء الدولة الفاطمية (العاضد) ، كما كان أول من خطب فى جامع عمرو للخلافة العباسية ؛ ثم يلاحظ أيضًا أن الخبوشانى هذا فارسى الأصل وأن نشأة المدارس نفسها فارسية أيضًا ، وأن النقش التأسيسى لمدرسة الخبوشانى بقبة الإمام الشافعى ، يشير إلى أنه كان فى أصول الدين وقضايا العقائد أشعرى المذهب ، ثم ينهى د. عبد اللطيف حمزة ملاحظاته بتقرير قوله : إن المؤسسة الإسلامية التى تسمى المدرسة ، كانت أداة من أدوات الحركة الأشعرية ، (أنظر عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١٦١) .

أما النقش الوارد على شاهد قبر الخبوشانى . ويؤكد اعتناقه للعقيدة الشعرية ، فهو على هذا النحو كما أورده الأستاذ جاستون فايت Gaston Wiet فى مقاله، عن نقوش قبة الإمام الشافعى فى مجلة المعهد المصرى.

" بنيت هذه المدرسة باستدعاء الشيخ الفقيه الإمام الزاهد نجم الدين ، ركن الإسلام قدوة الأنام ، مفتى الفرق ، أبو البركات بن الموفق الخبوشانى ، أدام الله توفيقه لفقهاء أصحاب الشافعى ، رضوان الله عليه الموصوفين بالأصولية الواحدة الأشعرية ، على الحشوية وغيرهم من البدعه ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ، وانظر .

Gaston wiet: Les Inscriptions du Mausoleé de Shafi, B. I. E., Tome Xv, Session 1932-1933. pp. 167-185; p 170.

قلت : وفى هذا النقش ما يؤكد أيضًا ما سنقرره بعد ذلك عند حديثنا عن نشر الأيوبيين للدعوة الأشعرية بمصر أن جميع فقهاء الشافعية منذ القرن الخامس الهجرى ، قد أخذوا فى قضايا أصول الدين والعقائد بالعقيدة =

نعتقده أيضًا أن الخوانق[1] ، وهي بيوت الصوفية في الإسلام ، رغم أنها عرفت منذ القرن الرابع الهجري ، عند الكرامية ، وهي فرقة من الصوفية القائلين ، بالأرجاء والتجسيم[2] ؛ إلا أن اتخاذ

= الأشعرية ، وأن الأيوبيين أيضًا كانوا يأخذون في فروع الفقه بالفقه الشافعي ، ويأخذون في أصول الدين والعقائد بالعقيدة الأشعرية . وثمة نقش على قدر خطير من الأهمية ، لم يلتفت إليه الباحثون من قبل ، يؤكد حرص بني أيوب على نشر الفقه الشافعي بمصر ، واقتران ذلك بنشر الدعوة العباسية بمصر أيضًا، وفي نفس الوقت بنشر العقيدة الأشعرية ، كما أكد النقش السالف وهذا النقش الهام قد نشره أيضًا جاستون فايت في نفس المقال السابق ، جاء فيه : الشافعي أمام الناس كلهم .. في العلم والحلم والعَلياء والبأس ، له الإمامة في الدنيا مسلمة .. كما الخلافة في أولاد عباس ، أصحابه خير أصحاب ومذهبه .. خير المذاهب عند الله والناس ، وذلك لسبع خلون من جمادى الأولى ، من سنة ثمان وستمائه (٦٠٨هـ) أنظر .

Gaston Wiet: Les Inscriptions du. Shafi, p. 179.

وعن دور الخبوشاني في عزل الخليفة العاضد ، والخطبة لبني العباس بمصر ، أنظر بعده ، الوضع الشرعي لمصر .

(١) عن الخوانق ، أنظر القلقشندى : صبح ٣: ٣٤٣ ، وص ٣٦٤ ، المقريزى : الخطط ج ٤ : ص ٢٧٣ .

(٢) أنظر عن الكرامية ومذهبهم في التجسيم ، وأراءهم السياسية والكلامية ، أنظر علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧١ ، ج ١ ص ٤٠٥ - ٤٢٤ ، ورغم أن محمد بن كرام مؤسس مذهب الكرامية ، عاش في بلاد خراسان في القرن الرابع الهجرى ، إلا أن فرقته قد انتشرت في بلاد الشام إبان الحكم الفاطمي لها ، فيقول المقدسي ، وهو رحالة قام برحلته في القرن الرابع الهجري عند حديثه عن الفرق الإسلامية في بلاد الشام : مذاهبهم مستقيمة ، أهل جماعة وسنة ، وأهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمان شيعة ، ولا ماء فيه لمعتزلي ، إنما هم في خفية ، وببيت المقدس خلق من الكرامية ، لهم خوانق ومجالس .. واليوم أكثر العمل على مذاهب الفاطمي ، (المقدس : أحسن التقاسيم، طبع بريل ١٩٠٦، ص ١٧٩ - ١٨٠) . والجدير بالملاحظة ، أن متكلمي الأشاعرة ، مثل الفخر الرازى ، قد حرصوا على مجاهرة الكرامية بخراسان بالعداء والخصومة العقائدية العنيفة ، أنظر المقريزى : السلوك ١: ١٤٤ - ١٤٥ وهامش (٤) ، حوادث سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م . وأنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ص ١٧٠ و ١٨٣ ، الذى يذكر أن أهم الأراء السياسية للكرامية هي أنه يجوز أن يكون إمامان في وقت واحد ، وأن عليا ومعاوية كانا إمامين في وقت واحد ، إلا أن عليا كان على السنة ، ومعاوية على خلافها . وواضح أن مذهبهم السياسي يفضل علي بني أمية وأن أقروا خلافة بني أمية ، مع التحفظ بالقول أن الخلافة الأصلية الشرعية ، هي خلافة علي ، ولما كانت الكرامية ، من فرق المرجئة (أنظر عن الكرامية ومذهبهم الشهرستاني : الملل والنحل ص ٧٩ - ٨٥ ، السمعاني : كتاب الأنساب لوحة ٤٧٧ ، المقريزى : الخطط ج٤، ص ١٧٠ و ١٨٣) فواضح أن مذهبهم السياسي ، كان يهدف إلى الوقوف موقفًا وسطًا بين خلافة بني أمية وقضية الشيعة ، وإن تعاطفوا مع قضية الشيعة ، وأقروا بأن خلافة علي كانت هي الشرعية ، ولعل هذا ما يفسر انتشار مذهب الكرامية وخوانقهم في بلاد الشام إبان الحكم الفاطمي ، وأيضًا في مصر ، ممثلاً في الفرقة الصوفية التي عرفت بالكيزانية . أنظر بعده . ولقد أفاد العلامة الشيخ زاهد الكوثري أن بعد احتلال الصليبين لبيت المقدس ، هاجر هؤلاء الكرامية ، إلى شمال بلاد الشام ، وأنهم كانوا على الفقه الحنبلي ، وحملوا بدعة التشبيه والتجسيم إلى الشام . وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يرعى خاطرهم لكونهم مهاجرين زهادًا ويتغاضى عن معتقدهم . أنظر محمد زاهد الكوثرى : مقدمة لكتاب تبين كذب المفترى ، فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعرى ، لابن عساكر ، ص ١٦ . في حين أدى عداء الخبوشاني مدرس الشافعية بمصر للحنابلة ونصرته للمذهب الأشعرى : إلى محاولته إبادة الفرقة الكيزانية في مصر ، كما أقدم على نبش قبر ابن كيزان المنسوبين إليه . (أنظر محمد كامل حسين : دراسات في الشعر الأيوبي ، ص ٦١ - ٦٣) وربما كان إبادة الصوفية من الكيزانية الكرامية بمصر ، كان بسبب بقاءهم على الولاء للدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية .

الخوانق ، كوسيلة تعليمية لنشر علوم السنة واجتذاب مريدى المذهب الإسماعيلى إلى المذهب السنى ، إنما قد تم على أيدى دعاة المذهب الأشعرى . فى القرنين الرابع والخامس الهجرى ، بحيث نسب ابن عساكر ، مؤرخ الدعوة الأشعرية للإمامين ابن فورك والغزالى وهما من ائمة الأشاعرة ، بناء الخوانق فى بلاد العراق وفارس وجلوسهما بها لتدريس علوم السنة ، وإلقاء دروس الوعظ الصوفى[1] . وفى هذا تأكيدًا لما اعتقده د. حمزة إن حركة انتشار الخوانق بمصر ، تشبه من قريب أو بعيد حركة إنشاء المدارس بمصر فى العصر الأيوبى ، وتقترن بها[2] . أما محمد كامل حسين فيعتقد أن الخانقاه أو التكايا أو مصاطب الصوفية ، وجدت منذ عصر الفاطميين ، اعتمادًا على نص

(١) يقول ابن عساكر : موضحًا جهود الإمام أبى بكر بن فورك ، فى نشر الدعوة الأشعرية وإنشاء المدارس والخوانق فى العراق وبلاد فارس ، قال ابن عساكر بعد أن وصف ابن فورك ، بالمتكلم الأصولى الواعظ " أقام أولاً بالعراق، إلى أن درس بها على مذهب الأشعرى .. وورد نيسابور ، فبنى له الدار والمدرسة من خانكاه أبى الحسن البوشنجى ، وأحيا لله تعالى .. أنواعًا من العلوم لما استوطنها ، وظهرت بركته على جماعة من المتفقهة ، وتخرجوا به " .. (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢٣٢) . ويذكر ابن عساكر موضحًا جهود الإمام الغزالى فى نشر الدعوة الأشعرية ، قول الغزالى نفسه على لسانه : " ما كنت أجوز فى دينى أن أقف على الدعوة ، ومنفعة الطالبين بالإفادة ، وقد حق على أن أبوح بالحق ، وأنطق به ، وأدعو إليه ، ثم علق ابن عساكر على قول الغزالى بقوله : وكان صادقًا فى ذلك ثم ترك ذلك قبل أن يترك (المقصود قبل وفاته) ، وعاد إلى بيته ، واتخذ فى جواره مدرسة لطلبة العلم و " خانقاه للصوفية " ، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين ، من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب (المقود الصوفية) ، والقعود للتدريس ، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه ، عن فائدة ، إلى أن أصابه عين الزمان .. فنقله الله إلى كريم جواره " ، (ابن عساكر : تبين كذب المفترى : ص ٢٩٥ - ١٩٦) ، وأنظر نصين هامين يتفاخر فيها كل من عبد القاهر البغدادى ، وأبو المظفر الإسفراينى ، وهما من كبار دعاة الدعوة الأشعرية ، فى القرن الخامس الهجرى ، بأن منشآت أهل السنة وأئمتهم وملوكهم لنشر العلوم تفوق منشآت الفاطميين العبيدين وخلفائهم (أنظر قبله ، فلقد سبق إيراد هذين النصين بتمامهما عن حديثنا عن المدارس ، وأنظر عبد القاهر البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، أبو المظفر الأسفراينى : التبصير فى الدين ص ١٧٦ ، وقد أكد الراوندى مؤرخ الدولة السلجوقية فى نصوص وافية صريحة مقدار عناية سلاطين بنى سلجوق ، بنشر المنشآت السنية الأشعرية فى جميع أرجاء دولتهم ، أنظر قبله ، وأنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٦٠ ، س ٧ - ١٦ ، ص ١١٣ ، ص ١٠٤) .

(٢) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١٠٦ .

للمقريزى[١] ، ذكر فيه مصاطب للصوفية بقصر الأندلس بالقرافة ، وأفاد أن الخليفة الفاطمى الآمر ، كان يجرى على فقراء مصاطب القرافة الأموال ، ثم يقرر كامل حسين ، مخالفته لرأى عبد اللطيف حمزة ، الذى ذهب إلى أن أماكن الصوفية إنما وجدت فى عصر الأيوبيين[٢] .

ونحن نميل إلى ترجيح رأى عبد اللطيف حمزة ، على رأى كامل حسين ، استنادًا على دليلين ، أولهما مالاحظه حمزة ، وأكده الحافظ ابن عساكر ، من أن الخانقاه ، كوسيلة تعليمية لنشر علوم السنة ، وفى نفس الوقت منشأة اجتماعية لرعاية فقراء الصوفية ، وخاصة من الأغراب ، أبناء السبيل ، هى منشئة سنية ، استخدمتها الدعوة الأشعرية السنية ، شأنها شأن المدارس ، لنشر علوم السنة ، ومحاربة المذهب الإسماعيلى ، ومن ثم فلا يستقيم عقلاً ، أن ينشر خلفاء الفاطميون بمصر هذه المنشآة السنية ، التى تهدف إلى محاربة المذهب الإسماعيلى الفاطمى ؛ أما مصاطب الصوفية التى وصفها المقريزى ، فواضح أنها لم تكن منشآة تعليمية شأنها شأن الخوانق ؛ وثانى الدليلين على ظهور الخوانق بمصر فى العصر الأيوبى ، نصًا صريحًا للقلقشندى ، لم يقف عليه كل من عبد اللطيف حمزة وكامل حسين ، فيقول القلقشندى : إن الخوانق والربط ، لم تعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية،

(١) يقول المقريزى فى حديثه عن قصر القرافة ، أنظر الخطط ، طبع مطبة النيل ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .
ولما كان فى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م ، جدده الخليفة الآمر ، وعمل تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس فى الطابق بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم ، والشموع الكثيرة تزهر ، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط ، ومدت لهم الأسمطة ، .. فاستحسن الآمر ذلك .. فأمر فى الساعة والوقت فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفيه ، ففرقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ، ونثر عليهم متولى بيت المال من الطابق ألف دينار ، فتخاطفها الحاضرون .. وما برح قصر الأندلس بالقرافة ، حتى زالت الدولة (الفاطمية) فى شهر ربيع الآخر ، سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م . والذى نلاحظه من نص المقريزى ، أن هؤلاء الصوفية لم يكونوا من المنقطفين لدراسة العلوم ، وإنهم كانوا من جهال الصوفية الدراويش وأن الدولة كانت تقدم لهم الأموال والكسوات والأسمطة كهبات ، وليس كمرتبات محددة فى كل شهر ؛ كما أن المصاطب تختلف فى تخطيطها وبنائها عن الخوانق والتكايا ؛ ولازالت كثير من الخوانق الأيوبية والتكايا العثمانية موجودة إلى اليوم ؛ وأخيرًا ، فإن هدم الأيوبيين لهذه المصاطب فى أول قيام دولتهم سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م ، تفيد بأن هؤلاء الصوفية ، كانوا من أنصار الخلافة الفاطمية ، وأغلب الظن أنهم كانوا كما ذهب د. محمد كامل حسين يقومون بالدعوة للخلافة الفاطمية والعقائد الإسماعيلية خاصة فى نهاية العصر الفاطمى ، الذى شهد تدهور الفكر الإسماعيلى ، وضعف الدعوة الإسماعيلية بمصر .
(٢) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ، ص ٥٦ .

وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، فإبتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء[1] ، ولقد أعاد القلقشندى نفس النص تقريبًا فى موضع آخر[2] . كما نص المقريزى أيضًا على أن خانقاه سعيد السعداء « أول خانقاه عملت بديار مصر »[3] .

ولعل ما يؤكد ، أن نشر الخوانق بمصر ، كمنشأة تعليمية اجتماعية ، تضم الصوفية المنقطعين للعلم والعبادة ، قد تم على يد الأيوبيين ، ما ذكره البدليسى ، مؤرخ الدول الكردية الإسلامية ، من أن نجم الدين أيوب ، والد الملوك الأيوبية ، قد أنشأ خانقاه ، حينما كان دزدارا (أى أمير القلعة) لقلعة تكريت ، نيابة عن سلاجقة العراق[4] ، كذلك نسب النعيمى ، المؤرخ الشامى المتأخر ، لكل من نجم الدين أيوب ، وأخيه أسد الدين شيركوه ، أنشاء بعض الخوانق والربط والمدارس بدمشق ؛ إبان خدمتهما لنور الدين زنكيى[5] .

ولقد أفاد ابن جبير تطابق وظيفتى كل من الخوانق والربط ، كدور للعبادة والتعليم ، تخصص للصوفية ، وتتولى الدولة الإشراف عليها[6] ، كما أكد الوهرانى أن بداية نشر هذه المنشآت الصوفية بمصر ، ومنها « الزوايا » ، قد تم منذ قدوم نجم الدين أيوب إلى مصر سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ، واقترن

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٤٣ ، س ١٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ، س ١٥ .
(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، س ٢٣ . والواقع أن تخطيط الخانقاه من الناحية المعمارية يختلف تمامًا عن وصف المقريزى لمصاطب الصوفية التى ذهب محمد كامل حسين إلى القول بأنها كانت أول ظهور للخوانق لمصر . فالخانقاه تتكون من صحن مكشوف تطل عليه غرف صغيرة متعددة يعيش فيها المتصوفون ، ثم أيوانات أربعة ، أكبرها أيوان المحراب حيث يقيمون فيه الصلاة (أنظر محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ص ٣٩) . وللأسف أن خانقاه سعيد السعداء لم يتبق منها سوى بعض الجدران لم يستطع علماء الآثار تميزها عن البناء المماليكى الحديث الذى احتواها ، وهو المعروف اليوم بمسجد الشيخ مطهر بشارع المعز لدين الله بالقرب من حى الصاغة ؛ ومع ذلك فقد وصلت إلينا خانقاه من العصر الأيوبى بمدينة حلب هى خانقاه الفرافرة تعطينا تصورًا دقيقًا لتخطيط الخانقاه فى العصر الأيوبى وعن خانقاه الفرافرة (محمد طلس : الآثار الإسلامية والتاريخية فى حلب ص ٨٨ – ٩٠ ، وأنظر فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية ج ١: ٢٥٠ ، وانظر دولة عبد الله عبد الكريم : الخوانق فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى رسالة دكتوراه نوقشت بكلية الآثار ١٩٧٣ ؛ والجدير بالذكر أن الخوانق صارت تعرف فى العصر العثمانى " بالتكايا " .
(٤) البدليسى : الشرفنامه الكردية ، ص ٥٦ – ٥٧ .
(٥) أنظر الحديث عن المدرسة الأسدية ، النعيمى : الدارس ، ج ١ ، ص ١٥٢–١٥٧ وعن الخانقاه الأسدية ، النعيمى : الدارس ، ج ٢ ، ص ١٣٩ – ١٤٠ ، وعن الخانقاه النجمية ، النعيمى : الدارس ٢: ١٧٤ – ١٧٧ ، وعن رباط أسد الدين شيركوه ، أنظر النعيمى : الدارس ٢: ١٩٤ ، رقم ٢٠١ .
(٦) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٦ ، وأنظر بعده .

بحركة إنشاء المدارس والمساجد[1] . كذلك أوضح كل من المقريزى والقلقشندى ، ارتباط ظهور المنشآت التعليمية والخيرية السنية بمصر ، مثل المدارس والخوانق والربط والزوايا والأسبله[2] ، بقيام الدولة الأيوبية بمصر .

والخوانك جمع خانكاه ، وهى كلمة فارسية ، معناها بيت ، وقيل أصلها خونقاه ، أى الموضع الذى يأكل فيه الملك ، وقد حدثت فى الإسلام ، فى حدود الأربعمائة من سنى الهجرة ، وجعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى[3] ، ولما استبد صلاح الدين بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد ، حول دار سعيد السعداء، وهو أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر الفاطمى، إلى خانقاه ؛ عرفت بالخانقاه الصلاحية ، وبدار سعيد السعداء ، وبدويرة الصوفية . وجعلها برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، ووقف عليها فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م ، وولى عليهم شيخًا ، ووقف عليها بعض البساتين والقيساريات وبعض الأراضى الزراعية بإقليم الديار المصرية[4] ، وشرط أن من مات من الصوفية ، وترك عشرين دينارًا فما دونها ، كانت للفقراء ، ولا يتعرض لها الديوان السلطانى ، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره ، ورتب للصوفية فى كل يوم طعامًا ولحمًا وخبزًا ، وبنى لهم حمامًا بجوارهم ، فكانت أول خانكاه عملت بديار مصر ، وعرفت بدويرة الصوفية ، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ[5] ، وجعل شرط الوقف على الخانقاه ، أن الخانقاه تكون وقفًا على الطائفة

---

(١) الوهرانى : المنامات والمقامات ، ص ١٣ – ١٤ ، وأنظر قبله .

(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، القلقشندى : ج ٣ ، ص ٣٤٢ ، ص ٣٦٤ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧١ – ٢٧٣ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ .

(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٣ ، الذى يقول : لقب كل شيخ خانقاه بشيخ الشيوخ ، وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالعلم والصلاح وتُرجى بركتهم ، وولى مشيختها الأكابر والأعيان كأولاد الشيوخ بن حمويه مع ما كان لهم من الوزاره والإمارة وتدبير الدولة ، وقيادة الجيوش وتقدمه العساكر . والجدير بالملاحظة أن أسرة أولاد شيخ الشيوخ بن حمويه الجوينى ، هى أسرة فارسية الأصل ، وشافعية المذهب ، سفر مؤسسها بين الخلافة العباسية وصلاح الدين فى أول قيام دولته ، وكان أكبر سفراء الخلافة العباسية مسموع الكلمة لدى جميع ملوك وسلاطين الإسلام ، أنظر بعده ؛ والطريف أن هذه الأسرة كانت تجمع بين الوظائف الإدارية والدينية والعسكرية وتولى أكثر من واحد منهم الوزارة وقيادة الجيش ، وكانت تلبس زيًا يجمع بين زى العسكر وأرباب الأقلام ، وازداد نفوذ هذه الأسرة بصفة خاصة منذ عهد السلطان الملك الكامل محمد ، لأنه كان أخوهم من الرضاع ، ولقد صبا أحدهم وهو فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى منصب السلطنة ذاته بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، أنظر بعده فصلى السلطنة والوزارة ؛ عن وظيفة شيخ الخانقاه ، أنظر تقى الدين السبكى ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٢٤ ؛ والجدير بالاهتمام أن تولى أسرة اولاد شيخ الشيوخ لكبرى الوظائف الدينية ، الخاصة بالإشراف على المنشآت والمؤسسات الصوفية قد بدأ إبان خدمتهم لنور الدين زنكى بالشام . ففى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م ، فوض نور الدين أمر الربط والزوايا والأوقاف بدمشق وحماة وحمص وبعلبك وغيرها ، إلى شيخ الشيوخ ، أبى الفتح عمر بن على بن محمد بن حمويه ، وكتب له العماد منشورًا ، وذكره فى البرق الشامى (سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٢٧٢) .

الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، والقاطنين بالقاهرة ومصر ، فإن لم يوجدوا، كانت على الفقراء من الفقهاء والشافعية والمالكية ، الأشعرية الاعتقاد[1] ، وثمة نقش أثرى هام ، من عهد السلطان العزيز عثمان ابن صلاح الدين ، يوضح أوقاف صوفية سعيد السعداء ، ويؤكد مكانتهم المرموقة[2] .

ويخبرنا المقريزى ، عن بعض شيوخه ، أنه كان لصوفية خانقاه سعيد السعداء ، رسومًا طريفة ، وموكب حافل ، فى كل يوم جمعة ، بحيث يخرجون من خانقتهم ـ ومكانها اليوم جامع الشيخ المطهر بشارع المعز لدين الله من ناحية حى الصاغة ـ يتقدمهم شيخهم ، حتى يصلون إلى جامع الحاكم بأمر الله ، وهو الذى كانت تقام به الخطبة الجامعة فى العصر الأيوبى ، فيقومون بأداء شعائر الصلاة الجامعة ، ثم يختمون القرآن ، ويقوم أحد القراء منهم بالدعاء للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، واقف الخانقاة عليهم ، ثم يعودون بنفس موكبهم الرائع ـ الذى كان جميع أهل مصر والقاهرة ، حتى قبيل عصر المقريزى ، يحرصون على الاصطفاف على جانبى الطريق للتفرج عليه ـ حتى يصلون مرة أخرى إلى الخانقاه[3] .

ولقد حالف بعض الباحثين الصواب ، حين لاحظ اعتمادًا على نصوص المقريزى أن الحياة داخل هذه الخوانق ، جديرة بأن توصف بالترف والسعه ، على أن توصف بالفقر والخشونة ، ولذلك لأن أولئك الفقراء ، كانوا يحصلون على أموال تزيد عن حاجتهم ، مع أنهم قدموا إلى الديار المصرية بغير مال ولا متاع ؛ كذلك لاحظ بدقة أن هؤلاء الصوفية لم يكونوا يعيشون لبطونهم ، بل كانوا يشتغلون دائمًا بالعلم ، وإن كان مقدار العلم الذى كان يدرس فى الخوانق ، أقل درجة من مقدار العلم الذى كان يلقى بالمدارس ، ويختم هذا الباحث ملاحظاته الدقيقة عن الحياة داخل الخانقاه ، بأن

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ ، س ٧ - ٩ .

(٢) توجد لوحة من الخشب بمتحف الفن الإسلامى ، تتضمن النص التأسيسى بوقف قيسارية على صوفية خانقاه سعيد السعداء ، مؤرخ سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م فى عهد الملك العزيز عثمان (٥٨٩هـ/١١٩٣م - ٥٩٥هـ/١١٩٨م) . ونص هذا النقش : العزة لله وحده ، اللهم ارحم الملك الناصر صلاح الدين ، ورضى الله عنه ، الذى أنعم على الصوفية بهذه القيصرية ، وأوقفها على بقعتهم التى تعرف بدار سعيد السعداء بمحروسة القاهرة ، وأمر بهذا الباب الجديد والفتح السعيد ، سيد الملوك والعبيد ، عماد الدنيا والدين ، وسلطان الإسلام والمسلمين ، عضد الدولة القاهرة ، تاج الملة الزاهرة نظام العالم ، ملك المعالى ، الملك العزيز عثمان بن يوسف ابن أيوب ، ظهير أمير المؤمنين ، خلد الله ملكه ، فى تاريخ ربيع الأول سنة أربع وتسعين وخمسمائة (٥٩٤هـ / ١١٩٨م) وصلى الله على محمد وآله وأصحابه أجمعين (عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، ص ٣٦ - ٣٧) .

(٣) راجع هذا النص الهام عند المقريزى : الخطط ج ٤ ، ص ٢٧٤ .

إستدل من كون الشيوخ المقيمين بها ، كانوا من الغرباء النازحين من البلاد الأخرى بأولادهم ، فإن هذا يعنى أن النساء ، كن يقمن فى هذه الخوانق مع أزواجهن[1] .

أما الربط ، فهى جمع رباط ، وهو دار يسكنها أهل طريق الله ، واصل كلمة رباط فى اللغة ، ما تربط فيه الخيول ، ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط ، ثم استقرت كلمة رباط ، للدلالة على بيت الصوفية ومنزلهم ، وفى رأى المقريزى ، أن اتخاذ الربط والزوايا أصل من السنة ، وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل ولا مال ، مكانًا من مسجد كانوا يقيمون به ، عرفوا بأهل الصفة ، ويلاحظ المقريزى أيضًا أن القوم فى الرباط ، سواء من المجاهدين والصوفية ، مرابطون متفقون على قصد واحد ، ومن هنا جاءت تسمية الرباط[2] ، ولقد شهد الرحالة ابن جبير ، الربط ببلاد الشام ، وأوضح أنها تكاد تتطابق فى غرضها ونظمها بالخوانق ، كما أوضح ابن جبير مدى رفاهية العيش التى يحظى بها الصوفية داخل هذه الرباطات ، والمكانة الاجتماعية المرموقة التى يتمتع بها أهل المتصوفة بحيث وصفهم بأنم « هم الملوك بهذه البلاد »[3] .

أما الزوايا ، فلم يقدم لها المقريزى تعريفًا دقيقًا وافيًا ، شأن بقية المنشآت التعليمية الخيرية ، التى أدخلها الأيوبيون مصر ، ولكن من الممكن جمع تعريف لها مما أورده المقريزى من تاريخ الزوايا الكثيرة ، التى ذكرها فى كتابه الخطط ، ويرجع أغلبها إلى العصر المماليكى ، فالزاوية مبنى صغير ، يسكنه شيخ من شيوخ الصوفية ، سواء أكان هو بانيه ، أو أن أحد السلاطين قد اعتقد فيه بعض الكرامات ، أو لمس فيه العلم والفقه ، وتبرك به ، فبنى له زاوية ، وأسكنه فيها ، وأوقف عليها بعض

---

(١) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١١٠ - ١١١ وأنظر بحث عن حياة الصوفية بالهند داخل الخوانق فى العصور الوسطى :

K.L.A. Nizami: Some Aspects of Khanqah life in Medival india, Studia Islamica, VIII, 8, 1957, p. 51-70.

(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٣) يقول ابن جبير : وأما الرباطات ، التى يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهى برسم الصوفية ، وهى قصور مزخرفة، يطرد فى جميعها الماء على أحسن منظر يبصر ، وهذه الطائفة الصوفية ، هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها ، وفرغ خواطرهم لعبادتهم من الفكرة فى أسباب المعايش ، وأسكنهم فى قصور تذكرهم قصور الجنان ، فالسعداء الموفقون منهم ، قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة . وهم على طريقة شريفة وسنة فى المعاشرة عجيبة وسيرتهم فى التزام رتب الخدمة غريبة ، وعوائدهم من الاجتماع للسماع المشوق جميلة ، وربما فارق منهم الدنيا فى تلك الحالات المنفعل المثابر رقة وتشوقًا . وبالجملة فاحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشًا طيبًا هنيئًا (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٦) .

الأوقاف للصرف عليها وعلى شيخها ، وكان المتصوف يداوم فى هذه الزاوية على تدريس علوم الفقه والحديث ، وأحيانًا كان يتردد عليه أعيان الدولة ، لتلقى العلوم الشرعية عنه ، وعادة ما كان المتصوف ، يسكن هذه الزاوية ويلازمها حتى وفاته ، وعادة أيضًا ما كان يدفن بها ، ويتبرك الناس به ويتوسلون إليه فى قضاء الحاجات ، ولكن فى العصر المماليكى ، أصبحت هذه الزاوية ، مسكنًا لطوائف معينة من الصوفية ، انتموا إلى طرق صوفية محددة ، وسكنوا بأعداد كبيرة ، وتميزوا بلبس زى صوفى مميز ، قريب بزى الأعاجم ، وما لبست هذه الطرق الصوفية ، التى تركت أسماءها على زوايا أن ابتدعت بدعًا مخالفة للشريعة ، فتهاونوا فى شئون العبادات والفرائض ، على أساس أن تشدّدهم فى صفاء العقيدة وجوهر الإيمان ، يسقط عنهم الفروض والعبادات الشرعية ، وتميزوا فى هيئاتهم بحلق لحاهم ، وخالفوا سلوك مسلك التقشف ، والزهد ، الذى عرف عن الصوفية ، مما أدى التى تحامل أهل السنة ، وخاصة الحنابلة عليهم ، وإنكار مذاهبهم وطرقهم وبدعهم[1] ، ولقد نبهنا تقى الدين السبكى ، أن أغلب الزوايا ، كانت فى البرارى[2] .

والخلاصة أن الزوايا ظهرت فى العصر الأيوبى ، كمنشأة تعليمية أيضًا ، ثم ما لبث فى العصر المماليكى ، أن تحولت إلى مراكز للطرق الصوفية ، التى أهملت التعليم ، بل أهملت الفرائض الشرعية ، وهم الذين عرفوا بعد ذلك « بالدراويش »[3] .

ولقد حدثنا تقى الدين السبكى ، عن نظم الصوفية ومجتمعاتهم داخل الخوانق والربط والزوايا، فأظهر إعجابه بالصوفية ، ودفاعه عنهم ، وفنّد آراء الأئمة المنكرين لمجتمعاتهم ، ولقد أوضح السبكى أن أحق الناس باسم الصوفية ، هم الذين يلتزمون بالعلم والزهد والتقشف بواعز من أنفسهم ، دون طمع فيما تجريه الدولة على الصوفية فى الخوانق من أطعمة ومرتبات ، فهو يقول: أعلم أن الصوفية أكثرهم لا يرضى بدخول الخوانق ، ولا التعلق بشىء من أسباب الدنيا[4] ، ولقد حدد السبكى ، مهام شيخ الخانقاه ، الذى كان يسمى بـ « شيخ الشيوخ » أو « شيخ شيوخ العارفين » ، ووصف له طرق تربية المريدين ، أو التدرج بهم فى شرح مراتب التصوف ، وعدم مصارحتهم لأول وهلة بأحوال الصوفية التى يصلون إليها بالمداومة على الصلاة والتلاوة والذكر ، بحيث يقتربون

(١) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ - ٣٠٦ .
(٢) السبكى : معيد النعم ، ص ١٢٦ .
(٣) أنظر بعده ..
(٤) السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١١٩ - ١٢٣ .

من الله ، ويصلون إلى أحوال السكر ثم الكشف ، وهي أحوال قد تنتهي بالمتصوف إلى رؤية الله سبحانه[1] .

كذلك تحدث السبكي ، عن فقراء الخوانق ونهى الناس القادرين على التكسب من منافسة الفقراء في سكنى الخوانق ، وجعل التصوف وظيفة يتمتع منها بإدرارات أوقاف الخوانق ، كما نبه السبكي على فقراء الصوفية ، عدم الاستكانة إلى البطالة ، واستمراء العيش الرغد السهل داخل الخوانق ، ونصحهم بضرورة ترك الخوانق والضرب في الأرض للبحث عن الرزق ، فدخول الخانقاه للفقير في رأيه ، لمجرد سد الرمق ، وليس للبقاء فيها إلى الأبد[2] .

وأيضًا حدد السبكي مهام خادم الخانقاه ، فألزمه بالحرص على توفير أوقاتهم للعبادة ، كما أمره بالاحتفاظ بفاضل أقواتهم ، ووضعه في مستحق من مسكين أوهره ونحو ذلك ، ونبه عليه بألا يرميه ، فليس من شيمة الصوفية طرح زاد ، كما ناشده بتميز وقفهم ، ومطالعة مباشرى الأوقاف بذلك[3] .

أما شيخ الزاوية ، فعليه تهيئة الطعام للواردين والمجتازين ، ومؤانستهم إذا قدموا ، بحيث تزول خجلة الغربة عنهم . وينصح بإفراد مكان للوارد إذا أمكن هذا ، لئلا يستحى وقت أكله وراحته[4] .

وعلى هذا النحو ، أصبح للصوفية بمصر ، نظام اعترفت به الدولة ، واحاطته بعنايتها كما كانت الدعوة الإسماعيلية في العصر الفاطمي ، فكان الصوفية يعيشون في الخوانق مما تدره عليهم الدولة ، الأمر الذى حدا بكثير من المصريين إلى اتخاذ طريق التصوف كوسيلة للحياة الدنيا ، بل منهم من اتخذ التصوف مذهبًا دينيًا له[5] . فمنذ العصر الأيوبي ، أمسى التصوف من الظواهر اللافتة في الحياة المصرية[6] .

وَوَشَتّ الألقاب الفخرية لسلاطين بنى أيوب ، بميلهم للتصوف ، وبغلبة الروح الصوفية على عصرهم ، فجاء نقش مؤرخ سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م ، بقبة الإمام الشافعي ، خاص بقبر والدة الملك

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٦ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٢٦ .
(٥) محمد كامل حسين : دراسات في الشعر الأيوبي ، ص ٦٥ – ٦٦ .
(٦) نفس المرجع ، ص ٥٠ .

الكامل محمد : « هذا قبر .. المرحومة الفقيرة إلى رحمة ربها ، والدة الفقير إلى رحمة به ، محمد ولد مولانا السلطان الملك العادل العالم العابد ، المجاهد المرابط .. إبى بكر بن أيوب»[١] ، وجاءت ألقاب الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فى قبته بتاريخ ٦٤٧هـ/١٢٤٩م . « هذه التربة المباركة بها ضريح مولانا السلطان الملك الصالح ، السيد العالم ، العادل ، المجاهد المرابط ، المثاغر .. » [٢] ، ولا يخفى أن حرص سلاطين بنى أيوب المتأخرين ، على أن يدفنوا فى قباب ، ويقام لهم أضرحة ، هو فى حد ذاته أثرًا من أثر سمو مكانة الصوفية فى أيامهم .

كذلك أفصحت النقوش الأيوبية ، عن مكانة الصوفية فى هذا العصر ، وما قاموا به من جهود فى سبيل محاربة المذهب الإسماعيلى ، ونشر علوم السنة . فلقد جاء على شاهد قبر الشيخ محمد الفارسى الصوفى بتاريخ ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م ، « هذا قبر الصدر الإمام ، الحبر الهمام ، شيخ مشايخ الإسلام ، سيد فضلاء الأنام ، إمام الموحدين ، سيد المحبين ، قدوة المحقيين والعارفين ، قطب الوقت ، سر الله فى أرضه ، فخر الحق والدين ، حجة الإسلام والمسلمين ، قامع المبتدعين ، شيخ الورى ، حجة الحق على الخلق ، الغريب ، أبى عبد الله محمد بن إبراهيم ابن أبى الفوارس .. الفارسى »[٣] .

وليس أدل على احتفاء سلاطين وملوك بنى أيوب ، بشيوخ وعلماء الصوفية ، من وصول أجازتان علميتان ، أجاز بهما الصوفى الأشهر ، محى الدين بن عربى[٤] لملوك بنى أيوب ببلاد الشام حين زارهم ونزل فى ضيافتهم بدمشق ، الأولى أجازة إلى السلطان الملك المظفر بهاء الدين غازى ،

---

(١) العماد : الفتح ، ص ١٤٥ ، والأدلة متعددة على ميل ملوك البيت الأيوبى إلى التصوف ، فقد حكى عن أحد أولاد الملك الكامل ، وهو الملك الأشرف موسى ، أنه أوصى أن يكفن بعد موته فى ثوب أحد الفقراء . (الحنبلى : شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب - خ ، ورقة ٢٥) ، كما حكى عن الملك المعظم سليمان بن الملك المظفر تقى الدين عمر ، وكان ملكًا على اليمن بين عامى ٦١١هـ - ٦١٢هـ ، أنه كان فقيرًا يحمل الركوه على كتفه ، ويتنقل معه الفقراء من مكان إلى مكان (الحنبلى : شفاء القلوب ، ق ١١١) .

(2) Wiet: Les Inscriptions du Mausolée de shafiei, B. I. E., Tome XV. 1932-1933, p. 175.

(3) Van Berchem: Materiau... p. 96-97, 105.

(٤) أنظر ترجمته عند ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ، الحميدى ، جذوة المقتبس ، ص ١٧٥ ، ابن حجر : لسان الميزان ، ج ٥ ، ص ٣١١ ، المقرى : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤٠٤ ، ابن الأبار: التكملة ، ١: ٣٥٦ ، أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٧٠ ، الصفدى : الوافى ، ج ٤ ، ص ١٧٣ - ١٧٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ٦: ٣٣٩ - ٢٤٠ ، الذهبى : ميزان الاعتدال ، ٣: ١٠٨ - ١٠٩ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ٥ : ١٩٠ - ٢٠٢ ؛ وهو محمد بن على بن العربى ، أبو بكر الحاتمى الطائفى الأندلسى ، المعروف بمحى الدين بن عربى ، الملقب بالشيخ الأكبر ، ولد بمرسية بالأندلس سنة ٥٦٠هـ وانتقل إلى أشبيليه وقام برحلة ، فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز . وأنكر عليه أهل الديار المصرية " شطحات " صدرت عنه ، فعمل بعضهم على إراقة دمه ، وحبس فسعى فى خلاصة بعض مريديه فنجا ، واستقر فى دمشق فتوفى فيها سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م .

ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب وأولاده ، ومؤرخه سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م[١] ، والثانية إلى الملك العادل أبى بكر ابن أيوب وأولاده ، ولمن أدرك حياته ، بأن يرووا عنه جميع ما رواه عن أشياخه وما ألفه وصنفه[٢] . ويبدو أن الأيوبيين ، وهم من جنس كردى [٣] ، قد شابهوا الأتراك فى ميلهم نحو التصوف[٤] ، إذ أشتهر بعض مشاهير فقهاء الأكراد ، بالميل إلى الزهد والتصوف على مذهب أهل السنة والجماعة[٥] .

ولعل فى هذه الحفاوة ، التى قوبل بها كبار الصوفية الوافدين على مصر ، من بلاد الأندلس ، مثل ابن عربى ، وبلاد فارس مثل ابن أبى الفوارس ، وما أغدقته الدولة الأيوبية على المنشآت الصوفية من رواتب وخدمات ، ما يفسر نشاط الصوفية فى مصر الأيوبية ، نشاطًا منقطع النظير ، لم تشهده البلاد من قبل ولن يتكرر مثيله بعد ذلك ، خاصة وأن كثيرًا من هؤلاء المتصوفة ، تفرد بأراء ، خلقت

---

(١) جاء فى أول هذه الإجازة : والحمد لله رب العالمين .. أقول وأنا محمد بن على العربى الحاتمى ، وهذا لفظى ، استخرت الله تعالى ، وأجزت السلطان الملك المظفر بهاء الدين غازى ابن الملك العادل أبى بكر وأولاده ، ولمن أدرك حياتى ، الرواية عنى فى جميع ما رويته عن أشياخى ، من قراءة وسماع ، ومناولة وكتابة وإجازة ، وجميع ما ألفته وصنفته من ضروب العلم .. وما لنا من نثر ونظم على الشرط المعتبر ، وتلفظت بالإجازة عند تقيدى هذا الخط ، وذلك فى غرة المحرم سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م ، بمحروسة دمشق .. ومن هذه الإجازة ثلاث نسخ خطية بدار الكتب المصرية ، برقم ٣٦٥ مصطلح ، ١٥٨ طلعت ، ١٩٩٤٥ ب ، وأنظر فؤاد سيد : فهرست المخطوطات ، المجلد الأول ، مصطلح الحديث ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م ، ص ١٢٣ ، ولقد أورد نص هذه الإجازة العياشى فى رحلته ، أنظر الرحلة العياشية ، ج ١ ، ص ٣٤٤ . وتوجد إجازة ثالثة لابن عربى للملك المعظم ، ضمن مجموعة خطية بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، برقم ٤٦٧٩ عام ورقة ١٥ – ٢٠ .

(٢) ونص الإجازة الثانية يكاد يتطابق مع نص هذه الإجازة ومنها نسخة ضمن مجموعة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٦٣٣ مجاميع طلعت ، أنظر فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المجلد الأول ، مصطلح ، ص ١٢٣ .

(٣) البدليسى : الشرفنامة الكردية ، ص ٥٦ .

(٤) أنظر حسين مجيب المصرى ، الأدب التركى ، مجموعة كتابك رقم ٨٢ ، طبع دار المعارف ، ١٩٧٨ ، ص ١١ ، ص ١٥ – ١٦ .

(٥) ذكر ابن تغرى بردى فى سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٣م ، وفاة على بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الحافظ الفقيه الهكارى وقال : كان ينعت بشيخ الإسلام .. ، كان إمامًا عالمًا ، سمع الحديث ورواه ، وبنى أربطة ، وقدم بغداد ، وكان صالحًا متعبدًا ، شيخ بلاده فى التصوف ، وكان من أهل السنة والجماعة ؛ ولقد أفاد ابن تغرى بردى أن الهكارية جبال فوق الموصل ، فيها قرى يسكنها الأكراد ، أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٣٨ ، ومع ذلك فإننا نرى فى رأى د. محمد كامل حسين فى أن اهتمام الأيوبيين والمماليك بحركة التصوف مصدره أن الجنس الآرى يميل إلى التصوف بعض المغالاة .

تيارات فلسفية شديدة ، لم يكن للتصوف بمصر الإسلامية عهدًا بها من قبل[1] ، مثل رأى ابن عربى في وحدة الوجود[2] ، وهو الرأى الذى قال به أغلب متصوفه مصر[3] .

كذلك شهد عصر بنى أيوب ، اشتهار بعض الصوفية المصريين المولد ، مثل ابن الفارض[4] ، الذى خلف شعرًا ، يفيض بالرقة والعذوبة ، ويجنح فى تصوفه ، إلى القول بمذهب

---

(١) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٦٦ .

(٢) يرى أصحاب هذا المذهب ، أن الوجود كلمة حقيقة واحدة ، وينظرون إلى الكثرة والتعدد على أنهما أمران ناجمان عن حواس الإنسان الظاهرة ، والعقل الإنسانى قاصر بطبيعته عن إدراك الوحدة الذاتية ، وقد عبر ابن عربى عن هذا المعنى بقوله :

يا خالق الأشياء فى نفسه ... أنت لما تخلقه جامع

تخلق ما ينتهى كونه ... فيك فأنت الضيق الواسع

أى أن ابن عربى لم يفرق بين الواحد والكثير ، وبين الخالق والمخلوق ، وأنه أدرك ذلك بذوقه لعجز حواسه عن إدراكه أنظر تعليق د. أبو العلا عفيفى على الترجمة العربية .

Encyclopedie de l'Islam II: 383-384.

لدائرة المعارف الإسلامية : عبد اللطيف حمزة : المرجع السابق ص ١٠١ ، لطفى جمعة ، تاريخ فلسفة الإسلام ، ص ٢٧٥-٣٠٣ ، عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ، ص ٢٧٥ - ٢٨٢ .

(٣) محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(٤) هو عمر بن على بن مرشد بن على الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار والوفاه ، أبو حفص وأبو القاسم شرف الدين ، ابن الفارضى ، عرف بأشعر المتصوفين ، وكان يلقب بسلطان العاشقين ، لقوله بمذهب الحب الإلهى ، قدم أبوه من حماه إلى مصر فسكنها ، ولما شب عمر اشتغل بفقه الشافعية ، وأخذ الحديث عن ابن عساكر ، وأخذ عنه الحافظ المنذرى وغيره . ثم حبب إليه سلوك طريق الصوفية ، فتزهد وجعل يأوى إلى المساجد المهجورة فى خرابات القرافة (بالقاهرة) وأطراف جبل المقطم . وذهب إلى مكة فى غير أشهر الحج ، فكان يصلى بالحرم ويكثر العُزلة فى واد بعيد عن مكة ، وفى تلك الحال نظم أكثر شعره . وعاد إلى مصر بعد خمسة عشر عامًا ، فأقام بقاعة الخطابة بالأزهر ، وقصده الناس بالزيارة ، حتى أن الملك الكامل كان ينزل لزيارته . وتوفى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م . أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٨٣ - ٤٨٤ (الطبعة القديمة) ، ابن حجر : لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ٣١٧ - ٣١٩ ، الذهبى : ميزان الاعتدال ، ٢: ٢٦٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ٢٨٨-٢٩٠ ، ابن العماد : شذرات الذهب ، ٥: ١٤٩ - ١٥٣ ، الخوانسارى : روضات الجنات ٥٠٥ - ٥٠٦ . وفى وجود ترجمة لابن الفارض عند الخوانسارى ما يفيد أن الشيعة كانت تعد ابن الفارض من المتشيعين لعلى ، وفى هذا ما يؤيد تأثر الصوفية المصريين بالمذاهب الشيعية ، ولقد وجد كامل حسين أبيات صريحة فى شعر ابن الفارض تؤكد تشيعة وهو يلاحظ أن ابن الفارض اعترف فى شعره فى صراحة تامة بالأئمة من نسل على بن أبى طالب وبالتأويل الباطن الذى خص به على .

« الحب الإلهى »[1] ، ولاشـك انه لـولا تشـجيع سـلاطين بنـى أيـوب للتصـوف ، لما قـدرت الأيـام لابن فارض ، أن يحقق هذه الشهرة والمكانة بين متصوفى عصره .

وفى رأى كل من محمد كامل حسين وأبو العـلاء عفيفـى ، أن ابـن عربـى قـد انتفـع فـى صياغـة مذهبه بمصطلحات الإسماعيلية الباطنية والقرامطة وإخـوان الصفـا[2] ، كمـا اتفقـت بعـض أراء محى الدين بن عربى مع أراء الإسماعيلية ، لكون مذهبه ، شأن مذهب الإسماعيلية ، يقوم على مزج الآراء والفلسفات القديمة[3] ، ولعل هذا التشـابه بـين مذهـب ابـن عربـى والمذهـب الإسـماعيلى من ناحيـة المصطلحات ، كان السبب فى أن ابن عربى ، كان أشد المتصوفة أثرًا فى صوفية مصر ، فقال أكـثرهم برأية فى وحدة الوجود[4] ، رغم الخلاف الشديد بين رأى ابن عربـى فـى وحـدة الوجـود ، وبـين رأى الإسماعيلية فى التوحيد[5] ، الذى يقوم على نفـى الصفـات والتشـبيه عـن اللـه ويؤكـد مغـايرة ذاتـه لذوات مخلوقاته .

ويتفرد عبد اللطيف حمزة ، برأى وصفه بأنه لا يستند إلى نصوص علمية صريحة ، وإنمـا يستمده من المذاهب الصوفية التى انتشرت فى مصر فى العصر الأيوبى ، وهو أن التصوف كان يمثـل فـى هـذا العصر ، نوعًا من السُمُوّ الروحى والعقلى ، فوق جميع العصبيات الدينية المختلفة التى ولدتها الحروب الصليبية ، وتجل هذا الاتجاه ، فى مذهب المعرفة ـ أى معرفة الله عن طريق القلب لا الحواس ـ ومذهب وحدة الوجود ، وكلها مذاهب تصرح بأنه لا فرق بين دين ودين ، لأن الله تعالى عام للجميع .

---

(١) الحب الإلهى : يعنى الفناء والاتحاد فى الذات الإلهية عن طريق المبالغـة فـى تهذيـب النفـس ومفارقـة اللـذات والتدرج فى مصافاة النفس ، حتى يصفوا الطبع عن البشرية ؛ ولقـد تـأثر ابـن الفـارض فـى رأيـه فـى "الحب الإلهى" برأى ابن عربى فى وحدة الوجود ، ولقد أورد ابـن حجـر لابـن الفـارض أبيـات صَـرّح فيهـا بمذهـب الاتحاد وهى :

وفى موقفى لابل إلىّ توجهـى ولكن صلاتى لى ومنى كعبتى

وعن مذهب الحب الإلهى ، أنظر محمد مصطفى حلمى : ابن الفارض والحب الإلهى ، (ابن حجر : لسان الميزان ، ج ٤ ، ص ٣١٨) طبع القاهرة د.ت. ، عبد الرحمن بدوى : شهيدة العشق الإلهى ، رابعة العدوية ، طبـع القـاهرة مكتبـة النهضـة المصريـة د.ت. وعـن آراء ابـن الفـارض الفلسـفية الأخـرى ، أنظـر أحمـد فـؤاد الإهوانى : مجلة الكتاب ، ج٨ ، ص ١٠٤ – ١٠٥ .

(٢) محمد كامل حسين : المرجع السابق ص ٦٦ ، أبو العلا عفيفى : فصوص الحكم ، ١ : ٧ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٦٦ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٧ .

(٥) عبد اللطيف حمزة : نفس المرجع ، ص ٩٥ ، وص ٩٩ .

والطريف أنه قد واكب انتشار هـذه المذاهـب الصوفيـة الفلسفية فـي مصـر : انتشار مذاهـب صوفية أخرى ، لا تقوم على فكر فلسفي ، ولا يتمتـع شيوخها بقـدر مـن العلـم الشرعى ، بـل لعـل بضاعتهم العلمية كانت أقرب إلى فكر العوام ومعارفهم منها إلى فكر العلماء وثقافتهم ، وأعنى بهؤلاء مشايخ الطرق الصوفية مثل الأحمدية المنسوبة للسيد أحمد البدوى[1] والشاذلية المنسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى[2] .

كما اشتهر بالتصـوف أيضًا فى هذا العصر بعض الفقـهاء ، مثل عبـد الرحـيم القـنائى[3] ،

---

(١) هو أحمد بن على بن إبراهيم الحسينى أبو العباس البـدوى ، المتصـوف صـاحب الشـهرة فـى الديـار المصرية ، أصله من المغرب ، ولد بفاس سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م ، وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة ، وزار سورية والعراق سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م ، ودخل مصر فى أيام الملك الظاهر بيبرس ، فخرج لاستقباله هـو وعسكره وأنزلـه فى دار ضيافته ، وعظم شأنه فى ديار مصر ، فانتسب إلى طريقته جمهور كبير ، بينهـم الملك الظـاهر ، وتوفى فى طنطا سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م . حيث تقام فى كل عام سوق عظيمة يفد إليها الناس مـن جميـع أنحاء القطر المصرى احتفاءًا بمولده ، أنظر ترجمتـه عنـد ابـن العمـاد : شـذرات الذهـب ، ٥: ٣٤٥، الشعرانى : طبقـات الصوفية ، ١: ١٥٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ٧: ٢٥٢ ، وهو فيه أبو الفتيان ، ويعرف بأبى اللثامين السطوحى ، لأنه مكث على السطوح مدة ١٢ سنة ، وأنظر K. Vollers دائرة المعارف الإسـلامية ، الترجمة العربيـة ، ج ١ ص ٤٦٥ – ٤٧٢ ، وأنظر إبراهيـم أحمـد نـور الديـن : حيـاة السـيد البـدوى ، طبـع مصـر ١٩٥٨، سعيد عاشور : السيد أحمد البدوى ، طبع القاهرة ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧ .

(٢) هو على بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمـز الشـاذلى العربـى ، أبـو الحسـن رأس الطائفـة الشـاذلية ، ولد فى غمازة ، من قرى أفريقية سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م ، وتفقه وتصوف بتونـس ، وسـكن شـاذلة ، فنسـب إليها ، وطلب الكيمياء فى ابتداء أمره ، ثم تركها ورحل إلى بلاد المشرق ، فحج ودخـل العراق ، ثـم سـكن الإسكندرية . وتوفى بصحراء عيذاب فـى طريقـه إلى الحـج . وكـان ضريرًا ينتسـب إلى الا دارسـه أصحـاب المغرب أخبره بذلك أحد شيوخه عن طريق المكاشفة ، وقد أنكر ذلـك الحـافظ الذهبـى قـائلاً : نسـب مجهـول لا يصح ولا يثبت ، كان أولى به تركـه . أنظـر ترجمته عنـد الصفـدى : نكـت الهميـان فـى نكـت العميـان ، ص ٢١٣ ، الشعرانى : طبقات الصوفية ، ٢: ٤ ، الزبيدى : تاج العـروس ، ٧: ٣٨٨ ، وأنظـر علـى سـالم عمار : أبو الحسـن الشـاذلى ، والواقـع أن كـل مـن الطائفـة الأحمدية والشـاذلية قـد تأثرتـا بالطائفـة الرفاعية التى ظهرت بـالعراق والسـيد أحمـد البـدوى نفسـه زار العـراق واحتـك بالرفاعيـة ، أنظـر عـن ترجمـة القطـب الرفاعى ، سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٧٠ .

(٣) هو عبد الرحيم بن أحمد بن حجون بن محمد القنائى ، مغربى الأصل ، ينتهى نسبه إلى الإمام جعفـر الصـادق ، مولده فى إحدى قرى سبته سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م ، أقام بمكـة سـبع سـنين ، واسـتقر فـى قنـا بصعيـد مصـر الأعلى ، وقبره فيها . أنظر ترجمته عند الأدفوى : الطالع السعيد ، ص ١٥٦– ١٦٦ ، على مبـارك : الخطـط التوفيقية ، ج ١٤ : ١٢٢ . والملاحظ أن كل من السيد البدوى وأبو الحسن الشـاذلى وعبـد الرحيـم القنـائى ينتسبون إلى الأشراف العلويين . وأن ثلاثتهم قد وفدوا إلى مصر من بلاد المغرب .

وأبى الحسن ابن الصباغ[1] ، فلا ريب أن خلفت هذه الاتجاهات الصوفية المختلفة المشارب والاتجاهات ، أثرا ملحوظًا فى الحياة الأدبية والعقلية فى العصر الأيوبى[2] .

ولكن مع كل هذا الاهتمام الذى أبداه الأيوبيون فى تشجيع التصوف ، ورعاية الصوفية ، وإنشاء المؤسسات الخاصة بهم التى تشرف عليها الدولة . وتخصص لها من الأوقاف ، ما يكفل لها الاستمرار والبقاء ، ويحقق للصوفية الحياة الرغدة الكريمة ، ومع ما قوبل به مشاهير الصوفية الوافدين على مصر والشام فى ذلك العصر بالحفاوة والترحاب ، ومع ما حظى به الصوفية من مكانه مرموقة لدى ملوك وسلاطين بنى أيوب ، فإننا على العكس نجد السلطات الأيوبية ، تُبادل بعض فرق الصوفية العداء السافر ، وتسعى فى إبادة اتباعها والتمثيل برؤسائها .

وينسحب هذا الموقف العدائى للإيوبيين ، تجاه بعض الصوفية ، على الفرقة الكيزانية[3] ،

---

(١) هو على بن حميد بن إسماعيل بن يوسف، أبو الحسن بن الصباغ القوصى ، توفى بعد سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، وصفه الأدفوى بشيخ الدهر بلا منازع ، صاحب المعارف والعوارف والكرامات المشهورة . أنظر ترجمته عند الأدفوى : الطالع السعيد ، طبع الهند ١٩٦٦ ص ٣٨٣ - ٣٨٧ ، الذهبى : دول الإسلام ، ٢: ٨٧ ، اليافعى : مرآة الجنان ٤: ٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٥: ٥٢ ، وأنظر على صافى حسين : الأدب الصوفى فى مصر ، ابن الصباغ القوصى ، شيخ التصوف المصرى فى القرن السابع الهجرى ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١ .

(٢) محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٦٨ - ٨٥ ، عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١٢٠ - ١٤٦ .

(٣) هى تنسب إلى محمد بن إبراهيم بن ثابت بن فرج الكنانى المقرىء الأديب الشافعى المصرى ، المعروف بابن الكيزانى ، واعظ وشاعر مصرى ، كان معتزليًا ومع ذلك فقد كان يقول بمذهب التشبيه على عكس المعتزلة ، كما كان يقول أن أقوال العباد قديمة . توفى بالقاهرة سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م . قال ابن خلكان : دفن بالقرب من قبة الإمام الشافعى ، بالقرافة الصغرى، ثم نقل إلى سفح المقطم ، وقبرة مشهور هناك يزار ، وزرته مرارًا . وقال العماد الأصفهانى : فقيه واعظ .. عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع .. وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ، إلا أنه مبتدع مقالة ضل بها اعتقاده .. وادعى أن أفعال العباد قديمة ، والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة ، .. توفى بمصر سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م ، والكيزانية بمصر فرقة منسوبة إليه ويدعون قدم الأفعال وهم أشباه الكرامية بخراسان . وقال ابن سعيد المغربى : كان من عباد الفسطاط الملازمين للقرافة وجبل المقطم ، وكان مذهبه الاعتزال . وقال القفطى : رأيت فى بعض المجاميع أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، لقى ابن الكيزانى بمصر لما طلع فى نصرتها ، وقبل أن يلى على مملكتها ، واستكتبه جزءًا من شعره ، وفى نص القفطى ، الذى أورده أيضًا العماد الأصفهانى ، ما يفيد محاولة صلاح الدين ، قبل توليه الوزارة استمالة ابن الكيزانى ، الذى كان شيخًا لأكبر طريقة صوفية فى مصر ، تحظى بعطف الخلفاء الفاطميين ، أنظر عن ترجمة ابن الكيزانى : العماد الأصفهانى : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، ج ٢ ، ص ١٨ - ٤٠ ، وهى ترجمة مطولة فيها مختارات كثيرة من شعره ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ، طبع بيروت ، ج ٤ ، ص ٤٦١ - ٤٦٢ ، ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، السفر الرابع ، نشر تلكوست ص ٩٣ ، القفطى : المحمودون من الشعراء ، تحقيق حمد الجاسر ، ص ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ج ٨: ٢٥٤ - ٢٥٥ ، الصفدى : الوافى ، ٢: ٢٤٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٦: ٩٥ ، الذهبى : العبر ٤: ٢٣٨ ، السبكى : طبقات الشافعية ، ٤: ٧٥ ، ابن العماد : الشذرات، ٤: ٢٦٦ ، وأنظر على صافى حسين : ابن الكيزانى ، طبع دار المعارف .

إذ عملت السلطات الأيوبية بتحريض من الفقيه السنى الشافعى المتعصب الخبوشانى على قتل اتباع هذه الطائفة ، وإخراج رفات ابن كيزان ، رئيس طريقتهم والتمثيل بها[1] ، وأغلب الظن أن تفسير هذا المسلك العنيف مرده إلى ميل هذه الفرقة للمذهب الإسماعيلى ، والدعوة الإسماعيلية ، خاصة وأنها نعمت بعطف خلفاء الفاطميين المتأخرين[2] ، شأنهم شأن الكرامية ، وهم أيضًا من صوفية الشام ، قالوا بمقالة قريبة الشبه من مقالة الكيزانية ، بخصوص القول بالتجسيم بالنسبة للذات الإلهية وحظوا بعطف الفاطميين ثم الأيوبيين[3] .

وأغلب الظن أن مقتل السهرودى[4] ، الفيلسوف المتصوف على أيدى الأيوبيين[5] ، أيضًا ، وهو صاحب الفلسفية الإشراقية[6] ، كان بسبب تشيعه أيضًا وتعاطفه مع الدعوة الإسماعيلية[7] .

---

(١) قال سبط ابن الجوزى فى ترجمة الخبوشانى : كان يلقب بالنجم بالديار المصرية ، وأظهر الناموس ، ونفق على السلطان (صلاح الدين) وأهله ، وأعطاه السلطان مالاً فبنى به المدرسة التى إلى جانب الشافعى ، وكان كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات ، ومازالت الفتن قائمة بينه وبين الحنابلة وابن الصابونى وزين الدين بن نجيه ، يكفروه ويكفرهم ، وكان طائشًا مهمومًا ، نبش ابن الكيزانى ، وأخرج عظامه من عند الشافعى .. وكانت وفاته فى صفر (٥٨٧هـ / ١١٩١م) وسكنت واصطلح الناس .. وولى بعده تدريس مدرسة الشافعية ، شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمويه . (سبط ابن الجوزى : مرآة ج ٨: ٤١٤ - ٤١٥) . وواضح من ترجمة سبط إبن الجوزى للخبوشانى ، أنه متحامل عليه لعداوته للحنابلة لأنه من مشاهير الحنابلة بل كان جده أبو الفرج ابن الجوزى من كبار مشايخهم ؛ وواضح أن عداء الخبوشانى للحنابلة بمصر وللكيزانية ، مرجعه إنه - كما تقدم نقلاً عن نقش قبره - من أنصار العقيدة الأشعرية ، ومن ثم فهو يعادى من يقول بالتشبيه مثل الحنابلة والكيزانية ؛ والجدير بالالتفات أن سبط إبن الجوزى قد أثنى على زهد ابن الكيزانى ومدح شعره عندما ترجم له أنظر ، مرآة ، ج ٨: ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) أنظر محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر ، ص ٥٩ - ٦٣ وهو يفيد أن ابن الكيزانى كان أول من أظهر من الشعراء والصوفية المصرية مذهب الحب الإلهى ، ونحن لا نستبعد أن يكون ابن الفارض من تلامذة ابن الكيزانى أو من أتباع فرقته ، لأنه كان - كما أسلفنا اعتمادًا على ترجمته عند الخوانسارى فى روضات الجنات - شيعيًا ، كما أنه قال بمذهب ابن الكيزانى فى الحب الإلهى .

(٣) صرح العماد الأصفهانى بأن الكيزانية هم أشباه الكرامية بخراسان (الخريدة ٢: ١٩) وقد أفاد المقدسى أن الكرامية قد حظوا بعطف الفاطميين بالشام ، أنظر أحسن التقاسم ، ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وعن تسامح صلاح الدين مع الكرامية بالشام ، أنظر محمد زاهد الكوثرى : مقدمة كتاب تبين كذب المفترى ، فيما نسب للإمام أبى الحسن الأشعرى ، لابن عساكر ، ص ١٦ . وأنظر قبله .

(٤) هو يحى بن حبش بن أميرك ، أبو الفتوح ، شهاب الدين السهروردى . ولد بسهرورد بعراق العجم ، سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م ، وسافر إلى حلب ، فنسب إلى فساد العقيدة ، فأفتى العلماء بإباحة دمه ، فسجنه الملك الظاهر غازى ، وخنقه فى سجنه بقلعة حلب ؛ أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٢: ٣٤٥ - ٣٤٨ (الطبعة القديمة) ، ياقوت : معجم الأدباء ، ١٩ : ٣١٤ - ٣٢٠ ، ابن حجر : لسان الميزان ، ٣: ١٥٦ - ١٥٨ ، الصفدى : الوافى ، ٢: ٣١٨ - ٣٢٣ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، ٦: ١١٤ - ١١٥ ، ابن العماد : شذرات ، ٤: ٢٩٠ - ٢٩٢ .

(٥) ابن شداد : النوادر ، ص ١٠ ، س ٣ - ٧ وأنظر قبله .

(٦) مصطفى حلمى : من أين استقى السهرورى فلسفته الإشراقية ، حولية كلية الأداب ، جامعة القاهرة .

(٧) أنظر قبله ؛ والذى نلاحظه هنا أن الشهروردى ، قد نشأ فى عراق العجم وهو موطن قديم للشيعة ، كما استقر عند مجيئه إلى الشام فى حلب ، وهى أقوى معاقل الشيعة بالشام ، أنظر قبله .

ولقد أدرك بعض المتخصصين في التصوف[1] ، أن دعاة الإسماعيلية ، قد استغلوا بعض مشايخ الطرق الصوفية الذين عرفوا بالدراويش ، لمحاولة نشر التشيع في مصر مرة أخرى ، وإعادة الدولة الفاطمية ، وكان أشهر هؤلاء الدعاة ، الصوفي الشهير السيد أحمد البدوى ، الذى يظن أنه صاحب المقام الشهير بمدينة طنطا ؛ ولا شك أن السلطات الأيوبية ، لم تكن غافلة عن هذه المحاولات الخفية ، التى عمد الإسماعيلية عن طريقها ؛ إلى استغلال حركة التصوف لإعادة نشر الدعوة الإسماعيلية بمصر .

وهذا أمر غير مستبعد في الواقع ، لأن المصريين في العصر الفاطمي ، كانوا يهرعون إلى دعاة الإسماعيلية ، ويستغيثون بالأئمة عندما تحل بهم نوائب الدهر ، اعتقادًا منهم بأن الأئمة ملاذ كل مستغيث ، كما تأمرهم العقيدة الإسماعيلية ، ولكن في العصر الأيوبي والمماليكي ، لم يجد المصريون هذا الملاذ ، فاتجهوا إلى شيوخ الطرق الصوفية[2] .

ومن هنا يتضح ، كيف حاول الأيوبيون ، استغلال التصوف ، في نشر علوم السنة ومحاربة المذهب الإسماعيلي ، في نفس الوقت ، الذى حاول فيه دعاة الإسماعيلية بث الدعاة في مسوح الصوفية والدراويش ، لإعادة نشر الدعوة الإسماعيلية بمصر ، وإن كان النصر جاء في صالح العقيدة السنية ، بحيث أنزوت العقيدة الإسماعيلية وتلاشت تدريجيًا من مصر .

أيًا كان الأمر . فلقد كان لحركة التصوف التى عاشتها مصر في العصر الأيوبي والمماليكي ، وجهان ، وجه إيجابي تمثل في نشر علوم السنة ، والنهوض بالطبقات الفقيرة ، ونشر الحماس الديني للجهاد بين الناس ، وإثراء الحركة الفكرية والأدبية في هذين العصرين ، إلى جانب بث المثل الأخلاقية الإسلامية بين الناس[3] . ووجه سلبي تمخض عن استقواء النفوذ السياسي والاجتماعي للطرق الصوفية والدراويش ، الأمر الذى أدى إلى تدهور المجتمع المصرى في نهاية العصر المماليكي[4] ، وإبان العصر العثماني[5] . والواقع أن سلبيات التصوف ، وتردى الصوفية في مذاهب العوام ، وجهل

---

(١) راجع محمد فهمي عبد اللطيف : السيد أحمد البدوى أو دولة الدراويش ، القاهرة ١٩٥٨م .

(٢) محمد كامل حسين: دراسات في الشعر، ص ٦٥ . وفي رأينا أن ظهور علم المعاملات والحقائق عند الصوفية، كان رد فعل للمذاهب الباطنية في الفكر الإسماعيلي ، أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٣) عن دور التصوف في الأدب والأخلاق ، في التراث الإسلامي ، وإثر ذلك في المجتمع الإسلامي ، راجع زكي مبارك : التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، ج ١ - ٢ طبع المكتبة العصرية ببيروت ، د.ت. والواقع أن كثيرًا من الصوفية في العصر الأيوبي والمماليكي الأول كانوا يصاحبون الجيوش الإسلامية ويشتركون في الجهاد ، أنظر قبله وليس أدل على ارتباط التصوف بالجهاد في ذلك العصر ، مما ذكره سبط في ترجمة الخليفة الموحدى يوسف بن عبد المؤمن ، الذى تصدى لحركة الاسترداد المسيحي بالمغرب والأندلس إذ وصفه بأنه كان لابسًا للصوف ، مجاهدًا في سبيل الله ، سبط : مرآة ج ٨ ، ص ٣٧٤ .

(٤) أنظر سعيد عاشور : المجتمع المصرى في عصر سلاطين المماليك .

(٥) توفيق الطويل : التصوف في العصر العثماني .

بعضهم بعلوم الدين ، وركونهم إلى البطالة والتواكل ، ظاهرة اجتماعية ظهرت على استحياء فى العصر الأيوبى ، وإن قابلها الفقهاء والأدباء بالنقد اللاذع[1] .

رصد الأحباس والأوقاف للمنشآت الخيرية والتعليمية :

واقترن بنشر الأيوبيين للمنشآت التعليمية والخيرية السنية بمصر ، كثرة وقف الأوقاف والأحباس على هذه المنشآت التعليمية والخيرية السنية بمصر ، سواء من قبل الحكومة[2] ، أو من قبل الأفراد ، مثل كبار الأمراء والموظفين ، أو من التجار وغيرهم من أغنياء الشعب المصرى[3] ، بحيث أصبح الوقف ظاهرة تسترعى النظر فى العصر الأيوبى[4] .

---

(١) شايع سبط : وهو فقيه حنبلى ، جده أبو الفرج ابن الجوزى ، فى حملته الشعواء على الصوفية ، كما أظهرها فى تاريخه المسمى المنتظم . إذ عمد سبط على وصفه الصوفية بأنهم أصحاب طريقة ، وأنهم " يدعون المعرفة " و " المكاشفة " و " علوم الباطن " وأنهم عارون من علوم الشريعة ، أنظر : مرآة الزمان ، ٨: ٧ ، ٤٩، ٩٥، ١٣٨ ، وإن عمد أحياناً إلى تفنيد اتهامات جدة التى اشتط فى توجيهها للصوفية ، أنظر مرآة ، ٨ : ١٣٩ ، أما الأديب الساخر ركن الدين الوهرانى ، فهو فى الواقع من أول النقاد الاجتماعيين الذين أدركوا خطورة ظاهرة " الدروشة والدراويش " فى تدهور المجتمعات وتواكلها واستسلامها للبطالة والأوهام فكتب فى مقاماته يسخر من عوام الصوفية متخيلاً رؤية رآها فى منامه ، جمعت النبى صلى الله عليه وسلم بهم ، فيقول الوهرانى : فلما انتهى " النبى صلى الله عليه وسلم " إلى شاطىء المشرعة ، وقف عندها فتقدمت إليه الصوفية من كل مكان وعلى أيديهم الأمشاط وأخله الأسنان ، وقدموها بين يديه ، فقال صلى الله عليه وسلم من هؤلاء فقيل له : هؤلاء قوم من أمتك غلب العجز والكسل على طباعهم فتركوا المعايش وانقطعوا إلى المساجد ، يأكلون وينامون فقال : فبماذا ينفعون الناس أو يعينون بنى أدم ، فقيل له : والله ولا بشىء البته فساق ولم يلتفت إليه (المقامات والمنامات ص ٤٨ – ٤٩) وفى مقامة أخرى يوجه الوهرانى حديثه اللاذع، لشيخ من شيوخ الصوفية لقيه فى القرافة . البس مرقعتك الملونة وعباتك الصوف ، واركب حمارك القصير ، وشق أسواق مصر والقاهرة واخدع الناس بلطف سلامك وكلامك وغرهم بسالوسك (السالوس ثوب من الكتاب يلبسه الصوفية) وناموسك وعلمهم بلطف اختيالك كيف يكون النصب والمحال (الوهرانى : المنامات ص ٨٨) .

(٢) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، وأنظر نسخة توقيع من العصر الأيوبى بتدريس مدرسة والنظر عليها ، والتحدث على أوقافها وسائر متعلقاتها عند القلقشندى : صبح ج ١١: ٣٤ – ٣٧ ، ولقد نص المقريزى على أنه وقف بنفسه على حجة وقف المدرسة السيوفية التى أوقفها صلاح الدين ونقل شروط الوقفية ؛ الخطط ، ٤ : ١٩٦ . كما أورد أيضًا شروط حجة وقف الخانقاه الصلاحية ، الخطط ج ٤ ، ص ٢٧٥ وفى سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م حبس الملك العزيز ناحية الخربة من المنوفية على زاوية الإمام الشافعى بالجامع العتيق بمصر ، وفوض تدريسها إلى البهاء ابن الحميرى ، (المقريزى : السلوك ، ١: ١٢١) .

(٣) نفس المصدر : ج ٤، ص ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ .. إلخ . ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ١٣٥، ص ٥ – ٧ .

(٤) محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، ص ٦٣ .

والجدير بالالتفات ، أنه منذ العصر الفاطمي ، أفردت الأوقاف بديوان مستقل ، لأول مرة في تاريخ مصر الإسلامية كما لاحظ المقريزى ، واسندت مهمة الإشراف على هذا الديوان إلى قاضي القضاه الفاطمي[1] ، في حين ظلت الأوقاف بمصر ، منذ الفتح الإسلامي ، وحتى عهد الفاطميين ، في أيدى المستحقين أو نظار الوقف ، حسب شروط الواقف[2] ، دون أى تدخل أو إشراف من الدولة ، رغم كثرة هذه الأوقاف ، ولما زالت الدولة الفاطمية ، واستقرت دولة بنى أيوب ، أضيفت الإحباس أيضًا إلى القاضي[3] ، وذلك حين أضافها صلاح الدين إلى قاضية ابن درباس سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[4] ، وحين صرف ابن درباس عن القضاء ، ثم أعيد إليه في سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م ، استمرت الأحباس ضمن ولايته بالإضافة إلى الخطابة والحسبة ودار الضرب[5]، كذلك أسند الأيوبيون بالشام نظر الأحباس إلى قاضي قضاة الشام[6] .

وفي رأينا أن إفراد الأوقاف بديوان ، وجعلها تحت إشراف الدولة ، وإدخالها في جملة ولاية قاضي القضاة في العصرين الفاطمي والأيوبي ، يشير إلى أن كلتا هاتين الدولتين ، اللتين قامتا على أساس مذهبي ، قد استخدمتا الأوقاف كوسيلة لاجتذاب المصريين إلى مذهب الدولة ، وذلك لأن قاضي القضاة ، كان في العصر الفاطمي المشرف الأعلى على الدعوة الإسماعيلية بمصر[7] ، ثم أصبح في العصر الأيوبي ، المشرف الأعلى على المدارس السنية بمصر ، التي حلت محل الدعوة الإسماعيلية[8] ، بمعنى أن الدولة الفاطمية ، قد استخدمت الأوقاف لاجتذاب المصريين للدعوة الإسماعيلية ، في حين استخدمة الدولة الأيوبية الأوقاف لاجتذابهم للدعوة السنية .

---

(١) المقريزى : الخطط : ج ٤ ، ص ٨٣ .

(٢) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ص ٤٨ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٨٤ ، س ٢٢ - ٢٣ .

(٤) ابن حجر : رفع الأصر ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ، س ٩ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ، س ١٥ .

(٦) أنظر ابن شداد : ملجأ الحكام عند التباس الأحكام مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٦ فقه شافعي م ، البابين قبل الأخيرين من الكتاب ، المتعلقين بـ " الأوقاف " و " أموال الأيتام " المحفوظة وثائقها في مجلس القاضي . وقد ذكر المقريزى في حوادث سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م أنه وصل إلى (الملك العزيز عثمان) القاضي محى الدين أبو حامد محمد بن الشيخ شرف الدين عبد الله بن هبة الله بن أبي عصرون ، فاحترمه ، وولاه قضاء الديار المصرية ، وضم إليه نظر الأوقاف ، المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ١١٨) .

(٧) ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ١٤٠ وما بعدها .

(٨) أنظر السيوطي : حسن المحاضرة ، خ ٢ ، ص ١٥٤ - ١٥٩ ، سجل تقليد القاضي ابن بندار .

ويؤيد ما ذهبنا إليه ، ما ذكره المقريزى ، أنه منذ العصر الفاطمى ، أصبح من مهمة قاضى القضاة تفقد أحوال المساجد والجوامع قبيل شهر رمضان ، للتأكد من سلامة مرافقها ، وحسن رعاية القائمين عليها لها ، وقيامهم بواجباتهم فى خدمة المساجد ووعظ المترددين عليها ، وإقامة شعائر الصلاوات خير قيام[1] ، ولا شك أن هذا الأمر ينسحب أيضًا على العصر الأيوبى ، إذ كانت المساجد فى جميع أرجاء القطر المصرى ، تابعة لديوان الإحباس ، مسجلة فى سجلاته ، حيث قام النابلسى بحصر أسماء جميع مساجد وجوامع بلاد الفيوم ، اعتمادًا على سجلات ديوان الأحباس ، وذلك لأنه أراد التمييز بين المساجد التى تقام بها صلاة الجمع ، من المساجد القاصرة على الصلاوات الخمس ، وأيضًا لتميز المساجد العامرة مقامة الشعائر ، من المساجد التى تسرب إليها الإهمال ، فهدمت وتعطلت منها الشعائر[2] ، وهذا ما تقوم به وزارة الأوقاف بمصر ، فى يومنا هذا .

كذلك فإن فى إفراد الأحباس بديوان مستقل ، وجعله تحت إشراف قاضى القضاه ، تفسيرًا لما لاحظه الباحثون ، من أن الأوقاف أصبحت تمثل موردًا من موارد الدولة فى العصرين الفاطمى والأيوبى[3] ، خاصة وأن هذه الملاحظة ، قد استوقفت من قبل الرحالة الأندلسى ابن جبير[4] ، وقدم لنا أبى مماتى[5] والنابلسى[6] ، تفاصيلاً وافية بصددها .

وترجع الأصول الأولى لارتباط الأوقاف بالمنشآت التعليمية والخيرية ، التى أقيمت لنشر علوم السنة ، إلى علماء ودعاة المذهب الأشعرى ، الذىأنشأوا الكثير من هذه المنشآت السنية ، وخاصة فى بلاد العراق ، وبلاد أفغانستان (غزنة) وإيران (نيسابور وخراسان) إبان العصرين الغزنوى والسلجوقى ، وأوقفوا عليها أوقافًا من أموالهم الخاصة ، وكانت هذه المنشآت الأهلية ، بجوار منازلهم ، بحيث كان هؤلاء العلماء مثل أبو بكر بن فورك ، وأبى حامد الغزالى ، يجلسون فيها

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٨٤ .

(٢) النابلسى : إظهار صنعة الحى القيوم : ص ٢٠ - ٢٢ .

(٣) حسنين ربيع : النظم المالية ، ص ، محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ٥٢ .

(٤) يقول ابن جبير عن ثغر الإسكندرية : وأما أهل بلدة ، ففى نهاية من الترفيه واتساع الأحوال ، لا يلزمهم وظيفة البتة ، ولا فائدة للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسة المعينة من قبل لهذه الوجوه ، وجزية اليهود والنصارى ، وما يطرأ من زكاة العين خاصة ، وليس له منها سوى ثلاثة ألمانها والخمسة أثمان مضافة للوجوه المذكورة (ابن جبير : الرحلة ، ص ١٦) .

(٥) أنظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ ، ص ٣٥٦ هامش "٢" ففيه زيادة قيمة جدًا عن إحدى النسخ المخطوطة فى تعريف نظام الإحباس فى العصر الأيوبى .

(٦) النابلسى : إظهار صنعة الحى القيوم ، ص ٢٥ ، النابلسى : لمع ، ص ٢٥ ، حيث يقول أن ديوان الإحباس يدخل فى ديوان المال وأحد فروعه .

بأنفسهم لتدريس علوم السنة ، والوعظ الصوفي على المذهب الأشعرى[1] . وكان الوزير السلجوقى نظام الملك - وهو أيضًا أشعرى المذهب[2] ، هو أول من جعل من نظام الوقف[3] ، نظامًا حكوميًا ، تصرف منه الحكومات السنية ، على المنشآت التعليمية والخيرية ، التى تدرس علوم السنة .

ولقد تبلور نظام الوقف ، كنظام حكومي ، تشرف عليه الحكومات السنية ، وتصرف من ريعه على رعاية المنشآت التعليمية والخيرية ، وإصلاح ما تطرق إليه الخلل من مبانيها ، إلى جانب ترتيب المرتبات والجرايات على الأساتذة والطلبة بالمدارس ، وعلى الخطباء والمقرئين والمؤذنين والقومة ، بالمساجد والمشاهد ، فى العصرين السلجوقى[4] والزنكى[5] واغلب الظن أن الأوقاف الحكومية ، كانت تمثل موردًا هامًا من موارد الدولة ، فى هاتين الدولتين ، وخاصة وأن ثمة نصوص من العصر الزنكى ، تؤيد هذا الترجيح[6] .

وهنا يستوقفنا أن الأيوبيين ، كانوا هم أول من أنشأوا ديوان للزكاة فى تاريخ مصر الإسلامية[7] ، على أساس أن تتولى الدولة جباية الزكاة ممن تجب عليهم أداءها ، لتوفر الشروط

(١) أنظر ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢٠٨ ، ٢١٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٨٠ ، ٢٩٢ .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٠٠ ، ١٠٩ حيث يقول ص ١٠٨ - ١٠٩ سُبَّ حزب الشيخ أبى الحسن الأشعرى فى دولة السلطان طغرلبك ووزارة أبى نصر منصور بن محمد الكندرى ، وكان السلطان حنفيًا سنيًا ، وكان وزيره معتزليًا رافضيًا ، فلما أمر السلطان بلعن المبتدعة على المنابر فى الجمع ، قرن الكندرى للتسلى والتشفى اسم الأشعرية بأسماء أرباب البدع وامتحن الأئمة الأماثل .. ، فلم يكن إلايسير حتى تقشعت تلك السحابة ، وتبدد بهلك الوزير شمل تلك العصابة ، ومات ذلك السلطان ، وولى ابنه ألبأرسلان ، واستوزر الوزير الكامل ، والصدر العالم العادل ، أبا على الحسن بن على بن إسحاق (نظام الملك) ، فأعز أهل السنة وقمع أهل النفاق ، وأمر بإسقاط ذكرهم من السب .. ، واسترجع من خرج منهم إلى وطنه ، وبنى لهم المساجد والمدارس ، وعقد لهم الحلق والمجالس ، وبنى لهم الجامع المنيعى فى أيام ولد ذلك السلطان .. فاستقام فى وزارته الدين وصفا عيش أهل السنة . وعن سياسات نظام الملك أنظر يحى الخشاب ، الوزير نظام الملك ووحدة المسلمين ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الثانية ، العدد الثالث ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م ص ٣١٣ - ٣١٧ .

(٣) قال البندارى عن نظام الملك : ومن وجد فى بلدة قد تميز وتبحر فى العلم ، بنى له مدرسة ووقف عليها وقفًا وجعل فيها دار كتب .. وكان ينظر فى الأوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمناء ويشدد فى أمرها ويخوف من وزرها . ويرغب فى أجرها ، ويكلها إلى الأمنة ، ولا يدعها مأكله للخونة . (البندارى : تاريخ آل السلجوقى ، ص ٥٤ - ٥٥) .

(٤) أنظر الراوندى : راحة الصدر ، ص ١٦٠ ، ١١٩ ، ١١٣ ، ١٠٤ ، وأنظر قبله .

(٥) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ١: ق ٢ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٠ ، سبط مرآة ، ٨: ١٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ابن واصل : مفرج ، ١: ٢٨١ ، ٢٨٢ - ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٦) سبط : مرآة ، ج ٨ ، ص ٣٠٨ .

(٧) المقريزى : الخطط ، ص ١٧٤ ، المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤ - ٤٥ ، ٤٨ .

الشرعية فيهم ، وانطباق الظروف الشرعية التى نصت عليها الشريعة ، بخصوص الأموال التى تجب عليها الزكاة ، ثم تتولى الدولة صرف أموال الزكاة فى وجوهها الشرعية[1] ، وأهم أوجه صرف الزكاة ـ كما هو معروف ـ هو للأيتام والمساكين وأبناء السبيل ، وهو ما ينسحب على مكاتب الأيتام التى أنشأها الزنكيون والأيوبيون[2] ، وعلى ما أنشأوه من خوانق ، ومدارس للغرباء الوافدين[3] على البلاد ، الذين ينطبق عليهم تعريف « أبناء السبيل » .

ولا يخفى أن كلاًّ من « فريضة الزكاة » ، و « نظام الوقف » ، قصد بهما فى النظم الإسلامية : تحقيق التكافل الاجتماعى ، بين الأغنياء والفقراء ، وضمان توفير ضروريات أسباب المعايش مثل التعليم والرعاية الصحية والطعام والملبس والكساء ، للفقراء والمحتاجين والعاجزين عن العمل ، مثل المرضى والأيتام والأيامى ، فليس من قبيل المصادفة وحدها أن يتجه الأيوبيون ، وهم مؤسسو دولة جديدة ، راغبين فى نشر عقيدة جديدة أيضًا ، وهى العقيدة السنية ، إلى الاهتمام بالزكاة والوقف ، وجعل هذين الموردين الهامين ، فى خدمة المنشآت التعليمية والخيرية التى أنشأتها الحكومة الأيوبية بمصر ، بغرض نشر علوم السنة .

ولعلنا لا نعدو الصواب ، إذا قلنا أن إفراد الزكاة بديوان خاص ، قد تم على يد نجم الدين أيوب ، والد صلاح الدين ، إذ تذكر المصادر ، أن صلاح الدين قد حكمه فى جميع الخزائن[4] ، كما أفاد الوهرانى ، وهو معاصر لقدوم نجم الدين أيوب بالشام ، أنه عمد فى نشر المذهب السنى بمصر ، ومحو بدعة التشيع وعقيدة الفاطميين ، إلى كثرة إخراج الصدقات وتعميم النفقات فى الناس[5] . كما تحدث الوهرانى أيضًا عن ديوان الزكاة كظاهرة أصبح لها صداها فى الحياة الاجتماعية ، فى ذلك الوقت[6] ، والراجح أن ديوان الزكاة فى العصر الأيوبى بمصر ، قد نظم على نحو ما كانت عليه « دار الزكاة »[7] فى العصر الزنكى ؛ ومن هنا يتضح أن أغلب وسائل نشر العقيدة السنية ، ومحو العقيدة الإسماعيلية من مصر . قد تمت على يد والد صلاح الدين ، بعد قدومه من الشام سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م ، ولا ريب أن قدومه كان بتكليف من نور الدين زنكى ، كما رجحنا من قبل .

---

(١) ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٠٨ - ٣١٧ .
(٢) أنظر قبله .
(٣) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥ الذى يفيد أن السلطان بنى مدارس ومستشفيات للغرباء المغاربة وأوقف عليها أوقاف ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ : ٢٧٥ ، الذى يفيد أن صلاح الدين أوقف خانقاه سعيد السعداء على الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة والقاطنين بالقاهرة ومصر .
(٤) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ١٨٦ .
(٥) الوهرانى: المنامات والمقامات ، ص ١٤ ، يقول : وتفجرت يمينة بالنفقات ، حتى عم أهل الأرض بالصدقات.
(٦) الوهرانى : المنامات ، ص ٨٣ .
(٧) ابن واصل : مفرج ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، س ٧ .

ومما يؤكد اعتماد الأيوبيين على ديوان الأحباس ، كوسيلة من وسائل نشر الدعوة السنية أن ناظر هذا الديوان ، كان هو الذى يتولى تقدير رواتب أساتذة المدارس ، ويقوم بدفعها لهم من أموال الأوقاف ، وكان صاحب ديوان الأحباس هو الموظف الوحيد فى الدولة ، الذى كان له حق صرف المرتبات والأموال اعتمادًا على توقيعه الشخصى ، دون رفع الأمر إلى السلطان لأخذ توقيعه « العلامة السلطانية » ، شأن الحال بالنسبة للموظفين الماليين بالدولة ، بل كان من حق صاحب ديوان الأحباس ، زيادة ونقصان مرتبات الأساتذة المدارس والطلبة المترددين عليها ، والقومة القائمين على العناية بها ، بقدر ما يرى فيه الصالح العام[1] .

فلا غروا أن اشترط فى ناظر ديوان الأحباس ، أن يكون من العلماء المتفقهين فى الدين ، ليستطيع الفصل فى المسائل الفقهية التى قد تطرأ على أحوال الأوقاف ، أو على أحوال المستحقين فى ريعها[2] ، ولا غرو أن تمتع ناظر ديوان الأوقاف فى العصر الفاطمى برتبة ، كانت تزاحم قاضى القضاه نفسه ، بل كثيرًا ما كانت تحدث المنافسة فيما بين الإثنين ، لنوال الحظوة والمكانة المرموقة ، فى المجلس العام للخليفة الفاطمى ، عند الاحتفال بالمواسم والأعياد[3] ؛ ولا غرو أن وجدنا متولى ديوان الأحباس فى بداية العصر الأيوبى ، يركب وبين يديه « الغاشية » ، وهى إحدى الآلات السلطانية الخاصة بسلاطين بنى أيوب ، ويفسر مسلكه هذا بأنه ملك على العلماء ، كما أن السلطان ملك على الرعايا[4] ، وفى هذا أيضًا تلميح على إشراف ديوان الأحباس فى العصر الأيوبى ، على المدارس والمؤسسات التعليمية .

وفى رأى محمدمحمد أمين أن صلاح الدين اتخذ من نظام الأوقاف سبيلاً لتدعيم حكمه السياسى ، إذ يلاحظ أننا لو حاولنا تتبع أسبابا كل وقف أمر به ، لوجدنا أن غالبية أوقافه تهدف إلى تدعيم حكمه السياسى من ناحية ، وخدمة المذهب السنى والقضاء على المذهب الشيعى من ناحية أخرى[5] ، ونلمس ذلك مثلاً فى وقفة دار العيار على سور القاهرة ، مع ما كان جاريًا فى أوقاف السور من الرباع والنواحى الجارية فى ديوان الأسوار[6] ، وفى وقفة بعض الأوقاف على ديوان الأسطول[7] ، وفى وقفة صادر الفرنج ـ أى الضرائب الجمركية ـ على

---

(١) أنظر ابن مماتى : قوانين ، ص ٣٥٦ ، هامش " ٢ " ، النابلسى : لمع ص ٢٥ – ٢٦ .
(٢) أنظر النابلسى : لمع القوانين ، ص ٢٦ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٨ .
(٤) كان اسم متولى الأحباس هذا ، شهاب الدين الطوسى ، أنظر نفس المصدر ، ص ٢٦ – ٢٧ .
(٥) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية ، ص ٦٦ .
(٦) المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤٣ .
(٧) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٣ ، المقريزى : الخطط (بولاق) ج ١ ، ص ٢٨٤-٢٨٣ ، ج ٢ ، ص ١٨٩ – ١٩٧ ، القلقشندى : صبح ، ج ٣ ، ص ٢ ، ص ٤٤٠ – ٤٤٣ .

الفقهاء بالإسكندرية[1] ، مما يوحى بأن أغلب هـذه الأوقـاف كـان فى الحقيقـة أرصادًا وليسـت أوقـافًا[2] .

والواقع أن صلاح الدين قد استخدم نظـام الأوقـاف أيضًـا كوسـيلة سياسـية لاكتسـاب سـمعة سياسية على المستوى الإسلامى العام ، بحماية فريضة الحج ، واستمالة شـرفاء مكـة بمنحهـم الأوقـاف والإقطاعات بصعيد مصر[3] ، ليتنازلوا عن رسوم الغفارة التى أرهقت حجاج بيت الله[4] ، كما وقف الأوقاف للصرف على القومة والسدنة والمتكلفين بخدمة الكعبة من قبل الدولة الأيوبيـة[5] ، بالإضافـة إلى إيقافه الأوقاف على فكاك أسرى المسلمين الذين أسرهم الصليبيـون[6] ، واهتمامـه الخـاص بوقـف الأوقاف التعليمية والخيرية على الغرباء الوافدين على مصر من مغرب العالم الإسـلامى ومشـرقه[7] ، الأمر الذى حقق لصلاح الدين ، سمعة ومكانة مرموقة فى العالم الإسلامى .

ولا شك أنه كان لنظام الوقف ، الذى انتشر انتشارًا منقطع النظير فى العصر الأيوبى ، والعصر المماليكى التالى له ، أثارًا إيجابية كثيرة فى المجتمـع المصـرى ، إذ حقـق هـذا النظـام قـدرًا كبـيرًا مـن الرفاهية والعناية الصحية والتعليمية للطبقات الفقيرة من المجتمع المصرى فى هذين العصرين[8] ، كما

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(٢) محمد محمد أمين : المرجع السابق ، ص ٦٠ ، ص ٦٤ ، هامش "٣" .

(٣) أنظر سجل محكمة الباب العالى بمصلحة الشهر العقـارى ، سـجل رقـم ٢٧٤ ، الوثيقـة رقـم ٦٦٨ ، صفحـة ٣٧٣ ، وأنظر المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٤) أنظر ابـن جبير : الرحلـة ص ١٣ - ١٤ ، ص ٣٠ - ٣١ ، ص ٣٨ - ٣٩ ، ص ٨٠ وخاصـة ص ٧٤ ، س ١ - ٧ ، وأنظر قبله .

(٥) يقول المقريزى : وفى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٢٣م ، وقف السلطان صـلاح الديـن ناحيـة نقاده من عمـل قـوص بناحية الصعيد الأعلى ، وثلث ناحيـة سندبيس مـن القليوبيـة ، علـى أربعـة وعشـرين خادمًا لخدمـة الضريـح الشريف النبوى ، وضـمن ذلك كتابًا ثابتًا تاريخه ثامن عشرى شهر ربيع الآخر منها ، فاستمر ذلك إلى اليـوم ، (المقريزى ج ١ ، ص ٥٧) وأنظر عن أوقاف الأيوبيين علـى مكـة والمدينـة فى عهـد الملـك العـادل الأول ، المقريزى : السلوك ١: ١٥١ .

(٦) ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، نشر د. الشماع ، المجلد الرابع ص ٢٣ ، محمد أمـين المرجـع السـابق ، ص ٦٢ .

(٧) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ١٥ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

(٨) محمد محمد أمين : المرجع السابق ، ص ٤ ، ص ١ .

أدى إلى استمرار العناية بالعمائر الدينية والخيرية بمصر الإسلامية ، فإليه يعود الفضل فى بقاء أغلب آثار مصر الإسلامية سليمة إلى اليوم ، فاعتمادًا على إيرادات الوقف ، استمر الصرف على تعمير وإصلاح هذه المنشآت الدينية على مر العصور[1] ، بحيث ظلت المساجد معمورة مقامة الشعائر ، وظلت الخوانق والتكايا تستقبل المعوزين ، والبيمارستانات تعنى بالمرض ، حتى نهاية العصر العثمانى ، حين حل محمد على باشا أغلب الأوقاف الحكومية[2] ؛ كذلك ساهم هذا النظام ، وما وفره من عناية بالعمائر الإسلامية ، فى النهوض بالفنون الإسلامية الزخرفية والتطبيقية[3] ، بما كفله للصناع والفنانين ، من استمرارية لفنونهم ، كما كفل لهم الشهرة والخلود ، فاحتفظت كثير من حُجَج الوقف بأسمائهم[4] .

والخلاصة أن الأيوبيين قد استخدموا نظام الوقف ، للصرف على منشآت الدعوة السنية بمصر ، ونشر المذهب السنى بها ، واستمالة قلوب المصريين ، وتحقيق المكانة المرموقة للسلطنة الأيوبية على مستوى العالم الإسلامى ، توطيدًا لدولتهم السنية التى قامت على أنقاض الخلافة الفاطمية الشيعية ؛ وقد احتفظ العصر المماليكى بأغلب خصائص نظام الوقف ، كما استقر فى العصر الأيوبى .

ولا ريب أن نجاح الأيوبيين فى حشد كل هذه الوسائل التعليمية والخيرية ، لنشر علوم السنة بمصر ، واجتذاب قلوب المصريين إلى المذهب السنى ، بالإضافة إلى توجيههم للنظم الدينية بمصر وجهة تخدم هذا الغرض ، كان من شأنه ولا ريب إضعاف الوجود المذهبى والعقائدى والسياسى للفكر الإسماعيلى الشيعى ، وتمهيد التربة فى مصر ، لبث دعوة عقائدية جديدة ، تهدف إلى نشر النفوذ السياسى للخلافة العباسية السنية على مصر ، وللسلطنة الأيوبية التى استمدت منها الشرعية .

---

(١) أنظر عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار ، العصر المملوكى ، المؤتمر الثانى للآثار فى البلاد العربية ، بغداد ١٨- ٢٨ نوفمبر ١٩٥٨ ، ص ٢٠٥ - ٢٨٧ ، فريد شافعى . العمارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٢) محمد محمد شاكر : أباطيل وأسمار .

(٣) محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ، ص ٦٤ .

(٤) عبد اللطيف إبراهيم : المقال السابق .

نشر العقيدة الأشعرية والفقه الشافعى بمصر :

والجدير بالتنويه أن ثمة حقيقة هامة لم يلتفت إليها[1] ، خاصة بالتطور الفكرى والعقائدى لمصر الإسلامية ، تلك الحقيقة هى أن الدولة الأيوبية ، كانت دولة متمذهبة ، تسعى إلى نشر دعوتها المذهبية فى مصر وفى كافة أرجاء دولتها ، شأنها فى ذلك شأن الدولة الفاطمية السابقة لها ، وإذا كانت عقيدة الفاطميين هى العقيدة الإسماعيلية التى ترمى فى جانبها السياسى إلى نشر ولاية الخلفاء الفاطميين وسلطتهم الروحية والسياسية على العالم الإسلامى ، فإن عقيدة الأيوبيين ، كانت العقيدة الأشعرية ، التى ترمى فى جانبها العقائدى والكلامى إلى تقريب أوجه الخلافات الفكرية بين الفرق الإسلامية ، وفى جانبها السياسى إلى نشر الدعوة السياسية لخلفاء بنى العباس السنيين ، ولسلاطين أهل السنة القائمين على حماية خلافتهم والناهضين بفريضة الجهاد[2] .

ولقد صرح المقريزى بهذه الحقيقة الهامة فى أكثر من موضع من كتابه الخطط ، فيقول فى الفصل الذى عنونه بـ حقيقة مذهب الأشعرى[3] وهو الفصل السابق مباشرة لحديثه عن « المدارس بمصر »[4] « انتشر مذهب أبى الحسن الأشعرى فى العراق من نحو سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ، وانتقل منه

---

(١) لعل الدكتور عبد اللطيف حمزة ، هو أول من التفت لهذه الحقيقة الهامة عن أثر العقيدة الأشعرية فى الحركة الفكرية والروحية بمصر الإسلامية ، طوال العصرين الأيوبى والمملوكى ، فأفرد فصلاً مستقلاً من كتابه : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول بعنوان عقيدة الأشعرى ، قال فى أوله : ليس بد لمن أراد وصف الحركة الروحية فى مصر وما وليها من الأقطار الإسلامية ، من العناية بالعقائد الدينية التى كان لها أبلغ الأثر فى توجيه هذه الحركة ، وعقيدة الأشعرى فيما نعتقد ، هى التى صدر عنها الناس فى مصر والشام منذ القرن الرابع الهجرى (عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ٨٧) ثم قال فى نهاية هذا الفصل : والخلاصة أنه لم يكن بد لمذهب الأشعرى ، من أن يكون له أوضح الأثر فى نوع الحياتين الفكرية والاجتماعية اللتين سادتا مصر وغيرها من أجزاء الدولة الأيوبية والدولة المملوكية أما من حيث الحياة الفكرية فسترى أن العلوم فى عصر كهذا كانت علومًا نقلية لا عقلية فى أكثرها .. من أجل هذا سيطر التصوف على الحياة الاجتماعية فى مصر ، سيطرة شملت جميع أنحائها (نفس المرجع ، ص ٩٤) .

(٢) أنظر الجوينى : غياث الأمم فى التياث الظلم ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمى ، ١٩٧٩ ، ص ١٥ – ص ١٣١ ، وخاصة ص ١٢٥ ، حين ينص على منع نصب إمامين ، و ص ١٣٣ – ٢٨٢ ، حيث يوضح مهام السلطان ، المستولى على السلطة الزمنية بالقوة .

(٣) المقريزى : الخطط ، طبع مطبعة النيل ، ج ٤ ، ص ١٨٤ – ١٩١ .

(٤) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩١ – ٢٥٨ .

إلى الشام » ، فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر ، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانى على هذا المذهب ، قد نشأ عليه منذ كانا فى خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ، وحفظ صلاح الدين فى صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى ، وصار يحفظها صغار أولاده ، فلذلك عقدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعرى ، وحملوا فى أيام دولتهم كافة الناس على التزامه ، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بنى أيوب ، ثم فى أيام مواليهم الملوك من الأتراك ، واتفق مع ذلك توجه أبى عبد الله محمد بن تومرت أحد رجالات المغرب إلى العراق ، وأخذ عن أبى حامد الغزالى مذهب الأشعرى ، فلما عاد إلى بلاد المغرب ، .. وضع لهم عقيدة .. ، فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب ، تستبيح دم من خالف عقيدة ابن تومرت ..، فكان هذا هو السبب فى اشتهار مذهب الأشعرى ، وانتشاره فى إمصار الإسلام ، بحيث نسى غيره من المذاهب وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه ، إلا أن يكون مذهب الحنابلة[1] ؛ أى أن المقريزى يفيد أن العقيدة الأشعرية قد غلبت على العالم الإسلامى فى القرن الخامس والسادس الهجرى بعد أن أصبحت العقيدة الرسمية للدولة الأيوبية بمصر والشام والجزيرة الفراتية والحجاز واليمن ، والدولة المحمدية بالمغرب والأندلس ، وذلك بعد غلبته على بلاد العراق منذ الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى .

ويقول المقريزى فى الفصل الذى خصصه لـ « مذاهب أهل مصر »[2] ، « وأما العقائد ، فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبى الحسن على بن إسماعيل الأشعرى تلميذ أبى على الجبائى ، وشرط ذلك فى أوقافه التى بديار مصر ، كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعى من القرافة ، والمدرسة الناصرية التى عرفت بالشريفة بجوار جامع عمرو بن العاص بمصر ، والمدرسة المعروفة بالقمحية بمصر ، وخانكاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعرى بديار مصر ، وبلاد الشام ، وأرض الحجاز واليمن ، وبلاد المغرب أيضًا ، لإدخال محمد بن تومرت رأى الأشعرى إليها ، حتى أنه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد ، بحيث أن من خالفه

(١) المقريزى : الخطط ، طبعة مطبعة النيل ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، س ٣ – س ٢٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٤٣ – ١٦٢ .

ضرب عنقه ، والأمر على ذلك إلى اليوم[1] . وهذا النص بالإضافة إلى تأكيده للحقيقة السابقة ، فهو يؤكد حقيقة جديدة ، أن الأوقاف التي أوقفها صلاح الدين على المدارس والخوانق التي أنشأها بمصر ، كانت قاصرة على معتنقي العقيدة الأشعرية فقط .

ولقد أكد المقريزي في نص ثالث ، أن خانقاه سعيد السعداء ، التي أوقفها صلاح الدين على غرباء الصوفية الوافدين من مشرق العالم الإسلامي ومغربه كانت قاصرة فقط على الصوفية المعتنقين للعقيدة الأشعرية فهو يقول عن الخانقاه الصلاحية المعروفة بخانقاة سعيد السعداء : «.. شرط الواقف، هو أن الخانقاه ، تكون وقفًا على الطائفة الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ، والقانطين بالقاهرة ومصر ، فإن لم يوجدوا ، كانت على الفقراء من الفقهاء الشافعية والمالكية والأشعرية الاعتقاد »[2] .

وفي نص رابع يفيدنا المقريزي أن الأيوبيين قد حرصوا على قراءة ملخص للعقيدة الأشعرية على مآذن مصر طوال الليل ، وعرف هذا الملخص بالعقيدة المرشدة ، فيقول المقريزي : « لما ولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب سلطنة مصر ، وولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن درباس الهذباني المارانى الشافعي ، كان من رأيه ورأى السلطان اعتقاد مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري في الأصول ، فحمل الناس إلى اليوم على اعتقاده حتى يكفر من خالفه ، وتقدم الأمر إلى المؤذنين ، أن يعلنوا وقت التسبيح على المآذن بالليل ، بذكر العقيدة التي تعرف بالمرشدة ، فواظب المؤذنون على ذكرها في كل ليلة بسائر جوامع مصر والقاهرة إلى وقتنا هذا »[3] .

(١) المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦١ ، س ١٣ – س ١٩ ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن تسامح الفاطميين إبان الحديث عن عائلة ابن شيث القفطي مؤلف كتاب السياسة الملوكية لصلاح الدين ، عن مدى تسامح الفاطميين تجاه فقهاء أهل السنة في عصرهم مثل عائلة ابن شيث القفطي وتجاهرهم بمذهبهم طوال العصر الفاطمي كما أفاد القفطي في أنباه الرواه في ترجمة ابن شيث ، كذلك استدللنا من إقدام كل من ابن الحبال ، وابن الطحان، وهما من علماء الحديث السنيين المصريين في العصر الفاطمي على جمع تراجم المحدثين المصريين في تاريخين رتبا على التراجم على تسامح الفاطميين تجاه أهل السنة المصريين الذين كانوا يمثلون عددًا ضخمًا جدًا من علماء الأقاليم المصرية (أنظر الجزء الثاني من كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية في العصر الأيوبي – تحت الطبع إن شاء الله – إبان الحديث على كتابي تراجم المصريين لابن الحبال وابن الطحان) . وقد أكد القلقشندي تسامح الفاطميين تجاه رعاياهم من أهل السنة في نص صريح قال فيه : وأما سيرهم (الفاطميين) في رعيتهم ، واستمالة قلوب مخالفيهم ، فكان لهم الإقبال على من يفد عليهم من أهل الأقاليم جل أو دق .. وكانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم في ذلك (والتجاهر) بذكر الصحابة رضوان الله عليهم ، ومذاهب مالك والشافعي وأحمد ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ، ومن سألهم الحكم به أجابوه (القلقشندي : صبح ، ج ٣ ، ص ٥٢٠) .

(٢) أنظر المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ ، س ٧ – ٩ .

(٣) أنظر المقريزي : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٨ – ٤٩ . ويبدو أن العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري ، قد قصد الرد على المقريزي حين قال : إن مذهب الأشعري ، نشر بسلطان العلم ، لا شوكة السلاطين ، مقدمة تبين كذب المفتري ، ص ١٦ .

وقد أشار القاضي بهاء الدين بن شداد قاضي عسكر صلاح الدين الأيوبي ومؤرخ سيرته المعنونة بـ (النوادر السلطانية والحاسن اليسوفية) إلى حسن عقيدة صلاح الدين وأخذه لعقيته عن شيخه قطب الدين النيسابورى أحد كبراء متكلمي الأشاعرة ؛ فيقول ابن شداد فى الفصل الذى عنونه بـ(ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية رحمه الله) : ورد فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (بُنى الإسلام على خَمْسٍ : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة وإيتاءِ الزّكَاة ، وصَوْم رَمَضَان ، والحَجّ إلى بيت الله الحرام) .

وكان (أى صلاح الدين) رحمه الله حَسَن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يد يقول فيه قولاً حسنًا ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه ، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نمط الاستقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء .

« وكان ـ رحمه الله ـ قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى ـ رحمه الله ـ عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه فى هذا الباب ، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ فى أذهانهم فى الصغر ، ورأيته وهو يأخذها عليهم ، وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه ، رحمه الله[1] .. ، وأما الصلاة .. وأما الزكاة .. وأما صوم رمضان .. وأما الحج .. إلخ »[2] وهكذا أخذ ابن شداد يتتبع من سيرة صلاح الدين ما شاهده من مواظبته على القواعد الدينية ، وملاحظته للأمور الشرعية

ومما يجزم بصحة ما أورده المقريزى ، بصدد اعتقاد الأيوبيين وقاضى قضاتهم العقيدة الأشعرية ، وعملهم على نشرها بمصر ، أنه قد وصلت إلينا رسالة ألفها قاضى قضاتهم عبد الملك بن درباس : فى الذب عن عقيدة الأشعرى ، أغلب الظن أنها كانت خطبة منبرية ، يقرأها خطباء المساجد ، وفيها تقرير أن عقيدة الأشعرى ، هى مذهب أهل السنة والجماعة وأهل الحديث ، وأنها شرح لعقيدة

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٧ – ١٣ .

الصحابة والتابعين ، وموافقة لاعتقادات أئمة الفقه الإسلامي بما فيهم الإمام أحمد بن حنبل[1] ، كذلك نظم محمد بن هبة الله المكي[2] ، قصيدة للسلطان صلاح الدن الأيوبي ، سماها حدائق الفصول وجواهر العقول ، وضمنها علم الكلام على أصول الأشعرى[3] . وفي هذا كله ما يعلل نشر الأيوبيين لكتب الدعوة الأشعرية في بلاد اليمن بعد فتحهم لها لمحاربة الدعوة الإسماعيلية هناك[4] .

ولقد أكد الفقيه تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) الذى عاش بمصر في العصر المماليكي ، ما ذكره المقريزى ؛ إذ أفاد أن جميع فقهاء المذاهب الأربعة ، عدا بعض الحنابلة ، قد أخذوا في أصول الدين بالعقيدة الأشعرية . فيقول السبكي : هؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة ولله الحمد - في العقائد يد واحدة كلهم على رأى أهل السنة والجماعة ، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة أبي الحسن الأشعرى رحمه الله[5] .. ويقول السبكي في موضع آخر : وهذه المذاهب الأربعة

---

(١) أنظر رسالة في الذب عن أبي الحسن الأشعرى ، الطبعة الثانية ، بمطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أبان الركن ، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م أولها : بسم الله الرحمن الرحيم ، قال أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس ، الحمد لله وسلام على عباده الذين أصطفى .. أما بعد فاعلموا معشر الإخوان ، وفقنا الله وإياكم للدين القويم ، وهدانا أجمعين للصراط المستقيم ، بأن كتاب الإبانة عن أصول الديانة الذى ألفه الإمام أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى ، هو الذى استقر عليه أمره فيما كان يعتقده وبما كان يدين الله سبحانه وتعالى بعد رجوعه عن الاعتزال بمن الله ولطفه ، وكل مقالة تنسب إليه الآن ، مما يخالف ما فيه فقد رجع عنها وتبرأ إلى الله سبحانه وتعالى منها ، كيف وقد نص فيه على أنه ديانته التي يدين الله بسبحانه بها ، وروى وأثبت ديانة الصحابة والتابعين وائمة الحديث الماضيين ، وقول أحمد بن حنبل رضى الله عنهم أجمعين ، وأنه ما دل عليه كتاب الله وسنته ورسوله ، (ابن درباس : رسالة في الذب عن أبي الحسن الأشعرى، ص ١، والرسالة صغيرة تقع في ٦ صفحات مما جعلنا نرجح أنها خطبة منبرية) وقد نشرت رسالة ابن درباس ضمن مجموعة رسائل طبعت بالهند ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م بعنوان الرسائل السبعة في العقائد . وجاء ترتيب رسالة ابن درباس رقم ٧ كما نشر في هذه الرسائل السبع كتاب الإبانة في أصول الديانة لأبي الحسن الأشعرى الذى أشار إليه ابن درباس في رسالته على أنه تلخيص لعقدية الأشعرى . وجاء ترتيب كتاب الإبانة رقم (٤) في الرسائل السبعة .

(٢) أنظر ترجمته عند السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ١٩٥ - ١٩٧ .

(٣) طبعت قصيدة حدائق الفصول وجواهر العقول ، لمحمد بن هبة المكي ، التي نظمها لصلاح الدين ، بالقاهرة ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م .

(٤) أنظر يحيى بن الحسين : أنباء الزمن ، في تاريخ اليمن ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ورقة ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٥) السبكي : معيد النعم ومبيد النعم ، تحقيق محمد على النجار ، أبو زيد شلبي ، طبع بدار الكتاب العربي بمصر، الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ، ص ٧٤ - ٧٥ ؛ وراجع النص بأكمله فهو في منتهى الأهمية ويوضح أوجه الخلاف بين الأشاعرة والحنفية والمالكية والحنابلة والشافعية ، ويوضح تطابق عقيدة الأشعرى ، مع عقيدة أبو جعفر الطحاوى وعقيدة أبو القاسم القشيرى والعقيدة المعروف بالمرشدة .

ولله الحمد فى العقائد واحدة ، إلا من لحق منهـا بـأهل الاعـتزال والتجسـيم ... ويدينـون اللـه بـرأى الشيخ أبى الحسن الأشعرى الذى لم يعارضه إلا مبتدع[1] ؛ وينصح تـاج الديـن السـبكى ، المسـلمين بعدم النظر فى الكتب الكلامية التى ألفها المتكلمون المتأخرون ، والاقتصار على كتب ائمـة متكلمـى المذهب الأشعرى ، فيقول : لم أجد أضر على أهل عصرنا وأفسد لعقـائدهم مـن نظرهـم فـى الكتـب الكلامية التى أنشأها المتأخرون .. ، ولو اقتصروا على مصنفات القاضى أبى بكـر البـاقلانى والأسـتاذ أبى إسـحق الأسـفرايني ، وإمـام الحرمـين أبـى المعـالى الجوينـى وهـذه الطبقـة لـما جـرى إلا الخـير[2] ؛ ثم أوضح السبكى أسباب طعن الحنابلة فى عصره على عقيدة الأشعرى لكون الأشعرى ينفى التشـبيه عن الله فلا يقول أن صفات الله هى هو ، وهو فى ذلك يخـالف الحنابلـة الذيـن يثبتـون صفـات اللـه ، ومن ثم يعتقدون بالتشبيه والتجسيم[3] .

وتؤكد أحداث التاريخ ، أن أشـهر متكلمـى المذهـب الأشـعرى فـى القـرن السـادس الهجـرى قد أهدوا مؤلفاتهم إلى سلاطين بنى أيوب ، سواء ألفوها وهم فى إحدى عواصم ملـك الأيوبيـين مثـل دمشق ، أو ألفوها وهم فى بلاط سلطنة أخرى لا تقل قوة ونفوذًا سياسيًا عن سلطنة بنى أيوب ، أعنى الدولة الخوارزمشاهية ـ التى امتلكت بلاد خوارزم وحدود بلاد الترك وبعـض إقليـم الجزيـرة وبعـض إقليم عراق العجم ـ فنجد الإمام فخر الديـن الـرازى ، ت ٦٠٦هـ[4] ، إمـام مذهـب الأشـعرى دون

---

(١) السبكى : معيد النعم ، ص ٢٢ - ٢٣ . وراجع النص بأكمله أيضًا لأهميته .

(٢) السبكى : معيد النعم ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣) السبكى : معيد النعم ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسين التيمى البكرى ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى ولد بالرى بعض أعمال فارس سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ، ونسبته إليها ورحل إلى خوارزم ومـا وراء النهر وخراسـان وأخـذ عنـه خلق كثير ، وسار إلى شهاب الدين الغورى سلطان غزنة ، فبالغ فى إكرامة وبنى له مدرسة بقرب جامع هراه ومعظم أهلها كرامية وحصلت له منه أمـوال طائلـة واتصـل بالسـلطان عـلاء الديـن خوارزمشـاه فحظـى لديـه وكـان ينـال من الكرامية وينالون منه سبًا وتكفيرًا حتى قيل أنهم سموه وتوفى بهراه سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م . أنظر ترجمتـه وأخباره عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ، الطبعة القديمة ، ج ١ ، ص ٦٠٠ - ٦٠٢ ، السـبكى : طبقـات الشافعية ، ج ٥ ، ص ٣٥ وما بعدها ، أبو شامة : ذيل الروضتـين ، ص ٦٨ ، المقريـزى : السـلوك ، ج ١ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ الذى يذكر أن ملك الغوريه فارق مذهـب الكراميـة وتقلـد مذهـب الشـافعى بعـد منـاظرة فخر الدين الرازى للكرامية بهراه ؛ وأهم مؤلفات فخر الدين الرازى ، تفسـيره المسـمى " مفـاتيح الغيـب " ، وهو مطبوع فى ثمان مجلدات ضخام ، وله كتاب " منـاقب الشـافعى " ، مطبـوع وكتـاب " اعتقـادات فـرق المؤمنين والمشركين " ، مطبوع ومؤلفاته كثيرة .

منازع في عصره، يهدى كتابه أساس التقديس إلى الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب، ويصفه بأنه أعظم سلاطين الإسلام القائمين لنصره مذهب الحق والسنة ، رغم أنه ألفه فى بلاط الدولة الخوارزمشاهية[١] ، ونجد المتكلم الأشعرى الشهير الآمدى[٢] ، يستقر فى بلاد الشام فى العصر الأيوبى ، ويقوم بالتدريس فى مدارسها ، ويهدى أهم مؤلفاته الكلامية فى شرح العقيدة الأشعرية إلى سلاطين بنى أيوب بالشام[٣] .

---

(١) قال الإمام الفخر الرازى فى ديباجة كتابه " أساس التقديس " : أما بعد فإنى وإن كنت ساكنًا فى أقاصى بلاد المشرق ، إلا أنى سمعت أهل المشرق والمغرب ، مطبقين متفقين على أن السلطان المعظم العالم العادل المجاهد سيف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أفضل سلاطين الحق واليقين أبا بكر بن أيوب ، لازالت آيات راياته فى تقوية الدين الحق ، والمذهب الصدق ، متصاعدة إلى عنان السماء .. ، أفضل الملوك وأكمل السلاطين فى أيات الفضل ، وبينات الصدق ، وتقوية الدين القويم ، ونصرة السراط المستقيم ، فاردت أن اتحفه بتحفة سنية ، وهدية مرضية ، فاتحفته بهذا الكتاب الذى سميته " بأساس التقديس " ، على بعد الدار ، وتباين الأقطار ، وسألت الله الكريم أن ينفعه به فى الدارين بفضله وكرمه " . (الفخر الرازى : أساس التقديس فى علم الكلام ، طبع مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م ، ص ٢ - ٣) .

(٢) هو على بن محمد بن سالم التغلبى ، أبو الحسن ، سيف الدين الآمدى ، أصولى باحث ، أصله من آمد بديار بكر ، ولد بها سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م ، وتعلم فى بغداد والشام ، وانتقل إلى القاهرة ، فدرس فيها واشتهر وحسده بعض الفقهاء فتعصبوا عليه ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل (أى فى الصفات الإلهية) ومذهب الفلاسفة ، فخرج مستخفيًا إلى حماه ومنها إلى دمشق فتوفى بها سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م وله نحو عشرين مصنفًا فى علم الكلام وأصول الدين طبع عدد منها . أنظر ترجمة عند ابن خلكان : وفيات (الطبعة القديمة) ج ١ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ ، أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٦١ ، ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ، ج ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ، القفطى : أخبار الحكماء ص ٢٤٠ - ٢٤١ ، السبكى : طبقات الشافعية ، ٥: ١٢٩، الخوانسارى : روضات الجنات ، ص ٤٨٩ - ٤٩٢ .

(٣) أفاد الأستاذ حسن محمود عبد اللطيف أن الآمدى المفكر الأشعرى ، عاش أكثر أيامه فى ظلال دولة صلاح الدين وخلفائه من أمراء الأيوبيين ، وتنقل بين مصر والشام حيث درس فى مدارسهما ؛ وفى حوالى سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م ، انتقل الآمدى إلى مصر ، فى عهد العزيز عثمان بن صلاح الدين ، الذى ألف له الآمدى رسالة موجزة فى العقائد لم نعثر عليها بعد سماها : اللواء العزيز تذكرة الملك العزيز ، حيث داوم على التدريس بمدارس مصر مثل مدرسة منازل العز بالفسطاط ، والمدرسة الناصرية بجوار قبة الشافعى حوالى عشرين عامًا ، ثم طعن الفقهاء فى عقيدته واتهموه بعقائد الفلاسفة ، فظهر الآمدى بعد ذلك فى حماه ، حيث استضافه أميرها الملك المنصور بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبى ، وولاه التدريس فى المدرس المنصورية ، ثم انتقل الآمدى بعد وفاة المنصور إلى دمشق بدعوة من الملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب صاحبها الذى ولاه شئون المدرسة العزيزية ، فقام بها عشر سنين ؛ وكان الأمدى يعقد مجالس النظر فى المسجد الأموى بدمشق ، فى يومى الثلاثاء والجمعة (أنظر حسن محمود عبد اللطيف : مقدمة كتاب غاية المرام فى علم الكلام ، لسيف الدين الأمدى ، بتحقيقه ، طبع القاهرة ، ١٣٩١ - ١٩٧١ ، وأنظر بالإضافة إلى ذلك النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

وقصة ظهور المذهب الأشعرى وانتشاره ، والوسائل التى اتخذها دعاته لنشره فى أرجاء العالم الإسلامى ، هى فى الواقع الأصل الأول للوسائل التعليمية والروحية والاجتماعية ، التى استخدمها الأيوبيون فى مصر لنشر العقيدة الأشعرية ، والفقه الشافعى ، وعلوم السنة والفكر الصوفى بمصر . بحيث أننا نجد أن النظم الدينية ، التى استخدمها الأيوبيون فى مصر ، تتطابق فى خصائصها الجديدة ، التى استجدها الأيوبيون ، مع وسائل الدعوة الأشعرية ، التى استخدمها دعاة المذهب الأشعرى من قبل لنشر مذهبهم فى أرجاء العالم الإسلامى ؛ ومحاربة المذهب الشيعى الإسماعيلى ، فى مصر والشام والمغرب ، وخاصة بلاد الشام التى شهدت مقاومة عنيفة من فقهاء ومتكلمى الأشاعرة للحكم الفاطمى بالشام وخاصة دمشق ، إذ اتخذ دعاة الأشاعرة من مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسيلة لمناوءة الحكم الفاطمى بالشام[1] ، ويبدو أنهم نجحوا فى إضعاف الدعوة الإسماعيلية هناك ، بحيث استطاع السلطان شيث بن أرسلان السلجوقى القضاء على الوجود السياسى للفاطميين بالشام ، ثم اعتنق العقيدة الأشعرية وقرب دعاتها[2] .

أما فى مصر ، فلقد أدى النشاط المتزايد لدعاة الأشاعرة فى عصر الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى ووزيره المأمون البطائحى ، إلى استمالة الكثيرين من أتباع الدعوة الإسماعيلية المترددين على « دار الحكمة » وهى ثانى مركز لنشر الدعوة الإسماعيلية بمصر بعد الجامع الأزهر ، بل استطاع هؤلاء الدعاة استمالة بعض حاشية القصر الفاطمى من الأساتذة المحنكين ، الأمر الذى هدد بانقلاب مذهبى سنى على الخلافة الفاطمية ، لولا نجاح الوزير البطائحى فى قتل هؤلاء الأستاذين ، والقضاء على فتنة دعاة الأشاعرة بمصر التى عرفت بفتنة القصار ، نسبة إلى أشهر هؤلاء الدعاة الأشاعرة بمصر ؛ وقد اضطرت هذه الفتنة الخطيرة إلى إغلاق « دار العلم »[3] ، بعد أن تحولت على يد دعاة الأشاعرة إلى أداة لمحاربة الدعوة الإسماعيلية بمصر .

---

(١) أنظر ابن عساكر الدمشقى ت ٥٧١هـ : تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى ، طبع مطبعة التوفيق بدمشق ، ١٣٤٧هـ ، بتحقيق محمد زاهد الكوثرى ، ص ٢١٥ - ٢١٦، ص ٢١٦ - ٢١٧، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، وأنظر بعده .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢٨٦ .

(٣) أنظر ما كتبه المقريزى عن " نوبة القصار " خلال كلامه عن دار العلم التى أنشأها الفاطميون بمصر ، ونسب هذه النوبة إلى داعى أشعرى اسمه حميد بن مكى الأطفيحى القصار وحددها بسنة ٥١٦هـ ، وقال أنها طويلة أولها من أيام الوزير الأفضل بن شاهنشاه ، واستمرت حتى حكم الآمر بأحكام الله الفاطمى ووزيره المأمون البطائحى ، وأنظر المقريزى : الخطط ، مطبعة النيل ، ج ٢: ٣٣٤ - ٣٣٥ ، عن فتنة . القصارة أنظر أيضًا محمد كامل حسين : دراسات فى الشعر الأيوبى ص ٥٩ ، وأنظر بعده .

تبدأ قصة ظهور المذهب الأشعرى بتحول الإمـام أبى الحسـن الأشـعرى[1] ، وكـان مـن كـبراء متكلمى المعتزلة والمناظرين لنصره مذهبهم عن مذهب الاعتزال ، وإنكاره لمذاهب المعتزلة الكلاميـة ، ورجوعه إلى مقالات أهـل السـنة والجماعـة ، وأهـل الحديـث ، ومحاولتـه لصياغـة العقيـدة الإسـلامية فى مسائل الإيمان ، على أساس الصورة الأولى لهذه العقيدة فـى عهـد الصحابـة والتـابعين ؛ ردًا على تـأويل المعتزلـه للآيـات الـواردة فـى القـرآن فـى المسـائل التوحيدية ، بمذهـب المعتزلـه دون مذهـب أهل السنة .

ويصور لنا ابن عساكر، مؤرخ الدعوة الأشعرية، ما قام به الأشعرى فى الانقلاب على المعتزلـة، وكأنه انقلاب ضد مذهب المعتزلة ، بعد أن أصبح المذهب الرسمى للدولة العباسية طوال عهد المأمون والمعتصـم والواثـق[2] ، فذكـر أن الأشـعرى رد علـى المعتزلـة الذيـن تغلبـوا علـى ملـوك المسـلمين فى الخافقين[3] ؛ ويروى المؤرخون عدة حوادث لتعليل هذا التحول ، منها مناظرة الأشـعرى لأسـتاذه وزوج أمه وكبير المعتزلة فى عصره أبـى علـى الجبـائى فـى رأى شـهير مـن أراء المعتزلـة هـو « القـول بالأصلح » أى أن الله ييسر لعباده من الأعمال ما فيه صـالح لهـم ، وذلـك ترتيبًـا علـى قـول المعتزلـة بفكرة « العدل الإلهى » بحيث قطع الأشعرى الجبائى فى هذه المناظرة والزمة الحجة[4] . ثم تبـع ذلـك حادثة أخرى وهى رؤية الأشعرى لرسول اللـه صلـى الله عليـه وسـلم ، يـأمره بـالرجوع إلى سنته ، والرد على الفلاسفة والمتكلمين[5] ، بحيث راح الأشعرى يناظر المعتزلة ويفند أراءهم ويؤلف الكتـب

(١) هو على بن اسماعيل بن إسحاق ، أبو الحسن ، من نسـل الصحابى أبي موسـى الأشـعرى مؤسـس مذهـب الأشاعرة . كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين . ولد فى البصرة سنة ٢٦٠هـ ، وتلقى مذهب المعتزلـة وتقـدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم . وتوفى ببغداد سنة ٣٢٤هـ . قيل بلغت مصنفاته ثلاثمائة كتاب . أنظر ترجمتـه عند ابن عساكر : تبين كذب المفترى فيما نسب للإمام أبى الحسن الأشعرى ، ص ٣٤ - ٥٦ ، وأنظر حصـر لمصنفات الأشعرى عند ابن عساكر ، نفس المصدر ، ص ١٢٨ - ١٤٠ ، وأنظر أيضًا ترجمته عند المقريـزى : الخطط ، ٤: ١٨٦ ، ابن النديم : الفهرست ، ١ : ١٨١ ، الخطيب البغدادى تـاريخ بغـداد ، ١١: ٣٤٦ - ٣٤٧ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١: ٤١٢ - ٤١٣ ، السبكى طبقات الشـافعية ، ٢: ٢٤٥ - ٣٠١ ، ومحمود غراب كتاب " الأشعرى " مطبوع .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١١٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٥ .

(٤) أنظر ابن خلكان : وفيات ، ج ١ ، ص ٤١٢ - ٤١٢ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ .

(٥) ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ٤٣ - ٤٥ .

في الرد عليهم[1] ، ثم ما لبث أن أعلن على المنبر في مدينة البصرة ، وكانت مقر سكناه ؛ أنه قد تبرأ من مذاهب المعتزلة ، وكرس حياته للرد عليهم[2] بحيث يقول المؤرخون : كانت المعتزلة قد رفعوا رؤسهم ، حتى أظهر الله تعالى الأشعرى ، فحجزهم في أقماع السمسم[3] ؛ ورغم أن حزب المعتزلة كان قويًا بمدينة البصرة آنذاك ، فكان منهم القاضي وأصحاب الرياسة[4] ، إلا أنه كان بالبصرة أيضًا جماعة من البيت الأشعرى لهم مكانة ورياسة ، مما ساعد على ظهور أمر الأشعرى ، كما يحدد ابن عساكر - بعد الثلاثمائة واستمر إلى سنة ٣٢٤هـ/٩٣٥م[5] ، وهي سنة وفاة الأشعرى[6] .

ولاشك أن ثمة عامل سياسى قد ساعد على استقواء الدعوة الأشعرية ، وهو انتصار الخليفة المتوكل على الله لأهل السنة ، وعدم اعترافه بعقيدة المعتزلة كعقيدة رسمية للخلافة العباسية ، مما أدى إلى انزواء المعتزلة ، وعودة الغلبة الفكرية لأهل السنة والمحدثين ، وكان الحنابلة - أتابع أحمد بن حنبل - أقوى الممثلين لأهل السنة ، فقربهم الخليفة العباسى بعد محنتهم ومحنة إمامهم ابن حنبل على يد المعتزلة في مسألة خلق القرآن ، التى تعد من أهم عقائد المعتزلة[7] .

والجدير بالاهتمام أن المقريزى ، قد ألمح عند حديثه عن عقيدة المسلمين منذ صدر الإسلام ، حتى ظهور الدعوة الأشعرية ، أن ظهور المذهب الأشعرى جاء رد فعل لانتشار مذاهب المتكلمين من الفلاسفة والقدرية والجهمية والمعتزلة والكرامية ، إبان حكم الدولة الشيعية البويهية في العراق وإيران ، وإبان حكم الخلافة الشيعية الفاطمية في مصر والشام والحجاز واليمن والمغرب ، كما ألمح إلى غلبة عقيدة المعتزلة على العالم الإسلامى كله إبان حكم البويهيين والفاطميين[8] .

---

(١) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٩٤ - ٩٩ - ، ص ١١٠ - ١١١ ، ص ١٢٨ - ١٤٠ .

(٢) قال ابن عساكر : قام الأشعرى على مذاهب المعتزلة أربعين سنة ، وكان لهم إمامًا ، ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يومًا ، فبعد ذلك خرج إلى الجامع ، فصعد المنبر وقال إنى .. أشهدت الله .. فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته في كتبى هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده ، .. ودفع الكتب إلى الناس ، فمنها .. كتاب أظهر فيه عوار المعتزلة ، سماه بكتاب (كشف الأسرار وهتك الأستار) ، فلما قرأ تلك الكتب أهل الحديث والفقه من أهل السنة والجماعة ، أخذوا بما فيها ، وانتحلوه ، واعتقدوه تقدمه ، واتخذوه إمامًا حتى نسب مذهبهم إليه . (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ٣٩ - ٤٠) .

(٣) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٩٤ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ .

(٤) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١١٦ .

(٥) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٢٧ .

(٦) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٤٧ .

(٧) أنظر زهدى جار الله : المعتزلة ، ص ١٦٢ - ١٩٣ .

(٨) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

ويفسر المقريزى هذه الملحوظة بأن الأراء الكلامية والفلسفية فى الإسلام ، قد ابتدعت فى الإسلام ، على يد حركة الشعوبية الفارسية ، التى خلطت أراء الديانات الفارسية القديمة بعقائد الإسلام ، ثم أن الشعوبية استمالة أهل التشيع ، بإظهارها حب آل البيت(١) .

ولقد أرجع المقريزى أصول الأراء الفلسفية للإسماعيلية والقرامطة ، إلا الآراء اليهودية التى نشرها عبد الله ابن سبأ اليهودى إبان الفتنة الأولى فى الإسلام، وإلى الأراء الفارسية الشعوبية(٢)، ثم أعلن المقريزى صراحة ، انتقاده لأهم أسس الفكر السياسى والعقائد الإسماعيلى وهما فكرتى « النص » و « العلم اللادنى » ، على أساس أنه لا أسرار فى الدين الإسلامى ، وأن عقيدة الإسلام واضحة كما جاء بها القرآن ، وأن النبى لم يكتم عن المسلمين شيئًا من أمر دينهم ،.ولم يختص آل بيته ببعض الأسرار(٣) .

لذلك فقد عمد الأشعرى ، إلى الانتصار لعقيدة اكبر متكلمى أهل السنة والحديث ، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن كلاب القطان ، فسلك الأشعرى طريق الكلابى ، وبنى على قواعده(٤) .

ثم نهج الشعرى فى القضايا العقائد الإيمانية المتعلقة بالأسماء والصفات الإلهية ، وبرؤية الله بالأبصار ، وهى المسألة التى عرفت اصطلاحًا « بالرؤية السعيدة » منهجًا وسطًا(٥) : بين المعطلة ، أى الذين ينفون عن الأسماء والصفات الإلهية كونها ذات الله ، وهم الجهيمة والمعتزلة والشيعة ، وبين المشبه والمجسمة ، الذين يثبتون الأسماء والصفات الإلهية الواردة فى القرآن ، ويعتقدون أنها

---

(١) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٩١ ، ص ١٨٢ . والواقع أن هذه الحقيقة التى ذكرها المقريزى ، قد انتهى إليها أيضًا الدكتور محمد كامل حسين، بعد دراسته لعقائد الإسماعيلية، كما جاءت فى كتب الدعوة الإسماعيلية ، فيقول د. كامل حسين : والذى ألاحظه على عقائد الفاطميين ، انها مزيج من مجموعة المذاهب والديانات القديمة ، التى عرفت وانتشرت فى الأقطار الإسلامية ، منذ زمن بعيد ، بتأثير امتزاج المسلمين بغيرهم من الشعوب المختلفة ، واستطاع الفاطميون أن يخضعوا هذه المذاهب والأراء القديمة ، للأراء الإسلامية ، ويصبغوها بالصبغة الإسلامية ، فالباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد الفاطميين ، ويردها إلى أصولها القديمة .. (محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص ١٧) .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٩١ .

(٤) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٤ ، ص ١٨٦ ، ابن عساكر : تبين كذب المفترى ص ١١٦ - ١١٨ ، وعن مدرسة ابن كلاب أنظر على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، ١٩٧١ ، ج ١ ، ص ٣٥٠ - ٣٨٤ .

(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ، محمد زاهد الكوثرى : مقدمته لكتاب تبين كذب المفترى ، ص ١٥ .

ذات الله ، ومن ثم فقد شابهوا بين صفات الله وصفات مخلوقاته ، ولقد قال بهذا الرأى كل من الكرامية والحنابلة[1] ، فأوضح للمعطلة ، من الجهيمية والمعتزلة ، أن نفى المحاذاة والصورة عن الله سبحانه صواب ، على أنه يجب الاعتراف بتجلى الله سبحانه ، من غير كيف ، أى دون معرفة للعباد بكيفية هذا التجلى ، وفى نفس الوقت نها المشبه من الحنابلة والمجسمة من الكرامية ، عن إثبات الصورة والمحاذاة لله سبحانه . ثم مال إلى رأى الحنابلة فى إثبات رؤية المؤمنين لربهم بالأبصار يوم القيامة ـ وهو ما قال المعتزلة باستحالته ـ وإن تحفظ الأشعرى ، فقال أن الله يرى للمؤمنين يوم القيامة ، ولكن بغير كيف ، أى أن كيفية هذه الرؤية مجهولة[2] .

كذلك نهج الأشعرى ، منهجًا وسطًا فى مسألة خلق القرآن ، التى اعتبرها المعتزلة جزءًا أساسيًا من عقيدتهم ، وامتحنوا العالم الإسلامى كله إبان سيطرتهم على الخلافة العباسية فى عصر الخليفة المأمون العباسى ، بضرورة الإيمان بخلق القرآن[3] ، فسلم للمعتزلة أنهم على الحق ، إذا كانوا يريدون بخلق القرآن ، اللفظ والتلاوة والرسم ، وسلم للحنابلة بأنهم مصيبون فى قولهم بقدم القرآن وأنه ليس مخلوقًا ، إذا كان مقهصودهم بالقديم ، الصفة القائمة بذات الله البارىء ، غير البائنة منه ، يعنى الكلام النفسى ، وأن تحفظ الأشعرى أيضًا فى هذه المسألة ، فنبه الحنابلة إلى أنه لا يصح إنكارهم حدوث لفظ لافظ القرآن وتلاوة من يتلو القرآن ، كما أنه نبه المعتزلة ، بأنهم ليس لهم نفى الصفة القائمة بالله تعالى من غير لفظ ولا صوت ، أى الكلام النفسى[4] .

وأيضًا وقف الأشعرى، موقفًا وسطًا ، بين رأى المعتزلة ، ورأى أهل السنة فى مسألتى التكليف، وحرية الإرادة الإنسانية ، فخالف المعتزلة القائلين بحرية إرادة الإنسان فى اختيار أفعاله ، بأن قرر بأن جميع أفعال العباد مخلوقة مبدعة من الله تعالى ، وهو مذهب أهل الحديث والحنابلة والجبرية ، الذين يعتقدون أن الإنسان مُصيّر غير مُخيّر فى أفعاله ، بل مجبر عليها ، وفى نفس الوقت خالف الأشعرى مذهب الجبر الذين يقول به الجبرية وقال بنظرية « الكسب » وفسرها ، بأنه إذا كانت أفعال الله

---

(١) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ، و ج ٤ ، ص ١٨٤ ، ابن عساكر: المصدر السابق، ص١٤٩ .

(٢) أنظر ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ١٤٩ - ١٥٠ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ . محمد زاهد الكوثرى ، مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٥ .

(٣) أنظر زهدى جار الله : المعتزلة ، ص ١٦٢ - ١٧٩ .

(٤) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٥ ، ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٥٠ ، المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .

مخلوقة مبدعة من الله تعالى ، فهى أيضًا مكتسبة للعبد ، حين يهم العبد بفعلها ، فالكسب عبارة عن الفعل القائم بمحل قدرة العبد[1] .

وعلى هذا النحو سلك الإمام أبى الحسن الأشعرى فى مسائل أصول الدين ، طريقًا وسطًا بين المتكلمين فى مشكلة الأسماء والصفات ، ومشكلة الرؤية السعيدة ، ومشكلة الجبر والاختيار ، ومشكلة خلق القرآن ، وبقية المشكلات الكلامية والاعتقادية الأخرى ، مثل مشكلة مرتكب الكبيرة ، ومشكلة الإيمان هل يزيد وينقص ، ومشكلة شفاعة النبى يوم القيامة « ودلل الأشعرى على عقيدته ببراهين عقلية ، وأدلة شرعية » ثم لخص عقيدته فى كتابه : الإبانة عن أصول الديانة[2] .

وواضح أن الأشعرى فى منهجه فى الاستدلال على صحة عقيدته ، قد جمع بين منهج المعتزلة ، فى الاستدلال العقلى ، وبين منهج أهل السنة والمحدثين والحنابلة فى الاعتماد على النصوص والأدلة الشرعية ، كما جاءت فى القرآن والسنة ، وهو ما عرف بتغليب النقل على العقل ، بعد أن دلل الحنابلة ، بأنه ليس ثمة أى تعارض بين النقل والعقل ، فمنهج الأشعرى إذًا ، فى التدليل على صحة معتقده ببراهين عقلية وأدلة شرعية ، منهج شمولى جمع بين منهجى المعتزلة وأهل السنة ، ولا شك أن الأشعرى قد حاول أن يجعل من مذهبه مذهبًا لجمع الشمل ، بعد أن تفرق المسلمون حول هذه العقائد فرقًا وأشياعًا[3] .

ولعل سعى الأشعرى ، إلى تقريب وجهات النظر الكلامية والاعتقادية بين فرق المسلمين هو الذى دفعه فى رأينا إلى الاقتراب من فكر المرجئة المتسامح ، فى مسألة الإيمان ، وعدم تكفير مرتكب الكبيرة ، وإرجاء الحكم فى أمرة إلى الله يوم القيامة[4] .

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٧ ، ابن عساكر : تبين ، ص ١٤٩ .
(٢) راجع ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٤٨ - ١٦٣ .
(٣) يقول الدكتور على سامى النشار فى مقدمته لكتابه " نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام " إنى كمفكر أشعرى ، يرى أن عمله الأساسى فى الحياة ، هو المحافظة على كيان المذهب الأشعرى ، مذهب الجمهور العظيم من المسلمين ورباط حياتهم ، أرى أن الأشعرية هى آخر من وصل إليه العقل الإسلامى الناطق باسم القرآن والسنة ، وأن ما بقى للمسلمين بعد فى الحياة حتى نهاية الدنيا ، هو الأخذ بهذا المذهب كاملاً ، وتطويره خلال العصور ، وعلى حسب مقتضيات الأجيال المقبلة ، وأنظر على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ، الطبعة الخامسة (١٩٧١م ، مقدمة الكتاب ، ص ج) وفى رأى الدكتور النشار أيضًا أن الأزهر أصبح معقل الدعوة الأشعرية ، وعمل على بعثها وتوضيح حقائقها والوقوف بالمرصاد لأوروبا وعلمائها جميعًا (نفس المرجع ، مقدمة الكتاب ، ص ى) .
(٤) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٧ .

كما أننا نلاحظ مع المقريزى ، ملحوظة على قدر كبير من الأهمية ، هى أن آراء الأشعرى السياسية استهدفت بالدرجة الأولى ، الرد على آراء الشيعة الخاصة بفكرة النص ، هذا رغم اعترافه بتعاطفه مع مواقف الإمام على بن أبى طالب ، فى حروبه فى صفين ضد حزب معاوية ، وفى النهروان ضد حزب الخوارج(١) .

كذلك نلاحظ ملاحظة أخرى لا تقل أهمية ، وهى ميل الإمام الأشعرى إلى آراء الصوفية ، فذهب إلى القول بأن « كرامات الأولياء حق »(٢) ، كما سلم بكل ما جاء به القرآن من أمور الغيب ، مثل اللوح والقلم والعرش والكرسى والجنة والنار ، وعذاب القبر ويوم القيامة والميزان والصراط .. إلخ(٣) .

وفى هذا كله ما يؤيد ما ذهبنا إليه ، من أن مذهب الأشعرى ، قام لمقاومة المذاهب الكلامية الفلسفية التى راجت تحت حكم الخلافة الفاطمية بمصر والشام والحجاز واليمن والمغرب ، وأمراء بنى بويه ، فى العراق وخراسان والمشرق الإسلامى ، فأقام الأشعرى فكره السياسى على أساس تفنيد مذاهب الشيعة فى النص بخصوص الإمامة ، وفى اعتقادنا أيضًا ، أنه كما كان المذهب الأشعرى مذهبًا لجمع شمل المسلمين فى عقيدة إيمانية واحدة ، فإنه فى رفضه لأراء البويهيين والفاطميين السياسية بخصوص « النص » وبخصوص « الإمام المعصوم »(٤) ، وباعترافه بخلافة واحدة تجمع خطة الإسلام كلها(٥) ، كان يهدف أيضًا لجمع شمل المسلمين تحت خلافة سنية واحدة ، وإن اضطر الأشاعرى

---

(١) أنظر المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ١٨٨ ، س ٨ - ١٤ ، ابن عساكر : تبين كذب المفترى ص ١٢٩ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٨٨ ، س ٤ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٨٨ ، س ٥ - ٨ .
(٤) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٢٩ .
(٥) الجوينى : غياث الإمام ، ص ١٢٥ ، وانظر قبله .

ولقد أشار ابن عساكر لعدة أراء سياسية أخرى للإمام أبى الحسن الأشعرى ، فمفهوم الفتنة عنده ، هى التباس الحق على الخلق (ابن عساكر : تبين ، ص ٩٩) ، والأشاعرة وعلماء السنة متفقون فى مسائل أصول الدين ، أن الله جعل استقامة أمور الدنيا والدين ، بصلاح الولاة والسلاطين (ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٠٧) ، وأولى الأمر ، المستحقين الطاعة فى رأى الأشعرى ، هم أهل الفقه والدين يعلمون الناس معانى دينهم ، ويأمرونهم بالمعروف ، وينهونهم عن المنكر ، فأوجب الله عز وجل طاعتهم (ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٢٦) ومذهبه فى الإمامة أنه يثبت خلافة أبى بكر ، ويرفض رأى الشيعة فى (النص ، والإمام المعصوم) ، (ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٢٩) ، والجدير بالملاحظة أن فكرة جعل . الولاية، للعلماء، لا للأمراء والسلاطين ، نجدها مشروحة عند مفكرة الأشاعرة ، أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ٤٦ - ص ٥٧ ، وهم الذين يطلقون عليهم مصطلح " أهل الحل والعقد " .

إلى التسليم بالظروف السياسية القائمة ، فسلم بجواز وجود سلطنة عسكرية سنية تساند الخلافة ، إذا ما أقرت الأمن في بلاد الإسلام ، وأمضت شرائع الإسلام والتزم المسلمون بطاعتها ، وتولت فريضة الجهاد[1] .

فلا غرو أن عمد المفكرون والفقهاء السياسيون للدعوة الأشعرية ، إلى تفنيد فكرة النص التى قال بها الإسماعيلية وبنوا عليها مذهبهم فى الإمامة ، وأوضحوا تهافتها اعتمادًا على ما تم من اختيار أبو بكر ومبايعة المسلمين له فى يوم السقيفة[2] . وفى نفس الوقت ، راح دعاة الأشاعرة يؤكدون أحقية خلفاء بنى العباس السنيين فى الخلافة ، وحكم جميع بلاد المسلمين[3] ، ويظهرون مثالب الفكر الباطنى الإسماعيلى ، وما انطوى عليه من مغالطات وتدليس[4] . بل ويطعنون حتى فى صحة النسب الفاطمى ، وانتسابهم لعلى بن أبى طالب[5] ؛ وضمانًا لحماية الخلافة العباسية السنية ، واستقرار أمور

---

(١) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٩١ – ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ، الباب الثانى ، فصل فى القول فى النص ، وفى حكم ثبوته وانتفائه ، ص ١٩ – ص ٤٢ ، ثم يسوق الجوينى من الأدلة التاريخية والفقهية ، ما يؤكد صحة القول بإثبات الاختيار والانتخاب ، مما يبطل مذهب النص ، كما يوضح الجوينى أن مبايعة المسلمين للخلفاء الراشدين الأربعة ، يؤكد مبدأ الاختيار وينفى مبدأ النص ، أنظر الجوينى : نفس المصدر ، ص ٤٢ – ٤٥ .

(٣) يقول الغزالى فى أول كتابه فضائح الباطنية : أما بعد ، فإنى لم أزل مدة المقام بمدينة السلام ، متشوقًا إلى أن أخدم المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية بتصنيف فى علم الدين ، حتى خرجت الأوامر الشريفة ، المقدسة النبوية المستظهرية ، بالإشارة إلى الخادم ، فى تصنيف كتاب فى الرد على الباطنية ، فيشتمل على الكشف عن بدعتهم وضلالتهم ، وفنون مكرهم واحتيالهم ، ووجه استدرجاهم عوام الخلق وجهالهم ، وإيضاح غوائلهم فى تلبيسهم وخداعهم ، وانسلالهم عن ربقة الإسلام .. ، وإبراز فضائحهم وقبائحهم ، مما يقضى إلى هتك أستارهم ، (الغزالى : فضائح الباطنية ، ص ١ – ٢) ثم يخصص الغزالى الباب التاسع من كتابه للحديث عن إقامة البراهين الشرعية ، على ان الإمام القائم بالحق ، الواجب على الخلق طاعته فى عصرنا ، هو الإمام المستظهر ، (الغزالى فضائح الباطنية ، ص ٥٨ ، وما بعدها) .

(٤) أنظر حديث الغزالى عن مراتب الدعوة الباطنية ، على أساس أنها حيل ، يحتال بها على الناس ، فيتحدث عن حيلة التانيس (فضائح الباطنية ، ص ٤) وحيلة التعليق ، (نفس المصدر ، ص ٥) وحيلة التدليس ، (نفس المصدر ، ص ٦) ؛ ثم يقرر الغزالى أن الذى هداهم إلى اختراع دعوى النص المتواتر ، طائفة من الملحدين (نفس المصدر ، ص ٣٨) ؛ ثم يفند الغزالى قولهم إن الإمام لابد أن يكون معصومًا (نفس المصدر ، ص ٣٩) .

(٥) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ق ٢ ، ص ٥١١ – ٥١٤ ، الذى يعتمد على كتاب كشف أسرار الباطنية لأبى بكر الباقلانى ، وعلى كتاب الرد على الباطنية ، لأبى القاسم الشاشى ، وكلاهما من أكابر دعاة الأشاعرة ، أنظر بعده .

العالم الإسلامى ، أقر دعاة الأشاعرة الأمر الواقع ، واعترفوا بشرعية السلطنة السنية القائمة ، سواء الغزنوية أو السلجوقية أو الزنكية أو الأيوبية أو المماليكية على التوالى[1] .

ولا غرو أن أعتنق السلاطين السنيين للمذهب الأشعرى ، فاعتنقه على التوالى ، كل من السلاجقة بإيران وأسيا الصغرى[2] . والسلاجقة فى بلاد الشام منذ عهد تتش[3] ، كما اعتنقه نور الدين زنكى[4] ، ثم اعتنقه الأيوبيون والمماليك[5] .

ولقد كان سلاطين السلاجقة ، ووزيرهم الأكبر ، نظام الملك ، بعد اعتناقهم للعقيدة الأشعرية وعملهم على نشرها ، يطلبون من دعاة الأشاعرة المعاصرين لهم تأليف مؤلفات يلخصون فيها العقيدة الأشعرية ، فألف إمام الحرمين أبى المعالى عبد الملك الجوينى[6] ، رسالة لخص فيها العقيدة

(١) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٩١ - ٢٥٨ ، الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ، ص ١١٣ - ١١٨ ، خضر بن أبى بكر : المناقب المعزية - خ ، الفصل الثانى من الباب الأول عن وظيفة السلطنة، ق ١١ - ١٣، والفصل الثالث من الباب الأول ، عن الإمامة والخلافة ، ق ١٣ - ٢٠ ، ابن جماعة : تحرير الأحكام - خ ، الباب الأول والثانى . عن الإمامة ، والباب الرابع عن الأمراء ، وأنظر قبله ، وبعده .

(٢) أنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ص ١٥٩ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ، ويقرر الراوندى أن سلاطين السلاجقة كانوا يجلون فقهاء المذاهب الأربعة ، ويعملون على الخصوص الشافعى ، ويتحمسون حماسة عظمى لنشر المذهب الحنفى ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ٥٠ - ٥٢ . والجدير بالاهتمام أن الراوندى ، وهو يكتب فى أواخر العصر السلجوقى ، يجعل الصراع بين الشيعة والأشاعرة ، فى الدولة السلجوقية من أهم أسباب ضعفها ، أنظر راحة الصدور ، ص ٧٤ - ٧٥ ، وعن اعتناق السلاجقة أيضًا للدعوة الأشعرية ، أنظر أبن الجوزى : المنتظم ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ إلى ٣٣٣ .

(٣) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١ من المقدمة ، و ص ٦ ، و ص ١٦ ، وأنظر بعده .

(٤) ابن عساكر : نفس المرجع ، ص ٢٨٦ وأنظر قبله .

(٥) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ٤٨ - ٤٩ ، ص ١٦١ ، ص ١٨٥ ، ص ١٨٨ ، ص ٢٧٥ ، السبكى : معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٢٢ - ٢٣ ، ص ٧٤ - ٧٥ ، ص ٧٩ - ٨٠ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، وأنظر قبله .

(٦) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله الجوينى النيسابورى الشافعى ، الأشعرى المعروف بإمام الحرمين ولد سنة ٤١٩هـ ، وجاور بمكة ، وتوفى بنيسابور سنة ٤٧٨هـ أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات (الطبعة القديمة) ج ١: ٣٦١ - ٣٦٢ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ : ١٨ - ٢٠ ، السبكى : طبقات ، ج ٣ : ٢٤٩ - ٢٨٣ ، ابن عساكر : تبين ، ص ٢٧٨ - ٢٨٥ ، وأنظر فوقيه حسين محمود : الجوينى إمام الحرمين ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ ، أعلام العرب ٤٠ .

الأشعرية ، وأهداها إلى الوزير نظام الملك السلجوقي ، وسماها العقيدة النظامية[1] . كذلك ألف الإمام أبي حامد الغزالي[2] ، تلميذ إمام الحرمين الجويني ، رسالة العقائد والوعظ إلى السلطان ملك شاه السلجوقي[3] ، كما ألف الجويني لنظام الملك ، كتابًا في الأحكام السلطانية ، سماه بلقب نظام الملك ، وهو كتاب غياث الأمم[4] ، كذلك دعا نور الدين زنكي ، الإمام قطب الدين

---

(١) قال الجويني في ديباجة العقيدة النظامية : .. قد مَلَّكَ الله مولانا الصاحب الأجل نظام الملك ، سيد الوزراء، غياث الدولة ، معتمد أمير المؤمنين – أدام الله علاه – مقاليد أعمالك .. وأراد خادم الدعاء ، أن يطير .. إلى مخيم العلاء .. ، ثم قدم تذكرة إلى المجلس الأسنى .. ، ومهرها أن تقع من السدة السامية موقع القبول ، ومتضمنها عقائل العقول ، ونخب الشرع المنقول ، وقد صدرتها بقواعد عن العقائد على أساليب لم أسبق إليها ، ثم اتبعتها بما لا يسوغ الذهول عنه من أركان الإسلام ، وسميتها : النظامية في الأركان الإسلامية ، أنظر الجويني : العقيدة النظامية ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، مطبعة الأنوار ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ، ص ٧ – ٨ .

(٢) هو محمد بن محمد الطوسي الشافعي ، المعروف بالغزالي ، ولد بطوس سنة ٤٥٠هـ ، ثم ارتحل إلى نيسابور ودرس على إمام الحرمين الجويني ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك السلجوقي ، فأقبل عليه نظام الملك ، وعظمت منزلة الغزالي ، وأسند إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ، وتوفي الغزالي سنة ٥٠٥ هـ .
أنظر ترجمه الغزالي عند ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ٢٩١ – ٢٩٨ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان (الطبعة القديمة) ج ١ ، ص ٥٨٦ – ٥٨٨ ، ابن الجوزى ، المنتظم ، ٩: ١٦٩ – ١٧٠ ، السبكي : طبقات الشافعية ، ٤: ١٠١ – ١٨٢ .

(٣) جاء في أول رسائل العقائد والوعظ إلى ملكشاه : .. قال .. أبو حامد .. الغزالي ، رحمة الله عليه ، يخاطب السلطان محمد بن ملكشاه ، رحمة الله عليه : أعلم يا سلطان العالم ، وملك الشرق والغرب ، أن لله تعالى عليك نعمًا ظاهرة ، وآلاء متكاثرة ، يجب عليك شكرها .. ؛ ثم يلخص الأشعرى للسلطان ملكشاه العقيدة الأشعرية في ست قواعد ثم يقدم له مواعظ خاص بالعدل في الرعية وكيفية سياسة الملك . (أنظر الغزالي : رسائل العقائد والوعظ إلى ملك شاه ، الطبعة الأولى ، نشر مكتبة الخانجي بمصر ، بتحقيق بدر الدين الحلبي ، ضمن مجموعة رسائل للغزالي ، طبع سنة ١٣٢٥ هـ/١٩٠٧م ، ص ٦١ – ٧٩ من المجموعة) .

(٤) صرح الجويني في أوله بإهدائه إلى نظام الملك بقوله : قد تقدم الكتاب النظامي ، محتويًا على العجب العجاب .. ووافى الجناب الأسمى .. ، والآن ، كما يقضى مساق هذا الترتيب ، إلى تسمية الكتاب والتلقيب ، وقد تحقق للعالمين أن صدر الأنام .. يدعى بأسماء تبر عليها معانية .. ، فهو غياث الدولة ، وهذا إذا تم (غياث الأمم في التياث الظلم) ، فليشتهر بالغياثي ، كما شهر الأول بالنظامي ، (أنظر الجويني : غياث الأمم ، ص ٣ – ١٣) .

النيسابورى[1] ، إلى دمشق ، نزولاً على طلب العلماء[2] ، الذى ألف عقيدة ، أهداها إلى صلاح الدين ، فحفظها صلاح الدين إبان خدمته لنور الدين بالشام ، وحفظها لأولاده ، مما أدى إلى شدة تمسكهم بالعقيدة الأشعرية[3] . وأيضًا ظلب صلاح الدين من قاضيه ابن درباس تأليف رسالة فى الذب عن العقيدة الأشعرية[4] ، كما طلب من هبة الله المكي أن يؤلف له قصيدة يلخص فيها العقيدة الأشعرية ، حتى يسهل على الناس حفظها[5] .

والواقع أن دعاة الشاعرة ، فى سبيل نصرتهم لدعوتهم ، ومحاربة دعوة الاعتزال والدعوة الفاطمية ، واحتواء سلاطين ووزراء السلاجقة - الأمر الذى أدى فى النهاية على غلبة المذهب الأشعرى على العالم الإسلامى كله - قد لاقوا من الصعوبات وبذلوا من الجهد ، ما قد لا يقل عن جهود دعاة الإسماعيلية من قبل فى نشر دعوتهم ؛ كما أن دعاة الأشاعرة ، قد ابتكروا من الوسائل والطرق ، لاجتذاب المستجيبين إلى دعوتهم ، وتحويل معتنقى المذاهب الاعتزالية والشيعية إلى الدعوة الأشعرية ، ما قد لا يقل أيضًا عن الوسائل التى اتخذتها الدعوة الإسماعيلية من قبل لنشر التشيع .

لقد بدأ الإمام أبو الحسن الأشعرى ، مؤسس المذهب ، ينشر مذهبه بنفسه بمدينة البصرة بعد الثلاثمائة واستمر فى ذلك حتى وفاته سنة ٣٢٤هـ/٩٤٠م[6] . ثم استمر تلامذته العراقيون فى نشر الدعوة بالعراق ، بحيث انتشر مذهبه فى العراق بأكمله نحو سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ومن العراق انتشر إلى الشام[7] ، وإن لوحظ أنه بعد وفاة الأشعرى بيسير ، استعاد المعتزلة بعض قوتهم فى عهد بنى بويه ، ولكن تلميذ الأشعرى الشهير ، أبو بكر الباقلانى[8] ، الذى عرف بناصر السنة ، قمعهم

---

(١) هو أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى ، ولد بنيسابور سنة ٥٠٥هـ ، وقدم بغداد ، ثم دمشق، ودرس بالمدرسة المجاهدية والغزالية بدمشق ، وتوفى سنة ٥٧٨هـ . ودفن بمقابر الصوفية ، وألف عقيدة أهداها لصلاح الدين ، أنظر ترجمته عند ابن خلكان : وفيات الأعيان (الطبعة القديمة) ، ج ٢ ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، السبكى : طبقات الشافعية ، ٤: ٣٠٩ - ٣١٠ ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ ، ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى لابن عساكر ، ص ١٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، وأنظر قبله .

(٤) طبقت هذه الرسالة بالهند ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م ، وأنظر قبله .

(٥) عنوان هذه القصيدة .. حدائق الفصول .. طبعت بمصر ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م ، وأنظر قبله .

(٦) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٢٧ - ١٢٨ ، أنظر قبله .

(٧) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، وأنظر قبله .

(٨) هو محمد بن الطيب البصرى ، ثم البغدادى المعروف بالباقلانى ، أبو بكر ، متكلم على مذهب الأشعرى . ولد بالبصرة سنة ٣٣٨ . وسكن ببغداد ، رد على المعتزلة والشيعة والخوارج والجهيمة وغيرهم ، وتصانيفه " أسرار الباطنية " أنظر ترجمته عند ابن عساكر ، تبين ، ص ٢١٧ - ٢٢٥ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، ج ٥ ، ص ٣٧٩ - ٣٨٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان (الطبعة القديمة) ج ١ ص ٦٠٩ .

بحجته[1] ؛ فيذكر ابن عساكر مناظرة الباقلانى للمعتزلة فى مجلس فناخسروا البويهى ، وقطعة لهم وتأليفه كتابه الشهير التمهيد فى الدين ، بحيث كان بداية انتشار مذهب الأشعرى فى إيران على يد الباقلانى من مدينة شيراز عاصمة ملك فناخسرو[2] ، ثم تابع تلامذة الباقلانى ، نشر الدعوة فى العراق وخراسان[3] ، بحيث دانت للسنة على الطريقة الأشعرية أهل البسيطة إلى أقصى بلاد أفريقية ، وغلبت الدعوة الأشعرية على بلاد العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب[4] .

وهنا يستوقفنا أن الدعوة الأشعرية ، بعد احتوائها للدعوة البويهة الشيعية بالعراق وإيران ، راحت تركز جهودها لنشر عقيدتها السنية فى البلاد التى كانت خاضعة فى القرنين الرابع والخامس الهجرى للخلافة الفاطمية الشيعية وهى بلاد الشام ومصر والمغرب والحجاز .

وأول من نشر الدعوة بالشام ، صاحب الأشعرى ، أبى الحسن عبد العزيز الطبرى ، راوية تفسير ابن جرير الطبرى عن مؤلفه[5] ، ثم تأكد انتشارها بالشام ، حين بعث أبو بكر الباقلانى ، فى جملة من بعث من أصحابه إلى البلاد لنشر الدعوة ، داعيه أبا عبد الله بن حاتم الأزدى إلى الشام ثم إلى القيروان وبلاد المغرب ، فدان له أهل العلم من ائمة الشوام والمغاربة[6] ؛ وتعود أهل الشام ، على اجتلاب كبار الأئمة من المذهب الأشعرى حينًا بعد حين ، كالإمام قطب الدين النيسابورى ، الذى اجتلبه نور الدين زنكى ، على طلب العلماء[7] ، ولقد ألف القطب النيسابورى عقيدة لصلاح الدين حفظها هو وأولاده حين كان لايزال فى خدمة نور الدين ، فاعتنقوا المذهب الأشعرى وتحمسوا له[8] ؛

---

(١) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، لابن عساكر ، ص ١٥ .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١١٨ - ١٢٠ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٢٠، انتشرت الدعوة الأشعرية بنيسابور على يد أبى الطيب الصعلوكى، (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٥٤) ، وفى خرجان على يد عبد الملك الجرجانى (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٥٤ - ٥٥) ، ولقد نجح أبو بكر القفال الشاشى فى نشر مذهب الأشعرى وفقه الشافعى فى بلاد ما وراء النهر (ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٨٢) .

(٤) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٥ .

(٥) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٩٥ ، محمد الكوثرى : مقدمة تبين ، ص ١٥ .

(٦) ابن عساكر : تبين ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، محمد الكوثرى : مقدمة تبين ، ص ١٥ .

(٧) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٦ .

(٨) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٤ وأنظر قبله .

وحين توفى الإمام ابن عساكر ، مؤرخ الدعوة الأشعرية ، وناصرها فى بلاد الشام بدمشق سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م، حضر جنازته بالميدان والصلاة عليه السلطان صلاح الدين الأيوبى بنفسه [١].

والغريب أن الفاطميين بالشام ، لم يدركوا منذ الوهلة الأولى خطورة دعاة الأشاعرة على وجودهم المذهبى والسياسى فى بلاد الشام ، فنسمع أن إمام المسجد الأموى ، إبان قوة الفاطميين بالشام ، كان أشعرى المذهب [٢] ، وإن كان يبدو أن أبا عبد الله الأزدى ، الذى بعثه الباقلانى لنشر الدعوة بالشام ، لم يهنأ له الاستقرار هناك ، واضطر إلى مغادرة الشام إلى المغرب حيث استقر بالقيروان [٣] .

ولكن ما لبث دعاة الأشاعرة ، أن أظهروا حقيقة نواياهم العدائية ضد الحكم الفاطمى بالشام فاتخذوا مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وسيلة لمناوءة الحكم الفاطمى بدمشق [٤] . وأغلب الظن أنهم حققوا لدعوتهم قدرًا كبيرًا من النجاح ، تأييد بسقوط الحكم الفاطمى بالشام ، واستقرار الفرع السلجوقى الشامى هناك ، واتخاذه من دمشق عاصمة له [٥] . بحيث أننا نجد السلطان تتش بن الب أرسلان السلجوقى ، يتردد بنفسه على الفقيه والمتكلم الأشعرى أبو الفتوح نصر المقدسى ، ويستشيره فى أموره ، وكان أبو الفتح المقدسى ، قد اشتهر بعداوته للشيعة [٦] .

أما فى مصر عاصمة الخلافة الفاطمية ، فلقد حاول الأشاعرة نشر عقيدتهم بمصر ، فى آخر العصر الأخشيدى ، وقبيل الفتح الفاطمى لمصر ، عن طريق محاولة استمالة الوزير الأخشيدى جعفر بن الفرات [٧] . ولكن يبدو أن هذه المحاولة باءت بالفشل ربما نتيجة للنشاط المتزايد لدعاة الفاطميين فى نشر مذهبهم بمصر فى نهاية العصر الأخشيدى [٨] ، وأغلب الظن أن دعاة الأشاعرة بمصر ظلوا

---

(١) أنظر ترجمة ابن عساكر عند العماد : الخريده ، ج ١ ، ص ٢٧٤ ، ابن خلكان : وفيات ج ١ ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ ، السبكى : طبقات الشافعية ، ٤ : ٢٧٣ – ٣٤٣ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٢٦١ ، النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ، ١ : ١٠٠ – ١٠١ ، والجدير بالذكر أن نور الدين زنكى ، قد بنى دار الحديث النورية بدمشق ، وأوكل إلى ابن عساكر التدريس بها .

(٢) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢١٥ – ٢١٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢١٦ – ٢١٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .

(٥) أنظر قبله .

(٦) ابن عساكر : مصدر سابق ، ص ٢٨٦ .

(٧) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٩٣ .

(٨) ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٠٦ .

في خفية وتستر ، طالما ظلت الخلافة الفاطمية قوية متماسكة ، ولكن مع ضعف الخلفاء المتأخرين وتغلب وزراء السيوف على السلطة الحقيقية واستهانتهم بالسلطة الروحية للخلفاء ، مما أدى بالتالى إلى ضعف العقيدة الإسماعيلية فى قلوب المصريين[1] ، استقوى نشاط دعاة الأشاعرة بمصر ، فى أيام الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، فحدثت فتنة ضخمة عرفت بفتنة القصار ، أشعلها داعيان أشعريان منذ سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م . مما أدى إلى إغلاق الفاطميين لدار العلم ، إذا استطاع هذان الداعيان واسم أولهما بركات واسم الثانى حميد بن مكى الأطفيحى ، استمالة عدد من الأساتذة المحنكين من حاشية القصر الفاطمى ، وانتهى الأمر ، بقتل هؤلاء الأساتذة المحنكين ، وقتل الداعى بركات ، ونجاح القصار فى الهرب ، ثم عاد مرة أخرى يبث دعوته ويستميل المصريين إليها فى عصر المأمون البطائحى ويستهوى عقول الناس ، حتى تم قتله فى سنة ٥١٧هـ / ١١٢٣م[2] .

أما بلاد الحجاز ، فكان أول من قام بنشر المذهب الأشعرى بها الحافظ أبو ذر الهروى راوية كتاب الجامع الصحيح ، وعنه أخذ من ارتحل إليه من علماء الأفاق[3] ، ثم قام إمام الحرمين الجوينى بجهود أخرى فى سبيل هذه الغاية ، وذلك بعد هروبه من نيسابور سنة ٤٤٥هـ م / ١٠٥٣م ، عقب محنة الأشاعرة بها ، واستقراره لعدة أعوام مجاورا بمكة[4] .

ويبدو أن انتشار الدعوة الأشعرية بالمغرب والأندلس ، إبان الحكم الفاطمى ، كانت أكثر سهولة ويسرًا ، وذلك لضعف السيطرة السياسية للفاطميين على هذه البلاد . فبعد استقرار أبو عبد الله الأزدى بالقيروان واستجابة أهلها لدعوته[5] . رحل إلى بلاد الشام عالم مغربى ، هو أبو عمرو عثمان بن أبى بكر بن حمود بن أحمد السفاقسى ، وأخذ المذهب بالشام ثم عاد ونشره بالقيروان ، بعد أن قص على أهلها قصة خروج أبى الحسن الأشعرى عن مذهب المعتزلة[6] . ثم تناوب نشر مذهب الأشعرى بالمغرب كبار فقهاء القيروان مثل محمد بن سحنون ، وابن الحداد ، وإبى محمد بن أبى زيد ، وأبى الحسن القابسى[7] ، وفى نفس الوقت بذل كل من ابن أبى زيد

---

(١) أنظر قبله .

(٢) راجع خير طويل عن فتنة القصار ، عند المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٣) محمد زاهد الكوثرى : مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٥ - ١٦ .

(٤) أنظر ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ٢٧٨ - ٢٨٥ .

(٥) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٩٥ ، وأنظر قبله .

(٦) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٤٠ ؛ كما يفيد ابن عساكر أن المذهب الأشعرى انتشر بالمغرب على يد تلميذ آخر للباقلانى غير ابن عبد الله الأزدى ، وهو أبو طاهر البغدادى الناسك الواعظ ؛ والملاحظ أن كلاهما استقر بالقيروان (أنظر ابن عساكر ص ١٢٠ - ١٢١) .

(٧) ابن عساكر : المصدر السابق ، ١٢٢ .

وأبى عمران الفاسي ، وأبى الحسن القابسي ، وأبو الوليد ابن الباجي ، وابن بكر بن العربـى ، جهـودًا كبيرة ، في نشر المذهب في صقلية والأندلس على يد علماء المالكية[1] ، بل حاول محمد بن أبـى زيـد المالكى ، أن ينشر المذهب الأشعرى بمصر في نهايـة العصـر الفـاطمي ، بـأن ألـف رسـالة عـن العقيـدة الأشعرية ، وأرسلها إلى مصر ، فعمد محدثو مصر من أهل السنة ، مثل على بـن بقـاء المصـرى الـوراق على استنساخها بخطوطهم[2] ؛ أى أن المذهب الأشعرى ، أحـرز مـن النجـاح والـرواج بـالمغرب ، مـا جعل من مدينة القيروان قاعدة لنشره بالأندلس وصقلية ومصر .

ولاشك أن الغلبة الحقيقية للمذهب الأشعرى على أغلب أرجاء العـالم الإسـلامى ، لـم تتحقـق إلا بعد اعتناق سلاطين السلاجقة بإيران والعراق ثم الشام له ؛ وهذا لم يتأت إلا بعد اضطهاد وأهوال ذاقها الأشاعرة ، على يد السلطان طغرلبك السلجوقي ووزيره عميـد الملـك الكنـدرى ، الـذى كـان معتزلى المذهب ، فأمر في سنة ٤٤٥هـ / ١٠٥٣م ، بلعـن الأشعرى علـى المنـابر ، وبطـرد الأشـاعرة من نيسابور[3] ، وكانت أهم مراكز دعوتهم . ومن نيسابور انتشرت محنـة الأشـاعرة فـى الآفـاق[4] ؛ وذلـك بعـد عـزل شـيخهم أبى عثمـان الصـابوني مـن خطابـه نيسـابور ، ونفـى أبـو المعـالى الجوينـى من البلدة[5] ، وأرغم بعضهـم على التبرأ مـن مذهبـه لتلافـى النفـى[6] ، واضطـر الأشـاعرة إلى رفـع عريضة ، على لسان شيخهم أبى بكر البيهقى ، إلى السلطان طغرل السـلجوقى ووزيـره عميـد الملـك الكنـدرى ، يؤكـدون أنهـم مـن أهـل السـنة والجماعـة ، ويشـرحون كيـف أن الأشـعرى ، ليـس من المتكلمين المبتدعين ، بل إن مذهبه قد صيغ لنصـرة مذاهـب ائمـة فقهـاء أهـل السـنة المجتهديـن ، وشرح منهج السلف ؛ وإن اعتقادهم السياسى ، هو أن استقامة أمـور الدنيـا والديـن بصـلاح الـولاة والسلاطين ، وأنهم يقررون أن بقاء الملك يكون بالعدل ، وأن صلاح الملك بصلاح الدين[7] .

---

(١) ابن عساكر : المرجع السابق ، ص ١٢٣ ؛ وأنظر ابن حجر : لسان الميزان ؛ ابن فرحون : الديباج .

(٢) محمد زاهد الكوثرى: تبين كذب المفترى ، ص ١٥ . وقد رأيت هذه الرسالة مطبوعة بتونس عند زيارتى لها.

(٣) ابـن عسـاكر : تبـين كـذب المفـترى ، ص ١١٠ - ١١١ ، الراونـدى : راحـة الصـدور ، ص ١٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٥٧ .

(٤) ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(٥) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٠٨ .

(٦) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٢٦٤ . ولقد وصلنا نص محضر كتبـه شيوخ الأشاعرة بنيسـابور بخصـوص عقيدتهم مؤرخ سنة ٤٣٦هـ ، أى قبل المحنة ، وعليه إمضاءات القشيرى والجنـازى والجوينـى والشـاشى والهروى والأيوبى والصابونى والأسفرانى وغيرهم (أنظر ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١١٢ - ١١٥) .

(٧) أنظر نص هذه العريضة عند ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٠٠ - ١٠٨ .

ثم ابتسمت الأقدار للأشاعره ، باعتناق الوزير نظام الملك لدعوتهم ، واعتناق سلطانه ألب أرسلان أيضًا لمذهبهم ، وبناء نظام الملك المدرسة النظامية لنشر دعوتهم بالعراق[1] ، ومن يومها أصبحت المدارس السنية ، أهم وسائل نشر الدعوة الأشعرية ، وعن طريقها تحولت مصر والشام معقل الإسماعيلية إلى المذهب السنى على يد الزنكيين ثم الأيوبيين[2] .

ولقد شبه الأشاعرة لعنهم على المنابر فى عهد السلطان طغرلبك ووزيره الكندرى بلعن الإمام على بن أبى طالب على المنابر فى الدولة الأموية نحوا من ثمانين سنة[3] وسجل أبى القاسم القشيرى محنته ومحنة زملائه بنيسابور فى رسالة سماها . شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة ، رفعها إلى العلماء الأعلام بجميع بلاد الإسلام[4] .

وفى سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، أزال الوزير نظام الملك فى عصر ملكشاه ، لعن الأشاعرة على المنابر[5] ، وكان الب أرسلان قد قتل الوزير المعتزلى عميد الملك الكندرى الذى امتحنهم بإيحاء من وزيره الجديد نظام الملك[6] ، ومن يومها اعتنق جمع سلاطين السلاجقة العقيدة الأشعرية[7] .

وكانت وسائل نشر الدعوة الأشعرية ، سواء قبل اعتناق نظام الملك وسلاطين السلاجقة لها أو بعدها هى نفسها لم تتغير ، وهى تطابق فى الواقع الوسائل التى اتخذها الأيوبيون فى مصر لنشر الدعوة السنية والقضاء على الدعوة الإسماعيلية ، مثل إنشاء المدارس[8] والخوانق[9] ، والمنشآت الاجتماعية ، مثل دور المرضى ودورها الغرباء[10] ، ووقف عليها الأوقاف[11] ؛ بحيث فاخر دعاة

---

(١) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ : ٦٤ - ٦٨ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٢٠٤ - ٢١٠ .

(٢) أنظر المقريزى : الخطط : ص ١٩٢ - ١٩٣ ، وأنظر قبله .

(٣) ابن عساكر : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٠٩ - ١١٢ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ١٠: ٢٠٩ ، أبو الفدا : المختصر ، ٣: ١٩٣ ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٦) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٧) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ، وأنظر قبله .

(٨) ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، ص ١٩٩ ، ص ٢٠٨ ، ص ١ ، ص ٢١١ ، ص ٢٣٢ ، ص ٢٧٩ ، ص ٢٨٠ ، ص ٢٩٢ ، ص ٣٢٤ وأنظر قبله .

(٩)ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٢٩٥ وأنظر قبله .

(١٠) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ٢٣٤ ، ص ٢٣٦ .

(١١) ابن عساكر : نفس المصدر ، ص ١٩٩ ، ص ٢٩٥ .

الأشاعرة المتأخرون مثل عبد القاهر البغدادى[١] ، ومظفر الدين الأسفراينى[٢] ، بأن منشآت أهل السنة وملوكهم ، لم يستطع الفاطميون إنشاء مثلها ؛ كما تولى الكثيرون من فقهائهم وائمتهم منصب القضاء فى العصر السلجوقى[٣] ، الذى كان أغلب الظن شأن الحال فى الدولتين الزنكية والأيوبية ، له الإشراف الأعلى على المدارس السنية[٤] .

وإذا كان الإمام أبى الحسن الأشعرى ، قد عمد إلى اجتذاب جمهور الصوفية إلى دعوته باعترافه بكرامات الأولياء[٥] ، وجعله الإيمان ، منوط بالقلب ، شأن الصوفية والمرجئة[٦] ، على عكس المعتزلة الذين جعلوه مقترنًا بالعقل[٧] ؛ فلقد لاحظ الباحثون المحدثون أنه بتأثير الأشاعرة وتأثير الغزالى بنوع خاص ، اكتسب المتصوفة مركزًا ممتازًا فى العالم الإسلامى[٨] .

ولا يغب عنا أن جميع ائمة التصوف السنى ، كانوا من معتنقى العقيدة الأشعرية[٩] ، الداعين إليها ، ولقد ترجم لهم جميعًا ابن عساكر بين أئمة الأشاعرة ، ومن هؤلاء الصوفية الذين اعتنقوا العقيدة الأشعرية وعملوا على نشرها أبو الحسن الباهلى[١٠] ، وبندار الشيرازى[١١] ، وأبو سهل الصعلوكى النيسابورى[١٢] ، وأبو عبد الله بن خفيف الشيرازى[١٣] ، وابن سمعون البغدادى[١٤] ، وابن الدقاق شيخ أبى القاسم القشيرى[١٥] ، وأو نعيم الأصفهانى[١٦] ، صاحب أشهر كتاب

---

(١) أنظر عبد القاهر البغدادى ، ت ٣٢٥ هـ : الفرق بين الفِرَق ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، طبع القاهرة ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) أنظر أبو المظفر الأشعرانى ، ت ٤٧١هـ ، البصير فى الدين ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، طبع القاهرة ، ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥م ، ص ١٧٦ .

(٣) أنظر ابن عساكر : تبين ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦١ .

(٤) أنظر قبله .

(٥) أنظر قبله .

(٦) أنظر قبله .

(٧) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ٩١ .

(٨) نفس المرجع ، ص ٩٣ .

(٩) يأتى على رأس هؤلاء الإمام الصوفى الشهير محى الدين بن عربى ، كما حقق الإمام شمس الدين السخاوى فى رسالته المسماة (الكفاية فى طريق الهداية) ، وهى فى بيان عقيدة ابن عربى ، وإن جعل ابن عربى عقيدة الأشعرى هى عقيدة العامة ، وجعل عقيدة الصوفية هى عقيدة الخاصة ، وجعل قوله هو فى وحدة الوجود ، هو عقيدة خاصته الخاصة . ومن هذه الرسالة نسخة خطية بالمكتبة الوطنية بتونس برقم ٦٦٦٢ ، قمت بنسخها إبان وجودى هناك ، وهى تحت التحقيق والطبع إن شاء الله .

(١٠) ابن عساكر : تبين ، ص ١٧٨ .

(١١) نفس المصدر ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ١٨٣ - ١٨٨ .

(١٣) نفس المصدر ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

(١٤) نفس المصدر ، ص ٢٠٠ .

(١٥) نفس المصدر ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(١٦) نفس المصدر ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

فى تراجم الصوفية ، وهو كتاب حلية الأولياء[1] ، وأبو القاسم القشيرى[2] ، صاحب أشهر كتاب فى الفكر الصوفى « الرسالة القشيرية »[3] ، وأبو عبد الله الفراوى[4] ، وإمام الحرمين الجوينى[5] ، وأبو حامد الغزالى[6] ، الذى ألف كتابًا شهيرًا فى التصوف فى نهاية حياته هو المنقذ من الضلال[7] ؛ فلا غرو أن أصبح التصوف من أقوى وسائل نشر الدعوة الأشعرية ومحاربة مذاهب التشيع ، وهذا ما أدركناه بوضوح فى العصر الأيوبى بمصر[8] .

كما عمد دعاة الأشاعرة إلى عقد مجالس التذكير والوعظ الصوفى[9] ، وعقد المناظرات الكلامية بينهم وبين مخالفيهم من متكلمي الشيعة وغيرهم ؛ كذلك كانت الخطابة أيضًا على المنابر ، إحدى وسائل نشر العقيدة الأشعرية[10] .

ولقد وجه هؤلاء الدعاة اهتمامًا كبيرًا نحو تأليف مؤلفات فى شرح العقيدة الأشعرية وتفنيد عقائد المخالفين لها ، ونشرها فى الآفاق ، فكانت كتب أبو الحسن الأشعرى فى الأفاق مبثوثة[11] ، وكان للأشعرى خمسة وخمسون تصنيفًا[12] ، كذلك اشتهرت مؤلفات الباقلانى[13] ، والجوينى[14] ، والغزالى[15] .

---

(١) طبع هذا الكتاب فى عشر أجزاء ضخمة بمصر على نفقة مكتبة الخانجى ومطبعة السعادة ، سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢ م .

(٢) طبع هذا الكتاب لأول مرة بمصر سنة ١٢٨٤ هـ بمطبعة بولاق ثم طبع بعد ذلك مرارًا .

(٣) ابن عساكر : تبين ، ص ٣٢٢ - ٣٢٥ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨٤ .

(٥) أنظر قبله .

(٦) نفس المصدر ، ص ٢٩١ - ٢٩٨ .

(٧) طبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٣٨٥ هـ ، بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود .

(٨) أنظر قبله .

(٩) أنظر ابن عساكر : تبين ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، و ٢٨٣ .

(١٠) أنظر نفس المصدر ، ص ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣٣ و ٢٨٢ .

(١١) نفس المصدر ، ص ١١٢ - ١٤١ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ١٢٨ - ١٤٠ .

(١٣) أنظر مثلا الباقلانى : التمهيد فى الدين ، فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ، تحقيق محمود محمد الخضيرى ، محمد عبد الهادى أبو ريدة، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م، ومنه طبعة أخرى بتحقيق يوسف مكارثى اليسوعى ، المكتبة الشرقية بيروت ، ١٩٥٧ ، وأنظر أيضًا كتاب الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به ، تحقيق الكوثرى القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠ م .

(١٤) أنظر قبله كتابيه " غياث الأمم ، والعقيدة النظامية ". ولقد نشرت الدكتورة فوقية حسين أخيرًا بعض مؤلفات الجوينىفى علم الكلام ، كذلك نشر له من قبل كتابه الإرشاد ، فى علم الكلام .

(١٥) أنظر قبله ، وأنظر عبد الرحمن بدوى : مؤلفات الغزالى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، واشهر مؤلفات الغزالى " إحياء علوم الدين ، وهو موسوعة فى العلوم الإسلامية ، وكتابه تهافت الفلاسفة ، الذى أظهر فيه فساد مذاهب الفلاسفة ، وكتاب المنقذ من الضلال ، الذى دلل فيه على صدق طريقة الصوفية فى تحقيق الإيمان .

وفى نفس الوقت عمد فريق آخر ، من دعاة الأشاعرة التى تأليف المؤلفات فى تاريخ الفرق الإسلامية ، وعرض مذاهبها ، وتفنيدها من وجهة نظر المذهب الأشعرى ؛ فكان من هؤلاء ، الأشعرى نفسه فى كتابه مقالات الإسلاميين[١] والشهرستانى فى كتابه الملل والنحل[٢] ، وكتابه نهاية الإقدام فى علم الكلام[٣] ، وعبد القاهر البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق[٤] ، وكتابه أصول الدين[٥] ، وأبو إسحاق الأسفرانى فى كتابه التبصير فى الدين[٦] .

وغنى عن البيان أن كل هذه الوسائل التى اتخذها دعاة الأشاعرة لنشر دعوتهم قد طبقها الأيوبيون بمصر ولم يقصروا فى واحدة منها[٧] ؛ ومع ذلك فلم يكن نشر العقيدة الأشعرية بمصر فى العصر الأيوبى ، هيّنًا سهلاً ، وذلك لوجود عدد من الحنابلة ، أعداء الأشاعرة ، ومخالفيهم فى مسألة الصفات الإلهية ؛ فنسمع عن عداء شديد بين شهاب الدين الطوسى الأشعرى ، وزين الدين بن نجية الواعظ الحنبلى بمصر[٨] ؛ كما نسمع عن عداء سافر أيضًا بين شهاب الدين الطوسى ، وطائفة الحنابلة بمصر[٩] .

ونحن نفسر عناية الأيوبيين ، بنشر الفقه الشافعى بمصر عن طريق تفويض القضاء لقاضى قضاة شافعى أشعرى هو ابن درباس الكردى، ثم عزل جميع القضاه الإسماعيلية وتعيين بدلهم قضاة شوافع، فتظاهر الناس من حينئذ بمذهب مالك والشافعى[١٠] ؛ بأن العقيدة الأشعرية ، أصبحت هى العقيدة المفضلة فى مسائل أصول الدين عند جميع فقهاء الشافعية ، بحيث أصبح ثلاثة أرباع الفقهاء الشافعين على العقيدة الأشعرية[١١] ، فى حين بالغ الفقيه الحنبلى أبو الفرج ابن الجوزى ، فذكر أن جميع فقهاء

---

(١) طبع هذا الكتاب بتحقيق المستشرق الألمانى ، هلموت ريتر ، ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣م .

(٢) طبع بمطبعة بولاق على هامش كتاب الفصل فى الملل والنحل لابن حزام الأندلسى ، ثم طبع منفردًا مرارًا .

(٣) طبع بتحقيق المستشرق الفريد جيوم .

(٤) طبع هذا الكتاب بتحقيق محمد زاهد الكوثرى ، بالقاهرة ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٩م .

(٥) طبع هذا الكتاب باستانبول سنة ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م .

(٦) طبع هذا الكتاب بتحقيق محمد زاهد الكوثرى ، القاهرة ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م وأنظر أيضًا كتاب الفخر الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، طبع بالقاهرة .

(٧) أنظر قبله .

(٨) أنظر أبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٩) أبو شامة : نفس المصدر ، ص ١٨ - ١٩ .

(١٠) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦١ وأنظر قبله .

(١١) محمد زاهد الكوثرى ، مقدمة تبين كذب المفترى ، ص ١٦ .

الشافعية ، قد أخذوا بمذهب الأشعرى[1] فى العقائد والقضايا الإيمانية ؛ والواقع أننا كثيرًا ما نسمع فى تراجم الفقهاء بأنه كان يناظر على مذهب الشافعى فى الفقه وعلى مذهب الأشعرى فى الكلام[2] ، كما أن الداعى الأشعرى أبو بكر القفال الشاسى ، قد نشر الفقه الشافعى والعقيدة الأشعرية فى بلاد ما وراء النهر[3] ، وفى كل هذا ما يشير إلى تمسك فقهاء الشافعية بالعقيدة الأشعرية ، واعتزاز متكلمى الأشاعرة بالفقه الشافعى .

أما الإمام الأشعرى نفسه ، فقد نشأ على مذهب أبى حنيفة ، شأن أغلب المعتزلة ، وهو نفسه معتزلى فى بادىء الأمر ، ثم نظر فى جميع مذاهب الفقه ، مما ساعده على جمع شمل أهل السنة ، وإن كان قد صرح فى حياته بإعجابه الشديد بفقه أحمد بن حنبل - ربما لاجتذاب الحنابلة إلى عقيدته[4] - أما فى القرنين الخامس والسادس والسابع الهجرى ، فقد أصبح المذهب الشافعى ، هو المذهب الفقهى المفضل لعلماء الأشاعرة ، فنجد الإمام الجوينى ، يؤلف كتابًا بعنوان « عقيدة أصحاب الإمام المطلبى الشافعى » ، ذكر فيه أن مخالفات الأشعرى للشافعى فى فروع الفقه ، تقل وتعز[5] ، كما ألف الإمام الفخر الرازى كتاب « مناقب الإمام الشافعى »[6] .

ويذكر المقريزى أنه لم يكن فى الدولة الأيوبية بمصر ، كثير ذكر لمذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل ثم اشتهر مذهب أبى حنيفة وأحمد بن حنبل فى أخرها[7] ، وذلك على يد الفقيه الحنبلى ابن تيمية الحرانى ، الذى أظهر الدعوة السلفية ، وهاجم المعتزلة والأشاعرة على حد سواء ، على أساس أن كلاهما من المتكلمين وليسوا من أهل الحديث ، شأن الحنابلة[8] .

ولا شك أنه من العوامل التى ساعدت الأيوبيين على نشر الفقه الشافعى بمصر ، أنه كان قد انتشر بها من قبل انتشارًا كبيرًا منذ سكن الإمام الشافعى الفسطاط ، ودفن بها[9] .

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ، ٥ : ٣٣٢ - ٣٣٣ ، إبان ترجمة أبى الحسن الأشعرى .
(٢) ابن عساكر : تبين ، ص ١٨٢ .
(٣) نفس المصدر ، الصفحة .
(٤) ابن عساكر : تبين ، ص ١١٤ ، ص ١١٧ ، هامش (١) إلى ص ١١٨ .
(٥) نفس المصدر ، ص ١١٥ .
(٦) طبع هذا الكتاب بالقاهرة .
(٧) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٦١ .
(٨) المقريزى : الخطط ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .
(٩) راجع محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية (عصر الولاة) دار الفكر العربى ، د. ت ، ص ٥١ - ٦٠ .

ويرى المستشرق أيرلابيدوس أن الهدف الأساسى للسياسة الدينيـة فى العصـر الأيوبـى ، كـان إعادة النشاط للمذاهب الشرعية فى القاهرة ومصر ، وكانت هذه المذاهب الفقهية قد تطورت بمضـى الزمن إلى أجهزة ذات اهتمامات إدارية واجتماعية (مثل النظـم الماليـة والقضائيـة ووسـائل الدعـوة) وما حل القرن الخامس الهجرى ، حتى اتخذت كل هذه المذاهب شكل الجماعـات التـى يغلـب عليهـا الطابع الاجتماعى والدينى معًا[1] .

والخلاصة أن كل من العقيدة الأشعرية ووسائل نشـرها مـن ناحيـة والفقـه الشـافعى مـن ناحيـة أخرى ، كانت تمثل فى العصر الأيوبى ، إحدى شقى الدعوة السنية التى نشرها الأيوبيون بعد قضائهم على الدعوة الإسماعيلية .

---

(١) إيرا لابيدوس : السياسة الدينية فى عهد الأيوبيـين ، وتطـور المذاهـب الشـرعية فـى القـاهرة ، أبحـاث النـدوة الدولية لتـاريخ القـاهرة ، مـارس - إبريـل ١٩٦٩م ، مطبعـة دار الكتـب المصريـة ١٩٧٠م ، الجـزء الأول ، ص ٢٥٣ - ٢٥٥ .

الفصل الرابع

الوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية

- فقدان الخلافة لسلطتها الزمنية وظهور السلاطين .
- مصر الأيوبية « إمارة استيلاء » ودارًا للـ « سلطنة الأيوبية » .
- إحياء الأيوبيين لدولة الخلافة العباسية .
- نهوض الأيوبيين بفريضة الجهاد .
- استجابة سلاطين بنى أيوب لدعوة الفتوة الناصرية الخليفتية .

الوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية

فقدان الخلافة لسلطتها الزمنية وظهور السلاطين :

تذكرنا أسرة بنى أيوب الكردية ، بالأسر الطموحة ، التى سيطرت من قبل على السلطة الزمنية فى ديار الإسلام ، بعد ضعف النفوذ السياسى لوظيفة الخلافة ، واستبداد الأمراء العسكريين من أرباب السيوف بالسلطة التنفيذية الفعلية فى البلاد ؛ فمقارنة ملابسات نشأة الأسرة الأيوبية[١] ، وظهورها فى ساحة التاريخ الإسلامى ، بتاريخ ظهور أسرتى بنى بويه وبنى سلجوق ، يوضح لنا مدى تشابه تاريخ هذه الأسر العسكرية الثلاث ، التى استطاعت السيطرة على الخلافة العباسية ، وتولى التوجيه السياسى والعسكرى للعالم الإسلامى .

ولقد عرفت دولة الخلافة العباسية بالعراق لأول مرة ، هذا النمط من الحكم العسكرى ، المتغلب على وظيفة الخلافة ، صاحبة السلطات الشرعية فى ديار الإسلام ، منذ ظهور وظيفة أمرة الأمراء فى بغداد ، منذ عصر الخليفة العباسى الراضى بالله ، فى القرن الرابع الهجرى ٣٢٤هـ / ٩٣٥م[٢] .

---

(١) أنظر ابن الأثير : الباهر ، ص ١١٩ - ١٢٠ ، الكامل ، ١٠: ٦٧٥ ، ١١ ، ١١٨ ، ٢٥١ - ٢٥٢ ، ٣٤١ - ٣٤٣ ، سبط : مرآة ، ٨ : ٢١٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٤٢٥ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٩ ، ابن خلكان : وفيات ١: ٢٥٥ - ٢٦١ ، ٧: ١٣٩ - ١٤٧ ، ابن واصل : مفرج ، ١: ٣ - ١٠ ، ابن أيبك : الدر المطلوب ، ٥ - ١٠ ، المقريزى: السلوك ١: ٤١ - ٤٣ ، وراجع على بيومى : قيام الدولة الأيوبية ص ٥٥ - ٩٢ V. Minoreskey: prehistory of Saladin, dans studies in Caucasian History, Cambridge, 1953, 107-128.

حيث يذكر أن نجم الدين أيوب وشيركوه ، قد التحقوا بشبابهما بخدمة الدولة الشدادية الكردية بالجزيرة الفراتية .

(٢) أنظر الصولى : أخبار الراضى والمتقى من كتاب الأوراق ، مطبعة الصاوى بالقاهرة ، ص ٨٥ ، حسن أحمد محمود ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ص ٣٦٧ - ٣٨٤ .

وما لبث هذا النمط من الحكم العسكرى ، أن تحول إلى ملك وراثى فى القرن الرابع والخامس الهجرى ، بعد سيطرة أسرة بنى بويه الفارسية ، على الخليفة العباسى فى بغداد وحجرهم عليه ؛ وإرغامهم له على تفويض جميع سلطاته الشرعية لهم[1] .

أما دولة الخلافة الفاطمية بمصر ، فكان ظهور هذا النمط من الحكم العسكرى بها ، فى وقت لاحق لظهوره فى دولة الخلافة العباسية بالعراق ، إذ أن هذا الحكم العسكرى المستبد بالسلطة دون الخلافة ، لم يظهر فى مصر ، إلا منذ الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى ، حين نجح بدر الجمالى فى إنقاذ دولة الخلافة الفاطمية فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، من التصدع والانهيار ، أثر الأزمات الاقتصادية والفتن السياسية ، التى مرت بها الخلافة فى نهاية حكم المستنصر ، واضطر هذا الخليفة إنقاذًا لدولته وخلافته ، إلى تفويض جميع سلطاته الشرعية إلى الأمير بدر الجمالى ، الذى أصبح بموجب هذا التفويض أول وزراء السيوف المفوضين فى تاريخ الخلافة الفاطمية[2] .

وكما سبق القول[3]، فقد لاحظ مؤرخو دساتير الإنشاء بمصر ، أن وظيفة « وزارة التفويض »، التى عرفتها مصر منذ عصر الخليفة الفاطمى المستنصر الله ، واقتصر توليها على الأمراء من أرباب السيوف ، تكاد تطابق الوضع السياسى والشرعى ، لوظيفتى أمرة الأمراء والسلطنة ، اللتين سيطرتا من قبل على التوالى ، على السلطة التنفيذية الفعلية بالعراق ، بعد زوال النفوذ السياسى لخلفاء بنى العباس .

---

(١) أفاد المسعودى ، أن هذا حدث فى عصر الخليفة المطيع ، وكان ذلك فى السنة التى ألف فيها كتابه التنبيه والإشراف سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م، أنظر التنبيه والإشراف ، طبعة الصاوى ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م، ص ٣٤٦، وأنظر ايضًا نفس المصدر ، ص ١٠٦ و ؛ ٢٧٧ويرى ابن الأثير أنه فى سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد ، أنظر الكامل ، ٩: ٤٤٠ ، ويذكر المؤرخون أنه فى سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م ، حدثت الوحشة بين الخليفة العباسى القائم وجلال الدولة ابن بويه ، أنظر أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ١٧٤ - ١٧٥ ؛ ولقد أوجز المقريزى تاريخ سلطنة بنى بويه ، أنظر السلوك ١: ٢٣ - ٣٠ ، وهو يتتبع إسلام الديلم على يد الداعى الشيعى الزيدى الناصر الأطروش ؛ ويقول ابن الأثير : أن المماليك كانوا قديمًا يخلعون الخلفاء، ويحكمون عليهم ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق ، فزالت هيبة الخلافة بالمرة ، إلى إنقراض دولة الديلم ، أنظر الباهر ، ص ٥١ ، وأنظر ابن خلدون : المقدمة ، الفصل الثامن والعشرون ، فى انقلاب الخلافة إلى ملك ، ص ٢٠٢ - ٢٠٨ .

(٢) أنظر الخالدى : المقصد العالى المنشأ ، - خ ، لوحة ١٩٢ ب - ١٩٥ ب ، القلقشندى صبح ، ٩: ٣٩٩ - ٤٠٠ ، ٤٠٠ - ٤٠٣ ، ماجد : نظم الفاطميين ١ : ص ٨٢ - ٨٧ .

(٣) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية .

ورغم تسليم فقهاء الإسلام ، بأن هذه الأنماط من الحكم العسكرى ، الذى احتكره الأمراء العسكريين ، وفرض نفسه على ديار الإسلام ، إثر ضعف السلطة السياسية والعسكرية للخفاء العباسيين بالعراق ، والفاطميين بمصر ، نظام عسكرى ، أساسه الاستعداد واستحواذ الملك والسلطة ، اعتمادًا على القوة العسكرية ، واستمالة الأنصار والأتباع بالوسائل السياسية ؛ ورغم تصريح هؤلاء الفقهاء ، بأن هذه الأنماط من الحكم العسكرى ، لاتستند إلى نص شرعى ، وقل أن يتوفر فى القائمين بها الشروط الشرعية اللازم توافرها فى متولى وظيفة الإمامة الكبرى أى الخلافة ، أو ما يقوم مقامها ؛ إلا أن فقهاء الإسلام ، أضطروا إلى قبول هذه الأنماط من الحكم العسكرى ، الذى تبلور فى صورته النهائية فى وظيفة السلطنة ، على أساس أن ما قام به هؤلاء الأمراء المتغلبين على الخلافة ، فى فترات ضعفها السياسى والعسكرى ، من إقرار الأمن فى ديار الإسلام ، ورعاية إقامة شعائر الفرائض الدينية ، وتطبيق أحكام الشريعة ، وتتويج كل هذه الجهود ، بالنهوض بأعباء فريضة الجهاد ، قد ضمن استمرار رفعة كلمة الإسلام ، وتوحيد كلمته ، مما أوجب لهؤلاء الأمراء والسلاطين ، الثناء والتقدير[1] .

وإذا كان احتكار أمراء السيوف ، منذ النصف الثانى من عصر الخلافة الفاطمية ، لوزارة التفويض ، قد أدى إلى ابتذال هؤلاء الوزراء المفوضين لهيبة الخليفة الفاطمى ، والتلاعب بنص الخلفاء على من يتولى الخلافة من أبنائهم ، الأمر الذى شكك المصريين فى العقيدة الفاطمية ، التى ترتكز فى جوهرها على تقديس شخص الخليفة الفاطمى ، وفى نفس الوقت جرّأ بعض هؤلاء الوزراء المفوضين على إعلان استهانتهم بالعقيدة والمذهب الفاطمى ، وإظهار تعاطفهم وميولهم مع المذهب السنى ، بحيث استطاع آخر وزيران سنيان للفواطم ، وهما شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، القضاء نهائيًا على دولة الخلافة الفاطمية ، وإعلان عودة مصر للتبعية للخلافة العباسية بالعراق ، تمهيدًا لإعلان قيام السلطنة الأيوبية السنية بمصر[2] ؛ فإن احتكار أمراء السيوف لوزارة التفويض ببغداد ، فى ظل الخلافة العباسية ، قد شاءت الظروف أن يؤدى هذا الأمر فى النهاية على عكس الحال بالنسبة للخلافة الفاطمية ، إلى يقظة الخلافة العباسية مرة أخرى ، واستقواء النفوذ السياسى لدولتها .

---

(١) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ٢٣١ - ٢٨٣ ، وهو فصل موسع عَنْوَنَه بـ " القول فى ظهور مستعد بالشوكه مستولى " ، الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ، ص ١١٣ - ١١٨ ، خضر بن أبى بكر : المناقب المغرية - خ ، الفصل الثانى من الباب الأول ، عن وظيفة السلطنة ، ق ١١ - ١٣ ، والفصل الثالث من الباب الأول ، عن الإمامة والخلافة ، ق ١٣ - ٢٠ ، ابن جماعة : تحرير الأحكام - خ ، الباب الأول والثانى عن الإمامة ، والباب الرابع عن الأمراء ، وأنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٢) أنظر قبله .

لقد كان العصر البويهي ولا ريب شديد الوطأة على خلفاء بني العباس ؛ وبني بويه عائلة فارسية شيعية[1] ، تخالف المذهب السني للخليفة العباسي ، ولا تقر بأحقية بيت بني العباس في الخلافة ، دون بقية بني هاشم ، وخاصة البيت العلوي[2] ، لذلك تعاطف أمراء بني بويه ، مع الدعوة الفاطمية والخلافة الفاطمية المصرية[3] ، إلا أن التنافس السياسي بين هاتين القوتين العظمتين في ديار الإسلام[4] قد حال ـ رغم تقاربهما المذهبي ـ دون توحيد العالم الإسلامي تحت كيان سياسي وروحي موحد ، طوال فترة تعاصر الدولتين الفاطمية والبويهية[5] .

ومن ناحية أخرى ، استهان أمراء بني بويه ، بخلفاء بني العباس ، وبرسوم الخلافة العباسية ، وحجروا على الخلفاء العباسيين ، واستحوذوا على السلطة الزمنية الفعلية من دونهم ، وسرعان ما حولوا دولة الخلافة ببغداد ، إلى ملك وراثي متوارث في أسرتهم الأعجمية وذلك بملاحظة ابن خلدون ، واتخذوا لقب السلطنة ، دون اعتراف خلفاء بني العباس بشرعية هذا اللقب لأن بنو بويه اتخذوه من قبل أنفسهم[6] ، ومع ذلك فقد عد المؤرخون الحكم البويهي في العراق النموذج الأول لنظام السلطنة[7] ، من ناحية الألقاب الملوكية لبني بويه والوضع السياسي والشرعي لدولتهم[8] .

---

(١) عنها أنظر المقريزي : السلوك ، ١ : ٢٣ – ٣٠ .

(٢) أنظر الحاكم الجشمي : شرح عيون المسائل ، طبع بتونس بذيل كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار الهمداني ، بتحقيق فؤاد سيد ، ص ٣٧١ – ٣٧٤ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤٣٩ ، أبو إسحاق الصابي : ت ٣٨٤هـ : المنتزع من الجزء الأول من الكتاب المعروف بالتاجي في أخبار الدولة الديلمية ، حققه محمد صابر خان بطهران سنة ١٩٧٦م ، وتفيد هذه المصادر أن بني بويه ، كانوا من الشيعة الزيدية المعتزلة ، وهذا ما يفسر تعاطفهم مع الدعوة والخلافة الفاطمية ، وعن هذا الموضوع ، راجع مقدمة يحي الخشاب لكتاب سفر نامه لناصر خسرو ، ومقدمة محمد كامل حسين لكتاب سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة الشيرازي .

(٣) أنظر المؤيد في الدين الشيرازي : سيرة المؤيد في الدين ، داعي الدعاة ، ترجمة حياته بقلمه ، ص ٤ – ٣٠ ، ص ٦٤ – ٦٨ ، ص ٧٦ – ٨٠ ، ص ٢١ من مقدمة محمد كامل حسين لهذا الكتاب .

(٤) كان التنافس بين البويهيين والفاطميين على الدعوة الإسلامية على منبر المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحي الشرقي ، أنظر المقريزي : الخطط ٢: ١٣٧ ، ابن الجوزي : المنتظم ، ٧: ٢٦٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ٩: ١٦ ، الخطيب : تاريخ بغداد ، ٥: ٣٧٩ – ٣٨٠ ، ابن عساكر : تبين ، ص ٢١٨ ؛ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٤٧ – ١٤٨ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢: ١٧٨ .

(٥) أنظر أبو المحاسن : النجوم ، ٤: ١٢٤ – ١٢٥ ، ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٥٧ – ١٥٩ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة : ٢٠٢ – ٢٠٨ .

(٧) كما عدوه أيضاً السلف الأول للسلطنة السلجوقية والزنكية والأيوبية على التوالي ، أنظر أبو المحاسن : النجوم ، ٥: ٢٧٩ .

(٨) أنظر السيوطي : الوسائل ، ص ٧٨ ، القلقشندي : صبح ، ٥: ٤٤٧ – ٤٤٨ ، ٩: ٤٠٣ – ٤٠٤ .

ولكن منذ استقواء العنصر التركى السنى بالمشرق الإسلامى ، شهدت الخلافة العباسية بالعراق صحوة سياسية جديدة رفع لواءها السلطان التركى محمود الغزنوى ، الذى مد نفوذه على أغلب أقاليم المشرق الإسلامى ، وكان أول من حمل لقب السلطان فى ديار الإسلام بصفة شرعية وباعتراف وتفويض من الخليفة العباسى[1] ؛ وذلك بعد أن رفض فى سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م الاستجابة لدعوة الخليفة الفاطمى بالانضمام إليه[3] ، ونهض منذ سنة ٤١٢هـ/١٠٢١م باسم الخليفة العباسى ، وتفويض منه ، بحماية ألويه الحج القادمة بالحجيج من أطراف ديار الإسلام إلى بلاد الحجاز ، وتأكيد زعامة لواء الحج العراقى الممثل للخليفة العباسى ، على جميع الوية الحجيج الممثلة لملوك الأطراف المسلمين[3] ؛ ثم أعلنها حربًا لأهوادة فيها على الفرق الشيعية والكيانات السياسية للشيعة فى بلاد المشرق الإسلامى ، فعمل على الإطاحة بهذه الكيانات السياسية الشيعية والدعوة فى بلادها باسم الخليفة العباسى[4] ، ثم اضطهاد الفرق الشيعية واستتابتها عن مذهب الشيعة ، وقد تم له ذلك فى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م[5] . فكان السلطان محمود الغزنوى أول سلطان سنى ينتصر للخلافة العباسية ، وصارت أعماله نموذجًا يحتذى لجميع السلاطين السنيين بالمشرق الإسلامى[6] ، السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين على التوالى .

وحين ورث سلاطين السلاجقة ، السلطنة الغزنوية وممتلكاتها فى بلاد المشرق الإسلامى ، وكان السلاجقة أيضًا أتراكًا متحمسين للمذهب السنى ؛ فقد أعلنوا بعد اتخاذهم من بغداد دارًا لسلطنتهم ، وإعلان أنفسهم فى سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م- ٤٥٠هـ/١٠٥٨م سندًا للخلافة العباسية السنية[7] ، إن هدف سلطنتهم هو « إحياء السنة والمناضلة عن الملة »[8] ؛ وبعد أن حافظوا على رسوم الخلافة العباسية ، وعملوا على إحياء دولة الخلافة ونشر الدعوة السنية فى جميع ديار الإسلام ، وإظهار طاعتهم للخليفة العباسى ؛ عمدوا إلى ربط بيتهم ببيت الخلافة العباسية ، بروابط المصاهرة

---

(١) أنظر السيوطى : الوسائل ، ص ٧٨ ، المنينى : الفتح الوهبى ، ص ٢٠ – ٢٩ .

(٣) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ٧: ٢٦٢ ، س ١٩ – ٢١ .

(٣) أنظر نفس المصدر ، ج ٨ : ص ٢ .

(٤) أنظر المنينى : الفتح الوهبى ، ص ٣٠ – ٣١ .

(٥) أنظر ابن الجوزى : المنتظم ، ٨: ٣٨ – ٤٤ .

(٦) أنظر سيرة وترجمة السلطان محمود الغزنوى عند ابن خلكان : وفيات ، ٥: ١٧٥ – ١٨٢ ، ابن الأثير : الكامل ، ٩: ١٣٩ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ٨: ٥٢ ، القرشى : الجواهر المضية ، ٢: ١٥٧ ، وانظر سيرته موسعة بقلم العتبى مؤرخ دولته ، فى كتاب الفتح الوهبى .

(٧) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ٩: ٤٥٨ – ٤٥٩ ، ٦٠٩ – ٦١١ ، أبو الفدا ، ٢: ١٨٢ – ١٨٥ .

(٨) ابن عساكر : تبين ، ص ١١ ، س ٢ ، ص ١٠٧ ، س ٧ .

والنسب ، بحيث « امتزجت » الدولتين العباسية والسلجوقية ، على حد قول المؤرخين[١] ، وذلك إثر المصاهرات المتلاحقة بين البيتين السلجوقي والعباسي[٢] .

وقد سعى السلاجقة إلى استرداد ممتلكات الخلافة العباسية ، التي كان قد ضمها الفاطميون إلى دولتهم[٣] ، بادئين ببلاد الشام والجزيرة الفراتية ، التي كانت أكثر الأقاليم التي خضعت للخلافة الفاطمية قربًا من بلاد العراق[٤] ، كما نجح السلاجقة في إعادة الخطبة باسم الخليفة العباسي على منابر الحرمين الشريفين[٥] ، وكذلك نجحوا في بعض الفترات ، في مد سيطرتهم السياسية على بلاد اليمن ، التي ظلت دائمًا من أقوى معاقل الدعوة الفاطمية ، وأكثر أقاليم الخلافة الفاطمية ، ولاءًا للخليفة الفاطمي[٦] .

وصاحب هذا المد السلجوقي السني ، باسم الخلافة العباسية ، على بلاد المشرق الإسلامي ، خروج أهم ممتلكات الخلافة الفاطمية وأشدها ارتباطًا بها عن دعوتها ، وعن تبعيتها لدولة خلافتها الشيعية ، وأعني بهذا بلاد المغرب ، حين أعلن بنو زيري في سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م في تقدير

---

(١) أنظر البنداري : تاريخ آل سلجوق ، ص ١١ ، الراوندي : راحة الصدور ، ص ١٧٦ - ١٧٩ .

(٢) كانت هذه المصاهرات كثيرة الحدوث ، أنظر ابن الأثير : الكامل ، ٩: ٦١٧ ، ١٠: ٢٥ سبط ابن الجوزي: مرآة ، ٨: ٨ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١٧٣ (مصاهرة مزدوجة) .

(٣) خطب امراء العرب بالشام ، وأهمهم بني مرداس في حلب للخليفة العباسي سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م ، وخلعوا طاعة الخليفة الفاطمي ، وذلك بعد أن " رأوا إقبال دولة السلطان (السلجوقي) وقوتها ، وإقبال دعوتها " ، على حد قول ابن الأثير ، أنظر الكامل ١٠: ٦٣ ، وأنظر أيضًا أبو الفدا : المختصر ، ٢: ١٩٦ ، وما لبث السلاجقة بالشام أن نجحوا في استرداد أغلب ممتلكات الفاطميين الشامية مثل دمشق وحمص وبلاد الساحل ، حتى تم لهم ، " ملك الشام وما بأيدي خليفة مصر العلوي من بلاد " ، أنظر أبو الفدا : المختصر ، ٢: ٢١٢ س ٨ - ٩ ، ابن القلانس : ذيل ١٢٢ - ١٢٥ .

(٤) يبدو أن ولاة الشام والجزيرة الفراتية ، قد تقلبوا في ولائهم بين الخلافتين العباسية والفاطمية ، حتى قبل أن يُحكِم السلاجقة سيطرتهم على بلاد الشام ، فيذكر ابن الأثير أنه في سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م ، قطع صاحب حران والرقة الخطبة العلوية وأقام الخطبة العباسية ، ثم أعاد الخطبة العلوية في نفس السنة ، أنظر ابن الأثير : الكامل ٩: ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٥) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٢١٤ ، ماجد : ظهور الخلافة ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٦) أنظر الراوندي : راحة الصدور ، ص ٣٥٩ - ٣٧٠ ، مقدمة إقبال ، ص ٧ ، أبو الفرج ابن الجوزي : المنتظم ، ٩: ٧٠ ، أبو الفدا : المختصر ، ص ٢١٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٠: ٢٠٣ - ٢٠٤ ، المقريزي : السلوك ، ١ : ٣٣ .

المؤرخين المشارقة(١) ، أو في سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م ، كما يرجح الدارسون المحدثون(٢) ، الخطبة ببلاد أفريقية والمغرب الأوسط باسم الخليفة العباسي ، مجاهرين بخروجهم عن طاعة الخليفة الفاطمي المصري ، ودخولهم في طاعة الخليفة العباسي السني العراقي ؛ وما لبثت السيادة العباسية ، أن عمت بلاد المغرب الإسلامي كله ، بما فيها بلاد الأندلس ، على يد دولة المرابطين ، التي وحدت المغرب الإسلامي ، وأغلب بلاد الأندلس تحت سيطرتها ، فحين قامت هذه الدولة ، أرسل أميرها يوسف ابن تاشفين ، إلى الخليفة المستظهر بالله العباسي سنة ٤٩٨هـ/١١٠٤م ، يخبره أنه قد خطب له بالمغرب ويطلب لنفسه التقليد والخلع من بغداد(٣) ، وقد ظلت الخطبة للخلافة العباسية على منابر المغرب والأندلس طوال عصر المرابطين(٤) ، الذين لم يتلقبوا بالسلاطين ، ولكن بـ « أمراء المسلمين »(٥) .

وعلى هذا الأساس ، فقد أصبح الاتجاه السياسي والشرعي السائد في العالم الإسلامي ؛ في القرنين الخامس والسادس الهجري ، هو التبعية للخلافة العباسية السنية ، على أساس أنها أقدم وأعرق خلافة إسلامية قائمة ، وذلك بعد أن نجحت حركة الإحياء السلجوقي ، في الاستيلاء على ممتلكات الخلافة الفاطمية الشيعية(٦) .

---

(١) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ٩: ٥٢١ – ٥٢٢ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢: ١٩٩ .

(٢) أنظر ماجد : ظهور الخلافة ، ٢٥٣ – ٢٦١ ، الذى يقارن بين المؤرخين المشارقة والمغاربة وبين ما كتبه الرحالة .

(٣) أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ١٣ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ٢٣٢ .

(٤) عبد الواحد المراكشي ، ت ٦٤٧ هـ : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣م ، ص ١٤٧ ، الذى يقول : وأول دعاء دعي للخلافة العباسية – أبقاها الله – على منابر الأندلس في أيامهما (أى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين وابنه علي) ، ولم تزل الدعوة العباسية وذكر خلفائها على منابر الأندلس والمغرب ، إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت على المصامدة ؛ والطريف أن مؤرخي الأندلس ، كانوا يقرون في تواريخهم ، بتبعية بلاد الأندلس للخليفة العباسي بالعراق فكانوا يقسمون تواريخهم ، على أساس تعاقب خلفاء بني العباس ، أنظر أبو الفدا : المختصر ، ٢: ٢١٨ ، س ٧ ، ترجمة ابن حميد الأندلسي .

(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٢٣٥ ، س ٢ – ٣ ، ص ٢٤١ ، س ٥ .

(٦) أنظر المؤيد الشيرازى : السيرة المؤيدية ، ص ٩٤ – ٩٥ ، الذى يذكر أن السلاجقة ، في سبيل تحقيق حلمهم في الاستيلاء على ممتلكات الخلافة الفاطمية وإسقاط دولتهم ، قد تحالفوا ضدها مع الدولة البيزنطية ؛ ويرى كامل حسين ، أن كتب التاريخ لم تذكر شيئًا عن هذا التحالف ، الذى تم بين السلاجقة والبيزنطيين لاقتسام ممتلكات الفاطميين ، كما زعم المؤيد الشيرازى ، أنظر محمد كامل حسين : مقدمة السيرة المؤيدية ، ص ٢٣ ، ص ٩٥ هامش " ١ " ؛ وأغلب الظن أن السلاجقة المجاهدين ، الذين اكتسحوا البيزنطيين في موقعة ملا زكرت ، واستولوا على أغلب ممتلكاتهم في آسيا الصغرى ، لايقدمون على هذا العمل الشائن إطلاقًا ، وإنما هي العداوات السياسية والمذهبية والحيل والمهاترات الإعلامية بين الدول ، والمؤيد في الدين " داعيه " سياسي ومذهبي أولاً وأخيرًا ؛ وفي نفس الوقت نؤيد ما ذهب إليه بعض الدارسين ، من استبعاد إقدام الفاطميين على عقد معاهدة مع الدول البيزنطية ضد السلاجقة ، رغم التعارض المذهبي بينهما ، أنظر ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٥٣ ، الإمام المستنصر ، ص ٦٧ ، ٩٩ .

وفى عهد السلطنة السلجوقية ، خطب باسم الخليفة العباسى ، فى بعض أقاليم ديار الحرب : التى فتحها سلاطين السلاجقة بسيوفهم ، مثل أطراف بلاد آسيا الصغرى ، حتى أن السلاجقة قد خطبوا لبنى العباس فى المسجد الجامع بالقسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى آنذاك[1] .

ولما آلت زعامة المشرق الإسلامى ، للسلطان السنى نور الدين زنكى ، الذى نجح فى ضم أغلب ممتلكات دولة سلاطين السلاجقة إلى دولته ، أظهر ولاءً متزايدًا للخلافة العباسية ، بحيث وصف بأنه « كان يتدين بطاعة الخليفة العباسى »[2] ، وأنه « لم يكن يعمل شيئًا ، حتى يستأذن الخليفة »[3] ، اتخذ هذا السلطان التركى السنى ، من ولائه للخليفة العباسى ، وجهوده فى نشر دعوته ، وسيلة لتوحيد الجبهة الإسلامية فى أقاليم المشرق الإسلامى لمحاربة الصليبيين بالساحل الشامى .

وفى عهد نور الدين زنكى ، وعلى يد أمرائه من بنى أيوب ، تم للخلافة العباسية أوج سعدها وتمام اتساع نفوذها ، حين قطع صلاح الدين الخطبة باسم الخلافة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وأعلن الخطبة على منابر مصر ، باسم الخليفة المستضىء بالله العباسى[4] .

(١) كان هذا فى بداية الأمر ، امتيازًا وديًا قدمه البيزنطيون للخلافة الإسلامية ، وتنافس فى التفرد به كل من الخلافة العباسية والفاطمية ، أنظر قبله ، ولكن أغلب الظن أنه أصبح حقًا مكتسبًا للخلافة العباسية بحد السيف ، بعد الانتصار الحاسم الذى حققه السلاجقة على الجيوش البيزنطية فى موقعة ملازكرت الشهيرة ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م ، أنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٨٨ - ١٩٠ ، الجوينى : غياث الأمم ، ص ٢٥٢ - ٢٥٥ ، ابن الجوزى : المنتظم ، ٨: ٢٦٠ - ٢٦٥ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٠ : ٦٥ - ٦٧ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢: ١٩٦ ، وقد ورث الأيوبيون عن السلاجقة ، حق الدعوة باسم السلطان الأيوبى والخليفة العباسى على منبر جامع القسطنطينية فى سنة ٥٨٥هـ ، أنظر بعده .

(٢) أبو الفرج بن الجوزى : المنتظم ، ١٠ : ٢٤٩ ، سبط ابن الجوزى : مرآة ، ٨: ٣١٣ ، س ٢ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة ، ٨: ٢٨٢ ، س ١٢ - ١٣ .

(٤) أنظر سبط : مرآة ٨: ٢٥٨ ، ابن واصل : مفرج ، ١: ٢٠٠ - ٢٠١ ، المقريزى : السلوك ، ١: ٤٧ ، ولخطورة هذا الحدث الجلل ، اختلف المؤرخون حوله ، إذ ذكروا أن صلاح الدين قد تهيب انتفاض المصريين عليه ، ولم يقدم على هذا الأمر ، إلا رجل أعجمى يعرب بـ " الأمير العالم " ، ولقد أفاد ابن الأثير ، أنه رأى هذا الرجل بنفسه بعد ذلك بالموصل ، أنظر الكامل ، ١١: ٣٦٨ - ٣٧٣ ، وأيضًا الروضتين ١: ١٩٤ ؛ أما ابن خلكان ، فهو يذكر أن من أقدم على قطع الخطبة صوفى فارسى اسمه الخبوشانى ، كان قد تحدى الخليفة الفاطمى العاضد قبيل زوال دولته بإظهار مثالبها ، أنظر وفيات ، ٣: ١١١ ، ٤: ٢٣٩ - ٢٤٠ ، سبط : مرآة، ٨: ٤١٤ - ٤١٥، وأنظر كذلك ابن الفرات - خ ، رقم ٢١١٠ تاريخ تيمور ، ٧: ٨٢ - ٨٣ ، =

وهكذا تمخضت ظاهرة ظهور السلاطين والوزراء المفوضين ، من أرباب السيوف ، واستبدادهم بالسلطة الزمنية ، دون الخلفاء أصحاب السلطة الشرعية فى ديار الإسلام ، عن نتيجتين مختلفتين تمامًا: ففى العراق ، أدى ضعف العنصر الفارسى الشيعى ببلاد المشرق الإسلامى ، بعد زوال الدولة البويهية الشيعية التى تغلبت على الخلافة العباسية فى القرن الخامس الهجرى ، واستقواء العنصر التركى السنى بظهور الغزنويين والسلاجقة والزنكيين ، إلى يقظة الخلافة العباسية ، وإحياء دولتها ، ونشر دعوتها فى أغلب ديار الإسلام شرقًا وغربًا ، وبعث الهيبة الروحية للخليفة العباسى ؛ أما فى مصر ، فإن نجاح أمراء السيوف السنيين فى استحواذ وزارة التفويض الفاطمية ، قد أدى إلى استهانة هؤلاء الوزراء السنيون بالخليفة الفاطمى والدعوة الفاطمية ، الأمر الذى مهد فى النهاية للقضاء النهائى على الخلافة الفاطمية ، والخطبة على منابرها للخليفة العباسى ، وإعلان قيام السلطنة الأيوبية السنية بمصر ، بحيث أصبحت أغلب ديار الإسلام ، تدين بالولاء السياسى والروحى لخلافة إسلامية واحدة ، هى الخلافة العباسية بالعراق .

مصر الأيوبية إمارة استيلاء ودارًا للسلطنة السنية :

ومما لا شك فيه ، أن سقوط الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، وقيام سلطنة سنية بها ، تدين بالولاء والتبعية الروحية للخلافة العباسية بالعراق ، ليعد حدثًا تاريخيًا بالغ الأهمية ، سواء بالنسبة لتاريخ الإسلام بصفة عامة ، أو لتاريخ مصر الإسلامية بصفة خاصة ، فبقيام الدولة الأيوبية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، تغير الوضع السياسى والشرعى لها ، تبعًا للدستور الإسلامى

= ٨ : ٢٥ ؛ أما الرسائل الفاضلية ، فقد أسندت هذا العمل لرسول الخليفة العباسى إلى صلاح الدين بمصر واسمه ابن أبى المضاء البعلبكى ، أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٣ - ١٩٥ ، وأنظر ترجمة ابن أبى المضاء ، عند ابن الدبيثى : المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد ، ١ : ١٤٢ ، الصفدى : الوافى ، ٤: ٣٨٩ - ٣٩٠ ، فى حين لدينا رواية غريبة أوردها المؤرخ الأندلسى ابن الأبار ، الذى أسند هذا الأمر إلى عالم يدعى اليسع بن عيسى الغافقى الجيانى الأندلسى ، أنظر ابن الأبار : تكملة الصلة ، ٢: ٧٤٤ ، أيًا كان الأمر ، فقد حدثنا المؤرخ أبو الفرج ابن الجوزى ، المعاصر لهذه الأحداث ، عن رد الفعل العظيم لهذا النبأ فى بغداد عاصمة الخلافة ، حتى أقدم هذا المؤرخ نفسه على تأليف كتاب سماه " النصر على مصر " ، أنظر ابن الجوزى : المنتظم ، ١٠ : ٢٣٧ ، وراجع بحث هام حول إعادة الخطبة العباسية إلى مصر ، عند أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ، ص ١٥٦ - ١٥٩ .

العام[1] ، فبعد أن كانت مصر منذ الفتح العربى ، ولاية استكفاء إقليمية ، تابعة تبعية مباشرة للخلافة المركزية فى المدينة أو دمشق أو بغداد ، ثم ولاية استيلاء مستقلة ، منذ قيام الدولتين الطولونية والأخشيدية ، ثم خلافة شيعية تطالب بأحقيتها فى الطاعة و « الولاية » على جميع ديار الإسلام ، أصبحت مصر لأول مرة فى تاريخها الإسلامى سلطنة[2] .

لقد ناقش فقهاء ومؤرخو دساتير الإنشاء فى العصر المماليكى ، الأطوار المختلفة التى شهدها الوضع السياسى والشرعى لمصر ، منذ الفتح الإسلامى لها ، ولاحظوا أن قيام السلطنة الأيوبية بمصر ، واعتراف الخليفة العباسى بها وإرساله التفويض الخليفى لسلاطين بنى أيوب بمصر ، مع الخلع الخليفتية ، قد جعل من مصر فى عصر بنى أيوب ، مقرًا ودارًا للسلطنة الأيوبية ، التى فوضها الخليفة العباسى سلطاته الشرعية ، فى جميع البلاد والممتلكات التى أمتد إليها النفوذ السياسى والعسكرى لسلاطين بنى أيوب ؛ كما لاحظوا أيضًا أن السلطنة الأيوبية ، قد اختلفت عن كل من السلطنتين البويهية والسلجوقية ، بأن سلاطين بنى بويه وبنى سلجوق ، قد تم تفويضهم السلطنة ومنحهم خلعها

(١) عن التفرقة بين " ولاية الاستكفاء " و " ولاية الاستيلاء " أنظر الماوردى : الأحكام السلطانية ٣٤ – ٣٨، ابن أبى يعلى : الأحكام السلطانية ٣٤ – ٣٨ ، الجوينى : غياث ، ١١٦ – ١١٩ .

(٢) لاحظ هذا مؤرخوا الإدارة المصرية فى العصر المماليكى ، حين درسوا فى دساتير دواوين الإنشاء ، تطور الوضع السياسى والشرعى لمصر ، منذ الفتح العربى حتى العصر المماليكى ، حين ناقشوا صحة تفويض السلطات الشرعية فى الديار المصرية ، أو حين ناقشوا اختلاف الوضع السياسى والشرعى لوظيفتى وزارة التنفيذ ووزارة التفويض ، وتطابق وظيفة وزارة التفويض التى ظهرت فى العصر الفاطمى المتأخر منذ النصف الثانى من حكم الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، مع وظيفة السلطنة التى عرفت بالعراق فى العصرين البويهى والسلجوقى على التوالى ، ثم عرفت بمصر فى العصرين الأيوبى والمماليكى على التوالى أنظر القلقشندى : مآثر الإنافة ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ ، القلقشندى : صبح ، ج ٢ ، ص ٤١٩ – ٤٣٥ ، ج ٩ ، ص ٣٩٨ – ٤٠٤، ج ١١ ص ٧٢ – ٧٣، الخالدى : المقصد العالى المنشأ الهادى إلى صناعة الإنشاء – خ، بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٥٧٣ عربى ، ومصور بدار الكتب المصرية برقم ٢١٠٣١ ، ج ١ ، لوحة ١٩٣ ب – ١٩٥ ، كما لاحظ هذا التحول الجوهرى للوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية الباحثون الذين درسوا نقوش الألقاب الرسمية لسلاطين بنى أيوب ، كما وردت على آثارهم وعمائرهم . أنظر :
Ahmed Zaki: Coupe Magique Dediee a Salah Ad-Din. (Titre Royaux, Tolerance et portait, B.J.E., Cinqieme serie, Tome X, Anee 1916, P. 241-288. p. 260 - 261

بحضرة الخلافة ، أى فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، فى حين أن تفويض سلاطين بنى أيوب تم ببعض أطراف الخلافة العباسية وهى الديار المصرية ، وإن تطابقت الخلع الخليفتية لكل من سلاطين بنى بويه وبنى سلجوق وبنى أيوب على التوالى[1] .

ولقد أوضح مؤرخون ديوان الإنشاء فى العصر المماليكى ، إن تفويض الخليفة الأمور فى البلاد والأقاليم إلى من يدبرها ويقوم بأعباءها على ثلاثة أقسام : القسم الأول ، وهو أعلاها « وزارة التفويض » ، والقسم الثانى ، « إمارة الاستكفاء » ، والقسم الثالث ، « إمارة الاستيلاء » ، وإن مملكة الديار المصرية ، من حين الفتح الإسلامى ، وهلم جرا إلى العصر المماليكى ، دائرة بين هذه الأقسام ؛ وفى رأى هؤلاء المؤرخين أن الدولة الأيوبية كانت فى حكم « إمارة الاستيلاء » وأن ملوك مصر الأيوبيين صار لقب السلطان سمة لهم ، وذلك لبقاء الخليفة العباسى بالعراق فى بغداد دار

---

(١) يقول القلقشندى : وإما كيفية تولية الملوك والخلفاء وترتيبهم فى ذلك فله حالتان : الحالة الأولى ما كان الأمر عليه فى الزمن الأول والخلافة بالعراق والحال فيه مختلف ، فتارة تكون السلطنة التى تولى بحضرة الخلافة ، كسلطنة بنى بويه وآل سلجوق وغيرهم ، وتارة تكون كبعض الأطراف ، كالديار المصرية حينئذ ونحوها . فإن كانت السلطنة بحضرة الخلافة ، فقد جرت عادتها فى ذلك أن يجلس الخليفة بمجلسه العام على كرسى عال ، ويحضر السلطان الذى تولى فيجلس على كرسى لطيف أمام كرسى الخلافة ، ويحضر أعيان المملكة ورؤساؤها، ويخاطب الخليفة السلطان بالولاية على لسان الوزير ، ثم يخلع على السلطان خلعة الخلافة .. سبع جبات سود بزيق واحد ، وعمامة سوداء ، وطوق بطوق من ذهب ، وسور بسوارين من ذهب ، وأعطى سيفًا بغلاف من ذهب .. وفرس من اصطبلات الخليفة ، بمركب من ذهب مقندس ، فهذا كان شأنهم فى تولية السلطنة بحضرة الخلافة . وإن كان الذى يوليه الخليفة السلطنة من ملوك الأطراف ، جهز له التشريف من بغداد ، صحبة رسول من جهة الخليفة ، وبموجبه أطلس أسود بطراز مذهب ، وطوق من ذهب يجعل فى عنقه ، وسواران من ذهب يجعلان فى يديه ، وسيف قرابة ملبس بالذهب ، وفرس بمركب من ذهب ، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ، ينشر على رأسه ، وصحبة ذلك تقليده بالسلطنة ، وربما جهز مع خلعه السلطان ، خلع أخرى لولده أو وزيره أو أحد أقاربه ، بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ ؛ كما كان يُبعث مثل ذلك إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالديار المصرية ، ثم إلى أخيه العادل فمن بعده من ملوك بنى أيوب، إلى أن كان آخر من وصل إليه ذلك منهم من بغداد الملك الناصر يوسف بن السلطان العزيز بن السلطان صلاح الدين عن المستعصم بالله فى سنة ٦٥٦هـ ، وكان من عادتهم (أى ملوك بنى أيوب) فى ذلك ، أنه إذا وصل التشريف والتقليد إلى سلطان تلك الناحية ، أن يلبس السلطان الخلعة والعمامة ، ويتقلد السيف ، ويركب الفرس ويسير فى موكبه حتى يصل إلى مقر مُلكه (أنظر مآثر الإنافة ، ٢: ٢٣٩ - ٢٤٠) .

خلافته ؛ أما بعد انتقال الخليفة العباسي إلى القاهرة في العصر المماليكي ، واتخاذه منها دارًا لخلافته ، أصبحت « سلطنة الديار المصرية مركبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء »[1] .

كذلك لاحظ هؤلاء المؤرخون أيضًا ، ملاحظة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لبقاء مصر طوال العصر الأيوبي في إطار التبعية السياسية والروحية لدولة الخلافة العباسية ببغداد ؛ إذ وصفوا ملوك بني أيوب بقولهم : وهم « أي بني أيوب » ، وإن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بني العباس ، فهم ملوك مستقلون ، وفي دولتهم زاد ارتفاع قدر مصر وملكها[2] .

---

(١) يقول القلقشندي : إن تفويض الخليفة الأمور في البلاد والأقاليم إلى من يدبرها ويقوم بأعباءها على ثلاثة أقسام : القسم الأول ، وهو أعلاها " وزارة التفويض أنظر عنها صبح ، ج ٩ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ ، والقسم الثاني : إمارة الاستكفاء ، أنظر عنها نفس المصدر ، ٩: ٤٠٠ - ٤٠١ والقسم الثالث : إمارة الاستيلاء (أنظر عنها نفس المصدر ، ٩: ٤٠١ - ٤٠٣ ، ومملكة الديار المصرية ، من حين الفتح الإسلامي وهلم جرا إلى زماننا دائرة بين هذه الأقسام الثلاثة ، فكانت في بداية الأمر إمارة استكفاء ، فلما استولى عليها الفاطميون واستوزروا أرباب السيوف في أواخر دولتهم وعظمت كلمتهم عندهم صارت سلطنتها وزارة تفويض ، وكان الخليفة يحتجب والوزير هو المتصرف في المملكة كالملوك الآن ، أو قريب منهم ، وكانوا يلقبون بألقاب الملوك الآن ، كالملك الأفضل رضوان ، والملك الصالح طلائع ، .. والملك المنصور .. شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وزير العاضد .. قبل أن يستقل بالملك ، ويخطب بالديار المصرية لبني العباس ببغداد .... ولما انتزعت من الفاطميين وصارت إلى بني أيوب ، وكانوا يلونها عن خلفاء بني العباس ، صارت إمارة استيلاء ، لاستيلائهم عليها بالقوة ، واستبدادهم بالأمر والتدبير ، مع أصل إذن الخليفة وتقليده .. ، فلما تغلب الملوك بالشرق على الخلفاء واستبدوا عليهم صار لقب السلطان سمة لهم مع ما يختصهم به الخليفة من ألقاب التشريف .. وهي على ذلك إلى زماننا ؛ إلا ما كان في زمن تعطيل جيد الخلافة من حين قتل التتار المستعصم آخر خلفاء بني العباس ببغداد ، إلى حين إقامة الخليفة بمصر في الدولة الظاهرية ببيبرس ؛ على أن السلطنة الآن شبهًا من وزارة التفويض ، فإن الخليفة يفوض إليه في تقليده تدبير جميع الممالك الإسلامية بالتفويض العام ، لا يستثني منها شيئًا .. ؛ وحينئذ فتكون سلطنة الديار المصرية الآن مركبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء (أنظر القلقشندي : صبح ، ج ٩ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤) .

(٢) قسم القلقشندي ، ولاة وملوك مصر في الإسلام على هذا النحو : الضرب الأول ، فيمن ولي نيابة ، وهو الصدر الأول ، وهم على ثلاث طبقات : الطبقة الأولى ، عمال الخلفاء من الصحابة ، الطبقة الثانية : عمال خلفاء بني أمية بالشام ، الطبقة الثالثة عمال خلفاء بني العباس بالعراق ، أنظر صبح ، ج ٣ ص ٤١٩ - ٤٢٤ ، الضرب الثاني : من وليها ملكًا ، وهم على أربع طبقات : الطبقة الأولى ، من وليها عن بني العباس قبل دولة الفاطميين (أنظر صبح : ٣ : ٤٢٤ - ٤٢٦) ، الطبقة الثانية من وليها من الخلفاء الفاطميين المعروفين بالعبيديين (أنظر نفسه ٣ : ٤٢٦ - ٤٢٧) ، الطبقة الثالثة : ملوك بني أيوب وهم إن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بني العباس فهم ملوك مستقلون وفي دولتهم زاد ارتفاع قدر مصر وملكها (أنظر نفسه ج ٣ ص ٤٢٨ - ٤٢٩) الطبقة الرابعة ملوك الترك خلد الله تعالى دولتهم (أنظر نفس ، ج ٣ ص ٤٣٠ - ٤٣٥) .

وربما كانت هذه الأبحاث الفقهية والدستورية ، لمؤرخي دساتير الإنشاء في العصر المماليكي ، وعلى رأسهم (القلقشندي والخالدي) متمثلة في ذهن بعض المؤرخين المحدثين ، حين قارن بين استقلال كل من الدولة الأيوبية ، والدولة المماليكية الأولى بعصر المعروفة بدولة المماليك البحرية ، فقال : هناك فارق هام بين الدولتين ، وذلك إن الدولة الأيوبية رغم استقلالها ، كانت تدين بالولاء الروحي للخلافة العباسية .. ، فهناك إذًا نقص كان يشوب استقلالها .. ، أما الدولة المماليكية فقد عاصرت عند قيامها سقوط الخلافة العباسية ، وسعى سلاطينها حتى نجحوا في نقل هذه الخلافة إلى مصر ، فتم لهم بهذا كل مظاهر الاستقلال(١) .

والواقع ، أن هدف مؤرخي دساتير الإنشاء في العصر المماليكي ، من هذه الأبحاث الفقهية الدستورية ، الخاصة بحقيقة الوضع السياسي والشرعي للسلطنة المصرية ، وتطور هذا الوضع في العصرين الأيوبي والمماليكي ، هو في الواقع تأكيد شرعية حكم المماليك بمصر ، على أساس أن السلطات التي خُوِّلت لسلاطين بني أيوب ، ثم لسلاطين المماليك من بعدهم من قبل خلفاء بني العباس قد أكدت « رجوع الولايات في الديار المصرية إلى الطريق الشرعي »(٢) ، وذلك لأن الخليفة هو صاحب السلطات الشرعية في جميع ديار الإسلام ، لكون الخلافة هي وارثة النبوة(٣) ، ورتب مؤرخو العصر المماليكي على بحثهم الفقهي في مسألة « رجوع الولايات في الديار المصرية إلى الطريق الشرعي » ، تخريجًا فقهيًا هامًا وهو أنه حينئذ تكون جميع الولايات - أي الوظائف الحكومية الرسمية - الصادرة عن السلطان صحيحة شرعًا(٤) .

نستخلص من هذه الأبحاث الفقهية الدستورية إذًا ، أن الوضع السياسي والشرعي لمصر الأيوبية كان وضعًا فريدًا بالنسبة لجميع ملوك الأطراف في ديار الإسلام ، إذ أصبح الملك الأيوبي بمصر ، سلطانًا لجميع ديار الإسلام لكونه مفوضًا بالسلطنة من قبل الخليفة العباسي ؛ ومن ثم فلقد أصبحت مصر ، لأول مرة في تاريخها الإسلامي ، دارًا للسلطنة السنية ، بعد أن كانت في العصر الفاطمي دارًا لخلافة شيعية .

---

(١) الشيال : مصر الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٤٤ .

(٢) راجع فصلاً هامًا ناقش فيه القلقشندي هذا الأمر في صبح الأعشى ج ١١ ص ٧٢ - ٧٣ .

(٣) أنظر كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية في العصر الأيوبي ، الفصل الخاص بكتب الأحكام السلطانية والسياسية الشرعية ، تحت الطبع إن شاء الله تعالى ، وأنظر قبله هوامش الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية ، وأنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٤) أنظر القلقشندي : صبح ، ج ١١ ، ص ٧٢ - ٧٣ .

وهنا نلاحظ أن أغلب الأجناس غير العربية ، التى اعتنقت الإسلام مثل الفرس والترك والكرد ، قد تولت أمداد الأمة الإسلامية ، بدماء فتية جديدة ، قامت بحماية نظام الخلافة الإسلامية ، الذى هو النواه الأولى والأساسية لمفهوم الدولة في الإسلام ، والمستند أولاً على اشتراط العروبة والنسب القرشي للخليفة[1] .

فحين ضعف نظام الخلافة الإسلامية ظهر نظام السلطنة ، وهو نظام عسكرى[2] ، ظل مستمرًا في ديار الإسلام منذ القرن الخامس الهجرى أيام البويهيين ١١م ، إلى القرن الثالث عشر الهجرى ١٩ م أيام العثمانين ، وكان من نصيب الأجناس غير العربية حديثى العهد بالإسلام ، فكان بنو بويه من الفرس ، والغزنويين والسلاجقة والزنكييون من الترك ، والأيوبيون من الأكراد ؛ ثم ظلت السلطنة مستمرة فى الأجناس الأعجمية فكان سلاطين الدولة المملوكية الأولى بمصر أغلبهم من عنصر القفجاق المغولى ، وكان سلاطين الدولة المماليكية الثانية أغلبهم من العنصر الجركسى التركى[3] ، وكان سلاطين العثمانيين ، الذين تلقبوا بالخلفاء بعد نقل مقر الخلافة إلى عاصمتهم استانبول أيضًا من الترك[4] .

---

(١) أنظر عن الخلافة وشروطها الماوردى : الأحكام السلطانية ، ص ١ - ٢٠ ، ابن ابى يعلى ، الأحكام السلطانية ص ١٩ - ٢٠ ، النوبختي: فرق الشيعة ، ص ٨ ، المسعودى : مروج الذهب ٣: ٢٦٦ - ٢٣٩، الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ١ - ١٠ ، ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، ١ : ٧ - ١٠ ، الملطى التنبيه والرد ٥٣ - ٥٥ ، الأشعرى : مقالات الإسلاميين ، ص ١٠ - - ٣٠ ، ص ٦٥ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ، ص ٢٢ - ٢٥ ، الجوينى غياث الأمم ص ٦٠ - ٧٣ .

(٢) أنظر قبله وبعده .

(٣) أنظر محمد مصطفى زيادة : بعض ملاحظات جديدة ، فى تاريخ دولة المماليك ، مجلة كلية الأداب ، جامعة فؤاد الأول ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، مايو ١٩٣٦ ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٣م ، ٧١ - ٨٨ .

(٤) الواقع أن الخلافة العثمانية التى وحدت العالم الإسلامى طوال أربعة قرون (من ق ٩هـ/ ١٣م هـ) لم تكن خلافة فى حقيقة الأمر ، لأن بنى عثمان لم تتوفر فيهم شروط الخلافة ، التى اشترطها جميع فقهاء الإسلام - عدا الخوارج - وأهمها النسب القرشي ، ومع ذلك فقد قام الأتراك العثمانيون السنيون بعد ميراثهم لسلطنة المماليك بمصر التى وصفها ابن أياس بقوله : كان سلطان مصر ، أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين وحاوى ملك مصر ، أنظر بدائع الزهور ج ٥ ، ص ٢٠٦ ، تحقيق محمد مصطفى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م ، وميراثهم أيضًا للألقاب السلطانية لسلاطين المماليك بمصر (أنظر ابن إياس ، نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ١٥١، وقيامهم بأعباء الخلافة الإسلامية ، من توحيد كلمة المسلمين ونشر الإسلام فى الأرضين وتطبيق نظم وشريعة الإسلام ، وحماية الحرمين الشريفين خير قيام (أنظر التفصيل عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨١م ، (ج ١ - ٥) . ولا ريب فهم من غرس سلاجقة الروم (أنظر فؤاد كبرلى : قيام الدولة العثمانية ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٧م) آخر فرع من البيت السلجوقى نهض بأعباء السلطنة . وفى رأينا أن الخلافة العثمانية ، كانت آخر سلطنة عامة شهدها العالم الإسلامى ، إذ مزج العثمانيون بذكاء سياسى جدير بالإعجاب ، بين وظيفتى =

ولقد أدرك المؤرخ الكردى البدليسى ، الذى أرخ لتاريخ أبناء عشيرته الأكراد ، الأهمية العظمى فى تاريخ الإسلام ، وفى تاريخ العنصر الكردى ، بتوليهم السلطنة فى ديار الإسلام تفويضًا من الخليفة العباسى ، فتتبع البدليسى أنساب العشائر الكردية ، وأشاد بدورها فى تاريخ الإسلام ، وأوضح حماسة الأكراد للمذهب السنى ، كما أرخ للدويلات الكردية التى قامت عبر التاريخ الإسلامى ، مميزًا منها من طمح ملوكها إلى رتبة السلطنة ، خاصة من مؤسسى هذه الدويلات الكردية التى كان أقواها الدولة المراونية والشدادية ، ثم اختتم كتابه بذكر « سلاطين بنى عثمان العظام » سلاطين عصره[1] ؛ وهذا ما يفسر إطلاق مؤرخى مصر الإسلامية ، اسم « الدولة الكردية »[2] ، على الدولة الأيوبية .

ولا ريب أن قيام خلافة بمصر ، دامت قرنين من الزمان (ق ٤ ـ ٦هـ ١٠ ـ ١٢ م) وعرفت عند مؤرخى العراق والشام بـ « الخلافة المصرية »[3] ، قد مهد لمصر ولبنى أيوب ، فى القرنين الـ ٦ و الـ ٧ الهجرى ١٢ ـ ١٣ م ، الأضطلاع بمسئولية السلطنة العامة واعتراف أغلب ملوك الأطراف بهذه السلطنة ، بحيث صار السلطان الأيوبى يلقب بـ « سلطان الإسلام والمسلمين »[4] .

= الخلافة والسلطنة ، وذلك بعد أن حرصوا كل الحرص بعد فتحهم لمصر ، على بعث هيبة الخليفة العباسى بها ، تمهيدًا لإعادة السلطات الروحية ، والزمنية لخليفة المسلمين ، فأصطحبوا معهم الخليفة العباسى إلى القسطنطينية ، ثم ادعوا أنه تنازل عن الخلافة لآل عثمان (أنظر ابن أياس : بدائع الزهور ، ٥: ٢٢٩ – ٢٣٢ ، ٢٧٢ ، ٣٨٨ – ٣٨٩ ، ٣٦٠ – ٣٦٢) وإن ظل زعيم آل عثمان يعرف فى العالم الإسلامى ولأوربا بـ" السلطان " طوال العصر العثمانى (أنظر الجبرتى : عجائب الآثار ، تحقيق عمر الدسوقى ، القاهرة ١٩٦٥ ، ٤: ٢٨٥ ، س ٢ – ٣ ، ٤ : ص ٢٨٩ ، س ١٥ – ٢١ (نص مرسوم نابليون الذى فرقه على المصريين بعد دخول الحملة الفرنسية مصر) ؛ والجدير بالذكر أنه على يد سلاطين العثمانيين تم حلم الإسلام الحربى الكبير بسقوط القسطنطينية والقضاء على الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى وذلك فى ق ٩ هـ / ١٥ م .

(١) أنظر البدليسى : شرفنامه ، ألفه بالفارسية ، ترجمة إلى العربية محمد على عونى ، راجعه وقدم له يحى الخشاب الجزء الأول دار إحياء الكتب العربية ص ١٣ – ١٤ ، وأنظر على الخصوص ص ٥٦ – ٧٩ الفصل الخامس الذى عنونه بـ « ذكر سلاطين مصر والشام »

(٢) يسمى المقريزى بنى أيوب الملوك الأكراد الأيوبية ويسمى المماليك السلاطين المماليك التركية والجركسية أنظر السلوك ١ : ٨ س ٥ ، وأنظر ابن أبى الفوارس : تاريخ دولة الأكراد والأتراك ، مصور بمعهد المخطوطات برقم ٨٩٤ تاريخ .

(٣) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٢٩١ ، ابن شداد : النوادر ص ٣٦ المنذرى : التكملة ٥ : ٤ س ٢ ، أبو الفدا : المختصر ، ٢ : ١٧٥ آخر سطر ، ٢ : ١٨٥ س ٨ ، ٢: ٢١٩ – ٢٢٠ .

(٤) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

ولعل تفرد بني العباس بالخلافة في العالم الإسلامي ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية ، هو الذى أوحى إلى مؤرخى العراق ومصر ، فى القرنين السادس والسابع الهجرى ، بتأليف مؤلفات مفردة لتايخ الخلافة الإسلامية منذ قيامها ، وأخبار خلفاء بنى العباس بصفة خاصة ؛ وكأن هؤلاء المؤخون قد اطعلوا على لوح الغيوب ، فراح العراقيون يرثون قرب زوالها من بغداد ، وراح المصريون يحدون انتقالها إلى مصر[1] .

إحياء الأيوبيين لدولة الخلافة العباسية :

ولا ريب ، أن السلطنة الأيوبية بمصر ، قد استطاعت فى نهاية القرن السادس الهجرى ومطلع القرن السابع الهجرى إحياء النفوذ السياسى لدولة الخلافة العباسية ، فى أغلب أرجاء بلاد المشرق الإسلامي ؛ فبعد قضاء الأيوبيين على الخلافة الفاطمية بمصر ، سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١ نجحوا فى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م ، فى فتح بلاد اليمن ، وكانت تعد من أقدم وأقوى معاقل الدعوة الفاطمية ، واستطاعوا القضاء على الداعى الفاطمى بها عبد النبى بن مهدى ، وخطبوا لبنى العباس على منابر اليمن[2] ؛ ومن اليمن مدوا نفوذهم إلى الحرمين الشريفين ، وخطبوا على

---

(١) أنظر ابن دحية الكلبى ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م : النبراس فى خلفاء بنى العباس ، طبع بغداد ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م ، وكان مؤلفه وهو أندلسى قدمه سنة ٦١٣هـ / ١٢٣٥م ، إلى ولى العهد فى الدولة الأيوبية بمصر ، وهو الكامل بن العادل ، ابن أبى السرور السروجى ت ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م : بلغه الظرفاء فى ذكر تواريخ الخلفاء ، طبع بمطبعة النجاح بمصر ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩ ، ابن الساعى ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م : مختصر أخبار الخلفاء ، طبع بولاق بمصر ١٣٠٩هـ . وعن انتقال الخلافة من العراق إلى مصر أنظر المقريزى : السلوك ١: ٢٢ ، وعن سيطرة المماليك بمصر على الخلافة واتخاذ الظاهر بيبرس للقب " قسيم أمير المؤمنين " أنظر ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٤٩ ، المقريزى : السلوك ١: ٤٤٧؛ ولقد ألف مؤرخو العصر المماليكى فى أخبار الخلافة العباسية ، أنظر السخاوى : عمدة الناس فى مناقب سيدنا العباس ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ ، السيوطى تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، القاهرة ١٣٥١هـ ، وأنظر أيضًا تتبعًا لتاريخ الخلافة الإسلامية من وجهة النظر الفقهية الشرعية والسياسية ، حتى العصر المماليكى ، القلقشندى : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ، الكويت ، ١٩٦٤م ، (ج ١ – ٣) .

(٢) أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٢٩٩ و ٣٠٠ – ٣٠١ ، المقريزى : السلوك ١: ٥٣ ، عمارة اليمنى : المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ، تحقيق حسن سليمان محمود ، القاهرة ١٩٥٧ ، عمارة اليمنى : النكت العصرية ، ص ٣٥٢ – ٣٥٥ ، ابن أبى حاتم : السمط الغالى الثمن فى أخبار الملوك الغز باليمن ، تحقيق ركس سميس، جامعة كمبردج ، ١٩٧٣ ، ابن سمرة الجعدى : طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٢١٩ ، ٢٤٢ ، بامخرمه : تاريخ ثغر عدن ، تحقيق أدولف لو فجرين ، طبع ليدن ، ج ١ ، ص ١٢٧ – ١٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ١: ٣٩٦ – ٣٩٧ ، أبو شامة : الروضتين ١: ٢١٦ – ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، ١: ٢٣٧ – ٢٤٣ .

منابرهما لخليفة بغداد[١] ، الذى اكتمل له بهذا الأمر مظاهر نفوذه الروحى فى العالم الإسلامى ، لكونه أصبح حامى حمى الحرمين الشريفين ، بعد تفرد الخلافة الفاطمية بهذا الأمر دون بنى العباس لفترة طويلة[٢] .

وثمة عدة إشارات ذكرها المؤرخون المصريون واليمنيون والشوام المعاصرون للفتح الأيوبى لليمن[٣] ، توضح أن هذا الفتح كان خطوة أيديولوجية للإجهاز على الدعوة الفاطمية هدف إليها السلاجقة[٤] ثم الزنكيين[٥] ونفذها بنو أيوب ، ولم يكن بحال من الأحوال تأييدًا لاستقلال الأيوبيين عن نور الدين زنكى[٦] ، أو لهدف استراتيجى عسكرى ضد أطماع الصليبيين فى البحر الأحمر كما ذهب بعض المؤرخين المحدثين[٧] ، خاصة وقد حرص الأيوبيون عند فتحهم لليمن على إدخال كتب الدعوة الأشعرية مع جيوشهم ، والعمل على نشرها فى بلاد اليمن[٨] ، وذلك للقضاء على كتب الدعوة الشيعية هناك ، مثل كتب المعتزلة والزيدية والفاطميين التى كانت قد اجتلبت إلى بلاد اليمن من بلاد الجيل والديلم فى عهد ائمة اليمن الزيدية ، وإبان سيطرة النفوذ الفاطمى على بلاد اليمن[٩] .

واستكمالاً للقضاء على آخر معاقل المقاومة الفاطمية ، وأعنى الدعوة السنانية النزارية ببلاد الشام ، حاصر صلاح الدين قعلة السنانية بمصياب سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م[١٠] ، حصارًا قويًا أرغمهم بعده على التقوقع فى جبالهم الوعرة ، وتوقيع صلحًا مع صلاح الدين ، يقضى بتعاون الطرفين على قتال الفرنج[١١] .

(١) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٣ ، ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٤٢ .
(٢) أنظر جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٩م .
(٣) أنظر على الخصوص سبط : مرآة ، ٨: ٢٩٩ و ٣٠٠ - ٣٠١ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .
(٤) أنظر قبله نفس هذا الفصل .
(٥) أنظر سبط : مرآة ٨ : ٢٩٩ و ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٦) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ١ : ٣٩٦ - ٣٩٧ .
(٧) أنظر الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، ١: ٣٦ - ٣٩ .
(٨) أنظر يحيى بن الحسين : أنباء الزمن فى تاريخ اليمن - خ ، نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ، ورقة ٢٢٣ - ٢٢٤ ، وأنظر قبله الفصل الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر ونشر الدعوة الأشعرية بها .
(٩) أنظر فؤاد سيد : مقدمة كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، للقاضى عبد الجبار الهمدانى ، طبع تونس .
(١٠) أنظر ابن العديم : زبد الحلب ، ٣: ٣٢ - ٣٤ ، سبط : مرآة ٨ : ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، المقريزى : السلوك ١: ٦٣ ، وأنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية .
(١١) أنظر أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٦٩ - ٦٧٠ .

ومن ناحية أخرى استطاع الأيوبيون ، بعد جهود دامت حوالى خمسة عشر عامًا (٥٦٨هـ / ١١٧٢م - ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) إعلان الخطبة للخليفة العباسي على منابر القيروان بعد انتزاعها من يد الخليفة ابن عبد المؤمن الموحدى[١] ، ذلك لأن الدولة الموحدية ، كان أمراؤها من بنى عبد المؤمن قد أعلنوا الخلافة لأنفسهم[٢] ، فتلقب أمير الموحدين بـ « سيدنا ، ومولانا الخليفة ، أمير المؤمنين »[٣] ، وعرفت دولتهم فى وثائقها الرسمية بـ « الدولة السعيدة والخلافة الحميدة »[٤] ، رغم عدم توفر شروط الخلافة فى أمراء الموحدين لكونهم من البربر[٥] ، ومن هنا جاء موقف سلاطين بنى أيوب العدائى من الخلافة الموحدية ، إذ كان الأيوبيون يسعون لإحياء دولة الخلافة العباسية ، فى حين كان الموحدون يسعون لقيام خلافة إسلامية جديدة مستقلة ببلاد المغرب والأندلس .

والجدير بالذكر أن بعض فقهاء الأشاعرة ، الذين أخذ الموحدون بدعوتهم السياسية ، قد أجازوا تعدد الخلافة فى حالة بُعد الشقة ما بين الخلافتين القائمتين فى ديار الإسلام[٦] ، واتساع خطة

---

(١) تم هذا بعد ضم الأيوبيين لإقليم برقة أثر حملات قراقوش التقوى على المغرب الأوسط ، أنظر ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٣٤ ، ٣٨ ، ٥٣ - ٥٧ ، ٦٧ - ٧٣ ، ١٦٤ - ١٦٨ ، ٢٠٢ - ٢٠٤ ، ٢٢٩ - ٢٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ١ : ٣٨٩ ، ٤٦٧ - ٤٨٦ ، ٥١٩ - ٥٢٢ ، ٥٢٣ - ٥٢٤ ، ابن شداد : النوادر ، ص ٧٣ - ٧٤ ، أبو شامة : الروضتين ١: ٢٤٢ - ٢٦٠ ، ٢٦٩ - ٢٧٠ ، ٢: ١٦ ، ٢٧ ، ٣٨ ، ٧٠ ، ابن واصل : مفرج ، ١: ٢٣٦ وهامش " ٤ " ، ٢ : ١٨٠ - ١٨٢ ، المراكشى : المعجب ص ٣٤٩ - ٣٥٠ وأنظر بعده .

(٢) أنظر كتاب مؤرخهم عبد الملك الباجى الشهير بابن صاحب الصلاة ، ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، بأن جعلهم الله ائمة ، وجعلهم الوارثين ، وظهور المهدى بالموحدين ، نشر عبد الهادى التازى ، بيروت ١٩٦٤م .

(٣) أنظر كتاب مؤرخهم ابن القطان : نظم الجمان ، تحقيق محمود مكى ، المطبعة المهدية بتطوان ، د. ت. ص ١٣٠ ، فى حين يطلق المؤرخ العراقى الشامى ، سبط ابن الجوزى ، على ابن عبد المؤمن لقب " أمير المؤمنين " ، ولا يلقبه بالخليفة ، أنظر مرآة ٨ : ٣٨٤ س ٢ ، ٤٤٦ - ٤٤٩ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧ ، وعلى العكس ، أنظر إشارة ابن جبير الأندلسى بدعوة الموحدين وتمنيه سيطرتها على مكة نفسها ، ابن جبير : الرحلة ص ٥٥ - ٥٦ ، وأنظر سخريته من " احتجاب " خلفاء بنى العباس ، الرحلة ، ص ٢٠٢ .

(٤) أنظر ابن القطان : نظم الجمان ، ص١٧٨ ، س ٤ .

(٥) هذا ما يؤكده عنوان كتاب مؤرخهم ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين .. إلخ .

(٦) أنظر أبو بكر الصنهاجى ، ت ق ٦ هـ : أخبار المهدى ابن تومرت ، وابتداء دولة الموحدين ، نشر ليفى بروفنسال ، باريس ١٩٢٨م ، وأنظر ابن القطان : المصدر السابق ، ص ١٦ وهامش " ٥ " ، وأنظر المراكشى : المعجب ص ٢٤٥ - ٢٥١ .

الإسلام ، ووجود ديار للإسلام متفرقة فى جزائر البحر ، أو خلف دار الكفر ، بحيث تحجب دار الحرب ، نظر الإمام عن هؤلاء المسلمين[1] ، وكان هذا ينطبق على دولة الموحدين الذين تولت جهاد حركة الاسترداد المسيحى Reconquesta بالمغرب والأندلس ، وهذا ما دعى أمراء الموحدين على تلقيب أنفسهم بالخلفاء ، رغم أنهم فى الواقع سلاطين لا تتوفر فيهم شروط الخلافة ، أما سلاطين بنى أيوب ، فرغم أنهم من أنصار الدعوة الأشعرية أيضًا[2] . إلا أنهم فى عدائهم للدولة الموحدية نظروا أولاً إلى مصلحة دولتهم التى استمدت سطوتها السياسية من الخلافة العباسية ، ونظروا ثانيًا إلى مصلحة العالم الإسلامى فى الوحدة حول خلافة واحدة ، هى أقدم خلافة إسلامية قائمة فى ديار الإسلام ، وهى المتمثلة فى الخلافة العباسية بالعراق ؛ وهذا ما أجمع عليه أغلب الفقهاء الدستوريون[3] وإن كان هذا لم يمنع فيما بعد ، من تقارب كل من الدولتين الأيوبية والموحدية ، ومحاولة عقد تحالف بحرى فيما بينهم لقتال القوى الصليبية فى البحر المتوسط[4] .

وما لبثت جهود الأيوبيين ، فى إحياء دولة الخلافة العباسية ، أن تمخضت عن حدث ذو أهمية سياسية ومذهبية كبرى ، وهو وصول سفير من قبل جلال الدين حسن صاحب حصن الموت ، أقوى معاقل الشيعة النزارية بإيران إلى بغداد فى سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م ، يخبر الخليفة العباسى ، بأنهم تبرءوا من الدعوة الباطنية الشيعية وأعادوا الشعائر السنية إلى مساجدهم وجوامعهم ، فسر الخليفة والناس بذلك[5] . ولا شك أن هذا الحدث كان يعنى اجتماع السنة والشيعة فى العالم الإسلامى ، تحت راية خلافة إسلامية واحدة ، هى خلافة بنى العباس ، ولا ريب أن هذا قد تم بعد أن سُدّت أمام دعاة الشيعة الإسماعيلية المسالك وصم المسلمون آذانهم عن دعوتهم ، بعد أن ترددت فى أرجاء ديار الإسلام ، أصداء نداءات صلاح الدين والخلافة العباسية ، داعية إلى وحدة المسلمين ، للجهاد فى سبيل الله ضد الصليبيين .

---

(١) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٢٦ - ١٣٢ .

(٢) أنظر قبله الفصل الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر .

(٣) قال أغلب الفقهاء ، بضرورة تنازل الخليفة الجديد للخليفة القائم لجمع شمل المسلمين أنظر الماوردى : الأحكام ، ص ٧ - ٨ ، ابن أبى يعلى : الأحكام ، ص ٢٢ - ٢٥ .

(٤) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٥) أنظر أبو المحاسن : النجوم ، ٦ : ٢٠٣ .

وظل الاتجاه السائد، طوال القرن السابع الهجرى، هو وحدة العالم الإسلامى حول الخلافة العباسية[(١)]، بحيث أصبحت فكرة قيام خلافة أخرى، أمرًا مستهجنًا من مؤرخى المشرق الإسلامى[(٢)].

نهوض الأيوبيين بفريضة الجهاد :

آلت القيادة السياسية والعسكرية فى بلاد الشرق الإسلامى إذا إلى بنى أيوب، منذ الربع الأخير من القرن السادس الهجرى، بعد أن ورثوا ممتلكات الفاطميين بجنوب الشام والحجاز واليمن وبرقه، وممتلكات الزنكيين فى الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام؛ كما أمتد نفوذهم السياسى والعسكرى، إلى أقاليم مشرقية لم يمتد إليها من قبل نفوذ أى دولة حكمت مصر الإسلامية، بما فيها الخلافة الفاطمية ذاتها، أعنى إقليم أرمنية الإسلامية، أى أرمينية الصغرى، وهى بلاد خلاط

(١) أنظر خبر سفارة سلطان غزنة والهند إلى الخليفة العباسى ببغداد سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م يعلن خضوعه وولاءه للخلافة العباسية (أبو المحاسن : النجوم، ٦ : ٢٠٣).

وراجع كتاب ابن النساخ الى أرسله إلى صاحب بغداد أمير المؤمنين الناصر لدين الله أحمد. وابن النساخ هو الفقيه حسن بن محمد أحد علماء المطرفية الزيدية باليمن، من رجال أوائل القرن السابع. وقد كتب هذه الرسالة، بسبب ما تعرضت له هذه الفرقة من حرب الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة إمام الزيدية باليمن المتوفى سنة ٦١٤هـ لهم، وما تعرضوا له من اضطهاد وتشريد، وحكمه عليهم بالكفر والخروج عن الملة. وأول الكتاب . السلام عليك أيتها المنازل المقدسة بالأكياس المطهرة من الأدناس .. إلخ يطلب فيه من الخليفة إطفاء فتنة تأججت فى اليمن، وقد أذكى وقودها القائم (فى اليمن) من بنى الحسن (وهو الإمام المنصور المذكور) . ومن هذا الكتاب نسخة بمكتبة الأمبروزيانا، فى ثلاث ورقات، برقم E33 ؛ ونسخة أخرى بدار الكتب الوطنية ببيروت . والنسختان مصورتان بمعهد المخطوطات برقم ١١٧٨ تاريخ، راجع فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المصورة، ج ٣، ق ٣، ص ٢٤٢ - ٢٤٣، وأنظر يحى بن الحسين : أنباء الزمن، ورقة ٦٨ ب، من نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ ؛ وأنظر السيد محمد زبادة فى كتابه : ائمة اليمن، ص ١٣٦، طبع صنعاء ١٩٥٢م .

(٢) يذكر ابن الفوطى أنه فى سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م، وصل رسول من محمد بن يوسف ابن هود إلى بغداد يخبر باستيلائه على معظم بلاد المغرب واستعادتها من أيدى غصابها بنى عبد المؤمن وإقامة الدعوة بها للدولة العباسية، أنظر الحوادث الجامعة ص ١٦ - ١٧، فى حين يذكر سبط ابن الجوزى فى حوادث سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م عند حديثه عن قيام الدولة الحفصية التى ورثت الدولة الموحدية بشمال أفريقية أنه :"فيها وصلت الأخبار باستيلاء إنسان على إفريقية وادعى الخلافة وتلقب بالمستنصر وخطب له فى تلك الضواحى وأظهر العدل والإنصاف، أنظر سبط : مرآة ٨ : ٧٩١، والطريف أن مؤرخى الدولة الحفصية قد ذكروا أنه فى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، التى انقرضت فيها الخلافة العباسية ببغداد، وصلت من مكة بيعة بالخلافة للخليفة المستنصر الحفصى، أنظر الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة بتونس ١٩٦٦م، ص ٣٤ - ٣٧ .

وميافارقين ونواحيهما ، وتاخمت ممتلكاتهم بشمال الشام والجزيرة الفراتية ممتلكات دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، والدولة الخوارزمية بإيران[1] .

ومنذ وطد الأيوبيون أقدامهم فى حكم مصر ، وبتوجيه من نور الدين زنكى ، سلطان الشام والجزيرة الفراتية ، والزعيم السياسى للشرق الإسلامى فى ذلك الوقت ، قام الأيوبيون بإرسال حملة من مصر فى سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م لغزو مملكة النوبة المسيحية ، أغلب الظن لفتح بلاد النوبة وضم هذه المملكة المسيحية إلى مصر ، وتأمين الحدود الجنوبية للديار المصرية ، ونشر الإسلام فى هذه المملكة المسيحية ، إذ كان أهل النوبة نصارى يعقوبية ؛ وإذا كانت هذه الحملة الأيوبية على بلاد النوبة، لم تكلل كليًا بالنجاح ، إلا أنها قد حققت بعض الانتصارات العسكرية ، فعادت بأعداد كبيرة من الأسرى والعبيد ، وساعدت على تقوية النفوذ السياسى والعسكرى لمصر على حدودها الجنوبية ، كما تمخضت أيضًا عن بناء بعض التحصينات والقلاع على هذه الجبهة ، التى ظلت منذ الفتح الإسلامى فى حكم المهادنين من أهل العهد ، بواقع معاهدة البقط التى وقعها المسلمون مع أهل النوبة بعد فتح مصر . ولقد أرسل نور الدين زنكى ، يهنىء الخليفة العباسى بأن نوابة بمصر وقواده بنى أيوب قد وصلوا فى غزوهم للنوبة إلى أراضى لم تطأها من قبل سنابك الخيل الإسلامية ، كما راح نور الدين يبشر الخليفة العباسى ، بأن فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى ، سيكون قريبًا[2] .

(١) أنظر زانباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى محمد حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٥١م ، ١: ١٥٠ - ١٥٥ ، لين بول : تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩، ١: ١٣٩ - ١٥٨ ، كارل هنريش بيكر : دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية مادة " أيوبيون " المجلد الثالث ، ص ٢٢١ و ٢٢٢ . وأنظر قبله ، وأنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٢) أنظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ : ٩٨ - ١٠٠ ، ابو شامة : الروضتين ، وعن ذكر بلاد النوبة والبجة وأحوالهم والحديث عن ثغر النوبة ومذهب أهلها وتوقيعهم معاهدة البقط مع والى مصر منذ أول الفتح العربى بمصر ، والتى تقضى بدفعهم ضريبة عينية سنوية من القمح والعبيد على أن يكونوا فى حكم المعاهدين ، أنظر قدامة بن جعفر ، كتاب الخراج ، الباب الثامن ، وهو لايزال مخطوط ولم ينشر ضمن النُبـذ التى نشرها دى غويه من هذا الكتاب ، ومنه نسخة مخطوطة كاملة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٧١ فقه حنفى ، وعن معاهدة البقط أنظر أيضًا المقريزى : الخطط ، طبع النيل ج ١ : ٣٢٢ - ٣٢٧ ، ابن الفقيه : مختصر البلدان ، ص ٧٦ - ٧٧ ، وقد عاب خضر بن أبى بكر ، فى كتابه المناقب المعزية - خ ، بدار الكتب المصرية ، الذى ألفه للسلطان عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك بمصر على الدولة الأيوبية التى سماها " الغزية " إنها لم تهتم بجبهة النوبة الجنوبية ولم تكمل فتحها ونشر الإسلام بها ؛ والمعروف أن فتح النوبة ونشر الإسلام بها قد تم فى عصر المماليك ٦٨٩هـ فى عهد السلطان قلاوون الذى أبقى أيضًا على شروط معاهدة البقط حتى بعد ضم النوبة إلى مصر ، أنظر المقريزى : السلوك ، ٢: ٧٥٢ .

كذلك نهض الأيوبيون بفريضة الجهاد فى جبهة أخرى ، لم ينتشر فيها الإسلام من قبل ، وهى مملكة أرمنية المسيحية ، وكان نور الدين زنكى ، سلطان بلاد الشام ، وزعيم بلاد المشرق الإسلامى قبل بزوغ نجم صلاح الدين ، قد حاول غزوها مرارًا ، فقام صلاح الدين بمحاولة تحقيق حلم سلفه العظيم ، وذلك بغزوة فى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م لبلاد أرمينية المسيحية ، التى كانت تتعاطف مع الحملات الصليبية القاطعة لبلاد آسيا الصغرى ، كما كانت تقف موقف العداء الحربى المسلح مع دولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى التى كانت تتولى صد الموجات الأولى للحملات الصليبية القادمة من آسيا الصغرى ، بحيث جاء غزو صلاح الدين لمملكة أرمينيا المسيحية استجابة لاستنفار سلطان سلاجقة الروم له وتحقيقًا لحلم نور الدين زنكى[١] . وقد أحرز هذا الغزو العسكرى الأيوبى لمملكة أرمينية نصرًا سياسيًا هامًا ، وهو اضطرار ملك أرمينية المسيحية إلى إعلان دخوله فى طاعة صلاح الدين ، وتبادل السفارات الدبلوماسية معه ، وإعلانه الالتزام بنقل أخبار تحركات الحملات الصليبية عبر آسيا الصغرى إلى صلاح الدين[٢] .

ولا يخفى أن حملات صلاح الدين على مملكتى النوبة المسيحية وأرمنية المسيحية ، كانت بمثابة موجة جديدة من موجات الفتوحات الإسلامية ، إذ جعل صلاح الدين الجها ديدنة وصيرة هجيراه[٣] .

وما لبث صلاح الدين ، أن كلل جهوده فى الجهاد ، باسترداد بيت المقدس من أيدى الصليبيين فى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م[٤] ، باسم الخليفة العباسى بحيث أعلن الأيوبيون الخطبة للعباسيين على منابر بيت المقدس وغيره من بلاد الشام التى تم استردادها من الصليبيين ، وذلك بعد إعادة الشعائر الإسلامية إلى هذه البلاد ، التى كان الصليبيون قد حولوا مساجدها إلى كنائس ، فكان سلاطين بنى

---

(١) أنظر ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ٩٨ – ١٠٠ ، أبو شامة : الروضتين .

(٢) أنظر ابن شداد : النوادر السلطانية ، ١٢٤ – ١٢٦ .

(٣) أنظر ابن شداد : كتاب فضائل الجهاد ، ألفه لصلاح الدين ، مخطوط بمكتبة كوبرلى باستانبول برقم ٧٦٤ ، ويقول ابن شداد فى كتابه النوادر السلطانية ص ٢١ : " ولقد كان الجهاد وحبه ، والشغف به ، قد استولى على قلبه (أى صلاح الدين) وسائر جوانحه استيلاءًا عظيمًا ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله .. ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد ، أو يذكر شيئًا من اخبار الجهاد ، وأنا ممن جمع له فيه كتابًا ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فى فضله ، وشرحت غريبها ، وكان – رحمه الله – كثيرًا ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز نصرة " .

(٤) أنظر العماد : الفتح ، ص ٤٨ – ٥٨ ، و ص ١١٦ – ١٤٧ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٢١١ – ٢٤١ ، ابن شاهنشاه : مضمار ، ص ٤ .

أيوب يغسلون هذه المقدسات الإسلامية لإزالة شعائر الكفرة عنها ، ويرفعون الرايات السود - شعار العباسيين - على منابرها ، ثم يرتبون القومة لحفظها ، والمؤذنين والقراء لمداومة أداء الشعائر بها ، مع رصد الأوقاف عليها للعناية بإصلاحها وترميمها[1] .

وهنا نلاحظ أن جميع غزوات صلاح الدين ضد الصليبيين ، وفتوحاته لبلاد الساحل الشامى ، التى كانت خاضعة لسيطرتهم العسكرية ، قد تمت باسم الخلافة العباسية ، فكان صلاح الدين يستشير الخليفة ثم يرسل له مكاتبات رسمية فيها خبر البشارة بالنصر ، وتفاصيل هذه الانتصارات[2] .

وليس أدل على اعتبار الخليفة هو الموجه الأعلى لرسالة الجهاد ، التى حملها الأيوبيون على أكتافهم فخورين ، من إطلاع صلاح الدين للخليفة ، على أسرار سياسته الخارجية الحربية الخاصة بعزل الجمهوريات الإيطالية التجارية ، جنوا والبندقية وبيزا ، عن الحركة الصليبية ، عن طريق عقد المعاهدات التجارية والعسكرية معهم ، ومنحهم بعض التسهيلات الجمركية فى ثغور مصر الشمالية ، نظير عدم تقديم أى مساعدة بحرية للقوى الصليبية بالشام ، وفى نفس الوقت إقرارهم بتخليهم التام عن مبادىء الدعوة الصليبية بالتزامهم بإمداد صلاح الدين بالأخشاب اللازمة لبناء الأساطيل وإمداده أيضًا بالأسلحة والعبيد المسيحيين، كذلك اطلع صلاح الدين ، أيضًا الخليفة العباسى ، على خبايا علاقاته الخارجية وسياسته الحربية تجاه الإمبراطورية البيزنطية ، وتجاه ملك صقلية النورماندى ، وكان كلاهما فى عداد أكبر ملكين من ملوك النصرانية[3] .

وكما استطاع صلاح الدين عزل الجمهوريات الإيطالية عن الحركة الصليبية بواقع المعاهدات التجارية الحربية التى وقعها مع هذه الجمهوريات [4] ، استطاع أيضًا فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ، أى بعد سنتين من استرداده لبيت المقدس ، توقيع معاهدة مع إمبراطور الدولة البيزنطية ، تقضى بعزل

---

(١) أنظر العماد: الفتح ، ص ٩٥ ، ص ١٠٨، ص ١١٨ - ١٢١ ، ص ١٣٧ - ١٤٠ ، ص ١٤١ - ١٤٤، ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٢٢٩ - ٢٤١ .

(٢) أنظر نص خطاب عمادى بالبشرى بفتح القدس عند القلقشندى : صبح ج ٦: ٥١٧ - ٥٢٠ ، وأنظر أيضًا ثلاث مكاتبات فاضلية بالبشرى بفتح القدس عند القلقشندى أيضًا : صبح ج ٦ ، ص ٤٩٦ - ٥٠٤ ، ٦: ٥٠٤ - ٥٠٦ ، ٨: ٢٨١ - ٢٨٩ ، وأنظر أيضًا خطاب فاضلى إلى الخلافة بالبشرى بفتح بلد من بلاد النوبة ، القلقشندى : صبح ٦: ٥٠٦ - ٥١١ ، ج ٦ ، ص ٥١١ - ٥١٥ وأنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، دار النهضة العربية ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ص ٦ - ٥٤ . حديثنا عن الوثائق التى فقدت أصولها الأثرية .

(٣) أنظر القلقشندى : صبح ج ٦: ٥١٥ - ٥١٦ ، ج ١٣ : ٨١ - ٩٠ ، أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٤) راجع تراجم تنشر لأول مرة لهذه المعاهدات ، مترجمة عن اللاتينية والإيطالية الدارجة ، عن أصولها المحفوظة بالأرشيفات الإيطالية ، أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، (ملامح الكتاب) .

الدولة البيزنطية كذلك عن الحركة الصليبية ، ومنح السلطان الأيوبي الامتياز الذى منح من قبل لسلاطين السلاجقة ، وهو الخطبة باسم السلطان الأيوبي والخليفة العباسي على منبر المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية . وهو الأمر الذى تم رسميًا فى سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م [١] .

والجدير بالملاحظة ، أن المراسلات بين بنى أيوب والخلافة العباسية ، كانت تتعرض لدقائق المسائل الإدارية الخاصة بإدارات الأقاليم التابعة للدولة الأيوبية ، كما أنها أبدت اهتمامًا خاصًا بطمأنة الخليفة العباسى على مداومة بنى أيوب ، تتبع بقايا الدعوة الإسماعيلية ودعاتها فى كل مكان ، واستمرار الدعوة للخلافة العباسية فى جميع البلدان التى يفتحها الأيوبيون[٢] . كذلك فإن تردد الرسل والسفارات بين سلاطين الأيوبيين والخلافة العباسية لم ينقطع إبدًا [٣] ، وهذا ما يفسر الخبر الذى أورده المؤرخون مقتضبًا ، ويفيد أنه حين استقر الملك العادل فى السلطنة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م « تراسل العادل مع الخليفة العباسى فى أمور مخفية »[٤] .

استجابة سلاطين بنى أيوب لدعوة الفتوة الناصرية الخليفتية :

وفى سبيل اكتمال الوحدة السياسية والمذهبية لبلاد المشرق الإسلامى ، حول الخلافة العباسية ، عمد خلفاء بنى العباس ، منذ عصر الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، الذى عاصر صلاح الدين ، وبلغت الخلافة فى عهده الطويل أقوى مراحل يقظتها ، إلى جمع ملوك الأطراف والسلاطين حول

---

(١) العماد : الفتح ، ص ٤١٤ ، ابن شداد : النوادر ، ١٣٢ - ١٣٣ ، سبط : مرآة ، ٨: ٤٠٤ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٣٢٨ - ٣٢٩ ، ابن عبد الظاهر : الدر النظيم ، ص ٣٧ - ٤٢ ، المقريزى : السلوك ، ١: ٩٨ ، هامش " ١ " .

(٢) يفيد العماد الأصفهانى ، أن القاضى الفاضل وزير صلاح الدين ، ونائبه بمصر ، كان قبل تراسله مع صلاح الدين بالشام ، يقف بنفسه على نسخ الرسائل العراقية الواردة من الخلافة العباسية ، أنظر العماد : البرق - خ ، ٣٨ أ - ٣٩ أ ، وراجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، ص ٦ - ٥٤ . وأنظر رسائل فاضليه لصلاح الدين بالشام ، عند العماد : البرق ، ٣: ٥٠ أ - ٥٧ ب ، ٦٤ ب ، ٦٧ ب .. إلخ .

(٣) أنظر العماد : الفتح، ص ١٨٣ - ١٨٩ ، ٢٧٩ - ٢٨٤ ، ٣٦٥ - ٣٦٦ ، العماد : البرق - خ ، ج ٣، لوحة ١١٤ ب - ١١٥ أ ، وأنظر ابن واصل : مفرج ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، ٣١٤ ، وأنظر نص خطاب " تذكرة " ، حملة سفير من قبل صلاح الدين ، إلى " أبواب الخلافة العباسية " عند القلقشندى : صبح ، ج ١٣ ، ص ٨٧ - ٩٠ .

(٤) أنظر المصادر الواردة فى الحاشية السابقة .

الخلافة ، في تنظيم اجتماعي عسكري ، عرفته تجمعات الفتيان العرب منذ الجاهلية[1] ، وبعثه الخليفة المتصر من جديد ، لأسباب سياسية وعسكرية ، هي محاربة الصليبيين[2] ، والنهوض بفريضة الجهاد .

ففي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ، لبس الخليفة الناصر سراويل الفتوة ، على يد اثنين من رؤساء جماعات الفتوة ، وهما عبد الجبار ويوسف المعروف بالعقاب ، ولم يبق أحد ممن كان قريبًا منه إلا ولبس منه سراويلاً ، وأمر الخليفة أبا علي الدارمي ، أن يكون نقيب الجماعة ، وأن يخطب ويذكر شروط الفتوة ، ويشيد بأخلاقها الشريفة[3] ، ثم أخرج الخليفة منشورًا من قبله ، ليقرأ على الناس ، بشأن الفتوة والإشادة بتعاليمها ، وإظهار فضائلها[4] .

وقد أوحى الخليفة الناصر لدين الله ، إلى مفكري وفقهاء عصره ، بالتأليف في قواعد ونظم الفتوة[5] ، وشروط وصفات الفتيان[6] ، ورسوم التحاق الفتى بهذا التنظيم ، عن طريق شرب كأس الفتوة هو من ماء وملح[7] ، ثم يتولى نقيب الجماعة حزمه بحزام ، يعبر عنه بـ « الشد » و « التكميل »[8] ، كنوع من أخذ العهد ، ثم إيراد القصص التي تشيد ببطولات الفتيان وشهامتهم[9] ؛ وقد ساق من ألف في نظم الفتوة ، سندًا للفتيان ولسراويلهم التي يتزيون بها ، يرجع إلى الإمام علي بن أبي طالب ، الذي لقبوه بسيد الفتيان ، ثم إلى النبي صلى الله عليه وسلم[10] .

---

(١) أنظر مصطفى جواد : الفتوة والفتيان قديمًا ، مجلة لغة العرب ، إبريل ١٩٣٠ ، أحمد أمين : الصعلكة والفتوة في الإسلام ، القاهرة ، مجموعة أقرأ ١٩٥١ ، احمد أمين : الفتوة في الإسلام ، مجلة كلية الآداب ، ج ١ ، مايو ١٩٤٢ ، الطبعة الثانية ١٩٥٣م ، ص ١ - ٢١ .

(٢) عن هذه الفكرة ، أنظر عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ، د. ت. ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٣) أنظر ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٨٦ ، ص ١٧٧ و ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٤) ابن الساعي : الجامع المختصر ، بغداد ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م ، تحقيق مصطفى جواد ، ٩ : ٢٣٣ - ٢٣٥ .

(٥) أنظر ابن المعمار الحنبلي : كتاب الفتوة ، تحقيق مصطفى جواد وآخرون ، بغداد ١٩٥٨ ؛ كتاب الفتوة ، تحقيق فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٩ م .

(٦) نفس المصدر ، طبعة مصطفى جواد ، ص ١٥٢ - ١٦٨ .

(٧) ابن المعمار الحنبلي : كتاب الفتوة ، ص ٢٥١ - ٢٥٤ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٢٣١ - ٢٤١ .

(٩) نفس المصدر ، ص ٢٦٢ - ٢٨٥ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ١٤٨ .

كذلك أوعز الخليفة الناصر إلى مفكرى وفقهاء عصره ، بالتأليف فى آداب الرمى بالبندق ، ورسومها وفنونها ، وأحكامها الفقهية[1] ، وهى رياضة عرفها المسلمون منذ عهد الخليفة الراشد عثمان ، ولكن الخليفة العباسى الناصر ، جعل رمى البندق فنّا ، لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها[2] .

والمتتبع لكتب الحوليات ، يلاحظ أن سلاطين بنى أيوب ، كانوا أول من قصدهم الخليفة الناصر ، ليضمهم إلى تنظيمه الجديد الخاص بالفتوة ، الذى جعل من نفسه فيه الرئيس الأعلى ، ففى سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م ، بعث الخليفة الخلع وسراويلات الفتوة إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وأولاده، مع عبد الجبار والعقاب ، نقيبى تنظيم الفتوة بالعراق ، فلبس العادل الخلع والسراويلات[3]، ولا ندرى إن كان الخليفة ، قد كرر هذه السفارة مرة أخرى سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م[4] ، وهى السنة التالية مباشرة لإرسال التقليد والخلع الخليفتية للملك العادل سنة ٦٠٤هـ . إثر الاعتراف به سلطانًا على جميع البيت الأيوبى[5] ، أم أن ثمة خلاف بين المؤرخين حول تحديد سنة هذا الحدث ، إذ تشير بعض المصادر أنه فى سنة ٦٠٥هـ ، وصل إلى السلطان الملك العادل وإلى جميع أولاده سراويلات الفتوة ، صحبة رسل الخلافة ، وصحبتها خلع عظيمة ، فلبسوا ولبس كل أحد ممن يلوذ به من أمرائه وخاصته وشاع لبس ذلك فى الناس[6] .

ويبدو أن استجابة بنى أيوب للانتساب للخليفة فى لبس سراويل الفتوة ، عن طريق «وكلائه» وسفرائه ، من رؤساء التنظيم ببغداد ، قد شجع الخليفة على مراسلة بقية ملوك الأطراف بالمشرق الإسلامى ، لنفس هذا الغرض ، ففى سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠م ، وردت الرسل على ملوك الأطراف ، تناشدهم شرب كأس الفتوة للخليفة الناصر ، ولبس سراويلها ، « ليكون انتمائهم له » ، وأمر كل

---

(١) أنظر ابن البقال : كتاب المقترح فى المصطلح ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٦٣٩ منه نسخة بالفوتستات بدار الكتب المصرية .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٣) سبط : مرآة ، ٨: ٥١٣ .

(٤) ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ١٦٥ .

(٥) أنظر بعده الفصل الخاص بالسلطنة .

(٦) ابن أيبك : الدر ، ص ١٦٥ ، وقارن بحث المستشرق نشر : الفتوة والخليفة الناصر ، ترجمة صلاح الدين المنجد فى كتابه المنتقى من دراسات المستشرقين الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٥م ، ص ١٨٧ - ٢٠٤ .

ملك أن يسقى رعيته ويلبسهم ، « لتنتمى كل رعية إلى ملكها » ، ففعلوا ذلك ، وأحضر كل ملك قضاة مملكته وفقهاءها وأمراءها وأكابرها ، وألبس كلاً منهم له ، وسقاه كأس الفتوة ، كما أمر الخليفة الملوك أيضًا ، أن تنتسب إليه في رمى البندق ، وتجعله قدوتها فيه[1] .

فكان من أراد الانتظام في سلك هذا التنظيم من ملوك الأطراف ، يأتي بغداد ، فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه ، أو يعهد بهذا إلى أحد أكابر أمرائه بالوكالة عنه ، فبطلت الفتوة في البلاد جميعها ، إلا من لبس سراويلها منه ، ومنع الرمى باللبندق ، إلا من ينتسب إليه[2] .

وأغلب الظن أن الخليفة الناصر ، قد أراد جمع شمل رعية كل ملك ، في تنظيم شعبى عسكرى لا ينفصم ، وربط جميع ملوك وسلاطين المشرق الإسلامى حول الخلافة ، في رباط موحد أيضًا ، لتكوين جبهة إسلامية واحدة ، تستمد وحدتها وتآلفها من الشعور الشعبى الموحد للأمة الإسلامية في جهاد الصليبيين ، بحيث تم تجميع القوى المعنوية الإسلامية ، والقيم الأخلاقية ، والمهارات الحربية للفتوة ، في سبيل الإعداد المعنوى والحربى للأمة ، تحت راية الخليفة العباسى ، الزعيم الروحى للإسلام .

ويبدو أن تزعم البابوية لحركة الصليبيات Goisades ،قد أدى إلى مسارعة المسلمين حكامًا وشعوبًا لقبول هذه الفكرة ، خاصة وقد لاحظ المؤرخون في هذا العصر ، « أن البابا هو خليفة الفرنج »[3] .

---

(١) ابن واصل : مفرج ، ٣: ٢٠٦ – ٢٠٧ ، المقريزى : السلوك ، ١: ١٧٢ ، ٢١٨س ٦ – ٧ ، الذى يقول: " وحمل أهل الأمصار على ذلك " ، ابن الساعى : مختصر أخبار الخلفاء ، ص ١٠٩ ، ابن الأثير : الكامل ، ١٢ : ٤٤٠ ، س ١٠ – ١٨ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٦: ٢٦١ – ٢٦٣ ، الذى يذكر أن الملك شهاب الدين صاحب غزنة والهند قد لبس سراويل عن الخليفة الناصر أيضًا .

(٢) أنظر مصطفى زيادة : هامش "١" على السلوط للمقريزى ، ج ١ : ١٧٢ ، جمال الشيال : هامش "٢" على مفرج ابن واصل ، ج ٣ ، ص ٢٠٦ ، وأنظر ابن واصل : مفرج ٤: ١٦٤ – ١٦٥ .

(٣) أنظر نصوص هامة أوردها سبط ابن الجوزى تفيد هذا المعنى على لسان ملوك وأباطرة أوربا وبملاحظة المؤرخين المسلمين أيضًا ، أنظر سبط : مرآة ، ٨ : ٨٠ ، ٦٢٠ س ١٩ ، ٦٥٣ – ٦٥٧ ، ٦٨٥ ، ٧٦٣، ابن واصل : مفرج ، ٤: ٢٥١ . والواقع أن أغلب ملوك الأطراف المسلمين قد استجابوا لدعوة الفتوة الناصرية ، ففى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م راسل الخليفة الناصر جلال الدين منكبرتى سلطان الدولة الخوارزمية وأرسل إليه اثنين من نقباء الفتوة ليلبسوه سراويلها وكالة عن الخليفة ، وكان ذلك بموجب سؤاله ، وقد أظهر خوارزمشاه قبوله لهذه المنحة الخليفتية ، بأن أرسل إلى بغداد بعد أيام رسول من قبله برسالة يشكر فيها =

ـ وأغلب الظن أن نقباء الفتوة ، الذين عاصروا عصرى الناصر وابنه المستنصر ، أرادوا تقوية هذا النظام ، وأثره النفسي والمعنوى فى نفوس مريديه ، حين أوحوا إلى الخليفة المستنصر ، وقد بات زوال نجم خلافة بنى العباس وشيكًا ، بأن يوهم الناس بأنه لبس سراويل الفتوة من أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فامتثل لهم المستنصر ، بحيث توجه إلى مشهد الإمام على سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م ، ولبس السراويل فى ضريحه[1] ، فلا غروًا أن توارث خلفاء الخليفة الناصر نظام الفتوة ، حتى زمن المستعصم، آخر خلفاء بنى العباس بالشرق[2] .

وفى رأينا أن نظام الفتوة ، كما أراد الخليفة الناصر تعميمه فى العالم الإسلامى ، كان يهدف من ناحية أخرى إلى محاربة الدعوة الفاطمية واستقطاب المتحمسين للتشيع للانخراط فى زمرة الفتيان الناصرية ، فليس عن قبيل الصدفة أن هذا السند ـ المفتعل بلا ريب ـ لسراويل الفتوة ، يرتقى إلى الإمام على ـ أول إمام تشيع له شيعة بنى هاشم ، ثم إلى النبى ، فالذى ابتكر هذا السند ولفّقه ، قد حرص كل الحرص على إرضاء الشيعة وجذبهم إلى هذا التنظيم الذى ترأسه الخليفة العباسى الناصر ، خاصة وقد عرفت عن هذا الخليفة ، أو ربما روج هو هذا القول عن نفسه ، أنه كان يميل إلى التشيع للإمام على[3] .

= الخليفة على هذا الإنعام . (ابن الفوطى : الحوادث ص ٤ – ٥ و ص ١٤) . وفى سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م وفد إلى بغداد أرسلان شاه بن عماد الدين زنكى صاحب شهرزور ، فشرفه أحد كبار أمراء البلاط الخليفى بلباس الفتوة نيابة ووكالة عن الخليفة ، بعد أن خلع عليه (نفس المصدر ، ص ٨٩ – ٩٠) وفى سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م ، سأل الملك الأشرف موسى الأيوبى ، صاحب دمشق ، سراويل الفتوة من الخليفة الناصر ، فانفذ إليه الخليفة من لفتاة – أى جعله فتًا – بطريق الوكالة . (نفس المصدر : ١٠٦) . كذلك وفد إلى بغداد رسول من قبل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م شهد أن ابنه رمى بالبندق ، وانتسب فى ذلك إلى الخليفة الناصر ، فقبل ذلك (نفس المصدر ، ص ١٤٣) ، ويبدو أن هذا الأمر أصبح عرفًا متبعًا ، شأنه شأن التشريفات الخليفتية ، لجميع ملوك الأطراف الوافدين على دار الخلافة ، فحين وصل إلى بغداد أمير المدينة المنورة سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م ، تشرف بلباس الفتوة عن الخليفة (نفس المصدر ، ص ١٢٦) ، ومما يؤكد أن هذا التنظيم كان يهدف إلى تأكيد الولاء للخليفة ، أن الناصر لدين الله كان إذا أراد العفو عن بعض أمرائه بعد الوحشة بينهما ، كان يلبسه هذه السراويل (نفس المصدر ، ص ١٣٠) ، بمعنى أنه أصبح من خواص رجاله .

(١) ابن الفوطى : الحوادث ، ص ٢٥٧ .

(٢) عمر الدسوقى : الفتوة عند العرب ، ص ٢٤٩ .

(٣) أنظر ابن الأثير : الكامل ، ١٢ : ٤٣٨ – ٤٤٠ ، ابن دحيه : النبراس ، ص ١٦٤ ، الذهبى : المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد لابن الدبيثى ، ص ١٧٩ ، المقريزى : السلوك ، ١ : ٢١٧ – ٢١٩ .

ويقوى هذا الظن أن دعاة الفتوة ، كانوا قد نجحوا فى اجتذاب أغلب نقابات الصناع والحرفيين[1] ، التى ظلت طوال العصر الفاطمى ، وحتى أوائل العصر الأيوبى ، من المستجيبين للدعوة الفاطمية[2] ، وفى نفس الوقت نجحوا فى جذب فتيان الصوفية ، الذين عرفوا بالملامتية ، وعرفت لهم من أخلاق الفروسية والنخوة والشهامة منذ حوالى القرن الرابع الهجرى ، ما يقرب تنظيماتهم وأهدافهم مع طائفة الفتوة[3] والصلة بين التصوف والتشيع معروفة[4] .

والواقع أن نظام الفتوة ، كان أحد الوسائل التى حاول دعاة الفاطميين استغلالها لتكوين جماعات من الفتيان تدين بالولاء للخليفة الفاطمى فى العراق وباقى ممتلكات الخلافة العباسية[5] . وتؤكد مشاهدات ابن جبير فى بلاد الشام ، تحت الحكم الأيوبى ، تحول طوائف الفتوة بالشام إلى الدعوة السنية وتحمسهم لها ، وتتبعهم للرافضة (الشيعة الفاطميين) بدمشق ، وقد تميزت هذه الطائفة السنية من الفتيان باسم « الطائفة النبوية » فيقول أنه وجد فى الشام جماعة من السنيين ، يعرفون بأهل الفتوة ، ويعرفون كذلك بطائفة النبوية ، وكانوا حربًا على الشيعة .. وهم يقتلون هؤلاء الروافض أينما وجدوهم ؛ ثم راح ابن جبير يتحدث على مذاهب الشيعة ، مشوهًا لها لكونه سني المذهب ، ويتهمهم بالضلال ، إذ « قد أضلهم الله ، فأضل بهم كثيرًا من خلقه ، وسلط الله على هذه الرافضة ، طائفة أهل الفتوة ، الذين عرفوا بالنبوية »[6] .

وبالإضافة إلى ما حققته « دعوة الفتوة الناصرية » ، من نفوذ للخليفة العباسى لدى ملوك وسلاطين المسلمين ، وما نجحت فيه من محاربة بقايا الشيعية الإسماعيلية وضم شيعتها إلى الدعوة السنّية، أحدثت مفاهيم وخلق المثل العليا للفتوة والفروسية الإسلامية ، ردود فعل فى الغرب

---

(١) أنظر أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الإسلام ، فؤاد حسنين على : مقدمة كتاب الفتوة لابن المعمار .

(٢) أنظر عبد الحميد العبادى : كتب الحسبة وفائدتها ، ، ص ٤٢٣ .

(٣) أنظر أبو العلا عفيفى : الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ، د. ت . وأنظر محمد فهمى عبد اللطيف : الفتوة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٤٨م .

(٤) راجع ما تقدم .

(٥) راجع خبر طويل هام أورده ابن الجوزى يؤكد هذا فى المنتظم ، ج ٨: ٣٢٦ - ٣٢٧ ، حيث يقول على جماعة فتيان الفتوة الذين قبضت عليهم السلطات العباسية بالعراق سنة ٤٧٣هـ " إن هؤلاء القوم يدعون لصاحب مصر (أى الخليفة الفاطمى) ، ويجعلون ذكر الفتوة عنوانًا لجميع الكلمة على هذا الباطن " .

(٦) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٥٢ .

الأوربي، جسدتها في خيال الأوروبيين سيرة البطل العربي الشهير أسامة بن منقذ[1] ، وسيرة البطل الكردي السلطان صلاح الدين ، الذي أصبح اسمه الأوربي Saladin رمزًا للعظمة والمجد والوفاء ؛ ويؤكد البعض أن الفروسية جسمًا وروحًا قد نقلتها أوربا عن العرب، وتبددت في نظام فرسان المعبد، كما اكتسبت ثروة نفسية وخلقية من الفروسية العربية[2] ، وقد نقل الأيوبيون عن الخلافة العباسية نظام الفتوة ، وورثة عنهم المماليك ، بحيث صار السلطان المماليكي ، هو الرئيس الأعلى لطائفة الفتوة في عصره[3] .

ولا يغيب عن أذهاننا ، أن الظروف السياسية والحربية ، التي عاشها العالم الإسلامي ، في القرنين السادس والسابع الهجري ، ١٢ - ١٣م ، نتيجة للوجود الصليبي في بلاد الساحل الشامي ، قد حتم على الخلافة العباسية ، وملوك الأطراف المسلمين ، فضلاً عن تجمعهم حول هذا التنظيم السياسي والاجتماعي للفتوة ، بغرض جمع شمل الوحدة السياسية والعسكرية في ديار الإسلام ؛ حتم عليهم أيضًا إعداد شعوبهم وخاصة الشباب والفتيان والأحداث ، إعدادًا رياضيًا عسكريًا ، هو أقرب ما يكون إلى تنظيمات « المقاومة الشعبية » أوهيئات « الكشافة » ؛ ولا ريب ، أن إطلاق تسمية « الفتوة » على التدريبات العسكرية والرياضية التي يتلقاها طلبة المدارس والجامعات اليوم ، هي تسمية موفقة جدًا ، ولها دلالتها المستمدة من أحداث التاريخ الإسلامي .

(١) أنظر عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ، ص ٢٧٧ ، وأنظر أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار أو سيرة أسامة، وقد نشره Derenbourg بباريس ١٨٩٩م ، وإعادة نشره فليب حتى في برنستن سنة ١٩٣٠م .

(٢) أنظر عمر الدسوقي . المرجع السابق ، ٢٦٧ - ٢٧٦ .

(٣) أنظر نفس المرجع ، ص ٢٥٥ ، نقلاً عن السلوك للمقريزي ، ١: ٧٢٥ .

الفصل الخامس

حماية سلاطين بنى أيوب

لطريق وفريضة الحج ؛ وللحرمين الشريفين ، والقِبْلَتَيْن

عودة ظاهرة الإهلال بالحج والعمرة من بيت المقدس بعد استرداد صلاح الدين للقدس سنة ٥٨٣هـ

وطبيعي وقد أضحت الخلافة العباسية ، تستند أولاً وأخيرًا على سلطاتها الروحية ، التى باتت تحظى بالتبجيل والطاعة ، من ملوك وسلاطين الإسلام ، أن تعمد إلى بسط هيمنتها وإشرافها على فريضة الحج ، وهى إلى كونها ركن من الأركان الخمس التى بنى عليها الإسلام ، تعد ولا ريب مؤتمرًا إسلاميًا عالميًا ، يضم الأمة الإسلامية عن بكرة أبيها ، حين تهفوا أفئدة المسلمين فى موسم الحج لأداء مناسكه ، وزيارة قبر الرسول الكريم ، والإلتقاء بإخوانهم فى الدين ـ وقد جاءوا زرافات ووجدانًا ، من كل فج عميق ـ فى بقعة شريفة مباركة ، كانت المهد الأول لدعوة الإسلام ودولته .

ولاشك أن ارتباط الحروب الصليبية بفكرة انتزاع بيت المقدس من يد المسلمين ، بما فيه من مقدسات إسلامية ونصرانية ويهودية ، وكون أغلب المحاربين الصليبيين ـ إذا ما استثنينا الجند النظاميين لملوك اوربا ، واستثنينا المنظمات والمؤسسات الدينية الحربية مثل الداوية والاسبتارية وغيرها التابعة للبابوية ـ جاءوا حجاجًا لبيت المقدس(١) ، وإن كان الدافع المباشر لتحركهم من أوربا ، هو مساوىء النظام الإقطاعي بها ، الذى كان قد بلغ فى هذا الوقت ذروة نضوجه واستفحلت مساوءه ، التى جعلت من الإقطاعي مالكًا للأرض ومن عليها(٢) ، فلا غرو أن كان الجوع والرغبة فى الخلاص والهروب من نير الاسترقاق ، هو الدافع الحقيقى لجموع الدهماء ، الذين كانوا يمثلون الجمع الغفير من جحافل الحملات الصليبية الأولى(٣) .

وغير خاف أن هذا الوضع الطارىء ، وما تمخض عنه من نجاح المسلمين فى استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وذلك بعد استيلاء الفرنج عليه اثنتين وتسعين سنة (٩٢ سنة) ، لأنهم أخذوه سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م ، بحيث دخل السلطان الصخرة بعد تمام الفتح ، وغسلها بالماورد ، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكى ، ومحى الصور فيها ، وكسر الصلبان ، وعمر المسجد الأقصى(٤) . ومنذ استرداد بيت المقدس نلحظ ظاهرة الحج المزدوج عند المسلمين ،

---

(١) أنظر مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشى ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٨م .

(٢) أنظر بالتفصيل ج . و . كوبلاند : الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ، نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٦م .

(٣) أنظر سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣، ج ١ ، الفصل الخاص بدوافع الحروب الصليبية ، وهو يؤكد أن الدافع الدينى لهذه الحروب كان ضعيفًا جدًا ، وأن الدافع الاقتصادى لدى البرجوازية الجديدة فى أوربا وخاصة فى الجمهوريات الإيطالية كانت هى المحرك الحقيقى لهذه الحروب التى أرتدت مسوحًا دينيًا تسترت وراءه .

(٤) العماد : البرق الشامى ، ص ٤٨ - ٥١ ، ص ١١٦ - ١٣٠ ، ص ١٣٧ - ١٤٧ ، سبط بن الجوزى : مرآة ، ٨: ٣٩٧ ؛ وأنظر السائح الهروى ت ٦١١هـ : الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق جانيت سورديل ، المعهد الفرنسى بدمشق سنة ١٩٥٣م ص ٢٤ - ص ٢٨ . =

أى إلى الأراضى الحجازية ، ثم إلى بيت المقدس[1] .

حماية دولة الخلافة الفاطمية لفريضة الحج ، بعد انتقالها إلى مصر ، والخطبة لها بالحرمين الشريفين ، وكسوتها للكعبة :

والواقع أن حماية سبيل الحجاج ، وتيسير أسباب الحج للمسلمين ، هو من أهم مهام أى خلافة إسلامية ، فنحن نعرف أن الخلافة الفاطمية ، كانت قد بررت فتحها لمصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م ، وحق الخليفة الفاطمى فى السيطرة على العالم الإسلامى كله شرقًا وغربًا ، بعجز الخلافة العباسية عن مداومة جهاد البيزنطيين ، وانقطاع طريق الحج وتعطله ، وعدم استطاعة الحجاج أداء الفريضة[2]

= وقد زار الهروى المقدسات الإسلامية ببيت المقدس ، قبل أن يمحو صلاح الدين منها آثار الإثم الصليبى ، والصور والأيقونات الوثنية ، ووصف حالة قبة الصخرة والمسجد الأقصى وصفًا يشعل صدور المسلمين غيرة على مقدساتهم التى ابتذلها الصليبيون ؛ ولقد ذكر الهروى أنه دخل بيت المقدس "زمان الفرنج سنة ٥٦٩هـ" ، أنظر ، الإشارات ، ص ٢٥ ، س ٨ – ٩ .

(١) سبط : مرآة ، ٨: ٥٧٥ ، ابن الفوطى : الحوادث ص ١٣٤ ، ويقول سبط ابن الجوزى فى حوادث سنة ٦١٣هـ وحج بالناس من العراق ابن أبى فراس ، ومن الشام الفقيه علم الدين الجعبرى ، وعدت من الحج على تبوك والعلا ، وجمعت بين زيارة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين زيارة الخليل فى المحرم ولله المنة وفى الحديث : (من زارنى وزار أبى إبراهيم فى عام واحد ، ضمنت له على الله الجنة) ، وإن لم يتفق على نقل هذا الحديث الثقات ، والأعمال بالنيات ، أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٥٧٥ . وأنظر ابن شداد : النوادر ص ٣١ س ١٥ – ١٧ ؛ والذى جمع بين حج الحجاز وبيت المقدس ، رجل متصوف ، من أهل إيران . كان أبوه صاحب توريز وقدم لشكر صلاح الدين ؛ ويقول ابن واصل فى حوادث سنة ٦٢٤هـ : (وكتب والدى – رحمه الله – فى هذه السنة ، وهو مقيم بالقدس بالمدرسة الناصرية الصلاحية ، إلى السلطان الملك المعظم ، يستأذنه فى الحج ، فأذن له فى ذلك ، وأحرم عند الصخرة الشريفة ، وسافر إلى مكة محرمًا ، وحج وجاور ثم حج سنة ٦٢٥ ، وعاد فى سنة ٦٢٦ ، وأقمت مكانه بالمدرسة المذكورة ، (مفرج الكروب ج ٤ ، ص ٢٠٨) ، ويقول ابن شداد فى حوادث سنة ٥٨٣ ، وهى السنة التى أسترد فيها بيت المقدس : " ثم اتفق لى العود من الحج (بالحجاز) على الشام لقصد القدس وزيارته ، والجمع بين زيارة النبى صلى الله عليه وسلم وزيارة أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فوصلت إلى دمشق ، ثم خرجت إلى القدس ، أنظر ابن شداد النوادر السلطانية ، ص ٨٥ ، س ١٠ – س ١١ .

(٢) أنظر ماجد : ظهور الخلافة ، ص ١٢٠ – ١٢٣ وأنظر مجير الدين الحنبلى ت ٩٢٨هـ : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، نشر مكتبة المحتسب ، عَمّان – الأردن ، د. ت، (ج ١ – ٢) ، ١: ٢٣١ (باب فضل الإهلال بالحج والعمرة من بيت المقدس) وفيه : عن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أهَلّ بحج أو عمرة من المسجد الأقصى الشريف إلى المسجد الحرام ، غفر له الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ووجبت له الجنة . وقد أحرم منه عمر بن الخطاب رضى الله عنه .. وأحرم منه ابنه عبد الله رضى الله عنه أيضًا .

وهذا ما أكده جوهر الصقلي في أمانة لأهل مصر[1] ، ثم ردده الخطيب الفاطمي في أول خطبة جامعة دعا فيها للخليفة المعز لدين الله ، أول خلفاء الفواطم بمصر ، على منبر الجامع العتيق (عمرو بن العاص) بالفسطاط[2] .

وحين تم للخلافة الفاطمية السيطرة على الحرمين ، أصبح إرسال الكسوة الفاطمية للكعبة من مصر[3] ، مع أمير الحج المصرى[4] . أهم ما يهتم به الخليفة الفاطمي ، لأن في ذلك تأكيدًا لميراثه لتراث النبوة والخلافة ، وحمايته لفريضة الحج ، التي تجمع شمل المسلمين من كافة أرجاء العالم ،

---

(١) جاء في هذا الأمان الذى يعد أهم وثائق العصر الفاطمي كله ، لأنه يظهر هدف الفاطميين من نقل خلافتهم من المغرب إلى مصر ، وأخيرًا أهدافهم بالنسبة لتكوين خلافة إسلامية عامة : " أنه صلوات الله عليه (الخليفة المعز لدين الله الفاطمي) لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم .. وأثر إقامة الحج الذى تعطل ، وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ، وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذا قد أوقع بهم مرة بعد أخرى فسفكت دماؤهم ، وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات ، وقطع عبث العابثين فيها ، ليتطرق الناس آمنين ، ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات ، إذا كان قد انتهى إليه - صلوات الله عليه - انقطاع طرقاتها ، لخوف مارتها ، إذ لا زاجر للمعتدين ، ولا دافع للظالمين " . أنظر المقريزى : اتعاظ الحنفا ، نشر الشيال ، دار الفكر العربي ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) أنظر نفس المصدر ص ١٦٣ ، س ١٠ - س ١٢ .

(٣) أنظر عن كسوة الكعبة المقريزى : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك نشر الشيال، القاهرة، ١٩٥٥م ، ص ٤٣ - ٤٤ حيث يذكر كسوتها العباسية السوداء على عهد المهدى العباسي ، وص ٦٦ حيث يذكر كسوتها بالديباج الأبيض شعار الدولة الفاطمية على يد الدولة الرسولية باليمن . وأنظر عن صناعة الكسوة بمصر من قبل الخلافة العباسية ثم من قبل الخلافة الفاطمية ، الشيال : مقدمة الذهب المسبوك للمقريزى ص ٢٠ - ٢١ وهامش "١" ص ٤٣ - ٤٤ على كتاب الذهب للمقريزى أيضًا ، المقريزى : الخطط ، طبع مطبعة النيل بالقاهرة ، ١٣٢٤هـ ، ج ١ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٦٥ ، الأزرقى : أخبار مكة ، المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ هـ ، ص ١٦٩ - ١٧٧ ، وعن وصف الكسوة الفاطمية أنظر محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية القاهرة ١٩٤٢ ص ١٦ ، ٥٢ - ٥٣ ، ٦١ ، وعن رسوم خروج المحمل الفاطمي إلى الحجاز ، أنظر J. Jomier: Le Mahmal وأحب أن أوجه شكرى الجزيل لهذا المستشرق الفرنسي الكبير والأب الدومينيكاني ، على ما اعتنى به من حديث شيق عن المحمل المصرى ، وما اتسع له صدره من مناقشة بيني وبينه بدير الأباء الدومينيكان بالعباسية .

(٤) كانت إمارة الحج في العصر الفاطمي من وظائف أرباب السيوف ، أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ص ٣٠٨ ، وأنظر تقليد بإمارة الحج صادر عن الخليفة الفاطمي بمصر القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ص ٤٠٤ - ٤٠٦ وأنظر كذلك نسخة توقيع من الخليفة الفاطمي لقاضي ركب الحج المصرى : القلقشندى : نفسه ، ج ١٠ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

وكان تفرد الخليفة الفاطمى بهذا الأمر ، من أعظم مفاخر الخلافة الفاطمية[1] . وقد استجد فى العصر الفاطمى عيد عرف بعيد الحجاج[2] .

ولعل فى سيطرة الخلافة الفاطمية على إرسال كسوة الكعبة ، وتولى أمير الحج المصرى لحماية الحجيج وطريق الحج ، وطاعة أمراء الحجاز للخليفة الفاطمى والخطبة للفاطميين بالحرمين[3] ، هو ما يعلل وجود سنوات متلاحقة ، انقطعت فيها أخبار لواء الحج العراقى ، حتى فى فترات ضعف الخلافة الفاطمية ، منذ مطلع القرن السادس الهجرى ، خاصة وأن أمراء الحجاز ، كانوا يتأرجحون فى الولاء بين الخلافتين العراقية والمصرية[4] . كما كان تعرض عرب بادية الشام والحجاز ، لنهب الحجاج إذا لم يدفعوا رسوم الغفارة ، سببًا آخر لتعطيل لواء الحج العراقى ، وعودته دون أداء الفريضة فى بعض السنين[5] وهذا ما يستدل من تتبع أخبار لواء الحج العراقى ، لدى المؤرخين

---

(١) جاء فى تقليد أمير الحاج المصرى ، عن لسان الخليفة الفاطمى : " الحمد لله الذى طهر بيتنه من الأرجاس ، وجعله مثابة للناس ، وآمن من حله ونزله ، وأوجب أجر من هاجر إليه ووصله بحمده أمير المؤمنين أن خصه بحيازة البيت الأعظم ، والحجر المكرم والحكم وزمزم ، وأفضى إليه ميراث النبوة والإمامة ، وتراث الخلافة والزعامة ، وجعله لفرضه موفيًا ، ولحقوقه مؤديًا ، ولحدوده حافظًا ، ولشرائعه ملاحظًا ، ويسأله ان يصلى على من امره بالتأذين فى الناس بالحج إلى بيته الحرام لشهادة منافعهم ، وتأدية مناسكهم .. وإن أولى ما صرف أمير المؤمنين إليه همته ، ووفر عليه رعايته ، مثابرًا عليه وناهضًا لحق الله تعالى فيه ، النظر فى أمر رفق الحجيج الشاخصة إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام .. " ، أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٦) .

(٢) أنظر ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٣ ، ج ١ ، ص ١٣٠ - ١٣١ ، وأنظر أيضًا ماجد : ظهور الخلافة ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) أنظر بالتفصيل : جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٩ ، وأنظر قبله .

(٤) أنظر ماجد : ظهور الخلافة ، ص ٢٢٩ وأنظر قبله . ولعل هذا التأرجح من قبل أمراء الحجاز ، فى التبعية للخلافتين العراقية والمصرية ، ما يفسر الخبر الذى أورده سبط ابن الجوزى سنة ٥١٠هـ ، فيذكر أنه حج بالناس من العراق أمير الجيوش يمن بن عبد الله المستظهرى ، ودخل مكة وعلى راسه الأعلام ، وخلفه الكوسات والبوقات والسيوف فى ركابه ، ويعلق سبط ابن الجوزى قائلاً : وإنما قصد إزلال أمير مكة ، أنظر مرآة الزمان ج ٨ ص ٦٣ ، ص ٧٠ . ثم يزيد الأمر وضوحًا بقوله : وهذا الجيش إنما دخلها معظمًا ، لأن أميرها والسودان كانوا عصاة على بنى العباس ، لا يرون أمامتهم ، ويخطبون لغيرهم . فقصد بذلك الطاعة والإذعان ، لا الهوان والعصيان ، سبط : نفسه ج ٨ ص ٦٤ .

(٥) أنظر سبط ابن الجوزى : مرآة ، ج ٨ : ٢٠٥ حوادث سنة ٥٤٥هـ ، ج ٨ ص ٥٦٨ - ٥٦٩ حوادث سنة ٦١٠ هـ ، ابن الفوطى : الحوادث ، ص ٦ - ٧ ، حوادث سنة ٦٢٦هـ ، ص ٦٠ - ٦١ ، حوادث سنة ٦٣١هـ ، ص ٩٠ حوادث ٦٣٢هـ .

العراقيين ، الذين حرصوا على ذكر أخباره في كل سنة[1] .

عودة الخطبة للخلافة العباسية ببلاد الحجاز والحرمين الشريفين على يد سلاطين بنى زنكى وبنى أيوب ، والكسوة العباسية للكعبة :

ويبدو أن عودة السيادة العباسية على الحجاز ، وعودة زعامة الوية الدول الإسلامية فى موسم الحج إلى لواء الحج العراقى ، يرجع إلى مساعى السلاجقة فى الاستيلاء على ممتلكات الفاطميين الدعاء على منابرها للخلافة العباسية[2] . وقد تم هذا على يد تلميذ السلاجقة النجيب نور الدين زنكى ، الذى بالغ فى الإحسان لأهل مكة والمدينة ، وبعث العساكر لحفظ المدينة النبوية ، وأقطع أمير مكة إقطاعًا ، وأقع أمراء العربان إقطاعات لحفظ الحاج فيما بين دمشق والحجاز ، وأكمل سور المدينة النبوية ، واستخرج لها العين ، فدعى له بالحرمين على منبريهما[3] . بعد اسم الخليفة العباسى .

وثمة معلومة على جانب كبير من الأهمية ، لدارس تاريخ الأسرة الأيوبية ونشأتها ، تشير إلى أن تولى مؤسسى هذه الأسرة ، لإمارة لواء الحج الشامى ، إبان خدمتهما لنور الدين زنكى ، كان من أهم عوامل استقواء نفوذ هذه الأسرة الطموحة . فنعرف أن نجم الدين أيوب ، كبير البيت

---

(١) أنظر سبط ابن الجوزى : مرآة ، ج ٨ ص ٦٣ حوادث سنة ٥١٠هـ ، ص ٩٨ حوادث ٥١٥هـ ، ص ١٥٨ حوادث سنة ٥٣٠هـ ، ص ١٧٤ حوادث سنة ٥٣٤ هـ ، ص ١٧٧ حوادث سنة ٥٣٥هـ ، ص ١٨٠ سنة ٥٣٦ ، ص ١٨٢ ، ص ١٨٤ سنة ٥٣٩ ، ص ١٨٥ سنة ٥٤٠ ، ص ١٨٨ سنة ٥٤١ هـ ، ص ١٩٦ سنة ٥٤٢ ، ص ٢٠٠ سنة ٥٤٣ ، ص ٢٠١ سنة ٥٤٤ ، ص ٢١٣ سنة ٥٤٧ ، ص ٢١٥ سنة ٥٤٨هـ، ص ٢٢٤ سنة ٥٥٠ ، ص ٢٢٧ سنة ٥٥١هـ ص ٢٣٢ سنة ٥٥٤ ، ص ٢٣٤ سنة ٥٥٥ ، ثم تنقطع أخبار الحج العراقى تمامًا حوالى سبعة عشر عامًا ثم تعود سنة ٥٧٢ هـ ، وهى السنة التى ذكر فيها ابن الجوزى إبطال صلاح الدين الغفارة عن الحجاج ، أنظر مرآة الزمان ، ٨: ٣٣٨ – ٣٣٩ ، وبعد ذلك تتطرد أخبار لواء الحج العراقى ولا تنقطع إلا نادرًا ، أنظر مرآة ج ٨ ص ٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٧١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤٠٥ . ٤٢٢ – ٤٢٣ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٦، ٥١٠ ، ٥١٩، ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٨ ، ٥٢٨ – ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣٥ ، ٥٣٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٥٥٦ – ٥٥٧ ، ٥٦٨ – ٥٦٩، ٥٧٥ ، ٦٠٦ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٧٤٩ . والملاحظ أن إنقطاع لواء الحج العراقى منذ مطلع القرن السابع الهجرى وإلى سقوط بغداد ٦٥٩هـ ، مرده التحرك المغولى ، أنظر أخبار لواء الحج العراقى فى هذا القرن عند ابن الفوطى: الحوادث ص ١٦ ، ٣٧ ، ٥٢ ، ٧٤ ، ٨٨ ، ١٨٧ – ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢٢٧، ٣١١ – ٣١٢ . وحدثنا الماوردى عن المهام الدينية والسياسية لأمير الحج العراقى ، الأحكام السلطانية ص ١٠٣ – ١٠٥ . عن الولاية على الحج وبيان إقسامها . وعن وظيفة إمارة الحج فى العصور المتأخرة أنظر كتاب : حسن الصفا والابتهاج ، بذكر من ولى إمارة الحج ، للشيخ احمد الرشيدى . (بروكلمن ملحق ٢/ ٥١٦) . أوله : حمدًا لك يا من رفع معالم البيت الشريف على أثبت بنيان ، منه نسخة خطية بمكتبة سوهاج : برقم ٨٢ تاريخ ، ٨٨ ق ، ١٣ × ٢١ سم . وهى مصورة بمعهد المخطوطات برقم ٢١٥ تاريخ .

(٢) أنظر قبله .

(٣) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٦٩ .

الأيوبي ، كان قد تولى إمارة الحج الشامي لنور الدين زنكي منذ سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦[١] ، والجدير بالملاحظة أنه قد ورثه في هذا المنصب اخوه أسد الدين شيركوه ، الذى وصف أنه قد تقدم عند نور الدين زنكي ، وبعثه أمير الحاج من دمشق[٢] . وكان شيركوه في حياته قد أنفق من أمواله المبالغ الضخمة ، في سبيل إقامة العمائر الدينية والخيرية بالحرمين هو وصديقه الوزير جمال الدين وزير صاحب الموصل ، وأوصى صديقه بأن يدفن في تربة بجوار المسجد النبوى بالمدينة المنورة[٣] . وقد حرص ملوك بني أيوب على تحقيق هذه الأمنية والوصية ، فقاموا بنقل رفاة نجم الدين أيوب وأخيه شيركوه بعد دفنهما بمصر ، وأعادوا دفنهما بالمدينة المنورة ، طبقًا لوصيتهما[٤] .

واستمرت السيادة العباسية على الحجاز ، على يد سلاطين وملوك الدولة الأيوبية ، وتبدت مظاهر عودة هذه السيادة في الخطبة للخليفة العباسي بالحرم المكي ، قبل أمير مكة ، وقبل السلطان الأيوبي صاحب مصر ، وملك اليمن من بني أيوب[٥] . وفي إرسال التقاليد الخليفتية بالإمارة لكل من أمير مكة والمدينة ، صَحِبَه أمير الحاج العراقي ـ وكان تقليد أو عزل أمير المدينة ومكة أو أولياء

(١) سبط : مرآة ، ٨: ٢٢٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٠ س ٧ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ٨ : ٢٥٠ . ولقد بقيت عمائر الوزير جمال الدين الموصلي عامرة ووصفها ابن جبير في رحلته ، أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٠٤ ، وأنظر ترجمته هذا الوزير عند ابن الأثير : الباهر ، ص ١٢٧ - ١٣٠ .

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان، ٨ : ٢٧٨ . يقول ابن واصل بعد ذكر وفاة نجم الدين أيوب سنة ٥٦٨هـ . ولما توفي دفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه في بيت بالدار السلطانية ، ثم نقلا بعد سنتين إلى مدرسة بنيت لهما بالمدينة ، بإزاء حجرة النبي – صلى الله عليه وسلم – وسعدا بجوار النبي – عليه السلام – فتم لهما بذلك سعادة الآخرة ، مضافة إلى ما نالاه من سعادة الدنيا ، ولما حججت سنة ٦٤٩ وقدمت المدينة – على ساكنها أفضلا الصلاة والسلام رأيت قبريهما بهذه المدرسة . ابن واصل : مفرج ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ٧٣ حيث يقول : ثم قام الخطيب للخطبة الثانية ، فأكثر بالصلاة على محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله ورضي عن أصحابه ، واختص الأربعة الخلفاء بالتسمية ، رضى الله عن جميعهم ، ودعا لعمى النبي حمزة والعباس ، وللحسن والحسين ، ووالى الترضي عن جميعهم . ثم دعا لأمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، ورضي عن فاطمة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ . ثم دعا للخليفة العباسي ، أبي العباس أحمد الناصر ، ثم لأمير مكة مكثر بن عيسى بن فليتة .. بن هاشم الحسني . ثم لصلاح الدين .. ولولى عهده أخيه أبي بكر بن ايوب .. وأنظر أيضًا ابن جبير : الرحلة ص ٨٠ ، يقول وفي أثر كل صلاة مغرب ، يقف المؤذن الزمزمي في سطح قبة زمزم رافعًا صوته بالدعاء للإمام العباسي أحمد الناصر لدين الله ثم للأمير مُكثر ، ثم لصلاح الدين أمير الشام وجهات مصر كلها واليمن .. ثم يصل ذلك بدعاء لأمراء اليمن من جهة صلاح الدين ثم لسائر المسلمين والحجاج والمسافرين وينزل . هكذا دابة دائمًا .

عهدهما يقرأ بجوار المسجد النبوى[1]، وإرسال كسوة الكعبة كل سنة بشعار بنى العباس وهو السواد، وبطُرُز حمراء تحمل اسم الخليفة العباسي وعبارات دعائية له[2] . كما تولى خلفاء بنى العباس، عمارة الحرم المكي[3] ، والمسجد النبوى[4] . كذلك كان الخليفة العباسي وحده، هو صاحب الحق في رفع لواءه يوم الوقوف بعرفات[5] .

---

(١) أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٥٢٤ ، ٦١١ ، ولقد أورد القلقشندى أكثر من نسخة تقليد لأمير مكة الحسنى صادرة عن ديوان الإنشاء المماليكى بعد انتقال الخلافة العباسية للقاهرة ، وهو يوصى أمير مكة بتأمين الحجاج وحسن وفادتهم وحماية أموالهم وأرواحهم ، أنظر صبح ج ١٢ ص ٢٣٣ - ٢٤٠ ، وأورد القلقشندى أكثر من نسخة تقليد لأمير المدينة من العصر المماليكى لأنه كان بالمدينة المنورة الكثيرون من أنصار الشيعة الإسماعيلية ، وأمير مكة الحسينى مكلف بمراقبتهم ، صبح : ج ١٢ : ٢٤٢ - ٢٥٨ ، وأنظر ابن الفوطى : الحوادث ص ٢٧٤ ص ٢٧٤ ، س ١ - ٢ .

(٢) يقول ابن جبير : يصف الكسوة العباسية للكعبة ، " وسقف البيت ، مجلل بكساء من الحرير الملون ، وظاهر الكعبة كلها من الأربعة الجوانب ، مكسو بستور من الحرير الأخضر ، وسداها قطن ، وفى أعلاها رسم بالحرير الأحمر ، فيه مكتوب أن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ، الآية ، واسم الإمام الناصر لدين الله ، فى سعته قدر ثلاث أذرع ، يطيف بها كلها . قد شكل فى هذه الستور ، من الصنعة الغريبة التى تبصرها ، أشكال محاريب رائعة ، ورسوم مقرؤة مرسومة بذكر الله تعالى ، وبالدعاء للناصر العباسى المذكور ، الآمر بإقامتها ، وكل ذلك لا يخالف لونها . وعدد الستور من الجوانب الأربعة أربعة وثلاثون سترًا ، وفى الصفحتين الكبيرين فيها ثمانية عشر ، وفى الصفحين الصغيرين ستة عشر ، وله خمسة مضاوىء ، وعليها زجاج عراقى بديع النقش .. وبين الأعمدة أكواس من الفضة ، عددها ثلاث عشرة ، وأحدها من ذهب . ابن جبير : الرحلة ص ٦٠ - ٦١ ، أنظر أيضًا ص ٩٦ - ٧٠ ، وأنظر بعده .

(٣) اورد ابن جبير النصوص التاسيسية الخاصة بعمارة بنى العباس للحرم المكي وتوسيعه فيقول " توجد " رخامتان متصلتان بجوار الحجر المقابل للميزاب.. أمر بصنعتهما إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر بن المستضىء بالله. العباسى . ويقابل الميزاب .. رخامة نقشت .. نقشًا عجيبًا ، فيه مكتوب : مما أمر بعمله عبد الله وخليفته ، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، أمير المؤمنين ، وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة (٥٧٦ هـ) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٦٤ - ٦٥ . ولقد أورد ابن جبير نصوص نقوش خاصة بعمارة الكعبة رآها ، ترجع إلى عهد الخلفاء العباسيين الأول ، فأورد نقشين من عهد الخليفة المهدى لدين الله ، مؤرخين سنة ١٦٧هـ ونقش من عهد الخليفة المقتفى لأمر الله مؤرخ بسنة ٥٥٠هـ ، أنظر الرحلة ص ٦٨ - ٦٩ . وآخر من عهد الخليفة المستضىء بأمر الله مؤرخ سنة ٥٧٣هـ وأنظر الرحلة ص ٨٤ س ١٢ - ١٦ ، وآخر من عهد الخليفة المهدى لدين الله مؤرخ سنة ١٦٧هـ أيضًا وأنظر الرحلة ص ٨٥ - ٨٦ .

(٤) حدث هذا سنة ٦٥٤ حين أحترق المسجد النبوى ، بسبب حريق عارض ، فأحترقت الحجرة النبوية ، والمنبر الذى من عهد النبى ، فلما بلغ الخليفة المستعصم لذلك أرسل قاضى القضاه ، وعدة من العدول ، وأصحبهم مالاً لعمارة ما احترق ، فعمروا ما خرب وأعادوه أحسن ما كان ، أنظر ابن الفوطى : الحوادث ص ٣١٦ .

(٥) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٦٣ - ١٦٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦: ١٠٥ .

ـ وتأكيدًا لإشراف الخلافة العباسية على الحرم المكى ، كان أمير الحج العراقى يقوم بنفسه بكسوة الكعبة مع خواصه[1] ، كما كانت الخلع الخليفية شعار السواد العباسى ، ترسل من بغداد إلى خطيب الحرم المكى ، شأنه شأن خطباء البلاد التابعة للخلافة العباسية على حد قول ابن جبير ، وذلك كى يلبسها عند صعوده للخطبة الجامعة ، كما كان لمقرىء الحرم أيضًا خلعة عباسية بشعار السواد ، وفى أثناء الخطبة تركز رايتان سوداوان فى أول درجة من المنبر[2] .

ـ كذلك لاحظ ابن جبير أنه كان للحرم المكى أربعة أئمة سنّية ، وإمام زيدى شيعى ، وكان الإمام الشافعى المذهب ، يعد المقدم على بقية الائمة ، الحنفى والمالكى والحنبلى والزيدى ، لأنه المقدم من الإمام العباسى ، وكان أول من يصلى[3] ؛ وأخيرًا فقد كان الخليفة العباسى هو الذى يقربنى شيبة وهى الأسرة التى توارثت سدانة الكعبة وحجابتها وحمل مفاتيحها منذ الجاهلية وبعد الإسلام[4] ، على وظيفة سدانة الكعبة ويجدد تقليدهم كل عام[5] .

أصبح السلطان الأيوبى منذ عهد صلاح الدين هو خادم الحرمين الشريفين :

ـ وكما ورث صلاح الدين عن استاذه نور الدين زنكى ، السلطنة العامة ، ورسالته فى توحيد الجبهة الإسلامية لجهاد الصليبيين ، عن طريق إحياء الخلافة العباسية ، ونصرة الدعوة السنية[6] ، ورث عن أستاذه أيضًا مهمة الحجاج وتأمين طريق الحج .

(١) يقول ابن جبير يصف رسوم وصول الكسوة العباسية الجديدة للكعبة : وفى يوم السبت يوم النحر المذكور ، سيقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراقى إلى مكة على أربعة جمال ، تقدمها القاضى الجديد بكسوة الخليفة السوادية والرايات على رأسه والطبول تهر وراءه وابن عم الشيبى .. معهما ، فوضعت الكسوة على السطح المكرم أعلى الكعبة . فلما كان الثلاثاء الثالث عشر من الشهر المبارك المذكور ، اشتغل الشيبيون بأسبالها خضراء يانعة .. فى أعلاها رسم أحمر ، مكتوب فى الصفح الموجه إلى المقام الكريم ، حيث الباب المكرم ، وهو وجهها المبارك ، بعد البسملة : إن أول بيت وضع للناس ، الآية ، وفى سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاء له ، وتحف بالرسم المذكور طرتان حمراوان ، بدوائر صفار وبيض ، فيها رسم بخط رقيق ، يتضمن آيات من القرآن ، وذكر الخليفة أيضًا .. أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٥٧ – ١٥٨ .

(٢) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٧٢ – ٧٤ ؛ وكانت هذه الرسوم العباسية الخاصة بالدعاء لبنى العباس على المنابر متبعة أيضًا فى مصر زمن صلاح الدين ، أنظر ابن جبير الرحلة ص ١٧ ، ٢٦ – ٢٧ ، ٢٩ ، وأنظر قبله وبعده .

(٣) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٧٨ – ٨٠ .

(٤) عن قصة بنى شيبة فى مفتاح الكعبة ، أنظر القلقشندى : نهاية الأرب رقم ٨٩٨ تاريخ تيمور ، دار الكتب ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ وأنظر : التذكرة التيمورية ص ٣٤٠ – ٣٤١ " الكعبة " .

(٥) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٥٧ – ١٥٨ .

(٦) أنظر قبله وبعده .

فأمر في سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م ، بأبطال الغفارة ، التي كانت تؤخذ من الحاج بجدة ، المسافرين عن طريق البحر الأحمر ، وعوض صاحب مكة في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إليه في البحر ، ويحمل مثلها فتفرق في أهل المارستان بمكة ؛ كما أوقف على الحجاج وعلى الحرمين الأوقاف(١) ، وذلك للصرف على مؤنتهم إبان أداء الفريضة(٢) ؛ كما أقطع أمير مكة الإقطاعات بصعيد مصر وباليمن(٣) .

وأيضًا أوقف على أمير المدينة الأمير جماز وأولاده أوقافًا بصعيد مصر ، لم تذكرها المصادر الأيوبية ، وإن أكدتها وثائق المحكمة الشرعية ، المحفوظة اليوم بسجلات مصلحة الشهر

---

(١) أنظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان : ٨: ٣٣٨ .

(٢) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٣٠ - ٣١ و ص ٥٤ - ٥٥ حيث يقول موضحًا عسف أمراء مكة بالحجاج عند تأخر وصول رواتب صلاح الدين إليهم ، مما جعل فقهاء الأندلس يفنون أهل الأندلس والمغرب بسقوط أداء الفريضة عنهم : " وأكثر هذا الجهات الحجازية وسواها ، فرق وشيع لا دين لهم قد تفرقوا على مذاهب شتى . وهم يعتقدون في الحاج ما لا يعتقد في أهل الذمة ، قد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها : ينتهبونهم انتهابًا .. فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤدنه إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه . ولولا ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين ، لكانوا من الظلم في أمر لا ينادى وليده ولا يلين شديده . فإنه رفع ضرائب المكوس عن الحاج وجعل عوض ذلك مالاً وطعامًا يأمر بتوصيلهما إلى مكثر أمير مكة ، فمتى أبطأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم ، عاد هذا الأمير إلى ترويع الحاج ، وإظهار تثقيفهم بسبب المكوس . واتفق لنا من ذلك أن وصلنا جدة ، فأمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر الأمير المذكور . فورد أمره أن يضمن الحاج بعضهم بعضًا ويدخلوا إلى حرم الله ، فإن ورد المال والطعام اللذان برسمه من قبل صلاح الدين وإلا فهو لا يترك ماله قبل الحاج ، هذا لفظه كأن حرم الله ميراث بيده محلل له إكتراؤه من الحاج فسبحان مغير السنن ومبدلها .. فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم فاعتقاده صحيح لهذا السبب . فراكب هذا السبيل راكب خطر .. والله قد أوجد الرخصة فيه على غير هذا الحال .

(٣) يقول ابن جبير : " والذى جعل له صلاح الدين بدلاً من مكس الحاج ، ألفا دينار اثنان ، وألفا أردب من القمح ، وهو نحو الثمانمائة مغيز بالكيل إلا شيلى عندنا ، حاشا إقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم المذكور . ولولا مغيب هذا السلطان العادل صلاح الدين بجهة الشام في حروب له هناك مع الإفرنج ، لما صدر عن هذا الأمير المذكور ما صدر في جهة الحاج " ، الرحلة ص ٥٥ ، س ١ - س ٥ .

العقارى[1] ؛ وقد شفع صلاح الدين ذلك برفع جميع المكوس - وهى ضرائب غير شرعية كانت تجبى من التجار[2] - عن الحجاج ، فسهل سبيل الحج ، بعد أن كاد ينقطع ، ولم يعد فى استطاعة الحجاج أداء فريضة الحج[3] .

---

(١) أنظر سجل محكمة الباب العالى ، وكان مقرها بالقرب من منطقة بيت القاضى بشارع بين القصرين ، ورقم السجل بمصلحة الشهر العقارى ٢٧٤ ، الوثيقة رقم ٦٦٨ ، صفحة ٣٧٣ وما بعدها بالسجل ، والسجل يتضمن أحكام قاضى القضاة محمد أفندى ونائبه فى الحكم ، إسماعيل أفندى الناظر فى الأحكام الشرعية بمصر المحمية ، فى شهر ذى الحجة سنة ١١٨٣هـ . ومجمل القضية أن بعض أهل ناحية قفا ، و " الديسية " أو لعلها " الديسية " و " الطوابية " بالوجه القبلى ، وكانوا من أسرة شخص يدعى مجرم البططى ، قد أدعوا أن عميد عائلتهم البططى هذا شريفًا من ذرية الشريف جماز ، أمير المدينة المنورة ، واستندت عائلة البططى فى إدعائها على حجة نسب أى شجرة عائلة رق غزال أوصال (بمعنى قطع موصله بعض) مخيطة ، مسطرة من محكمة مكة المشرفة بالأقطار الحجازية مؤرخة بـ ٤ سفر سنة ٦٧٤هـ . وعلى هذا الأساس طالبوا باستحقاقهم حصة قدرها قيراطان إثنان من الرزقة (الرزقة : هى الأرض السواد الخصبة التى تأتى أكلها وتكون وقفًا) الطين السواد المعروفة بجماز ، التى عبرتها ٨٧٥٠ فدانًا ، الكائنة بأرض ناحية قفا والديسية والطوابية ، بالوجه القبلى ، وأن المدعى عليهم واضعون أيديهم على هذه الأرض ، ولا يدفعون لهم كمستحقين عنها خراجًا . فلما سئل المدعى عليهم أجاب كل منهم : " بأن كامل الرزقة المذكورة موقوفة من قبل مولانا السلطان الملك المؤيد (كذا) المنصور (كذا) أبو الفتح (كذا)، صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، أمير المؤمنين (كذا) ؛ كان تغمده الله بالرحمة والرضوان أوقفه على السادة الأشراف الحسينية وعلى السادة الشراف الحسنية بمكة والمدينة ، وأنهم ومن يشركهم ، من الأشراف الحسينية والأشراف الحسنية، واضعون أيديهم على ذلك نسلاً بعد نسل من حين صدور الوقف فى ذلك ، من قبل مولانا السلطان المشار إليه أعلاه ، والولاية فى مدة تزيد على خمسمائة سنة ، سابقة على تاريخه . فحكم القاضى ببطلان الدعوة ، وبقاء الأرض الموقوفة فى يد أصحابها الواضعين أيديهم عليها لكونهم من ذرية الشريف جماز أمير المدينة . ومنطوق الحكم مؤرخ بـ ٤ جمادى الأولى سنة ١١٨٤هـ . وأحب هنا أن أشكر الأستاذ أحمد الحين ، خبير حجج الوقف وسجلات الشهر العقارى ، لأنه هو الذى دلنى على وجود هذه القضية ، كما أشكر الزميل الأخ عراقى يوسف مدرس التاريخ الحديث بأداب عين شمس ، الذى عرفنى على الأستاذ أحمد الحين .

(٢) أنظر بعده .

(٣) يقول ابن جبير : ومن مفاخر هذا السلطان (صلاح الدين) المزلفة من الله تعالى وأثاره التى أبقاها ذكرًا جميلاً للدين والدنيا : إزالة رسم المكس المضروب ، وظيفة على الحجاج ، مدة دولة العبيديين (الفاطميين) . فكان الحجاج يلاقون من الضغط فى استيدائها ، عنتًا مجحفًا ، ويسامون فيها خطة خسف باهظة ؛ وربما ورد منهم من الافضل لديه على نفقته ، أولاً نفقة عنده ، فيلزم أداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التى هى خمسة عشر دينارًا مؤمنية على كل رأس ، ويعجز عن ذلك فيتناول بأليم العذاب .. هذا السلطان هذا الرسم اللعين ، وسهل السبيل للحجاج وكانت فى حيز الانقطاع وعدم الاستطلاع ، أنظر ابن جبير: الرحلة ص ٣٠ - ٣١ . ولقد أورد العماد الأصفهانى فصلاً كاملاً فى كتابة البرق الشامى ج ٣ لوحة ٧٣ أ - ٧٤ أ عنونه بـ ذكر ما استقطه السلطان من مكوس مكة شرفها الله تعالى عن الحجيج وتعويضه أميرها عنها بجلاب غلة تحمل إليه فى كل سنة ، وتعيين ضياع موقوفه عليها بالديار المصرية . وأنظر لوحة ٧٤ب وصف طريق الحجاج من مصر إلى جدة عبر البحر الأحمر وركوب الحجاج ؛ ثم يوضح العماد ورود أخبار عن اضطراب الأمور ببلاد الحجاز وأنه على صلاح الدين الاهتمام بالحجاز خاصة بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . وعن تفاصيل خاصة برفع المكوس عن الحجاج والإقطاعات والرواتب الخاصة التى رتبها صلاح الدين لأمراء الحجاز ، أنظر المقريزى السلوك ، ج ١ ص ٦٤ حوادث سنة ٥٧٢ هـ . وسنة ٥٧٧هـ ، كتب إلى قوص بإبطال المكوس التى تستادى من الحجاج وتجار اليمن ، أنظر المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٤ .

وكل هذه الأيادى البيضاء التى أسداها صلاح الدين ، لحجاج بيت الله الحرام ، جعلت من السلطان المصرى الأيوبى ، حامي حمى الحرمين الشريفين ، وهو مظهر من مظاهر الزعامة السياسية فى العالم الإسلامي كله ، نلمس خطورته فى تمنى الرحالة الأندلسى ابن جبير - وكان أغلب الظن أحد دعاة الدعوة الموحدية[1] التى تفرعت عن الدعوة الأشعرية[2] - ، بأن يكون هذا الشرف ، من نصيب سلطانه[3] ، الخليفة عبد المؤمن الموحدى[4] ؛ هذا رغم إعجابه المتناهى بصلاح الدين وإغرابه فى الدعاء له ، والإشارة بعد له لتأمينه طريق الحج ، كلما ورد ذكر اسمه عرضًا عند تدوينه لأخبار رحلته[5] ؛ وهو يقرر - رغم إدعائه أنه قد وجد أنصارًا للدعوة الموحدية المؤمنية فى مصر

---

(١) عن الدعوة الموحدية ، أنظر كتاب الفيلسوف المغربى المعاصر مالك بن نبى : وجهة العالم الإسلامى ؛ وهو يوضح كيف أن الدعوة الموحدية بالمغرب ، هى أصل الدعوة الموحدية بالجزيرة العربية التى أعلنها المصلح الدينى الإمام محمد بن عبد الوهاب ، ونشرتها الدولة السعودية الأولى فى مطلع القرن التاسع عشر ، وأطلق عليها الاستعمار الإنجليزى اسم الدعوة الوهابية ؛ وأنظر بعده .

(٢) أنظر قبله وبعده .

(٣) عن كون " الخليفة " ابن عبد المؤمن الموحدى سلطانًا فى حقيقة الأمر ، أنظر قبله وبعده .

(٤) حاول ابن جبير إظهار الفساد المذهبى لأهل الحجاز ، وتفرقهم فرق وشيع ، وارتكابهم المعاصى بإذلالهم حجاج البيت الحرام ؛ ثم أردف هذا بالتأكيد أن صلاح بلاد الحجاز ، مهد الإسلام ، لن يتم إلا بسيطرة الدعوة الموحدية ، وخلفاء بنى عبد المؤمن ، على هذه البلاد ؛ فيقول : فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ، ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة فى سبيل الله ، هذه البلاد الحجازية .. تلافاها الله عن قريب بتطهير يرفع هذه البدع المجحفة عن المسلمين ، بسيوف الموحدية أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق والدفاع عما حرم الله عز وجل ، والغائرين على محادمه ، والجادين فى إعلاء كلمته وإظهار دعوته ونصر ملته ، إنه على كل شيء قدير .. وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنهم على جادة واضحة ؛ ومن سوى ذلك ممن بهذه الجهات المشرقية ، فأهواء وبدع ، وفرق ضالة وشيع ، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها ؛ كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهة ، إلا عند الموحدين ، أعزهم الله ، فهم آخر ائمة العدل فى الزمان (أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٥٥ - ٥٦) .

(٥) يقول ابن جبير بعد حديثه عن رفع صلاح الدين للمكوس عن الحجاج : وكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل ، حادثًا عظيمًا ، وخطبًا أليمًا ، فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس ، أن حج البيت الحرام ، إحدى القواعد الخمس من الإسلام ، حتى يعم جميع الأفاق ، ويوجب الدعاء له فى كل صقع من الأصقاع وبقعة من البقاع ، والله من وراء مجازاة المحسنين ، وهو جلت قدرته ، لا يضيع أجر من أحسن عملا .. (إذ) أزال هذا السلطان هذه البدع للعينة كلها ، وبسط العدل ، ونشر الأمن ، ابن جبير : الرحلة ص ٣١ س ١١ - ١٧ . حين تحدث ابن جبير عن إجحاف جباة الضرائب المصريين التابعين لصلاح الدين بالحجاج ، لأخذهم الزكاة عن أموال الحجاج التى لم يحل عليها الحول ، فلا تجب عليها الزكاة ، وذلك فى محطات الحجاج بمصر بالإسكندرية (أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٣ - ١٤ ، ص ١٦) ، وبلاد الصعيد كأخميم وقوص ومنية ابن الخصيب (أنظر ، نفسه ص ٣٨) وأكد ابن جبير أن صلاح الدين لا علم له بذلك ، وأنه لو علم به لعاقب مرتكبيه فيقول : وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه . ولو عرفه لأمر بقطعه ، كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ، ولجاهد المتناول له ، فإن جهادهم من الواجبات ، لما يصدر عنهم من التعسف ، وعسير الإرهاق وسوء المعاملة ، مع غرباء انقطعوا إلى الله عز وجل ، وخرجوا مهاجرين إلى حرمه الأمين .. هذا السلطان العادل ، الذى قد شمل البلاد عدله ، وسار فى الأفاق ذكره .. والله الآخذ على أيدى هؤلاء الظلمة ، بيد هذا السلطان العادل ، وتوفيقه إن شاء الله ، (أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٣٨ - ٣٩) .

والإسكندرية فى عصر صلاح الدين -[١] ، بأن الدعاء لصلاح الدين على منابر الحرمين بعد الخليفة العباسى وأمير مكة ، وتأمين جميع الحجيج على هذا الدعاء ، أقل واجب على المسلمين ، فى جميع الآفاق ، تجاه هذا السلطان العادل ، الذى أمن فريضة الحج[٢] .

والواقع أن صلاح الدين لم يدخر وسعًا لاستمرار تأمين طريق الحج ، بحيث جعل هذا الأمر هجيراه ، بحيث دام على مكاتبة أمير مكة يوصيه برعاية الحجاج عند وصولهم إلى الحرم المكى[٣] ؛ كما كاتب أمير برقة من قبله ، يوصيه بحماية الحجاج المغاربة والأندلسيين المارين بولايته[٤] ، كذلك حرص على تبادل السفارات الودية مع أمير المدينة المنورة وتعظيم رسوله والاعتزاز بهداياه ، لكونها من قبل أمير المدينة النبوية الشريفة[٥] .

وليس أدل على الأهمية العظمى لموسم الحج ، ، والهيمنة الروحية عليه بالنسبة للخلافة ، مما يخبرنا به مؤرخو صلاح الدين ، وكانوا من خواص رجاله ؛ أنه حين عزم للحج سنة ٥٩١ هـ /

---

(١) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٦ - ٥٧ وأنظر بعده .

(٢) يقول ابن جبير بعد ذكره لدعاء خطيب الحرم المكى لصلاح الدين : وعند ذكر صلاح الدين ، تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان . وإذا أحب الله يومًا عبده إذا ألقى عليه محبة الناس ، وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم ، وحسن النظر لهم ، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم (ابن جبير : الرحلة ص ٧٣ س ٢٠ - ٢٤) . ويقول بعد ذكره لدعاء خطيب زمزم لصلاح الدين ، أنه " ذى المآثر الشهيرة ، والمناقب الشريفة ، فإذا انتهى إلى ذكره بالدعاء ، ارتفعت أصوات الطائفين بالتأمين ، بالسنة تمدها القلوب الخالصة ، والنيات الصادقة . وتخفق الألسنة بذلك خفقًا ، يذيب القلوب خشوعًا ، لما وهب الله لهذا السلطان العادل ، من الثناء الجميل ، وألقى عليه من محبة الناس ، وعباد الله شهدائه فى أرضه " (ابن جبير : الرحلة ص ٨٠ س ٩ - س ١٤) .

(٣) يقول ابن جبير : أعلمنا بأن كتابه (صلاح الدين) ، وصل إلى الأمير مكثر ، وأهم فصوله ، التوصية بالحاج، والتأكيد فى مبرتهم وتأنيسهم ، ورفع أيدى الاعتداء عنهم ، وإلا يعاز فى ذلك إلى الخدام والاتباع . وقال : إنما نحن وأنت متقلبون فى بركة الحاج . فتأمل هذا المنزع الشريف ، والمقصد الكريم . وإحسان الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده ، واعتناؤه موصول لمن جعل همة الاعتناء بهم ، والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين (ابن جبير : الرحلة ص ٧٤ س ١ - س ٧) .

(٤) جاء فى نسخة تقليد بولاية برقة ، التى كانت على عهد صلاح الدين " قد انتظمت فى سلك أعمال المملكة الناصرية ، - أى الدولة الصلاحية - ، .... ؛ وراع أمور التجار والحجاج ، مراعاة تشملهم فى السفر والإقامة ، وتحميهم من تطرق استهانة ، إلى أحد منهم واستضامة " ، أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٥٩ - ٦١ ، وخاصة ص ٦١ س ٩ - س ١٠ .

(٥) أنظر ابن حجة الحموى : كتاب ثمرات الأوراق فى المحاضرات ، طبع بالقاهرة ، بهامش كتاب المستظرف من كل فن مستظرف للأبشيهى ، سنة ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م ص ٤٥ .

١١٩٤م ، أى قبل وفاته بعام واحد ، ـ وهو الذى يسر سبيل الحج لجميع المسلمين فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ـ نصحه خواصه بضرورة اطلاع الخليفة أولاً على هذا العزم ، حتى لا يصل إليه الخبر عن طريق آخر ، فيظن بصلاح الدين الظنون(١) .

تهديد الفرنج الصليبيين لطريق الحج البرى لحجاج مصر والمغرب والأندلس :

ولعل أمراء الصليبيين ، قد أدركوا خطورة فريضة الحج ، كركن أساسى من أركان الإسلام ، يحقق للمسلمين الوحدة الروحية ، ويوثق بينهم روابط اجتماعية وفكرية ، كفيلة ولا ريب بتعضيد شعورهم بالولاء إلى أمة واحدة ، وكيان اجتماعى واحد ؛ فعمدوا أحيانًا إلى مهاجمة قوافل الحج والتجارة المصرية ، المارة عبر صحراء سيناء ، فى طريق الحجاج الشهير ، ونهبها(٢) ؛ مما أدى إلى تعطيل الطريق البرى للحجاج ، الوافدين من الأندلس والمغرب ومصر ، واضطرارهم إلى سلوك طريق طويل يبدأ من الإسكندرية ، إلى الفسطاط ، إلى مدينة قوص بصعيد مصر ، ثم منها يخترق الحجاج صحراء عيذاب ، حتى يصلوا إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، ومنها يركبون السفن الصغيرة المعروفة بـ « الجلاب » حتى ميناء جدة ؛ وكانت هذه الرحلة طويلة شاقة عانى منها الحجاج الأمَرّين(٣) .

---

(١) العماد : الفتح القسى ص ٦١١ ، قال له خواصه : " لو كتبت إلى أمير المؤمنين ، وأعلمته بحجك .. حتى لا يظن بك أمر أنت منه برىء " ، والجدير بالذكر أن صلاح الدين كان ينوى أن يحج بجميع جنوده الذين يرغبون فى أداء الفريضة ، وذلك بعد أن وقع صلح الرملة ، وتم الصلح مع الصليبيين ، وأعطى العساكر الإسلامية دستورًا ، أى سمح لهم بالعودة إلى بلادهم . فيقول ابن شداد : وأشاع السلطان أمر الحج ، وقوى عزمه على براءة الذمة منه ، وكان هذا مما وقع لى ، وبدأت بالإشارة به فى يوم تتمه الصلح ، ووقع منه – رحمة الله عليه – موقعًا عظيمًا ، وأمر الديوان : " إن كل من عزم على الحج من العسكر ، يثبت اسمه ، حتى يحصر عدة من يدخل معنا فى الطريق ، وكتب جرائد بما يحتاج إليه فى الطريق من الخلع والأزواد وغير ذلك ، وسيرها إلى البلاد ليعدوها (ابن شداد : النوادر ص ٢٣٦ – ٢٣٧) ؛ ولكن الموت عاجل صلاح الدين قبل أن يتم أمنيته فى الحج إلى بيت الله الحرام " ، وأنظر العماد : الفتح ج ٣ لوحة ٧٥ حيث يورد فصلاً من إنشاء القاضى الفاضل عن عزم السلطان على الحج فى هذه السنة .

(٢) يذكر ابن واصل أن أول خروج لصلاح الدين من مصر إلى غزاة الفرنج السنة ٥٦٦ هـ ، كان حين وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله ، فأشفق عليها ، وخاف عليهم من الفرنج ، فالتقى بالقافلة وخفَرَهم إلى مصر . أنظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٩٨ . وقد ظل نهب الفرنج لقوافل الحج والتجارة ، حتى بعد انتصار حطين واسترداد بيت المقدس ٥٨٣هـ، فنسمع عن نهب الانكتار لقافلة مصرية سنة ٥٨٨هـ، أنظر ابن شداد : النوادر ص ٢١٣ – ٢١٥ ، سبط : مرآة ٨ : ٤١٥ إلى ٤١٦ .

(٣) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٣٨ – ٥٣ ، الذى يسمى ميناء عيذاب بـ (العذاب) ، وهو يذكر أن الركوب من جدة إليها " أفة للحجاج عظيمة " ، وهو ينصح الحجاج بعدم سلوك هذا الطريق عند العودة بل يرجعون صحبة أمير الحج العراقى ، ثم يذهبون إلى ميناء عكا على ساحل الشام ، ومنه يأخذون المراكب إلى المغرب والأندلس أو مصر . وأغلب الظن أن قطع الفرنج لطريق الحاج البرى عبر سيناء ، هو سبب عدم سماعنا عن أخبار الأمير الحج المصرى قبل استرداد صلاح الدين للقدس ولحصنى الكرك والشوبك اللذين كانا يقطعان طريق الحج الشامى والمصرى .

وكان قطع الصليبيين لطريق الحج البرى عبر سيناء ، قد تم لهم بعد استيلائهم على حصن الكرك ؛ مما جعل استرداد هذا الحصن من أهم أهداف نور الدين زنكى[1] ، ثم صلاح الدين الأيوبى ، حين كان نائبه بمصر ، قبل استقلاله بالسلطنة ؛ لذلك عمد نور الدين إلى محاصرة الكرك حصارًا مزدوجًا من ناحية الشام ومن ناحية مصر فى نفس الوقت ، وكاد يتم له استرداده ، لولا نكوص صلاح الدين وعودته إلى مصر ، خشية أن يعزله نور الدين بعد وضوح نزعاته الإستقلالية بمصر[2] .

ولكن حين استقرت السلطنة لصلاح الدين ، جعل الكرك هدفًا لأول غزوة من مغازيه للفرنج ، ليصل طريق القوافل والتجارة عبر سيناء ، بين مصر والشام[3] ، ويؤمن طريق الحج المصرى البرى بعد انقطاعه .

---

(١) يذكر ابن الأثير أن حصار نور الدين زنكى لحصن الكرك سنة ٥٦٥هـ ، كان لحماية قافلة مسلحة خارجة من دمشق بها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، ومعه عدد كبير من التجار ، وأهل صلاح الدين ، أنظر ابن الأثير : الباهر ص ١٤٤ ؛ ولعلها نفس القافلة التى خرج صلاح الدين لغفارتها ، أنظر قبله .

(٢) كان انسحاب صلاح الدين من أمام الشام ، وعودته إلى مصر قبل وصول نور الدين من الشام ، هو السبب المباشر لما عرف عند المؤرخين بـ" الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين " ، أنظر ابن الأثير : الباهر ص ١٥٨ - ١٥٩ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

(٣) كان ذلك سنة ٥٦٨هـ ، ويقول ابن شداد : وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو ، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد بعضها ببعض وتسهل على السابلة ؛ النوادر ص ٤٥، أنظر ابن واصل : مفرج، ج ١ ، ص ٢٢٤ . وفى سنة ٥٧٩هـ كرر صلاح الدين حصار الكرك هو من الشام وأخوه العادل من مصر بعد أن خرج مع العادل جمع غفير من التجار وغيرهم ، أنظر : النوادر ص ٦٣ . ثم كرر المحاولة مرة ثالثة ، أنظر أيضًا النوادر ص ٦٦ - ٦٨ حيث يقول عن الكرك : وكان على المسلمين منه ضرر عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر ، بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة ؛ فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة إلى مصر ، ويسر الله ذلك ولله المنة ، وفى سنة ٥٨٣هـ خرج صلاح الدين من دمشق حين علم أن أرناط صاحب الكرك قد خرج برجاله لقطع الطريق على لواء الحج الشامى عند عودته إلى دمشق، العماد: الفتح ص ٥٨ - ٥٩ ؛ ويذكر ابن شداد أن صلاح الدين أقام بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامى إلى الشام ، وأمنوا غائلة العدو ، أنظر النوادر ص ٧٤ س ١١ - ١٢ . ولقد أوضح مؤرخو سيرة صلاح الدين أن موقعة حطين التى كانت إرهاصًا بفتح بيت المقدس كانت بسبب قطع أرناط لطريق الحج والتجارة مما جعل صلاح الدين يهدر دمه ، أنظر العماد : الفتح ص ٨٠ - ٨١ ، ابن شداد النوادر ص ٧٤ - ٧٩ . وبعد فتح بيت المقدس أعاد صلاح الدين حصار حصنى الكرك والشوبك سنة ٥٨٣هـ وذلك لقطع الفرنج طريق الحج كما صرح العماد ، أنظر الفتح ص ١٩١ ولقد استعصى هذين الحصنين على صلاح الدين حتى بعد فتح القدس ، العماد الفتح ص ٢٠٤ ، إلى أن استسلمت صاحبة الحصن لصلاح الدين ، العماد : الفتح ص ٢٠٥ - ٢٠٧ فتسلم الملك العادل نائب صلاح الدين بمصر هذا الحصن (العماد : الفتح ص ٢٢٦ - ٢٦٧) ؛ ولعل كون أول حملة بحرية للأسطول المصرى الأيوبى كانت سنة ٥٦٦هـ لتفتح قلعة أيلة على البحر الأحمر ، أنظر مفرج الكروب : ١: ١٩٩ ، كانت لتأمين طريق الحج والتجارة أيضًا .

ولاشك أن حملة أرناط البحرية على البحر الأحمر ومحاولتها الوصول إلى الأراضى الحجازية واختطاف جثمان النبى الكريم ، صلى الله عليه وسلم ، كانت على علم تام بأهمية حج المسلمين إلى الأراضى الحجازية ، وزيارة قبر رسولهم بالمدينة المنورة ؛ لذلك لم يقصر لؤلؤ قائد الأسطول المصرى فى أسر هؤلاء الفرنج ، وإدخالهم إلى القاهرة فى هيئة مزرية ، وعلى صورة من الذلة والمهانة وصفها لنا ابن جبير؛ ثم أرسل لؤلؤ بعض هؤلاء الأسرى إلى المدينة المنورة ، حيث ذبحوا ذبح الإبل[1]؛ فلا غرو أن لقب صلاح الدين بـ « خادم الحرمين الشريفين »و « منقذ بيت المقدس من أيدى المشركين »[2] ؛ وليس أدل على الأهمية العظمى التى أولاها العالم الإسلامى ، لتأمين طريق الحجاج المسلمين إلى مكة ، وحرص الأيوبيين على إنجازها ، مما صرح به العماد الأصفهانى مؤرخ صلاح الدين ، من أن تأمين طريق الحج إلى مكة كان من أهم دوافع صلاح الدين ، لفتح بيت المقدس واسترداده من الصليبيين[3] .

الإشراف المباشر لملوك بنى أيوب باليمن على موسم الحج، وعموم إشراف سلاطين بنى أيوب بمصر ، على لواء الحج : الشامى ، والعراقى ، والمصرى :

ولقد داوم ملوك بنى أيوب ، على حماية طريق الحج وتأمينه ، وحماية لواء الحج العراقى ، الممثل لسيادة الخليفة الروحية على العالم الإسلامى ؛ وكان هذا عادة ما يكون من حظ أيوبيى اليمن ، وذلك حتى فى حياة صلاح الدين ، فكان يخطب لهم بالحرمين ، بعد صلاح الدين سلطان مصر[4] .

ففى سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦ ، وصل سيف الإسلام طشتكين ملك اليمن الأيوبى بنفسه إلى الكعبة ، ليمنع الآذان الشيعى بها بـ « حى على خير العمل » ، وليمنع العبيد الموالين لأمير مكة الذين يأخذون الحجاج ؛ وطلب مفتاح الكعبة من أمير مكة ، ليكون هو الحامى للحرم المكى من الناحية الفعلية ؛ وذلك بعد أن حاول أمير مكة إغلاق باب الكعبة ، وإعطاء مفتاحه لسدنته من بنى شيبة ، الذين ذكر الرسول ، أنه سيبقى فى أيديهم إلى يوم الدين ، حتى يرغم طشتكين على العودة دون طلب مفتاح الكعبة ؛ فهدد طشتكين بأخذه قصرًا ، وهنا أذعن أمير مكة ، وسلم المفتاح لطشتكين ، الذى سلمه بدوره لبنى شيبة[5] .

---

(١) عن حملة لؤلؤ أنظر ابن واصل : مفرج الكروب ، ٢: ١٢٧ - ١٣٢ ، ابن جبير : الرحلة ص ٣٤ ، ص ٣٥ ، العماد : الفتح ص ١١٥ ، وأنظر ترجمته لؤلؤ عند العماد : الفتح ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) ابن شداد : النوادر ص ٣ س ١٠ - س ١١ .

(٣) يقول العماد : أنا استفتحنا سنة ٥٨٤هـ ، بقمع أهل التثليث ، وكنا اشفقنا على طريق الحج ، من قصد الفرنج ، فشغلناهم عن القصد بقصدهم ، وتصلينا لجهادهم وبردهم عن المراد وصدهم . وأقمنا بظاهر بصرى مخيمين على سمت الكرك ، وقدمنا الطلائع إلى المناهل ، ونظمنا سلك إمدادهم فى ذلك المسلك ، حتى وصل الحاج سالمًا ، وذل الكفر عن قصده راغمًا ، (العماد : الفتح ص ١٩١) .

(٤) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٨٠ ، وأنظر قبله .

(٥) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ٨: ٣٨٨ .

ولقد أكد ابن جبير في وصفه لأدائه فريضة الحج ، أن أيوبى اليمن : كانوا يشرفون إشرافًا مباشرًا على موسم الحج ، فيخلعون على أمير مكة ، وتفتح لهم الكعبة تشريفًا لهم في غير موسم الحج ، ويعود ركب الحجاج المصريين، صحبة ملك اليمن الأيوبى ، طلبًا لحمايته في طريق العودة[1] .

والواقع أن مكة كانت تابعة إداريًا تبعية مباشرة لملك اليمن الأيوبى[2] ، شأنها شأن عدن[3] ؛ ولعل في إقدام المعظم تورانشاه - فاتح اليمن وأول ملوكها والأخ الأكبر لصلاح الدين - على الحج ، فكان أول من حج من بنى أيوب ، بعد توليهم الملك[4] ؛ كان أول شعور من ملوك الأيوبيين باليمن ، نحو الطموح إلى شرف رعاية فريضة الحج .

وقد ظلت السيطرة السياسية على مكة تتأرجح بين أيوبيىّ اليمن وأيوبىّ مصر ؛ في حالات الصراع الأسرى بين هذين الفرعين من البيت الأيوبى[5] ؛ ثم أصبح هذا التنافس على السيطرة على سدانة الكعبة وكسوتها والإشراف على موسم الحج بين أيوبى مصر من ناحية ، وبين الدولة الرسولية - وبنو رسول في في الأصل من مماليك أيوبى اليمن[6] - ؛ فأحيانًا ما كانت ترجح كفة بنى أيوب ، وأحيانًا ما ترجح كفة الرسوليين[7] .

ومنذ عهد صلاح الدين ، كان لواء الحج الشامى ، معضدًا للواء الحج العراقى ، حاميًا له ، والواقع أننا لم نسمع عن لواء الحج الشامى ، كلواء مستقل عن لواء الحج العراقى ، إلا منذ سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩ ؛[8] وكان أول من تولى إمارته ، رجل من رجال القلم - وليس من رجال السيف ، كما هو الحال دائمًا في أمراء الحج سواء في العصر الفاطمى[9] ، أو العصر العباسى[10] - وهو الصفى

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٤ - ١٢٧ .
(٢) أنظر بعده .
(٣) ابن جبير : الرحلة ص ١٤٨ .
(٤) المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ٧٠ - ٧٣ .
(٥) أنظر ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ١٢ - ١٣ ، ص ٤٢ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، المقريزى : الذهب المسبوك ص ٧٦ - ٧٩.
(٦) أنظر عن هذه الدولة بالتفصيل كتاب مؤرخهم الخزرجى : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، طبع ليدن ١٩٠٦ - ١٩١٨ .
(٧) أنظر الشيال : مقدمة كتاب الذهب المسبوك للمقريزى ص ٢١، ابن الفوطى : الحوادث ص ١٢٢ - ١٢٤، المقريزى : الذهب المسبوك ص ٧٩ - ٨٠ ، ٨٤ - ٨٥ .
(٨) سبط : مرآة ، ٨: ٣٥٥ .
(٩) أنظر قبله .
(١٠) أنظر بعده .

بن القابض وزير صلاح الدين بالشام[1] ؛ ثم اسندت إلى سيف الدين المشطوب[2] ، وهو أعظم أمـراء الأكراد في الدولة الأيوبية ، وكان يعرف بـ « ملك الأكراد »[3] ؛ ثم أسندت إمارة الحـج الشـامي[4] بعد ذلك لكبار مماليك الدولة الصلاحية ثم العادلية ، ثم لكبار مماليك المعظم عيسى بن الملك العـادل ، ملك الشام الأيوبي ؛ وغالبًا ما كان هؤلاء المماليك من ولاة بلاد الشام من قبـل بنـي أيـوب ، الواقعة ولا يتهم في طريق الحج الشامي[5] ، وعادة ما كان لواء الحج الشـامي ، يلتحـق بلـواء الحـج العراقي وينضم إليه[6] .

وكان أول تدخل حقيقي للواء الحج الشامي لحماية لواء الحج العراقـي سـنة ٦٠٨هـ / ١٢١١ التي حج فيها بالناس من العراق طشتكين مملوك الخليفة ، ومن الشـام ربيعـة خـاتون ، المعروفـة بست الشام أخت صلاح الدين ، وولدها حسام الدين لاجين ، وجماعة من المعتبرين[7] ؛ إذ تعرض قتادة أمير مكـة ، لمحاولـة اغتيالـه ، على يد رجـل مـن الحشيشـية الفداويـة ـ وهـم أنصـار الدعـوة النزاريـة الإسماعيلية[8] ـ ؛ وأعتقد أمير مكة أن هذا الحشيشي ، كان يعمـل لحسـاب صـاحب آلموت ، الـذى كانت أمه في رفقة أمير الحج العراقي ، أو لحساب أمير الحج العراقي نفسه ؛ لذلك أمر أتباعـه بمهاجمة الحجاج العراقيين ، وقتلهم وأميرهم ، ونهب أموالهم وأمتعتهم ؛ فلجأ أمير الحج العراقـي ، إلى خيمـة ربيعة خاتون، التى أرسلت إلى أمير مكة تتوعده، وتذكره بقوة أولاد أخيها صلاح الدين ملوك الشام؛ ثم أرسلت ابن البـلاد ، أمـير الحـج الشـامي ، الـذى كـرر هـذه التهديـدات ، مؤكـدًا أن بنـي أيـوب

---

(١) عن هذا الوزير وعن ظاهرة تعدد وزراء بني أيوب منذ عصر صلاح الدين بمصر والشام ، أنظر بعده .

(٢) كان ذلك سنة ٥٧٦هـ ، أنظر سبط : مرآة ٨: ٣٦١ .

(٣) أنظر بعده ..

(٤) كانت بلاد الشام والعراق ومصر واليمن ، هي أهم مراكز تجمع الحجاج القادمين إلى بـلاد الحجـاز مـن شتى أرجاء بلاد العالم الإسلامي ؛ أنظر كتاب " منازل الحج " لمحب الدين محمد بن شمس الدين محمد بن العطـار؛ ذكره حاجي خليف (كشـف الظنـون ٢: ١٨٢٨) ، وسـماه منـازل الحـج ، فـي المنـازل التـى تلقـى الحـاج في طريقه من اليمن والشام ومصر والعراق . نسخة كتبت فـي القـرن السـابع بخـط المؤلـف ، بمكتبـة لا لـه لي ٣٤٨٦/ ٢ ، ١٠ - ١٩ ق ، ومصورة بمعهد المخطوطات برقم ٥١٣ تارخ .

(٥) أنظر سـبط : مـرآة ٨: ٤٤٨ حـوادث سنة ٥٩١هـ ، ص ٤٥٦ حـوادث سـنة ٥٩٤ و ٥٩٦ ص ٥٢٤ حوادث سنة ٦٠١ ، ص ٥٣٥ حـوادث سـنة ٦٠٤ ، ص ٥٣٩ حـوادث سـنة ٦٠٥ ، ص ٥٤١ - ٥٤٢ حوادث سنة ٦٠٦هـ ، ص ٦٠٦ حوادث سنة ٦١٦ هـ . ص ٧٤٩ حوادث سنة ٦٤٢هـ .

(٦) أنظر سبط : مرآة ٨: ٥٥٦ - ٥٥٧ .

(٧) نفس المصدر والصفحة ، وهذه هي ثاني حجة لربيعة خاتون رفقة لواء الحج العراقي ، لأنهـا حجـت مـن قبـل سنة ٥٨٢هـ ، أنظر سبط : مرآة ٨: ٣٨٩ .

(٨) أنظر قبله وبعده .

لن يترددوا في إرسال العساكر من الشام لمحاربته ، في نفس الوقت الذى سيرسل فيه الخليفة من قبله العساكر من العراق للاقتصاص منه ؛ فأسقط في يد أمير مكة ، واكتفى حفظًا لماء وجهه ، بأخذ دية من أمير الحج العراقي ، ومن أم الكيا حسن صاحب الموت ، لاتهامه لهما بمحاولة قتله[1] .

ومرة أخرى حين حاول أمير مكة ، نهب لواء الحج العراقي سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م ، خوفه خواص رجاله من انتقام الكامل والمعظم للخليفة ، فتراجع عن عزمه[2] .

أما لواء الحج المصرى ، فنحن لا نسمع عنه إلا سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م ، أى قبل وفاة صلاح الدين بسنة واحدة ، فحج بالناس من بغداد سنجر الناصرى ، ومن الشام قراسنقر وأيبك فطين الصلاحيان ، ومن مصر الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفرى من ولد جعفر بن أبى طالب[3] ؛ أى أن هذه الوظيفة أسندت لأمير من أشراف العرب المصريين ، من قبيلة بنى ثعلب ؛ وقد كان هذا الأمير من أثرياء الصعيد ، بحيث كان يفرق على الناس القمح الذى تجتلبه مراكبه في أوقات المجاعات وغلاء الأسعار[4] ؛ وكان مقدمًا في قبيلته ، التى كانت مع غيرها من قبائل عرب الحوف الشرقى والغربى للدلتا ، يستخدمون في جيوش مصر الإسلامية ، كجند احتياطيين ، وذلك منذ العصر الطولونى ، وطوال العصر الفاطمى ، وحتى نهاية العصر الأيوبى[5] ؛ فوجد الأيوبيون في جاهه

---

(١) سبط : مرآة ٨: ٥٦٦ - ٥٥٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ٢١٠ - ٢١١ ؛ الغريب أن ابن واصل يقول أن المقصود بالخوارزمى ، الكيا حسن ، صاحب آلموت ، أهم معاقل الإسماعيلية النزارية بإيران ، ثم يذكر أنه في هذه السنة قد تتخلى عن العقيدة الإسماعيلية ، وأقام شعار الإسلام على المذهب السنى الشافعى ، وكتب إلى الخليفة والملوك يعلمهم ذلك ، وبعث والدته لتحج فأكرمت ببغداد ثم حجت. أنظر قبله .

(٢) أنظر سبط : مرآة ٨: ٦١١ ؛ والجدير بالذكر أن لواء الحج الشامى قد تولاه في بعض السنين بعض الفقهاء والعلماء وبعض أمراء الأكراد ، وبعض أمراء الأتراك ، أنظر سبط : مرآة ٨: ٥١٠ ، ٥٢٦ ، ٥٣٥ ، ٥٤٦ . وإن ظل المماليك ، هم في الغالب الذين يتولون هذا المنصب ؛ والطريف أننا نسمع في سنة ٦٠٨هـ عن الحج من القدس ، مستقبلاً عن لواء الحج الشامى ، تحت إمارة الأمير الشجاع على بن ملار ، سبط : مرآة ٨: ٦٠٨ ؛ هذا وقد حاول أمير مكة في سنتى ٦٠٧هـ ، ٦٠٨هـ ، نهب لواء الحج العراقى ؛ ولما لم يجد من ينجده من ملوك بنى أيوب ، نهب عن آخره ، وفر من مكة نواب الخليفة ، فبعث أمير مكة ولده إلى الخليفة يعتذر له ، فقبل عذره وعفا عنه . (أنظر المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٧٤ ، ص ١٧٥ - ص ١٧٦؛ وعن حادثة أخرى نهب أمير مكة للواء الحج العراقى سنة ٦٥٣هـ ، أنظر ابن الفوطى : الحوادث ص ٣١١ - ٣١٢ ؛ هذا ويوجد نقش جنائزى بتاريخ ٦٥٠هـ خاص بأمير من أمراء الحج الشامى ، عثر عليه في الصالحية بدمشق باسم الأمير جمال الدين بن الأمير الكبير زين الدين ، بن عضد الدين خالد ، " أمير الحاج والحرمين " أبى سعد قراجا الناصرى الصلاحى ، أنظر سوفاجية : الجامع Repentione للنقوش العربية ، ج ١١ ص ٢٣٤ رقم ٤٣٥٢ .

(٣) سبط : مرآة ، ٨: ٤٤٨ .

(٤) أنظر المقريزى : السلوك ١: ١٣٤ وهامش (٤) للدكتور مصطفى زيادة ، وأنظر بعده .

(٥) أنظر بعده .

وثراءه ، وفي قوة قبيلته وقبائل الأعراف المنتشرين في الحوف الشرقي للدلتا وصحراء سيناء(١) ، خير من يقوم بحماية الحجاج ؛ وقد لقب ابن ثعلب ـ على شاهد قبره ، في مدفن الشرفاء الثعالبة ، الذى بقيت واجهته إلى اليوم ، وهي بمنطقة الإمام الشافعي ـ لقب بـ « أمير الحج والحرمين »(٢) .

ولاشك أن عدم وجود هذه الوظيفة بمصر أيام صلاح الدين ، مردة تعطل طريق الحج عبر سيناء ، قبل استرداد صلاح الدين للقدس والساحل ، وتوقيعه صلح الرملة ، مع ملوك أوربا ، وما تبقى من شرازم الصليبيين بساحل الشام(٣) ؛ لذلك كان حجاج الأندلس والمغرب ومصر ، يسلكون طريقًا طويلاً ، يبدأ بعد وصولهم إلى الإسكندرية بحرًا أو برًا ، من الإسكندرية إلى الفسطاط ، ثم إلى صعيد مصر بمحازاة النيل ، حيث يستريحون بمدينة قوص ، التى أصبحت مركزًا تجاريًا وثقافيًا هامًا في العصر الأيوبى ، لوفود الحجاج إليها من الأندلس والمغرب ، والتجار من اليمن والهند(٤) ؛ كما أصبحت مركزًا عسكريًا هامًا ، إذ أسند إلى واليها مهمة قيادة الأسطول المصرى فى البحر الأحمر(٥) .

فكان الحجاج يغادرون قوص ، قاطعين صحراء عيذاب ، حتى يصلوا إلى ثغر عيذاب ، حيث كانوا يعبرون من الشاطىء المصرى للبحر الأحمر ، حتى الشاطىء الحجازى ، ليرسوا فى ميناء جدة ، على مراكب صغيرة الحجم تعرف بالجلاب ، كان يشحنها أصحابها بالحجاج بعضهم فوق بعض لتحقيق أكبر ربح(٦) ؛ ولهذا نصح ابن جبير الحجاج ـ بعد أن عانى هو الأمرين فى عيذاب وسماها

---

(١) أنظر عباس عمار : شعب الشرقية (باللغة الفرنسية) ، القاهرة ، ١٩٤٨م وأنظر أيضًا نفس المؤلف ، عباس عمار : المدخل الشرقى لمصر (سيناء) القاهرة ١٩٤٦م ص ١٠٩ - ١١٥ .

(٢) هذا النص الجنائزى مؤرخ سنة ٦١٣هـ وهو باسم " أمير الحاج والحرمين " ، أبى الطاهر اسماعيل بن الشريف الأجل الأمير الكبير ، حصن الدين ثعلب بن يعقوب ابن مسلم أبى حميد الجعفرى الزينبى .. أنظر فان برشم : Conpus ج ١ ص ١٣٠ رقم ٣٧٨٨ . ولقد أفاد القلقشندى ، أن أمير الحج المصرى ، كان يكتب له تقليدًا من السلطان (بمعنى الخليفة أو وزير السيف المفوض عنه فى العصر الفاطمى ، أو السلطان الأيوبى) ، وذلك فى عصر الدولة الفاطمية وما تلاها ؛ أما فى عصره هو - عصر المماليك الجراكسة - فقد ترك هذا ورفض ، ولم يبق من يكتب له توقيع من ديوان الإنشاء سوى قاضى ركب الحاج ؛ وقد أورد القلقشندى نسخة هذا التوقيع ، أنظر صبح الأعشى ، ج ١٢ ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ، وأهم ما فيه التوصية بمراعاة تطبيق الشريعة فى حالة إحرام الحجاج وتوضيح ما ينقضها ، ومراقبة ثبوت الأهلة التى تترتب مناسك وأحكام الحج عليها ، والحكم فى محظورات الإحرام .

(٣) أنظر بعده .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص ٤٥ س ٩ .

(٥) أنظر بعده .

(٦) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٤٦ - ٤٨ .

بالعذاب ـ حجاج الأندلس والمغرب والإسكندرية ومصر ، بمصاحبة لواء الحج العراقي عند العودة ، والذهاب من العراق إلى ميناء عكا ، ثم أخذ سفينة بحرية ، إلى مصر أو المغرب أو الأندلس ، لتلافي العودة عن طريق ميناء عيذاب[1] .

على كل حال حج بالناس من مصر في سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م الشريف ابن ثعلب[2] ؛ ففي جمادى الأولى من هذه السنة نودي في القاهرة ومصر ، « بأن الشريف ابن ثعلب مقدم على الحاج ، فليتجهز أرباب النيات »[3] ؛ وفي رابع عشر شوال خرج الشريف ابن ثعلب سائرًا بالحاج ، وخيم على سقاية ريدان[4] ـ بمنطقة العباسية اليوم ـ وفي ثاني عشرين شوال رحل الحاج[5] ، متخذًا طريقه المعهود الذي يبدأ من مدينة السويس ، مخترقًا صحراء سيناء[6] .

وكان بعض ملوك البيت الأيوبي ، يتولون بأنفسهم نيابة عن سلطان مصر وظيفة إمارة لواء الحج المصري ؛ ففي سنة ٦٢٠هـ ، « حج الملك الجواد والملك الفائز من القاهرة ؛ وقدما علم الخليفة على علم السلطان الكامل في طلوع عرفة »[7] .

---

(١) نفس المصدر ص ٤٨ وعن كون عكا مركزًا تجاريًا في العصر الأيوبي ، أنظر ابن شداد : النوادر ص ٧٩ س ١٣ إذ يقول عنها " إنها كانت مظنة التجارة " .

(٢) المقريزي : السلوك ، ١: ١٣٩ .

(٣) نفس المصدر ، ١: ١٣٤ .

(٤) نفس المصدر ، ١: ١٣٧ وسقاية ريدان ، هي التي وقعت عندها معركة الريدانية بين طومان باى آخر سلاطين المماليك بمصر ، والسلطان سليم الأول العثماني التي قتل فيها طومانباى ، وأصبحت مصر بعدها ولاية عثمانية ، أنظر هامش للدكتور زيادة على السلوك للمقريزي ، ١: ١٣٧ .

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

(٦) أنظر مصطفى عمار : سيناء أو المدخل الشرقي لمصر ، ص ٢٠ ، ص ٥٨ – ٦٠ .

وأنظر الجزيري : درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة ، طبع السلفية بالقاهرة ١٣٨٤؛ وأنظر درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة . تأليف عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الجزيري الحنبلي . فرغ من تأليفه سنة ٩٦١هـ . ضمنها أخبار الحاج وإمرته والمنازل ، وكيفية الرحول والنزول والمناهل ، والإقامة والمناسك ، على مذهب الإمام ابن حنبل ، ورتب الحوادث فيه على السنين الهجرية . منه نسخة بقلم معتاد كتبت سنة ٩٦١هـ (بخط المؤلف) ، ٢٦٤ ورقة بالمكتبة الأزهرية ، برقم ٢٨٤٤تاريخ ، ومصورة بمعهد المخطوطات برقم ٦٥٦ تاريخ . وقد أفاد الأستاذ مصطفى عمار ، أن طريق الحجاج عبر سيناء الذى عرف بـ " درب الحاج " ، كان يبدأ من بركة الحاج أو بركة الحاج ، وهي قرية تقع في الشمال الشرقي للقاهرة ، ثم يمر بقلعة الحجرود في صحراء السويس، ثم يقطع هضبة التية، بمدينة " نخل " ثم يصل إلى العقبة ، ثم يأخذ طريقه صوب الجنوب الشرقي متجهًا إلى مكة .

(٧) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٢١٤ .

زعامة أمير لواء الحج العراقى المفوض من الخليفة العباسى لموسم الحج ، ولجميع ألوية الحج الخاصة بالأمصار الإسلامية وسلاطين وملوك الإسلام :

والجدير بالملاحظة ، أنه مع وجود لواء للحج الأيوبى من الشام ، سمعنا عنه منذ سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م[٢] ، حين كان صلاح الدين مستقرًا بالشام متخذًا من دمشق قاعدة لأعماله العسكرية ضد الصليبيين[٣] ، وآخر من اليمن سمعنا عنه منذ سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦[٤] ، وكان يرفع علم سلطان مصر[٥] ، وثالث من مصر سمعنا عنه منذ سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤[٦] ، ورابع من الجزيرة الفراتية ، سمعنا عنه فى سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م ، على عهد الملك الأشرف موسى بن العادل ، وكان يلحق بموكب الحج العراقى ، ولم تورد الحوليات من أخباره الأخبرا يتيمًا[٧] ، فإن لواء الحج العراقى، المرسل من قبل الخليفة ، كانت له الزعامة ، على جميع ألوية الحج الأخرى ، المرسلة من قبل الأيوبيين ؛ سواء من مصر أو الشام أو اليمن أو الجزيرة الفراتية .

فلم يكن من حق أحد من أمراء هذه الألوية ، رفع أى لواء ، غير لواء الخليفة ، على جبل عرفات[٨] ، حيث يجتمع جميع حجاج المسلمين من كافة أنحاء العالم . وذلك لأن وظيفة أمرة الحج ، عند أول ظهورها فى الإسلام ، كان النبى يعهد بها إلى بعض كبار صحابته للحج بالناس بدلاً منه[٩] ؛ ولما كانت الخلافة ـ سواء الفاطمية أو العباسية ـ هى وارثة السلطة الزمنية والروحية للنبوة ، لكون الإسلام دين ودولة[١٠] ؛ فقد كان الخلفاء ينوبون عنهم أحد أمراء السيف ، لحماية الحجيج ومرافقتهم ، أثناء أداء فريضة الحج ، وذلك لأن الحج بالناس هو من مهام النبى فى الأصل ، ثم أصبحت من مهام الخليفة من بعده .

---

(٢) أنظر سبط : مرآة ٨: ٣٥٥ وأنظر قبله .

(٣) أنظر بعده .

(٤) أنظر سبط : مرآة ٨: ٣٨٨ وأنظر قبله .

(٥) أنظر سبط : مرآة ٨: ٦٢٤ وأنظر قبله .

(٦) أنظر سبط : مرآة ٨: ٤٤٨ وأنظر قبله .

(٧) أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٦٤٤ حيث يذكر أن ثقل هذه الركب كان ستمائة جمل ، ومعه خمسون هجين وأنه دخل بغداد والتحق بركب الحاج العراقى .

(٨) أنظر ابن شداد : النوادر ص ٨٥ ، سبط : مرآة ، ٨: ٦٢٤ ، أبو المحاسن : النجوم ٦: ١٠٥، وأنظر بعده.

(٩) أنظر حسن الباشا : الوظائف الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ١: ٢٠٢ - ٢٠٤ .

(١٠) محمود اللبابيدى : نظام الإسلام السياسى ، وعلاقة الدين بالدولة فى هذا النظام ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الرابعة ، العدد الرابع ، محرم ١٣٧٢هـ / أكتوبر ١٩٥٢م ص ٣٧٦ - ٤٠٢ ، محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ص ٥١٩ - ٥٣٦ ، محمود ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٢٩٠ - ٣١٠ .

ولكن نتيجة لوجود دولة القرامطة في جنوب العراق والبحرين ، منذ مطلع القرن الرابع الهجرى[1] - وكانت في أول الأمر تابعة للدعوة الفاطمية ثم انشقت عنها[2] - وقطعها لطريق الحج بين العراق والحجاز ؛ بل أقدم القرامطة على عمل متطرف ، إذ هاجموا مكة وسرقوا الحجر الأسود ، بهدف إظهار مدى عجز الخلافة العباسية عن حماية الكعبة[3] ؛ وأن اضطروا إلى ردّه ، استجابة لأمر الخليفة الفاطمى الذى استهجن هذا الأمر[4] ؛ فإن أحدًا من خلفاء بنى العباس ، لم يحج بعد عصر هارون الرشيد[5] .

كذلك فإن خشية خلفاء الفواطم من التعرض للاغتيال من قبل القرامطة المنشقين عن دعوتهم ، أو من قبل الخلافة العباسية وأنصار دعوتها ، التى قاسمتهم منصب الخلافة فى العالم الإسلامى ، وناصبتهم العداء السياسى ، كان السبب فى رأينا ، لعدم أداء أى خليفة من خلفاء الفاطميين لفريضة الحج[6] ؛ الأمر الذى جعل من وظيفة إمارة الحج فى العصر العباسى الثانى ، وطوال العصر الفاطمى ،

---

(١) أنظر محمد عبد الفتاح عليان : قرامطة العراق والبحرين ، طبع هيئة الكتاب ، القاهرة ، وعن ظهور دعوة القرامطة ، أنظر ابن الأثير : الكامل ٧: ٤٤٩ ، حوادث سنة ٢٧٨هـ ، وعن ابتداء أمرهم بالبحرين ، أنظر نفس المصدر ج ٧ ، ٤٩٣ - ٤٩٥ حوادث سنة ٢٨٦هـ وأنظر أخبارهم بالشام والعراق ، نفس المصدر ، ٧: ٥١١ - ٥١٣ حوادث سنة ٢٨٩هـ .

(٢) أنظر عارف تامر : الإسماعيلية والقرامطة ، مقال بمجلة المشرق ، سنة ١٩٥٩ ج ٤ ، ٥ .

(٣) نسمع لأول مرة عن قطع القرامطة الطريق أمام قافلة الحج العراقية التابعة للخليفة العباسى سنة ٢٩٤هـ . أنظر ابن الأثير : الكامل ٧: ٥٤٨ - ٥٥٠ ، وكانت المحاولة الثانية سنة ٣١٢هـ ، عند مهاجمة القرامطة للكوفة . نفس المصدر ٨: ١٥٥ ، وفى سنة ٣١٧هـ ، سار القرامطة إلى مكة ، وأخذوا الحجر الأسود ، ابن الأثير ، نفس المصدر ٨: ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٤) ماجد : ظهور الخلافة ص ١١٢ - ١١٣ .

(٥) الجدير بالالتفات أن المؤرخ الشيعى اليعقوبى ، هو أول من لاحظ أن أحدًا من الخلفاء لم يحج بالناس بنفسه بعد وفاة الخليفة هارون الرشيد ، فقد عقد اليعقوبى فصلاً فى تاريخه ذكر فيه من أقام الحج فى عهد الرشيد ، وذكر أن آخر حجة حجها الرشيد بنفسه كانت سنة ١٨٨هـ ثم قال : وهى آخر حجة حجها ولم يحج بعده خليفة ، أنظر أحمد بن أبى يعقوب المعروف بأبى واضح الأخبارى ت ٢٩٢هـ : تاريخ اليعقوبى ، طبع النجف بالعراق سنة ١٣٥٨هـ ج ٣ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٦) وذلك للأهمية الكبرى لمنصب الخلافة ، بالنسبة للفكر السياسى الإسماعيلى ، أنظر قبله ، لكون الخلافة وراثية فى نسل على وفاطمة ، فقد لا يتوفر هذا الانتساب العلوى الفاطمى فى أحد حين وفاة الخليفة ، وعدم وجود أبناء له ، مما يُعرض أركان الدولة والخلافة الفاطمية كلها للتقود بمجرد موت الخليفة ، لاقتران طاعة العالم الإسلامى والرعية بمصر ، والدولة الفاطمية ، بطاعة الخليفة ، أنظر الشيال : مقدمة الذهب المسبوك ص ١٠ - ١٤ وهو يقول أنه لا يجد تفسيرًا لعدم حج أحد من الخلفاء الفاطميين ، وقد تجرأنا فأبدينا هذا الرأى الذى أثبتناه فى المتن ، والله أعلم بالصواب .

وظيفة فى غاية الأهمية ، وذلك لخوف كل من خلفاء بنى العباس وخلفاء الفاطميين ، للخروج بأنفسهم ، على رأس لواء الحج للحج بالناس .

وللأهمية الكبرى ، لوظيفة إمارة الحج العراقى ، كان الخليفة العباسي عادة ما يعهد بها ، إلى أحد كبراء أمراء المماليك من خواصه وترابيه[1] ، ويخلع عليه قبل رحيله بالحاج خلعه سنية[2] ؛ كما تعود الخلفاء أن يقطعوا من يتولى إمارة الحاج ، بعض المدن الواقعة على طريق الحج العراقى إلى الحجاز ، مثل الكوفة[3] أو الحلة[4] ؛ وتفيد تراجم هؤلاء المماليك ، أن أغلبهم قد عرف عنه الورع، والنزوع الصوفى ، وإيقاف الأموال عن سعة لإقامة العمائر الدينية والخيرية[5] ؛ كما كانوا متفقهين فى الشريعة الإسلامية ، حتى عمل بعضهم - تواضعًا منه وتقربًا إلى الله فى نهاية حياته - كاتبًا لأحد القضاه ، الذين اشتهروا بالتقى والورع والعدل فى الأحكام[6] .

---

(١) ينص سبط ابن الجوزى مثلاً أن الذى حج بالناس سنة ٥٨٩هـ ، قطب الدين سنجر " مملوك الخليفة " ، أنظر مرآة ، ٨: ٤٢٢ - ٤٢٣ ، وهو ينسب إلى أستاذه الخليفة كعادة المماليك فى أسمائهم فيسميه " سنجر الناصرى " أنظر مرآة ٨: ٤٤٨، كذلك فإن أسماء جميع أمراء الحج العراقى ، تؤكد أنهم كانوا من المماليك. وأغلبهم من مماليك الخليفة نفسه ، مثل يمن ابن عبد الله المستظهرى ، أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٦٣ ، ونظر الخادم بنفس المصدر ٨: ٩٨، وقيمار الأرجوانى ، نفس المصدر ٨: ١٩٦ ، وطاشتكين بن عبد الله النسترى، نفس المصدر ٨: ٥٢٧ . وأقباش الناصرى ، نفس المصدر ٨: ٦١٠ . وأنظر ترجمته نظر الخادم نفس المصدر ٨: ٢٠٥ ، وقيماز نفس المصدر ٨: ٢٣٤ ، وترجمته طاشتكين ، نفس المصدر ٨: ٥٢٧ ، وترجمة سنجر ، نفس المصدر ٨: ٥٦٨ - ٥٦٩ . وفى رأينا أن وظيفة إمارة الحج من أهم الوظائف التى أدت إلى ارتفاع مكانة المماليك ، مما أدى إلى وصولهم لوظيفة السلطنة ذاتها ، أنظر بعده ، والجدير بالملاحظة أن إمارة الحج كانت أحيانًا يتوارثها أبناء المماليك عن آبائهم أو ينوب فيها الإبن عن أبيه ، أنظر سبط : مرآة ٨: ٥٤٦ .

(٢) أنظر ابن الفوطى : الحوادث ص ٢٥ ، ص ١٦٦ . الذى يقول : " وشرف فى الموضع الذى جرت عادة أمير الحج أن يشرف فيه .

(٣) أنظر سبط : مرآة ٨: ٥٥٦ ، ابن الفوطى : الحوادث ص ٢٢٧ ، أبو المحاسن : النجوم ٦: ٢٠٣ .

(٤) سبط : مرآة ٨: ٥٢٧ وعن كون مدينتى الكوفة والحلة واقعتين على بداية طريق الحج العراقى ومن محطاته ، أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٨١ - ١٩٣ .

(٥) أنظر أعلاه هامش (٢) .

(٦) أنظر سبط : مرآة ٨: ٥٣١ .

وكان أمير الحج العراقي ، يلقب بأمير الحج والحرمين[1] ، وذلك لأنه كان يستصحب معه التقليد الخليفي لأمير مكة والمدينة أو لأولياء عهدهما في كل عام[2] ؛ لذلك فإن موكب خروجه للحج كان موكبًا عظيمًا ، « مثل موكب الملوك »[3] ، تصاحبه البوقات (النفير) والكوسات (الطبول) ، كي تضرب عند الرحيل ، أو عند مغادرة أي منزلة أو محطة على طول الطريق ، لتنبيه الحجاج ؛ وعلى رأسه الأعلام[4] ؛ ويتقدم الموكب « المهد »[5] وهو ما عرف بمصر بالمحمل ، وكان عبارة عن حجرة خشبية فارغة ، مكشوفة السطح ، قريبة الشبه بالهودج ، توضع فوق ظهر جمل ضخم أعد لهذه المهمة ؛ وكان « المهد » ، كما سمي في العراق ، أو المحمل كما سمي بمصر ، يعد في أول الأمر لركوب بعض الأميرات أو الملكات اللائي خرجن لأداء الفريضة ؛ أما فيما بعد ، فقد أصبح رمزًا لسلطة الخليفة أو السلطان المماليكي[6] .

وبطبيعة الحال ، كانت المهمة الأولى لأمير الحج ، هي حماية الحجاج في أنفسهم وأموالهم ، فكانت تصحبه حامية رمزية مسلحة عددها خمسمائة فارس[7] ؛ وكانت سلطته على الحجاج قريبة الشبه جدًا بالسلطات الممنوحة في يومنا هذا لقواد السفن المدنية ، بحيث كانت له السلطة القضائية أيضًا ، وربما رافقه قاض[8] ؛ بالإضافة إلى مراقبته التزام الحجاج بشعائر الإحرام ، وصحة أداءهم لمناسك الحج[9] .

ويخبرنا ابن جبير بمعلومة هامة تؤكد تزعم أمير الحج العراقي ، لموسم الحج كله ، وهي أن ثبوت رؤية الهلال ، لإعلان بداية موسم الحج ، كانت لا تعلن بمكة ، إلا عند وصول أمير الحج العراقي ،

---

(١) أنظر سبط : مرآة ٨: ٥٢٧ وإيراده لقب أمير الحج على هذا النحو " أمير الحج والحرمين " ، أو إمرة الحج والحرمين ، أنظر سبط : مرآة ٨: ٦١١ ، يؤكد ما تشكك فيه الدكتور حسن الباشا من اقتران اللقبين ، أنظر حسن الباشا : الوظائف الإسلامية ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) أنظر سبط : مرآة ٨: ٥٢٤ ، ٦١١ .

(٣) سبط : مرآة ٨: ٥٢٧ .

(٤) نفس المصدر ٨: ٦٣ ، ابن جبير : الرحلة ص ١٦٣ - ١٦٤ .

(٥) سبط : مرآة ٨: ٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٦) أنظر : Jomier: Le Mahmed .

(٧) سبط : مرآة ٨: ٥٦٨ - ٥٦٩ .

(٨) أنظر قبله عن الحديث عن لواء الحج الفاطمي ، وأغلب الظن هذا ينسحب أيضًا على لواء الحج العباسي .

(٩) أنظر قبله أيضًا عند الحديث عن لواء الحج الفاطمي .

وإعلانه بنفسه هذه البشارة العظيمة[١] ، التى على أساساها يبدأ المسلمون الوافدون الذين أتو عن بكرة أبيهم من جميع أرجاء العالم الإسلامى فى تأدية مناسك الحج . ويوم الوقوف بعرفة ، كان أمير الحج العراقى ، هو الوحيد من أمراء الحاج الوافدين من كافة أقطار دار الإسلام ، الذى يرفع علم الخليفة[٢] ؛ وكانت خيامه فوق عرفات تتصف بالعظمة والفخامة[٣] ، وحولها يضرب الحجاج المصاحبين له ، وغيرهم خيامهم ؛ وبعد رمى الجمرات ، كان يتولى بنفسه كسوة الكعبة بكسوتها الجديدة[٤] .

وعادة ما كان يصطحب أمير الحج العراقى معه فى قافلته ، حجاجًا من قبل سلاطين العجم (الخوارزمشاهات ومن الخراسانيين)[٥] ، وملوك الموصل الزنكيين ، وملوك بنى أيوب بالجزيرة الفراتية وأرمنية[٦] ؛ وكان أغلب الحجاج ، قبل اتصال طريق لواء الحج المصرى حتى المغاربة والأندلسيين ، يعودون برفقة أمير الحج العراقى ، ليتفرقوا من بلاد العراق والشام ، عائدين إلى بلادهم[٧] .

والجدير بالملاحظة أن أمراء الحج العراقى ، كانوا يتولون هذا المنصب ، لسنوات طويلة متوالية ، قد تتجاوز أحيانًا العشرين عامًا[٨] ؛ وليس أدل على أهمية هذا المنصب بالنسبة للخلافة العباسية

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٤٩ س ٥ – س ١٥ .
(٢) أنظر ابن شداد : النوادر ص ٨٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٦: ١٠٥ ، سبط : مرآة ٨: ٦٢٤ وأنظر بعده ، ويفيد ابن جبير أن أمير الحج العراقى ، كان يترأس المسلمين عند الوقوف بعرفة ، ويضرب ابنية فوق جبل الرحمة فى استقبال القبلة ، وكان حوله جملة من جنده الدارعين ، أنظر الرحلة ص ١٥٢ – ١٥٣ .
(٣) يقول ابن جبير : وكانت محلة هذا الأمير العراقى جميلة المنظر .. رائعة المضارب والأبنية ، عجيبة القباب والأروقة ، على هيئات لم ير أبدع منها منظر ، أنظر الرحلة ص ١٥٣ – ١٥٥ .
(٤) ابن جبير : الرحلة ص ١٥٧ – ١٥٨ وأنظر قبله .
(٥) ابن جبير : الرحلة ص ١٥٣ – ١٥٥ ، ص ١٥٨ – ١٦٠ ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .
(٦) كان هؤلاء الحجاج فى الغالب ، من النساء العقائل المعروفات بالخواتين ومن بنات الأمراء ، أنظر ابن جبير : الرحلة ص ١٥٣ – ١٥٥ ، وكانت فيهم ابنة الملك مسعود ملك الدروب والأرمن ، وأم صاحب الموصل سليل البيت الزنكى ، وابنة صاحب أصبهان من بلاد خراسان ، أنظر الرحلة ص ١٦١ – ١٦٢ .
(٧)ابن جبير : الرحلة ص ٤٨ وأنظر قبله .
(٨) حج نظر الخادم ، أمير الحج ، نيفا وعشرين حجة أميرًا . أنظر سبط : مرآة ٨: ٢٠٥ ، أما قيمار الأرجوانىفقد حج بالناس عشر سنين ، نفس المصدر ٨: ٢٣٤ . ونجد هذا الأمر أيضًا عن بعض أمراء الحج الشامى فى العصر الأيوبى ، إذ حج الشجاع على بن أقش ابن السلار ، أمير الحج ، بالناس نيفا وعشرين حجة ، وكان المعظم يحبه ويحترمه ويعتمد عليه ، سبط : مرآة ٨: ٧٠٢ .

من ذكر بعض من ترجم لخلفاء بني العباس لأميرى الحج اللذين حجا بالناس في عصره الطويل[1] ؛ وحين كانت أم الخليفة ، تخرج للحج مع قافلة الحجاج ، كان الخليفة يخرج بنفسه لوداع الموكب حتى الكوفة ثم يعود[2] ، وأحيانًا ما كان الخليفة يخرج لوداع أمير الحج ؛ إكرامًا لذات أميره وإظهارًا لإعزازه له[3] . وكانت وفاة أمير الحج ، أو عدم عودته مع قافلة الحجاج ، لأى سبب من الأسباب ، يعد أمرًا شديد الخطورة ، بحيث كان موكب الحاج يدخل إلى بغداد ليلاً ، وتلغى رسوم الاحتفال الخاصة باستقباله ، وكان الأمر يصل بالحجاج إلى حد البكاء ، في حين كان الخليفة يظهر الحزن الشديد[4] لهذا الخطب الجلل .

فلا ريب أن أصبح لأمير الحج العراقي ، مكانة سياسية ضخمة ، في العالم الإسلامي ؛ لذلك حين وشى بعضهم إلى الخليفة بأن أمير حجه يكاتب صلاح الدين الأيوبي سرًا ، سارع إلى عزله والقبض عليه ، ثم ما لبس أن أطلق سراحه ، بعد ان تأكد من براءة ساحته[5] ؛ كذلك حين وقعت وحشة بين الخليفة العباسي ، وأمير حجه المعروف بوجه السبع ، ترك قافلة الحجاج ، ولجأ إلى الملك العادل أبو بكر وأولاده بالشام ، كلاجيء سياسي ، فأكرموا وفادته ، وأنزلوه لديهم معززًا مكرمًا[6] ؛ وأيضًا حين اختلف أمير حاج آخر مع الخليفة العباسي ، لجأ إلى الملك الكامل بمصر ، فاحتفى به ، وجعله مقدمًا على أمراء دولته[7] .

وثمة إشارات أوردتها المصادر ، تفيد حدوث أزمات دبلوماسية ، بين الخلافة العباسية ، والسلطنة الأيوبية ، سببها العرف السائد ، وهو تفرد أمير الحج العراقي ، برفع لواء الخليفة العباسي يوم الوقوف بعرفة ؛ ففي سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، حين كان صلاح الدين في ذروة مجده الحربي ، أراد ابن المقدم ، أحد كبار أمراء الدولة الصلاحية ، رفع علم صلاح الدين ، يوم وقفة عرفات ، فمنعه

(١) ذكر سبط ابن الجوزى في ترجمة الخليفة المقتفى بالله ، أنه " حج في أيامه نظر الخادم " وقيماز الأرجواني ، أنظر مرآة ٨: ٢٣٥ .

(٢) ابن الفوطي : الحوادث ص ١٨٧ – ١٨٨ ، ص ١٩١ (٤) سنة ٥٥٠ خرج الخليفة المقتفى لوداع الحاج ، فبلغ الكوفة ، وخرق أسواقها وعاد إلى بغداد أنظر سبط : مرآة ٨: ٢٢٤ .

(٣) سبط : مرآة ، ص

(٤) نفس المصدر ؛ راجع ما تقدم .

(٥) نفس المصدر ؛ راجع ما تقدم .

(٦) نفس المصدر ؛ راجع ما تقدم .

(٧) نفس المصدر ؛ راجع ما تقدم .

طشتكين أمير الحج العراقي ، وقال : « لا يرفع هنا سوى علم الخليفة » ، فقال ابن المقدم « والسلطان مملوك الخليفة » ، ولكن مماليك طشتكين ، نكسوا علم صلاح الدين ، فأقتتل الطرفان وقتل ابن المقدم، فأرسل الخليفة يعتذر إلى السلطان ، على أساس أن أميره كان الباغي ، فلم يقبل صلاح الدين ، ولم يرد على سفارة الخليفة[1] .

كذلك كادت تحدث أزمة دبلوماسية أخرى بين السلطنة الأيوبية والخلافة العباسية في عهد السلطان الكامل ، بسبب هوج ابنه الأقسيس صاحب اليمن ، الذى حج سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م ، فلما كان يوم عرفة منع أعلام الخليفة التقدم على أعلام أبيه[2] ؛ ولقد وصف سبط ابن الجوزى هذا العمل بأنها جرأة كبيرة أظهرها الأقسيس ، وعلل هذا المسلك بأنه كان مختل العقل[3] .

ومع تسليم سلاطين بنى أيوب ، بهيمنة الخليفة على موسم الحج ، وحرصهم على تأكيد هذه الفكرة ، تذكر بعض المصادر ، خبرًا في غاية الخطورة والأهمية - إذا صح - ، وهو أن كسوة الكعبة ، كانت ترسل في العصر الأيوبى من مصر ، وأن أول من أرسلها من ملوك بنى أيوب صلاح الدين نفسه ، وكانت إذا أكملت حزمت وأرسل بها إلى مكة ، من غير أن يراها أحد ، حتى أحدث بيبرس الطواف بها في القاهرة[4] ؛ كذلك أسند صلاح الدين ، مهمة تفويز الحجاج إلى الحجاز ، إلا أدلاء

---

(١) أنظر ابن شداد : النوادر ص ٨٥ ، أبو المحاسن : النجوم ٦: ١٠٥ ، العماد : الفتح القسى ص ١٨٨ - ١٨٩ ، وأنظر عن تفاصيل وافية عند ابن واصل : مفرج ج ٢ ، ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٢) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٧٧ .

(٣) سبط : مرآة ٨: ٦٢٤ ، وأنظر ابن واصل : مفرج ج ٤: ١٢٤ - ١٢٥ .

(٤) أورد هذه المعلومة الفريدة ، العلامة أحمد تيمور باشا ، في كتابه التذكرة التيمورية ص ٣٤٣ ، مادة الكعبة (كسوتها) . نقلاً عن كتاب ذخيرة الأعلام ، وهى منظومة فى التاريخ القمرى . وقد ذكرت المصادر أن الخليفة الناصر لدين الله العباسى ، هو أول من كسا الكعبة السواد . وأنظر الكتاب الجامع اللطيف لابن ظهيره ، رقم ١٤٢٩، تاريخ تيمور ، ص ١٠٤ - ١٠٩ ، أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ٣٤٢ ، وأنظر أبو شامة : الروضتين ، طبع بولاق ٢: ١٦٠ . ولقد رأى ابن جبير هذه الكسوة ووصفها أنظر الرحلة ٦٠ - ٦١ ، ٩٦ - ٧٠ ؛ وأنظر قبله فربما كانت الكسوة تصنع في مصر في دار الكسوة الفاطمية القديمة ، القاهرة أو تنيس - قبل خرابها - أو شطا . عنها أنظر المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ج ١ ص ١٨١ و ٢٢٦ ، والتذكرة التيمورية ص ٣٤٦ ، ولكن بشعار السواد العباسى وباسم الخليفة العباسى وترسل من مصر سرًا ؛ أو لعل الكسوة ، كانت في العصر الأيوبى تصنع بالقلعة مقر سلاطين بنى أيوب ، إذ ذكر الرحالة النابلسى ، (القرن ٧هـ) أن حياكة كسوة الكعبة كانت تتم بالقلعة . أنظر رحلة النابلسى المسماة : الحقيقة والمجاز بين مكة والحجاز مخطوط ٧٣٢ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية ورقة ٣٦٠ وأنظر أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ٣٤٣ .

من قبيلة عرب الشواكر ؛ وقد ظل هذا الأمر كما رتبه صلاح الدين طوال العصر الأيوبى ، وحتى العصر المماليكى أيضًا[1] .

كذلك أظهر سلاطين الأيوبيين ، اهتمامًا كبيرًا ، بترتيب القومة والخدام للحرمين ، ووقف الأوقاف لهذا الغرض . فتذكر بعض المصادر أن صلاح الدين ، كان أول من رتب الخصيان لخدمة الحرم النبوى ، وهو أمر استمر طوال العصر الأيوبى ، حتى العصر المماليكى[2] .

ومما يؤكد اهتمام سلاطين بنى أيوب بموسم الحج ، ما ذكره مؤرخو سيرة صلاح الدين ، من استحداثه رسومًا خاصة باستقبال موكب الحج الشامى ، وذلك خلال إقامته بدمشق ، فكان صلاح الدين يركب ركوبًا عسكريًا ، مرتديًا الزى العسكرى الكامل ، ويخرج فى احتفال عام ، يقطع به شوارع دمشق ، سالكًا طرقًا محددة[3] ، وهو أمر قريب الشبه بطواف المحمل بمصر منذ عهد بيبرس إلى ما بعد قيام ثورة ١٩٥٢ ، سالكًا أيضًا طرقًا محددة ، ليتسنى للنظارة متابعة الاحتفالات ؛ كذلك

---

(١) أنظر القلقشندى : نهاية الأرب ٨٩٦ تاريخ تيمورية بدار الكتب المصرية ص ١٤٨ ، أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ١٣٣ مادة " الحج " .

(٢) أنظر ابن أياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٧٢ ، رقم ٩١ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية ، أحمد تيمور التذكرة التيمورية ص ١٤٤ .

(٣) أنظر ابن شداد : النوادر ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، وأنظر أيضًا هذه الرسوم عند ابن واصل : مفرج ج ٢ ص ٤١٤ - ٤١٦ وفيه : ولما لقى السلطان الحج ، استعبرت عيناه ، كيف فاته الحج وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وحال الخصب بها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها ، والفقراء المجاورين له ، ورواتبهم وإداراتهم ، وسر بسلامة الحج ؛ وهذا النص يفيد أن صدقة القمح التى كانت ترتب للحجاج من مصر منذ العصر العباسى الأول وحتى العصر العثمانى ، أنظر بعده ، قد ظلت مستمرة فى عصر صلاح الدين ، وخلفائه سلاطين بنى أيوب . ولعل مما يؤكد الأهمية التى أظهرها الملوك والسلاطين فى ذلك الوقت نحو رعايتهم طريق الحج ، ما ذكر المنشىء النسوى ، مؤرخ سيرة جلال الدين منكبرتى ، آخر سلاطين الدولة الخوارزمة ، أن سبب الوحشة بينه وبين الخليفة العباسى ، التى جعلته يفكر تفكيرًا جديًا فى تحقيق حلم أبيه فى قصد بغداد والتحكم فى الخليفة ، وإقامة سلطنة بغداد فى أسرته على مشاكله السلطنة السلوجوقية ، أن الخليفة العباسى ، قدم سبيل صاحب بلاد الموت أمام الإسماعيلية ، على سبيل سلطان خوارزم ، الذى رتبه فى طريق مكة لسقاية الحجيج. أنظر النسوى : سيرة جلال الدين منكبرنى ، ص ٥١ . ويذكر ابن واصل ، أن مظفر الدين كوكبرى ، الذى كان يعد نفسه سلطانًا مستقلاً عن بنى أيوب ، تابعًا تبعيه مباشرة للخليفة العباسى ، بعد نزاعه مع أولاد الملك العادل الأيوبى الأكبر ، أنظر قبله ، أعتنى بتأمين فريضة الحج ، فيقول ابن واصل : وكان يقيم فى كل سنة سبيلاً للحاج ، ويسير مع السبيل جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه فى الطريق ، ويسير صحبته أمينًا معه خمسة أو ستة آلاف دينار ، لينفق بالحرمين على المحاويج وأصحاب الرواتب؛ وله بمكة حرسها الله تعال ، آثار جميلة وبعضها باق إلى الآن ، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف وغرم عليه جملة كثيرة ، وعمر بالجبل مصانع للماء وبنى تربة هناك . (ابن واصل : مفرج ج ٥ ص ٥٦ - ٥٧) .

نلاحظ عناية سلاطين بنى أيوب ، بعد وفاة صلاح الدين ، وحتى عصر شجرة الدر القصير ، بشق طرق جديدة عبر صحراء سيناء ، وتعبيدها ، لتسهيل سبل قوافل الحج والتجارة[1] .

وإذا كان المؤرخون قد لاحظوا ، أن أحدًا من سلاطين مصر الأيوبية ، لم يحج بنفسه ، لانشغالهم الدائم بجهاد الصليبيين[2] ؛ فقد حج من أيوبى اليمن الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه ، أخو صلاح الدين ، وفاتح اليمن ، وأول ملوكها[3] ؛ ثم الملك المسعود المعروف باقسيس ، ابن الملك الكامل سلطان مصر[4] ، وحج من أيوبى الشام ، الملك المعظم عيسى ، ابن العادل أبى بكر ، صاحب دمشق ؛ والملك الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب الكرك[5] .

انقطاع طريق لواء الحج العراقى بسبب تحرك المغول من آسيا الوسطى صوب العراق :

وليس أدل على اقتران حماية ورعاية فريضة الحج فى تاريخ الإسلام ، باستقرار أحوال الخلافة الإسلامية أو ما يساندها ، وأعنى وظيفة السلطنة العامة ؛ من تعطيل موسم الحج ، نتيجة لانقطاع طريق لواء الحج العراقى ، سنوات متتالية ، منذ سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦[6] ، بسبب تحرك المغول ،

---

(١) أنظر عباس مصطفى عمار : المدخل الشرقى لمصر ، أهمية شبه جزيرة سيناء كطريق للمواصلات ومعبر للموجات البشرية ، القاهرة ١٩٤٦ ص ١٠٩ - ١١٥ ، وقال ابن واصل فى ترجمته للسلطان الملك الكامل: وبلغ من هيبته ، أن الرمل الذى بين العريش وديار مصر ، كان يمر به الإنسان وحده ومعه الذهب الكثير ، أو الجماعة اليسيرة ومعهم الأحمال من القماش ، فلا يخافون سارقًا ولا قاطع طريق .. ، (ابن واصل : مفرج ج ٥ ص ١٥٧) .

(٢) الشيال : مقدمة الذهب المسبوك للمقريزى ص ١٥ ، ولقد ذكر مؤرخو صلاح الدين ، أنه كان قد عزم على الحج ، بعد توقيعه الهدنة مع الفرنج ، ولكنه تخوف من نقض الفرنج للهدنة ، لو عرفوا بأنه قد ترك الشام إلى الأراضى الحجازية ، أنظر ابن شداد ؛ النوادر ص ٢٣٧ س ٧ ، ص ٢٣٩ س ٨ ، وأنظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٨ ، الذى يذكر أنه كان قد كاتب أخاه العادل بمصر ، وأخاه صاحب اليمن ، يخبرهما بغرضه على الحج . وقد علق ابن شداد على عدم استطاعة صلاح الدين الحج بقوله ص ٢٣٩ س ٨ : وانقطع شوقه إلى الحج ، وكان من أكبر المصالح التى فاتته ، ولقد تعرض ابن شداد فى الفصل الأول من كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وهو فى سيرة صلاح الدين ، إلى حرصه على أداء جميع أركان وفرائض الإسلام من صلاة وصيام وزكاة ، وحين تعرض لفريضة الحج قال ابن شداد : أما الحج فإنه لم يزل عازمًا عليه ، وناويًا له ، بينما فى العام الذى توفى فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملت الروادة ، ولم يبق إلا المسير ، باعتناق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفراغ اليد عما يليق بأمثاله ، فأخره إلى العام المستقبل ، فقضى الله ما قضى ، وهذا شيء اشترك فى العلم به الخاص والعام . راجع النوادر السلطانية ، ص ١٧ - ٣٤ .

(٣) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٧٠ - ٧٣ .

(٤) نفس المصدر ص ٧٦ - ٧٩ .

(٥) نفس المصدر ص ٧٣ - ٧٦ .

(٦) نفس المصدر ص ٨١ - ٨٤ .

وانشغال الخليفة فى بغداد ، وملوك بنى أيوب بالشام والجزيرة الفراتية ومصر ، بجمع العساكر لمواجهته ، مما جرأ البدو فى بادية الشام والحجاز على نهب ركب الحجاج[1] ؛ فلا غرو أن اقترنت صحوة الموت ، التى بعثها الخليفة المستعصم بالله العباسى ، آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، فى دماء الخلافة العباسية ؛ بالاهتمام بأمور الحج سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢م ، من تأمين طرقه ، وتوكيل إمارته لأمير كفء شجاع ، جدير بتحمل تبعاته ، وتكليفه بإخضاع أمير مكة ، ثم عمارة الأسبلة التى أنشأها من قبل خلفاء بنى العباس فى طريق الحج ، لسقاية الحجيج ، وتعيين السبلدارية المخصصين لحفظها ورعايتها ، إلى جانب إصلاح الآبار بطريق الحج[2] .

إلا أن غارات التتار ، ما لبث أن اشتدت ، وأصبحت تهدد عاصمة الخلافة نفسها ، بل استطاعت أن توجه للأمة الإسلامية كلها ، طعنة كادت تكون قاتلة - لولا لطف الله بالإسلام والمسلمين ، ونهوض المماليك لإحياء الخلافة وحماية الإسلام[3] - وذلك بإسقاط الخلافة العباسية وقتل الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ ، فصار الناس بغير خليفة إلى سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م إذ أقيم فى تلك السنة خليفة عباسى بمصر[4] ، الأمر الذى أدى إلى تعطيل أداء فريضة الحج من العراق تمامًا من سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م إلى سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م[5] . ولكن حج ملك اليمن الرسولى - والملوك الرسولين هم مماليك بنى أيوب باليمن كما تقدم القول - الملك المظفر شمس الدين بن رسول سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م ، وغسل الكعبة بنفسه ، وطيبها وكساها من داخلها وخارجها ، فكان أول من كسى الكعبة من الملوك ، بعد قتل الخليفة المستعصم ببغداد ؛ وعلى هذا النحو ، قام الملك المظفر بمصالح الحرم وأهله ، وخُطب له بمكة ، واستمر يخطب له بعده لملوك اليمن الرسوليين على منبر مكة ؛ إلى عصر المقريزى (القرن الـ ٩ هـ) ، بعد الخطبة لسلطان مصر[6] .

---

(١) نسمع عن تهديد الأعراب لقافلة الحج العراقى منذ سنة ٦٢٦هـ ، فكانوا يقطعون طريق الحاج ، ويطلبون رسوم الخفارة ، مما ألزم الخلافة دفع هذه الرسوم من الديوان (أنظر ابن الفوطى : الحوادث ص ٦ - ٧) ونسمع سنة ٦٣١هـ أنهم كانوا يطمون الآبار ، مما أضطر الحجاج للرجوع ، حتى تحقق فوات الحج (نفس المصدر ٦٠ - ٦٦) ، وفى السنة التالية سنة ٦٣٢هـ منعوا الحج أيضًا (نفسه ص ٩٠) ؛ ولكن الهجمات المغولية التى وصلت أطراف بلاد العراق سنة ٦٣٨، هى التى أدت إلى تعطل ركب الحج العراقى (ص ١٤٦) وما لبس أن انقطع تمامًا سنة ٦٤٣ (ص ٢٠٨) وسنة ٦٤٤ (ص ٢١٥) وسنة ٦٤٧ (ص ٢٤٥) ؛ ولم يستطع لواء الحج العراقى الحج مرة أخرى إلا سنة ٦٥٣هـ (ص ٣١١ - ٣١٢) .

(٢) يفيد ابن الفوطى أن الخليفة المستعصم ، عاد إلى الاهتمام بأمور الحج سنة ٦٤٠هـ ، وكان منقطعًا من سنة ٦٣٤هـ ، عن مظاهر هذا الاهتمام ، أنظر بالتفصيل ابن الفوطى : الحوادث ص ١٦٣ - ١٦٤ ، ص ١٦٦، ص ١٧٣ - ١٧٥ .

(٣) أنظر قبله وبعده .

(٤) المقريزى : السلوك ١: ٢٢ .

(٥) ابن الفوطى : الحوادث ص ٣٥٨ ، المقريزى : الذهب المسبوك ص ٨٤ س ٧ - ٨ .

(٦) المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ٨٤ .

مداومة سلاطين بنى أيوب ، وسلاطين المماليك من بعدهم ، على إرسال كسوة الكعبة من مصر؛ وكان السلطان المماليكى الظاهر بيبرس ، بعد نقله لمقر الخلافة العباسية إلى القاهرة ، هو أول من أدار محمل الكسوة الشريفة بمصر ؛ وصيرورة سلاطين الأيوبيين ، ومن بعدهم سلاطين المماليك وسلاطين العثمانيين ، حماة الحرمين الشريفين والقبلتين :

ويرى الشيال ، أنه كان هناك نزاع خفى دائم ، بين ملوك اليمن الرسولين ، وبين ملوك الأيوبيين أولاً ، وسلاطين المماليك ثانيًا فى مصر ، حول السيطرة على الأراضى المقدسة بالحجاز ، ومظهر ذلك رغبتهم فى أن يخطب لهم على منابر مكة ، وسعيهم أن يكسوا هم الكعبة[1] ، خاصة وقد استن السلطان المملوكى الظاهر بيبرس سياسة محنكة ، تجاه السيطرة على موسم الحج ، فتعمد إدارة محمل الكسوة الشريفة بمصر ، قبل إرساله إلى مكة فكان أول من استحدث هذا الرسم من سلاطين المماليك[2] ، الأمر الذى تعمد إخفاءه ـ فيما يبدو ـ ملوك بنى أيوب ، منذ عصر صلاح الدين ؛ رغم أن الكسوة كانت تصنع بمصر[3] ، وذلك إجلالاً للخليفة ، ولاستكمال مظاهر سيادته على موسم الحج .

فحج السلطان بيبرس بنفسه سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٨م ، ورتب أموالاً سنوية لأمير مكة ، عوضًا عما يؤخذ بمكة من المكوس عن الحجاج ؛ كما اشترط على أميرى مكة والمدينة ، أن يخطب له بمكة والمشاعر ، وتضرب السكة باسمه ؛ وكتب التقليد ، لأميرى مكة والمدينة من قبله ، وسلم أوقاف الحرم بمصر والشام لنوابهما ، وأنعم على الطواشية خدام الحجرة الشريفة[4] ، الذين كان صلاح الدين أول من رتبهم[5] .

وهنا نلاحظ أن سياسة بيبرس لرعاية الحرمين الشريفين ، مستمدة من سياسة نور الدين زنكى ، ثم صلاح الدين الأيوبى[6] ، فبعد أداء بيبرس لفريضة الحج ، غسل الكعبة بيده بماء الورد ، وعلق كسوتها بنفسه ومعه خواص رجاله[7] ؛ ومن هذه السنة ، أصبح محمل الحج المصرى ، رمزًا لسلطة

---

(١) الشيال : مقدمة كتاب الذهب المسبوك للمقريزى ص ٢١ . وأنظر عن علاقات بنى رسول بالخلافة العباسية ابن الفوطى : الحوادث ص ١٢٢ وأنظر عن محاولة بنى رسول الاستيلاء على مكة ، بعد موت الملك الأقسيس بن الملك الكامل ، صاحب اليمن الأيوبى ، ونجاحهم فى طرد نواب الملك الكامل من مكة ، أنظر ابن الفوطى: الحوادث الجامعة ص ١٢٣ - ١٢٤ ، وأنظر تفاصيل اشتباك مسلح كاد يقع بين عساكر الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر ، وعساكر الملك المنصور نور الدين بن رسول ملك اليمن سنة ٦٤٠ هـ ، داخل مكة إبان موسم الحج (أنظر المقريزى : السلو ج ١ ص ٣١٢) ولعل هذا الخبر ما يفسر الحملة البحرية التى أرسلها الصالح نجم الدين أيوب إلى اليمن سنة ٦٣٨هـ (المقريزى ، ١ : ٣٠٦) .

(٢) الشيال : نفس المصدر ص ١١ .

(٣) أنظر قبله .

(٤) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٨٧ - ٨٩ .

(٥) أنظر قبله .

(٦) أنظر قبله .

(٧) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٩١ .

سلطان مصر ، وحمايته للحرمين الشريفين ، وبسط نفوذه الروحي والزمني ، على كافة أنحاء العالم الإسلامي ، في كل مدينة ينزل بها المحمل ، على طول الطريق من القاهرة إلى مكة[١] .

فلا غرو أن اتخذ بيبرس ، بعد نقله للخلافة العباسية إلى مصر ، ألقابًا لم يتخذها من قبله ، سلاطين البويهيين أو السلاجقة أو حتى أساتذته بنو أيوب : فتلقب بـ « سلطان الإسلام والمسلمين » ، وهو لقب جديد ظهر بعد أن هوت الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وأصبح السلطان المملوكي بمصر ، هو الزعيم الحقيقي للعالم الإسلامي ، كما تلقب بـ « صاحب القبلتين » ، أي الكعبة والمسجد الأقصى ، و « خادم الحرمين الشريفين » أي الحرمين المكي والمدني ، وهو لقب اتخذه من قبل صلاح الدين[٢] ، « والآمر ببيعة الخليفتين » ، أي الخليفة المستنصر العباسي ، ثم الحاكم بأمر الله العباسي ، وكلاهما بويع بمصر على التوالي ؛ وأخيرًا توج الظاهر بيبرس هذه الألقاب ، بلقب « قسيم أمير المؤمنين »[٣] .

وظل لقب « حامي حمى الحرمين الشريفين » أهم الألقاب التي يتفاخر بها سلاطين المماليك ، ويتطاولون به على كافة سلاطين الإسلام المعاصرين لهم ، بحيث جعلهم هذا اللقب ، بالإضافة إلى تربعهم على عرش مصر ، أعظم ملوك الإسلام بملاحظة مؤرخهم ابن إياس[٤] ؛ وكان ميراث العثمانين لهذا اللقب ، عن سلاطين المماليك المصريين ، إلى جانب أصطحاب الخليفة العباسي المصرى إلى استانبول ، من أهم الأسباب التي شجعت سلاطين بني عثمان ، على إعلان قيام خلافتهم[٥] .

وقد حرص السلطان سليم العثماني ، فاتح مصر ، على أن يحي تقليد إرسال صدقة القمح إلى الحرمين من مصر[٦] ، إشعارًا وتأكيدًا بأنه أصبح حامي حمى الحرمين الشريفين ؛ وكانت صدقة

---

(١) أنظر : Jomier: Le Mahmed وهو فصل بعنوان " المحمل وسياسة بيبرس " ،
(٢) أنظر قبله .
(٣) أنظر دراسة وافية لهذه الألقاب وغيرها من ألقاب السلطان الظاهر بيبرس في مقال محمد عبد العزيز مرزوق : جامع الظاهر بيبرس البندقداري : المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث ، العدد الأول ، مايو سنة ١٩٥٠ ، ص ٩١ - ١٠٢ .
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ٥: ٢٠٦ .
(٥) أنظر قبله .
(٦) أنظر كتاب السناء الباهر رقم ٢٠٣٣ تاريخ تيمور بدار الكتب ص ٢٢٤ ، وكتاب الإعلام لقطب الدين رقم ١٢٣٩ تاريخ تيمور بدار الكتب ص ٣٣٢ ، وكتاب نزهة الجليس رقم ٩٤ أدب - تيمور بدار الكتب المصرية ج ١ ص ١٧٦ ، وأنظر أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ١٣١ - ١٣٢ ، مادة " الحجاز " .

الحرمين من القمح ، ترسل من مصر أيضًا منذ العصر العباسي الأول ، وكان أول من قررها البرامكة[1] ، وهم من وزراء بني العباس ، واستمرت في عصر صلاح الدين وخلفائه من سلاطين بني أيوب[2] .

ويستلفتنا هنا ، أن الخطبة للخليفة العباسي السني ، على منابر الحرمين ، قد استمرت منذ عصر نور الدين زنكي[3] ، وطوال العصر الأيوبي منذ عصر صلاح الدين[4] ، كما استمر يخطب لخلفاء بني العباس السنيين ، حتى بعد انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة في العصر المماليكي[5] ، وإن تخللت هذه الفترة ، التي استمرت قرابة ثلاثة قرون ، شهور وجيزة ، أذّن فيها أمراء مكة بالآذان الشيعي « حي على خير العمل »[6] كنوع من المشاغبة السياسية لخلفاء بني العباس ببغداد وسلاطين بني أيوب بمصر ، تذكرة بالسيادة الفاطمية على الحرمين ، إذ كان أمراء مكة على المذهب الشيعي الزيدي[7] ، أو مجاملة لائمة اليمن الزيدية كما حدث سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م[8] . وقد كان للائمة الزيدية دولة مستقلة بصعده بشمال اليمن ، منذ القرن الرابع الهجري ، ولم يستطع الأيوبيون في اليمن القضاء عليها[9] .

---

(١) أنظر الجهشياري : رقم ٢٢٤٤ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية ص ٢١١ - ٢١٢ ، وأنظر أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ص ١٣١ .

(٢) أنظر قبله ، وأغلب الظن أن العثمانيين ، ورثوا إرسال صدقة القمح من مصر إلى مكة عن المماليك .

(٣) المقريزي : الذهب المسبوك ص ٦٩ .

(٤) أنظر ابن جبير : الرحلة ص ٧٣ ، المقريزي : الذهب المسبوك ص ٧٠ - ٧٩ ، ٨١ - ٨٣ .

(٥) أنظر المقريزي : الذهب المسبوك ص ٦١ - ٦٢ ، ٨٥ - ٩٥ ، ٩٥ - ١٠٩ .

(٦) سبط : مرآة ٨: ٣٨٨ .

(٧) يقول ابن جبير : وللحرم أربعة أئمة سنية ، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية ، وأشراف أهل هذه البلدة على مذهبهم ، وهم يزيدون في الأذان : حي على خير العمل ، أثر قول المؤذن حي على الفلاح ، وهم روافض سبابون ، والله من وراء حسابهم وجزائهم ، ولا يجمعون مع الناس (أى أنهم لا يصلون صلاة يوم الجمعة) إنما يصلون ظهرًا أربعًا ، ويصلون المغرب ، بعد فراغ الأئمة من صلاتها (أنظر الرحلة ص ٧٨ س ١٥ - ١٩) .

(٨) أنظر ابن الفوطي : الحوادث ص ٢٥٣ ، وليس صدفة ولا ريب ، أن أمراء مكة الزيدية ، لم يجرؤا على إظهار ميلهم لأئمة اليمن الزيدية ، وترتيب أمام بالحرم يؤذنه بالشعار الشيعي " حي على خير العمل " إلا في سنة ٦٤٨هـ ، وهي التي أصبح فيها زوال ملك بني أيوب من مصر ، أمرًا أكيد الوقوع .

(٩) أنظر محمد عبد الله ماضي ، دولة ائمة اليمن الزيدية ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، المجلد٣، ج ١، ١٩٥٠م ، ص ١٥ - ٣٥ ، وأنظر أيمن فؤاد : المذاهب الدينية باليمن في القرن الرابع الهجري ، رسالة ماجستير جامعة القاهرة ١٩٨٠ تحت إشراف الدكتور حسن محمود .

ويبدو أن الأيوبيين قد اكتفوا إقرارًا للأمور ، نتيجة للبعد التاريخي المرتبط بحكم الأئمة الزيدية باليمن ، وشدة حماسة اليمنيين للمذهب الزيدى ، بأن يخطب أئمة الزيدية باليمن للخليفة العباسى السنى ، ويعترفون بخلافته[1] .

أما الخليفة العثمانى السنى ، فقد ظل يخطب له بالحرمين ، اربعة قرون ، حتى سقوط الخلافة العثمانية فى مطلع القرن العشرين[2] ، بمعنى أن الخلافة السنية ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، قد دعى لها على الحرمين طوال سبعة قرون ، بدأت بالعصر الأيوبى ، وانتهت بالعصر العثمانى ، وهو مظهر من أهم مظاهر غلبة الدعوة السنية على العالم الإسلامى ، منذ ظهور حركة الأحياء السلجوقى[3] .

حاز السلطان الأيوبى إذًا منذ عصر صلاح الدين ، شرف حماية فريضة الحج والإشراف على الحرمين الشريفين ، وتعضيد النفوذ السياسى لأمير لواء الحج العراقى على بلاد الحجاز ؛ كما أصبحت السلطنة الأيوبية هى حامية الدعوة العباسية ، والعاملة على نشر دعوتها فى جميع ديار الإسلام ، سواء فى ممتلكات الخلافة الفاطمية أو الخلافة الموحدية ، وفوق ذلك فى البلاد الإسلامية بالشام التى يتم استردادها من الصليبيين ، وأخيرًا على منبر المسجد الجامع بمدينة القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى . ولا ريب أن تفرد سلاطين بنى أيوب ، بالنهوض بأعباء الدعوة العباسية ، وحماية الخليفة العباسى ، وإلزام ملوك الأطراف إظهار الطاعة والتبعية له ، قد أمد السلطنة الأيوبية بسند شرعى ، جعلها تتصدر الزعامة السياسية للعالم الإسلامى .

والجدير بالملاحظة أن أول السلاطين السنيين الذين اضطلعوا بحماية فريضة الحج ، قبل نور الدين زنكى وتلامذته سلاطين بنى أيوب ، كان السلطان محمود الغزنوى أول السلاطين السنيين وأقدمهم ظهورًا فى تاريخ المشرق الإسلامى[4] ؛ ثم ورثة تلامذته السلاجقة ، فالسلطان ملكشاه السلجوقى ، كان أول من استن وسائل حماية هذه الفريضة لمن بعده من السلاطين ، فبنى أجواض الماء

---

(١) أنظر ابن الفوطى : الحوادث ص ٢٥٨ .
(٢) أنظر سيد رجب حراز : الدولة العثمانية والجزيرة العربية ص .
(٣) أنظر قبله وبعده .
(٤) قال ابن الجوزى فى حوادث سنة ٤١٢هـ : فمن الحوادث فيها ، أنه كان حاج العراق تأخر عن الحج سنة ٤١٠ و ٤١١هـ ، فلما جاءت سنة ٤١٢هـ ، قصد جماعة من الناس يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين ، وقالوا له : أنت سلطان الإسلام ، وأعظم ملوك الأرض ، وفى كل سنة تفتح من بلاد الكفرة قطعة ، والثواب فى فتح طريق مكة أعظم ، والتشاغل به أوجب ، وقد كان بدر الدين بن حسنوية ، وما فى أصحابك إلاّ مَنْ هو أكبر شأنًا منه ، يسير الحاج بماله وتدبيره عشرين سنة ، فأنظر لله تعالى ، واجعل لهذا الأمر حظًا من اهتمامك ، فتقدم إلى أبى محمد الناصحى ، قاضى القضاه فى مملكته بالتأهب للحج ، ونادى فى سائر أعمال خراسان بالتأهب للمسيرة ، وأطلق للعرب فى البادية ، ثلاثين ألف دينار ، وسلمها إلى الناصحى ، سوى ما أطلقه من الصدقات ، (ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٨ ص ٢) .

على طريق الحجاز ، ورفع المكوس ورسوم الخفارة عن طريق الحاج ، وأقطع أمراء الحرمين نظير ذلك الإقطاعات والأموال ، وكانوا يأخذون قبل ذلك من كل حاج سبعة دنانير ذهبية ، وأنعم كذلك على عرب البادية وعلى مجاورى الكعبة بالإنعامات الطائلة[1] .

ويبدو أن حماية فريضة الحج ، كان عهدًا قطعه السلاجقة على أنفسهم ، حين أعلنوا قيام سلطنتهم سنة ٤١٣هـ / ١٠٤١م ، وطاعتهم وتبعيتهم للخلافة العباسية ، بحيث وعدوا الخليفة بمداومتهم على زيارة الكعبة ؛ وإن كانت ظروف دولتهم قد حالت أغلب الظن دون قدومهم بأنفسهم إلى الحجاز[2] ، لأن المقريزى فى كتابه الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك لم يترجم لأحد من سلاطين بنى سلجوق .

وقد أكد تقليد الخليفة العباسي المستنصر بالله ، الذى فوض بمقتضاه السلطنة للملك الكامل الأيوبى سلطان مصر ، أن حماية فريضة الحج ، أصبحت من أهم الواجبات الدينية ، التى عهدت بها الخلافة العباسية ، لسلاطين بنى أيوب [3] ؛ فلا غرابة أن أصبحت حماية فريضة الحج فى العصر

(١) أنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٠٥ .

(٢) أكد هذا الظن الإمام الجوينى ، الذى كان الفقيه والمفكر السياسى الأكبر فى عصر السلاجقة ، وذلك فى كتابه الشهير غياث الأمم ، وهو كتاب فقهى فى علم الأحكام السلطانية ، ألفه باسم الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك وأهداه إليه ؛ إذ أفاد الجوينى أنه إذا كان حج السلطان إلى مكة سوف يعوقه من مباشرة أمور الإمامة بأكملها ، وهى الخاصة بإمضاء شريعة الإسلام ، ورعاية شئون الرعية ، وإقرار الأمن فى ديار الإسلام ، والدفاع عن بيضة الإسلام بالمثاغرة فى الثغور ، فإن فريضة الحج تسقط عن السلطان ؛ كذلك إذا كان الحج ، سوف يعرضه هو ورعيته للأخطار ، سقط وجوب الحج عن السلطان ورعيته ؛ ومن ثم فالجوينى يناشد السلطان السلجوقى فى عصره ، ضرورة العناية بتأمين طريق الحج وحماية الحجيج . أنظر مناقشة فقهية طويلة لهذه القضية عند الجوينى : غياث الأمم ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمى ، القاهرة ١٩٧٩م . ص ٢٦٤ – ٢٧٠) . ولاشك أن هذه الأسباب التى أجازت شرعًا لسلاطين السلاجقة – فى رأى الجوينى – إسقاط فريضة الحج عنهم " لعدم الاستطاعة " ، هى ذاتها التى تفسر عدم إقدام أحد من خلفاء الفاطميين على أداء فريضة الحج ، وعدم استطاعة أحد من الخلفاء والعباسيين بعد عصر هارون الرشيد، الذى شهدت الخلافة فى عصر أولاده الانقسام وظهور الدويلات المنقطعة ، أيضًا أداء هذه الفريضة ، وهى تُفَسر أخيرًا عدم استطاعة صلاح الدين الحج ، رغم رغبته فى ذلك ، وإظهار العزم على أداء هذه الفريضة قبيل موته . ولقد أوضح الجوينى أن ارتباط العبادات بنظر الإمام وإشرافه عليها ، ينسحب على العبادات والفرائض التى ترتبط باجتماع جمع غفير من المسلمين مثل فريضة الحج ، كما أوضح أن وظيفة إمارة الحج ، كان النبى يقوم بها بنفسه ، وأحيانًا ينيب فيها أبا بكر الصديق ، ثم أصبح خلفاء المسلمين يستنيبون فيها الأمراء أو ذوى الألوية (غياث الأمم ص ١٤٦ – ١٤٧) .

(٣) جاء فى هذا التقليد على لسان الخليفة : وأمره باعتبار أسباب الاستظهار والأمنة ، واستقصاء الطاعة المستطاعة ، والقدرة الممكنة ، فى المساعدة على قضاء تفث حجاج بيت الله الحرام ، وزوار نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأن يمدهم بالإعانة فى ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المرام ، ويحرسهم من التخطف والأذى فى حالتى الظعن والمقام ، فإن الحج أحد أركان الدين ، المشيدة ، وفروضه الواجبة المؤكدة ، قال الله تعالى : " ولله على الناس حج البيت " سورة آل عمران الآية ٩٧ ، أنظر القلقشندى : مآثر الإنافة ، ص ١١٤ – ١١٥ .

المماليكى بمصر ، وبعد انتقال مقر الخلافة العباسية إلى القاهرة ، إثر سقوط بغداد عاصمة الخلافة أمام الغزو المغولى ، من أهم واجبات السلطان المملوكى ، وراثة عن سلاطين بنى أيوب[1] .

---

(١) أجمع الفقهاء المصريون ، الذين ألفوا كتب الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية ، فى العصر المماليكى ، أن تأمين طريق الحج ، من أهم الواجبات الشرعية التى يلتزم بها السلطان المملوكى . وقد حرص هؤلاء الفقهاء على أفراد فصول وفقرات من مؤلفاتهم لشرح أهمية إشراف السلطان على تعيين أمير للحج ، وحماية فريضة الحج ، وإرسال الكسوة إلى الكعبة . فيقول خضر بن أبى بكر فى الفصل الثالث من الباب الرابع من كتابه المناقب المعزية وعنوانه : " فى أمير الحج " : ينبغى له (أى السلطان) أعزه الله ، أن يقيم شعار الحج ، فإنه من أركان الإسلام .. وليؤمر عليه أميرًا ، وهى ولاية سياسية وحراسة ، ومن شرطه أن يكون مطاعًا ، ذا رأى وشجاعة وهداية ، عارفًا بمناسك الحج وأوقاته ، وأن يجمع الناس ويرتبهم ، ويرفق بهم ويحميهم ، ويصلح بين المتنازعين فيهم (أنظر المناقب المعزية – خ ، ص ٩٠) . أما ابن جماعة فيذكر أن الحق الثالث من حقوق الرعية العشر على السلطان لإقامة شعائر الإسلام ، والإعتناء بتيسير الحجيج من نواحى البلاد ، وإصلاح طرقهم وأمنها فى مسيرهم ، وانتخاب من ينظر فى أمورهم (أنظر تحرير الأحكام – خ ، ص ١٥ ، الباب الثانى) . وكان عبد الصمد الصالحى ، أكثر فقهاء العصر المماليكى توضيحًا لدور السلطان فى حماية فريضة الحج ، وعمارة الكعبة وكسوتها ، فكتب يقول : وأما كسوة الكعبة زادها الله تشريفًا وتعظيمًا ، فينبغى للملك أن يكسوها فى كل سنة كما جرت به العادة ، ويكون ثمن الكسوة وما ينصرف عليها من مال الخراج والجزية ، وما يهديه أهل الحرب إلى الملك ، وهذه جهة مصرفها قديمًا ، وأما الآن فلها جهة مخصوصة ، فتكسى منها مع شمول نظر الملك فى أمرها ، وعرض الكسوة بين يديه وتفقد أحوال ذلك ، ويكون الناظر عليها رجلاً دينًا أمينًا عفيفًا عاقلاً ، ذا ثروة ومال ، يمنعه من التماس شىء من مالها المعد لها فى كل سنة .. ، وأما إصلاح طريق الحاج ، فينبغى للملك أن يتعهد ذلك فى كل سنة ، بعمارة البرك فى الطريق ، وتطرق الماء إليها ، ونزح الطين من الأعين ، وتمهيد ما فى الطريق من الوعر ، وتسهيل ذلك وتوسيع المضايق وبناء العلائم (أى العلامات الهادية فى الطريق) ويصرف على ذلك من المال المتقدم ذكره ؛ وأما تجهيز المحمل الشريف فى كل سنة فكذلك ، ويصرف عليه من المال المذكور . وينبغى للملك أن يوصى أرباب الإدراك بطريق الحاج بحفظ الحجاج ورعايتهم ممن يؤذيهم ، وأن يصرف لهم معاليمهم المرتبة لهم فى كل سنة من بيت المال ، ويجهز خلعهم الجارى بها العادة إليهم ، فإذا صرف لهم ذلك بتمامه من غير نقص ، وحصل للحاج مع ذلك ، أذى من قطع طريق أو غيره مما يكون حفظه لازمًا لهم ، ينبغى للملك أن يرسل خلفهم ويعنفهم على ذلك ويهددهم إذا عادوا فى التقصير لحفظ الحاج ؛ وأما ترتيب سير الحاج ، فينبغى للملك أن يوصى أمير الحاج فى كل سنة بالرفق فى السير ، وحفظ الحجاج ، وتفقد أحوالهم ، ولا سيما الفقراء منهم ، وإقامة الحرمة ، والإقامة بهم فى الأماكن التى جرت بها العادة بالمقام فيها ، وينبغى للملك أن يرسل معهم فى كل سنة طائفة تحميهم وتمنع عنهم العدو . أنظر عبد الصمد الصالحى : هدية العبد القاصر إلى الملك الناصر – خ ، مكتبة كوبرلى برقم ٢٩٠ ، ومصور بالمكتبة الزكية بدار الكتب المصرية برقم ٢٦٠٢ تاريخ ، ٥٥٨٣٦ عمومى ، الفصل الرابع لوحة ٥١ – ٥٢ .

الفصل السادس

تَبَعيّة سلاطين بنى أيوب ،لدولة الخلافة العباسية السُّنِّيَّة ، ونهوضهم بفريضة الجهاد ، وتوحيدهم كلمة المسلمين ، ونشرهم لعلوم السُنة .

- التقليد والتفويض الخليفى لسلاطين بنى أيوب .
- ألقاب السلطنة الأيوبية .
- سلطنات إسلامية متعاصرة، وأسباب تفرد السلطنة الأيوبية بالتفويض الخليفى فى ديار الإسلام .
- الوضع الشرعى للسلطنة الأيوبية .

تبعية سلاطين بنى أيوب ، لدولة الخلافة العباسية السُنّية ونهوضهم بفريضة الجهاد ، وتوحيدهم كلمة المسلمين ، ونشرهم لعلوم السُنّة :

التقليد والتفويض الخليفى لسلاطين بنى أيوب :

لا ريب أن التفويض الخليفى لصلاح الدين وخلفه، كان بالإضافة إلى إسباغه الشرعية ، فى نظر العالم الإسلامى ، على الممتلكات النورية والفاطمية التى ضمها إلى دولته الفتية ، فإنه كان تفويضًا من الخليفة العباسى إلى صلاح الدين ، بجميع السلطات الشرعية ، التى يعد الخليفة هو القائم بها ، من واقع تفويض الأمة الإسلامية له هذه السلطات عن طريق مبايعة أهل الحل والعقد له بالخلافة[١] .

ولقد حدد القلقشندى ، الوظائف الرئيسية فى الدولة الإسلامية ، بوظائف عشر ، يفوضها الخليفة إلى من يرى فيه الكفاءة على القيام بها على خير وجه ، ثم أفاد أن هذه الوظائف العشر ، أصبحت يفوضها الخليفة إلى السلطان ، ثم يفوضها السلطان بدوره إلى من يستطيع النهوض بأعبائها[٢] .

ولدينا لحسن الحظ ، وثيقتان هامتان ، إحداهما خاصة بتقليد الخليفة الناصر لدين الله العباسى لصلاح الدين[٣] ، وثانيهما تقليد الخليفة المستنصر بالله العباسى للملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر[٤] .

وبدراستنا لهاتين الوثيقتين ، دراسة مقارنة ، نستطيع أن نحدّد السلطات الشرعية التى فوضها الخلفاء العباسيين لسلاطين بنى أيوب ، على أساس أن الوثيقة الأولى ، ترجع إلى عهد قيام الدولة الأيوبية ، والوثيقة الثانية ، ترجع إلى عصر استقرارها وبلوغها أوج اتساعها فى عصر السلطان الملك الكامل محمد .

كما أن لدينا أيضًا ، وصفًا دقيقًا شائقًا ، لرسوم وصول الخلع الخليفية ، مع رسل وسفراء الخلافة العباسية إلى مصر ، واستقبال سلاطين الأيوبيين لهؤلاء السفراء ، وركوب السلاطين المصريين فى موكب رسمى ، بالآلات الملوكية والخلع والأعلام الخليفية ، المميزة باللون الأسود شعار بنى العباس ، وبين يدى السلطان وزيره راكبًا فرسه ، حاملاً عهد الخليفة « التقليد الخليفى » ، الذى يسبغ الشرعية على سلطنة بنى أيوب ، أمام رعاياهم المصريين وأمام العالم الإسلامى كله[٥] .

---

(١) أنظر قبله ، وبعده .
(٢) أنظر القلقشندى : مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ، ١: ٧٤ – ٨٠ .
(٣) أنظر نص هذا التقليد عند القلقشندى : مآثر ، ٣: ٨٦ – ٩٨ ، صبح ، ١٠ : ١٤٥ – ١٥٢ .
(٤) أنظر نص هذا التقليد عند القلقشندى : مآثر ، ٣: ٩٩ – ١٢١ ، صبح ، ١٠ : ٩٨ – ١١١ .
(٥) أنظر وصف تفصيلى لهذه الرسوم عند المقريزى : الخطط ، ٣: ١٧٤ – ١٧٥ .

وقد حدّدت التقاليد الخليفية لسلاطين بنى أيوب ، حدود ممتلكات الدولة الأيوبية ، التى سوف يسرى فى أراضيها هذا التفويض الخليفى ؛ وهنا نلاحظ أنه إلى جانب البلاد والممتلكات ، التى كان كل من صلاح الدين ، ثم السلطان الكامل ، قد ضموها إلى دولتهم بالفعل ؛ فإن الخليفة العباسى ، كان يتعمد تفويضهم سلطاته الشرعية ، على كل البلاد التى سوف ينجحون فى ضمها إلى ممتلكاتهم؛ سواء من البلاد التى كان الفرنج قد استولوا عليها ببلاد الشام، أو البلاد التى كانت الخلافة الفاطمية، والكيانات السياسية الشيعية التابعة لها ، قد نشرت فيها المذهب الفاطمى ، وخطبت على منابرها للخليفة الفاطمى[1] ؛ وقد داوم .. الخليفة فى هذه التقاليد على تذكير سلاطين بنى أيوب ، على ما يجب عليهم شرعًا من طاعة الخليفة العباسى ، والولاء للخلافة العباسية ، وأن يطالعوا الخلافة بأحوال دولتهم ، ويطلبوا منها المشورة عند الملمات[2] .

ثم تنتقل التقاليد ، إلى التنويه بميراث البيت العباسى ؛ لنص النبى على أن الخلافة والإمامة فى بيت عمه العباس !؟ ، ثم تعداد فضائل ومناقب البيت العباسى ، بل الغريب أن صرّحت هذه التقاليد ، بمبدأ عصمة الأئمة ، ووصفت الخليفة بأنه « إمام المسلمين خليفة الله فى أرضه » ، وأنه الذى حاز « مواريث النبوة والإمامة ، وخصّه الله من حسن التوفيق الإلهى بأمتن عصمه » ، «.. واختاره للمسلمين إمامًا»؛ وفى هذا جنوح للنظريات السياسية الفاطمية، الخاصة بالإمامة، مثل مبدأ « التنصيص » ، و عصمة الائمة مع التلميح إلى مبدأ « الحكم الإلهى » والمفاهيم الثيوقراطية للدولة ، كما ألمحت هذه التقاليد أيضًا إلى فكرة حق الخليفة فى الولاية والطاعة على جميع المسلمين وهو ما عبّرت عنه التقاليد بـ « الطاعة الواجبة على الخلائق » ، وفى هذا أيضًا تأثرًا بمبدأ « الولاية » ، عند الفاطميين ؛ كذلك تبدى تأثر الخلافة العباسية ، غداة القضاء على الخلافة الفاطمية بالصيغ والمفاهيم الشيعية الخاصة بالصفات الدينية للخلفاء ، من دعاء كاتب هذه التقاليد ، للخليفة العباسى ، بصيغة « صلوات الله عليه وسلامه » ، وهى أيضًا صيغة شيعية[3] .

---

(١) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣: ٨٨ ، س ٩ – ١٧ (تقليد صلاح الدين) ، ج ٣ ، ص ١٠٤ – ١٠٥ ، (تقليد الملك الكامل) .

(٢) أنظر القلقشندى : مآثر ٣: ٨٨ ، س ٢ – س ٨ ، ٩٧ – ٩٨ (تقليد صلاح الدين) ، ٣: ١٠٠ – ١٠١ ، (تقليد الملك الكامل) .

(٣) عن هذه التعابير والصيغ الشيعية الواردة فى التقاليد الخليفية لسلاطين بنى أيوب أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣: ١٠٠ – ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤، وعن النظريات السياسية الفاطمية أنظر ماجد: نظم الفاطميين، ١: ٥١ – ٧٧ ، وأنظر قبله هامش واف فى الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية ، فيه مناقشة هذه النظريات السياسية الفاطمية .

والملاحظ أن هذا الأثر الواضح ، للفكر السياسي الفاطمي ، في المفاهيم والصيغ السياسية للخلافة العباسية ، وخلفاء بني العباس ، إثر سقوط الخلافة الفاطمية بمصر ، وتفرد العباسيين بالخلافة ، قد وجدنا أثره في مدائح الشعراء لخلفاء بني العباس التي ترجع إلى هذا العصر ، بل وجدناه أيضًا في الوثائق الرسمية والنقوش التي ترجع إلى هذا العصر أيضًا(١) .

أما جوهر السلطات الشرعية ، التي فوّضها الخليفة لسلاطين بني أيوب ، فهي في الواقع جميع السلطات الشرعية التي عرفت في الدولة الإسلامية ، وهي في مجملها تدور في فلك الوظائف العشر التي قسم القلقشندي(٢) عليها ، السلطات السياسية العامة ، التي يمنحها الخليفة للسلاطين ، ويمنحها السلاطين بدورهم لمن يتولى مباشرتها من الأكفاء ؛ وهي : إمامة الحرب أي قيادة الجيوش ، وإمامة الصلاة ، ونظر المظالم ، والمعاون والأحداث - أي ولاية الشرطة - ، والحسبة ، ونظر الأوقاف ، والأشراف على جباية الجبايات الشرعية مثل الخراج والزكاوات والجوالي وسائر وجوه الجبايات وصرفها في أوجه صرفها الشرعية واختيار الأمناء الأكفاء العارفين بأحكام الشريعة لجبايتها وصرفها ؛ وبخصوص ولاية القضاء ، أي السلطة التشريعية في البلاد ، فلقد أمر الخليفة السلطان ، بتقوية يد القضاه لتمكينهم من تنفيذ الأحكام والحدود الشرعية ؛ ويستلفتنا بخصوص وظيفة نظر المظالم ، أمر السلطان بأن يتولى نظرها بنفسه ، ولا يفوّض أو يستتيب فيها أحد ، ليظهر العدل في الرعية ، ويساوى بين أقويائهم وضعفائهم ، ويمنعهم عن التظالم فيما بينهم .

ولقد عمدت التقاليد الخليفية لسلاطين بني أيوب ، على توضيح كل سلطة مخوّلة إلى السلطان الأيوبي على حدة ، وشرح كيفية اختياره لمباشريها ، أو إشرافه عليهم ، لتؤدى مصالح المسلمين على الوجه الأكمل .

وقد نوّهت هذه التقاليد ، بضرورة التزام السلطان بإقامة وإظهار شعائر الإسلام ، وتشييد قواعده ، بالنهوض بنفسه بإمامة الصلاة في صلوات الجمع والأعياد ، والإشراف بنفسه على تعمير المساجد ، كما أناطت به وظيفة دينية هامة ، وهي حماية وتأمين طريق الحج(٣) .

كما حثت التقاليد الخليفية ، سلاطين بني أيوب على ضرورة جهاد الفرنج في بلاد الشام ، لكون جهاد المشركين ، فريضة إسلامية(٤) .

---

(١) أنظر تتبع لهذه النصوص في الفصل الخاص بالوضع السياسي والشرعي لمصر الأيوبية .

(٢) أنظر القلقشندي : مآثر ، ١ : ٧٤ - ٨٠ .

(٣) أنظر ما تقدم بحثًا مستوفيًا عن حماية الأيوبيين لفريضة الحج . وأنظر القلقشندي : مآثر ، ٣: ١١٤ - ١١٥ (تقليد الكامل) .

(٤) أنظر القلقشندي : مآثر ، ٣: ٩٤ ، س ٩ - ١٧ (تقليد صلاح الدين) ، ج ٣: ص ١١١ - ١١٤ (تقليد الكامل) .

ولم يفت التقليد الخليفى ، أن ينبه السلطان الأيوبى ، إلى العهد الذى التزمه بالخطبة على منابر مملكته للخلافة العباسية « فيقيم الدعوة الهادية على المنابر على عادة من تقدمه »[1] ؛ ولما كان صلاح الدين ، هو مؤسس الدولة الأيوبية ، وأول سلاطينها ، فأغلب الظن أن الخليفة يعنى بعبارة « على عادة من تقدمه » ، السلاطين السنيين ، الغزنويين والسلاجقة والزنكيين على التوالى .

وفى حين ألمح التقليد الخليفى لصلاح الدين إلى أنّ تتبع فلول الشيعة ودعاتهم من المهام الموكولة إلى المحتسب[2] ، وإلى وجود رجال للشرطة فى أطراف البلاد مكلفين بالقبض على دعاة الشيعة ؛ لم يشر تقليد الملك الكامل إلى اهتمام المحتسب بتتبع الشيعة ودعاتهم[3] ؛ وأغلب الظن لأن الدعوة الفاطمية ، كان قد تم القضاء عليها تقريبًا فى عصر الملك الكامل[4] .

فعلى هذا النحو إذًا ، فوضّ الخليفة لسلاطين بنى أيوب ، جميع سلطاته الشرعية ، بوظائفها الدينية والحربية والإدارية ، وترك لهؤلاء السلاطين اختيار الأكفاء من رعاياهم القادرين على النهوض بأعباء هذه الوظائف على الوجه الأكمل ، ليفوّض السلطان بدوره ، لكل منهم ، سلطات الوظيفة التى يستطيع الاضطلاع بها ؛ ولقد أوضحت كتب السياسة الشرعية ، أن تفويض السلطان الوظائف العامة للأكفاء ، يعد فى الفقه الدستورى الإسلامى ، من باب أداء الأمانات إلى أصحابها[5] ؛ وذلك لأن حق الرعية ، يعد من الناحية الشرعية النظرية هو حق الله[6] ؛ بمعنى أن من فرط فى مصلحة الرعية ، وفى حق من حقوقها ، فكأنّه فرّط فى حق من حقوق الله .

والجدير بالالتفات ، أننا نجد فى التفويض الخليفى لسلاطين بنى أيوب ، تلخيصًا شاملاً لأهم قواعد وأسس النظرية السياسية فى الإسلام ؛ فنجده ينص على المبدأ والمحور الأساسى لهذه النظرية ، وهو مبدأ الشورى[7] ؛ كما يؤكد ارتكاز المفاهيم السياسية فى الإسلام على أساس أخلاقى يستمد أصوله من السنة النبوية[8] .

---

(١) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣: ٨٩ ، س ٨ – ١٨ (تقليد صلاح الدين) ، ٣: ١٠٩ ، س ٢ – ١٥ (تقليد الكامل) .

(٢) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣: ٩٣ – ٩٤ (تقليد صلاح الدين) .

(٣) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣: ١١٩ ، س ١ – ١٥ (تقليد الكامل) .

(٤) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية .

(٥) أنظر ابن تيمية : السياسة الشرعية ، تحقيق على سامى النشار ، ١٩٥١م ، ص ٤ – ١١ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٦٦ – ١٧٢ .

(٧) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣: ٩٢ ، س ٨ – ١١ (تقليد صلاح الدين) ، ٣: ١١٠ ، س ٧ – ١٣ (تقليد الملك الكامل) .

(٨) أنظر القلقشندى : مآثر ،٣: ٨٧–٨٩ (تقليد صلاح الدين) ، ٣: ١٠٧–١١٠ (تقليد الملك الكامل) .

وترتيب هاتين الوثيقتين ، يكاد يتطابق ، بل أن الأفكار في الوثيقتين واحدة ، ولم يتغير سوى الأسلوب ؛ ومنهج الوثيقتين ، هو النص على الأمر الخليفي ، أى السلطة أو الوظيفة المفوّضة ، ثم الاستشهاد على كونها مستمدة من الشرع ، أى من القرآن والسنة .

ويستلفتنا عند مقارنة رسوم المكاتبات الإنشائية في كلتا الوثيقتين ، أن ديوان الإنشاء الخليفي ، لم يفته التمييز في رسوم الإنشاء الرسمية ، بين تقليد صلاح الدين ، وكان في ذلك الوقت ، حاكمًا مستقلاً بمصر وبلاد اليمن والحجاز والقيروان وبعض مدن الشام ، وبين تقليد الملك الكامل ، وكان في ذلك الوقت سلطانًا على أغلب بلاد المشرق الإسلامي ، بما فيها بلاد الشام والجزيرة الفراتية وأرمينية وأجزاء من آسيا الصغرى ، وهذا ما لاحظه مؤرخو ديوان الإنشاء في العصر الأيوبي مثل ضياء الدين بني الأثير ، وفي العصر المماليكي ، مثل القلقشندي[1] .

ألقاب السلطنة الأيوبية :

وسنقف قليلاً ، لمناقشة الألقاب الرسمية ، التي منحها الخلفاء العباسيون ، لسلاطين بني أيوب، متخذين في دراستها ، المنهج المقارن، الذي سبق أن أشرنا إليه ، في نقدنا للمصادر[2] ؛ وهو مقارنة هذه الألقاب الرسمية الواردة في سجلات تقليد سلاطين بني أيوب ، بالألقاب الرسمية والشرفية التي وردت على أثار ونقوش ومسكوكات الدولة الأيوبية ، والتي وردت أيضًا على المؤلفات ذات الصفة الرسمية ، ألفت برسم خزانة السلاطين الأيوبيين وأهديت إليهم بصفة رسمية .

لقد لُقّب صلاح الدين في التقليد العباسي بـ « الملك ، الأجل ، السيد ، صلاح الدين ، ناصر الإسلام ، عماد الدولة ، جمال الأمة ، فخر الملة ، صفى الخلافة ، تاج الملوك والسلاطين ، قامع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، عز المجاهدين ، ألب غازى بك يوسف بن أيوب »[3] .

ولُقّب الملك الكامل بـ « الملك ، الأجل ، السيد ، الكامل ، المجاهد ، المرابط ، نصير الدين ، ركن الإسلام ، أثير الأنام ، تاج الملوك والسلاطين ، قامع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، ألب غازى بك ، محمد بن أبى بكر بن أيوب ، معين أمير المؤمنين »[4] ؛ وعلل الخليفة منح هذه الألقاب له بأنها « رعاية لسوابق خدمه وخدم أسلافه وآبائه »[5] .

---

(١) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣: ٨٦ ، ٩٩ ، صبح ، ١٠ : ٩٨ ، ١٣٥ .

(٢) أنظر أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ (دراسة مقارنة بمصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر المماليكى ؛ مع ترجمة ونشر ١٤ وثيقة أيوبية من الأرشيفات الإيطالية، تنشر لأول مرة) ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ، ص ١٢-١٣ ، ص ١٤٥-١٧٢.

(٣) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ ، س ١٢ - ١٤ ، ص ٨٨ ، س ١ - ٢ .

(٤) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٥) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ١٠٦ ، س ٤ - ٦ .

وأول ما نلاحظه فى هذه الألقاب ، أن الثلاثة الأول منها ، قد ورثت عن وزراء السيوف المفوّضين فى العصر الفاطمى ، وهى على ترتيب ظهورها فى العصر الفاطمى ، السيد ، الأجل ، الملك[1] ؛ وإن كنا نلاحظ أنها وردت فى التقليدين العباسيين بعكس هذا الترتيب ، بحيث جاء لقب «الملك» ، ـ وهو آخر هذه الألقاب ظهورًا فى العصر الفاطمى ، وأضخمها ، وأكثرها دلالة على استقواء نفوذ هؤلاء الوزراء المفوضين ـ أول هذه الألقاب الثلاثة فى التقليد العباسى .

ثم تستلفتنا الألقاب الخاصة بالعلاقة بين سلاطين بنى أيوب والخلافة العباسية ، فلقب صلاح الدين بـ « عماد الدولة » ، و « صفى الخلافة »[2] ، ولقب الملك الكامل بـ « معين أمير المؤمنين »[3] ؛ والألقاب الدالة على جهاد الأيوبيين للصليبيين أى لقب « قامع الكفرة والمشركين »[4] ؛والدالة على قضاء الأيوبيين على الدعوة الإسماعيلية وتتبعهم لفلول الشيعة ، أى لقب « قاهر الخوارج والمتمردين »[5] ؛ والدالة على مكانة سلاطين الأيوبيين فى العالم الإسلامى ، وتصدرهم لملوك وسلاطين الأطراف كألقاب « ناصر الإسلام » ، « جمال الأمة » ، « فخر الملة » ، « تاج الملوك والسلاطين » ، التى لقّب بها صلاح الدين[6] ، وألقاب « ركن الإسلام » ، « أثير الأنام » ، « تاج الملوك والسلاطي »ن ، التى لقب بها الملك الكامل[7]؛ وأغلب الظن أن لقب « ألب غازى بك »[8] ، الذى لقّب به كلا السلطانين الأيوبيين ، يشير إلى تاريخ اسرتهم المجيد فى محاربة الفرنجة منذ التحاق أجدادهم بخدمة نور الدين زنكى .

والجدير بالملاحظة ، أن اللقب الذى منحه الخليفة الفاطمى العاضد لصلاح الدين ، وهو « الناصر لدين الله »[9] ، لم يرد فى التقليد العباسى لصلاح الدين ، بل أغلب الظن أنه قد تعمّد حذفه ، وذلك لأن الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، كان قد تغير على صلاح الدين لمشاركته له فى لقبه كما ذكر القلقشندى[10] ، وإن لاحظ بعض المؤرخين أن اتخاذ صلاح الدين لهذا اللقب ،

---

(١) أنظر ماجد : نظم الفاطميين ، ج ١ ، ص ٨٣ – ٨٧ .
(٢) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ – ٨٨ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .
(٤) أنظر القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ – ٨٨ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .
(٥) نفس المصدر فى الموضعين .
(٦) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ – ٨٨ .
(٧) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .
(٨) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٨٧ – ٨٨ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .
(٩) أنظ تقليد العاضد لصلاح الدين عند القلقشندى : صبح ، ج ١٠ ، ص ٩١ – ٩٨ ، وأنظر قبله .
(١٠) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

كان سابقًا لخلافة الخليفة الناصر لدين الله ولا وجه لغضب الخليفة من صلاح الدين[1] ، وذلك في حين ذكر اللقب الملكي وهو « الكامل » في تقليد الملك الكامل[2] ؛ والواقع أن هذا اللقب الملكي المزدوج مع لقب الملك قد ورثه الأيوبيون أيضًا عن وزراء السيف المفوضين في العصر الفاطمي ، فلقب شيركوه (الملك المنصور)[3] وصلاح الدين (الملك الناصر) ، ولقب نجم الدين أيوب والد صلاح الدين (الملك الأفضل)[4] ، وصار هذا تقليدًا في ألقاب جميع الأسرة الملكية الأيوبية[5] ، كما ورث المماليك فيما بعد هذا اللقب المزدوج عن الأيوبيين .

كذلك ، فقد لقب كل من السلطانين ، بلقب مضاف إلى الدين ، أولهما (صلاح الدين)[6] ؛ وثانيهما (نصير الدين)[7] .

وأخيرًا لقب الملك الكامل بـ (المجاهد) ، والمرابط[8] ، وهي ألقاب أعتز بها سلاطين الأيوبيين ثم سلاطين المماليك من بعدهم ، لدلالتها على رسالتهم في تزعم حركة جهاد الصليبيين في الشرق الإسلامي ؛ مثل ألقاب (المثاغر)[9] ، والمجاهد[10] ، والمرابط[11] ، والمظفر[12] ، والمنصور[13] ، والمؤيد[14] .

ولاشك أن هذه الألقاب التي منحها الخليفة العباسي لسلاطين بني أيوب ، قد اسبغت على سلطنتهم الشرعية ، في نظر العالم الإسلامي كله ، خاصة وقد زالت الخلافة الفاطمية من مصر ،

---

(١) أنظر كتاب إنسان العيون في مشاهير سادس القرون ، مخطوط رقم ٩١٩ تاريخ تيمور بدار الكتب المصرية ورقة ١٥٩ – ١٦٢ ، وأنظر السيوطي : حسن المحاضرة ، الطبعة القديمة ، ج ٢ ، ص ٢٧ ، وأنظر أحمد تيمور : التذكرة التيمورية ، ص ٢٢٨ – ٢٢٩ ، حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٧٩ .
(٢) القلقشندي : مآثر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .
(٣) أنظر تقليد العاضد لشيركوه ، عند القلقشندي : صبح ، ج ١٠ ، ص ٨٠ – ٩٠ .
(٤) أنظر قبله .
(٥) أنظر حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٧٣ – ٧٤ ، و ص ٨٢ ، و ص ٥٢٥ .
(٦) القلقشندي : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ – ٨٨ .
(٧) نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .
(٨) نفسه ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .
(٩) القلقشندي : صبح ، ج ٦ ، ص ٢٦ .
(١٠) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٦ .
(١١) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٧ .
(١٢) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٢٨ .
(١٣) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٣١ . .
(١٤) نفس المصدر ، ج ٦ ، ص ٣٢ .

وأصبحت الخلافة العباسية هي مستقر السلطات الشرعية في العالم الإسلامي ، بما يشبه الإجماع بين الفقهاء ؛ ولاشك أيضًا أنها قد اظهرتهم أمام بقية ملوك الأطراف التابعين للخلافة العباسية ، كحماة لهذه الخلافة ، وللمذهب السني ، ولديار الإسلام أمام الخطر الصليبي ، مما كان له أبعد الأثر في استقواء النفوذ السياسي والأدبي لسلاطين بني أيوب في بلاد المشرق الإسلامي بصفة عامة ؛ وقد أيد هذا النفوذ تفرد الخلافة العباسية بالعراق ، بعد سقوط الخلافة الفاطمية بمصر ، بحق منح الألقاب الرسمية لملوك الأطراف .

لقد أنفرد الخلفاء دائمًا بسلطة التلقيب ، وذلك نتيجة لتمتعهم بحق التعيين ، وكان من تقاليد الدولة العباسية أن ينص على اللقب عند كتابة التقليد[١] ؛ كما احتفظ الخلفاء الفاطميون أيضًا بحق التعيين والتلقيب ، وحرصوا على عدم التفريط في هذا الحق حتى نهاية العصر الفاطمي ، حتى أن الألقاب التي أطلقها وزراء السيوف المتغلبين على الفواطم في نهاية دولتهم ، ظلت في نظر الناس مغتصبة وغير رسمية[٢] ؛ وظل حق الخليفة في التولية باقيًا حتى الدولة الأيوبية ، بحيث حرص الملوك مهما كبر سلطانهم واتسع نفوذهم على الحصول على عهود أو تقاليد من الخلافة تثبتهم في مراكزهم ؛ وكان من الطبيعي أن يستتبع ذلك احتفاظ الخليفة بسلطته في التلقيب ، فكانت الألقاب تثبت في العهد نفسه[٣] ، على نحو ما رأينا في التقليدين السابقين ، لصلاح الدين والسلطان الكامل ؛ ولكن بسقوط الخلافة العباسية في بغداد وانتقالها إلى القاهرة ، فقد الخليفة العباسي سلطته في التعيين ، والتلقيب ، واقتصرت مهمته على مبايعة السلطان المملوكي وإعلان لقبه[٤] .

بمعنى أن هذه الألقاب ، التي منحتها الخلافة العباسية لسلاطين بني أيوب ، قد مُنِحَت لهم بعد أن استعادت هذه الخلافة هيمنتها العامة تقريبًا على ديار الإسلام بسقوط الخلافة الفاطمية ، وبعد تفردها بحق التلقيب الرسمي ، وحين أصبحت كلمتها مسموعة مهابه بين جميع ملوك الأطراف ، حتى أصبحت طاعتهم في العرف الإسلامي العام آنذاك مفروضة واجبة على المسلمين جميعًا[٥] .

ونستطيع أن نصنف الألقاب التي أضفاها ملوك وسلاطين بني أيوب على أنفسهم ، إلى ألقاب رسمية منحها لهم الخلفاء العباسيون ووردت في تقاليدهم ، وألقاب فخرية اسبغها عليهم كتاب

---

(١) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٩٢ .
(٢) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٩٣ .
(٣) حسن الباشا : نفس المرجع ، ص ٩٩ .
(٤) نفس المرجع ، ص ١٠٢ .
(٥) أنظر قبله .

دولتهم ومتملقوهم ، أو نعوت نعت بها ملوك بنى أيوب أنفسهم للاتصاف بالصفات التى أملتها روح العصر ، مثل الزهد والعلم ؛ كما حملت بعض هذه الألقاب الفخرية ، معانى المبالغة فى النفوذ السياسى والحربى والروحى للسلطنة الأيوبية .

والواقع ان هذا الصنف الأخير من الألقاب الفخرية الطنانة لم يظهر بجلاء إلا فى ألقاب السلاطين الأيوبيين المتأخرين ، حين إنكمش النفوذ السياسى لسلطان مصر ؛ باستقلال ملوك الأطراف الأيوبيين عنه ، أو بضم سلاطين خوارزم بإيران ، أو سلاطين سلاجقة الروم بآسيا الصغرى ، لبعض الممتلكات الأيوبية ببلاد الجزيرة الفراتية وشمال الشام من ناحية ؛ ونتيجة لتزايد الأطماع الصليبية فى غزو مصر من ناحية أخرى .

وبعض الألقاب الرسمية ، يظهر العلاقة الوثيقة بين الخلافة وبنى أيوب(١) ، مثل الأشارة إلى قيامهم بإحياء الخلافة العباسية ، أو إلى تقسيم السلطة السياسية بينهم وبين الخلافة ، أو تأكيد طاعتهم وولائهم للخليفة ، أو التنويه بالمعونات العديدة التى أسدوها له ، أو تخليدًا لمظاهر الود والصداقة ، التى ربطت بين الخلافة العباسية ، وهؤلاء السلاطين السنيين .

ومن هذه الألقاب : « صفى الخلافة » ،الذى منح لصلاح الدين(٢) و « خليل أمير المؤمنين » ، الى منح لأخيه الملك العادل(٣) « وظهير أمير المؤمنين » ، الذى يبدو أنه منح للملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين وخليفته فى حكم مصر بصفة رسمية ، بدليل استخدامه على نقوشه(٤) ، و « معين أمير المؤمنين » ، الذى منح للملك الكامل بعد توليه سلطنة مصر(٥) .

---

(١) عن هذه العلاقة الوثيقة ، أنظر قبله .

(٢) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ٨٧ – ٨٨ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٦٨ ، .G. Wiet: Les inscriptions du Mausolée de Sha fiei. p.175.

(٤) أنظر لوحة تأسيسية من الخشب مؤرخة سنة ٥٩٤هـ محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، خاصة بوقف قيصرية على صوفية خانقاه سعيد السعداء . وانظر .

Jean David weill : Catalogue général du Musée Arabe du Caire, les Bois a Épigraphes jusque Lépoque Mamlouke, Le Caire, 1931, p. 14. No 484.

ولأهمية هذا النقش واشتماله على جميع ألقاب الملك العزيز عثمان سوف أورده بتمامه وهو : " اللهم أرحم الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ، ورضى الله عنه ، الذى أنعم على الصوفية بهذه القيصرية ، وأوقفها على بقعتهم التى تعرف بدار سعيد السعداء بمحروسة القاهرة ، وقد أمر بهذا الباب الجديد والفتح السعيد ، سيد الملوك والعبيد ، عماد الدنيا والدين وسلطان الإسلام والمسلمين عضد الدولة القاهرة ، تاج الملة الزاهرة، نظام العالم ملك المعالى ، الملك العزيز عثمان بن يوسف بن أيوب ظهير أمير المؤمنين ، خلد الله ملكه ، فى تاريخ ربيع الأول سنة أربع وتسعين وخمسمائة (٥٩٤هـ) ، وصلى الله على محمد وآله وأصحابه أجمعين " .

(٥) القلقشندى : مآثر ، ج ٣ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .

والواقع أن لقب « خليل أمير المؤمنين » ، هو اللقب الذى توارثه أغلب سلاطين بنى أيوب بمصر ، وأثبتوه على نقوشهم[١] ؛ ويبدو أن السلطان العادل الأول أبو بكر بن أيوب ، هو أول من لقب به بصفة رسمية ، إذ أثبت فى التقليد الخليفى للملك العادل بالسلطنة ، الذى أرسل إليه فى سنة ٦٠٤هـ - ١٢٠٧م[٢] ، رغم أنه لم يرد من قبل فى التقليد الخليفى لأخيه صلاح الدين[٣] ؛ ويفيدنا القلقشندى ، أن لقب « خليل أمير المؤمنين » ، هو الأدنى مرتبة مباشرة ، من لقب « قسيم أمير المؤمنين »[٤] .

---

(١) قد ورد هذا اللقب ، ضمن ألقاب الملك العادل فى نقوش أثرية ببيت المقدس بتاريخ ٥٨٩هـ / ١١٩٣م ، وبدمشق من سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م إلى سنة ٦١٠هـ / ١٢١٤م ، وبالقاهرة بتاريخ سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م (حسن الباشا : الألقاب ، ص ٢٠١) كما لقب به ابنه السلطان الكامل محمد (أنظر :
G. Wiet: Les inscriptions de Shafiei , p. 175
وحفيده السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أنظر :
Van Barchem: Matériaux, p. 103, p. 105.

(٢) أنظر المقريزى : السلوك ١: ١٦٨ ، الذى يذكر أنه لما تسلطن العادل فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م أرسل إليه الخليفة العباسى الناصر ، يقلده جميع البلاد التى فتحها ، ويخاطبه بـ " شاهنشاه ملك الملوك ، خليل أمير المؤمنين " .

(٣) أنظر قبله ، والغريب أن هذا اللقب ، جاء ضمن ألقاب صلاح الدين فى نص إنشاء بتاريخ ٥٨١هـ / ١١٨٥م ، من قلعة جندى بسوريا (حسن الباشا : الألقاب ، ص ٢٠٠ ؛ واستعمل لأخيه العادل أثناء سلطنه صلاح الدين ، فى نقش على قلعة القاهرة بتاريخ ٥٧٩هـ - ١١٨٣م (أنظر Van Barchem: Matériaux, p. 81 ؛ فأغلب الظن أن هذا اللقب ، كان العادل ، هو أول من خُصّ به من الخلافة العباسية فى حياة أخيه صلاح الدين ، ثم استعاره منه صلاح الدين على نقوشه ، إذ أنه من المستبعد أن يلقب الخليفة العباسى صلاح الدين وأخاه بنفس اللقب ؛ ويبدو أن هذا اللقب كان محببًا للملك العادل ، فحين ناشده الخليفة رفع الحصار عن مدينة سنجار ، بعد أن حاول العادل ضمها لممتلكاته فى بلاد الجزيرة الفراتية ، قدم إليه رسول الخليفة يأمره بالرحيل ، وقال له عن الإمام الناصر ، قال لك : « بحياتى يا خليلى أرحل » (المقريزى : السلو ١: ١٧١) .

(٤) أنظر القلقشندى : صبح ، ٦: ١١٣ - ١١٤ . ولقب قسيم أمير المؤمنين ، أول من اتخذه السلطان المملوكى الظاهر بيبرس بعد نقل مقر الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة (أنظر ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٤٩ ، المقريزى : السلوك ١: ٤٤٧ ، حسن الباشا : الألقاب ، ص ٢٠٤) ؛ وهو لقب يشى بمحاولة السلطان المملوكى بيبرس ، الظهور أمام العالم الإسلامى ، بمظهر من يقاسم الخليفة سلطاته على ديار الإسلام (أنظر محمد عبد العزيز مرزوق : جامع الظاهر بيبرس البندقدارى ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث مايو ١٩٥٠ م ، ص ٩١ - ١٠٢) ففيه دراسة وافية لألقاب بيبرس اعتمادًا على النقوش التأسيسية لجامعه .

ويبدو أن لقب « قسيم أمير المؤمنين » ، قد أطلق على صلاح الدين ، في الأوساط الشعبية بمصر[١] ؛ وهو لقب حمله من قبل بعض سلاطين السلاجقة[٢] ، كما حمل نور الدين زنكى بعض ألقاب مشابهة له[٣] ؛ ولكن الأرجح أن صلاح الدين وخلفاءه من سلاطين بنى أيوب[٤] ، لم يحملوه ، وذلك للإبقاء على النفوذ السياسى للخليفة العباسى ، مهابًا مصونًا .

---

(١) نقش هذا اللقب على طاسة نحاسية من الطاسات التى عرفت بطاسة الخضة ، إذ وصلتنا طاسة من هذا النوع ، حقق الأثريون أنها من عصر صلاح الدين ، ولقد جاءت ألقاب صلاح الدين على هذه الطاسة على هذا النحو " عز لمولانا السلطان الملك المؤيد المنصور أبو المظفر يوسف قسيم أمير المؤمنين .. ، أنظر :Ahmed Zabi Goupe Magique, p. 265. حيث يلاحظ أن مصطلح " عز نصره " ، ظهر لأول مرة على هذه الطاسة النحاسية وظل مستخدمًا طوال العصر المماليكى .

(٢) أنظر الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٣ ، حيث يفيد أن بعض سلاطين السلاجقة ، قد تلقب بـ " يمين أمير المؤمنين " ، و " برهان أمير المؤمنين " ، و " قسيم أمير المؤمنين " ، وأنظر قبله .

(٣) تلقب نور الدين زنكى بـ " قسيم الدولة وعمادها " ، و " اختيار الخلافة ومعدها " ، و " رضى الإمامة وأميرها"، و "ناصر دولة أمير المؤمنين" ، أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٣٢٢ – ٣٢٣ ، ابن عساكر : تاريخ دمشق – خ ، نسخة المكتبة الأزهرية رقم ٧١٤ ، مصورة بمعهد المخطوطات ف ٧٦ ، ج ١٩ ، لوحة ٥ ب .

(٤) وردت ألقاب الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، على لوحة تأسيسية من الخشب ، مؤرخة سنة ٥٩٤هـ – ١١٩٧م ، محفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، خاصة بوقف قيصرية على صوفية خانقاه سعيد السعداء ، على هذا النحو : " .. الملك ، الناصر ، صلاح الدنيا والدين .. سيد الملوك والعبيد ، عماد الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، عضد الدولة القاهرة ، تاج الملة الزاهرة ، نظام العالم ، ملك المعالى ، الملك العزيز عثمان بن أيوب ، ظهير أمير المؤمنين .. ، أنظر : عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى ص ٣٦ – ٣٧ .

ووردت ألقاب الملك الكامل محمد بن العادل، على نقش تأسيسى بقبة الإمام الشافعى مؤرخ سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م على هذا النحو : " .. هذا قبر .. والدة الفقير إلى رحمة ربه محمد ، ولد مولانا السلطان الملك العادل العالم العابد المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور ، سيف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيد الملوك والسلاطين قامع الخوارج والمتمردين ، قاهر الكفرة والمشركين ، أبو بكر بنى أيوب ، خليل أمير المؤمنين .. وأنظر G. Wiet: Les inscriptions du Mausolee de shafiei, B.I.E. Tome : XV, 1932-1933, p. 175 ووردت ألقاب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل على نقوش ضريحه فى قبته ومدرسته على النحو التالى : " .: مولانا الملك الصالح السيد العالم العادل المجاهد المرابط المثاغر ، نجم الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيد ملوك المجاهدين ، وارث الملك عن آبائه الأكرمين .. أنظر : . Van Berchem: Matériaux.

ويبدو أن رجال دولة صلاح الدين ، قد لقبوه بـ « محى دولة أمير المؤمنين »[1] ؛ وأغلب الظن أن هذا اللقب لم يمنحه الخليفة العباسي لصلاح الدين ، أولاً لعدم وروده في وثيقة تقليده ، وثانيًا لاستبعاد تصريح الخليفة بمثل هذا اللقب ، حتى ولو كان حقيقى الدلالة ؛ فأغلب الظن إذا أنه جاء من وحى اعتزاز كتاب رسوم المكاتبات والبروتوكولات بديوان الإنشاء المصرى بسلطانهم ، وإشادتهم بدوره فى توحيد العالم الإسلامى حول الخلافة العباسية . ويرى بعض الباحثين أن لقب « محى دولة أمير المؤمنين » الذى لقب به صلاح الدين بصفة غير رسمية ، كان المصدر للقب الذى ابتكره كتاب ديوان الإنشاء فى العصر المماليكى ، وهو لقب « محى الدولة العباسية » ، الذى اتخذه الملك الأشرف خليل ابن قلاوون[2] .

ولكن رغم أن لقب « محى دولة أمير المؤمنين » ، لم يكن لقبًا رسميًا لصلاح الدين ، فقد استجاز كتاب ديوان الإنشاء بعصر الأيوبية لأنفسهم ، محاكاة للقاضى الفاضل ، إثبات هذا اللقب على نقوش صلاح الدين[3] ، وعلى نقوده[4] .

(١) جاء هذا اللقب على نقش بقلعة القاهرة مؤرخ سنة ٥٧٩هـ ١١٨٣م أنظر : Van Berehem: Matériaux, p. 81، وهذا اللقب لقب به من قبل ، السلطان السنى محمود الغزنوى ، أنظر الكرملى : النقود العربية ، ص ١٣٣ ، حسن الباشا : الألقاب ، ص ٤٦٣ ، وعن بقية ألقاب محمود الغزنوى ومنها لقب سلطان ، أنظر العتبى : التاريخ اليمينى ١: ٢٠ – ٢٩ .

(٢) تتبع أحمد زكى باشا فى دراسته الممتعة لألقاب صلاح الدين التى وردت على طاسة الخضة لقب " محى دولة أمير المؤمنين " ، لكونه قريب الدلالة من لقب " قسيم أمير المؤمنين " ، الذى نقش على هذه الطاسة ، وانتهى إلى أن الخليفة العباسى لم يمنح هذا اللقب قط لصلاح الدين ، ولكنه كان من ابتكار القاضى الفاضل رئيس ديوان الإنشاء المصرى فى عهد صلاح الدين لوروده فى نص رسالة فاضلية أوردها أبو شامة فى الروضتين ، وما لبث أن شاع هذا اللقب بين كتاب وأدباء العصر الأيوبى ، بحيث استخدمه الخطباء فى أوّل خطبة جامعة أقيمت على منابر بيت المقدس بعد أن استرده صلاح الدين من الصليبيين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وأيد أحمد زكى رأيه فى أن هذا اللقب لم يكن رسميًا ، بأن القلقشندى حين عرض للألقاب الرسمية ، لم يذكر سوى لقبى " محى السنة " و " محى العدل فى العالمين " ، ومن ناحية أخرى فقد تدارس زكى باشا الوثائق والمكاتبات التى أرسلها خلفاء بنى العباس لصلاح الدين ، فلم يجد إلا لقبًا شبيهًا له ، هو " معز أمير المؤمنين " ولكنه ولا ريب مخالف له فى الدلالة . أنظر : Ahmed Zaki: Coupe magiqua, p. 263 - 265

(٣) أنظر : Van Benchem: Matériaux p.81, Corpus, Egypte, v.1, No, 527، حسن الباشا : الألقاب، ص ٢٠٧ .

(٤) Lane poole: Catalogue of oniental Coins in the British musum, v.4, p. 71-72; soret; Eléments de la numismatique musulmane, p. 168.

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نلاحظ ، أن ثمة ألقاب حملها صلاح الدين بطريقة رسمية لورودها في تقليده الخليفي ؛ وثمة ألقاب حملها أخوه الملك العادل بعد توحيده للدولة الأيوبية سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م ، وإقرار الخليفة العباسي له بالسلطنة ، ومنحه التقليد الخليفي الذي لقبه فيه بـ « شاهنشاه ، ملك الملوك ، خليل أمير المؤمنين »[١] ؛ أي أن هذه الألقاب الجديدة المضافة إلى ألقاب صلاح الدين الرسمية قد منحت للسلطان العادل بصفة رسمية أيضًا ، من ثمّ فقد توارثها سلاطين بني أيوب ، حتى آخر دولتهم .

وأول الألقاب الرسمية ، التي توارثها سلاطين بني أيوب « لقب سلطان » ، وهو لقب أطلق - كما سبق القول - على وزراء السيوف المفوّضين ، سواء في العراق العباسي أو بمصر الفاطمية ، ابتداء من القرن الخامس الهجري[٢] ، وأصبح بمرور الوقت ، وبظهور ملوك الأطراف المستقلين ، يعني في العرف السائد ملك الملوك ، أو كبير ملوك الأطراف[٣] ؛ وفي اعتقادنا أن أول من حمله بصفة رسمية ، هو السلطان محمود الغزنوي ، سلطان غزنة والهند وإيران ، الذي كان في القرن الخامس الهجري ، أقوى ملوك المشرق الإسلامي ، الذين رفضوا الدعوة الفاطمية ، وعمد إلى مساندة الخلافة العباسية في صراعها مع الخلافة الفاطمية ، من أجل السيطرة على العالم الإسلامي[٤] ؛ ولقد أفاد العتبي مؤرخ سيرة هذا السلطان ، أن الذي أوحى إلى الخليفة العباسي بمنح محمود الغزنوي لقب « سلطان » الإمام أبو إسحاق الأسفرايني[٥]، وهو من ائمة الدعوة الأشعرية السنية التي وقفت من الدعوة الفاطمية الشيعية موقف الخصومة المذهبية والسياسية[٦]؛ فلا غرو أن اعتز محمود الغزنوي،

---

(١) أنظر عن الخلع والألقاب الخليفية التي منحت للسلطان العادل سنة ٦٠٤هـ ، القلقشندي : مآثر الإنافة ، ٢: ٥٩ - ٦٠ ، سبط : مرآة ، ٨: ٥٣٤ ، المكين ابن العميد : أخبار ، ص ١٣٥ - ١٣٦ ، المقريزي : السلوك ، ١: ١٦٨ .

(٢) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية ، حيث ناقشت مسألة تطابق وظيفتي وزارة التفويض والسلطنة .

(٣) عن التطور التاريخي للقب "السلطان" ، أنظر القلقشندي : صبح ، ٥: ٤٤٧ - ٤٤٨ ، ٩: ٣٩٨ ، ٤٠٣ ، ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ، أبو المحاسن : النجوم ٥: ٢٧٩ ، السيوطي : الوسائل ، ص ٧٨ .

(٤) أنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية ، والوضع الخاص بالوضع السياسي والشرعي لمصر الأيوبية . وأنظر السيوطي : الوسائل ، ص ٧٨ ، حيث ينص على أن محمود الغزنوي هو أول من حمل لقب سلطان .

(٥) أنظر العتبي : التاريخ اليميني ، ص ٣١ ، وفيه مناقشة لغوية وفقهية لمعنى لقب " سلطان " .

(٦) أنظر قبله الفصل الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر ، ونشر الدعوة الأشعرية بها .

بهذا اللقب وذكره على نقوشه[1] ، ثم توارثه عنه جميع سلاطين المشرق الإسلامي السنيين ، المفوضين من قبل الخليفة العباسي ، والقائمين بدعوته ، وهم : السلاجقة ثم الزنكيين ثم الأيوبيين[2] .

وإذا كان البعض قد ذهب إلى أن لفظ « سلطان » يرجع إلى أصل فارسي[3] أو أصل سرياني أو آرامي[4] ، فنحن نستطيع أن نؤكد أن هذا اللفظ عربي ، لوروده أكثر من مرة في القرآن الكريم[5] ؛ وقد تتبع المؤرخ بدر الدين العيني ، مرات ذكر هذا اللفظ في القرآن ، فوجد أن الله قد ذكره في القرآن في اثنين وثلاثين موضعًا[6] ؛ وقد ذهب اللغويون في شرح معنى كلمة السلطان ، كما وردت في القرآن بأنها أحيانًا ما تكون في معنى « البرهان » ، ومنها ما يكون في معنى « القدرة » ، وأحيانًا ما تأتي في القرآن بمعنى « الحجة »[7] ؛ وحاول بعض اللغويين ، تفسير إطلاق هذه اللفظة على خليفة المسلمين ، أو من ينوب عنه في مباشرة السلطة السياسية في ديار الإسلام ، فذهب أحدهم إلى أنه إنما قيل للخليفة سلطان لأنه ذو السلطان أي ذو الحجة ، وقيل لأنه به تقام الحجج والحقوق[8] ، وذهب آخر إلى أنه « قيل للأمراء سلاطين ، لأنهم الذين تقام به الحجّة والحقوق »[9] ، وذهب ثالث إلى ان « السلطان إنما سمي سلطانًا ، لأنه حجة الله في أرضه »[10] ، في حين حاول فريق آخر من اللغويين ، تفسير هذه اللفظة تفسيرات مجازية مستمدة من الأوضاع السياسية ، فلاحظ الزبيدي أن « السليط » في اللغة ما يضاء به ، « والسلطان » ، الوالي ، لتنويره الأرض وكثرة الانتفاع به[11] ، في حين ذهب ابن منظور إلى أن « السلاطة » في اللغة القهر ، ومن ثم فإن « السلطان » ، قدرة الملك ، وقدرة من جعل ذلك له[12] .

(١) أنظر حسن الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٣ .

(٢) أنظر أبو المحاسن : النجوم ، ٥: ٢٧٩ .

(٣) أنظر F. Steimgais; A Comprehenaive Persian- Einghih Dictionary .., New impression 1970, p. 693

(٤) أنظر حسن الباشا ، الألقاب ، ص ٣٢٣ .

(٥) أنظر محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألقاب القآن الكريم ، القاهرة ١٣٦٤هـ ، ص ٣٥٤ - ٣٥٥، ويستفاد منه أن لفظه « سلطان » ، قد وردت في القرآن ٣٧ مرة ، وليس ٣٢ مرة كما ذكر البدر العيني .

(٦) أنظر البدر العيني : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر (ططر) ، تحقيق محمد زاهد الكوثري ، القاهرة ، ٢٣ - ٢٤ .

(٧) أنظر ابن دريد: كتاب الإشتقاق ، تحقيق عبد السلام هارون ، نشر الخانجي ، ١٩٥٨ ، ص ١١١ - ١١٢ ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ، " سلط " ، الزبيدي : تاج العروس ٥: ١٥٩ ، مادة " سلط " .

(٨) نقل هذا الرأي الزبيدي : تاج العروس ، ٥: ١٥٩ ، عن الأزهري في كتابه " تهذيب اللغة " .

(٩) هذا رأي ابن منظور ، صاحب لسان العرب .

(١٠) هذا رأي محمد بن يزيد اللغوي ، كما أورده ابن منظور في لسان العرب .

(١١) أنظر الزبيدي : تاج العروس ، ٥: ١٥٩ .

(١٢) أنظر ابن منظور : لسان العرب ، مادة " سلط " .

ونحن نستطيع اعتمادًا على هذه التعريفات اللغوية لكلمة السلطان ، مع مطابقتها على الأوضاع السياسية والشرعية ، والظروف التاريخية التى صاحبت تلقيب السلاطين السنيين به ، أن نقرر أن هذا اللقب ، عمدت دول الخلافة العباسية برضائها ، إلى منحه لأعظم الملوك السنيين المعاصرين لها ، للإشارة إلى أن هذا الملك ، هو السلطان أو الحجة أو البرهان ؛ الذى يعلن عن سلطة الخليفة السياسية وعن وجوده الشرعى ، على أساس أنه بالخليفة أو بحجته الذى هو السلطان ، تقام الحجج والحقوق الشرعية ؛ ولما كان هذا اللقب لا يمنح إلا للأمراء العسكريين من أرباب السيوف ، فقد اقترن مفهوم هذه اللفظة فى اللغة بمعنى القدرة والشدّة والحدّة والسطوة ، وأصبحت تسمية عامة ، لكل من يتولى أمرًا من الأمور أو ولاية من الولايات .

وبالنسبة للأسرة الأيوبية فالجدير بالالتفات حقًا ، ما لاحظه الباحثون المحدثون ، أنه من الثابت تاريخيًا أن صلاح الدين لم يتخذ لقب « سلطان » رسميًا ، وإن كان بعض المؤرخين قد أضفوا عليه هذا اللقب(١) ؛ فى حين ذهب بعض الباحثين المحدثين ، إلى أن صلاح الدين هو الذى أطلق هذا اللقب على نفسه(٢)، وهى ملحوظة هامة يؤيدها التقليد الخليفى لصلاح الدين الذى سبق دراسته(٣) .

وعلى هذا الأساس ، فنحن نستطيع أن نقرر ، أن الملك العادل ، هو أول من حمل لقبى « السلطان » ، و « خليل أمير المؤمنين » ، بصفة رسمية ، من الخليفة العباسى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م ، وعنه توارث جميع سلاطين بنى أيوب هذا اللقب ، حتى نهاية دولتهم ، بل ورثه عنهم سلاطين المماليك بمصر .

أما صلاح الدين ، فقد ورث عنه خلفاؤه لقب « تاج الملوك والسلاطين » ، الذ منحه له الخليفة(٤) ، إذ توارث جميع السلاطين الأيوبيين(٥) ؛ ويرى البعض أنه فى العصر الأيوبى ، أخذ اللقب

---

(١) أنظر سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ١٩٧٠ ص ١٧٥ .

(٢) أنظر : .Ahmed zaki: Coupe Magine, p. 260

(٣) أنظر قبله نفس هذا الفصل ، وعلى هذا الأساس نحن نرفض ما ذهب إليه البدر العينى حين ذهب إلى : " أن لفظة السلطان إنما ظهرت فى دولة بنى أيوب ، أول من ملك منهم هو السلطان صلاح الدين .. ولم يكن أحد قبله يخاطب بالسلطان " ، أنظر العينى : الروض الزاهر ، ص ٢٣ – ٢٤ ، وذلك لأن هذا اللقب قد تلقب به كثيرون قبل صلاح الدين ، سواء بصفة رسمية أو اغتصابًا ، أنظر بعده الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى ، وأغلب الظن أن البدر العينى ، وهو مؤرخ ألف كتابه فى عصر السلطنة المماليكية بمصر ، وارثة السلطنة الأيوبية ، قد حاول أن يبالغ فى أهمية السلطنة الأيوبية ، بالنسبة لتاريخ الخلافة الإسلامية .

(٤) أنظر القلقشندى : مآثر ، ٣: ٨٧ – ٨٨ .

(٥) حسن الباشا : الألقاب ، ص ٢٣٢ .

المضاف إلى « الدنيا والدين » ، يختص بالسلاطين دون غيرهم ، وأن أوّل من تلقب بهذه الألقاب المضافة إلى الدنيا والدين بصفة رسمية من الخلفاء العباسيين ، هو السلطان طغرلبك ، أول سلاطين السلاجقة[1] .

ولاشك فى أن توارث سلاطين بنى أيوب لهذه الألقاب « السلطان » ، و « تاج الملوك والسلاطين » ، قد ميّزهم عن معاصريهم من ملوك الأطراف فى المشرق الإسلامى ، خاصة بعد أن نهضوا بفريضة الجهاد ضد الصليبيين باسم الخليفة العباسى ، وقيامهم بحماية فريضة الحج ، فضلاً عن إحيائهم لدولة الخلافة العباسية[2] ، وقضائهم على الخلافة الفاطمية والكيانات السياسية الشيعية[3] ؛ كما أن فى حملهم للألقاب المضافة إلى « الدنيا والدين » ، إشارة خفية لتفويض الخليفة العباسى لهم لسلطاته الشرعية التى تشمل الدنيا والدين ، لكون الإسلام دين ودولة .

ولقد استلفت نظر بعض الباحثين[4] ، أن سلاطين بنى أيوب ، قد حملوا جميعًا لقبًا مزدوجًا ، هو « السلطان الملك » ، وعللوا هذا االقب المزدوج بإشارة القلقشندى وابن خلدون ، أن الوزير جعفر البرمكى ، هو أوّل من حمله[5] ، وأن وزراء السيوف فى العصر الفاطمى المتأخر ، قد توارثوا لقب « الملك »[6] ، فى حين أطلق على العادل بن سلار - وكان سنى المذهب - لقب سلطان[7] ، كما اتخذ بعض أخوة وزراء السيوف الفاطميين هذا اللقب[8] ، فى حين منح الخليفة الفاطمى العاضد لقب الملك لشيركوه ولصلاح الدين بصفة رسمية .

وعلى هذا الأساس ، فقد ورث الأيوبيون عن وزراء السيوف الفاطميين لقب ملك[9] ، فى حين آل إليهم لقب سلطان عن طريقين :

---

(١) نفس المرجع ، ص ١٥٤ .

(٢) أنظر بعده الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(٣) أنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الفاطمية .

(٤) أنظر : Ahmed zaki: Coupe Magiqne, p. 260-262

(٥) أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ، طبع بولاق ٩: ٤٠٥ ، ابن خلدون : المقدمة ، طبع بولاق ١٢٨٤هـ ، ص ١٩٩ .

(٦) أنظر القلقشندى : صبح ، طبعة دار الكتب المصرية ، ٥: ٤٤٧ - ٤٤٨ ، الخالدى : المقصد - خ ، لوحة ١٩٣ أ - ١٩٣ ب ، القلقشندى : صبح ، ٩: ٣٩٩ - ٤٠٤ .

(٧) أنظر المقريزى : إتعاظ الحنفا ، حسن الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٣ .

(٨) أنظر المقريزى: الخطط، طبعة بولاق، ١: ٤١١، ٤٨٦، رغم أن هذا الأخ لم يكن إلا مجرد واليًا للإسكندرية.

(٩) ماجد : نظم الفاطميين ، ١: ٨٧ .

أولهما السلاطين الزنكيين الذين عمل أباء الأيوبيين فى خدمتهم .

وثانيهما عن وزراء السيوف الفاطميين[١] .

ويفيدنا القلقشندى ، أن الفرق بين « السلطان » ، و « الملك » ، أن الملك أخصّ ، بمعنى أن السلطان قد يكون تابعًا له أكثر من ملك ، بمعنى أن السلطان يعنى ملك الملوك[٢] ، وهو اللقب الذى لقب به الخليفة العباسي الملك العادل سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م ، فخاطبه بـ « شاهنشاه » ، ملك الملوك[٣] .

وثمة بعض الألقاب ، التى منحتها الخلافة العباسية لسلاطين بنى أيوب ، منذ عصر صلاح الدين ، للإشارة إلى قضائهم على الدعوة الفاطمية ، مثل « جامع كلمة الإيمان »[٤] ، « وقامع الخوارج والمتمردين »[٥] ، و « دافع المتمردين فى البلاد »[٦] ، و « دامغ المفسدين فى البلاد »[٧] ، و « ماحى البغي والعناد » ، و « ماحى البغي والفساد »[٨] ، و « مهلك الطغاه والمارقين »[٩] .

كذلك منح سلاطين بنى أيوب ، ألقابًا تمجد دورهم السياسى فى توحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين فى بلاد الشام ، ودورهم الحربى فى التصدى للقوى الصليبية بالشام ، وإلحاق الهزائم بها ، واسترداد بيت المقدس من أيديهم مثل ألقاب : « المجاهد »[١٠] ، « المثاغر »[١١] ، « سيد ملوك المجاهدين »[١٢] ، « مطهر قبور الإسلام والمسلمين من رجس الكافرين »[١٣] ،

---

(١) أنظر : حسن الباشا : الألقاب ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .
(٢) القلقشندى : صبح ، ٩: ٣٩٨ .
(٣) المقريزى : السلوك ، ١: ١٦٨ .
(٤) حسن الباشا : الألقاب ، ص ٥٠٥ - ٥٠٦ .
(٥) أنظر ابن شداد : النوادر ، ١٢٤ - ١٢٦ ، حسن الباشا : الألقاب ،ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .
(٦) أنظر حسن الباشا : الألقاب ، ص ٤٢٥ .
(٧) نفس المرجع ، ص ٢٨٦ .
(٨) نفس المرجع ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .
(٩) نفس المرجع ، ص ٥١٥ .
(١٠) نفس المرجع ، ص ٤٥١ - ٤٠٢ .
(١١) نفس المرجع ، ص ٤٤٩ - ٤٥٠
(١٢) القلقشندى : صبح ، ١٠ : ٩٩ - ١١١ ، نفس المرجع ، ١٩٣ ، ٣٥٠ .
(١٣) حسن الباشا : نفس المرجع ، ص ٤٧٣ .

« قامع عبدة الأوثان »[1]، « قامع عبدة الصلبان »[2]، « حافظ الجمهور »[3] ، « حامى الثغور »[4] ، « سيف الإسلام »[5] ، « سيف الدولة »[6] ، « منقذ بيت المقدس من أيدى الكافرين »[7] .

وأغلب الظن أن بعض هذه الألقاب ، قد منحت رسميًا من الخلافة العباسية ، ووردت في العهود الخليفية لسلاطين بنى أيوب ، والبعض الآخر أطلقه بنو أيوب على أنفسهم ، ولكننا لا نستطيع التمييز بدقة بين كلا النوعين من الألقاب ، لعدم توفر جميع التقاليد الخليفية لسلاطين بنى أيوب[8] .

ومن الألقاب الكثيرة والمتنوعة لسلاطين بنى أيوب ، نُولى اهتمامًا خاصًا بألقابهم التى تدل على اتساع نفوذهم السياسى والدينى علي ديار الإسلام ، لكونهم قد أصبحوا بسيطرتهم على الحرمين الشريفين مكة والمدينة ببلاد الحجاز ، واستردادهم لبيت المقدس من أيدى الصليبيين بالشام ، وحمايتهم لفريضة الحج التى صاحبها بعد استردادهم القدس ، ظاهرة الحج لبيت المقدس ، بعد الحج لمكة وذلك بعد انتهاء موسم الحج[9] ، وأهم هذه الألقاب ولا ريب ، « خادم الحرمين الشريفين »[10] ،

---

(١) نفس المرجع ، ص٤٢٥ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٢٥٣ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٢٥٣ .
(٤) نفس المرجع ، ص٢٥٥ .
(٥) نفس المرجع ، ص٣٤١ .
(٦) نفس المرجع ، ص ٣٤٣ .
(٧) نفس المرجع ، ص ٥١٣ .
(٨) أغلب الظن أن الكتابات الرسمية على النقوش ، كانت تلتزم بالألقاب الرسمية التى منحا الخليفة لسلاطين بنى أيوب ، وفى بعض الأحيان ، كان ديوان الإنشاء المصرى ، يزيد بعض الألقاب التى يؤثرها هؤلاء السلاطين لأنفسهم ويجدونها جديرة بهم ، أو أحيانًا لاستغلالها كوسيلة دعائية إعلامية عن مكانتهم فى العالم الإسلامى ؛ والملاحظ أن هذه الألقاب الفخرية الواردة على النقوش الأثرية للعصر الأيوبى ، الخاصة بمنشآت سلاطين بنى أيوب ، تكاد تطابق الألقاب التى أوردها كتاب ومؤرخو هذا العصر فى الكتب الرسمية التى أهدوها لهؤلاء السلاطين ، أو ألفوها باسمهم ، وذلك فى ديباجة هذه المؤلفات ، أنظر ابن شداد نوادر، ص ٣، س ٩ – ١١ ، ابن مماتى : قوانين ، ص ٥٢ ، س ١ – ٢ ، الشيزرى: المنهج المسلوك ، ص ٣ ، س ٩ – ١١ ، ابن بعره : كشف الأسرار العلمية ، ص ٥٠ ، س ٢٠ ، النابلسى : تجريد سيف.الهمة ، لوحة ٢ ، أ – ب لوحة ٩٢ ب ، س ٦ ، النابلسى : إظهار صنعة الحى القيوم ، ص ٢ ، س ٧ – ٨ ، النابلسى : لمع القوانين ، ص ٣ ، س ٦ – ٩ .
(٩) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .
(١٠) أنظر ابن شداد ، نوادر ، ص ٣ .

و « صاحب الحرمين الشريفين »[١] ، « ومالك الحرمين الشريفين والبيت المقدس »[٢] .

ولا يخفى أن السيادة على الحرمين الشريفين ، تعتبر رمزًا لشمول النفوذ على العالم الإسلامى كله[٣] ، فلا غرو أن أطلق بعض سلاطين الأيوبيين ، على أنفسهم لقب سلطان الإسلام والمسلمين[٤] ، وشجعوا رجال دولتهم على مخاطبتهم بـه[٥] ، بحيث ذاع هذا اللقب فى ديار الإسلام، وطار فى الآفاق، وصار علمًا على سلاطين بنى أيوب ، يلقبهم به العلماء والمفكرون ، حتى من حظى برعاية عظماء ملوك الإسلام ، المزاحمين للدولة الأيوبية فى نفوذها السياسى ؛ وأعنى بهم ملوك الدولة الخوارزمشاهية فى إيران وما وراء النهر وعراق العجم[٦] .

كما دلّت بعض ألقاب سلاطين بنى أيوب على اتساع نفوذهم السياسى ، وامتداد ممتلكات دولتهم ، وأغلبها ذات دلالة حقيقية ، فى حين أن بعضها ، « صاحب ديار مصر وزبيد وعدن واليمن وديار بكر »[٧] ، « ملك الديار المصرية والشامية والأخلاطية »[٨] ، « شاه أرمن »[٩]، « فاتح الطراز الأخضر من بنى الأصفر »[١٠] .

---

(١) أنظر حسن الباشا : الألقاب ، ص ٣٧١ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٤٥ ، والواقع أن لقب حامى حمى الحرمين الشريفين ، كان هو اللقب الذى ورثه الظاهر بيبرس ، عن سلاطين بنى أيوب ، وجعله أحد دعائم زعامته للعالم الإسلامى ، بعد أن ساهم فى هزيمة المغول فى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٨م ، ونقله للخلافة العباسية إلى مصر سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م أنظر ابن أيبك : الدرة الزكية ، ص ٤٩ ، والمقريزى : السلوك ١: ٤٤٧ ، وأنظر دراسة مستفيضة لألقاب بيبرس، فى مقال عبد العزيز مرزوق : جامع الظاهر بيبرس البند قدارى : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث ، مايو ١٩٥٠، ص ٩١ - ١٠٢ ، وقد ورث هذا اللقب عن سلاطين المماليك ، سلاطين العثمانيين ، أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(٣) حسن الباشا ، الألقاب ، ص ٣٦٨ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٣١ - ٣٣٣ .

(٥) أنظر ابن شداد : النوادر ، ص ٣ ، النابلسى : تجريد الهمة ، لوحة ٢ ، أ - ب .

(٦) ألف الإمام فخر الدين الرازى ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م ، الذى عاش فى بلاط الدولة الخوارزمية وحظى عند ملوكها ، كتابه أساس التقديس ، وأهداه للسلطان العادل أبى بكر ابن أيوب ، ولقبه بهذا اللقب ، أنظر أساس التقديس ص ٣ ، س ٣ - ٦ ، وأنظر قبله .

(٧) أنظر حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٣٧٢ .

(٨) أنظر : المقريزى : الخطط ٤: ٢١١-٢١٦ (المدرسة الكاملية) ، وخاصة ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٩) أنظر ، سبط : مرآة ، ٨ : ص ٧١١ ، حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، وأنظر ديوان ابن النبيه ، ص ١٥ ، ص ٢٢ ، ص ٥٦ ، ص ٧٦ .

(١٠) أنظر حسن الباشا المرجع السابق ، ص ٤١٥ .

ونجد أن آخر سلاطين الأيوبيين ، وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، تلقب بـ « شهريار الشام » ، « سلطان العرب والعجم » ، « صاحب الحرمين الشريفين » ، « ملك البرين والبحرين » ، « ملك الهند والسند واليمن » ، « ملك صنعاء وزبيد وعدن » ، سلطان المشارق والمغارب »(١) ، والطريف أن الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أبي بكر ، وجد في سيطرته على أغلب أجزاء الجزيرة الفراتية مسوغًا له لينعت نفسه بـ « سلطان العراق »(٢) وبـ « خسروا إيران »(٣) .

وبالنسبة لألقاب سلاطين بنى أيوب ، التى استقر عليها مصطلح رسوم المكاتبات فى ديوان الإنشاء الأيوبى ، فلقد كان سلاطين بنى أيوب ، يخاطبون بـ « مولانا »(٤) ، و « المجلس »(٥) ، و « المقام العالى »(٦) ، و « الجناب »(٧) ، و « المقر الشريف »(٨) ، فى حين كان جميع أفراد الأسرة المالكة الأيوبية ، يطلق عليهم لقب « الأمير »(٩) .

ونختتم ألقاب الأسرة الأيوبية ، بإيراد النعوت التى نعت بها صلاح الدين نفسه ، قبل أن يستقل بحكم مصر ، حينما كان نائبًا عن نور الدين ، ثم عن ابنه الصالح إسماعيل فى حكم مصر ، والنعوت التى نعت بها صلاح الدين نفسه فى مراسلاته مع الخلافة العباسية ، مثل « المملوك »(١٠) ، و « المولى »(١١) ، و « الخادم »(١٢) ، فى حين كان نور الدين يلقب صلاح الدين «بالاسفهسلار»(١٣) بمعنى مقدم العسكر .

---

(١) أنظر حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٥٠٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٣٦ – ٣٣٧ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٧٥ .

(٤) أنظر القلقشندى : ٦: ٣٠٥ ، ٧: ٨٧ ، ٧: ٨٨ ، حسن الباشا : الألقاب ، ص ٥٢٠ .

(٥) حسن الباشا : المرجع السابق ، ص ٤٥٥ – ٤٥٦ .

(٦) ابن شيث : معالم الكتابة ، ص ٣٦ ، حسن الباشا : نفس المرجع ، ص ٤٨٢ – ٤٨٣ .

(٧) ابن شيث: المصدر السابق ، ص ٣٦ ، القلقشندى : صبح ، ٥: ٤٩٩ ، الباشا : المرجع السابق ، ص ٨٤ ، ٢٤٢ .

(٨) ابن شيث: المصدر السابق ، ص ٣٦ ، الباشا : المرجع السابق ، ص ٨٤ ، ٤٨٩ .

(٩) الباشا : نفس المرجع ، ص ١٨٤ .

(١٠) نفس المرجع ، ص ٥٠٨ – ٥٠٩ .

(١١) نفس المرجع ، ص ٥٠٨ – ٥٠٩ .

(١٢) نفس المرجع ، ص ٢٦٦ – ٢٦٧ .

(١٣) نفس المرجع ، ص ١٥٦ – ١٥٧ .

ولعل من الطريف أن نذكر لقبين ، حملهما بعض ملـوك الأيوبيـين ، كانا لهمـا دلالتـين فريدتـين هما : « بقية الملوك والسلاطين »[1] ، و « شيخ الملوك والسلاطين »[2] .

وإذا كانت الألقاب الرسمية والفخرية ، لسلاطين بنى أيوب ، قـد أوضحت النفوذ السياسى والدينى ، الذى تمتع به سلاطين بنى أيـوب ، وأهميـة السـلطنة الأيوبيـة ، بالنسـبة للعـالم الإسـلامى ، والخلافة العباسية ؛ وإذا كان أغلب هذه الألقـاب ، قـد تتشـابه كمـا أوضحنـا مـع ألقـاب السـلاطين المشارقة السنيين ، الذين قـاموا مـن قبـل بنفـس رسـالة السـلطنة الأيوبيـة فـى تعضيـد الدعـوة السـنية والخلافة العباسية ، وهـم علـى التـوالى سـلاطين الغرنويـين ثـم السـلاجقة ثـم الزنكيـين ؛ فقـد لاحـظ القلقشندى ، أن الخلع والتشاريف الخليفية ، التى منحت لسـلاطين بنـى أيـوب ، تكـاد تطـابق الخلـع والتشاريف التى منحها الخلفاء العباسيين للأمراء والسلاطين ، الذين قاسـموهم السـلطة فـى بغـداد ، مثل أسرتى البويهيين ثم السلاجقة على التوالى ؛ وفـى رأى القلقشـندى ، أن الأيوبيـين ، قـد أصبحـوا من واقع هذه الخلع ، هم سلاطين الإسلام ، وحماة الخلافة العباسية ، شأنهم شأن سلاطين السـلاجقة ، إلا فى كون هؤلاء كانوا قد اتخذوا من بغداد ، مقرًا رسميًا لدار سـلطنتهم ، فـى حـين اتخـذ الأيوبيـون من مصر ، مقرًا لسلطنتهم[3] .

سلطنات إسلامية متعاصرة ، وأسباب تفرد السلطنة الأيوبية بالتفويض الخليفى فى ديار الإسلام :

والجدير بالملاحظة ، أنـه بعـد سـيطرة صـلاح الديـن علـى مصـر ، وممتلكـات الدولتـين النوريـة والفاطمية ، وتوحيده للجبهة الإسلامية بالمشرق الإسلامى لمحاربة الصليبيين ،[4] عـاصر قيـام الدولـة

(١) أفاد القلقشندى ، أن هذا اللقب من ألقاب من له سلف من الملوك ، كصاحب حصن كيفا من الملوك الأيوبية، أنظر القلقشندى : صبح ، ٦: ٤١ .

(٢) أفاد القلقشندى أن هذا اللقب من ألقاب المسنين من الملوك ، قال القلقشندى : هذا اللقب رأيتـه عـن كتـاب عن الملك الكامل محمد بن العادل أبو بكر بن أيوب بعث به نجم الدين أيوب ، والد السلطان صلاح الديـن ، أنظر صبح ، ٦ : ٥٧ .

(٣) أنظر القلقشـندى : مـآثر ، ٢: ٥٩ – ٦٠ ، ٢٣٧ – ٢٤٠ ، صبح ، ٣: ٢٦٩ – ٢٧٢ ، وأنظـر قبلـه ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(٤) لاحظ سبط ابن الجوزى ، أنه فى بدء سنة ٦١٥هـ ، توفى ثلاثة من الملوك الأكابر ، العادل الأيوبـى ، ومحمـد بن تكش " خوارزمشاه " ، وعز الدين كيكاوس ، سلطان سلاجقة الروم (مرآة ، ٨: ٦٠٠) ، وفى هذا مـا يفيد أن أعظم ثلاثة ملوك بالشرق فى مستهل العصر الأيوبى ، كان سلطان سلاجقة الـروم ، وسـلطان الدولـة الأيوبية ، وخوارزمشاه ملك الدولة الخوارزمية ؛ وإلى جانب هؤلاء الملوك الذين وصفوا بـ " الأكابر " ، اشتهر عدد آخر من ملوك الأطراف بديار المشرق الإسلامى ، فيذكر سبط ابن الجوزى أن سنة ٥٨٩هـ ، يقـال لهـا سنة الملوك، مات صلاح الدين، وبكتمرشاه أرمن، وعز الدين صاحب الموصل (مرآة ، ٨: ٤٢١).

الأيوبية بمصر ، ملكان عظيمان من ملوك الأطراف ، ببلاد المشرق الإسلامي ، زاحماه الزعامة السياسية والعسكرية ، وهما : خوارزمشاه ، ملك الدولة الخوارزمية[1] ، التي ورثت ممتلكات السلاجقة في العراق وإيران وما وراء النهر ، وسلطان سلاجقة الروم ، وهم آخر الفروع التي تبقت من الأسرة السلجوقية[2] ، وذلك بعد ان أزال خوارزمشاه محمد بن تكش السلطنة السلجوقية من بغداد سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م[3] وبعد سيطرة أسرة البهلوان على سلاطين سلاجقة العجم[4] ، بحيث لم يتبق من الدولة السلجوقة ، إلا فرع سلاجقة الروم بآسيا الصغرى .

---

(١) أعظم ملوك خوارزم الذين عاصروا صلاح الدين ، هو محمد بن تكش ، ت سنة ٦١٦هـ ، قال ابن واصل : " كانت مملكته من حدّ العراق إلى تركستان من بلاد الترك ، مضافًا إلى غزنه وبعض الهند وسجستان وكرمان وطبرستان وغير ذلك من الممالك ، وبالجملة لم يملك أحد بعد إنقراض الدولة السلجوقية مثله ، غير أن السعادة أدبرت عنه ، وزال بزوال ملكه ملك البلاد الإسلامية في جميع هذه الممالك ، فسبحان من لا يزول ملكه " ، (أنظر مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٤٥ - ٤٦) . ويقصد ابن واصل بزوال ملكه على يد الغارة المغولية ، ولقد عبر المنشيء النسوى ، مؤرخ البيت الخوارزمي ، الذى دخل في خدمة سلاطين بني أيوب بعد زوال الدولة الخوارزمية ، عن اتساع دولة محمد بن تكش بقوله : " بلغ من أمر السلطان الأعظم محمد بن تكش ، وعظم شأنه ، أنه جمع إلى ما أورثه أبوه من خراسان وخوارزم ، ملك العراق ، ومازندران ، وضم إلى هذه الواسطة كرمان ومكران وكيش وسجستان ، وبلاد الغور وغزنة وباميان ، إلى ما يليها من الهند بأغوارها وأنجادها .. وملك على الخطائية وغيرهم من ملوك الترك وما وراء النهر بعد إخافتهم واستئصال شأفتهم ، والجأ المفلتين منهم إلى أقاصي الصين ، .. وخطب له على منابر فارس وإيران وأذربيجان إلى ما يلى دربند شروان ، فتواصلت له فتوح الأقاليم (أنظر النسوى : سيرة جلال الدين منكبرتي ، ص ٣٥ - ٣٧) .

(٢) أنظر عدة إشارات هامة عن أهمية دولة سلاجقة الروم عند الراوندى في راحة الصدور ، ولقد ألف الراوندى هذا الكتاب لسلطان سلاجقة الروم في عصره كيسخروبن قلج أرسلان ، ولقد ناشد الراوندى سلطانه " احياء دولة آل سلجوق " ، و " إحياء مراسم العدل ، بتقريب العلماء وتقوية الإسلام ونصرة الشريعة ، وأن يسلك النهج الذى سلكه السالفون من سلاطين آل سلجوق أنظر راحة الصدور ، ص ٨٣ ، كما ناشده أحياء علوم الدين في آسيا الصغرى ، وأن يحرص على أن تصبح علوم الفقه والكلام ولغة العرب والخط والأدب والشعر الفارسي والعربي متداولة على ألسنتهم في هذه الناحية ، وأن يعمل على أن تكون آثار السلاجقة ومنشآتهم الدينية والاجتماعية سائدة في جميع أرجاء العالم (راحة الصدور ، ص ١٠٤) ؛ هذا إلى جانب إنشاء المدارس السنية بآسيا الصغرى ووقف الأوقاف عليها (راحة الصدور ص ١٤٠) . وفى رأى الراوندى أن اقتداء ملوك سلاجقة الروم في زمانه بالسلاجقة الأوائل سيكون سببًا في تأكيد دينهم ودولتهم وتأسيس قواعد ملكهم وسلطنتهم (راحة الصدور : ص ١١٨ ، س ٢ - ٣) .

(٣) استعان الخليفة العباسي الناصر لدين الله ، بالسلطان محمد بن تكش الخوارزمي ، للقضاء على آخر سلاطين السلاجقة بالعراق سنة ٥٩٠هـ . أنظر النسوى ، سيرة منكبرتي ، ص ٤٩ ، هامش (٤) ، ويبدو أن الخطبة لسلطان خوارزم قد استمرت ببغداد منذ سنة ٥٩٠هـ وزالة عن سلاجقة العراق ، ثم انقطعت سنة ٦١٤هـ ، كما ذكر النسوى ، أنظر سيرة منكبرتي ، ص ٥٢ ، ويبدو أنه كان لخوارزم شاه شحنة ببغداد أيضًا ، شأن السلاجقة ، أنظر النسوى ، سيرة منكبرتي ، ص ٥٣ - ٥٤ ، وأنظر قبله .

(٤) ابن واصل : مفرج ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

ولكن رغم مزاحمة هاتين الدولتين الإسلاميتين العظيمتين ، للدولة الأيوبية ، النفوذ السياسى فى بلاد الشرق الإسلامى ، فلقد استطاع صلاح الدين الأيوبى ، أن يحقق له ولدولته ولخلفائه من بعده ـ مكان الصدارة فى المشرق الإسلامى ، ولقد ساعده على ذلك أسباب عدة إذ توفرت فى شخصيته ولا شك صفات الزعامة ، وأيده تاريخ أسرته المجيد فى جهاد الفرنج بمصر والشام ، إبان خدمتهم لنور الدين زنكى ، فضلاً عن ميراثه لرسالة نور الدين فى توحيد الجبهة الإسلامية ضد الفرنج ، إلى جانب الموقع المتوسط لممتلكاته ، بالشام والجزيرة الفراتية ومصر والحجاز واليمن وبرقة ، إذ تشغل قلب العالم الإسلامى ، وتضم أغلب الأقطار الناطقة بالعربية ، بالإضافة إلى اشتمالها على المقدسات الإسلامية ، فى الأراضى الحجازية .

وفى اعتقادنا ، أن حصول صلاح الدين على تفويض الخليفة العباسى له سلطاته الشرعية فى ديار الإسلام ، سواء فى أرجاء الممتلكات الأيوبية ، أو فيما يستجد للسلطان فتحه من ديار الحرب أو استرداده من البلاد التى اغتصبها الصليبيون ؛ ثم تخويل الخليفة للسلطان ، حق ذكر اسمه بعد اسم الخليفة ، على منابر ممتلكات الدولتين النورية والصلاحية الزائلتين[1] ؛ وخاصة منابر الحرمين الشريفين بمكة والمدينة[2] ، وبيت المقدس بعد استرداد صلاح الدين له من الفرنج سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م[3] ، وأخيرًا بالمسجد الجامع بالقسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية زعيمة العالم المسيحى سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م[4] ؛ قد جعل صلاح الدين فى الواقع نائبًا عن الخليفة العباسى فى جميع أرجاء الدولة الأيوبية ، التى اتسعت ، وبلغ امتدادها من أطراف أرمنية الإسلامية والجزيرة الفراتية شمالاً إلى اليمن وبلاد النوبة جنوبًا ، وامتدت غربًا حتى بلاد القيروان[5] ؛ وما لبث السلطان العادل

---

(١) أنظر قبله ، نفس هذا الفصل دراستنا للتقليد الخليفى لبنى ايوب .

(٢) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى ، وأنظر على الخصوص ، ابن جبير : الرحلة ، ص ٧٢ - ٧٣ ، ٨٠ .

(٣) دعا خطيب صلاح الدين ، على منبر بيت المقدس " للخليفة والسلطان " ، على حد قول العماد الأصفهانى ، أنظر الفتح القسى ، ص ١٤٠ ، س ٢ ، ص ١٣٧ - ١٤٠ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ، ص ١٤٧ س ١٦ - ١٧ ، حيث يقول عن القدس " رفعت الأعلام العباسية على منبره " ،وأنظر أيضًا ص ١٩٨ ، س ٦ - ٢٠ .

(٤) أنظر ابن شداد : النوادر ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ، العماد : الفتح ، ص ٤١٤ ، سبط : مرآة ، ٨: ٤٠٤ ، الذى يقول : " خطب للخليفة والسلطان بقسطنطينية " ، ابن واصل : مفرج ٢: ص ٣٢٨ - ٤٢٩ ، ابن عبد الظاهر : الدر النظيم ، ص ٣٧ - ٤٢ ، المقريزى : السلوك ١: ٩٨ وهامش (١) ، وأنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(٥) أنظر كارل بيكر : دائرة المعارف الإسلامية ، الترجمة العربية ، الطبعة الأولى ، مادة أيوبيين ، أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ، ج ١ ، ص ١٤٢ - ١٥٧ ، ٣٥٠ - ٣٥١ ، وأنظر قبله .

الأول أبى بكر بن أيوب ، أن ربط دولته بدولة الخلافة العباسية ، برباط وثيق ؛ امتزجت فيه دعوة الجهاد ، بروح الصوفية وأخلاق الفتوة والفتيان ، بالأهداف السياسية والمذهبية للخلافة العباسية ، حين بادر بالاستجابة لدعوة الفتوة الخليفية الناصرية فى سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م قبل تفرده بالسلطنة الأيوبية ثم فى سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م ، عقب تربعه على السلطنة الأيوبية ووصول تقليده الخليفى وخلعه الخليفية بسنة واحدة ، مما حدا بجميع ملوك الأطراف المسلمين ، إلى الانضمام إلى دعوة الفتوة الناصرية ، متابعة للسلطان الأيوبى(١) .

ولقد سبق التدليل ، اعتماداً على وثائق العصر الأيوبى ، وعلى الحوادث التاريخية ، أن ممتلكات الدولة الأيوبية الواسعة ، وعلى رأسها مصر ، كانت من الناحية الشرعية النظرية ، ملكاً للخليفة العباسى(٢) ؛ ذلك لأن صلاح الدين كما أكدت رسائله المتبادلة مع الخليفة العباسى ، بغرض إطلاعه على أسرار سياسته الحربية الخارجية ، أو بغرض البشارة بما تم من الفتوح(٣) ، كان يقوم بكل هذه الفتوحات باسم الخلافة العباسية ، ونيابة عنها ؛ وهذا فى الواقع ما منحه حق استنفار ملوك الأطراف المسلمين ، إلى الانضمام إلى جيوشه ، للقيام بفريضة الجهاد ، وفى نفس الوقت ، ألزم هؤلاء الملوك ، ضرورة الاستجابة لاستنفاره لهم(٤) .

ولاشك أن ميراث صلاح الدين لمكانة نور الدين ببلاد المشرق الإسلامى(٥) ، كان من أقوى الركائز التى استند عليها لتأكيد سطوته بين ملوك الشرق ، فكما ورث صلاح الدين ممتلكات نور الدين(٦) ، ومكانته السياسية ، فقد ورث أهدافه البطولية فى استرداد بيت المقدس(٧) ، وورث

---

(١) أنظر ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص ٨٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩ - ١٨٠ ، سبط : مرآة ، ٨: ٥١٣ ، ابن أيبك : الدر ، ص ١٦٥ ، ابن واصل : مفرج ، ٣ : ٢٠٦ - ٢٠٧ ، المقريزى السلوك ، ١: ١٧٢ ، ١: ٢١٨ ، س ٦ - ٧ ، ابن الساعى : الجامع المختصر ، ٩: ٢٣٣ - ٢٣٥ ، وأنظر قبله .

(٢) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

(٣) أنظر قبله ، نفس الفصل السابق .

(٤) أنظر قبله ، نفس الفصل السابق .

(٥) قال سبط ابن الجوزى ، بعد أن عدد الحصون والبلاد التى استردها نور الدين زنكى من الصليبيين بالشام " فتح نيفا وخمسين حصناً .. واتسع ملكه ، ففتح الموصل والجزيرة وديار بكر والشام والعواصم ودمشق وبعلبك وبانياس ومصر واليمن ، وخطب له فى الدنيا " (مرآة ، ٨: ٣٠٥ - ٣٠٦) .

(٦) أنظر قبله .

(٧) قال سبط ابن الجوزى ، نقلاً عن ابن الأثير : " ما كان يرى نور الدين إلا خلاص القدس من الفرنج واستئصالهم من الساحل " ، مرآة ، ٨: ٣٢١ ، س ٤ - ٥ ، وقال فى موضع آخر : كان فى عزمه (نور الدين) ، أن يفتح بيت المقدس ، فعمرّ منبراً وقبلة بجامع حلب على اسم القدس ، فتوفى قبل الفتح ، فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس ، حمل المنبر إليه وأبقى القبلة بجامع حلب ، أنظر مرآة ، ٨: ٣١٣ .

كذلك طموحاته السياسية فى الاستيلاء على ممتلكات سلاجقة الروم فى شمال الجزيرة الفراتية وفى أرمنية الإسلامية ، بل والإطاحة بسلطنتهم التى أقاموها بآسيا الصغرى حتى تنضوى دولتهم تحت لوائه[١] ، فى كيان سياسى وعسكرى موحد .

لهذا لا نعجب من إقدام صلاح الدين ، بعد استقواء دولته على محاربة سلطان سلاجقة الروم فى سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م ، وإرغامه على الدخول فى طاعته[٢] ، ثم توقيع صلحًا مشتركًا يقضى بتعاون السلطانين فى وجه الكيانات الصليبية فى سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م[٣] ، وهو ما تم فى نفس هذه السنة ، حين ساند السلطان صلاح الدين ، سلطان سلاجقة الروم ، إبان صراعه مع مملكة أرمينية المسيحية[٤] ، تلك المملكة المسيحية المتعاطفة مع الحركة الصليبية والتى كان الاستيلاء عليها يمثل إحدى طموحات نور الدين قبيل وفاته[٥] .

ثم ما لبث سلطان سلاجقة الروم ، أن أعلن فى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، بعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى حطين ، دخوله فى طاعة صلاح الدين واتحاده معه[٦] ، وتابعه فى ذلك ، جميع ملوك الأطراف المسلمين ، الذين راسلوا صلاح الدين بعد تمام فتح القدس فى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، يطلبون لأنفسهم منه تقليدًا على بلادهم[٧] ، وكان على رأس هؤلاء الملوك ، آخر ملوك سلاجقة العجم الذين سيطروا على عراق العجم ، وملوك الأراتقة الذين سيطروا على أغلب أقاليم الجزيرة الفراتية[٨] ؛ وفى هذا إقرار رسمى من جميع ملوك المشرق الإسلامى ، بشمول النفوذ السياسى لصلاح الدين على جميع بلاد المشرق الإسلامى على أساس أنه « سلطان » المسلمين ، أى ملك ملوك الإسلام[٩] ؛ فلا غرو أن أصبح لقب « سلطان » يشير إلى صلاح الدين دون غيره ،

(١) عن محاولة نور الدين زنكى ، ضم دولة سلاجقة الروم إليه سنة ٥١٨هـ ، أنظر سبط : مرآة ٨: ٢٣٣ – ٢٣٤ ، ٢٩٤ ، ابن واصل : مفرج ، ١: ٢٣٣ – ٢٣٤ ، ٢: ٩٦ – ٩٨ .

(٢) أنظر العماد : الفتح ، ص ١٨١ ، ص ٢١١ – ٢١٣ ، المقريزى : السلوك ١: ٦٨ – ٦٩ و ١١٢ ، ابن واصل : مفرج ، ٢ : ٧٩ .

(٣) أنظر ابن شاهنشاه : مضمار ، ص ٤٢ ، ابن واصل : مفرج ، ٢: ٩٦ – ١٠٠ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٦: ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) أنظر واصل ، ٢: ٩٦ – ١٠٠ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٦: ٢٧ – ٢٨ .

(٥) أنظر ابن واصل : مفرج ، ١: ٢٣٦ .

(٦) أنظر على الخصوص : العماد : الفتح ، ص ٢١١ – ٢١٣ ، وأنظر قبله .

(٧) أنظر العماد : الفتح ، ص ١٨١ ، وص ٢١١ .

(٨) أنظر العماد : الفتح ، ص ٢١٢ – ٢١٣ ، ص ٥٧٢ – ٥٧٦ .

(٩) أنظر قبله مناقشة المفهوم الاصطلاحى للفظ " سلطان " .

حتى لو ورد فى سياق الحديث أخبار أحد سلاطين السلاجقة المعاصرين له[1] .

وكما اقنع صلاح الدين ملوك الأطراف المسلمين بالانضمام إليه والاعتراف بسلطنته ، وشمول نفوذه السياسى على ممالكهم اثر استرداده لبيت المقدس سنة ٥٨٣هـ ؛ فإن هذا الانتصار الحاسم للسلطان صلاح الدين على القوى الصليبية قد أرغم الإمبراطور البيزنطى الذى عرف بملك القسطنطينية على التخلى عن الحركة الصليبية ، وإرسال سفارة لصلاح الدين لتوقيع صلح معه يقضى بإقامته الخطبة « للدعوة الإسلامية العباسية » فى جامع القسطنطينية باسم السلطان صلاح الدين ، الذى أرسل مع السفير البيزنطى الخطيب والمنبر وجمعًا من المؤذنين[2] ؛ وقد شجعت هذه الخطوة الجريئة من الأمبراطور البيزنطى - زعيم العالم المسيحى الشرقى - ملك مملكة أرمينية المسيحية المعروف بالكيكاوس على مراسلة صلاح الدين بدوره ، وعرض عليه خدماته بخصوص إبلاغه بتحركات الحملات الصليبية[3] .

وفى هذا ما يؤكد أن صلاح الدين قد أصبح بعد انتصاره فى حطين واسترداده بيت المقدس ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سواء فى نظر الخلافة العباسية ، أو فى نظر ملوك الأطراف المسلمين ، أو حتى فى نظر الممالك والدول المسيحية ، ببلاد الشرق ، وهى الأمبراطورية البيزنطية ، ومملكة أرمينية المسيحية .

وإذا كان سلطان سلاجقة الروم ، قد أقرّ للسلطنة الأيوبية بالزعامة على بلاد المشرق الإسلامى ، وأعلن انضمامه رسميًا للدولة الأيوبية فى تحالف سياسى وعسكرى سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م ، فإن هذا فى واقع الأمر قد ضمن للسلطنة الأيوبية زعامة العالم السنى فى ذلك الوقت ، وعلى رأسه الخليفة العباسى ، ذلك لأن الدولة الخوارزمشاهية ، - التى كانت ولا ريب أقوى مملكة إسلامية بالمشرق الإسلامى فى القرن السادس الهجرى ، إذ ضمت بلاد ما وراء النهر إلى حدود

---

(١) أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٤٠١ ، وقد تأكدت سيطرة وزعامة السلطان الأيوبى على جميع ملوك الأطراف ، حين وافت رسل ملوك الأطراف المسلمين ورسل الخليفة العباسى ورسل الفرنج السلطان الكامل محمد بن العادل سنة ٦٢٩هـ ، حين نهض لحرب المغول ، وألبسه رسل الخليفة خلعة السلطنة ، وكان من ضمن رسل ملوك الإسلام ، رسل ملك الهند ورسول صاحب جزيرة الأندلس ، أنظر ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ ، المقريزى السلوك ١: ٢٤٣ .

(٢) أنظر ابن شداد : النوادر ، ١٣٢ - ١٣٣ ، العماد : الفتح ، ص ٤١٤ ، سبط مرآة ، ٨: ٤٠٤ ، ابن واصل : مفرج ، ٢: ٣٢٨ - ٤٢٩ ، ابن عبد الظاهر : الدرّ النظيم ، ص ٣٧ - ٤٢ ، المقريزى : السلوك ، ١: ٩٨ ، وهامش (١) ، وأنظر قبله .

(٣) أنظر ابن شداد : النوادر ، ص ١٢٤ - ١٢٦ .

الصين وبلاد الهند وإيران وعراق العجم والجزيرة الفراتية ـ كانت تعتنق الدعوة الشيعية[١] ، شأن الدولة البويهية من قبل[٢] ، وعلى هذا الأساس فإن ملك خوارزم الشيعي ، لم يكن من ناحية الانتماء العقائدى ، يصلح لتبنى الدعوة العباسية السنية ، التى التف المسلمون حولها بعد سقوط الخلافة الفاطمية الشيعية بمصر على يد الأيوبيين[٣] .

ومع ذلك فقد اعتبر خوارزمشاه نفسه ، وارثًا لسلاطين السلاجقة السنيين ، فى السيطرة على الخلافة العباسية ببغداد ، والخطبة باسمه بعد الخليفة العباسى على منابر العراق ، وذلك بعد أن نجح خوارزمشاه فى سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م ، فى إنهاء الوجود السياسى والعسكرى لسلاطين السلاجقة من العراق[٤] ، وأغلب الظن أن استقواء النفوذ السياسى والعسكرى لخوارزمشاه محمد بن تكش ، وطموحه فى السيطرة على الخلافة العباسية بالعراق ، سيطرة مباشرة لقربها من دولته ، هو الذى

---

(١) إن غلبة دعوة الشيعة المعتزلة على بلاد خوارزم ، قد تم فى اعتقادنا منذ أيام الدولة الخوارزمية الأولى ، التى كانت تعرف بالدولة المأمونية ، وهذا هو السبب فى الواقع فى عداء السلطان محمود الغزنوى ، أول السلاطين السنيين ، للدولة الخوارزمية الأولى وإبادته لها ، وعلى هذا الأساس يكون دخول الدعوة الشيعية إلى خوارزم ، قد تم على الأقل فى مطلع القرن الخامس الهجرى ، إذ ألف القاضى عبد الجبار الهمدانى ت ٤١٥هـ / ١٠٢٤م ، أهم كتب الدعوة الاعتزالية ، وهو كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، لخوارزمشاه مأمون بن مأمون الذى تولى سنة ٣٩٠هـ ، وتوفى سنة ٤٠٧هـ . أنظر القاضى عبد الجبار : فضل الاعتزال ، تحقيق فؤاد سيد ، تونس ١٩٧٤م ، ص ١٣٧ وهامش (١) . وقد بقيت دعوة الاعتزال قوية فى خوارزم حتى بعد إبادة السلطان محمود الغزنوى للدولة الخوارزمية الأولى ، حين أرسل المعتزلة إلى خوارزم أحد كبار دعاتها وهو أستاذ المفسر الشهير الزمخشرى ، صاحب التفسير المسمى بالكشاف ، وعنه أخذ الزمخشرى دعوة الاعتزال (أنظر زهدى : جار الله : المعتزلة ، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ، ص ٢١٧ – ٢١٨) ، وقد صرح الزمخشرى فى ديباجة تفسيره الكشاف أنه أملاه فى مكة ، بعد أن ألح عليه أصحابه من المعتزلة أهل العدل والتوحيد فى خوارزم فى تأليفه . بمعنى أن الاعتزال ظل قويًا فى خوارزم طوال القرن السادس الهجرى فى عهد الدولة الخوارزمية الثانية ، وهذا ما دعى إلى إقدام الإمام فخر الدين الرازى ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م أشهر علماء الدعوة الأشعرية السنية فى عصره ، على إهداء كتابه أساس التقديس ، للسلطان العادل الأيوبى ، رغم أنه كان من أصدقاء خوارزمشاه والمقربين إلى بلاطه والمقيمين فى دولته ، وقد لمح الفخر الرازى إلى هذا السبب فى ديباجة كتابه أساس التقديس ، أنظر قبله الفصل الخاص بإعادة الشعائر السنية إلى مصر ، ونشر الدعوة الأشعرية بها .

(٢) أنظر قبله .

(٣) أنظر قبله .

(٤) أنظر المنشىء النسوى : سيرة جلالة الدين منكبرتى ، ص ٤٩ هامش (٤) ، ص ٥٠ – ٥٣ ، ص ٦٤ ، ص ٢٠٧ .

وقف حائلاً دون تمتع صلاح الدين رسميًا بلقب « سلطان » حتى وفاته[1] سنة ٥٩٨هـ / ١٤٠١م ؛ ويبدو أن الخطبة لخوارزمشاه استمرت ببغداد منذ سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م ، وراثة عن سلاجقة العراق ، ثم انقطعت سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م[2] .

ورغم تشيع الدولة الخوارزمشاهية ، ورغم الدلالة السنية للقب « السلطان » ، فإن ملوك الدولة الخوارزمشاهية ، الذين عاصروا سلاطين بني أيوب ، قد حاولوا إرغام الخلافة العباسية وملوك الأطراف المسلمين على مخاطبتهم بلقب « سلطان » ، الذى خوطب به ملوك بنى أيوب منذ عصر السلطان العادل الأول سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م[3] ، ولكن الخلافة العباسية أبت عليهم هذا اللقب ، أغلب الظن لتشيعهم ، ومن ثمّ رفض ملوك المسلمين ، تلقيب ملك الدولة الخوارزمية بلقب « سلطان »[4] ، الذى صار علمًا على ملوك بنى أيوب .

وكان تشيع خوارزمشاه محمد بن تكش ، واستهانته بالخلافة العباسية ، ودعوتها السنية هو الذى زيّن له - فى رأينا - فكرة الاستيلاء على العراق ، والسيطرة على الخلافة العباسية سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م[5] ، وإقامة سلطنة استبدادية شيعية ، تحجر على خلفاء بنى العباس[6] كما فعل أمراء بنى بويه ، الشيعة من قبل بعد سيطرتهم على بغداد ، فى حين ظل سلاطين الأيوبيين وسلاجقة الروم ، وكلاهما من أهل السنة ، على ولائهم التقليدى المتوارث نحو الخلافة العباسية .

---

(١) أنظر قبله .

(٢) أنظر النسوى : سيرة منكبرتى ، ص ٥٢ ، وص ٣ .

(٣) أنظر قبله ، نفس هذا الفصل .

(٤) يقول النسوى : كان جلال لادين يكتب إلى الخليفة ... والوحشة قائمة ، حذوا على منوال أبيه (خادمه المطواع منكبرتى بن السلطان سنجر) ، ولما خلعت علي خلعت السلطنة .. سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، كتب إليه - أى إلى الخليفة - (عبيدة) والخطاب (سيدنا ومولانا أمير المؤمنين وإمام المسلمين وخليفة رسول رب العالمين ، وإمام المشارق والمغارب) ، وكان جلال الدين يكتب إلى علاء الدين كيقباذ - سلطان سلاجقة الروم - وملوك مصر والشام اجمع - بنى أيوب - اسمه واسم أبيه منعوتًا بالسلطان ولم يكتب شيئًا مما جرت به العادة من خادمه أو محبه أو أخيه ... ، وقد خاطبوه من الخليفة ... بـ (الجناب الرفيع الخاقانى) ؛ ولم يزل يقترح عليهم خطابه بـ " السلطان " فلم يجب إلى ذلك ، إذ لم تجر العادة به ، مع من تقدمه من كبار الملوك ، فلما كثر إلحاحه ، خاطبوه حين حملت إليه خلع السلطنة ، بـ (الجناب العالى الشاهنشاه) ، (أنظر سيرة منكبرتى ، ص ٣٨٤ - ٣٨٥) .

(٥) أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٤٧٢ .

(٦) يقول ابن واصل : " حدّثته نفسه بقصد العراق وتملكه وتصيير الخليفة تحت حكمه ، كما كان الأمر فى استيلاء السلجوقية وبنى بويه قبلهم على الخلفاء ، (مفرج ٤: ٣٥) .

وحين كاتب خوارزمشاه الخلافة العباسية بأنه : يطلب ما كان لبنى سلجوق من الحكم والملك ببغداد ، وترددت الرسل فى ذلك مرارًا ، فلم تجب إلى مراده لعلم الخلافة بمشاغل خوارزمشاه فى حروب مع الترك المغول ، بعد أن أوضح رسل الخلافة له ، أن تحكم بنى سلجوق فى بغداد ، اقتضته الظروف السياسية والمذهبية الحرجة التى صاحبت فتن البسا سيرى القائد والداعية الفاطمى حين تغلب على بغداد سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م وخطب بها للخليفة الفاطمى : وإلا فليس يحتم أن يكون مع الزمان على أكتاف الخلافة ، متحكم يأمر فيها ، وينهى كيف شاء[١] ، على حد قول سفراء الخلافة العباسية .

ومع ذلك فقد قام خوارزمشاه بمحاولتين عسكريتين للسيطرة على بغداد والحجر على الخليفة العباسى ، أولهما سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م[٢] ، حين أعاقه سقوط الثلج فظن أن هذا من كرامات البيت العباسى ، وخاطبه بعض خواصه بأن « ذلك غضب من الله ، حيث قصدت بيت الخلافة »[٣] ، فأبدى خوارزمشاه الندم عن مهاجمته عاصمة الخلافة [٤]؛ إلا أن هذا لم يحل دون قيام ابنه جلال الدين منكبرتى ، آخر ملوك خوارزم بمحاولة أخرى لقصد بغداد والحجر على الخليفة العباسى ، وذلك فى سنة ٦٢٢هـ ، وكاتب الملك المعظم عيسى الأيوبى صاحب بلاد الشام والجزيرة الفراتية ليشترك معه فى هذه الحملة على بغداد إلا أنه اعتذر له قائلاً : « أنا معك على كل حدّ ، إلا الخليفة ، فإنه إمام المسلمين »[٥] .

وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن تشيع ملوك الدولة الخوارزمشاهية[٦] ، واستهانتهم بالدعوة العباسية والخليفة العباسى ، ومحاولتهم الحجر عليه والسيطرة على بغداد وإقامة حكم عسكرى استبدادى بها ، قد حال دون اعتراف الخليفة العباسى وملوك الأطراف باتخاذ ملوك خوارزم للقب سلطان ، الذى أصبح علمًا على سلاطين بنى أيوب ، حماة الخلافة العباسية ، والدعوة السنية .

---

(١) النسوى : سيرة منكبرتى ، ص ٥٠ .
(٢) أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٥٨٢ ، أبو المحاسن : النجوم ، ٦: ٢٦٩ - ٢٢٠ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩٨ .
(٤) أنظر نص هام أورده النسوى فى هذا المعنى : سيرة منكبرتى ، ص ٦٤ .
(٥) سبط : مرآة ، ٨: ٦٣٤ .
(٦) يعتقد د. أحمد السعيد سليمان أن ملوك خوارزم اعتنقوا التشيع ابتداء من سنة ٦١٤هـ ، وهذا الذى دفعهم لقصد بغداد أنظر : تاريخ الدول الإسلامية ، ٢: ٣٧٥ ، ولكننا أوضحنا أن دعوة الشيعة المعتزلة انتشرت فى خوارزم من القرن الخامس الهجرى ، أنظر قبله .

أصبحت السلطنة الأيوبية إذا ، منذ عهد صلاح الدين ، وطوال عصور خلفائه ، هي الممثلة للخلافة العباسية ، والمفوّضة من قبلها ، والمتحدثة باسمها ، والمنفذة لسياستها ، سواء على المجال الإسلامي أو العالمي على حدّ سواء ؛ ولقد أملى هذا الولاء للخلافة العباسية ، والتبعية لدعوة خلفاء بني العباس ، على الدولة الأيوبية منذ قيامها ، موقفًا معاديًا تجاه الخلافة الموحدية بالمغرب ، التي كان قد أعلن قيامها بنو عبد المؤمن ، مظهرين بذلك استقلال خلافتهم عن الخلافة العباسية ، وعللوا هذا المسلك ، بأنهم قد احتسبوا على خلفاء بني العباس بعض المنكرات[1] ؛ وقد أقرّ فقهاء الإسلام الأمر الواقع ، واعترفوا بشرعية قيام الخلافة الموحدية بالمغرب ، وبنوا تخريجهم الفقهي هذا ، الذي ينافي رأى أغلب الفقهاء في عدم شرعية تعدد الخلافة في دار الإسلام ، على أساس وقوع ممتلكات الخلافة الموحدية بالمغرب والأندلس ، في بقعة بعيدة عن نظر الخليفة العباسي ، الذي يمثل بيته ، أقدم خلافة إسلامية قائمة في ديار الإسلام ، وتداخل بلاد المغرب والأندلس ، مع بلاد ديار الحرب ، ووجود بعض رعاياها المسلمين في الجزائر الواقعة فيما وراء دار الحرب ، الأمر الذي جعل الخليفة الموحدي المباشر الفعلي لمصالحهم[2] .

ولكن رغم هذا التخريج الفقي لشرعية الخلافة الموحدية بالمغرب ، فإن خلفاء بني عبد المؤمن ، كانوا من الناحية الفعلية والشرعية ، سلاطين عسكريين ، لعدم توفر شروط الخلافة فيهم ، لأنهم ليسوا من قريش ، فهم إذًا سلاطين حملوا لقب الخلافة ، شأن الخلفاء العثمانيين الأتراك في القرن العاشر الهجرى / ١٦م[3] .

ويبدو أن الدعوة المؤمنية الموحدية ، قد تميزت بنوع من التشدّد ، إذ نظرت إلى دعوتها على أنها هي الدعوة الإسلامية الحقة ، في حين أن باقي ديار الإسلام ، قد تابع في دعواته المذهبية آراء الفرق الكلامية ؛ فنجد الراحلة المغربي ابن جبير ، وهو في أغلب الظن أحد كبار الدعوة المؤمنية الموحدية ، يقرّر بعد مشاهدته لتعدد الفرق الإسلامية ، والميول السياسية في بلاد المشرق الإسلامي أنه « لا إسلام إلا ببلاد المغرب ! » « ولا عدل ولا حق ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين » ؛ وهو يصف خلفائهم بأنهم « آخر أئمة العدل في الزمان ، وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان على

---

(١) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسي والشرعي ، وأنظر الآن سبط : مرآة ، ٨: ١٥١ و ٢٤٥ - ٢٤٦ ، ٣٧٤ - ٣٧٥ ، ٤٤٦ - ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٢) أنظر الجويني : غياث الأمم، ص ١٢٨ - ١٣٠ .

(٣) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسي والشرعي .

غير الطريقة » ؛ والطريف أنه استثنى عن حكمه التعسفى هذا السلطان صلاح الدين بقوله : « اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين »[1] .

وإذا كان الأيوبيون قد استطاعوا بعد جهود دامت حوالى خمسة عشر عامًا (من ٥٦٨هـ / ١١٧٢م - ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) ، إعادة الخطبة للخليفة العباسي على منابر القيروان ، بعد انتزاعها من يد الخليفة ابن عبد المؤمن الموحدى[2] ، فإن هذا قد سبب ولا ريب عداءًا حربيًا وتناحرًا سياسيًا بين الدولتين الأيوبية والموحدية ؛ غير أن ظروف الوجود الصليبى ببلاد الشام ، ونهوض الدولتين بفريضة الجهاد ، الأيوبيين ضد الصليبيين بالشام ، والموحدين ضد حركة الاسترداد المسيحى بالمغرب والأندلس ، قد دفع بعاهلى الدولتين إلى محاولة التقارب ، بغرض التعاون العسكرى ضد الخطر الصليبى ، الذى أضحى خطرًا مشتركًا ، يهدد ديار الإسلام ، من الشرق والغرب على السواء .

فتراسل صلاح الدين مع الخليفة الموحدى المنصور أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن على مدى سنتين ، بعد تمام فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، إذ استمرت هذه المراسلات من سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م إلى سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م ؛ ولدينا نصوص لبعض هذه المكاتبات التى أرسلها صلاح الدين بإنشاء القاضى الفاضل ، وفيها يعرض صلاح الدين على الخليفة الموحدى أسرار سياسته الحربية تجاه القوى الصليبية ، ويناشده عقد حلف بحرى بينهما ، يقضى بإمداد الخليفة الموحدى لصلاح الدين بالأساطيل البحرية ، حتى يتسنى له عزل الصليبيين فى ساحل الشام ، وقطع الإمدادات البحرية المرسلة إليهم من وراء البحر من قبل ملوك أوربا والبابوية ؛ وقد أفصح صلاح الدين للخليفة الموحدى فى هذه المراسلات ، إلى أنه يصبو إلى فتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ؛ وقد بالغت المراسلات الفاضلية على إسباغ الألقاب على الخليفة الموحدى ،

---

(١) أنظر ابن جبير : الرحلة ، ص ٥٥ - ٥٦ ، ٥٦ - ٥٧ ، وهما نصان هامان فراجعهما بتمامهما ، والغريب حقًا أن ابن جبير ، حاول أن يقنع قارئ رحلته ، بانتشار الدعوة الموحدية المؤمنية بمصر وفى بلاد الحجاز ، وبوجود أنصار لها يراسلون الخليفة الموحدة بالمغرب ، ويلحون عليه فى المجيء إلى المشرق الإسلامى ، لإزالة ما فيه من منكرات ، بل ويجاهرون فى إعلان ولاءهم للخليفة الموحدى ؛ بل ذهب ابن جبير إلى القول بأنه قد نما إلى علمه أن بعض علماء مصر والإسكندرية وفقهائها وزعمائها ، قد حبّر خطبًا أعدها للقيام بين يدى الأمير الموحدى ، وذلك بعد فتحه لمصر ، ولقبه بـ " سيدنا أمير المؤمنين » !؟

(٢) أنظر قبله ، الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية .

وتمجيد الدعوة الموحدية[1] ، ثم أيد صلاح الدين هذه المكاتبات الرسمية بسفارة دبلوماسية قام بها الأمير شمس الدين ابن منقذ إلى بلاط الخليفة الموحدى فى سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م[2] ؛ إلا أن كل هذه الدبلوماسية ، لعقد التحالف البحرى بين السلطان الأيوبى والخليفة الموحدى قد باءت بالفشل ، إذ عزّ على الخليفة الموحدى ، أن صلاح الدين ، لم يخاطبه فى هذه المراسلات بـ « أمير المؤمنين » ، وهو اللقب المحبب والمميز لخلفاء المسلمين .

لم تستطيع السلطنات الأربع ، التى تعاصرت فى ديار الإسلام فى القرنين السادس والسابع الهجرى (١٢ - ١٣م) ، الأيوبية ، وسلاجقة الروم ، والخوارزمشاهية ، والموحدية ، اتخاذ سياسة موحدة وخطة عسكرية مشتركة ، ضد الأخطار الخارجية ، التى راحت تتهدد العالم الإسلامى شرقًا وغربًا ؛ إذ أدّى التنافس السياسى والاختلاف المذهبى ، والطموحات الشخصية ، إلى تناحر هذه السلطنات الأربع المتعاصرة فيما بينها ، مما تمخض فيما بعد عن اجتياح المغول للشرق الإسلامى ، وإسقاطهم للخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ؛ فى حين استطاعت بقايا الصليبيين بالشام ، البقاء بالساحل ، فى شريط جغرافى ضيق ، يحيط به الكيانات الإسلامية من كل جانب !؟ ؛ أما فى بلاد المغرب الإسلامى ، فقد استطاعت حركة الاسترداد المسيحى بالأندلس ، إنهاء الحكم الإسلامى ببلاد الأندلس ، بل وتهديد سواحل بلاد المغرب العربى .

ورغم أن الخلافة العباسية فى طورها الأخير ، قد بذلت جهودًا دبلوماسية كبيرة ، فى سبيل جمع ملوك الأطراف حولها للتصدى للخطرين المغول والصليبى[3] ، إلا أن الانقسام المذهبى الذى ألم بالعالم الإسلامى ، أدّى إلى تفاوت ملوك الأطراف فى ولائهم وطاعتهم للخلافة العباسية ، ففى حين ظل سلاطين بنى أيوب ، وسلاطين سلاجقة الروم على ولائهم للخليفة العباسى ؛ فإن الدولة الخوارزمشاهية الشيعية ، لم تظهر مثل هذا الولاء ، رغم اعترافها بتبعيتها للخلافة العباسية ؛ فى حين

---

(١) أنظر هذا الخطاب القلقشندى : صبح ، ٦: ٥٢٦ - ٥٣٠ ، أبو شامة : الروضتين ٢: ١٧١ - ١٧٣ ، وأنظر رسالة أرسلها القاضى الفاضل للسلطان صلاح الدين بخصوص الخليفة الموحدى عند أبى شامة : الروضتين، ٢: ١٧٤ - ١٧٦ وأنظر: gaudefrey-Demombynes, M: "une lettre de saladin au Calife Almohade" Mil. R. Basset II, 1925, pp. 279 - 304.

(٢) عن هذه السفارة أنظر سبط : مرآة ، ٨: ٤٦٧ ، ابن واصل : مفرج ، ٢: ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٣) أنظر قبله الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى .

أعلنت الدولة الموحدية استقلالها بخلافة خاصة بها ، متوارثة فى بنى عبد المؤمن ، تتبنى دعوة إصلاحية سلفية مغايرة للدعوة العباسية ، الأمر الذى حال دون اتخاذ العالم الإسلامى ، لسياسة وخطة موحدة لجهاد هذه الأخطار الخارجية ، التى تهدّدته من جهة ديار الحرب .

الوضع الشرعى للسلطنة الأيوبية :

ولما كان منصب الخلافة ، هو الخاص بحماية أمور الدين والدنيا فى النظم الإسلامية لكون الإسلام دين ودولة ، فلقد استتبع هذا الوضع الشرعى الجديد لديار الإسلام ، بعد تفويض الخليفة مختارًا لصلاحيات ومسئوليات منصبه للسلاطين السنيين ، دراسات فقهية مستفيضة ، قام بها مفكروا الدعوة الأشعرية السنية ، التى قام مفكروها بالتوجيه الفكرى والسياسى للعالم الإسلامى كله منذ منتصف القرن الخامس الهجرى[١] .

وأهم ما يستلفتنا فى الفكر السياسى لمفكرى ودعاة الدعوة الأشعرية ، أنه يناقد تمامًا الفكر السياسى للدعوة الإسماعيلية والفرع الفاطمى منها بصفة خاصة ، كما أنه يناقض جميع النظريات السياسية لمفكرى دعاة المذاهب الشيعية المختلفة بصفة عامة[٢] ؛ وإن ظل الفكر السياسى للأشاعرة ، فى جوهره مطابقًا للفكر السياسى السنى ، كما عرضته كتب الأحكام السلطانية لفقهاء أهل السنة فى القرنين الثالث والرابع للهجرة[٣] ؛ ولم يضف فقهاء الدعوة الأشعرية على الفكر السياسى لأهل السنة إلا بعض الاجتهادات والتخريجات الفقهية أملتها الأوضاع السياسية والشرعية للعالم الإسلامى فى القرنين السادس والسابع الهجرى ، وكانت أهم هذه الاجتهادات لمفكرى الدعوة الأشعرية هى الخاصة بوظيفة « السلطنة » .

ويعد كل من إمام الحرمين الجوينى[٤] ، وتلميذه أبى حامد الغزالى[٥] ، أول من صاغا الفكر السياسى للدعوة الأشعرية ، اعتمادًا على الآراء التى كان قد أبداها من قبل الإمام أبى الحسن الأشعرى مؤسس الدعوة ، ثم أبى بكر الباقلانى أضخم مفكريها بعد الأشعرى ؛ والواقع أن جميع من ألف فى الفكر السياسى فى العصر الأيوبى وعلى رأسهم عبد الرحمن الشيزرى[٦] ،

---

(١) أنظر قبله الفصل الخاص بنشر الدعوة الأشعرية .

(٢) عن تناقض جوهر النظرية السياسية الشيعية مع النظرية السياسية لأهل السنة ، أنظر قبله الفصل الخاص بالقضاء على الدعوة الإسماعيلية .

(٣) أنظر الجزء الثانى من كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، تحت الطبع إن شاء الله تعالى ، عند دراستنا للمؤلفات الخاصة بالأحكام السلطانية والسياسية الشرعية .

(٤) عنهما أنظر قبله الفصل الخاص بالدعوة الأشعرية .

(٥) نفس المرجع عاليه .

(٦) عنهم أنظر الجزء الثانى من كتابنا مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى، تحت الطبع إن شاء الله تعالى .

وابن طلحة الدمشقي[1] ، وخضر بن أبي بكر[2] أو في العصر المماليكي وعلى رأسهم ابـن جماعـة[3] ، قاموا ـ وخاصة في الفصول التـى عقدوهـا لمناقشـة الوضـع الشـرعى لمنصـب « الخلافـة » ، ولمنصـب « السلطنة » ـ بتلخيص آراء الجويني والغزالى في هاتين المسألتين .

لقد رفض الجويني رأى فرق الشيعة ، التي ذهبت إلى القول بأن النبى صلـى الله عليـه وسـلم ، قد نص على ولاية على ابن أبي طالب للخلافة من بعده ، وهو ما عـرف عنـد الشـيعة بـ« النـص » ، أو « التنصيص »[4] ؛ كما رفض آراء جميع الفرق الإسلامية التي قالت بمبـدأ النـص حتـى مـن خـالف منهم الشيعة العلويين ، وذهب إلى القول بأن النبى ، قد نـص علـى أبـى بكـر الصديـق[5] ؛ بـل رفـض الجوينـى ، رأى الفرقـة العباسـية التـى ادعـت أن النبـى قـد نـص علـى ولايـة عمـه العبـاس للخلافـة من بعده[6] .

وأقام الجوينى حجته على بطلان مذاهب أصحاب النصوص على أساس نقده لأسانيد الأحاديث النبوية التي استندت عليها الفرق الإسلامية ، التى اعتنقت مبدأ « النـص »[7] ، وعلـى أسـاس شـرحه للأحاديث النبوية التي أوّلها الشيعة للتدليل علـى أنـه تشـير إلى حـق علـى وابنائـه فـى مـيراث النبـوة والخلافة[8] ؛ وفى رأى الجويني أن يوم السقيفة أى اجتمـا ع المسـلمين فـى سـقيفة بنـى ساعده لمبايعـة أبى بكر ، وما حدث من تناقش المهاجرين والأنصار علـى منصـب الخلافـة ، يؤكـد عـدم وجـود نـص عن النبى ، يحدد فيه خليفته ؛ ومن ثم فيوم السقيفة عند الجوينـى ، دليـل قـاطع علـى بطـلان مذاهـب أصحاب النصوص[9] ، أما الحجة الدامغة فى رأيـه فهـو أن هـذا الخـبر العظيـم الخـاص بمـيراث النبـوة لا يمكن أن يخفى على عامة المسلمين وتنفرد به بعض الفرق الإسلامية[10] .

---

(١) نفس المرجع عاليه .

(٢) نفس المرجع عاليه .

(٣) نفس المرجع عاليه .

(٤) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٩ ، وأنظر الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقـاد ، ص ١١٧ وأنظر قبلـه نقـلاً عن فضائح الباطنية للغزالى ، أنظر الفصل الخاص بنشر الدعوة الأشعرية .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢١ .

(٦) نفس المصدر ، ص٢١ .

(٧) نفس المصدر ، ص٢٢ .

(٨) نفس المصدر ، ص ٢٨ – ٣٢ .

(٩) نفس المصدر ، ص٢٥ – ٢٧ .

(١٠) نفس المصدر ، ص ٢٤ – ٢٥ .

فالإمامة في رأى الجويني ، تثبت بالاختيار من أهل الحل والعقد لعدم وجود نص[1] ، وخاصة لو أجمع أهل الحل والعقد على هذا الاختيار، لقول النبى لا تجتمع أمتي على ضلالة[2]؛ ولابد من توافر شروط الإمامة فيمن يقوم بها ، وهي الشروط التي حددها فقهاء أهل السنة من قبل سواء الخاصة بسلامة الحواس[3] أو فيما يتعلق بسلامة الأعضاء[4] ، أو ما يرتبط بالصفات اللازمة مثل النسب القرشي والذكورة والحرية والعقل والبلوغ[5]، أو فيما يتعلق بالفضائل المكتسبة مثل العلم والورع[6].

فالفكر السياسي الأشعرى إذًا كما عرضه الجويني والغزالى ، يطابق الفكر السياسي السني ، ويناقض الفكر السياسي الشيعي ؛ وهذا ما دعا كل من الجويني[7] والغزالى[8] إلى توجيه عناية خاصة لدحض نظرية « عصمة الائمة » ، التي اعتنقتها فرق الشيعة .

وإذا كانت الأمة الإسلامية ، مجمعة على أن نصب « الإمام » ، واجب شرعًا ، بمعنى أن وجوب نصب الخليفة مستفاد من الشرع المنقول وليس من قضايا العقول[9] ، وذلك لكون الخليفة هو زعيم المسلمين وراعى شئون دينهم ودنياهم ، والقائم على إقامة الدعوة الإسلامية[10] ؛ ومع تأكيد الجويني لهذه الحقائق الشرعية التي قررها فقهاء أهل السنة من قبل ، فقد عني بالرد على الشيعة ودحض معتقدهم في « النص » لقولهم بأن الإمامة موكولة إلى الله وليست إلى اختيار الرعية ؛ كما رفض الجويني أيضًا قول الشيعة بعدم إمكان خلو الزمان من إمام قائم ، ولقد علل الجويني رفضه على أساس أن الزمان يخلو من الأنبياء « فإذا جاز خلو الزمان عن نبي ـ وهو معتصم دين الأمة ـ فلا بعد في خلوه عن الأئمة »[11] .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٤ ، ص ٤٣ ، وعن شروط أهل الحل والعقد وظروف عقد البيعة أنظر الجويني : نفس المصدر ، ص ٤٦ – ٥٧ ، ويقول الجويني في غياث الأمم ص ١٩ " لو ثبت النص من الشارع على الإمام ، لم يشك مسلم في وجوب الاتباع على الإجماع ، فإن بذل السمع والطاعة للنبي واجب باتفاق الجماعة ، وإن لم يصح النص ، فاختيارمن هو من أهل الحل والعقد كاف في النصب والإقامة وعقد الإمامة " .

(٢) الجويني : نفس المصدر ، ص ٣٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٠ – ٦١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٦١ – ٦٢ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٦٢ – ٦٥ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٦٥ – ٦٩ .

(٧) نفس المصدر ، ص ٧٠ – ٧٤ .

(٨) أنظر الغزالى : الاقتصاد في الاعتقاد ص ١١٧ ، وأنظر قبله نقلاً عن فضائح الباطنية للغزالى ، أنظر الفصل الخاص بنشر الدعوة الأشعرية .

(٩) أنظر الجويني : غياث الأمم ، ص ١٥ – ١٧ .

(١٠) يقول الجويني : " الإمامة رياسة تامة ، وزعامة عامة ، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا ، متضمنها حفظ الحوزة ورعاية الرعية ، وإقامة الدعوة بالحجة والسيف والانتصاف للمظلومين من الظالمين ، واستيفاء الحقوق من الممتنعين وإيفاؤها على المستحقين ، أنظر غياث الأمم ، ص ١٥ .

(١١) أنظر الجويني : غياث الأمم ، ص ١٧ – ١٨ .

وإذا كان الفكر السياسي الأشعرى ، يرى منع نصب إمامين في وقت واحد ، لما في ذلك من انقسام للأمة الإسلامية[1] ؛ فقدأجاز نصب إمام في القطر الذى لا يبلغه نظر الإمام ، خاصة إذا كان هذا القطر متداخلاً مع ديار الحرب ، أو تفصله عن ديار الإسلام بعض أقطار ديار الحرب[2] ؛ وفي هذا التخريج الفقهي ما ينسحب كما أسلفنا على الخلافة الموحدية التي أعلن بنو عبد المؤمن قيامها بالمغرب الأقصى ، وباشرت أحوال المسلمين في بلاد الأندلس ، إبان حركة الاسترداد المسيحى[3] .

ولما كان الهدف السياسي للدعوة الأشعرية ، جمع شمل المسلمين حول خلافة واحدة ، متناسقًا مع الهدف العقائدى لهذه الدعوة الساعى لجمع شمل المسلمين في مذهب كلامى وعقائدى واحد[4]؛ فلقد قال الأشاعرة بمبدأ جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، على أساس أن التسليم بإمامة المفضول الذى تمت له البيعة يحسم الفتنة ، وعلى أساس أن المفضول في أغلب شروط الإمامة ، قد يكون أفضل من غيره في أمور الحرب التي قد تملى ظروف ديار الإسلام أهميتها عن بقية شروط الإمامة مثل العلم والورع وغير ذلك ؛ وأن تحفظ الأشاعرة ، فقالوا أنه لو أمكن إقامة الأفضل دون إشعال فتنة ، لكان هو الأصلح للمسلمين[5] .

ولقد قسم الجوينى نظر الإمام في أصل الدين إلى قسمين : الأوّل حفظ الدين بأقصى الوسع على المؤمنين ، عن طريق إرشاد أهل الزيغ والأهواء والبدع وغلاة الفرق الإسلامية ، إلى التزام جادة

---

(١) يقول الجوينى : إذا تيسر نصب إمام واحد يطبق خطة الإسلام ، ويشمل الخليقة على تفاوت مراتبها في مشارق الأرض ومغاربها أثره ، تعين نصبه ولم يتبع والحالة هذه نصب إمامين ، وهذا متفق عليه لا يلقى فيه خلاف .. وقد تقرر من دين الأمة قاطبة أن الغرض من الإمامة جمع الأراء المشتتة .. وليس بالخافي على ذوى البصائر أن الدول إنما تضطرب بتحزب الأمر ، وتفرق الأراء .. ، ونظام الملك .. بالإذعان والإقرار ولذى رأى ثابت لا يستبد ولا ينفرد ، أنظر غياث الأمم ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) يقول الجوينى : " والذى تباينت فيه المذاهب ، أن الحالة إذا كانت بحيث لا ينبسط رأى إمام واحد على الممالك ، وذلك يتصور بأسباب لا تغمض ، منها اتساع الخطة وانسحاب الإسلام على أقطار متباينة ، وجزائر في لجج متقاذفة ، وقد يقع قوم من الناس نبذة من الدنيا ، لا ينتهى إليهم نظر الإمام ، وقد يتولج خطر من ديار الكفر بين خطة الإسلام ، وينقطع بسبب ذلك نظر الإمام عن الذين وراءه من المسلمين ، فإذا اتفق ما ذكرناه ، فقد صار صائرون عند ذلك إلى تجويز نصب إمام في القطر الذى لا يبلغه اثر نظر الإمام ؛ وعزى هذا المذهب إلى شيخنا أبى الحسن (الأشعرى) ، والأستاذ أبى إسحق الأسفرايني وغيرهما، وابتغى هؤلاء مصلحة الخلق ، أنظر غياث الأمم ، ص ١٢٨ - ٣٢٩ .

(٣) أنظر قبله الفصل الخاص بالوضع السياسي والشرعى لمصر الأيوبية ، وأنظر أيضًا ما تقدم هنا في فصل السلطنة .

(٤) أنظر قبله الفصل الخاص بالدعوة الأشعرية السنية .

(٥) أنظر الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٢١ - ١٢٥ .

الدين القويم ، وإلزامهم بذلك قهرًا إذا لـزم الأمـر[1] ؛ والثـانى السـعى فـى دعـاء الكـافرين إلى ديـن الإسلام ، أما بالحجة وإيضاح المحجة مثل إرسال السفراء والمرشدين إلى الأمـم التـى أبـدت استعدادًا لاعتناق الإسلام ، وإما عن طريق مقاتلتهم بحد السيف حتى يفيئوا إلى أمر الله[2] .

ثم أوضح كيف يرتبط إظهار شعائر الإسلام ، بنصـب الإمـام ، فـأكد أولاً أن العبـاذات البدنيـة للفرد المسلم لا يتعلق صحتها بنظر الإمام[3] ، وإنما يرتبط بنظر الإمام ، ما يرتبط باجتماع عـدد كبـير وحجم غفير كالجمع والأعياد ومجامع الحجيج[4] .

ثم عدد مهام الإمـام المتعلقـة بأحكـام الدنيـا ، مثـل الجهـاد وحفـظ ديارالإسـلام بسـد الثغـور ، والقضاء على أهل البغى واللصوص داخل ديار الإسلام ، وفصـل الخصومـات الثـائرة بإناطـة القضـاة والحكام بنظرها ، وإقامة السياسات والعقوبات والحـدود الزاجـرة مـن ارتكـاب الفواحـش ، وتكفـل ضعاف المسلمين ، وسد حاجات المحاويج ، لكون الإمام هو الولى على من لا ولى له ، وجباية الحقـوق الشرعية وحفظ أصول أموال المسلمين ، وصرفها فى أوجهها الشرعية[5] ؛ وبهذا ينهى الجوينى بسـط الفكر السياسى للدعوة الأشعرية ، الخاص بموضوع الإمامـة ، وهـو فـى هـذا التنـاول يقصـد منصـب « الخلافة » .

وأغلب الظن أن الجوينى هو أوّل من ناقش الوضع الشرعى لمنصب « السلطنة » ، بـين مفكـرى الإسلام ، وكانت أبحاثه واجتهاداته فى الواقع مستمدة ومُنصبّةعلى أوضاع السلطنة السلجوقية التـى عاصرها ، وسيطرتها على الخلافـة العباسية فـى العـراق ؛ وقـد خـص هـذه الأبحـاث الخاصـة بوظيفـة السلطنة تلميذه الغزالى ، الذى دوّن مؤلفاته أيضًا فـى العصـر السـلجوقى ، وعـن الجوينـى والغـزالى ، لخص المفكرون والفقهاء فى العصرين الأيوبى والمماليكى الوضع الشرعى لوظيفة السلطنة .

نظر هـؤلاء المفكـرون السـنيون إلى الأحـوال السياسـية والحربيـة للعـالم الإسـلامى ، فوجـدوه قد طرأ عليه خطب جلل لم يتعرض له من قبل ، ومن ثم لم يطرحه الفقهاء مـن قبـل للمناقشـة ؛ هـذا الخطب الجلل الطارئ ، هو الذى عبّر عنه الجوينى بالفرضية الفقهية التى طرحها بقولـه : « إذا وطـىء

---

(١) الجوينى : غياث الأمم ، ص ١٣٥ - ١٤٣ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣) يريد الجوينى بهذه العبارة أن يشير إلى حقيقة أن الإسلام ليس لـه هيئـة كهنوتيـة (إكليروس).تعد الواسطة بين المتعبد والله .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٥) أنظر تفاصيل هذه المهام الموكلة للإمام والمتعلقة بأحكام الدنيا عن الجوينى ، غياث الأمم، ص ١٤٨ - ١٩٠.

الكفار ديار الإسلام »[1] ؛ وأغلب الظن أن هذا الظرف السياسي والحربي ، كان في ذهن الجويني ، حين دلّل على رأى الأشاعرة الخاص بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، إذا ما توفرت في هذا المفضول الكفاءة الحربية التي تطلبتها ظروف العصر ، رغم افتقاره لجميع الشروط الأخرى التي اشترط الفقهاء ضرورة توفرها في الإمام[2] .

ولعل هذا الوضع السياسي والحربي الطارىء ، هو الذى أملى على الجويني ، أفراد الباب التالي، من فصول كتابه الثلاث ، لمناقشة الأوضاع والافتراضات الشرعية الخاصة بوظيفة السلطنة ، وقد عنون هذا الباب بعنوان : « القول في خلو الزمان عن الإمام »[3] ؛ فناقش فيه أولاً جواز تنصيب إمام لا تتوفر فيه أهم شروط الإمامة ، مثل الانتساب القرشي ، أو العلم بالشرع أو الورع ، وأقر بجواز ذلك على أساس أن تعطيل الممالك عن راع يرعاها ، ووال يتولاها ، عظيم الأثر والموقع في انحلال الأمور ، وتعطيل الثغور[4] ؛ وثنّى بمناقشة « القول في ظهور مستعد بالشوكة مستول »[5] ، يقصد إذا ما استولى أحد الكفاة الشجعان ممن لا تتوفر فيه شروط الإمامة على السلطة الزمنية قهرًا ، وكان له من الأتباع من كفل له الأمر ، فإستجاب له الناس ، وأقر الجويني أيضًا بجواز إمامة هذا المستولى على الأمر قهرًا ، معللاً ذلك بأنه « إن لم يكن في الزمان من يستجمع صفات أهل الاختيار .. وكان الداعي إلى اتباعه على الكمال المرعى ، فإذا استظهر بالقوة ، وتصدى للإمامة ، كان إمامًا حقًا .. وقد خلا الدهر عن أهل الحل والعقد ، فلا وجه لتعطيل الزمان عن وال يذب عن بيضة الإسلام ويحمي الحوزة »[6] .

وتأسيسًا على أبحاث الجويني بصدد وظيفة السلطنة ، التي نظر إليها الجويني على أساس أنها الاعتراف بشرعية إمامة الكفاة الشجعان من أولى الشهامة والنجدة ، القادرين على حماية حوزة

---

(١) الجويني : غياث الأمم ، ص ١٩١ – ١٩٢.

(٢) يقول الجويني : ولو كان أحدهما أفقه ، والثاني أعرف بتجنيد الجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وجر العساكر .. فينظر ذو الرأى إلى حكم الوقت ، فإن كان أكناف خطة الإسلام إلى الاستقامة ، .. ولكن ثارت بدع وأهواء .. والحاجة ماسة إلى من يسوس الأمور الدينية .. فالأعلم أولى ، وإن تصورت الأمور على الضد مما ذكرناه ، ومست الحاجة إلى شهامة وصرامة .. ، فالاشهم أولى بأن يقدم ، أنظر غياث الأمم ، ص ١٢٥ .

(٣) الجويني : غياث الأمم ، ص ٢٢٥ .

(٤) أنظر الجويني : غياث الأمم ، ص ٢٢٥ – ٢٣٠ ، وخاصة ص ٢٢٨ ، ص ٧ – ٨ .

(٥) الجويني : غياث الأمم ، ص ٢٣١ .

(٦) الجويني : غياث الأمم ، ص ٢٣٢ .

الإسلام ، حتى لو لم تتوفر فيه شروط الإمامة ؛ فرّق الغزالى بين منصبى « الخلافة » و « السلطنة » ، إذ أن الخلافة كما أوضح الغزالى ، واجبه شرعًا فى حين أن السلطنة يُحتم وجودها المنطق السليم ، لأن أمور الدنيا والدين لا تستقيم فى رأى الغزالى ، إلا بسلطان مطاع[1] ؛ وهو يقرر شرعية وظيفة السلطنة ، رغم عدم توفر شروط الإمامة والقائمين بها على أساس المبدأ القائل بأن الضرورات تبيح المحظورات ، لأن خلو الزمان من أى إمام قائم معناه عزل الولايات والوظائف الشرعية ، وإبطال جميع العقود الشرعية فى ديار الإسلام[2] .

وهنا لا يسعنا إلا أن نحىّ فقهاء الإسلام ، على جرأتهم بالتصريح فى وقت سيطر فيه على السلطة الزمنية السلاطين المتغلبون على الخلافة ، والذين لا تتوفر فيهم شروط الإمامة ، الشرعية وأهمها النسب القرشى ، بأن السلطنة وضعًا شرعيًا استثنائيًا ، أملاه الأمر الواقع ، على أساس أن الضرورات تبيح المحظورات .

ونفس هذه الجرأة والشجاعة نجدها عند فقهاء الإسلام فى العصور المتأخرة ، وعلى رأسهم ابن خلدون حين دللوا على أن « الخلافة » قد انقلبت إلى « ملك » وظهرت إرهاصات هذا الانقلاب منذ العصر الأموى ، حين استندت على « العصبية » ، وان استمر الدين وإقامة شعائره هو الوازع للملك ، ثم اتخذ خلفاء بنى أمية وبنى العباس رسوم الملك والترف والأبهة ؛ ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وبقى الأمر ملكًا بحتًا كما كان الشأن فى ملوك العجم بالمشرق ، والمقصود بالعجم البويهيين الفرس ، والسلاجقة الترك ، يدينون بطاعة الخليفة تبركًا والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منه شىء ؛ أى أن الملك قد انفرد عن الخلافة ، حيث افترقت

---

(١) الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١١٤ ، وانظر الشيزرى : المنهج المسلوك ، ص ٧ - ٨ ، ابن طلحة : العقد الفريد ، ص ٣٤ - ٣٥ ، الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١١ - ١٣ ، خضر بن أبى بكر : المناقب المُعزية ، ق ٢٥ - ٢٧ .

(٢) يقول الغزالى : ليست هذه مسامحة عن الاختيار ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات ، فنحن نعلم أن تناول الميتة محظور ، ولكن الموت أشد منه ، فليت شعرى ، من لا يساعد على هذا ، ويقضى ببطلان الإمامة فى عصرنا لفوات شروطها ، وهو عاجز عن الاستبدال بالمتصدى لها ، بل هو فاقد للمتصف بشروطها، فأى أحواله أحسن ، أن يقول القضاة معزولون والولايات باطلة والانكحة غير منعقدة ، وجميع تصرفات الولاة فى أقطار العالم غير نافذة ، وإنما الخلق كلهم مقدمون علي الحرام ، أو أن يقول : الإمامة منعقدة ، والتصرفات والولايات نافذة بحكم الحال والاضطرار ، الغزالى : الاقتصاد فى الاعتقاد ص ١١٦ .

عصبيته عن عصبية الخلافة[1] ، لكون السلاطين أعاجم والخلفاء عرب .

وليس خافيًا ، أن ما عبر عنه ابن خلدون بافتراق عصبية الملك عن عصبية الخلافة ، يشير إلى استحواز السلاطين الأعاجم على السلطة الزمنية والألقاب الخلافتية ؛ وكلمة الأعاجم تنسحب على البويهيين الفرس ، والسلاجقة الترك ، والأيوبيين الكرد ، ومن بعدهم العثمانيين الترك[2] .

وتأثرًا برأى الغزالى ، فى أن وجود السلطنة ضرورة منطقية ، قرر الشيزرى ، المفكر السياسى للدولة اليوبية أن الملك هو القاعدة التى ينبى عليها المملكة ، أما الأساس الحامل للملكة فهو الدين[3]؛ فى حين ذهب ابن طلحة إلى القول : السلطنة أمر من أمرار الربوبية يناط بها العباد ويحفظ بها البلاد ، ويقطع بها العناد ... فالسلطان فى الحقيقة قائم برعاية عباد الله ، وحماية بلاد الله ، وحراسة دين الله، وإقامة حدود الله ، وحفظ أحكام الله ، قد ارتضاه الله من خليقته ، وأمرهم بطاعته .. ، وهو باتفاق ظل الله فى أرضه ، وبه يقام شعائر سنته وفرضه .. ، وثمرة السلطنة ، حراسة البلاد وسلامة النفوس

---

(١) أوضح هذا الرأى الخاص بانقلاب الخلافة إلى ملك ابن خلدون ، أنظر المقدمة ، الفصل الثامن والعشرون ، بعنوان " انقلاب الخلافة إلى ملك " ، ص ٢٠٢ - ٢٠٨ وأغلب تعابير الفقرة السابقة مأخوذة عن نفس تعابير ابن خلدون ، وهاك نص ابن خلدون بتمامه لأهميته ، ، يقول ابن خلدون بعد أن دلل على تطور ظاهرة انقلاب الخلافة إلى ملك ، منذ أن ظهرت ارهاصاتها فى عصر خلافة بنى أمية ، إلى أن اكتملت جميع خصائصها بسيطرة البويهيين على الخليفة العباسى فى بغداد ، واستبدادهم بالسلطة الزمنية دونه : " فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك ، وبقيت معانى الخلافة من تحرى الدين ومذاهبه ، والجرى على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع ، الذى كان دينًا ثم انقلب عصبية وسيفًا ، وهكذا كان الأمر بعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر الأول من خلفاء بنى العباسى إلى الرشيد وبعض ولده ، ثم ذهبت معانى الخلافة ولم يبق إلا اسمها ، وصار الأمر ملكًا بحتًا ، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها ، واستعملت فى أغراضها من القهر والتقلب فى الشهوات والملاذ ، وهكذا كان الأمر لولد عبد الملك ولمن جاء بعد الرشيد من بنى العباس ، واسم الخلافة باقيًا فيهم لبقاء عصبية العرب ، والخلافة والملك فى الطورين ملتبس بعضهما ببعض ، ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشى أحوالهم ، وبقى الأمر ملكًا بحتًا ، كما كان الشأن فى ملك العجم بالمشرق ، يدينون بطاعة الخليفة تبركًا ، والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم ، وليس للخليفة منه شيء ، وكذلك فعل ملوك زناته بالمغرب مثل صنهاجه مع العبيديين ، ومغراوة وبنى يفرن أيضًا مع خلفاء بنى أمية بالأندلس ، والعبيديين بالقيروان ، فقد تبين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أولاً ، لم التقت معانيهما واختلطت ، ثم انفرد الملك حيث افترقت عصبيته من عصبية الخلافة " . (ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٨ ، س ١٢ - س ٢٥) . وأنظر فصلاً هامًا أورده السيوطى ، بعنوان " ذكر الفرق بين الخلافة والملك والسلطنة من حيث الشرع " أنظر السيوطى : حسن المحاضرة ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، ج ٢ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٢) أنظر قبله : الفصل الخاص بالوضع السياسى والشرعى لمصر الأيوبية ، الفقرة الخاصة بالسلطنة العامة .

(٣) أنظر الشيزرى : المنهج المسلوك فى سياسة الملوك ، ص ١٤ - ص ٢٠ ، وأنظر أيضًا الحسن بن عبد الله : أثار الأول فى تراتيب الأول ، ص ١١ - ١٣ ، الباب الأول : فى فضل الملك وشرفه والحاجة الداعية إليه .

وحفظ الأموال ، وإدرار الأرزاق ، وإقامة المعايش ، ونشر العلم ، وإظهار الدين ، وذلك بقمع الظلمة، وردع البغاة ، .. فتأمن السبل وتتوفر الدواعي على مصالح الدين والدنيا ، فأى منقبة أنفع .. وأى مرتبة أجمع للمزايا ، وأشمل من حاله بها انتظام مصالح الدنيا ، وهى قوام الآخرة والأولى[١] .

وكان أكثر الفقهاء وضوحًا في رأينا ، عند عرضه للوضع الشرعي لوظيفة السلطنة ، الفقية ابن جماعة في كتابه « تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام » الذى ألفه في العصر المملوكي فقال : إذ فوض الخليفة إلى رجل ولاية إقليم أو بلد أو عمل ، فإن كان تفويضًا خاصًا بعمل خاص ، لم يكن له الولاية في غيره ، كما إذا ولاه الجيش دون الأموال ، أو الأموال دون الأحكام والحكام (أى القضاه) ونحو ذلك ، وإن كان تفويضًا عامًا كعرف الملوك والسلاطين في زماننا جاز له تقليد القضاة والولاة وتدبير الجيوش ، واستيفاء الأموال من جميع جهاتها وصرفها في مصارفها ، وقتال المشركين والمحاربين ، ولا ينظر في غير الإقليم المفوّض إليه ، لأن ولايته خاصة ، وتعتبر في السلطان المتولى من جهة الخليفة ما يعتبر فيه خلا النسب لأنه قائم مقامه .. ؛ وإذا استولى ملك بالقوة والقهر والشوكة على بلاد ، فينبغي الخليفة أن يفوض أمورها إليه استدعاءًا لطاعته ، ودفعًا لمشاقته ، وخوفًا من اختلاف الكلمة وشق عصا الأمة ، فيصير بذلك التفويض صحيح الولاية ، نافذ الأحكام ، فإن لم يكن أهلاً لذلك لفقد الصفات المعتبرة ، جاز للخليفة إظهار تقليده لما ذكرناه من المصالح[٢] .

ثم أوضح ابن جماعة حقيقة هامة خاصة بنظم الحكم والإدارة ، في الدول التى تمثل السلطنة القاعدة الأساسية لنظمها ، وهي ضرورة اختيار وزيرًا للسلطان الذى لا تتوفر فيه شروط الإمامة وخاصة الخاصة بالعلم والشرع ، ممن تتوفر فيه هذه الشروط التى تعوز السلطان ؛ وهذا في رأينا تعليل كون وزراء جميع سلاطين الإسلام من أرباب الأقلام ، ووزراء تنفيذ[٣] ، فيقول ابن جماعة : وينبغي أن يعين له نائبًا أهلاً لتقليد الولاية ، ينفذ الأمور لتكون صفات النائب حائزة لما فات من صفات المستولى قهرًا ، فتنتظم المصالح الدينية والدنيوية[٤] ؛ وهذه الفكرة قد عبّر عنها من قبل الجويني[٥] .

---

(١) أنظر ابن طلحة : العقد الفريد للملك السعيد ص ١٣٣-١٤٢ ، وقارن الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ، ص ١١٤ ، فمن هذه المقارنة يتضح إلى أى مدى تأثر ابن طلحة بعبارات ومعاني الغزالي بخصوص وظيفة السلطنة .

(٢) ابن جماعة : تحرير الأحكام ، ح ، ورقة ١١ – ١٢ .

(٣) أنظر بعده الفصل الخاص بالوزارة الأيوبية .

(٤) ابن جماعة : المصدر السابق ، ورقة ١٢ .

(٥) يقول الجويني : إذا كان سلطان الزمان لم يبلغ مبلغ الاجتهاد ، فالمتبوعون العلماء والسلطان نجدتهم وشوكتهم وقوتهم .. ، فعالم الزمان في المقصود الذى نحاوله ، كنبي الزمان ، والسلطان مع العالم ، كملك في زمان النبي ، مأمور بالانتهاء إلى ما ينهيه إليه النبي " أنظر الجويني : غياث الأمم ، ص ٢٧٥ .

الفصل السابع

القـــدس

بين الفتح العُمرى سنة ١٥ هـ ، والفتح الصلاحى سنة ٥٨٣ هـ ، والفتح الناصرى الداوادى سنة ٦٣٧ هـ ، والفتح الصالحى النجمى سنة ٦٤٢هـ .

الفتح العُمَرىّ للقدس سنة ١٥هـ

تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين بفتحهم القدس بعد وفاته صلى الله عليه وسلم إذ رُوى عن الصحابى عوف بن مالك رضى الله عنه ، أنه قال : أتيتُ النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك (٩هـ) ، وهو فى قبّة من أدم ، فقال لى : يا عوف أعدد ستّا بين يدى الساعة ، موتى ، ثم فتح بيت المقدس ؛ وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لشداد بن أوس - رضى الله عنه - : ألا أن الشام ستفتح ، وبيت المقدس سيُفتح إن شاء الله تعالى ، وتكون أنت وولدك من بعدك أئمة بها إن شاء الله تعالى . وهذا ما تم بالفعل[1] ، وقد شهد شداد بن أوس فتح القدس وتوفى بها وقبره بها معروف مزار رآه وزارة الرحالة المقدسى البشارى صاحب كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم[2] .

وفى العام الثانى من خلافة الخليفة الراشد أبو بكر الصديق أول خلفاء الإسلام ، عقد رضى الله عنه أربعة ألوية وسيّرها لفتح بلاد الشام ، ووجه كل لواء منها وعليه أمير إلى أحد الأقسام الإدارية الأربعة لبلاد الشام ، حسب التقسيم الإدارى والحربى للروم ، وكان عقدة رضى الله عنه لهذه الألوية يوم الخميس لمستهل صفر سنة ١٣ هـ ؛ فسيّر لواء عمرو بن العاص رضى الله عنه إلى أرض فلسطين ، وأمره بفتحها ، ثم التحرك منها إلى مصر لاستكمال فتوح الشام ومصر ؛ وسير لواء شرحبيل ابن حسنة رضى الله عنه ، لفتح أرض الأردن ؛ ولواء يزيد بن أبى سفيان رضى الله عنه - وقيل خالد بن سعيد بن العاصى - لفتح دمشق وأرضها وساحل لبنان ؛ وجعل القيادة العامة لأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه أمين الأمة ، وجعل له إمامة الصلاة ، إذ جمعت هذه الألوية الأربعة ؛ وجعل القيادة العامة فى المعارك الكبرى ، للأمير التى تقع المعركة فى القسم الذى وجه إليه من أقسام الشام ؛ أما إذا اجتمعت الألوية الأربعة فى معركة كبرى ، فالقيادة العامة لأبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، وأمّر أبو بكر رضى الله عنه عمرو بن العاص أن يسلك طريق أيله عامدًا لفلسطين ، وأمر يزيد أن يسلك طريق تبوك ، وكتب إلى شرحبيل أن يسلك أيضًا طريق تبوك[3] .

---

(١) أنظر مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عَمَّان - الأردن ، د.ت. ، ١ : ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ وفيه نصّ حديث عوف بن مالك برواية أخرى مطولة .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا معاذ إن الله عَزّ وَجَلّ سيفتح عليكم الشام من بَعْدى / من العريش إلى الفرات ، رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة ، فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام أو بيت المقدس ، فهو فى جهاد إلى يوم القيامة » . أنظر مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٢٦٦ - ٢٢٨ .

(٢) أنظر المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٣) أنظر البلاذرى : فتوح البلدان ، ١٢٨- ١٢٩ ، خبر ٣٠٢ - ٣٠٤ ؛ أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٤٢ - ٤٣ ؛ ابن شيخ الربوة الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، طبع ليبسك ١٩٢٣م ، ص ١٩٢ ؛ الأزدى : فتوح الشام ، ص ١ - ٥٠ .

وشهدت أرض فلسطين والأردن المعارك الكبرى التى نصّر الله فيها المسلمين على الروم ؛ أولها معركة داثن - وهى قرية من قرى غزّة - سنة ١٢ هـ ، وتولى قيادة جيش الروم بطريق - أى والى - غزة ، وتولى قيادة جيش المسلمين عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ وثانيها معركة وادى عَرَبة - وهو وادى معروف إلى اليوم بأرض فلسطين[١] ؛ ثم كتب الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد رضى الله عنه قائد فتوح الإسلام ببلاد العراق ، يأمره بترك العراق ، والقدوم إلى الشام مع أهل القوة من أصحابه ، للإنضمام إلى جيوش المسلمين ببلاد الشام على أن تكون له القيادة العامة لألوية الشام[٢] ، فمضى مسرعًا حتى انضم إليهم أمام دمشق ، وتم فتح مدينة بُصْرَى من أرض دمشق ، ومدينة مآب من أرض البلقاء[٣] ؛ ثم توالت انتصارات المسلمين على جيوش الروم بأرض فلسطين والأردن، فتمت معركة أجنادين بأرض فلسطين يوم الإثنين ١٢ جمادى الأولى سنة ١٣هـ[٤]، ومعركة فِحْل بأرض الأردن فى ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣هـ[٥] ، ومعركة اليرموك بأرض الأردن فى رجب سنة ١٥ هـ[٦] .

وقد توفى أبو بكر الصديق رضى الله عنه لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ ، وبويع عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر ؛ فكان أول شئ أمر به أن عزّل خالد بن الوليد عن الإمره ، وولى أبا عبيدة بن الجراح على الجيش والشام ؛ وأرسل بذلك إليهما؛ فقصدا دمشق وحاصراها حتى فتحت ، وبعث أبو عبيدة ببشارة الفتح إلى عمرو ؛ ثم بعد دمشق بيسير تمّ فتح حمص بعد حصار طويل ، ثم فتح حماه صلحًا ، وكذلك المَعَرّة ، ثم فتح اللاذقية عَنوة ، وفتح جبله وأنطرسوس ، ثم فتح حلب وأنطاكية ، وفتح بلادًا أخرى منها : قيسارية وسبسطيه

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ١: ١٢٩ – ١٣٠ خبر ٣٠٥ – ٣٠٨ ؛ الأذرى : فتوح الشام ، ص ٣٨ ، و ص ٥٢ .

(٢) البلاذرى : نفس المصدر ١: ١٣١ – ١٣٣ ؛ الأزدى : فتوح الشام ، ص ٦٨ – ٨٠

(٣) البلاذرى : نفس المصدر ١: ١٣٤ خبر ٣١٢ – ٣١٣؛ الأزدى: فتوح الشام، ص ٨١ – ٨٦ ، وص ٢٩.

(٤) البلاذرى : نفس المصدر ١: ١٣٥ – ١٣٦ ؛ الأزدى : فتوح الشام ص ٨٧ – ٩٣ .

(٥) البلاذرى : نفس المصدر ١: ١٣٧ ؛ الأزدى : فتوح الشام ص ١١١ – ١١٤ .

(٦) البلاذرى : نفس المصدر ١: ١٦٠ – ١٦٣ ؛ الأذى : فتوح الشام ، ص ١٨٠ – ٢٤٥

ـ من أرض فلسطين ، ويُقال أن بها قبر يحى وزكريا عليهما السلام ـ ونابُلس ولُدّ ويافا ، وتلك البلاد جميعها ، حتى دخلت سنة ١٥ هـ[١] .

وبعد أن أتم المسلمون فتح حمص العاصمة السياسية للروم ببلاد الشام ، سار أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه لفتح إيلياء (القدس) العاصمة الدينية للروم ، فسار رضى الله عنه حتى الأردن ، فعسكر بها ، وبعث الرسل إلى أهل إيلياء ، يدعوهم إلى الإسلام ، ويخيرهم بين الإسلام أو الجزية أو القتال ، وكتب بذلك إلى عمر رضى الله عنه ؛ وانتظر أبو عبيدة أهل إيلياء ، فأبوا أن يأتوه وأن يصالحوه ، فأقبل سائرًا إليهم حتى نزل بهم ، وحاصرهم حصارًا شديدًا وضيق عليهم ، وأوجب على نفسه أنه غير مقلع عنهم ؛ فلما لم يجدوا لهم طاقة بحربه ، قالوا : نصالحك ، قال : وإنى قابل منكم ، قالوا : فأرسل إلى خليفتكم ، فيكون هو الذى يعطينا هذا العهد ، ويكتب لنا الأمان ، فقبل أبو عبيدة ذلك ، وكتب إلى عمر رضى الله عنه : « أخَذْنا عليهم المواثيق المغلظة بأيمانيهم ، ليقبلن ويؤدّون الجزية ، وليدخلن فيما دخل فيه أهل الذمة ، ففعلوا ؛ فإن رأيت أن تقدم فأفعل ، فإن فى سيرك أجرًا وصلاحًا »[٢] .

---

(١) البلاذرى : نفس المصدر ١ : ١٣٨ - ١٤٠ (أمر الأردن) . وفيه : " افتتح شرجبيل بن حسنة الأردن عَنوة ، ما خلاطبرية فإن أهلها صالحوه على أنصاف منازلهم وكنائسهم " . ١ : ١٤٤ - ١٥٤ (فتح مدينة دمشق وأرضها) ١٦ محرم سنة ١٤هـ ، ١ : ١٥٥ - ١٥٩ (أمر حمص) سنة ١٤ هـ ؛ ١ : ١٦٤ - ١٧١ (أمر فلسطين) ؛ ١ : ١٧٢ - ١٨٠ (أمر جندق قِنّسْرين والمدن التى تدعى العواصم) = فتح حمص - فتح حلب - فتح أنطاكية ، الأزدى : فتوح الشام ص ٩٨ - ٩٩ (وفاة أبى بكر رضى الله عنه ، واستخلاف عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعزله لخالد) ؛ ص ١٠٤ - ١١٠ (فتح دمشق وصلحها) ؛ ص ١١١ - ١٤٢ (وقعه فِحْل وأمر الأردن) ؛ ص ١٤٣ - ١٤٦ (فتح حمص) ؛ ص ١٤٦ - ١٤٩ (فتح حلب) ؛ ص ١٤٩ - ١٥٨ (فتح أنطاكيه) ؛ ص ١٥٩ - ١٧٥ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ، فتح أرض فلسطين ومدينة أيله ، ومدينة إيلياء (القدس) ، ص ٢٤٦ - ٢٧٦ (قصة صلح إيلياء) ، ص ٢٧٦ - ٢٨٣ (فتح قيسارية من أرض فلسطين) ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١ : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) الأزدى : فتوح الشام ، ص ١٥٩ - ١٧٠ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ (وفيه نصوص المكاتبات المتبادلة بين أبى عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب ، وَبَيْن أبى عبيدة بن الجراح وأهل إيلياء) ؛ البلاذرى : فتوح البلدان، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، خبر ٣٦٩ - ٣٧١ (أمر فلسطين) ؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، ٣: ٦٠٣ - ٦٠٤ ، حوادث سنة ١٥هـ (ذكر فتح قيسارية وحَصْر غزة وفتحها) ، ٣: ٦٠٤ - ٦٠٧ (ذكر فتح بيسان ووقعة أجنادين) - ٣: ٦٠٧ - ٦١٣ ، حوادث سنة ١٥هـ (ذكر فتح بيت المقدس) ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١ : ٢٤٧ - ٢٥٠ (ذكر الفتح العمرى لبيت المقدس) .

فاستخلف عمر رضى الله عنه على المدينة على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وقدم إلى الجابيه - وهي من ضواحي دمشق - ، وقدم بها عليه أهل إيلياء[1] ؛ وكتب لهم فيها الصلح ، لكل كورة كتابًا واحدًا ، ما خلا أهل إيلياء خصّهم بكتاب مفرد ، نظرًا لخصوصية مدينتهم وقداستها عند جميع أهل الأديان السماوية ؛ وكتب لأهل مدينة لُدّ ، العاصمة السياسية والإدارية لفلسطين فى المصطلح الإدارى السياسى الرومى البيزنطى ، كتاب صلح شامل ، لجميع أهل المدن والكور الفلسطينية وجميع أهل فلسطين[2] .

وكتب عمر رضى الله عنه بالجابية أيضًا ، كتاب صلح لجميع نصارى أهل الشام ، تضمن الشروط العُمرية الخاصة بأهل الذمة فى الإسلام ، وتأمينهم على أنفسهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم وأراضيهم وكنائسهم ، نظير أدائهم الجزية لبيت مال المسلمين ، والاشتراط عليهم استضافة من ينزل بهم من المسلمين أو جيوش الإسلام ثلاث ليال ، وعدم استخدام أى دير أو كنيسة أو قلاية أو صومعة راهب فى مدن المسلمين التى اختطها المسلمون ؛ ولا يواروا فى كنائسهم جاسوسًا ، ولا يعلموا أولادهم القرآن ، ولا يمنعوا أحدًا من ذوى قرباهم الدخول فى الإسلام ، ولا يتخذوا شيئًا من السلاح ، ولا يبيعون الخمر أو يظهرون الصليب على كنائسهم ، ولا يضروا بأحد من المسلمين . وقد اعتمد أئمة الإسلام هذه الشروط ، وعمل بها الخلفاء الراشدون[3] ؛ وهى شروط ضمنت حماية أهل الذمة ، وتأمينهم ومنحتهم حقوق المواطنة المدنية والقضائية فى دولة الإسلام من ناحية ؛ واقتضتها دواعى الأمن القومى والحربى من ناحية ثانية فى بداية عصر الفتوحات الإسلامية ودواعى احتفاظ المجتمعات الإسلامية بخصائصها وشرائعها ومكارم أخلاقها ، لكونها خير أمة أخرجت للناس من ناحية ثالثة ؛ ويتجلى هذا من الشروط العمرية التى ألزمت أهل الذمّة مغايرة المسلمين فى الزى والهيئة ، حتى لا يُنسَبّ إلى أمّة الإسلام من ليس منها ، وتصبح الأمة الإسلامية مسؤلة عن سلوكه وتصرفاته .

---

(١) أنظر الأزدى : فتوح الشام ، ص ٢٤٦ - ٢٥١ (قصة صلح إيلياء وقدوم عمر رضى الله عنه بالشام) ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ (خطبة عمر رضى الله عنه بالجابيه) ؛ الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٣: ٦٠٨ ، حوادث سنة ١٥هـ ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٢٥٠ - ٢٥٣ .
(٢) أنظر الأزدى : فتوح الشام ، ص ٢٥٢ - ٢٥٩ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٦ ؛ الطبرى : تاريخ الرسل ٣: ٦٠٧ - ٦١٠ ، حوادث سنة ١٥هـ (ذكر فتح بيت المقدس) ، وخاصة ص ٦٠٨ - ٦٠٩ ، حيث يذكر نص وثيقَتىَ صلح وعهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء ، ولأهل اللد وفلسطين ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٢٥٣ - ٢٥٤ (حيث يورد نص وثيقة صلح وعهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء) .
(٣) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٢٥٤ - ٢٥٥ .

ولما قدم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بنفسه إلى القدس بعد أن فتحها الله على الإسلام والمسلمين سنة ١٥ هـ ، ومنح أهلها عهد وعقد وأمان صلحهم وذمتهم ، وهى المرة الوحيدة التى خرج فيها رضى الله عنه من بلاد الحجاز أيام خلافته ؛ قام رضى الله عنه بنفسه ببحث وتحقيق أثرى ، لتحديد موضع مسجد داواد ؛ وهو يقصد ـ كما أفاد الطبرى وابن فضل الله العُمرى والقلقشندى ومجير الدين الحنبلى ـ موضع المكان الذى صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنبياء ليلة الإسراء والمعراج ، وهو كائن بالقرب من الصخرة المقدسة ، فى صدر حرم المسجد الأقصى ، على سمة القبلة إلى المسجد الحرام (الكعبة)؛ وقد اهتدى عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى هذا التحقيق ، وهذا القول الفصل فى هذه المسألة الدينية التاريخية الأثرية الهامة ، فى ضوء الأحاديث النبوية الواردة فى هذا الشأن ، والخاصة بمعجزة الإسراء والمعراج ، وفى ضوء السنة وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بناء المسجد الجامع النبوى بالمدينة المنورة فى جعل القبلة فى صدور الجوامع ، وهو ما استن به المسلمون فى جميع الجوامع التى أقاموها بعد ذلك فى جميع الأمصار الإسلامية ؛ وفى ضوء مجادلة بطريك القدس ـ أى واليها من قبل الروم ـ ، وكَعْب الأحبار كبير أحبار اليهود بالشام ، وكان قد دخل فى الإسلام مع بواكير الفتح الإسلامى للديار الشامية .

ويقول مجير الدين الحنبلى مفصلاً قصة البحث والتحقيق الأثرى الذى قام به الفاروق رضى الله عنه ، لتحديد موضع مسجد داود ، واتجاه سمة قبلة المسجد الأقصى : « لما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ببيت المقدس ، نزل على الجبل الشرقى ، وهو طور زيتا . وأتى رسل بطريركها إليه بالترحيب، وقال : إنا سنعطى بحضورك ما لم نكن نعطيه لأحد دونك ، وسأله أن يقبل منه الصلح والجزية ، وأن يعطيه الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ، فأنعم عليه عمر بذلك . فسأله الرسول الأمان لصاحبه ، ليتولى مصالحته ومكاتبته ، فأنعم ؛ وخرج إليه بطريكها فى جماعة ، فصالحهم وأشهد على ذلك .

والبطريق هو الأمير ، وأما البطرك فهو الكاهن ؛ وكان اسم البطرك يوم ذلك صفريوس ، وكان قد أخبر النصارى أن الله يفتح البيت المقدس على يد عمر من غير قتال .

فلما فرغ عمر من كتاب الصلح بينه وبين أهل بيت المقدس ، قال لبطريقها : دلنى غلى مسجد داود ، قال : نعم . وخرج عمر مقلدًا بسيفه فى أربعة آلاف من الصحابة الذين قدموا معه متقلدين بسيوفهم ، وطائفة ممن كان عليها ليس عليهم من السلاح إلى السيوف ، والبطريق بين يدى عمر فى أصحابه حتى دخلوا بيت المقدس ، فأدخلم الكنيسة التى يقال لها القمامة، وقال : هذا مسجد داود. فنظر عمر وتأمل ، وقال له : كذبت ، ولقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد داود

بصفة ما هى هذه . فمضى به إلى كنيسة يقال لها صهيون ، وقال له : هذا مسجد داود فقال له : كذبت . فمضى به إلى مسجد بيت المقدس ، حتى انتهى به إلى الباب الذى يقال له باب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد انحدر ما فى المسجد من الزبالة على دَرَج الباب ، حتى خرج إلى الزقاق الذى فيه الباب ، وكثر على الدرج حتى كاد أن يلصق بسقف الرواق ، فقال له : لا نقدر أن ندخل إلا حَبْوا . فقال عمر : ولو حَبْوا . فحبا بين يدى عمر ، وحبا عمر ومن معه خلفه ، حتى ظهروا إلى صحنه ، واستووا فيه قيامًا . فنظر عمر وتأمل مليًا ، ونظر يمينًا وشمالاً ، ثم قال : الله أكبر ، هذا والذى نفسى بيده مسجد داود عليه السلام ، الذى أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أسْرِىَ به إليه .

ووجد على الصخرة زبلاً كثيرًا ، مما طرحته الروم غيظًا لبنى إسرائيل ، فَبَسَط عمر رداءه ، وجعل يكنس ذلك الزبل ، وجعل المسلمون يكنسون معه الزبل .

ومضى نحو محراب داود ؛ وهو الى على باب البلد ، فى القلعة ، فصلى فيه ، ثم قرأ سورة (ص) و سَجَدّ .

ورورى أنه لما جلاّ المزبلة عن الصخرة ، قال : لا تصلوا فيها حتى يصيبها ثلاث مطرات .

ويروى أنه لما فَتَحَ عمر رضى الله عنه بيت المقدس ، قال لكعب (الأحبار ، كبير أحبار اليهود بالشام ، وكان قد دخل فى الإسلام) : يا أبا إسحاق ، أتعرف موضع الصخرة ؟ . فقال : أذرع من الحائط الذى يلى وادى جهنم كذا وكذا ذراعًا ، ثم أحفر ، فإنك تجدها . ـ وكانت يومئذ مزبلة ـ ، فحفروا ، فظهرت لهم . فقال عمر لكعب : أين ترى أن نجعل المسجد ـ أو قال : القِبْلة ؟ ـ فقال : إجعله خلف الصخرة ، فتجتمع القبلتان ، قبلة موسى ، وقبلة محمد صلى الله عليه وسل ، فقال له : ضاهيت اليهود يا أبا إسحاق ، خير المساجد مقدمها ، فبناها فى مقدم المسجد .

وروى أن عمر قال لكعب : أين ترى نجعل المصلى ؟ قال : إلى الصخرة ، فقال : ضاهيت والله يا كعب اليهودية ؛ بل نجعل قِبْلة صَدْرُه ، كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قِبْلَةّ مساجدنا صدورها ؛ إذهب إليك ، فإنا لم نؤمرْ بالصخرة ، ولكن أُمِرْنا بالكعبة .

ولما فرغ عمر من فتح إيلياء ، وعزل الصخرة من القمامة ، وأبقى النصارى على حالهم بأداء الجزية ، فَسَمّى المسلمون كنيسة النصارى العظمى عندهم قمامة ، تشبيهًا بالمزابل ، وتعظيمًا للصخرة الشريفة ؛ ثم ارتحل من القدس إلى أرض فلسطين .

وكان هذا الفتح في سنة خمسة عشر (١٥هـ) ، من الهجرة الشريفة ؛ قاله ابن الجوزي وغيره من المؤرخين ؛ وقيل كان في سنة ستة عشر (١٦هـ) في ربيع الأول ؛ وقيل لخمس خلون من ذي القعدة ؛ والله أعلم .

قال مجير الدين الحنبلي : وقد حكى المصنفون لفضائل بيت المقدس قصة الفتح ، من طرق كثيرة ، بروايات وألفاظ مختلفة ؛ فأحسن ما رأيته منها ، ما نقلته هنا ؛ والله الموفق »[١] .

وقد أورد الأزدي ومجير الدين الحنبلي ، نص خطبة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، التي خطبها بعد دخوله رضي الله عنه بيت المقدس ؛ وهي عظيمة الدلالة في تاريخ الإسلام وتاريخ الفتوحات الإسلامية وتاريخ القدس ، وفي تفسير ماضي الأمة الإسلامية وحاضرها ؛ إذ قام عمر رضي الله عنه في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « يا أهل الإسلام ، إنّ الله قد صدقكم الوعد ، ونصركم على الأعداء ، وورثكم البلاد ، ومكّن لكم في الأرض ، فلا يكن جزاء ربكم إلا الشكر ، وإياكم والعمل بالمعاصي ، فإن العمل بالمعاصي كفر للنعم ، وقلّ ما كَفَر قوم بما أنعم عليهم ، ثم لم يفزعوا إلى التوبة ، إلا سلبوا عِزهم ، وسلط عليهم عدوهم »[٢] .ثم إن عمر رضي الله عنه أقبل نحو المدينة ؛ فاستقبله الناس ، يهنؤنه بالنصر والفتح ؛ فجاء حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى ركعتين عند المنبر ، ثم صعد المنبر ، فاجتمع الناس إليه ، فقام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إيها الناس ، إن الله قد اصطنع عند هذه الأمة أن يحمدوه ويشكروه ؛ وقد أعز دعوتها ، وجمع كلمتها ، وأظهر فلجها ، ونصرها على الأعداء ، وشرفها ومكن لها في الأرض ،

---

(١) أنظر مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ١: ٢٤٤– ٢٥٨ (ذكر الفتح العمري الذي يسره الله تعالى على يد أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه) .

وأنظر الأزدي : فتوح الشام ، ص ٢٥٩ ، حيث يقول : " ولما كان من الغَدَ (أي غَدَ اليوم الذي كتب فيه عمر رضي الله عنه صلحه لأهل إيلياء) قام فدخل بيت المقدس ، وكان دخوله يوم الإثنين ، وأقام بها حتى يوم الجمعة ، وخَطَّ بها محرابًا من جهة الشرق ، وهو موضع مسجده (يقصد المسجد العُمري الموجود إلى الأن تحت قبة الصخرة ، والمعروف إلى الآن باسم المسجد العُمرى) ؛ فتقدم ، وصلى هو وأصحابه صلاة الجمعة " ؛ وأنظر أيضًا نفس المصدر ، ص ٢٥٦ ، حيث يورد الأزدي نص خطبة عمر بن الخطاب في المسلمين ، حين دخل القدس ، وخبر أمرة بلال بن أبي رباح رضي الله عنه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤذن في الناس ، لأول صلاة حَضَرَهَا عمر رضي الله عنه بعد دخوله بيت المقدس ؛ وأنظر أيضًا نفس المصدر ، ص ٢٥٩ – ٢٦٢، وفيه: "إن إسلام كعب الحَبْر إنما كان في قدوم عمر رضي الله عنه الشام، وكان كعب الحَبْر من مؤمني أهل التوراة برسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من علمائهم وأخيارهم " ؛ الطبري : تاريخ الرسل والملوك : ٣ : ٦١١ – ٦١٢ ، " ذكر فتح بيت المقدس"، حوادث سنة ١٥ هـ .

(٢) الأزدي : فتوح الشام ، ص ٢٥٦ ، مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ١: ٢٥٧ – ٢٥٨ .

وأورثها بلاد المشركين وديارهم وأموالهم ؛ فأحدثوا لله شكرًا يزدكم ، وأحمدوا على نعمه يدمها لكم ؛ جعلنا الله وإياكم من الشاكرين » . ثم نزل[1] .

وقد شهد الفتح العمرى للقدس ، كما تقدم القول ، حوالى ألف صحابى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عَدَّدَ منهم مجير الدين الحنبلى المقدسى فى كتابه الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل : أبو عبيدة بن الجراح، مُعاذ بن جبل ، بلال بن أبى رباح ، عياض بن غنم ، خالد بن الوليد ، أبو ذَرّ الغفارى ، أبو الدرداء ، عبادة بن الصامت ، سلمان الفارسى ، أبو مسعود الأنصارى ، تميم الدارى ، عمرو بن العاص ، عبد الله بن سلام ، سعيد بن زيد ، سعد بن أبى وقاص ، مُرّه بن كعب ، شداد بن أوس ، أبو هريرة ، معاوية بن أبى سفيان ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، عبد الله بن عباس، عبد الله بن عمر بن الخطاب ، عوف بن مالك ، أبو جمعة الأنصارى ، واثلة بن الأسقع ، أبو أمامه الباهلى ، أبو نعيم محمود بن الربيع ، يزيد بن أبى سفيان ، أبو ريحانه واسمه شمعون القرظى ، الشريد بن سويد ، عبد الله بن أبى الجذعة التميمى ، فيروز الديلمى ، أبو محمد النجار الأنصارى البدرى ، سلام بن قيصر ، أبى بن أم حرام بنت ملحان الأنصارية ، غُضَيف بن الحارث ، وممن دخل القدس بعد الفتح ، صفية بنت حَىّ - أم المؤمنين - »[2] .

وتوفى بعض هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم بفلسطين ودفنوا بها ، وظلت مقابرهم معروفة مشهورة مزارة يُتبرك بها ، على نحو ما أفاد الرحالة والجغرافيون المسلمون ؛ فذكر المقدسى البشارى أنه زار قبور ثلاثة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقدس ، وهم : عبادة بن الصامت ، ومعاذ بن جبل ، وشداد ابن أوس[3] ، وذكر ابن بطوطة أنه زار بأرض الأردن قبر الصحابى شرحبيل بن حسنة فاتح الأردن[4] .

وقد أطلق المسلمون على مدينة إيلياء ، أو بيت المقدس ، اسم القدس ، وذلك بعد كنس وتطهير الخليفة الراشد عمر بن الخطاب وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم للمزبلة التى كانت حول الصخرة المقدسة ، وظلت حولها طوال العصر البيزنطى حين ابتذلها الروم نكاية وكيدًا لليهود ؛ وقد أفاد مجير الدين الحنبلى أن إولياء معناها : بيت الله المقدس ، وبيت المقدس ، أى المكان المطهر من الذنوب ، واشتقاقة من القدس ، وهى الطهارة والبركة ، فمعنى بيت المقدس ، المكان الذى يُتطَهّر

(١) الأزدى : نفس المصدر ، ص ٢٦٦ .

(٢) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٢٦٠ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧١ - ١٧٢ و ص ١٧٨ .

(٤) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ١٣٩٧هـ - ١٩٦٦م ، ص ٦٠ - ٦٢ .

فيه من الذنوب ، ويقال المرتفع المنزه عن الشرك ، والبيت المقدس ، أى المطّهّر ، وتطهيره إخلاؤه من الأصنام[1] .

احتلال الفرنج للقدس سنة ٤٩٢هـ ، واستمرار احتلالهم له اثنتين وتسعين [٩٢] سنة ؛ حتى استنقذه منهم صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٣هـ ، وهو ما عُرف بالفتح الصلاحى للقدس

تمكنت دولة الخلافة الفاطمية - بعد قيامها ببلاد المغرب بإفريقية التونسية سنة ٢٩٦هـ ، ثم انتقالها إلى مصر سنة ٣٥٨هـ[2] ، من مزاحمة دولة الخلافة العباسية فى السيادة على العالم الإسلامى ؛ فمد الخلفاء الفاطميون الأوائل سيطرتهم على بلاد الحرمين الشريفين ، وخُطِبَ لهم بمكة والمدينة المنورة ، كما سيطروا على غالب ممالك وبلاد الإسلام فى بلاد المغرب ومصر وبلاد الشام والجزيرة العربية ؛ إذ أقيمت دعوة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (ولى الخلافة بمصر من ٣٥٨هـ - ٣٦٥هـ) ببلاد المغرب كله ، وديار مصر والشام ، والحرمين ، وبعض أعمال العراق[3] ؛ ونهضوا بفريضة الجهاد فى وجه الدولة البيزنطية المتنصرة فى آسيا الصغرى وبلاد الروم ذاتها ، وجزر البحر المتوسط ، حتى أرغموا الإمبراطور البيزنطى على توقيع الهدنة معهم فى سنة ٥١٨هـ ، وخَطَب للخليفةالظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى فى بلاد الروم ، وأعاد الجامع بالقسطنطينية[4] .

وقد ظلت القدس بأيدى الخلفاء الفاطميين أغلب أيام دولة خلافتهم ، وإن زاحمهم السيادة عليها خلفاء بنى العباس وسلاطين سلاجقة الروم (الشام) وأتابكتهم ونوابهم الأراتقة أصحاب دمشق ؛ إذ استولى الأراتقة على بيت المقدس سنة ٤٦٣هـ[5] ، ثم أقيمت الدعوة العباسية بالقدس من سنة ٤٦٥هـ - ٤٩١هـ[6] ، ثم استردها الخلفاء الفاطميون سنة ٤٩١هـ[7] ؛ الأمر الذى أضعف بلاد الشام ، وجعلها مطمعًا لحركة الفرنج منذ سنة ٤٩٠هـ[8] ؛ حين أجتاح الفرنج أسيا الصغرى ،

---

(١) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٦ .
(٢) أنظر المقريزى : الخطط ٢: ١٥٨ - ١٦٧ .
(٣) نفس المصدر ٢: ١٦٧ ، ٤: ٦٦ - ٧٤ ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٣٠٣ - ٣١٠ .
(٤) المقريزى : الخطط ٢: ١٦٩ ، س ٨ - ١٠ .
(٥) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٣٠٥ .
(٦) نفس المصدر ١: ٣٠٥ أيضًا .
(٧) نفس المصدر ١: ٣٠٥ أيضًا ؛ وأنظر المقريزى : الخطط ٣: ٢٢ .
(٨) المقريزى : أتعاظ الحنفا ٣: ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ .

وانتزعوا من أيدى دولة سلاجقة الروم مدينة أنطاكية سنة ٤٩٢هـ وأسسوا بها أول إمارة صليبية في ساحل الشام[١] ؛ ثم زحفوا صوب فلسطين وتمكنوا من احتلال القدس فى نفس هذه السنة (٤٩٢هـ) ، بعد استشهاد الحامية الفاطمية بها عن آخرها فى سبيل الدفاع عنها استشهادًا بطوليًا[٢] .

ويحدثنا المقريزى عن السلوك الهمجي اللا إنسانى المتخلف المتعصب للفرنج ، عند استيلائهم على القدس سنة ٤٩٢هـ ، وكيف أبادوا أهله حتى لم ينج منهم إلا النذر القليل ، وكيف حرقوا المصاحف والكتب ، واستباحوا المقدسات الدينية الإسلامية ونهبوا ما كان بها من كنوز وذخائر وتحف ؛ فيقول : « فى سنة ٤٩٢هـ سار الفرنج لأخذ سواحل البلاد الشامية من أيدى المسلمين ؛ فملكوا مدينة أنطاكيه ، وساروا لبنان فقتلوا من به ؛ ... وخرجوا على طريق .. ، عكا ، ثم أخذوا الرملة فى ربيع الآخر ؛ وزحفوا منها إلى بيت المقدس فحاصروا المدينة ؛ وبلغ ذلك الأفضل (بن بدر الجمالى وزير التفويض الفاطمى وأمير الجيوش الفاطمية) ، فخرج بعساكر كثيرة لمحاربتهم ؛ وجد الفرنج - عندما بلغهم مسيرة إليها - فى حصار المدينة ، وكان نزولهم عليها فى شهر ربيع الآخر ، حتى ملكوها يوم الجمعة الثانى والعشرين (٢٢) من شعبان ، بعد أربعين يومًا ؛ وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام ، وقتلوا عامة من كان فى البلد ؛ وكان فيه من العباد والصحلاء والعلماء والقراء وغيرهم خلائق لا يقع عليهم حصر ، فوضعوا السيف فيهم وأفنوهم عن آخرهم ؛ ولم يفلت منهم إلا اليسير . وانحازت عدة من المسلمين إلى محراب داود عليه السلام (وهو حصن على باب مدينة القدس ، بها محراب داواد كما أفاد العماد الأصفهانى فى كتابه الفتح القيسى فى الفتح القدسى) ، فحاصرهم الفرنج نيفًا وأربعين يومًا حتى تسلموه بالأمان فى يوم الجمعة ثانى عشريه . وأحرقوا ما كان ببيت المقدس من المصاحف والكتب ، وأخذوا ما كان بالصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات ، وكان مبلغًا عظيمًا . ويقال أنه قُتل فى المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا ، وأنهم لحقوا من فر من المسلمين مسيرة إسبوع يقتلون من أدركوه منهم »[٣] .

وباحتلال الفرنج للقدس سنة ٤٩٢ ، تم بأسيسهم لإمارة بيت المقدس الصليبية ؛ ثم ما لبثوا أن احتلوا ساحل بلاد الشام ، وكونوا إمارات : الرّها وطرابلس وعكا ، فيما بين سنتى ٤٩٣هـ - ٤٩٥هـ[٤] ؛ فاكتملت بذلك إماراتهم الخمس: أنطاكية، وبيت المقدس، والرّها، وطرابلس، وعكا .

---

(١) نفس المصدر ٣: ٢٠ ، ٢٤ .

(٢) نفس المصدر ٣: ٢٣ - ٢٤ ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٣٠٥ . هذا عدا جزء من الحامية الفاطمية ، تحصنوا فى بُرج داود على باب مدينة القُدس ، ورفضوا إلقاء أسلحتهم ، مما أرغم الفرنج على منحهم الأمان ، فخرجوا من القُدس بأسلحتهم ، وعادوا إلى مصر .

(٣) المقريزى : ألفاظ الحنفا ٣: ٢٣ .

(٤) المقريزى : أتعاظ الحنفا ٣: ٢٨ ، ٣٤

وقد استمر احتلال الفرنج للقدس ٩٣ سنة ، حتى استنقذه منهم السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٣هـ ، وهو ما عُرِف بالفتح الصلاحى للقُدس ؛ وطَهّر صلاح الدين قبة الصخرة من رِجس ومنكرات وتعديات الفرنج ، إبان احتلالهم للقدس ؛ فأبرز محراب المسجد الأقصى ، - وكان الفرنج قد بنوا أمامه حائطًا - ، ونصب المنبر ، ومحا ما وضعه الفرنج على حوائط القبة من صور ، وأزال التماثيل والأصنام ، وكسر الكنيسة والمذبح اللذين استحدثهما الفرنج فوق قبة الصخرة ، وغسل القبة وما حولها بماء الورد - وقيل غسلها بلحيته وهو يبكى - ، وعَمّر قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، ورَخّم محرابه وكتب عليه لوحة مؤرخة تؤرخ لهذه العمارة ؛ ونصب بالمسجد الأقصى منبر السلطان الشهيد نور الدين محمود زنكى ، الذى كان أعَدّه وتعب فيه وَطَعّمه بالأبنوس والعاج ، ووضعه بمحراب جامع حلب فى سنة ٥٦٤هـ برسم القدس إذا يسّر الله فتحها ، فوضعه صلاح الدين بقبلة المسجد الأقصى ، حين تم الفتح القدسى على يديه سنة ٥٨٣هـ[1] .

دَحْر صلاح الدين للفرنج فى موقعة حطين يوم ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ

يحدثنا القاضى بهاء الدين بن شداد قاضى عسكر صلاح الدين عن الانتصار الساحق الذى مَنّ به الله على المسلمين فى معركة حطين سنة ٥٨٣ ، بحيث ظفروا بجميع الفرنج وملوكهم ومقدميهم بين قتيل وأسير حديث شاهد عيان معاصر للأحداث ، خبير ببواطن الأمور ، عليم بروح العصر ، مقرب للسلطان صلاح الدين عارف بسريرته وطويته ؛ متجاوب مع النصر العظيم ، الذى وهبه الله للإسلام والمسلمين يوم حطين ؛ مسجل له بقلم الفخر والاعتزاز ، شاكر الله ما مَنّ به على المؤمنين من

---

(١) أنظر بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين الأيوبى ، تحقيق جمال الدين الشيال ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤م ، ص ٨١ - ٨٢ ؛ العماد الأصفهانى : الفتح القيسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ، د. ت، ص ١١٦ - ١١٧ (ذكر فتح بيت الله المقدس) ، ص ١١٨ - ١٢١ (ذكر كنيسة قمامة = القيامة) ، ص ١٢٢ - ١٢٩ (وصف البيت المقدس) ، ص ١٣٠ - ١٣٤ (ذكر يوم الفتح وهو ٢٧ رجب) ، ص ١٣٥ - ١٣٦ (ذكر ما جرت عليه حال الفرنج فى خروجهم من القدس) ، ص ١٣٧ - ١٤٠ (كر ما أظهره السلطان فى القدس من الحسنات ومحاه من السيئات) ، ص ١٤١ - ١٤٤ (ذكر وصف الصخرة المعظمة عمرها الله) ، ص ١٤٥ - ١٤٦ (ذكر محراب داواد عليه السلام ، وغيره من المشاهد الكرام ؛ وتبطيل الكنائس وإنشاء المدارس) ، ص ١٤٧ - ١٤٩ (ذكر ما كتبته إلى الديوان العزيز - ديوان الخلافة العباسية - مجده الله ، للبُشرى بفتح القدس مع الرسول ضياء الدين الشهرزورى من رساله) ؛ العماد الأصفهانى : سنا البرق الشامى ، تحقيق فتحية النبراوى ، القاهرة ١٩٧٩م ، ص ٢٩٥ - ٣١٦ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان، طبع دائرة المعارف العثمانية بحدر آباد الدكن بالهند ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م ، ٨: ٣٩٢ - ٤٠٠ ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب ، عَمّان - الأردن ، د. ت ، ١: ٣١٠ - ٤٠٦ .

تأييده ونصره ؛ فيقول : « ذكر وقعة حطين[1] المباركة على المؤمنين ، وكانت في يـوم السبت الرابع والعشرين (٢٤) من ربيع الآخر من شهور سنة ثـلاث وثمـانين وخمسمائة (٥٨٣هـ) ؛ وذلك أن السلطان رأى أن نعمه الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله إيـاه فـي البـلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ، ليس لها شكر سوى الاشتغال ببـذل الجهـد ، والإجتهاد فـي إقامة قانون الجهاد ؛ فسيّر إلى سائر العساكر واستحضرها .. ، وعرضهم ورتبهم ، واندفع قاصدًا نحو بـلاد العدو المخذول ، في وسط نهار الجمعة سابع عشر (١٧) من ربيع الآخر ؛ وكان أبدًا يقصد بوقعاته الجمع ، لا سيما أوقات صـلاة الجمعـة ، تبركـا بدعـاء الخطبـاء علـى المنـابر ، فربمـا كـانت أقـرب إلى الإجابة ؛ فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب (...) . حتى كان صباح السبت الذى بُورك فيـه ، فطلب كُلّ من الفريقين مقامـه ؛ وعلمـت كـلّ طائفـة أن المكسـورة منهمـا مدحـورة الجنس معدومـة النفس ؛ وتحقق المسمون أن من ورائهم الأردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وأن لا ينجيهـم إلا اللـه تعالى . وكان الله قد قدر نصـر المؤمنـين ويسّره ، وأجراه علـى وفـق مـا قـدره ؛ فحملـت الأطـلاب الإسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فألقى الله الرعب في قلـوب الكافرين ، (وكان حقًا علينا نصر المؤمنين) .واحتاط أهـل الإسـلام بـأهل الكفـر والطغيـان مـن كـل جـانب ، وأطلقـوا عليهـم السـهام ، وعـاملوهم بالصفـاح ؛ وانهزمـت منهـم طائفـة ، فتبعهـا أبطـال المسلمين ، فلم ينج منهم واحد . واعتصمت الطائفة الأخرى بتلّ يقال له حطـين ، ـ وهـي قريـة عنـده وعندها قبر شعيب عليه الصـلاة والسـلام وعلـى سـائر الأنبيـاء ـ ، فضـايقهم المسـلمون علـى التـل ، وأشعلوا حواليهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الأمر ، حتى كانوا يستسـلمون للأسـر خوفًـا من القتل ، فأسر مُقدّومهم ، وقُتل الباقون وأسروا »[2] .

---

(١) حطين : قرية بين طبرية وعكا ، بينها وبين طبرية فرسخين ، وبقرية جبارة بالقرب منها قَبْر يقال أنه قـبر النبـى شعيب عليه السلام (يا قوت : معجم البلدان ج ٧: ٢٧٣ – ٢٧٤ ، طبعة بيروت وراجع أيضًـا المقريـزى : الخطط ١: ٣٦٧ (ذكر مدينة حطين) حيث يذكر أن قرية حطين التى بها الآن (على أيام المقريزى) قـبر شعيب ، تقع بين طبرية وصفد ، وهي أقرب إلى صفد . وأفاد ابن شيخ الربوة الدمشقى أن حطين كـانت تعـد من أعمال صفد ، بأرض فلسطين والأردن وأنها بقرب من طبرية . قـال : " وعلـى هـذه القريـة كـانت وقعـة عظيمة بين المسلمين والفرنج ، وكان ملك المسلمين صلاح الدين ، وكسر الفرنـج علـى قـرن حطـين ، وقتـل منهم خلق كثير ، وأسر ملوكهم ؛ وبنى على قرن حطين قبة يقـال لهـا قبـة النصـر " ابـن شـيخ الربـوة : نخبـة الدهر ص ٢١ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٥ – ٧٧ ؛ وقارن العماد : الفتح القسـى ، ص ٧٦ – ٨٣ (ذكـر فتـح طَبَرِيّة) ، العماد : سنا البرق الشـامى ص ٢٩٥ – ٢٩٨ (ذكر يوم حطين) . ومما قاله العمـاد : " وَصَحَّـت هذه الكسرة ، وتمت هذه النصرة ، يوم السبت ؛ وضُربت ذِلة أهل السبت على أهل الأحـد ، وكـانوا أسـودًا فعادوا من النقد ؛ فما أفلت من تلك الآلاف إلا الآحاد ، وما نجا من أولئك الأعـداء إلا أعـداد ؛ وامتلأ المـلأ بالأسرى والقتلى، وانجلى الغبار عنهم بـالنصر الـذى تجلى ؛ وقيـدت الأسـارى بالحبال واجفـة القلـوب ، =

ويُفصِّل بهاء الدين بن شداد ما حل بجميع ملوك ومقدمي الفرنج الذين وقعوا في الأسر من الصَّغَار والهَوَان ، ويبيِّن حرص السلطان صلاح الدين الأيوبي على تخيير من كان قد أهدر دمه منهم بين الإسلام أو القتل ؛ فيقول : « وكان فيمن سَلِمَ وأسِرَ من مُقدميهم الملك جفرى ، والبرنس أرناط (صاحب حصن الكرك) ، وأخو الملك ، والبرنس - وهو صاحب الشَّوبك - وابن الهنفرى ، وابن صاحبة طبرية ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ، ومقدم الأسبتار . وأما الباقون من المقدمين فإنهم قتلوا ، وأما الأدوان فإنهم قسموا إلى قتيل وأسير ، ولم يسلم منهم إلا من أسِرَ ، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفًا على نفسه . ولقد حكى لي من أثق به ، أنه لقى بحوران شخصًا واحدًا معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرًا ، يجرهم وحده لخذلان وقع عليهم . فأما الذين بقوا من مقدميهم ، فنذكر حديثهم ، أما القومص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس ، وأصابته ذات الجنب فأهلكه الله بها ؛ وأما مقدم الاسبتار والداويه ، فإن السلطان اختار قتلهم ، فقتلوا عن بكرة أبيهم ؛ وأما البرنس أرناط ، فكان السلطان قد نذر أنه إذا ظفر به قتله ، وذلك أنه كان عَبَرَ بالشوبك قفل من الديار المصرية في حالة الصلح ، فنزلوا عنده بالأمان ، فغدر بهم وقتلهم ، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبلغ ذلك السلطان ، فحمله الدين والحَمِيّة على أنه نذر إن ظَفِرَ به قتله .

ولما فتح الله عليه بالنصر والظفر ، جلس السلطان في دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن نُصِبَت ، والناس يتقربون إليه بالأسرى ومن وجدوه من المقدمين . ونُصِبَتِ الخيمة ، وجلس فرحًا مسرورًا شاكرًا لما أنعم الله به عليه ، ثم استحضر الملك جفرى (ملك مملكة بيت المقدس الصليبية) وأخاه والبرنس أرناط ، وناول الملك جفرى شربة من جلاب (أي ماء الورد) مثلج ، فشرب منها وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنس أرناط ، فقال السلطان للترجمان : قل للملك ، أنت الذي سقيته ، وأما أنا فما سقيته . وكان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم ، أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماءٍ لمن أسره أَمِنَ ، فقصد بذلك ، الجرى على مكارم الأخلاق . ثم أمرهم بمسيرهم

= وفُرِشَتَ القتلى في الوِهَاد والجبال واجبة الجنوب ؛ وحَطَّت حطين تلك الجيف على متنها ، وطاب نشر النصر بنتنها ؛ وعَبَرْت بها فلقيت أشلاء المشلولين في الملتقى ملقاه ، بالعراء عراة ، ممزقة بالمازق ، مفصلة المفاصل مفرقة المرافق ، مفلقة المفالق ؛ محذوفة الرقاب ، مقصوفة الأصلاب ، مقطعة الهام ، موزعة الأقدام ، مجدوعة الآناف ، منزوعة الأطراف ؛ معضاة الأعضاء، مجزأة الأجزاء ، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون (...) . وصارت تلك المعركة ، بالدماء دأماء ، وعادت الغبراء حمراء ؛ وجرت أنها الدم المُنْهَر ، وسَفَرَ بتلك الخبائث المظلمة وجه الدين المطهر (...) . هذا حساب من قُل ، فقد حَصَرَتَ السنة الأمم عن حصره وَعَدِّه ، وأمَّا من أُسِرَ ، فلم تَكُف أطناب الخِيَمَ عن قَيْدِه وَشَدِّه ؛ ولقد رأيتُ في حبل واحد ثلاثين (٣٠) وأربعين (٤٠) يقودهم فارس ، وفي بقعة واحدة مائة (١٠٠) أو مائتين (٢٠٠) يحميهم حارس " أنظر العماد : الفتح القسى ص ٧٩ - ٨٣ .

إلى موضع عيّن لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيئًا ، ثم عاد فاستحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم ، واستحضرهم وأقعد الملك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وواقفة على ما قال ، وقاله له : ها أنذا انتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام . ثم عرض عليه الإسلام ، فلم يفعل . ثم سلّ النمجاه (خنجر مقوس يشبه السيف القصير) وضربه بها ، فحل كتفه ، وتمّم عليه من حضر ، وعجل الله بروحه إلى النار ، فأخذ ورُمي على باب الخيمة . فلما رآه الملك وقد خرج به على هذه الصورة ، لم يشك أنه يُثنّي به ، فاستحضره (السلطان) وطيب قلبه ، وقال : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده ، فجرى ما جرى . وبات الناس فى تلك الليلة علي أتم سرور، وأكمل حبور ، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له ، والتكبير والتهليل حتى طلع الصبح في يوم الأحد[1] .

---

(١) بهاء الدين بن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٧٧ - ٧٩ ؛ وقد أفرد العماد الأصفهاني في كتابه الفتح القسي فصلان عن هذا اليوم المجيد الذى أعز الله فيه الإسلام وأذل أعدائه ، وعرض فيه صلاح الدين أسرى ملوك الفرنج ، أحدها بعنوان : (ذكر الصليب الأعظم والاستيلاء عليه يوم المصاف) ، وثانيهما بعنوان : (ذكر ما اعتمده فى الأسارى الداوية والاسبتارية من ضرب رقابهم) أفاد فيهما أن صليب الصلبوت الذى يعظمه الفرنج قد أخذ يوم معركة حطين ، وان أخذه كان أعظم من أسر ملك الفرنج ، وأن صلاح الدين قد سير الأسرى من ملوك الفرنج وسجنهم بمدينة دمشق . وكان مما قاله العماد : " ولم يؤثر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت ، وأهلك دونه أهل الطاعوت (...) ؛ وهم يزعمون أنه من الخشبة التى يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ؛ وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدرّ والجوهر ؛ واعدوه ليوم الروع المشهود ، ولموسم عيدهم الموعود ؛ فإذا أخرجته القسوس ، وحملته الرؤس ؛ تبادروا إليه ، وأنثالوا عليه ؛ ولا يسع لأحدهم عنه التخلف ، ولا يسوغ للمتخلف عن اتباعه فى نفسه التصرف ؛ وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب لهم فى هذا المعترك (...) ؛ فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم ، ووهت أصلابهم " (العماد : الفتح القسى ، ص ٨٤) . " فلما أصبح يوم الإثنين سابع عشرى (١٧) ربيع الآخر بعد الفتح بيومين ، طلب (السلطان) الأسارى من الداوية والاسبتارية ، وقال : أنا أُطَهِّر الأرض من الجنسين النجسين ، وجعل لكل من يحضر منهما أسيرًا خمسين (دينارًا) ، فأحضر العسكر فى الحال مئتين ؛ وأمر بضرب أعناقهم ، واختار قتلهم على استرقاقهم (...) . وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوف ، وعدة من ذوى التعفف والتعيف ؛ فسأل كل واحد فى قتل واحد . وسل سيفه وحسر عن ساعد (..) . وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفرى وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعوا السجون ، وتُستبدل بحركاتهم السكون " (العماد : الفتح القسى ص ٨٦ - ٨٧) . وزاد العماد فى البرق الشامى : " فما قَتَلَ إلا من عرض عليه الإسلام فأبى أن يُسْلِمَ ، ورأى لشدته فى كفره أن ينقاد للقتل ولا يستسلم ؛ وما أسلم إلا آحاد حَسُنَ إسلامهم ، وتأكد بالدين غرامهم " (العماد : سنا البرق الشامى ، ص ٢٩٨) . وأنظر سبط : مرآة الزمان ٨ : ٣٩٣ - ٣٩٤ ، حيث يقول : " ثم عرض السلطان الإسلام على الداوية والاسبتارية ، فمن أسلم منهم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله ، فقتل خلق عظيم ، وبعث بباقى الملوك والأسارى إلى دمشق ، إلى (الوزير) الصفى بن القابض ، فأعتقل الأعيان فى القلعة ، وباع الأسارى بثمن بخس ، حتى باع بعض الفقراء أسيرًا بنعل ، فقيل له : هذا ثمن بخس ! ، فقال : أردت هوانهم " .

الفتح الصلاحى للقدس ليلة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ

ويصف بهاء الدين بن شداد حصار السلطان صلاح الدين للقدس ، حتى طلب الفرنج المحاصرين به الأمان ، بقوله تحت عنوان : (ذكر فتح القدس المبارك الشريف) :

« ولما تسلم (السلطان) عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس ، شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده ، واجتمعت عليه العساكر التى كانت متفرقة فى الساحل بعد انقضاء لبانتها من السلب والغارة ؛ فسار نحوه معتمدًا على الله ، مفوضًا أمره إليه ، منتهزًا فرصة فتح باب الخير الذى حُث على انتهازه إذا فُتِحَ ، بقوله عليه السلام : من فُتِحَ له باب خير فلينتهزه ، فإنه لا يعلم متى يغلق دونه . وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر (١٥) من رجب سنة (٥٨٣هـ) المباركة ؛ فنزل بالجانب الغربى ، وكان مشحونًا بالمقاتلة من الخيالة والرجاله ، ولقد تحازر أهل الخبرة عدة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين (٦٠) ألفًا ما عدا النساء والصبيان ؛ ثم انتقل ـ رحمه الله ـ لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالى ، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين (٢٠) من رجب ، ونصب عليه المجانيق ، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب فى السور مما يلى وادى جهنم فى قرية شمالية . ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذى لا يندفع عنهم ، وظهرت لهم إمارات نصرة الحق على الباطل ، وكان قد ألقى فى قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السَّبى والقتل والأسر ، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون ، وبالسيف الذى قُتل به إخوانهم مقتولون ؛ فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان ، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين »[1] .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨١ . وأفاد العماد الأصفهانى ، أن صلاح الدين كان قد عزم على فتح القدس عنوة كما أخذه الفرنج عنوة حين استولوا عليه سنة ٤٩٢ وبقى بأيديهم ٩١ عامًا ، ثم نزل على رأى ومشورة مستشاريه فى فتحه صلحًا وتأمين من به من الفرنج بعد أن هدد الفرنج بقتل من عندهم من أسرى المسلمين وتخريب قبة الصخرة ، أنظر العماد : الفتح القسى ص ١١٦ - ١٢٩ ، العماد : سنا البرق الشامى ص ٢٠٩ - ٣١٣؛ وما قاله العماد : "إن أسْعِدْنا من الله على إخراج أعدائه من بيته المقدس فما أسعدنا ، وأىّ يد له عندنا إذا أيدنا ؛ فإنه مكث فى يد الكفر إحدى وتسعين (٩١) سنة ، لم يتقبل الله فيه من عابد حسنة ، ودامت همم الملوك عنه متوسنة ، (...) ؛ فما أدخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب ، ليجمع لهم بالقبول القلوب ؛ وخص به عصر الإمام الناصر لدين الله ليفضله على الأعصار ، ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار ؛ وكيف لا يهتم بافتتاح البيت المقدس الأقوى ، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى ؛ وهو مقام الأنبياء ، وموقف الأولياء ، ومعبد الأتقياء ، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء ؛ ومنه المحشر والمنشر ، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر ؛ وفيه الصخرة التى صينت جدة أبهاجها من الإنهاج ، ومنها منهاج المعراج ، ولها القبة الشماء التى على رأسها التاج ؛ وفيه وَمَضَ البارق ومضى البراق ، وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق (...) وهو أول القبلتين ، وثانى البيتين ، وثالث الحرمين؛ وهو =

وفطن ابن شداد إلى جميل المصادفة ، وخير التوفيق الإسلامي ، ويمن الطالع ، وسعادة التدبير ؛ في موافقة يوم تسلم السلطان صلاح الدين للقدس وليلته لليلة الإسراء والمعراج لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فيقول مشيدًا بهذا الفتح المبارك متتبعًا أصدائه السّارة في الأمصار الإسلامية وخاصة مصر والشام : « وكان تسلمه ـ القدس ـ قدس الله روحه ـ في يوم الجمعة السابع والعشرين (٢٧) من رجب ، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد ؛ فأنظر إلى هذا الاتفاق العجيب ، كيف يسّر الله عوده إلى أيدى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه ، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى . وكان فتوحًا عظيمًا شهده من أهل العلم خلقٌ عظيم ، ومن أرباب الخِرَق والطرق (يعني الصوفية) ؛ وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسّر الله عليه يده من فتوح السواحل ، وشاع قصده القدسي ، قصده العلماء من مصر والشام ، بحيث لم يتخلف معروفٌ من الحضور ؛ وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحُط الصليب الذى كان على قبة الصخرة ، وكان شكلاً عظيمًا ، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر »[1] .

= أحد المساجد الثلاثة التى جاء فى الخبر النبوى أنها تشد إليها الرحال ، ويعقد الرجاء بها الرجال . ولعل الله يعيد بنا إلى أحسن صوره ، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه فى أول سوره ، وقال عز من قائل : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾، وله فضائل ومناقب لا تحصى، وإليه ومنه كان الإسراء ، ولأرضه فتحت السماء ، وعنه تؤثر أنباء الأنبياء ، (...) ، وصخرته الطولى ، القبلة الأولى ؛ ومنها تعالت القدم النبوية ، وتوالت البركة العلوية ؛ وعندها صلى نبينا صلى الله عليه وسلم بالنبيين، وصحب الروح الأمين ، وصعد منها إلى أعلى عليين ، (...) ؛ وهو الذى افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة الفرقان " . (العماد : فتح القسى ص ١٢٢ - ١٢٣) .

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٢ ؛ وأنظر العماد : الفتح القيسى ص ١٣٠ - ١٣٤ (ذكر يوم الفتح وهو سابع عشرى (١٧) رجب) ؛ ومما قاله العماد : " واتفق فتح البيت المقدس فى يوم كان فى مثل ليلته منه المعراج ، وتَمَّ بما وضح من منهاج النصر الابتهاج ، وزاد من الألسنة بالدعاء والابتهال الالتهاج ؛ وجلس السلطان للهناء ،للقاء الأكابر والأمراء ، والمتصوفة والعلماء ؛ وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار ، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار (...) . فبشرت بأقلامى أقاليم البشر ، وعبرت بأعاجيبى عن عجائب العِبَرَ ، وملأت البروج بالدرارى والدروج بالدرر ، ورويت تلك البشرى حتى أطابت ريا (الرَىّ) وسَمَرّ (سمرقند) ، وأطْرَبت وحَلَتَ حتى فاقت القنديد والقند ؛ وعَلَقْتُ بفتح القدس بلاد الإسلام وزينت ، وشرحت فضيلتها وبينت ، وأديت فريضة زيارتها وتعينت . (...) وكَتَبْتُ إلى كل ذى طرف بمعنى طريف ، ولفظ فصيح حصيف (...) ؛ وسارت شواردى إلى المشرق والمغرب ، معربة عن هذا الفتح المعرب ، عن النصر المذهب، وبشرت المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى ، وتلوتَ ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى ﴾ (الآية ١٣ من سورة الشورى) ؛ وهنأت الحجر الأسود بالصخرة البيضاء ، ومنزل الوحى بمحل الإسراء ، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والأنبياء ، ومقام إبراهيم بموضع قدم المصطفى - صلى الله عليه وعليهم أجمعين ، وأدام الله على الإسلام بشرف بيتيه مستمتعين . وتسامع الناس بهذا النصر الكريم ، والفتح العظيم ؛ فوفدوا للزيارة من كل فج عميق ، وسلكوا إليه فى كل طريق ، وأحرموا من البيت المقدس إلى البيت العتيق " (العماد : الفتح القسى ص ١٣٠ - ١٣٤) .

ويختتم ابن شداد حديثه عن الفتح الصلاحى للقُدس ، بذكر شروط الصلح التى أقر عليها صلاح الدين الفرنج بعد استسلامهم وتسليمهم القدس له ؛ فيقول : « وكـان قـاعدة الصُلح ، أنهم قطعوا على أنفسهم : عن كل رجل عشرة (١٠) دنانير ، وعن كل امرأة خمسة (٥) دنـانير صورية ، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارًا (١) واحدًا ، فمن أحضر القطيعة سلم نفسه ، وإلا أخذ أسيرًا . وفرج الله عمن كان أسيرًا من المسلمين ، وكانوا خلقًا عظيمًا زهاء ثلاثة آلاف أسير . وأقام ـ رحمه الله ـ يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ، وإيصال من دَفَع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو « صور » . ولقد بلغني أنه ـ رحمة الله عليه ـ رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء ، وكان مائتى (٢٠٠) ألف دينار ، وعشرين (٢٠) ألف دينار ؛ وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين (٢٥) من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٥٨٣هـ) »[1] .

قال مجير الدين الحنبلي : وما أصيب الفرنج من حين خرجوا إلى الشام فى سنة ٤٩٠هـ إلى الآن، بمصيبة مثل هذه الواقعة[2] .

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨٢ . ويقول سبط بن الجوزى عن شروط الصلح : " واستقر الأمر على أن يخرجوا بأنفسهم وأموالهم وذراريهم ، سوى الخيل الحربية والسلاح ؛ بعد أن يؤدى كل واحد منهم عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن الصبى أربعة دنانير ، وعن الطفل دينارًا ؛ ومن عجز منهم ، كان رقيقًا سيملك ؛ ومن أراد من النصارى الإقامة ، فليقم وتؤخذ منه الجزية ؛ وأقر بأيديهم القمامة (أى كنيسة القيامة) ، وعينوا أماكن يزورونها ؛ وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشرين (٢٧) رجب ليلة المعراج ، فكان استيلاء الفرنج عليه اثنين وتسعين (٩٢) سنة ، لأنهم أخذوه فى سنة ٤٩١هـ ، وفتح فى هذه السنة وهى سنة ٥٨٣هـ (...) . قلت : ولقد ضيع السلطان الحزم بتسيير الفرنج إلى صور ، ولم ينظر فى عواقب الأمور ؛ فإن اجتماعهم بصور كان سببًا لأخذهم البلاد ، وقتلهم بعكا من قتلوا من الأعيان وأجناد الإسلام ؛ وقد كان الواجب عرضهم على الإسلام ، فإن أبو فالسيف وهو أصدق أنباء من الكتب ؛ وأنّى وكيف ، وما أشبه هذه القضية بفدية الأسارى يوم بدر ، حيث أشار بعض الصحابة بأخذ ذلك القدر ، وبعضهم أشار بضرب الرقاب ، وما صدر ذلك الرأى إلا عن صدر ؛ فلا جرم قتل منهم يوم أُحُد سبعون ، وأسر سبعون من المسلمين ، كما فعلوا يوم بدر بالمشركين " (سبط : مرآة ٨ : ٣٩٧ - ٣٩٨) . قلت : والذى يستفاد من تاريخ فتوح الشام فى صدر الإسلام زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسيرة أبى عبيدة ابن الجراح رضى الله عنه القائد العام لفتوح الشام ، أنه كان يصالح أهل بلاد الشام ومدنه ويأمنهم ويفتح بلادهم صلحًا لا عنوة ، حتى يسارع أهل بقية المدن لطلب الصلح على شروط عادلة مماثلة ؛ ولا شك عندى أن السلطان صلاح الدين الأيوبى قبل نهوضه لفتوح الشام والسواحل ، قد قرأ سيرة وتاريخ أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه ، ودرس فتوحه وبقية فتوح الشام ، واستفاد من سيرته فى حروبه مع الفرنج ، والواقع أن السلطان صلاح الدين قد حصر الفرنج فى شريط ساحلى ضيق على ساحل الشام محصورًا بين صور وصَيْدًا ، حتى سهل استئصال شأفتهم من الشام نهائيًا وهو ما تم على يد السلطان الأشرف خليل بن قلاون ، حين فتح عكا آخر معاقل الفرنج بساحل الشام .

(٢) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ١ : ٣٣ (ذكر يوم الفتح) .

ولنستمع لشهادة شاهد عيان آخر ، شهد بنفسه تسليم الفرنج للقدس سنة ٥٨٣هـ وخروجهم منها ، وعاش أحداث هذا الفتح الجليل عن قرب ، وخَبَرَ شروط التسليم ، واطلع على خبايا الأمور ، لكونه من مستشارى الدولة الصلاحية ورؤساء دواوينها ؛ وأعنى به العماد الأصفهانى ، رئيس ديوان الإنشاء الصلاحى فى بلاد الشام ؛ وقد جاء وصفه لها اليوم المجيد ، الذى أعزّ الله فيه الإسلام ، وأذلّ فيه أعدائه ـ كما عهدنا من أسلوب العماد البليغ وبيانه الرائع ـ وصفًا مؤثـرًا جـدًا ـ ، مـن شأنه ولا ريب أن يجعل هذا النصر المظفر وذكراه ، ماثلة دائمًا فى أذهاننا ، مهما طال عليها الأمد ؛ فيقـول العماد : « فعقد السلطان محضرًا للمشورة ، وأحضر كبراء عساكره المنصورة ؛ وشاورهم فى الأمر ، وحاورهم فى السر والجهر ؛ (...) . واستقر بعد مراودات ومعاودات ، ومفاوضـات وتفويضـات ، وضراعات من القوم وشفاعات ؛ على قطعة تكمُل بها الغِبْطة ، وتحصل منها الحَوْطة ، وأشتروا بها منّا أنفسهم وأموالهم ، وخلّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم ؛ على أنه من عجز بعد أربعين يومًا عمـا لزمه ، أو امتنع منه وما سلّمه ؛ ضُرِبَ عليه الرِّقّ ، وثبت فـى تملكـه لنـا الحق ؛ وهـو عـن كـل رجـل عشـرة (١٠) دنـانير ، وكـل امـرأة خمسة (٥) ، وكـل صغير أو صغيرة دينـاران (٢) ؛ ودخـل ابن بارزان (أحد كبار أمراء الفرنج) والبطرك ومقدما الداوية والاسبتارية فى الضمـان . وبـذل ابـن بارزان ثلاثين (٣٠) ألف دينار عن الفقراء ، وقام بالأداء ، ولم ينكل عن الوفـاء ؛ فمـن سلّم خـرج من بيته آمنًا ، ولم يعد إليه ساكنًا .

وسلموا البلد يـوم الجمعـة السـابع والعشـرين (٢٧) مـن رجـب علـى هـذه القطيعـة ، وردّوه بالرغم رد الغصب لا الوديعة ؛ وكان فيه أكثر مـن مائـة (١٠٠) ألـف إنسـان ، مـن رجـال ونسـاء وصبيان ؛ فأغلقت دونهم الأبواب ، ورُتِبت لعرضهم واستخراج مـا يـلزمهم النـواب ؛ ووُكـل بكـل باب أمير ومقدم كبير ، يحصر الخارجين ، ويحصى الوالجين ؛ فمن استُخرج منه خرج ، ومن لم يقم بمـا عليه قعد فى الحبس وعدم الفرَج .

ولو حُفظ هذا المال حق حفظه ، لفاز منـه بيـت المـال بـأوفر حظـه ؛ لكنمـا تـم التفريـط ، وعـم التخليط ؛ فكل من رشا مشى ، وتنكب الأمناء نهج الرشد بالرُشا ؛ فمنهم من أدلى من السور بالحبال ، ومنهم من حُمل مخفيًا فى الرحال ؛ ومنهم من غُيِّرت لبسته فخرج بزىّ الجند ، ومنهم من وَقَعَتْ فيـه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد .

وكانت فى القدس ملكة رومية مترهبة ، فى عبادة الصليـب متصلبـة ، وعلـى مصابهـا ملتهبـة ، وفى التمسك بملتها متصعبة متعصبة ، أنفاسها متصاعدة للحزن ، وعباراتها متحددة تحدّر القطـرات من المُزن ، ولها حال ومال وأشياء وأشياع ، ومتاع واتباع ؛ فَمَنّ عليها السلطان وعلى كل مـن معها

بالإفراج ، وأذِنَ في إخراج كل مالها في الأكياس والأخراج ؛ فراحت فرحي ، وإن كانت من شجنها قرحي .

وكانت زوجة الملك المأسور - ابنة الملك أماري - ، مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والخول والجواري ؛ فخلصت هي بمن معها ومن تبعها ، ومن إدعى أنه ممن صحبها وشيعها . وكذلك الإبرنساسة ابنة فيليب أم هنفري ؛ أعفيت من الوزن ، وتوفر مالها عليها في الحزن .

واستطلق صاحب البيرة زهاء خمسماسة (٥٠٠) أرمني ، ذكر أنهم من بلدة ، وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده ؛ وطلب مُظفر الدين بن علي كوجك ، زهاء ألف (١٠٠٠) أرمني ادعى أنهم من الرها ، فأجراه السلطان من إطلاقهم له على ما اشتهى .

وكان السلطان قد رتب عدة دواوين ، في كل ديوان منها عدة من النواب من المصريين ومنهم من الشاميين ؛ فمن أخذ من أحد الدواوين خطًا بالأداء انطلق مع الطلقاء ، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء ؛ فذكر لي من لا أشك في مقاله ، أنه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله ، فربما كتبوا خطًا لمن نقده في كيسهم ، ويلبس أمر تلبيسهم ؛ فكانوا شركاء بيت المال لا أمناه ، وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضر غناه ؛ ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة (١٠٠) ألف دينار ، وبقى من بقى تحت رق وأسار ، ينتظر به انقضاء المدة المضروبة ، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة »[1] .

« وشرع الإفرنج في بيع الأمتعة ، واستخراج ذخائرهم المودعة ؛ وباعوها بالمجان في سوق الوهان ، وتقاعد الناس بهم فابتاعوها بأرخص الأثمان (...) ؛ وكنسوا كنائسهم ، وأخذوا منها نفائسهم (...) ؛ ونقضوا من الكنائس الكنائن ، واستخرجوا من الخزائن الدفائن ؛ وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر من صفائح التّبر ومصوغات العَسْجَدّ ومصنوعات اللُّجين ، وجمع ما كان في قمامه (كنيسة القيامة) من الجنسين والنسجين .

فقلت للسلطان : هذه أموال وافرة ، واحوال ظاهرة ؛ تبلغ مائى (٢٠٠) الف دينار ، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار ، فلا تتركها في أيدى هؤلاء الفجار . فقال : إذا تأوّلنا عليهم نسبونا إلى الغدر ، وهم جاهلون بسير هذا الأمر ؛ ونحن نجريهم على ظاهر الأمان ، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان بنكث الأيمان ، بل يتحدثون بما أفضناه من الإحسان .

(١) العماد : الفتح القسى ص ١٢٧ - ١٢٩ (وصف البيت المقدس) .

فتركوا ما ثقل وحملوا ما عز وخف ، ونفضوا من تراب تراثهم وقمامة قمامتهم الكف ؛ وانتقل معظمهم إلى صور ، وكتفوا بالديجور الديجور ؛ وبقى منهم زهاء خمس عشر (١٥) ألفًا امتنعوا عن مشروع الحق ، فاختصوا بمشروط الرق . فأما الرجال وكانوا فى تقدير سبعة (٧) آلاف ، فإنهم ألفوا ذلاً لم يكونوا له بآلاف ؛ فاقتسمتهم أيدى السّبى أيدى سبا ، وتفرق الغانمون بجمعهم فى الوهاد والربا . وأحصيت النساء والصبيان ثمانية (٨) آلاف نسمة ، عادت بيننا مقتسمة ، وأصبحت بُكائها وجوه الدولة مبتسمة .

فكم محجوبة هُتكت ، ومالكه مُلكت ، وعَزباء نُكحت ، وعزيزة مُنحتّ ، وبخيلة تسمّحتّ ، وحيية توقّحتّ ، ومُجدّة مَزَحتّ ، ومصونة إبتذلتّ ، وفارغة شُغلت ، وعقيلة امتُهنتّ ، وجميلة امتُحنتّ ، وعذراء افتُرعتّ ، وشمّاء فُرعتّ ، ولمياء رُشفتّ ، وظمياء فُرشتّ (...) ؛ فكم تسرّى منهن سَرِىّ ، وتجرأ عليهن جَرِىّ ؛ وقضى وطره عَزِبّ ، ونفّى نهمه سَغِبّ .

ولما تقدس القدس من رجس الفرنج أهل الرجز ، وخلع لباس الذل ولبس خِلَعَ العزّ ، أبى النصارى (يقصد نصارى الشام ذوى الأصول العربية) بعد أداء القطيعة أن يخرجوا ، وتضرّعوا فى أن يَسكُنوا ولا يُزعَجوا ، وبذلوا خدمًا وخدّموا ببذول ، وقابلوا كل ما ألزموا به بالتزام وقبول ؛ وأعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، وشحّتّ أفواهُهُم بما شَجَاهُمّ فزاد شَجاهُمّ وهم فاغرون ؛ ودخلوا فى الذّمة ، وخرجوا إلى العِصمَة ، وشُغلوا بالخدمة ، واستُعملوا فى المِهنَة ، وعدّوا المحنة فى تلك المحنّة »[1] .

ويتضح من الوصف الدقيق البليغ ، الذى أمدنا به العماد الأصفهانى فى كتابه الفتح القيسى فى الفتح القدسى ، عن تسليم الفرنج للقدس فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ ، ورضوخهم لشروط الأمان الذى منحه لهم السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وحالهم فى خروجهم من القدس ؛ يتضح أنه كان بالقدس من الفرنج عند فتح السلطان له أكثر من مائة (١٠٠) ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان ، فأغلقت دونهم أبواب مدينة القدس وصاروا أسارى ؛ وأن من لم يستطع من الفرنج أداء ما يفتدى به نفسه من الأسر والرق ، ـ وهو عشرة (١٠) دنانير عن كل رجل ، وخمسة (٥) دنانير عن كل امرأة ، وديناران (٢) عن كل طفل أو طفلة ؛ ـ وذلك بعد انقضاء المهلة وهى أربعين (٤٠) يومًا ـ ، وقع فى الأسر والرق ؛ وأنهم كانوا زهاء مائة (١٠٠) ألف نسمة ، عجز منهم عن أداء الفدية ١٥ ألف ، ٧ آلاف من الرجال ، و٨ آلاف من النساء والصبيان ، صاروا جميعًا أرقاء للمسلمين ، وتسرى المسلمون بالنساء منهم ، وصرن ملك يمين وأمهات أولاد للمسلمين .

كذلك أفاد العماد الأصفهانى أن خزائن بيت مال المسلمين فى الدولة الصلاحية قد امتلأت من هذا الفداء ، رغم ما حدث من إنحراف وارتشاء بعض موظفى الديوان ، وتغاضيهم عن أخذ الفداء

(١) العماد : الفتح القسى ص ١٣٥ – ١٣٦ (ذكر ما جرت عليه حال الفرنج فى خروجهم من القدس) .

من بعض الفرنج نظير رشاوى دفعوها إليهم ؛ وذكر العماد أن شهامة صلاح الدين قد آبتّ عليه إذلال من كان بالقدس من ملكات وأميرات الروم والفرنج ووقعن فى الأسر ، فَمَنّ عليهن السلطان وأطلق سراحهن بغير فداء ، وسمح لهن بالخروج بأموالهن وجواديهم وعبيدهن ؛ عملاً بالقول السائر : أكرموا عزيز قوم ذَلّ ؛ كما إنه - رحمه الله - قبل شفاعة بعض أمراء دولته فى عدد كبير من الأرمن ، الذين كانوا مقيمين بالقدس على نية الحج والعبادة ، لا القتال مع الفرنج .

وذكر العماد أن تسامح السلطان بلغ مداه تجاه الكنائس والأديرة بالقدس ، فسمح لبطريرك كنيسة القيامة وأساقفة الأديرة ، بالاحتفاظ بذخائر وكنوز وتحف كنائسهم وأديرتهم ، كما أنه رفض ما أشار عليه به بعض المتشددين من رجال مشورته ، من هدم بناء كنيسة القيامة التى يَحُجّ إليها الفرنج مما وراء البحر ، لاعتقادهم بوجود موضع صلب المسيح وقبره تحتها ؛ وسمح للنصارى بالحج إلى كنيسة القيامة ، وترك أبوابها مفتوحة للزيارة ، وحدد لهم مواضع معينة بالقدس يزورونها ، لكونها من مقدساتهم الدينية ، حتى يشيع ذكر ذلك التسامح الدينى بين النصارى وعند الفرنج ، فينسب المسلمون إلى التسامح والعفو ، ولا ينسبوا إلى التعصب والتشدد .

كما ذكر العماد الأصفهانى أن التسامح الدينى لصلاح الدين تجاه المقدسات الدينية غير الإسلامية بالقدس ، الخاصة بأهل الكتاب الأول من اليهود والنصارى ، قد شملت أيضًا الأماكن المقدسة عند اليهود ، وأهمها الحصن المعروف بمحراب داواد ، الكائن - آن ذاك - عند باب مدينة القدس ، خارج حرم المسجد الأقصى ، وخارج السور المحيط بساحة وحرم المسجد الأقصى ، إذ يزعم اليهود أن بهذا الحصن كان منزل داواد وسليمان ، وبه محراب يُعَرَفّ بمحراب داواد ؛ فأبقى صلاح الدين على محراب داواد ؛ وبقى مصونًا لا يمس حتى خَرّبه الملك الناصر داواد صاحب الكرك سنة ٦٣٧هـ ، لما نقض الفرنج شروط الهدنة بينهم وبين المسلمين ، وأعادوا بناء أسوار مدينة القدس وتحصين أبراجها .

ولم يفت العماد الأصفهانى ، التنبيه على أمر جوهرى ، خاص بشروط تسليم القدس فى الفتح الصلاحى سنة ٥٨٣هـ ، وهو أن السلطان صلاح الدين قد أقر العرب من نصارى الشام المقيمين بمدينة القدس ، على السكنى والإقامة بداخلها ؛ على أن يؤدوا الجزية السنوية الملزم بأدائها أهل الكتاب فى دار الخلافة الإسلامية ، ويصيروا أهل ذمة للمسلمين ودولة الإسلام ، ويتمتعوا فيها بحقوق المواطنة المدنية والقضائية كأهل ذمة ؛ وتفسير ذلك بطبيعة الحال ، لما سبق للعرب من نصارى الشام من أهل إيلياء (القدس) وأهل لُدّ وفلسطين من عهد وعقد ذمة وصلح ، منحهم إياه الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بنفسه ، حين تم فتح القدس فى أيام خلافته سنة ١٥هـ ، وهو ما عرف بالفتح العمرى ، واشتهر صلحه وعهده وعقد ذمته لأهل القدس باسم صلح إيلياء ؛ الذى عُدّ بعد ذلك النموذج المحتذى لدى خلفاء الإسلام ، فى عهود صلحهم وذمتهم لأهل الذمة فى ديار الإسلام ، أو فى البلاد التى يفتحها الله على الإسلام والمسلمين من دار الحرب .

مقارنة العماد الأصفهاني بين الفتح العمري للشام والقدس سنة ١٥هـ ، وبين الفتح الصلاحي للشام والقدس سنة ٥٨٣هـ

ولأن العماد الأصفهاني ، كان كاتب ديوان الإنشاء الصلاحي في بلاد الشام ، وأحد خواص الدولة الصلاحية ومستشاريها وأولى الرأى فيها ، ورفيق صلاح الدين الأيوبي في غزواته وفتوحاته في بلاد الشام ، وأحد مؤرخي الدولة الصلاحية ؛ فقد أفرد للفتح الصلاحي كتابًا مستقلاً ، أسهب فيه في ذكر هذا الفتح العظيم ، وأرخ له بقلمه البليغ تاريخًا شيقًا حيًا ، فكأن يراعه ريشة رسام عبقرى ، رسمت وقائع ها الفتح ، ولونته بالألوان ، حتى نطق وأفصح عن ذاته .

وقد قرن العماد في كتابه هذا الذى سماه (الفتح القيسى في الفتح القدسى ، بين هجرة صلاح الدين الأيوبى والمسلمين إلى القدس ، وبين هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ، لما تمخض عن هاتين الهجرتين من ظهور للإسلام ؛ وعد تاريخ الفتح القدسى ، لجلاله وعظمته وأثره الباقى في تاريخ الإسلام والمسلمين ، حدثًا جليلاً من الأحداث الجسام التى تؤرخ بها الأمم ؛ وقارن بين فتوح المسلمين في بلاد الشام في عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم ، على يد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم رضوان الله عليهم الذين شهدوا معه صلى الله عليه وسلم مغازيه ومشاهده وفتوحاته ، وبشرهم صلى الله عليه وسلم بفتوح البلدان ، وكانوا عند تمام فتوح الشام قريبى العهد بوحى السماء وهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وبين الفتح الصلاحى للقدس ، الذى تم في المئة السادسة للهجرة ، حيث أصبح الإسلام غريبًا ، وبَعُدَ العهد وطال الأمد بين المسلمين ووحى السماء ، فقست قلوبهم ، وتفرقت أهواءهم ، وضعفت شوكتهم ، وهان أمرهم أمام عدوهم الذى دهمهم من وراء البحر ، وعجز ملوكهم عن دفعه ، حتّى نَهَضَ لجهادِهِمّ السلطان . صلاح الدين . وقد أطرى العماد السلطان صلاح الدين الذى تم على يديه هذا الفتح العظيم ، وأكد أنه ـ رحمه الله ـ بتدينه وتقواه وورعه وعمله وجهاده واجتهاده ، كان مُؤيدًا في هذا الفتح من الله سبحانه وتعالى ، وأنه كان جديرًا بهذا التأييد ، لأن الله سبحانه وتعالى قد وعد في القرآن الكريم بنصر جنده وأوليائه ، وأشاد العماد بوقوع هذا الفتح في عهد الخليفة العباسى الناصر لدين الله ، الذى فتح صلاح الدين البلاد باسمه وباسم دولة الخلافة العباسية .

فيقول العماد فى ديباجة كتابه الفتح القيسى فى الفتح القدسى : « هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغُرَرِ المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السِّيَرِ المتحلية (...). وإنما بدأنا بالتأريخ به لاستقبال سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٥٨٣هـ) ، لأن التواريخ معتادها ، إما أن تكون مستفتحة من بدء نشأة البَشَرِ الأولى ، وإما مستفتحة بمعقب من الدول الأخرى . فلا أمة من ذوات المِلَلِ وذوات الدول ، إلا ولهم تاريخ يرجعون إليه ، ويعولون عليه ، ينقله خلفها عن سلفها، وحاضرها عن غابرها ، تُقيد به شوارد الأيام ، وتُنصب به معالم الأعلام ؛ ولولا ذلك لانقطعت الوصل ، وجُهِلَتِ الدول ، ومات فى أيام الأخر ذكر الأول (...) . ولولا التاريخ لضاعت مساعى أهل السياسات الفاضلة ، ولم تكن المدائح بينهم وبين المذامِّ هى الفاصلة ؛ ولقل الاعتبار بمسالمة العواقب وعقوبتها ، وجهل ما وراء صعوبة الأيام من سهولتها ، وما وراء سهولتها من صعوبتها (...). وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة ... ؛ وأظهر الله على الأديان الدين القيِّم ، ونسخ تاريخ الهجرة كل تاريخ متقدم (...) ؛ ووقت هذه الهجرة الوقت الذى أمر به أمرُ الإسلام ، ويومها اليوم الذى ما ولدت الليالى مثله من بنيها الأيام ، وعامها الخاص بالفضل وكل ما بعده يعد من عوام الأعوام . وأنا أرخت بهجرة ثانية ، تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامة معذوق ، وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممذوق ؛ وهذه الهجرة هى هجرة الإسلام إلى البيت المقدس ، وقائمها السلطان (صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب) ؛ وعلى عامها يحسن أن يُبنى التاريخ وينسق ، وتَسْتَقِرّ عن أهِلَّتها دآدىء المداد وتَنْشَقّ ؛ وهى وإن كانت هجرة الإسلام إلى القدس ثانية ، فقد كان الثنى عن وطنه لما ثنته يد الكُفر ثانية . وهذه الهجرة أبقى الهجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين (...) ، والفرق بين فتوح الشام فى هذا العصر ، وبين فتوحه فى أول الأمر ، فرق يتبين تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

فإن الشام فتح أول والعهد بالرسول صلى الله عليه وسلم غير بعيد ، والوحى ما كاد يتعطل فى طريقه من السماء إلى الأرض بريد ؛ والعيون التى شاهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم تَسِلّ سيوفها من أجفانها ؛ والقلوب التى شهدت مواقف معجزاته أوثق بخبره فى الفتح منها بعيانها ؛ ورسل عالم الغيب إلى عالم الشهادة بالآيات المؤتلفة مختلفة ، ونجدات السماء إلى أهل الأرض متصلة بالملائكة منزلة ومسومة ومُردفة ؛ وقد أخبرهم سيدنا وسيدهم أن الأرض زويت له مشار قها ومغاربها ، وأنه سيبلغ مُلك أمته المثوبة المرحومة ماضَمَّت عليه جوانبها (...) . والشام الآن قد فتح حيث الإسلام قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا ، وهريق شبابه واستشن أديمه ، وقد عاد غريبًا كما بدأ غريبًا ، وقد طلع شرف الستمائة (...) ؛ وطال المد على القلوب فقست ، ورانت الفِتَنُ على البَصَائر فطَمِسَتّ ، وعَرَضُ هذا الأدْنَى قد أعْمَى وأصَمّ حبه ، ومتاع هذه الحياة القليل قد شغل عن الجزيل فى الآخرة كسبه . والكفار قد خَشِنَتّ عرائكهم ، واتسعت ممالكهم ،

واستبصروا فى الضلال ، واستبضعوا للقتال ؛ وخرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ، ونفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم ناشية الصوت .

ومضت ملوك الإسلام ، ومضت أيامهم كالبارق وإن لم يخلع الإظلام ، وزادت أيامهم الأيام خيالاً فتنازع الناس طرائف الأحلام ، وحاربوا هذا العدو الكافر فما أثروا فيهم وكانوا محاربين كمسالمين ، وبذلوا جهودهم فلا نقول أنهم مظلومون بالعجز ومانُسِّيهم ظالمين (...) . فلما أراد الله الساعة التى خلاها لوقتها ، وأظهر الآية التى لا أختَ لها ، فنقول : فهى أكبر من أختها ؛ أفضت الليلة الماطلة إلى فجرها ، ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها ، وجاءت بواحدها التى تُضاف إليه الأعداد ، ومالكها الذى له السماء خيمة والحُبّك أطناب والأرض بساط والجبال أوتاد .. (صلاح الدنيا والدين) ، ومهما دَعونا له فإن الله قد سبق إليه كونا ، ورأينا بين مُنانا وبين كرمه بونا ... ؛ فإن قلنا أحسن الله إليه ؛ فقد قال : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (الآية ٣٠ من سورة الكهف). وإن قلنا : جزاه الله بالإحسان ، فقد قال : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ (الآية ٦٠ من سورة الرحمن) . وإن قلنا : هداه الله سبيله ، فقد قال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (الآية ٦٩ من سورة العنكبوت) . وإن قلنا : لا ضيع الله عمله ، فقد قال : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ ﴾ (الآية ١٩٥ من سورة آل عمران) . وإن قلنا : لا جعل الله لدهر عليه سبيلاً ، فقد قال : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (الآية ٩١ من سورة التوبة) ، وإن قلنا : زاده الله هدى ، فقد قال : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ (الآية ١٧ من سورة محمد) . (...) وإنا لنرجو أن نكون قد كُتبنا بمدحه مع الصادقين الذين أمِرَ الذين آمنوا أن يكونوا معهم ، وأن نكون قد كُتبنا مع المحسنين لأنا أحسنا وصف إحسان الله إلى عباده .(...) .

« ويسر الله هذه الفتوح ، وأنزل بها الملائكة والروح ، فى أيام سيدنا ومولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أبى العباس أحمد ، ابن الإمام المستضى بالله أبى محمد الحسن ، ابن الإمام المستنجد بالله أبى المظفر يوسف ، (...) بن عبد الله بن العباس ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين والخلفاء الراشدين (...) ؛ والسلطان صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب ناصر دعوته وداعى نصرته ، ووليه الطائع وسيفه القاطع ، والمحكم بأمره ، والمؤمر بحكمه (...) . ولما كان هذا الفتح فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (٥٨٣هـ) ، بدأت بها ، وأنشأت رياضى بسحبها ، وما شَهِدْتُ إلى إلا بما شاهدته وشهدته (...) »[١] .

(١) أنظر هذه الديباجة بتمامها لأهميتها ، عند العماد : الفتح القسى ، تحقيق محمد محمود (صبح) د. ت ، ص ٤١ - ٥٨ .

إزالة صلاح الدين لتعديات الفرنج على قبة الصخرة والمسجد والأقصى ، وعمارته لهما سنة ٥٨٣هـ

ولندع يراع العماد الأصفهانى ، كاتب ديوان الإنشاء الصلاحى ، يقدم لنا صورة حية ملونة ناطقة بليغة ، لتطهير صلاح الدين لمدينة القدس وقبة الصخرة والمسجد الأقصى من رجس الفرنج ومنكراتهم وتعدياتهم ، وإعادة الشعائر الإسلامية إليهم ، والاحتفاء بإقامة أول خطبة جامعة وأول صلاة جمعة فيها بعد استنقاذهم من الفرنج ؛ بحيث أمر بإظهار المحراب - وكان الداوية قد بنوا فى وجهه جدار -؛ ونصب المنبر، وفرش القبة والمسجد بالسجاجيد الفاخرة ، وأنارهما بالقناديل الباهرة ، وأقيمت الصلوات الإسلامية الحنيفة ؛ ونطق الآذان ، وعاد الإيمان ، ووُحّد الله سبحانه وتعالى ؛ وصدح المنبر ، وتولى المذكرون والوعاظ والحفاظ والعلماء والفقهاء والمحدثون والمفسرون إلقاء دروسهم . واختار السلطان القاضى محى الدين أبى المعالى محمد بن زكر الدين على القرشى قاضى دمشق خطيبًا ، ليخطب خطبة أول جمعة تقام فى المسجد الأقصى بعد استرداده من الفرنج ؛ فأهدى العماد الأصفهانى هذا الخطيب خلعة سوداء من خِلَع ديوان الخلافة العباسية ، ليرتديها حين يعتلى المنبر ؛ فألقى هذا الخطيب خطبتين ذكر فيهما فضل بيت المقدس والمسجد الأقصى وتاريخ تأسيسه ، وتطهير السلطان له ؛ ثم نزل وصلى فى المحران وأمّ الناس ، وصلى السلطان فى قبة الصخرة ومن ورائه جموع المصلين الذين ملؤا ساحة المسجد الأقصى . واختار السلطان الواعظ الفقيه الحنبلى زين الدين أبو الحسن على بن نجا ، ليجلس للوعظ على السرير الذى أعِدّ للوعظ فى مواجهة المنبر ؛ فألقى مواعظ مؤثرة . ورتب السلطان فى المسجد الأقصى خطيبًا دائمًا ، يتولى خطبة الجمعة به كل إسبوع .

فيقول العماد الأصفهانى فى كتابه الفتح القيسى فى الفتح القُدْسى ، فى الفصل الذى عنونه بـ (ذكر ما أظهره السلطان فى القدس من الحسنات ومحاه من السيئات) : « ولما تسلم السلطان القدس ، أمر بإظهار المحراب ، وحتّم به أمر الإيجاب ؛ وكان الداوية قد بنوا فى وجهه جدار وتركوه للغلة هريًا (هريًا : مخازن للغلال) ، وقيل كانوا اتخذوه مُستراحًا عدوانًا وبغيًا ؛ وكانوا قد بنوا من غربى القِبْلَة دارًا وسيعة ، وكنيسة رفيعة ؛ فأوعز برفع ذلك الحجاب ، وكشف النقاب عن عروس المحراب ؛ وهدم ما قُدّامه من الأبنية ، وتنظيف ما حوله من الأفنِيَة ؛ بحيث يجتمع الناس فى الجمعة ، فى العَرْصة (العرصة : ساحة الدار) المُتسعة . ونصب المنبر ، وأظهر المحراب المطهر ، ونقض ما أحدثوه بين السوارى (السوارى : الاسطوانات التى تشبه الأعمدة) ؛ وفرشوا تلك البسيطة

بالبسط الرفيعة ، عِوّضَ الحصر والبوارى ؛ وعُلقت القناديل ، وتُلى التنزيل ، وحق الحق وبطلت الأباطيل ، وتولّى الفُرقان وعُزل الإنجيل ؛ وصُفّت السّجّادات ، وصَفَتّ العبادات ، وأقيمت الصلوات ، وأديت الدعوات ، وتجلت البركات ، وانجلت الكربات ، (...) وتُليت الآيات ، وأعليت الرايات . ونَطَقَ الآذان وخَرَسَ الناقوس ، وحضر المؤذنون وغاب القسوس (...) ؛ وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه ، وطلب الفضل من معدنه ؛ وورد القُرّاء وقرئ الأوراد ، واجتمع الزهاد والعبّاد ، والأبدال والأوتاد ، وعُبِدَ الواحدّ ووّحّد العابد ، وتوافد الراكع والساجد (...) . وصدح المنبر ، وصدع المذكر ، وانبعث المَعشر ، وذُكر البعث والمحشر ؛ وأملى الحفاظ ، وأسلى الوُعّاظ ، وتذاكر العلماء ، وتناظر الفقهاء ، وتحدث وروى المحدثون ، وتحنّف الهُداه وهُدى المتحنفون (...) ، ولخص المفسرون ، وفسر الملخصون .

وانتدى الفضلاء ، وانتدب الخطباء ، وكثر المترشحون للخطابة ، المتوشحون بالإصابة ، المعروفون بالفصاحة ، الموصوفون بالحصافة ؛ فما فيهم إلا مَنّ خطب الرُتبة ، ورتب الخطبة ، وأنشأ معنى شائقًا ، ووشى لفظًا رائقًا ، وسوى كلامًا بالوضع لائقًا ، (...) ؛ وما منهم إلا من يتأهب ويترقب ، ويتوسل ويتقرب ، (...) ، والسلطان لا يعين ولا يبين ، ولا يخص ولا ينص ؛ ومنهم من يقول : ليتنى خطبت فى الجمعة الأولى ، وفزت باليد الطولى ، وإذا ظفرت بطالع سعدى ، فما أبالى بمن يخطب بعدى .

فلما دخل يوم الجمعة رابع (٤) شعبان ، أصبح الناس يسألون فى تعيين الخطيب السلطان ؛ وامتلأ الجامع، واحتفلت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لرقة القلوب المدامع (...) ؛ وطوبى لمن عاش ، حتى حضر هذا اليوم الذى فيه انتعش الإسلام وإرتاش ؛ وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة ، والعصبة الطاهرة ، والأمة الظاهرة ؛ وما أكرم هذه النصرة الناصرية ، والأسْرة الإمامية ، والدعوة العباسية ، والدولة الصلاحية ؛ وهل فى بلاد الإسلام أشرف من هذه الجماعة ، التى شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعة .

وتكلموا فيمن يخطب ، ولمن يكون المنصب (...) ؛ فنصب السلطان الخطيب بنصه ، وأبان عن اختياره بعد فحصه ؛ وأوعَزّ إلى القاضى (محى الدين أبى المعالى بن زكى الدين على القرشى) بأن يرقى ذلك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمه عَرِقى؛ فأعَرته من عندى أهبّه سوداء من تشريف الخلافة، حتى تكمل له شرف الإفاضة والإضافة ؛ فرقى العود ، ولقى السعود ؛ واهتزت أعطاف المنبر ، وأعتزت أطراف المعشر . وخطب وأنصتوا ، ونطق وسكتوا ؛ وأفصح واعرب ، وأبدع واغرب ، وأعجز وأعجب ، وأوجز وأسهب ؛ ووعظ فى خُطبتيه ، وخَطّبَ بموعظتيه ؛ وأبان عن فضل البيت

المقدس وتقديسه ، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه ، وتطهيره بعد تنجيسه ، وإخراس ناقوسه وإخراج قسيسه ؛ ودعا للخليفة والسلطان . وختم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [1] (الآية ٩٠ من سورة النحل) ؛ ونزل وصلى في المحراب ، وافتتح ببسم الله من أمّ الكتاب ؛ فائتم بتلك الأمة ، وتم نزول الرحمة ، وكمل وصول النعمة ؛ ولما قضيت الصلاة انتشر الناس ، واشتهر الإيناس .

وكان قد نصب للوعظ تجاه القبلة سرير ، ليفرعه كبير ؛ فجلس عليه (زين الدين أبو الحسن على بن نجا) ؛ فذكر من خاف ومن رجا ، ومن سعد ومن شقي ومن هلك ومن نجا ، وخوف بالحجة ذو الحجا ، وجلا بنور عظاته من ظلمات الشبهات ما دجا (...) .

وصلى السلطان في قبة الصخرة ، والصفوف على سعة الصحن بها متصلة ، والأئمة إلى الله بدوام نصره مبتهلة ، والوجوه الموجهة إلى القبلة عليه مقبلة ، والأيدى إلى الله مرفوعة ، والدعوات له مسموعة . ثم رتب في المسجد الأقصى خطيبًا استمرت خطبته ، واستقرت نصبته »[2] .

واتبع العماد الأصفهاني هذا الفصل ، بفصل آخر عنونه بـ (وصف الصخرة المعظمة عمرها الله) ؛ ذكر فيه أن الفرنج إبّان احتلالهم للقدس ، قد تعمدوا إخفاء الصخرة المقدسة ، لارتباطها بمعجزة الإسراء والمعراج النبوية المحمدية ، حتى لا تصل إليها عيون وأيادى المسلمين المتبركين بها ؛ فبنوا فوق الصخرة كنيسة ومذبحًا ، حتى تحجب الصخرة والأبنية الإسلامية المبنية فوقها عن الرؤية ؛ وأفردوا لموضع القدم الشريف المحفور في الصخرة ، قبة صغيرة مُذَهّبة ، قائمة على أعمدة من الرخام ؛ وادّعوا أن هذه القدم الشريفة ، هي قدم السيد المسيح عليه السلام ، وليست قدم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما يعتقد المسلمون ! ؛ وزينوا هذه الكنيسة ومذبحها بالصور والتماثيل الدينية النصرانية (الأيقونات) ، ونقشوا على جدرانها صور الأنعام والحيوانات ، عاين منها العماد الأصفهاني بنفسه صورًا للخنازير ؟! ، بحيث حجبت تلك الكنيسة ومذبحها ، الصخرة المقدسة ، والأبنية الإسلامية القديمة المبنية فوقها . فأمر السلطان صلاح الدين بهدم هذه الكنيسة ومذبحها وجدرانها ، وإظهار الصخرة المقدسة للناظرين كما كانت في الزمن القديم ؛ وتعليق القناديل فوقها

---

(١) أورد مجير الدين الحنبلى نص هذه الخطبة ، أنظر الأنس الجليل ١: ٣٣٢ - ٣٣٩ (ذكر أول خطبة بعد الفتح . وهى فى غاية الأهمية ، فلتراجع وتدرس لما فيها من عظة وعِبرة وتصوير حَيّ للفتح الصلاحى للقدس.

(٢) العماد الأصفهاني : الفتح القيسى ص ١٣٧ - ١٤٠ (ذكر ما أظهره السلطان فى القدس من الحسنات ومحاه من السيئات) . وعن تطهير السلطان صلاح الدين للصخرة ، يقول سبط ابن الجوزى : " ودخل السلطان الصخرة وغسلها بالماورد ، وقيل غسلها بلحيته وهو يبكى ؛ ومحى الصور منها ، وكسر الصلبان ، وأحرق در الداوية ، وعمر المسجد الأقصى " أنظر مرآة الزمان ٨: ٣٩٧ س ١٨ - ٢٠ .

لإنارة مكانها ، وإحاطتها بحجرة مكونة من شبابيك حديد لصيانتها . ثم رتب السلطان فى قبة الصخرة إمامًا من أحسن القراء تلاوة ، يُتقِنّ القراءة بالقراءات السبع والعشر ـ أى القراءات السبع المتواترة ، والقراءات الأربع الشاذة ؛ وحمل السلطان إلى القبة وإلى محراب المسجد الأقصى المصاحف والختمات والربعات القرآنية الضخمة والجميلة ، وكراسى المصاحف اللازمة لفتحها وقراءتها ، لتظل بين أيدى القراء والمرتادين للمسجد الأقصى يقرؤنها ويتعبدون بقراءتها ؛ ورتب السلطان للقبة خاصة وللبيت المقدس عامة ، قوّمه ونظار من ذوى التدين والعبادة والفضل ؛ وبذلك صان السلطان الصخرة المقدسة من عبث الفرنج ، الذين كانوا إبان احتلالهم للقدس يقطعون منها قطعًا ، فيحملوها إلى القسطنطينية وصقلية ويتاجروا فيها بفرض التكسب ، ليبيعوا للعوام ؛ وأمرّ السلطان بترميم محراب المسجد الأقصى لتجميله وصيانته ؛ وتبارى ملوك بنى أيوب ، من إخوة السلطان صلاح الدين وأبناء عمومته وأولاده فى عمارة وصيانة مدينة القدس والمسجد الأقصى وقبة الصخرة ، فكنسوا المسجد الأقصى وساحاته بأيديهم ، ومسحوه بماء الورد ، وعطروه بالعطور وبخروه بالبخور ، مُقتدين فى ذلك بفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر الإسلام حين تم الفتح العمرى للقدس، وفرشوا القبة والمسجد بالسجاجيد الفاخرة ، وشحنوهما بالذخائر والتحف والأسلحة ، بقصد تزينهما وحمايتهما فى آن واحد ، وعمروا سور المدينة ، وحفروا الخندق حوله ، لتحصينها .

فيقول العماد الأصفهانى فى الفصل الذى عنونه بـ (وصف الصخرة المعظمة عمرها الله) :
وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحًا ، ولم يتركوا فيها للأيدى المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسًا ولا مطمحًا ؛ وقد زينوها بالصور والتماثيل ، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل ، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ؛ وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة ، بأعمدة الرخام منصبة ؛ وقالوا : « محل قدم المسيح ، وهو مقام التقديس والتسبيح » ؛ وكانت فيها صور الأنعام مثبتة فى الرخام ، ورأيت فى تلك التصاوير ، أشباه الخنازير ، والصخرة المقصودة المزورة ، بما عليها من الأبنية مستورة ، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة .

فأمر السلطان بكشف نقابها ، ورفع حجابها ، وحسر لثامها ، وقشر رخامها ، وكسر رجامها ، ونقض بنائها ، وفض غطائها ؛ وإبرازها للزائرين ، وإظهارها للناظرين ؛ ونزع لبوسها ، وزفاف عروسها ، (...) ؛ فعادت كما كانت فى الزمن القديم ، وشهدتّ حين شوهدت بحسبها الكريم (...) ؛ وما كان يظهر منها قبل الفتح إلى قطعة من تحتها ، قد أساء الكفار فى نحتها ؛ وظهرت الآن أحسن ظهور ، وسفرت أيمن سفور ، وأشرقت القناديل من فوقها نورًا على نور ؛ وعُملتّ عليها حظيرة من شبابيك حديد ، والاعتناء بها إلى الآن كل يوم فى مزيد .

ورتب السلطان فى قبة الصخرة إمامًا من أحسن القراء تلاوة ، وأزينهم طلاوة ، وأنداهم صوتًا، وأسماهم فى الديانة صيتًا ؛ وأعرفهم بالقراءات السبع بل العشر . (...) . وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحب وختمات ، وربعات معظمات ؛ لا تزال بين أيدى الزائرين على كراسيها مرفوعة ، وعلى أسرتها موضوعة . ورتب لهذه القبة خاصة ، وللبيت المقدس عامة ، قومة لشمل مصالحها ضامة ؛ فما ترتب إلا العارفون العاكفون ، القائمون بالعبادة الواقفون (...) .

وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعًا وحملوا منها إلى القسطنطينية ، ونقلوا منها إلى صقلية ، وقيل باعوها بوزنها ذهبًا ، واتخذوا ذلك مكسبًا . ولما ظهرت ؛ ظهرت مواضعها ، وقطّعت القلوب لما بانت مقاطعها ؛ فهى الآن مبرزة للعيون بحزها ، باقية على الأيام بعزها ، مصونة للإسلام فى خدرها وحرزها . وهذا كله تمّ بعد انفصال السلطان ، والشروع فى العمران .

« وأمر بترخيم محراب الأقصى ، وأن يبالغ فيه ويُستقصى ؛ وتنافس ملوك بنى أيوب فيما يؤثر بها من الآثار الحسنة ، وفيما يجمع لهم ودّ القلوب وشكر الألسنة (...) إلخ »[1] .

إنشاء صلاح الدين للمدارس وللخانقاه الصلاحية بالقدس ؛
وعنايته بالمزارات المقدسة القديمة بها ، وعلى رأسها كنيسة القيامة ، ومحراب داود

وأتبعّ العماد الأصفهانى الفصل الذى عنونه بـ (وصف الصخرة المعظمة عمّرها الله) ، بفصل آخر عنونه بـ (ذكر محراب داود عليه السلام ، وغيره من المشاهد الكرام ؛ وتبطيل الكنائس ، وإنشاء المدارس) ؛ ذكر فيه ما قام به السلطان صلاح الدين فى مدينة القدس من تدابير ، قصدّ منها إحياء علوم الدين فى هذه المدينة المقدسة ؛ وذلك بعمارة المساجد والمدارس والرباطات والخوانق بها ، بدلاً من الكنائس التى استحدثها الفرنج بالمدينة إبان احتلالهم لها ؛ وعنايته بالمشاهد والمزارات الأثرية القديمة الخاصة بالأنبياء الأقدمين بمدينة القدس ، وخاصة المقدسة منها عند اليهود والنصارى ؛ وعلى رأسها محراب داود المقدس عند اليهود ، وكنيسة قيامه (القيامة) المقدسة عند النصارى ، وكلاهما يقع خارج حرم المسجد الأقصى وساحته وسوره الخارجى . فجدد السلطان محراب داود ، وجعل والى القدس يقيم فى هذا الحصن (أو القلعة) الموجود بداخله محراب داود ، والكائن - آنذاك - عند باب مدينة القدس ؛ ورتب لهذا المحراب إمامًا ومؤذنين وقوّمه ، لإقامة الشعائر الإسلامية فيه وخدمته

(١) العماد : الفتح القيسى ص ١٤١ - ١٤٤ ؛ وقارن مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٣٣٩ - ٣٤٠ (حيث يلخص بأسلوبه هو المختصر هذا الفصل العمادى الرائع) .

وصيانته ؛ وذلك ـ أغلب الظن ـ لأن صلح إيلياء العمرى سنة ١٥ هـ ، حرّم على اليهود سكنى مدينة القدس ، نزولاً على رغبة أهل إيلياء من النصارى .

وأمر السلطان بعمارة جميع المساجد بالمدينة ، واستشار جلساءه من العلماء وذوى الرأى ، فى استحداث مدرسة للشافعية ورباط وخانقاه للصوفية بمدينة القدس ، ومدارس أخرى بها لبقية المذاهب الفقهية الإسلامية : الحنفية والمالكية والحنبلية ، لإعادة نشر العلم الشرعى بالمدينة ؛ فأشاروا عليه بذلك ، فعين لبناء هذه المدارس موضع عِدّة كنائس استحدثها الفرنج بالقدس إبان احتلالهم لها ؛ ولا تزال الخانقاه الصلاحية قائمة باقية بمدينة القدس إلى يومنا هذا ، وتعد من مزاراتها الإسلامية الأثرية . ورفض السلطان إغلاق أبواب كنيسة القيامة ، وحرمان النصارى من زيارتها والحج إليها ؛ وهو ما أشار عليه به بعض المتشددين من أهل مشورته ؛ كما أنه لم يأخذ برأى من أشار بهدمها ؛ وذلك نظرًا لما رآه أكثر أهل مشورته من أنّ النصارى تقدس موضع الصليب والقبر الكائن تحت كنيسة القيامة ، ولا تقدس بناء الكنيسة ذاته ؛ ونظرًا لأنه لما فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه القدس فى صدر الإسلام (سنة ١٥هـ) ، أقر النصارى على هذا المكان ، ولم يأمرهم بهدم البنيان . وبهذا المسلك المتسامح تجاه المقدسات الدينية والمزارات المقدسة لليهود والنصارى بمدينة القدس ، أصبح السلطان صلاح الدين الأيوبى مضرب الأمثال على مَرّ التاريخ للتسامح الدينى ؛ وهو ما لم تحظ به المقدسات والمزارات الإسلامية بمدينة القدس ، إبّان احتلال الفرنج لها.؛ إذ حولت كلها إلى كنائس ، ـ شأنها فى ذلك شأن جميع المساجد والجوامع فى جميع المدن التى احتلها الفرنج من مدن ساحل الشام ـ ؛ وهو ما لا تحظى به اليوم المقدسات والمزارات الإسلامية بمدينة القدس ، على يد الاحتلال الإسرائيلى الصهيونى ، الذى لا يكف عن تخريبها وإحراقها وإتلافها والعبث بها ، ومحاولة تغيير هؤيتها وتهويدها .

فيقول العماد الأصفهانى : « واما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى ، فإنه حصن عند باب المدينة منيع ، وموضع عال رفيع ؛ وهو الحصن الذى يقيم به الوالى ، فاعتنى السلطان بأحواله الحوالى ؛ ورتب له إمامًا ، ومؤذنين وقوامًا ؛ وهو مثابة للصالحين ، ومزار الغادين والرائحين ؛ فأحياه وجدده ، ونهج لقاصديه جدده (الجدد : الطرق المختلفة) . وأمر بعماره جميع المساجد ، وصون المشاهد ، وإنجاح المقاصد ، وإصفاء الموارد ، للقاصد والوارد . وكان موضع هذه القلعة دار داواد وسليمان عليهما السلام ، وكان ينتابهما فيها الأنام .

وكان الملك العادل نازلاً فى كنيسة صهيون ، وأجناده على بابها مخيمون .

وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار ، والأتقياء الأخيار ؛ في مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباط للصلحاء الصوفية ؛ فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة - عند باب أسباط -[1] ؛ وعين دار البطرك - وهي بقرب كنيسة قمامة (أي كنيسة القيامة) - للرباط ؛ ووقف عليهما وقوفًا ؛ وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفًا ؛ وارتاد أيضًا مدارس للطوائف ، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف .

وأمر بإغلاق أبواب كنيسة قمامة (القيامة) ، وحرم على النصارى زيارتها ولا الإلمامه ؛ وتفاوض الناس عنده فيها : فمنهم من أشار بهدم مبانيها ، وتعفيه آثارها ، وتعمية نهج مزارها ، وإزالة تماثيلها ، وإزاحة أباطيلها ، وإطفاء قناديلها ، وإعفاء أناجيلها (...) ؛ وقالوا : إذًا هُدمت مبانيها ، وألحقت بأسافلها أعاليها ، ونُبشتّ المقبرة وعُفيتّ ، وأخمدت نيرانها وأطفيت ، ومُحيت رسومها ونفيت ، وحُرثتّ أرضها ، ودُمّر طولها وعرضها ، وانقطعت عنها امداد الزوار ، وانحسمت عن قصدها موارد أطماع أهل النار ؛ ومهما استمرت العمارة ، استمرت الزيارة .

« وقال أكثر الناس : لا فائدة في هدمها ولا هدها ، ولا يؤذن بصد الزيارة عن الكفرة وسدها ؛ فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء ، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نُسِفتّ أرضها في السماء ؛ ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه - القدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ، ولم يأمرهم بهدم البنيان »[2] .

كتاب العماد الأصفهاني للديوان العزيز ديوان الخلافة العباسية ببغداد ، للبشارة بفتح القدس على يد صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ

وتخبّر سبط ابن الجوزي - وهو مؤرخ دمشقي عاصر الجيل الثاني والثالث من ملوك بني أيوب ، وكان على صلة وثيقة بهم ، وصديق شخصي لجميعهم[3] ، وهم : المعظم عيسى صاحب

---

(١) كنيسة صندحنة : هذه الكنيسة يقال أن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام ، وقد صارت مدرسة اقامها صلاح الدين (تاريخ أبو الفدا ج ٣: ٨٣ط . المطبعة الحسينية ١٣٢٥هـ ، ويبدو أن كلمة صند ، هي تحريف للكلمة الفرنسية Saint ، بمعنى قديسة (عن حاشيه ، ٣) لمحمد صبح ، على الفتح القسي ، ص ١٤٥ .

(٢) العماد الأصفهاني : الفتح القيسي ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ وقارن مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ١: ٣٤٠ - ٣٤١ (محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد) .

(٣) روى سبط ابن الجوزي في تاريخه مرآة الزمان أخبارًا شفوية عن هؤلاء الملوك والسلاطين من بني أيوب وهم : المعظم، الكامل ، الأشرف ، الناصر داود ، الصالح نجم الدين أيوب ، الملك الجواد ، أنظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨: ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ - ٦٥٣ ، ٦٦٢ ، ٧٠١ ، ٧٠٥ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ - ٧٢٩ .

دمشق ، وأخوه الملك الكامل محمد سلطان مصر ، وأخوه الملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة الفراتية ، وابنه الناصر داود صاحب الكرك ، والصالح نجم الدين أيوب سلطان الديار المصرية ، والملك الجواد ـ تخير لنا سبط ابن الجوزى كتابًا عماديًا فى البشارة بفتح القدس سنة ٥٨٣هـ ، كتب به عن صلاح الدين الأيوبى ، إلى الديوان العزيز ببغداد ، لتهنئة الخليفة العباسى الناصر لدين الله الذى تم فى عهده هذا الفتح ، بما فتحه الله على الإسلام والمسلمين ؛ فيقول سبط ابن الجوزى : وكان القاضى الفاضل بدمشق مريضًا، لم يحضر هذا الفتح، فأمر السلطان العماد الكاتب، أن يكتب كتابًا إلى بغداد بالفتح، فكتب فى أوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ (الآية ٥٥ من سورة النور) .

الحمد لله الذى أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ؛ وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، وبذل الأمن به بعد المخافة ؛ وادّخرهذا الفتح الأسنى ، والنصر الأهنى ، لخادم المقام النبوى ؛ ومنحه أخلص أوليائه ، وأخص أصفيائه ؛ بعد أن انقرض من الملوك الماضية، والقرون الخالية؛ على حَسْرة تمنيه ، وفوات ترجّيه ، وتقاصَرتْ عنه الهِمَم، وتخاذلت عنه ملوك الأمم .

فلله الحمد الذى حقق بفتحه ما كان فى النفس ، وبَدّلَ وَحْشة الكُفرِ فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عِزّ يومه ماحياً ذُلّ أمس ، وأسكنه العالِم والفقيه بعد البطرك والقس ، وعبّاد الصلب والشمس ؛ وأخرج (؟) أهله يوم الجمعة من أهل يوم الأحد ، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل قُلْ هو الله أحدٌ .

وقد فتح الخادم بأمر الله من الداروم إلى طرابلس ، وجميع ما حوت مملكة الفرنج إلى نابلس ؛ وغُسِلَتْ الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين ، ونُزِعَ اليأسُ عنها بإفاضة ثواب المحسنين ، ورجع الإسلام غريبة منه إلى داره ، وطلع قمر الهُدى من سراره ؛ وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت عليه من التقديس ، وأَمِنَتْ المخاوف بها وفيها فصارت[1] صباحَ السُّرَى ومَنَاخ التعريس ، وأقصِيَ من المسجد الأقصى الأقْصَونَ من الله الأبْعَدُون ، وتَوَافَد إليه المصطفون المقرّبون ؛ وخَرِسَ الناقوس

(١) فى مرآة الزمان فسارت ، وبهامش المحقق لعلها فحمدت ، وما اسبتناه من نص الكتاب كما أورده العماد نفسه فى الفتح القسى ص ١٤٧ .

برحيل المسيحيين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين ، وقال المحراب[1] لأهله مرحبًا وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شمله، ورُفعَتْ الأعلام العباسية[2] على منبره، فأخذت من بره أو فى نصيب ، وتلت بألسنة عذبها نصر من الله وفتح قريب؛ وغُسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين ، وأبْعِد أهل الإلحاد من قربها بقرب الموحدين ؛ وذكر بها ما نسى من عهد المعراج النبوى ، والإعجاز المحمدى ؛ وعاد الإسلام بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه ، ورجع بيت الله من التقوى إلى تأسيسه) »[3] . وذكر العماد فصولاً فى هذا المعنى[4] .

(١) التكملة من الفتح القسى ص ١٤٧

(٢) فى مرآة الزمان الإسلامية وما أثبتناه من الفتح القسى ص ١٤٧ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٣٩٨ - ٤٠٠ .

(٤) انظر بقية هذا الكتاب بتمامه ، عند العماد : الفتح القسى ص ١٤٧ - ١٤٩ ، وقد تفرد سبط ابن الجوزى بإيراد نص ديباجته ، وهى عظيمة الأهمية ؛ ومما جاء فى خاتمة هذا الكتاب العمادى : فَذُكِرَ بها ما كاد يُنسى من عهد المعراج النبوى ، وقامت بدلالتها براهين الإعجاز المحمدى ؛ وصَافَحَتَ الأيدى منها موضع القدم (يقصد القدم النبوى على الصخرة المقدسة) ، وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها فى القِدَمَ ، فهو ثانى المسجدين ، بل ثالث الحرمين ؛ فَلْيُهَنّ البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسْر ، وإسفار صبح الإسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر ؛ وتطهير مواقف الأنبياء صلوات الله عليهم من أدْنَاس الأرْجَاس، وتَضَوُّع أرَج الرجاء فى أرجائه بعد الياس .

فالحمد لله الذى أبدل الإيحاش بالإيناس ، ونزع عنه بإفاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس ؛ وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - على الأعصر مُفَضَّلاً ، وكَمُلَ بهذا الفتح الشريف شرف زمانه فأصبح فخر الدين والدنيا به مُكَمَّلاً (...) ؛ فالرتاج مُستفتح والرجاء مستنجح (...) ؛ وأرض الكفر ينقصها الإسلام كل يوم من أطرافها ، بل يستولى على أوساطها وأكنافها (...) ؛ ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة العظمة ، ودلالة المكْرُمة ، لكَبَا قَلَمُ البليغ فى مِضمار البيان ، ولم يبلغ مدى ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (...) .

وأنظر نص الرسالة الفاضلية التى أرسلها السلطان صلاح الدين الأيوبى للخليفة العباسى الناصر لدين الله للبشارة بفتح القدس ، على يد القاضى ضياء الدين الشهرزورى رسول دولة الخلافة العباسية إلى السلطان صلاح الدين ، وكانت بخط القاضى الفاضل ومن إنشائه ، عند مجير الدين الحنبلى القدسى : الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ١: ٣٤١ - ٣٤٨ ، وأنظر نص أول خطبة جامعة ألقيت ببيت المقدس بعد استرداد صلاح الدين لها سنة ٥٨٣هـ ألقاها قاضى دمشق زكى الدين القرشى ، عند مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٣٣٢ - ٣٣٩ . وأنظر نسخة كتاب كتب به القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين إلى الخليفة الناصر لدين الله الخليفة يومئذ ببغداد ، بفتح القدس وما معه ، واقتلاح ذلك من أيدى الفرنج ، وإعادته إلى ما كان عليه من الإسلام ، عند القلقشندى : صبح الأعشى ٦: ٤٩٦ - ٥٠٤ ، وانظر كتابًا =

إحضار صلاح الدين لمنبر نور الدين الذى أعده برسم المسجد الأقصى ، ووضعه بالمسجد الأقصى بعد استرداده من الفرنج سنة ٥٨٣هـ

قال مجير الدين الحنبلي : «وكان الملك العادل نور الدين الشهيد قد عزم على فتح بيت المقدس، وعمل منبرًا بحلب ، وتعب عليه مُدّه ، وقال : هذا لأجل القدس ؛ فأدركته المنية ، وكان الفتح على يد من أراد الله (أى السلطان صلاح الدين الأيوبى) ؛ فأرسل السلطان صلاح الدين من أحضر المنبر من حلب ، وجعله في المسجد الأقصى ؛ وهو الموجود فى عصرنا هذا »[1] . وقلت : وقد ظل هذا المنبر موجودًا بالمسجد الأقصى ، حتى تم إحراقه على يد متطرف يهودى إسرائيلى إدّعى الجنون ، وذلك سنة ١٩٦٩م ، بعد احتلال إسرائيل للقدس إثر هزيمة سنة ١٩٦٧ . وقد وصف مجير الدين

= آخر كتبه القاضى الفاضل عن الملك الناصر صلاح الدين إلى ديوان الخلافة ببغداد ، نفس المصدر ٦ : ٥٠٤ - ٥٠٦ ؛ وأنظر كتاب كتبه العماد الأصفهانى عن السلطان صلاح الدين ؛ إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد بفتح القدس ، نفس المصدر ٦: ٥١٧ - ٥٢٠ ، وأنظر نسخة كتاب كتب به إلى ديوان الخلافة العزيز أيام الخليفة الناصر لدين الله عن السلطان صلاح الدين بفتح القدس الشريف ، من أنشاء القاضى الفاضل ، نفس المصدر ٨: ٢٨١ - ٢٨٩ . وانظر هذه الرسالة الفاضلية فى فتح القدس ، عند ابن خلكان : وفيات الأعيان ، طبع بيروت ، ٧ : ١٧٩ - ١٨٦ ، وقال ابن خلكان فى آخرها : هذا آخر الرسالة الفاضلية ، وكان فى عزمى اختصارها والاقتصار على محاسنها ، فلما شرعت فيها قلت فى نفسى : عسى أن يقف عليها من يؤثر الوقوف على جميعها ، فأكملتها (...) ، وهى قليلة الوجود فى أيدى الناس ، وكانت النسخة التى نقلتها منها سقيمة ، ولقد اجتهدت فى تحريرها ، حتى صحت على هذه الصورة حسب الإمكان (ابن خلكان : وفيات العيان ٧: ١٨٦ - ١٨٧) ، وأنظر نص كتاب فاضلى عن السلطان صلاح الدين الأيوبى ، إلى الخليفة الناصر لدين الله فى كتاب إنشاءات القاضى الفاضل ، لجامع مجهول ، تحقيق فتحية النبراوى ، الطبعة الأولى ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٧٥ - ٨٤ ؛ وأنظر أيضًا نص كتاب فاضلى آخر عن السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسى ببغداد ، عند محى الدين بن عبد الظاهر : الدُرّ النظيم من ترسل عبد الرحيم ، تحقيق أحمد أحمد بدوى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م ، ص ١٥ - ٣٤ ؛ وراجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ ، دراسة مقارنة بمصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر المماليكى ؛ مع ترجمة ونشر ١٤ وثيقة أيوبية من الأرشيفات الإيطالية ، تنشر لأول مرة ، دار النهضة العربية ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ص ١٢ - ٢٣ ، ص ٣٢ - ٣٣ .

(١) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٣٣٩ .

الحنبلى هذا المنبر بقوله فى الفصل الذى عنونه بـ (وصف المسجد الأقصى على ما هو عليه الآن) : « والمنبر الموضوع بصدر الجامع من الخشب ، وهو مرصع بالعاج والأبنوس ، وهو الذى عمله السلطان الملك العادل نور الدين (زنكى) الشهيد رحمه الله بحلب ، وكان عمله فى شهور سنة ٥٦٤هـ ، وقال : هذا برسم القدس ؛ فلما فتح الله البلاد على يد الملك صلاح الدين ، أحضره من حلب ؛ وهو موجود إلى عصرنا ، وعليه مكتوب تاريخ عمله ؛ وهذا لحسن نية نور الدين الشهيد ، فإنه بلّغه الله مراده بعد وفاته ، عفا الله عنه ؛ ومقابله دِكة المؤذنين (المبلغين) على عُمد من الرخام فى غاية الحسن »[1] .

ترخيم السلطان صلاح الدين لمحراب المسجد الأقصى سنة ٥١٣هـ ، ونقش تجديد وعمارة صلاح الدين لهذا المحراب وللمسجد الأقصى فى هذه السنة

يقول مجير الدين القدسى الحنبلى ، مؤلف كتاب الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل فى سنة ٩٠٠هـ ، وناظر الحرم القدسى فى أيام السلطان المماليكى الأشرف قايتباى : « ثم شرع السلطان فى العمارة ، وأمر بترخيم محراب الأقصى ؛ وكتب عليها بالفصوص المذهبة ، ما قِراءَته : بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بتجديد هذا المحراب المقدس ، وعمارة المسجد الأقصى الذى هو على التقوى مؤسس ، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين ؛ عندما فتحه الله على يديه فى شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ؛ وهو يسأل الله إيزاعه شكر هذه النعمة ، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة »[2] .

جُمَل فتوح السلطان صلاح الدين الأيوبى من مُدن وحصون ديار الفرنج

أفرد القاضى بهاء الدين بن شداد قاضى عسكر السلطان صلاح الدين الأيوبى ومؤرخ سيرته ، فى سيرته المسماه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، فصلاً بعنوان : (ذكر المدُن والحصون التى يسّر الله فتحها على يديه ـ رحمة الله عليه ـ من ديار الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ من سنة ٥٨٣هـ إلى سنة ٥٨٦هـ) ؛ ـ يعنى بعد معركة حطين فى ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ ، وبعد فتح بيت المقدس فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ ـ ؛ رتب فيه بهاء الدين ابن شداد فتوحات السلطان صلاح الدين

---

(١) نفس المصدر ٢: ١٣ . وقلت : وقد أُخبرت أخيرًا أن هذا المنبر ، يعاد تصميمه وبنائه الآن على رسمه القديم المصور فى كتب الآثار الإسلامية ، على يد صانع مصرى .

(٢) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٣٤٠ .

الأيوبى - التى شملت أرض فلسطين والأردن وساحل لبنان وأطراف آسيا الصغرى وبلاد الروم - ؛ على النحو التالى[1] :

طبرية [2] - على بحر الأردن - بالسيف . عكا[3] - على البحر الكبير - بالأمان . حيفا[4] - على البحر - بالأمان . الناصرة[5] - التى تنسب إليها النصارى - . الرملة[6] . قيسارية[7] - بالسيف . أرسوف[8] - بالأمان . يافا[9] - بالسيف (مدينتها) . عسقلان[10] - بالأمان . غزة[11] - بالأمان . الداروم[12] .

صيدا[13] - على البحر - . بيروت[14] - بالإمان . جبيل[15] . هونين[16] - جَبَلية -

(١) أنظر ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٣٨ . وقد أغنانا ابن شداد عن تحديد مواضع هذه المدن والحصون ، فأوردها على ترتيب مواقعها الجغرافية مبتدءًا بأرض فلسطين والأردن ثم بلاد الساحل (ساحل الشام ولبنان) ثم ساحل آسيا الصغرى . كما عرّف بالمجهول منها فى سياق كلامه . وجميع هذه الأماكن والبلدان والحصون ذكرها ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان على ترتيب حروف المعجم ، وعُنى بتحديد سنة أخذ الفرنج لها ، وسنة استرداد واستنقاذ صلاح الدين لها من يد الفرنج ، والمدة التى بقيت فيها بأيد الفرنج إلى أن استنقذها منهم السلطان صلاح الدين . وقد عَـدَّد هذه الفتوحات أيضًا العماد الأصفهانى : الفتح القيسى ص ١٩٩ - ٢٠٠ . وقد فصل ابن شداد والعماد الأصفهانى الحديث عن هذه الفتوحات الصلاحية ، على ترتيب السنين . واستأنسنا فى تحقيق هذه البلاد والحصون على حواشى جمال الدين الشيال فى النوادر السلطانية ومحمود محمد صبح فى الفتح القيسى ومحمود حلمى فى إتعاظ الحنفا وصلاح الدين المنجد على كتاب فتوح البلدان للبلاذرى .

(٢) طبرية : بلدة مطلة على البحيرة المعروفة بها ، وهى بفلسطين . (ياقوت) .

(٣) عكا : مدينة مشهورة على ساحل البحر الأبيض ، فى فلسطين . (ياقوت) .

(٤) حيفا : مدينة مشهورة بفلسطين .

(٥) الناصرة : قرية من قرى فلسطين - مشهورة .

(٦) الرملة : كورة ومدينة عظيمة بفلسطين . (ياقوت) .

(٧) قيسارية : بلدة على ساحل البحر المتوسط من أعمال فلسطين (ياقوت) .

(٨) أرسوف : من مدن الساحل ، بين قيسارية ويافا (ياقوت) .

(٩) يافا : مدينة على ساحل بحر الشام (المتوسط) من أعمال فلسطين (ياقوت) .

(١٠) عسقلان : بلدة من أعمال فلسطين على جانب البحر بينها وبين غزة نحو ثلاثة فراسخ (ياقوت) .

(١١) غزة : مدينة مشهورة ، كانت من فلسطين (ياقوت) وتعرف اليوم بقطاع غزة ، وهى تابعة اليوم للسلطة الفلسطينية .

(١٢) الداروم أو الدارون ، قلعة بعد غزة لقاصد مصر ، بينها وبين البحر فرسخ (ياقوت) .

(١٣) صيداء : مدينة فى لبنان ، جنوب بيروت ، على البحر المتوسط (ياقوت) .

(١٤) بيروت : (عاصمة جمهورية لبنان اليوم) - مشهورة (ياقوت) .

(١٥) جبيل : بلدة شرقى بيروت وعلى مسافة ثمانية فراسخ منها (ياقوت) .

(١٦) هونين : بدة فى جبال عاملة ، تطل على نواحى مصر القريبة منها (ياقوت) . قلت : وجبال عاملة بالغور كما أفاد المقدسى والأصطخرى وغيرهما .

تبنين[١] . أنطرسوس[٢] (دون أخذ برجها) بالسيف . جبلة[٣] (مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان) . اللاذقية[٤] (مدينتها بالسيف ، وقلعها بالأمان) . الشّرفند .

مدينة القدس[٥] الشريف ، خلصه الله تعالى - (ذكر ابن شداد أنه فرغ من تأليف كتابه النوادر السلطانية فى ١٢ رجب سنة ٦٢٦هـ ، وكان السلطان الملك الكامل قد تورط فى تسليم القدس للفرنج كما سيأتي ذكره) - . نابلس[٦] . ألبيرة[٧] بأرض القدس . صفورية[٨] . الطور[٩] . حصن دبورية[١٠] . الفولة[١١] . حصن عفربلا[١٢] .

حصن جينين[١٣] . سفسطية[١٤] . كوكب[١٥] . حصن عفرى[١٦] (شمالى القدس) . بيت لحم[١٧]. حصن العازرية (بأرض القدس) . البرج الأحمر (قريب منه) . حصن الخليل[١٨] (عليه السلام) . بيت جبريل[١٩] . تل الصافية[٢٠]. حصن مجدل يابا[٢١] . قلعة الجيب الفوقانى . الجيب

---

(١) تبنين : أوتبنينا ، بلدة في جبال بنى عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور (ياقوت) .
(٢) أنطرسوس : بلد من سواحل الشام ، وهى آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية ، وأول أعمال حمص ؛ كانت حصنًا عند فتح عبادة بن الصامت لها ، ثم بنى معاوية المدينة وحصنها . (ياقوت) .
(٣) جَبْلة : قلعة بساحل الشام قرب اللاذقية ، كانت أيام ياقوت من أعمال حلب (ياقوت) .
(٤) اللاذقية : مدينة مشهورة على ساحل البحر المتوسط (ياقوت) وهى فى الجمهورية السورية اليوم .
(٥) القدس : هى مدينة بيت المقدس ، وكانت تعرف قديمًا باسم أيلياء – مشهورة .
(٦) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين (ياقوت) .
(٧) ألبيرة : بلدة بين القدس ونابلس (ياقوت) .
(٨) صفورية : بلد بفلسطين ، قرب طبرية (ياقوت) .
(٩) الطور : جبل مُطِلّ على طبرية الأردن بينهما أربعة فراسخ .
(١٠) دبورية : بلد قرب طبرية من أعمال الأردن (ياقوت : معجم البلدان) .
(١١) الفولة : بلدة بفلسطين (ياقوت : معجم البلدان) .
(١٢) عفربلا : بلدة قرب بيسان وطبرية بالأردن (ياقوت) . وأفاد العماد فى الفتح القسى ص ١٧٧ أنها حصن قريب من كوكب .
(١٣) جينين أوجانين : بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من الأردن .
(١٤) سفسطية : ذكرها العماد الأصفهانى سمسطيه ، وذكرها ياقوت " سبسطية " – وهكذا ذكرها البلاذرى فى فتوح البلدان – وهى مدينة من نواحى فلسطين من أعمال بيت المقدس (ياقوت) .
(١٥) كوكب : اسم لقلعة حصينة على الجبل المطل على طبرية ، مشرفة على الأردن (ياقوت) .
(١٦) عفرا : أوعفربلا : وهى بلدة قرب بيسان وطبرية بالأردن (ياقوت) .
(١٧) بيت لحم : بليد عامر قرب القدس ، مكان مهد عيسى عليه السلام (ياقوت) .
(١٨) الخليل : اسم لموضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب بيت المقدس (ياقوت) .
(١٩) بيت جبريل : أو بيت جبرين ، بُليد بين غزة وبيت المقدس ، وبينه وبين القدس مرحلتان ، كانت فيه قلعة حصينة ضربها صلاح الدين لما استنقذ بيت المقدس من الإفرنج (ياقوت) .
(٢٠) تل الصافية : حسن من أعمال فلسطين ، قرب بيت جبرين ، من نواحى الرملة (ياقوت) .
(٢١) مجدليابة : أو مجدل يابا ، قرية قرب الرملة بفلسطين ؛ بها حصن محكم .

التحتانى . النطرون[١] . الحصن الأحمر . لدّ[٢] بأرض الرملة . قلنوسة (قريبًا منها) . يبنى[٣] . القاقون والقيمون[٤] . قلعة الكرك[٥] (بعد حصار سنة ونصف) . قلعة الشوْبك[٦] (بعد حصار سنتين) . قلعة السّلع[٧] . الوعيرة . قلعة الجمع . قلعة الطفيلة . قلعة الهرمز[٨] : (جميع ذلك فى وادى موسى والسراه) . قلعة صفد[٩] . حصن يازور[١٠] .

شقيف أرنون[١١] . حصن إسكندرونه[١٢] (بين صور وعكا) . قلعة أبى الحسن[١٣] (بأرض صيدا) . صيدا أيضًا حصن . بلدة[١٤] (بالساحل الأعلى) . المرقية[١٥] (على البحر) . حصن يحمور[١٦] (بأرض عكا) . بلنياس (بين جبلة والمرقب[١٧]) . صهيون[١٨] . بلاطنس .

---

(١) النطرون : اسم مُحَرَّف للماطرون وهو موضع قرب دمشق (ياقوت) .

(٢) لُدّ : قرية من نواحى فلسطين قرب القدس (ياقوت) .

(٣) يُبنى أويُبنا : بليد قرب الرملة (ياقوت) .

(٤) القيمون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين (ياقوت) .

(٥) الكرك : قلعة حصينة على الطريق البرى بين مصر والشام والحجاز ، . وهى اليوم مدينة بالمملكة الأردنية الهاشمية .

(٦) الشوبك : حصن منيع ، كان بالقرب من حصن الكرك ، ويعد كل منهما ، بوابة مدينة القدس. وهو اليوم بالمملكة الأردنية الهاشمية .

(٧) السلع : حصن بوادى موسى عليه السلام بقرب البيت المقدس . (ياقوت) .

(٨) هرمز : هى قلعة بوادى موسى عليه السلام بين القدس والكرك (ياقوت) .

(٩) صفد : مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام ، وهى من جبال لبنان (ياقوت) .

(١٠) يازور : أو بازور ، بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام (ياقوت) .

(١١) شقيف أرنون : قلعة حصينة جدًا ، فى كهف من الجبل ، قرب بانياس ، من أرض دمشق ، بينها وبين الساحل . (ياقوت) . قلت : وهى اليوم بجنوب لبنان ، وانسحبت منها إسرائيل مؤخرًا .

(١٢) اسكندرونه : مدينة فى شرق أنطاكية على ساحل البحر المتوسط بينها وبين أنطاكية ثمانية فراسخ (ياقوت). قُلت : وتعرف اليوم بلواء الإسكندرونة ، وكانت تابعة للجمهورية السورية ، ثم ضمتها تركيا إليها الآن .

(١٣) قلعة أبى الحسن : قلعة ساحلية قرب صيداء . (ياقوت) .

(١٤) بلدة : من مدن بحر الشام ، قريبة من جبلة . (ياقوت) .

(١٥) مرقية : قلعة بساحل الشام قرب حمص (ياقوت) .

(١٦) حصن يحمور : حسن فى بلدة يحمور الواقعة شمال بلد العريمة ، والعريمة بلد تتاخم الدهناء (ياقوت) .

(١٧) حصن المرقب : قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام (البحر المتوسط) ، وعلى مدينة بانياس ، وعلى ساحل جبله . (ياقوت) . وبلنياس : كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص على البحر . (ياقوت) .

(١٨) حصن صهيون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام (البحر المتوسط) ، من أعمال حمص ، ليس بمشرف على البحر . (ياقوت) .

حصن الجماهيرية . قلعة العيذد[1]. بكّاس[2] . الشّغر[3] . بكسرائيل[4] . السُرْمانية[5]. قلعة بُرزّية[6]. دَرْبساك[7] . بُغراس[8] : (قريبا من أنطاكية) . الداثور (بأرض بيروت) . السوفند (قريبًا من صيدا) .

تورط السلطان الكامل محمد فى تسليم القدس للفرنج سنة ٦٢٦هـ ، نظرًا للصراع الأسرى الذى دار بينه ـ آنذاك ـ وبين أخويه : المعظم عيسى ملك دمشق ، والأشرف موسى ملك الجزيرة الفراتية ، حول السلطنة وزعامة البيت الأيوبى

وبقي القدس في يد المسلمين ٤٢ عامًا ، إلى أن وقع الخلاف والتفرق والتحزّب بين ملوك بني أيوب ـ على حد قول مجير الدين الحنبلي ـ واضطر السلطان الملك الكامل محمد إلى تسليم القدس للإمبراطور فردريك ملك الألمان وصقلية ، وذلك في سنة ٦٢٥هـ ، إذ وقع التنافر سنة ٦٢٤هـ بين الملك الكامل صاحب مصر وأخيه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق لأمور بينهما ؛ فكاتب الملك الكامل الإمبراطور ملك الإفرنج في ان يقدم إلى عكا ليشغل سرّ أخيه الملك المعظم عما هو فيه ، ووعد الإمبراطور بأن يعطيه القدس ـ وكان الإمبراطور قد أظهر ميلاً للإسلام وعداءً للبابوية ـ ؛ وسار الإمبراطور إلى عكا ، وبلغ المعظم ذلك ، ثم توفى الملك المعظم عيسى في هذه السنة ؛ وترتب في مملكته بعده ولده الناصر صلاح الدين داود ؛ فأرسل الملك الكامل صاحب مصر في سنة ٦٢٥هـ يطلب من ابن أخيه الناصر داود حصن الشوبك ، فلم يعطه إياه ، ولا أجاب إليه ، فسار الملك الكامل من مصر إلى الشام ، ونزل على تل العجول بظاهر غزّه ، وولى إبن يوسف على نابلس والقدس وغيرهما من بلاد ابن أخيه ، ووقع بينهما أمور ومراسلات . وقدم الإمبراطور إلى عكا بجموعه ـ وقد مات الملك المعظم ؛ فاستول على صيدا ـ وكانت مناصفة بين المسلمين والإفرنج وسورها خراب ـ ؛

---

(١) قلعة العيذو أو العيذ أو عيذون ، بنواحي حلب (ياقوت) .

(٢) و (٣) : حصنا بكاس والشُغر : قلعتان متقابلتان على نهر العاصى ، من نواحى حلب ، بينهما واد ضيق (ياقوت) .

(٤) حسن بكسرائيل : حصن من سواحل حمص ، مقابل جبله ، في الجبل . (ياقوت) .

(٥) سرمانية أو سرمينية : بليدة مشهورة من أعمال حلب ، أهلها إسماعيلية . (ياقوت) .

(٦) قلعة برزية : حصن بالسواحل الشامية ، والعامة تقول برزوية – على سن جبل شاهق ، وعلو قلعتها ٥٧٠ ذراعًا ؛ كانت بيد الفرنج حتى فتحها صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ . (ياقوت) .

(٧) دربساك : قلعة مرتفعة حصينة ، لها أعين وبساتين ، ولها من شرقها مروج كثيرة العشب ، وهو فى شمال بغراس بميلة إلى الشرق ، وبينهما عشرة أميال .

(٨) بغراس : مدينة في لحف جبل اللكام (قلت : هو جبل لبنان حاليًا – أحمد) ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ ، على يمين القاصد إلى أنطاكية ، في حلب ، فى المنطقة المطلة على نواحي طرسوس (ياقوت) .

فعمر الإفرنج سورها واستولوا عليها . فلمـا دخلـت سنة ٦٢٦هـ ، واستهلت وملـوك بنـى أيـوب متفرقون مختلفون ، قد صاروا أحزابًا ، بعد أن كانوا إخوانًا وأصحابًا ، فقوى الإفرنج بذلـك ، وبمـوت المعظم عيسى ، ومن وفد إليهم من البحـر . ولـم يجـد الكـامل بُـدًا مـن المهادنـة ، فأجـاب الإمـبراطور إلى تسليم القدس إليه ، على أن تستمر اسواره خرابًا ولا يعمره الفرنج ، ولا يتعرضوا إلى قبة الصخرة ولا إلى الجامع الأقصى ، ويكون المرجوع فى الرستاق إلى والى المسلمين ، ويكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط ؛ ووقع الأمر على ذلك وتحالفا عليه ، وتسلم الإمبراطور القدس فى ربيع الآخر سنة ٦٢٦هـ ، على القاعدة المذكورة[1] .

ويقول المقريزى عن تسليم السلطان الملك الكامل القدس للفرنج : « خرج الملـك الكـامل مـن القاهرة فى العساكر يريد دمشق ، فأخذ نابلس والقدس ؛ فخرج الناصر داود من دمشـق ومعـه عمـه الأشرف ، وسارا إلى الكامل يطلبان منه الصلح ... ؛ فاتفق قدوم الملك الإمبراطور إلى عكا باسـتدعاء الملك الكامل له ، فتحير الكامل فى أمره لعجزه عن محاربته ، وأخذ يلاطفه ؛ وشرع الفرنج فى عمارة صيدا ـ وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج ، وسورها خراب ـ ، فلما بلغ النـاصر موافقـة الأشـرف للكامل ، عاد من نـابلس إلى دمشـق واسـتعد للحـرب ، وأقـام الكـامل بتـل العجـوز وقـد تـورط مـع الفرنج ؛ فلم يجد بدًا من إعطاءهم القدس ، على أن لا يجدد سوره ، وأن تبقى الصخرة والأقصـى مـع المسلمين ، ويكون حُكم قرى القدس إلى المسـلمين ، وأن القـرى التـى فيمـا بـين عكـا ويافـا وبـين لـد والقدس للفرنج ؛ وانعقدت الهدنة على ذلك لمدة عشر (١٠) سـنين وخمسـة أشـهر وأربعـين يومًـا ، أولها ثامن ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ .

ونودى فى القدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج ، فكان أمرًا مهولاً من شـدة البكـاء والصراخ ؛ وخرجوا بأجمعهم ، فصاروا إلى مخيم الكامل ، وأذّنوا على بابه فى غير وقت الآذان ، فشق عليه ذلك ، وأخذ منهم الستور وقناديل الفضة والآلات وَنَجَرَهُمّ ، وقيـل لهـم أمضـوا حيـث شـئتم ، فعظم على المسلمين هذا ، وكثر الإنكار على الملك الكامل ، وشنعت المقالة فيه . وعاد الإمبراطور إلى بلاده بعدما دخل القدس ، وكان مسيره فى آخـر جمادى الآخـرة سنة ٦٢٦هـ ؛ وَسَيّر الكـامل إلى الآفاق بتسكين قلوب المسلمين وإنزعاجهم لأخذ الفرنج القدس . ورحل الكامل من تل العجوز يريـد دمشق ـ والأشرف على محاصرتها ـ ، فجد فى القتال واشتد الأمر على الناصر إلى أن ترامى فـى الليـل على الملك الكامل ، فأكرمه وأعاه إلى قلعة دمشق وبعث من تسلمها منه ، وعوضه عن دمشق الكـرك

(١) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ٢: ٤٠٥ - ٤٠٧، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٦٤٦ - ٦٤٨، ٦٥٣ - ٦٥٤ ؛ المقريزى : الخطط ٣: ٢١٣ - ٢١٤ ، ١: ٣٥٩ .

والشوبك والصلت والبلقاء والأغوار ونابلس وأعمال القدس ، ثم ترك الشوبك للكامل مع عدة مما ذكر ، وتسلم الكامل دمشق فى أول شعبان سنة ٦٢٦هـ وأعطاها للأشرف . وأخذ منه ما معه من بلاد المشرق (الجزيرة الفراتية) وهى حران والرّها وسروج وغير ذلك[١] » .

ويحدثنا مجير الدين القدسى الحنبلى عن ردود الفعل المتشائمة فى أرجاء الدولة الأيوبية ، التى صاحبت تسليم الملك الكامل القدس للفرنج ؛ فيقول : « ولما وقع ذلك ، كان الناصر داود فى الحصار لانتزاع دمشق منه ، فأخذ في التشنيع على عمه الملك الكامل بذلك ، وكان بدمشق الشيخ شمس الدين يوسف سبط أبى الفرج الجوزى ، وكان واعظًا له قبول عند الناس ؛ فأمر الناصر داود أن يعمل مجلس وعظ ، يذكر فيه فضائل بيت المقدس وما حلّ بالمسلمين من تسليمه إلى الفرنج ، ففعل ذلك ، فكان مجلسًا عظيمًا ؛ ومن جملة ما أنشد ، قصيدة تائية ضمنها فضل بيت المقدس ، منها :

مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحى مُقفرُ العرصات

وارتفع بكاء الناس وضجيجهم لذلك ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[٢] » .

ويحدثنا سبط ابن الجوزى نفسه ، عن ما قاله فى هذه المناسبة التى عظم بها الخطب ، فيقول : ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج ، فقامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام ، واشتدت العظائم بحيث أقيمت المآتم . واشار الملك الناصر داود بأن أجلس بجامع دمشق ، وأذكر ما جرى على البيت المقدس ، فما أمكننى مخالفته ، ورأيت من جملة الديانة الحمية للإسلام موافقته ، فجلست بجامع دمشق ، وحضر الناصر داود على باب مشهد على ، وكان يومًا مشهودًا لم يتخلف من أهل دمشق أحد ؛ وكان من جملة الكلام : انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كم كان لهم فى تلك الأماكن من ركعة ، وكم جرت لهم على تلك الأماكن من دمعة ، تالله لو صارت عيونهم عيونًا لما وفت ، ولو تقطعت قلوبهم أسفًا لما شفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين ، لمثل هذه الحادثة تُسكَبُ العَبَرات ، لمثلها تنقطع القلوب من الزَّفرات ، لمثلها تعظم الحسرات . وذِكرَ كلام كثير ، وأكثر الشعراء فى حديث القدس[٣] .

وقد أوضح سبط ابن الجوزى أن الإمبراطور فردريك كان يتلاعب بدين النصرانية ، ويستنكف ما ابتدعه القسس من صكوك الغفران ، ويتعاطف مع المسلمين ، ويتسامح معهم فى أداء شعائر دينهم

---

(١) المقريزى : الخطط ٣: ٢١٣ - ٢١٤ (ذكر المدرسة الكاملية) ؛ مجير الدين الحنبلى: الأنس الجليل ٢: ٤٠٧.
(٢) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ٢: ٤٠٦ - ٤٠٧ .
(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٦٥٤ .

بالقدس ، بعد أن تسلمه من الملك الكامل سنة ٦٢٦هـ ؛ فيقول سبط ابن الجوزى فى حوادث هذه السنة : « وفيها دخل الأنبرور إلى القدس ، والحصار على دمشق ؛ وجرى لـه عجائب ؛ منها أنه لما دخل الصخرة ، رأى قسيسًا قاعدًا عند القدم ، يأخذ من الفرنج القراطيس ، فجاء إليه كأنه يطلب منه الدعاء ، ولكمه فرماه إلى الأرض ، وقال : يا خنزير ، السلطان قد تصدق علينا بزيارة هذا المكان : تفعلوا فيه هذه الأفاعيل ، لئن عاد واحدٌ منكم دخل على هذا الوجه لأقتلنه ... ، ولما دخل وقت الظهر وأذّن المؤذن ، قام جميع من معه من الفراشين والغلمان ومعلمه ـ وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق فصولاً ـ فصلّوا ، وكانوا مسلمين .. وكان الأنبرور أشقر فى عينيه ضعف ، لو كان عبدًا ما ساوى مائتى درهم . قالوا : والظاهر من كلامه أنه كان دَهْرِيًّا، ولم يقم بالقدس سوى ليلتين ، وعاد إلى يافا من الداوية ، فإنهم طلبوا قتله[1] » .

ويحدثنا مجير الدين الحنبلى عن الصراع الأسرى على زعامة البيت الأيوبى الذى وقع بين السلطان الكامل صاحب مصر وأخيه الملك المعظم عيسى صاحب الشام ؛ وتمخّض عن تورط الملك الكامل فى تسليم القدس إلى الفرنج ، فيقول : ولما دخلت سنة ٦٢٤هـ ، وقع تنافر بين الملك الكامل صاحب مصر ، وأخيه المعظم عيسى صاحب دمشق ، لأمور بينهما ؛ فكاتب الملك الكامل الإمبراطور ملك الإفرنج ، فى أن يقدم إلى عكا ، ليشغل سرّ أخيه الملك المعظم عما هو فيه ، ووعد الأمبراطور بأن يعطيه القدس . فسار الإمبراطور إلى عكا ، وبلغ المعظم ذلك ؛ ثم توفى الملك المعظم فى هذه السنة يوم الجمعة مستهل ذى الحجة سنة ٦٢٤هـ ، ودُفِنَ بقلعة دمشق (...) ؛ ولما توفى الملك المعظم ، ترتب فى مملكته بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين داود . فلما دخلت سنة ٦٢٥هـ ؛ أرسل الملك الكامل صاحب مصر يطلب من ابن أخيه الناصر داواد حسن الشوبك ، فلم يعطه إياه ولا إجابة إليه . فسار الملك الكامل من مصر إلى الشام فى رمضان من هذه السنة ، ونزل على تلّ العجول بظاهر غزّه، وولى ابن يوسف على نابلس والقدس وغيرهما من بلاد ابن أخيه ، ووقع بينهما أمور ومراسلات . وقدم الإنبرطور إلى عكا بجموعه ـ وقد مات الملك المعظم ـ ، فاستولى على صيدا ـ وكانت مناصفة بين المسلمين والإفرنج وسورها خراب ـ ، فعَمّرَ الإفرنج سورها . والإنبرطور معناه : ملك الأمراء بالإفرنجية ، وكان صاحب جزيرة صقلية ، وكان فاضلاً يحسن الحكمة والمنطق والطب ، ويميل إلى المسلمين . ولما دخلت سنة ٦٢٦هـ ، واستهلت وملوك بنى أيوب متفرقون مختلفون ، قد صاروا أحزابًا ، بعد أن كانوا إخوانًا وأصحابًا ؛ فقوى الإفرنج بذلك ، وبموت المعظم عيسى ، ومن وفَدَ إليهم من البحر . وكان الملك الكامل قد عزم على انتزاع دمشق من ابن أخيه الناصر داود ، وسير الملك الكامل أخاه الملك الأشرف موسى لحصار دمشق ، والكامل مشتغل بمراسلة الإنبراطور . ولما طال

(١) نفس المصدر ٨: ٦٥٦ – ٦٥٧ ، وراجع النص بطوله .

الأمر ، ولم يجد الكامل بُدًّا من المهادنة ، اجاب الإمبراطور إلى تسليم القدس إليه ؛ على أن تستمر أسواره خرابًا ، ولا يعمره الإفرنج ، ولا يتعرضوا إلى قبة الصخرة ، ولا إلى الجامع الأقصى ؛ ويكون المرجوع في الرستاق إلى والى المسلمين ، ويكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط ؛ ووقع الأمر على ذلك ، وتحالفا عليه . وتسلم الإمبراطور القدس في ربيع الآخر (سنة ٦٢٦هـ) ، على القاعدة المذكورة ؛ وعظم ذلك على المسلمين ، وحصل به وَهْنٌ شديد وإرجاف في الناس[(١)] .

مقدمات الفتح الناصرى الداودى للقدس

يقول مجير الدين الحنبلى ، حاكيًا لنا ظروف الصلح الذى تم بين السلطان الملك الكامل وابن أخيه الملك الناصر داود صاحب الكرك ابن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، مما أدى إلى خلو سِرّ الملك الناصر داود من هذه الحروب الأسرية ، وإقدامه على استرداد القدس من الفرنج ، وفتحها الفتح الثانى لها الذى تم على يد ملوك بنى أيوب ، وعرف بالفتح الناصرى الداودى ، وذلك سنة ٦٣٧هـ ، وبقاء القدس فى يد المسلمين أربع سنوات ، حتى اضطر الناصر داود إلى تسليمها مرة أخرى للفرنج سنة ٦٤١هـ ، حين تجددت الحروب الأسرية بين ملوك بنى أيوب بالشام ومصر ؛ فيقول مجير الدين الحنبلى : « ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الإنبرطور ، وخلا سِرّه من جهة الإفرنج، سار إلى دمشق فوصل إليها فى جمادى الأولى (سنة ٦٢٦هـ) . واشتد الحصار على دمشق ،

---

(١) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٤٠٥ - ٤٠٦ ؛ وأنظر سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٦٤٣ ، حوادث سنة ٦٢٤هـ ، حيث يقول : وفيها قدم رسول الأنبرور على (الملك) المعظم ، بعد اجتماعه بـ (الملك) الكامل ، يطلب الفتوح ؛ فأغلظ عليه ، وقال : قُلّ لصاحبك ما أنا مثل الغير ، ماله عندى سوى السيف ؛ وأنظر أيضًا سبط ابن الجوزى : مرآة ٨: ٦٤٦ معلومات عن التدابير التى قام بها المعظم عيسى للحيلولة دون وصول الأنبرور إلى عكا ، و ٨: ٦٥٣ - ٦٥٥ ، حوادث سنة ٦٢٦هـ ، حيث يقول : وفيها أعطى الكامل الأنبرور البيت المقدس ، ووصل الأنبرور إلى يافا ، وخرج الكامل من مصر فنزل تل العجول . وفيها دخل الأنبرور إلى القدس والحصار على دمشق . ولقد ذكر ابن واصل الحموى فى كتابه مفرج الكروب ، تعليقًا على تسليم السلطان الملك الكامل للقدس للفرنج ، أن السلطان فعل هذا لإنشغاله فى حروبه مع ملوك بنى أيوب بالشام ؛ وأنه كان قادرًا على استرداد القدس فى أى لحظة ، والراجح أن ابن واصل كان صادقًا ومحقًا فى قوله هذا ، لأنه السلطان الكامل اشترط على الفرنج عدم عمارة سور مدينة القدس ، ومن ناحية أخرى ، ظل فى حوذته حصنا الكرك . والشوبك ، وهما الحصنان المتحكمان فى مصير مدينة القدس من الناحية العسكرية ، فبغيرهما لا يستطيع المسيطر على القدس حمايتها والدفاع عنها ؛ وهو الأمر الذى يفسر سرعة نجاح الملك الناصر داود فى فتح القدس سنة ٦٣٧هـ ، وسرعة نجاح السلطان الصالح نجم الدين فى فتح القدس سنة ٦٤٢هـ كما سيأتى بيانه .

واستولى عليها الملك الكامل ، وسلمها لأخيه الملك الأشرف موسى ؛ وعوّض الناصر داود عنها الكرك والشوبك والبلقاء والصلت والأغوار (بأرض الأردن وفلسطين) ؛ ثم نَزَلَ الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه في قبولها فقبله ـ واستمر الأشرف موسى بدمشق ، إلى أن توفي في المحرم سنة ٦٣٥ هـ ، وتملك دمشق بعده أخوه الملك الصالح إسماعيل بعهد منه ـ ثم سار الملك الكامل إلى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك ونزلا عليها في جمادى الأولى من هذه السنة (٦٣٥هـ) وحصلت أمور ووقائع ؛ ثم سلّم الصالح إسماعيل دمشق إلى أخيه الكامل لإحدى عشرة (١١) ليلة بقيت من جمادى الأولى ، وتعوض عنها بعلبك .

ولم يلبث الكامل غير أيام حتى مرض واشتد مرضه، ومات لتسع بقين من رجب سنة ٦٣٥هـ؛ واستمر بعده في السلطنة بمصر ولده الملك العادل أبو بكر بن الكامل ، فإنه كان نائبه بمصر . واتفق الأمراء بدمشق حين وفاة والده على تحليف العسكر له ، وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، نائبًا عن الملك العادل بن الكامل . ورحل الناصر داود إلى الكرك ، وتفرقت العساكر .

فلما دخلت سنة ٦٣٦هـ ، استولى الملك الصالح نجم الدين أيوب (صاحب الجزيرة الفراتية وبلاد الشرق وحصن كيفا) ابن الملك الكامل ، على دمشق وأعمالها ، بتسليم الملك الجواد يونس في جمادى الآخرة . ودخلت سنة ٦٣٧هـ ، وكان الملك الصالح أيوب سار من دمشق واستخلف فيها ولده الملك المغيث فتح الدين عمرو .

ووصل الصالح أيوب إلى نابلس ، لقصد الاستيلاء على الديار المصرية ؛ فسار الصالح إسماعيل صاحب بعلبك ، ومعه شركوه صاحب حمص ، بجموعهما ؛ وهجموا على دمشق ، وحصروا القلعة ، وتسلمها الصالح إسماعيل ، وقبض على الملك المغيث في صفر .

فلما بلغ الصالح أيوب ذلك ، رحل من نابلس إلى الغور ، وتشتت عنه عساكره ، وضاق به الأمر فقصد نابلس ، ونزل بها بمن معه ؛ فسار إليه الناصر داود بعسكره من الكرك ، وأمسك الصالح أيوب وأرسله إلى الكرك ، واعتقله بها ، وأمر بالقيام في خدمته بكل ما يختاره ؛ ولما اعتقل بالكرك ، أرسل أخوه الملك العادل أبو بكر صاحب مصر يطلبه من الناصر داود ، فلم يسلمه الناصر داود ، فأرسل العادل وتهدّد الناصر بأخذ بلاده ، فلم يلتفت إلى ذلك[1] » .

---

(١) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ٢: ٥ ؛ وانظر سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨: ٧٢٤ .

الفتح الناصرى الداودى للقدس سنة ٦٣٧هـ

بعد اعتقال الملك الناصر داود صاحب الكرك للملك الصالح أيوب بالكرك ؛ قصد الملك الناصر داود القدس ، وكان الإفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الملك الكامل (سنة ٦٣٥هـ) - أى نقضوا شروط العهد والهدنة بينهم وبين المسلمين التى وقعها معهم الملك الكامل سنة ٦٢٦هـ - فحاصرها وفتحها ، وخرّب القلعة ، وبرج (محراب) داود أيضًا ؛ فإنه لما خربت القدس أولاً (سنة ٥٨٣هـ فى الفتح الصلاحى) ، لم يخرب برج (محراب) داود ، فخربه فى هذه المرة وذلك فى سنة ٦٣٧هـ ، بعد أن بقى فى أيدى الإفرنج نحو إحدى عشرة (١١) سنة ، من حين تسليم الكامل له فى سنة ٦٢٦هـ .

فأنشد فى ذلك الفتح وفى مدح الملك الناصر داود ، ومقارنة فتحه للقدس سنة ٦٣٧هـ ، بفتح السلطان صلاح الدين الأيوبى للقدس سنة ٥٨٣هـ ؛ أنشد الشاعر الوزير الأيوبى جمال الدين بن مطروح قصيدة جاء فيها :

المسجد الأقصى له آية ... سارت فصارت مثلاً سائرًا
إذا غدا للكفر مستوطنًا ... أن يبعث الله له ناصرًا
فناصرٌ طهره أولاً ... وناصر طهره آخرا

ولقد شارك الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن عمه الناصر داود - وكان معتقلاً عنده - الفرحة باسترداد القدس من الفرنج ؛ ففى أواخر رمضان سنة ٦٣٧هـ ، أفرج الناصر داود صاحب الكرك عن ابن عمه الملك الصالح أيوب ، واجتمعت عليه مماليكه ، وسار هو والناصر داود إلى قبة الصخرة ؛ وتحالفا على أن تكون ديار مصر للصالح ، ودمشق للناصر ؛ ولما ملك الصالح ، لم يف له بذلك ، وكان يتأول فى يمينه أنه كان مكرها ، ثم سار إلى غزة[1] .

تجدد الصراع الأسرى بين ملوك بنى أيوب بمصر والشام ؛

وتورط الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق فى تسليم صفد وقلعة الشقيف للفرنج سنة ٦٣٨هـ ،

وتورط الملك الناصر داود صاحب الكرك فى تسليم طبرية وعسقلان والقدس للفرنج سنة ٦٤١هـ ،

ليعضدهما الفرنج على السلطان الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر، لتفكيره فى توحيد مصر والشام :

فلما بلغ الملك العادل صاحب مصر ظهور أخيه الصالح ، عظم عليه ، وبرز بعسكر مصر ، ونزل على بلبيس ، لقصد أخيه الصالح والناصر داود ؛ وأرسل إلى عمه الصالح إسماعيل المتولى على دمشق ، أن يبرز ويقصدهما من جهة الشام ؛ فسار الصالح إسماعيل بعساكر دمشق .

---

(١) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ٢: ٥ ؛ وأنظر سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٧٢٤ - ٧٢٩ .

فبينما الصالح أيوب والناصر داود ، وهما بين عسكرين قد أحاط بهما (عسكر الصالح إسماعيل من دمشق ، وعسكر العادل من مصر) ؛ إذ رَكَّتَ جماعة من المماليك الأشرفية ، ومقدمهم أيبك الأسمر ، وأحاطوا بدهليز الملك العادل أبى بكر ابن الكامل ، وقبضوا عليه فى ليلة الجمعة ثامن (٨) ذى القعدة (سنة ٦٤٠هـ) ؛ وأرسلوا إلى الملك الصالح أيوب يستدعونه ، فأتاه فرجٌ لم يسمع بمثله ؛ وسار ومعه الناصر داود إلى مصر ، وصار يلتقيه فى كل يوم فرج من العساكر ، إلى أن دخل إلى قلعة الجبل بكرة يوم الأحد لست بقين من ذى القعدة (سنة ٦٤٠هـ) وزينت له البلاد ، وفرح الناس بقدومه ؛ ولما استقر فى ملك مصر ، خاف الناصر داود إبن يقبض عليه ، فطلب دستورًا ، وتوجه إلى بلاد الكرك [1] .

وفى سنة ٦٣٨هـ ، قوى خوف الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، من إبن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر ؛ فسلم صفد والشقيف إلى الإفرنج ، ليعضدوه ويكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب ؛ فعظم ذلك على المسلمين .

ولما دخلت سنة ٦٤١هـ ، حصلت فيها المراسلة بين الملك الصالح أيوب صاحب مصر ، والملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق بالضلح ؛ وأن صاحب دمشق يطلق الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الصالح أيوب ، وحسام الدين بن على الهذبانى ، وكانا معتقلين عند الصالح إسماعيل ؛ فأطلق حسام الدين وجهزه إلى مصر ، واستمر الملك المغيث فى الاعتقال . واتفق الصالح إسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك ، واعتضدا بالإفرنج ، وسلما إليهم طبرية وعسقلان ، فعمر الإفرنج قلعتهما ، وسلما أيضًا إليهم القدس بما فيه من المزارات .

قال القاضى جمال الدين (ابن واصل الحموى) : ومَرَرْتُ إذ ذاك (سنة ٦٤١هـ) بالقدس ، متوجهًا إلى مصر ، ورأيت القسس قد جعلوا على الصخرة قنانى الخمر للقربان ؛ فالحكم لله العلى الكبير .

---

(١) المقريزى : الخطط ٣: ٣٨٣ ، ٤: ٢٠٩ - ٢١١ ؛ سبط : مرآة الزمان ٨: ٧٣٢ ، حيث يقول : وفى سنة ٦٣٨هـ ، سلم إسماعيل الصالح الشقيف لصاحب صيدا ، وعزل عبد العزيز (العِزّ) ابن عبد السلام من الخطابة ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ٢: ٦ وقد أمدنا السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، فى الفصل الذى أفرده للحديث عن قضاة مصر بمعلومات طريفة وهامة عن هذه الحادثة ، وكيف أن العز بن عبد السلام - حين علم بتسليم الملك الصالح اسماعيل لقلعة الشقيف لصاحب صيدا من أمراء الفرنج - أسقط اسم الملك الصالح اسماعيل من الخطبة ، ولجأ إلى مصر ، فاحتفى به الملك الصالح نجم الدين أيوب وعرف قدره وولاه قضاء القضاه بمصر . أنظر السيوطى : حسن المحاضرة ٢: ١٠٩ (طبعة مطبعة الموسوعات) .

قال مجير الدين الحنبلي : وكان الناصر داود فتح بيت المقدس ـ كما تقدم ـ في سنة ٦٣٧ ؛ ثم فعل هذه الفعلة القبيحة ، فأبدل حسنة بسيئة ؛ وقد انتقم الله منه فيما بعد ... ؛ فنعوذ بالله من سوء الخاتمة والضلال بعد الهداية [١] .

الفتح الصالحي النجمي للقدس سنة ٦٤٢هـ ؛
واسترداده لغزة ولسواحل الشام والقدس الشريف ،
بعد هزيمته للفرنج في معركة غزة الكبرى سنة ٦٤٢هـ،
وهي التي اشتهرت لدى الفرنج بحطين الثانية، لكثرة من قتل وأسرى فيها من الفرنج

ولما وقع ما تقدم ذكره من تسليم القدس للإفرنج في سنة ٦٤١هـ ، استدعى الملك الصالح نجم الدين ايوب الجند الخوارزمية ـ وكانوا قد دخلوا في خدمته حين ولاه أبوه الملك الكامل الجزيرة الفراتية وبلاد المشرق وحصن كيفا ـ لينصروه على عمّه الصالح إسماعيل[٢] ؛ فسار الخوارزمية ، ووصلوا إلى غزة في سنة ٦٤٢هـ ؛ ووصل إليهم عِدّة كثيرة من العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس مملوك الصالح أيوب وكان أكبر مماليكه . وأرسل الصالح إسماعيل عسكر دمشق مع الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه صاحب حمص ؛ وسار صاحب حمص جريدة ودخل عكا ، واستدعى الإفرنج على ما كان قد وقع عليه الاتفاق معهم ، ووعدهم بجزء من بلاد مصر[٣] .

فخرج الإفرنج واجتمعوا بالفارس والراجل ، ولم يحضر الناصر داود ؛ والتقى الفريقان بظاهر غزة ، فولى عسكر دمشق وصاحب حمص والإفرنج منهزمين ؛ وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقًا عظيمًا ، واستولى الملك الصالح صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس الشريف ولله الحمد ؛ ووصلت الأسرى والرؤس إلى مصر ، ودُقّت بها البشائر عِدّة أيام[٤] .

وكما أبدى مجير الدين الحنبلي ، استنكافه من تسليم الملك الناصر داود القدس للفرنج سنة ٦٤١هـ ، وَصَرّحَ بحنقه الشديد على الملك الناصر داود لأنه أقدم على هذه الفعلة الشنعاء ، وفسر وفاة الملك الناصر داود غريبًا سليب الملك ، بغضب الله عليه ؛ فإن مجير الدين قد أشاد باسترداد الملك الصالح نجم الدين أيوب للقدس ؛ واستعادته فتح غزة وساحل بلاد الشام من الفرنج سنة ٦٤٢هـ ، وأشاد بسيرة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ودعا له برحمة الله وعفوه والجنة ؛ فيقول

(١) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ٢: ٥ – ٦ .
(٢) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ٨: ٧٤١، حوادث سنة ٦٤١هـ؛ مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ٢: ٧.
(٣) سبط : مرآة ٨: ٧٤٥ – ٧٤٦ ، حوادث سنة ٦٤٢ ؛ مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ٢: ٧ .
(٤) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ٢: ٧ .

مجير الدين : وهذا الفتح الواقع فى سنة ٦٤٢هـ لبيت المقدس ، هو آخر فتوحاته ، فإنه استمر بأيدى المسلمين إلى عصرنا (سنة ٩٠٢هـ) ؛ والمرجو من كرم الله تعالى استمراره كذلك إلى يوم القيامة ، بحول الله وقوته ... وكان (السلطان الصالح نجم الدين أيوب) مهيبًا عالى الهمّة ، عفيفًا طاهر اللسان ، شديد الوقار ؛ ولو لم يكن من علو همته إلا مبادرته لاستنقاذ البيت المقدس من أيدى الكفار فى أسرع وقت لكفى ؛ رحمة الله وعفا عنه وعوضه الجنة[١] . وقد لاحظ المؤرخون المحدثون أن الفتح الصالحى النجمى للقدس سنة ٦٤٢هـ ، كان آخر مرة يفتح فيها المسلمون بيت المقدس فى عصر الحروب الصليبية ، إذ لم يقدر لجيش مسيحى أن يدخلها بعد ذلك أبدًا حتى الحرب العالمية الأولى[٢] .

وقد أمدنا سبط ابن الجوزى بوصف حى لمعركة غَزّة الكبرى ، التى اندحر فيها الفرنج ومن استعان بهم من ملوك بنى أيوب سنة ٦٤٢هـ ، إذ يذكر سبط ابن الجوزى ، أنه فى هذه السنة : « فيها كانت وقعة عظيمة بين الخوارزمية والفرنج ... وكنت يومئذ بالقدس ، والناصر بالكرك ، واجتمعوا بأسرهم على يافا ، والخوارزمية وعسكر مصر على غَزّة ... ؛ وكان يومًا عظيمًا ، لم يجر فى الإسلام مثله ، ولا فى زمان نور الدين وصلاح الدين ؟! ... ، وكان الفرنج عشرة (١٠) آلاف وخمسمائة (٥٠٠) فارس (...) وعشرة (١٠) آلاف راجل ؛ وما كانت إلا ساعة حتى حصدتهم الخوارزمية بالسيوف حصدًا جيدًا ، وأسروا منهم ثمانمائة (٨٠٠) أسير ؛ ولقد أصبحت ثانى يوم الكسرة إلى غَزّة ، فوجدت الناس يَعُدّون القتلى بالقصب ، فقالوا : هم زيادة على ثلاثين (٣٠) ألفًا ؟! ؛ وقد بعث الخوارزمية بالأسارى والرؤس إلى مصر ... ؛ ووصل الأسارى إلى مصر (...) ، وعُلقت الرؤس على أبواب القاهرة ، وامتلأت الحبوس من الأسارى ؛ وكان يومًا عظيمًا »[٣] .

ويرى المؤرخون المحدثون أن معركة غَزّة الكبرى هذه ؛ كانت ولا شك أعظم كارثة حلت بالفرنج منذ وقعة حطين سنة ٥٨٣هـ ؛ حتى أطلق المؤرخون الأوربيون عليها اسم «حطين الثانية»[٤] . وقد تفرغ الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد هذه المعركة ، لتوحيد الدولة الأيوبية من جديد تحت

---

(١) نفس المرجع ٢: ٨ (ذكر الفتح الصالحى النجمى الذى يسره الله تعالى على يد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب تغمده الله تعالى برحمته وأسكنه فسيح جناته) .

(٢) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، ١٩١٨ ، ص ١٣٣ .

(٣) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ٨: ٧٤٥ - ٧٤٧ .

(٤) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر ص ١٣٤ .

لواء سلطنته ، وخاصة مصر والشام ؛ فخُطِبَ له بمصر والشام والجزيرة الفراتية واليمن وبلاد الحجاز والحرمين الشريفين . واسترد من الفرنج طبرية وعسقلان[1] .

تطور عمارات وتجديدات قبة الصخرة والمسجد الأقصى فى العصر الإسلامى ، على يد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ثم خلفاء بنى أمية وخلفاء بنى العباس والخلفاء الفاطميين ، وسلاطين بنى أيوب وسلاطين المماليك على التوالى

وقد قام مجير الدين الحنبلى صاحب كتاب الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل - نظرًا لأنه كان ناظر الحرم القدسى فى سلطنة السلطان الملك الأشرف قايتباى ، حين ألف كتابه هذا فى سنة ٩٠٠هـ - قام مجير الدين ببحث أثرى دقيق ممتع ، عن تطور عمارة المسجد الأقصى فى العصر الإسلامى ، اعتمادًا على الشواهد الأثرية المعاينة من ناحية ، وعلى النقوش المؤرخة للتجديدات المتعاقبة التى قام بها خلفاء وملوك الإسلام على قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، والمزارات والمشاهد والمدارس والخوانق الواقعة داخل حرَم المسجد الأقصى ، أو الملتصقة بجوانبه ، أو الواقعة خارج حرمه، فضلاً عن مناراته (مآذنه) الأربع ، وبواباته العديدة ، وبوابات سورة الأثرى ؛ وحقق فى هذا الوصف التفصيلى الأثرى ، أن أول من عَمّر قُبّة الصخرة والمسجد الأقصى فى الإسلام الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد الفتح العمرى للقدس ، اعتمادًا على ما صح عنده وعند من شهد هذا الفتح من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث نبوية مرتبطة بتاريخ المسجد الأقصى وفضائله وتحديد سَمْت قِبلته وبمعجزة الإسراء والمعراج ؛ وأنه يرجع إلى عصر العمارة العُمرية مسجد عمر بن الخطاب الكائن تحت قُبّة الصخرة ، وبعض المبانى الملحقة بالمسجد مثل جامع المغاربة وبعض أبوابه ؛ فى حين ترجع أغلب مبانى قبة الصخرة والمسجد الأقصى لعمارة الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، ومازيد على هذه العمارة أو لحق بها من تجديدات زمن خلفاء بنى أمية مَنْ بعده (ابنيه الوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك) ، وزمن خلفاء بنى العباس الأوائل (أبو جعفر المنصور ، والمهدى) ، وزمن الخلفاء الفاطميين الأوائل (المعز لدين الله ، والعزيز بالله ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر بالله ، والمستنصر بالله) ، وزمن سلاطين وملوك بنى أيوب (صلاح الدين الأيوبى ، المعظم عيسى ، الصالح نجم الدين أيوب) ، وزمن سلاطين المماليك

(١) أحمد فؤاد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ص ١٦٨ ، اعتمادًا على ألقاب الملك الصالح كما وردت على نقوشه ؛ وراجع سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ص ١٣٤ - ١٣٧ ؛ مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ٢ : ٨ .

(المنصور قلاوون ، الناصر محمد بن قلاوون ، الأشرف شعبان بن حسين ، حسام الدين لاجين ، الأشرف قايتباى) وذلك على يد نظارهم على الحرم القدسي ، ونوابهم على نيابة غزة (فى العصر المماليكى)[1] .

---

(١) أنظر مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ٢: ١١ - ٣٠ . ذكر (صفة المسجد الأقصى وما هو عليه فى عصرنا) ، وأنظر أيضًا ، نفس المصدر ، ١: ١٨١ - ١٨٥ (قصة المعراج وما وقع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بالمسجد الأقصى) ، ١: ٢٢٦ - ٢٤٣ (ذكر فضائل المسجد الأقصى الشريف وما ورد فى ذلك من الآيات والأحاديث) ، ١: ٢٨٠ - ٢٨٥ (ذكر صفة المسجد الأقصى وما كان عليه فى زمن عبد الملك وبعده) ومما قاله : المتعارف عند الناس أن الأقصى من جهة القبلة الجامع المبنى فى صدر المسجد الذى به المنبر والمحراب الكبير ؛ وحقيقة الحال : أن الأقصى اسم لجميع المسجد مما دار عليه السور .. ، فإن هذا البناء الموجود فى صدر المسجد وغيره من قبة الصخرة والأروقة وغيرها مُحدثة ، والمراد بالأقصى هو جميع ما دار عليه السور ، نفس المصدر ٢: ٢٤ ؛ ومما قاله أيضًا : " ولم يختلف اثنان أنه عُرج به صلى الله عليه وسلم عن يمين الصخرة " ، نفس المصدر ٢: ٢٠ ، وهو يذكر أيضًا فى نفس هذا الموضع أن النبى صلى الله عليه وسلم صلّى بالأنبياء والملائكة ليلة الإسراء فى صحن الصخرة ، إلى جانب ما يعرف بقبة المعراج ومقام النبى محمد .

وقد تواكب مع تزايد الاهتمام بتحرير القدس فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، ظاهرة الاهتمام بتأليف كتب فى فضائل بيت المقدس والمسجد الأقصى أنظر أبو بكر محمد بن أحمد الواسطى المقدسى من علماء القرن الخامس الهجرى : فضائل البيت المقدس ، تحقيق إسحاق حسون ، معهد الدراسات الآسيوية والإفريقية ، الجامعة العبرية ، القدس ١٩٧٩م ؛ بهاء الدين بن عساكرت ٥٧١هـ : المستقصى بفضائل المسجد الأقصى ، طبع بيروت ١٩٧٨م ؛ أبو المعاطى المشرف ابن المرجا المقدسى : فضائل بيت المقدس ، طبع بيروت ١٩٨٠م ؛ أبو الفرج ابن الجوزى : تاريخ بيت المقدس أو فضائل بيت المقدس ، تحقيق محمد زينهم عزب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٩٤م . أما الكتب التى ألفت عن فضائل القدس والمسجد الأقصى فى العصر المماليكى ، فقد اهتمت بالجانب الأثرى والطبوغرافى للمدينة ، أنظر أبو عبد الله بن شهاب الدين المنهاجى السيوطى ت ٨٨٠هـ : إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ، تحقيق أحمد رمضان أحمد ، القاهرة ١٩٨٢م ؛ قاضى القضاه أبو اليمن القاضى مُجير الدين عبد الرحمن بن محمد العليمى المقدسى الحنبلى العُمرى ، المنتهى نسبه إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ولد بالقدس سنة ٨٦٠هـ ، ورحل إلى القاهرة سنة ٨٨٠هـ ودرس بها ، وعاد إلى القدس سنة ٨٨٩هـ ، وتولى قضاء القدس ولعله بقى فيه مدة حتى وفاته سنة ٩٢٨هـ : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، تحقيق محمد موسى المحتسب ، مكتبة المُحتسب ، عمان - الأردن ، ١٩٧٣م ، (ج ١ - ٢) .

وأنظر فصولاً دقيقة عن الصخرة المقدسة ، وعَنَ قُبة الصخرة ، والمسجد الأقصى ، وإزالة السلطان صلاح الدين الأيوبى للتعديات والمنكرات والكنيسة والمذبح ، التى بناها الفرنج فوق الصخرة ، ومحيه للصور والأيقفونات وتحطيمه للتماثيل التى وَضَعَها الفرنج إبان احتلالهم للقدس ، وإظهاره المحراب وترخيمه ، ونصبه للمنبر ، وتطهيره لقبة الصخرة ومسحه لها سنة ٥٨٣هـ بعد فتحه للقدس واستنقاذه لها من أيدى الفرنج ، عند العماد الأصفهانى : الفتح القيسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ، =

ولم يغب عن الجغرافيين والرحالة المسلمين عند تسجيل رحلاتهم ، تقديم وصفًا حضاريًا أثريًا مُسهبًا للمسجد الأقصى ، كما رأوه عند زيارتهم له ، كل منهم حسب عصره الذى سجل فيه رحلته ومشاهداته ؛ وكان أكثر هؤلاء الجغرافيين والرحالة والمؤرخين إسهابًا وتفصيلاً ودقة فى وصف المسجد الأقصى ، المقدسى[1] والأصطخرى[2] فى العصر العباسى ، والهروى[3] فى العصر الأيوبى ، وابن بطوطة[4] ، وابن فضل الله العُمرى[5] ، والقلقشندى[6] فى العصر المماليكى .

= د. ت. ص ١١٦ - ١١٧ . (فتح بيت المقدس) ، ص ١١٨ - ١٢١ ذكر كنيسة قمامة (القيامة) ، ص ١٢٢ - ١٢٩ (وصف البيت المقدس) ، ص ١٣٠ - ١٣١ (ذكر يوم الفتح) ، ص ١٣٥ - ١٣٦ (ذكر ما جرت عليه حال الفرنج فى خروجهم من القدس) ، ص ١٣٧ - ١٤٠ (ذكر ما أظهره السلطان فى القدس من الحسنات ومحاه من السيئات) ، ص ١٤١ - ١٤٤ (وصف الصخرة المعظمة عمرها الله) ، ص ١٤٥ - ١٤٦ (ذكر محراب داود عليه السلام ، وغيره من المشاهد الكرام ؛ وتبطيل الكنائس ، وإنشاء المدارس) .

(١) أنظر المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص ١٦٨ - ١٧١ ، وقد أبدع المقدسى فى وصف زخارف قبة الخضرة ، ثم قال : " وعلى الجملة ، لم أر فى الإسلام ، ولا سمعت أن فى الشرك مثل هذه القُبَّة " .

(٢) أنظر الأصطخرى : المسالك والممالك ص ٤٣ - ٤٩ ، حيث يقول : " وبيت المقدس .. بها مسجدٌ ليس فى الإسلام أكبر منه " .

(٣) أنظر الهروى : كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ، تحقيق جانين سورديل طومين ، نشر المعهد العلمى الفرنسى بدمشق للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٥٣م ، ص ٢٥ - ٢٦ ؛ وهو يصف تعديات الفرنج على قبة الصخرة والمسجد الأقصى إبان احتلالهم للقدس ٤٩٢هـ - ٥٨٣هـ وما وضعوه بداخله من رسوم وشارات نصرانية .

(٤) أنظر ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧هـ - ١٩٦٠م ، ص ٦٠ - ٦٢ .

(٥) أنظر ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار وممالك الأمصار ، (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ، ص ١٣٦ - ١٣٩ . ومما قاله : " وأما مدينة القُدس الشريف فعلى جبل مدينة مستديرة فى وسطها السور المحيط على الصخرة والمسجد المسمى الآن - المسجد الأقصى ؛ وإنما حقيقة المسجد الأقصى جميع ما يحيط بالسور المذكور وهو المعروف بالسور السليمانى " .

(٦) أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ٤: ١٠٠ - ١٠٢ ، وهو يرجع بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة فى العصر الأموى إلى الوليد بن عبد الملك لا عبد الملك بن مروان ، ويروى هذا أيضًا عن الحميرى صاحب كتاب الروض المعطار . وهو يقول " على أن المسجد الأقصى على الحقيقة جميع ما هو داخل السور " .

وعُنى المؤرخون من جانبهم بتسجيل وتتبع العمارات والتجديدات التى قام بها سلاطين المماليك ونوابهم وولاتهم على القدس والخليل ، فى المسجد الأقصى ، وفى الحرمين القدسى والخليلى ؛ وذلك بعد أن اصبح سلاطين المماليك ، هم حماة الحرمين الشريفين مكة والمدينة ، وحماة القبلتين ، وحماة المسجد الأقصى ، وهذا مادلت عليه ألقاب سلاطين الأيوبيين ومن بعهدهم تلامذتهم سلاطين المماليك ، وأهمها : « خادم الحرمين الشريفين » ، و « صاحب الحرمين الشريفين » و « ملك الحرمين الشريفين والبيت المقدس »[1] . فذكر هؤلاء المؤرخون أن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الذى يُعدّ المؤسس الحقيقى لدولة المماليك البحرية بمصر اهتم بعمارة المقدسات الإسلامية فى بلاد الحجاز وفلسطين ، لإعلان نهوضه بحماية وخدمة الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، وحماية وخدمة القبلتين ، الكعبة المسجد الحرام و المسجد الأقصى ؛ وتدليلاً على احقيته فى حمل لقبى : خادم الحرمين الشريفين والقبلتين ؛ وهو ما حقق له الزعامة على العالم الإسلامى ، حتى لُقب بـ « سلطان الإسلام والمسلمين »[2] ؛ ويقول المقريزى مُعَدّدًا أثار وعمائر السلطان بيبرس فى الحجاز وفلسطين : « وعَمّر الحرم النبوى ، وقبة الصخرة ببيت المقدس ، وزاد فى أوقاف الخليل عليه السلام (فى الحرم الإبراهيم فى مدينة الخليل)[3] .

وعَدّد ابن أيبك الدوادار فى سيرته للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون الجوامع التى عَمّرها واستجدها هذا السلطان هو ونوابه وولاته على الشام ، بالقدس وغزّة وصفد ودمشق وطرابلس ؛ ثم قال : « وأما الخوانق والرباطات والزوايا وكذلك المساجد ، فلا تحصى كثرة ؛ وجميع هذه الأماكن مشحونة بالأئمة والخطباء والفقهاء والمدرسين والمحدثين والطلبة والمؤذنين والقُوّام والفقراء والمساكين ؛ وكل من هؤلاء ، فله المقرر من سائر ما يحتاج إليه ، مما أوقف عليهم من الضياع والأملاك والحوانيت ؛ ولهذه الأوقاف مباشرين وعُمّال وغير ذلك »[4] .

والجدير بالذكر ، أن بعض آثار وعمائر السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وآثار وعمائر نُوّابه وولاته على المدن الفلسطينية ، وفى طليعتها القُدس والخليل وغزّة ، لا تزال بعضها باقية إلى الآن ؛

---

(١) راجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، دار النهضة العربية ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ص ١٦٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ٤: ٩٧ (ثم جامع الظاهر) .

(٤) ابن أيبك الدوادار : الدُرّ الفاخر فى سيرة الملك الناصر ، تحقيق هانز روبرت رويمر ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م ، ص ٣٨٨ .

مثل عمارة الملك الناصر محمد لُقبّة الصخرة بالقدس ؛ ومثل الجامع الذى أنشأه بغزة الأمير علم الدين سنجر الجاولى[1] ، نائب السلطنة بفلسطين ، وناظر الحرمين الشريفين بها (القدس والخليل) ، ووالى غزة ؛ ولازال هذا الجامع قائمًا بغزة إلى اليوم[2] ؛ كما وصلنا خبر الجامع الذى أقامه هذا الأمير بمدينة الخليل ، ونص فى نقوشه على أنه قد أنشأه من خالص ماله ، ولم يُنفق عليه من مال الحرمين الشريفين؛ كما لدينا أيضًا وصفًا أثريًا دقيقًا لهذا الجامع[3] .

ويحدثنا ابن فضل العُمرى ت ٧٤٩هـ وهو رئيس ديوان الإنشاء فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، عن تزايد الاهتمام بعمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى ومدينة القدس ، بعد استردادها من الفرنج ، وبلوغ هذا الاهتمام زروته فى عهد سلطنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ؛ فيقول : وبالقدس مدارس وخانقاه وربط وزوايا وتُرَب ؛ وللمسجد الأقصى بها وقوفٌ كثيرة جارية على مصالحة والمؤذنين به وخَدَمِهِ وجماعة من العلماء والقُرّاء به ؛ (...) فإن فى القدس لكُلّ الملل معتقدًا وإليه توجهًا ، وأن اليهود تزوره ، والنصارى تَحُجّ به (كنيسة) قُمامة (القيامة) وتزور كنيسة بيت لَحم مكان مولد عيسى عليه السلام . وقد كانت مدينة القدس ، بعد تولى أيدى الفرنج عنها ، تغلّب عليها الهدم والخراب ، إلى هذه المدّة القريبة ، انصرفت إلهِمَمّ إلى عمارة أماكن بها ، وتوفرت الدواعى إليها ؛ ووفّر نائب السلطنة بالشام الآن الاهتمام بذلك ، وساق إليها قناة بسّطها إلى بركة ، وهو مجتمع يَرْفُدها بالماء زمن قلة الماء ، وتجرى إلى مدينة القدس ، وتدخل إلى سور المسجد الأقصى وتجرى به ؛ وعمّر نائب السلطان إلى ما جاور الرباط المنصور قلاوون ، مدرسة جليلة ، وقفها على مدرس وفقهاء ومتفقهة على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ؛ وبأعلاها خانقاه مشرفة ، وبحضرتها مكتب أيتام حصل به الأجر التام وللناس الرفق العام ، وأثابه الله وتقبل منه ؛ وعَمّر بها

---

(١) قال أبو المحاسن بن تغرى بردى فى وفيات سنة ٧٤٥هـ : " توفى الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، أحد أعيان الأمراء بالديار المصرية (...)، وهو صاحب الجامع بغزة والخليل عليه السلام ... ، وكان فاضلاً فقيهًا، وله مصنفات فى الفقه وغيره " أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١٠: ١٠٩ - ١١٠ . وأفاد المقريزى أن السلطان الملك الناصر محمد قد جعل الأمير سنجر الجاولى فى سنة ٧١١هـ نائبًا على غزة والساحل والقدس وبلد الخليل وجبل نابلس ، وأن لسنجر هذا آثار جميلة فاضلة بغزة والخليل بناها إبان توليه نيابة غزة ، إذ بنى جامعًا فى غاية الحُسن على حَدّ قول المقريزى ؛ ووصفه المقريزى بأنه هو الذى مَدَّن غزة ، أنظر المقريزى : الخطط ٤: ٢٧٤ - ٢٤٨ (ذكر الخانقاه الجاولية) و ٢٨٣ .

(٢) راجع حسن روحى : المختصر فى جغرافية فلسطين ص ١٠٥ ؛ محمد رمزى ، النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى ١٠ : ١١٠ حاشية (١) .

(٣) أنظر مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل (الطبعة القديمة ٢: ٥٨ ؛ محمد رمزى : النجوم الزاهرة ١٠: ١١٠ ، حاشية (٢) ؛ وراجع أحمد فؤاد سيد : مصادر تاريخ مصر الإسلامية فى العصر الأيوبى ، دار النهضة العربية ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م ، ص ٢١٧ - ٢١٨ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

حمامين جليلين ، كانت أحوج شيء إليه ، لأنه لم يكن بها حمامات مُرضية ، وأنشأ بها الأسواق والعمائر ؛ وأصبحت مدينة القدس ضاحية المرآة آهلة الرحاب ، وعادت إلى ما كانت إليه من المدن ، بعد أن كانت لا تُعَدّ من القرى ولا يندى في جوانبها الثرى[1] .

ويحدثنا مجير الدين القدسي الحنبلي ، صاحب كتاب الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، وقاضي القدس ، وناظر الحرم القدسي في عهد السلطان الملك الأشرف قايتباى (ولى السلطنة من ٨٧٢ - ٩٠١هـ) ، الذى ألف كتابه هذا سنة ٩٠٠هـ ، عن أهمية مدرسة الشافعية التى أنشأها السلطان الأشرف قايتباى بمدينة القدس ، وعَدّت من محاسن بيت المقدس ، والحق بها سبيلاً ، وهى لاتزال باقية عامرة إلى يومنا ، معدودة من الآثار الإسلامية الهامة بمدينة القدس ؛ فيقول مجير الدين ، فى مقدمة كتابه الأنس الجليل : « ثم أختتم الكتاب ، بذكر ترجمة ملك العصر والزمان ، مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى نصره الله تعالى ؛ وأذكر مدرسته الشريفة ، وأنها من محاسن بيت المقدس ، لا سيما كونها فى المسجد الأقصى الشريف ، وهى آخر مدرسة بُنيت فيه ؛ وأذكر ابتداء ولايته السلطنة ، وأحوال بيت المقدس وأحوال بلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام فى أيامه ؛ وأذكر سبب بناء مدرسته ، وتوليه مشيختها لشيخ الإسلام الشيخ كمال الدين أبى المعالى محمد بن أبى شريف الشافعى أدام الله النفع بعلومه ؛ وأذكر تاريخ مولده ، وأسماء مؤلفاته ، وما تيسر من ترجمته »[2] .

ولقد أولى الأثريون المحدثون اهتمامًا كبيرًا بدراسة عمارة المسجد الأقصى ، وتسجيل النقوش التاريخية المؤرخة الخاصة بعماراته وتجديداته طوال عصور التاريخ الإسلامى التى سجلها على عمائرهم وتجديداتهم بالحرم القدسى خلفاء وملوك الإسلام[3] ؛ وهو أمر إذن ما قُرن بأوصاف الرحالة

---

(١) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ، تحقيق أيمن فؤاد ، ص ١٣٨ .

(٢) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل ١: ٤ ؛ وانظر الفصل الأخير من كتابه هذا .

(٣) راجع

Creswell, (R.A.C.), Early Muslim Architecture., 2vols. Clarendon press, oscford, 1932-1940, I/ 1,pp. 65-131; I/2, pp. 373-380.

كمال الدين سامح : العمارة فى صدر الإسلام ، القاهرة ١٩٧١م ، ص ١١٠ ؛ فريد شافعى : العمارة بمصر فى عصر الولاة ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة دراسة المحاريب والمحراب (المُجَوّف) .

Marguerite van Berchem et solonge ory, "la jérusalem musulmane dans l'oeuvre de Max van Berchem", lausanne 1978.

Van - Berchem, (Max), Corpus Inscriptionum Arabicarum, Mémoures publiés par les Membres de la Mission Archéologique Français au Caire, tome x1x (19), paris, 1894=

والمؤرخين المسلمين القدماء لقبة الصخرة والمسجد الأقصى فى صعيد واحد ، من شأنه ولا ريب أن يوقف العالم الإسلام والرأى العام العالمى ، على محاولات إسرائيل العبث بهذا الحرم الإسلامى الجليل، الذى ندعو الله مخلصين له الدين أن يفك أسره فى القريب العاجل ، ويعيده مرة أخرى إلى حوذة الإسلام والمسلمين .

= (Jérusalem II) Combe, Sawaget et wiet, Répertoire chronologique d Epigraphic Arabe, 12 vols, le Caire, 1931 - 1950 T. xiv (14), xv (15), xvi (16).

أحمد عبد الرازق : أضواء على المسجد الأقصى وبعض الكتابات الأثرية فيه ، المجلة التاريخة المصرية ؛ المجلد ٢٧، ١٩٨١م ، ص ٨١ – ١١٨ ؛ وهو يهتم على الخصوص بدراسة نقوش العصر المماليكى .

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية المخطوطة :

– ابن الأثير (عز الدين) : أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م .

١ – مجموعة رسائل مجد الدين بن الأثير ، وهو المبارك بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيبانى الجزرى ، مجد الدين أبو السعادات ، ت ٦٠٦هـ / ١٢١٠م ، ولد بجزيرة ابن عمر ونشأ بها ، ثم انتقل إلى الموصل، وكتب لأمرائها وكانوا يحترمونه ، جمع هذه المجموعة من الرسائل أخوة عز الدين ابن الأثير المؤرخ الشهير ، وهى مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٢٠٤٠أدب فى ١٧٧ق ، ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٤١٦ أدب ، وهى مؤرخة سنة ٦٠١هـ أى فى حياة المؤلف ، وأولها خط جامعها .

– ابن الأثير (ضياء الدين) : أبو الفتح ، نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى ، وزير الملك الأفضل الأيوبى ، وكاتب إنشاءه ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م .

٢ – « كتاب رسائل بين الملوك فى أيام الأيوبيين » مخطوط بمكتبة نور عثمانية باستانبول برقم ٣٧٤٥ فى ٩٩ ق ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٤١٩ أدب ، وهو منسوب فى فهرسها خطأ للعماد الأصفهانى ، لورود اسم العماد بخط حديث على صفحة العنوان ، ولكن تبين لى بعد دراسة الميكروفيلم أنه الجزء الثانى المفقود من مراسلات الوزير الأيوبى ضياء الدين بن الأثير .

٣ – « المفتاح المنشأ فى حديقة الإنشاء . منه ثلاث نسخ خطية الأولى فى ٢٢ لوحة مصور ، بدار الكتب المصرية برقم ٤٩٣٤ أدب ، عن نسخة بمكتبة نور الدين بك مصطفى بالقاهرة ؛ والثانية مصورة بدار الكتب المصرية أيضًا برقم ٨٤٧ أدب تيمور من لوحة ٢٧٩ إلى ٣٢٠ ، أغلب الظن عن الأصل المخطوط بمكتبة شستربتى ، وهى التى اعتمدنا عليها ؛ والثالثة نسخة فى ٤٢ لوحة بدار الكتب المصرية كذلك برقم ٤٩٠٨ أدب طلعت .

٤ – « مؤنس الوحدة » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٠٧٠ أدب .

– الأحدب (نجم الدين) : محمد بن عيسى بن اسماعيل الحنفى ، الفارس الجواد (بروكلمن ٢: ١٣٦).

٥ – نهاية السول والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ٢٦٥١ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة ، برقم ٥٠ معارف عامة .

– الأسدى (ابن خليل) : محمد بن محمد بن خليل الأسدى ، ت بعد سنة ٨٥٥هـ / ١٤٥١م .

٦ – « التيسير والاعتبار والتحذير والاختيار » فى تدبير الملك والأسباب الموجبة للخراب إليه ، ألفه سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م . نسخة بخط المؤلف بتاريخ ٨٥٥هـ / ١٤٥١م . بدار الكتب المصرية برقم ٧٧ اجتماع تيمور .

– الأشرفى (الحنفى) : أحمد المحمدى الأشرفى المتوفى سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م .

٧ – « البرهان فى فضل السلطان » ألفه للسلطان الظاهر خشقدم مخطوط بم، كتبة سوهاج برقم ٨٠ تاريخ فى ١٠٤ ق ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٩ سياسة واجتماع . ومنه نسخة أخرى مخطوطة بالمكتبة العمومية باستانبول .

– الأشرفى (الأحمدى) : طوغان شيخ الأحمدى الأشرفى ، ت ٨٨١هـ / ١٤٧٦م ، (السخاوى : الضوء ، ٤: ١٠) .

٨ – « المقدمة السلطانية فى السياسة الشرعية » ، ألفه للسلطان الأشرف قايتباى سنة ٨٧٨هـ . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٠٣ أدب ، ومنه نسخة خطية أخرى بدار الكتب المصرية أيضًا فى ١٨٣ ق ، برقم ١٧٢٦ فقه حنفى ، ومن المحتمل أن طوغان الأحمدى الأشرفى ، مؤلف « المقدمة السلطانية » هذا ، هو نفسه أحمد المحمدى الأشرفى مؤلف « البرهان » المذكور قبله .

– الباعونى (الدمشقى) : محمد بن يوسف الباعونى الدمشقى ، ت ٩١٦هـ / ١٥١٠م (السخاوى : الضوء ، ١٠: ٨٩ ، الغزى : الكواكب السائرة ١: ٧٢) .

٩ – « إيضاح السلوك ونزهة الملوك » ألفه – على الأرجح – للسلطان الأشرف قايتباى ، منه مخطوطتان بدار الكتب المصرية ، إحداهما بالخزانة التيمورية والأخرى بالخزانة الزكية .

– ابن البقال (البغدادى) : عز الدين أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن عبد الله بن وداعه ، ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢ م .

١٠ – « المقترح فى المصطلح ، فى تعليم رمى البندق والصيد » ألفه للخليفة الناصر لدين الله العباسى . مصور بدار الكتب المصرية برقم ٣٥٠٦ج ، عن مخطوط المكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٦٣٩ .

– البغدادى (موفق الدين) : عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على الموصلى ثم البغدادى ، الشافعى ، ويعرف بابن اللباد ، أبو محمد ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م .

١١ – « العمدة فى أصول السياسة » مخطوط بمكتبة برلين برقم ٥٦٤٤ (١٠) .

– ابن بهادر (كمال الدين) : محمد بن محمد بن محمد المؤمن الشافعى ، أبو الفضل ، ت ٨٧٧هـ / ١٤٧٣م .

١٢ – « فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر » ضمنه تاريخ ملوك الدولة الكردية والتركية بالديار المصرية إلى أواخر المائة التاسعة ، مخطوط بخط المؤلف سنة ٨٧٧هـ ، بمكتبة آيا صوفيا بالآستانة ، ومصور بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٢٩ تاريخ ، وبمعهد المخطوطات بالقاهرة ، برقم ٣٦٣ تاريخ ، وبمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦١٦٦ .

– الترمذى (الواعظ) : عمر الترمذى الصوفى ، ت بعد سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م .

١٣ – « تفسير سورة الإخلاص » ألفه للملك الظاهر محمد أبى سعيد جقمق المتوفى سنة ٨٥٧هـ ، ذكر فيه مقدمة فى نصيحة هذا الملك تتعلق بالإخلاص . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٢٧ وعظ ١٧٩٤ عام .

– التيفاشى (شرف الدين) أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبى بكر بن حمدون القيسى ، ت ٦٥١هـ / ١٢٥٣م .

١٤ – « منافع الأحجار » مخطوط فى ٨٢ ق بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٢ طبيعة وكيمياء .

١٥ – « نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب » مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر برقم ٤٢٣ أباظة – ٧٠١٩ أدب .

- الجعفرى : عبد الله بن على بن محمد (؟) .

١٦ - « عيون الرسائل الفاضلية » مخطوط بالمتحف البريطاني برقم ٢٥٧٥٦ ، ١٥٤٠ ، ١٥٤١ .

- ابن جماعة (بدر الدين) : محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن على بن حازم الكنانى الحموى البيانى الشافعى ، ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م .

١٧ - « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٨٤١ب وبمكتبة بلدية الإسكندرية برقم ٤٣ ، وقد استخدمنا نسخة الدار . وطبع أخيرًا .

- ابن الجوزى (أبو الفرج) : عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى القرشى التيمى البغدادى الحنبلى ، جمال الدين ، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م .

١٨ - « مناقب بغداد » مخطوط بدار الكتب المصرية بالخزانة التيمورية برقم ١٤٤٣ تاريخ .

١٩ - « المصباح المضىء فى خلافة المستضىء » مصور بدار الكتب المصرية فى ٢١٥ لوحة برقم ١٩٧٨٨ب ، وطبع أخيرًا بالعراق .

- الجيزى (ابن إبراهيم) : محمود بن إسمايل بن إبراهيم بن ميكائيل بن خضر بن يوسف بن يعقوب الجيزى كان موجودًا سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م .

٢٠ - «الدرة الغراء فى نصيحة السلاطين والقضاه والأمراء» ، ألفها للملك الظاهر محمد أبو سعيد جقمق . مخطوط بخط المؤلف سنة ٨٤٣هـ بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٢٩٢ ب .

- جمال الدين (الإسنوى) : عبد الرحيم بن الحسن بن على الإسنوى الشافعى ت ٧٧٢هـ (الزركى : الأعلام ٣: ٣٤٤ ؛ كحاله : معجم المؤلفين ٥: ٢٠٣ و ١٣ : ٣٩٧) .

٢١ - « رسالة فى قبح استخدام أهل الذمة » يتلوها رسالة أخرى فى هذا الموضوع لنفس المؤلف وذكر منشور الملك الناصر محمد بن قلاوون بشأن أهل الذمة . مخطوط بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة برقم ١٧٥ مجاميع تيمور (اخلاق) الرسالتان ١٨ و ١٩ بالمجموعة . وللإمام الحافظ جمال الدين الأسنوى أيضًا كتاب مطبوع بعنوان : « الكلمات المهمة فى مباشرة أهل الذمة » ، لعله نفسه الرسالة الأولى ، والراجح أنه ألفها للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأنظر كتاب فتاوى السبكى ، وكتابه فى كراهية بناء الكنائس ، لعله ألفه للسلطان الناصر محمد بن قلاوون أيضًا ، أنظر خطط المقريزى (ذكر كنائس مصر) .

- ابن حبيب (الدمشقى) : بدر الدين أبى محمد الحسن بن عمر بن حبيب الدمشقى الحلبى الشافعى ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧١م .

٢٢ - « درة الأسلاك فى دولة الأتراك » بدأ فيه من سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وانتهى إلى آخر سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م ، مخطوط بخط المؤلف بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ٣٠١١ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٢٣٥ تاريخ ، الجزء الثانى من نسخة أخرى مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦١٧٠ ح ، الجزء الأول من نسخة ثالثة مصورة عن الآستانة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٢٩٦١ .

- ابن الحداد (الواعظ) محمد بن منصور بن جيش الواعظ المعروف بابن الحداد الموصلى ، ت بعد سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م (كحاله : معجم المؤلفين ١١: ٥١ - ٥٢) .

٢٣ - « الجوهر النفيش فى سياسة الرئيس » نسخة خزانية بخط المؤلف كتبت سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥٩م بمكتبة أيا صوفيا باستانبول برقم ١/٤٨٢٨ فى ٣٥ ق مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٨ سياسة واجتماع .

- الحلبى (أمين الدين) : عبد المحسن بن حمود بن عبد المحسن بن على التنوخى الحلبى ثم الدمشقى ، ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م ، صاحب ديوان الإنشاء فى عهد السلطان الكامل الأيوبى :

٢٤ - « الأنوار المقتبسة من أوار النار » مصور بدار الكتب المصرية برقم ٨٥٠٣ أدب .

٢٥ - « مفتاح الأفراح فى امتداح الراح » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٠٣ أدب .

- ابن حموية (الجوينى) : الأمير فخر الدين يوسف بن أبى الحسن صدر الدين شيخ الشيوخ ، وزير السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، ومقدم عسكره ونائب سلطنته ، ت ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م .

٢٦ - « تقويم النديم وعقبى المقيم » وهى مقامات ، مخطوطة قديمة بمكتبة الأزهر برقم ٧٢٠٦ أدب ، وبدار الكتب المصرية برقم ١٥٠١ أدب .

- الحنبلى (عز الدين) : أحمد بن إبراهيم بن نصر بن أحمد الكنانى العسقلانى الأصل ، القاهرى الصالحى الحنبلى القادرى ، أبو البركات ، ت ٨٧٦هـ / ١٤٧١م .

٢٧ - « شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب » مخطوط بالمتحف البريطانى برقم add ٧٣١١مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٢٩٤ تاريخ وبجامعة القاهرة برقم ٢٤٠٣٠ ، ٢٤٠٣١ . وطبع أخيرًا بمكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة .

- الخالدى (بهاء الدين) : محمد بن لطف الله بن عبيد الله العمرى ، ت ٨٣٦هـ / ١٤٣٢م (مصطفى زيادة ، هامش (٣) على السلوط للمقريزى : ١: ٢٤٥) .

٢٨ - « المقصد الرفيع المنشأ الهادى لصناعة الإنشاء » ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٥٧٣ كتب سنة ٩٢٧هـ ، ومصور بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٠٤٥ عام ، ٢١٠٣١ ز ، ومصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٤٥ .

- الخازندار (الموصلى) : مبارك بن خليل الخازندار البدير الموصلى ، ثم الأموى ت قبل سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م.

٢٩ - « أداب السياسة بالعدل » نسخة بمكتبة كوبرلى باستانبول مصورة بدار الكتب المصرية فى ٥٦٤ لوحة برقم ٤٣٠٠ أدب ، ومنه نسخة ثانية بمكتبة آيا صوفيا باستانبول برقم ٢٨٤٠ ، وثالثة بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ١٤٠٢ ، كتبت سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م فى ٤٠١ ق ، مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم (١) تصوف وآداب شرعية .

- ابن خلف (الكاتب) : أبو الحسن على بن خلف بن على بن عبد الوهاب الكاتب ، ت ق ٥ هـ ، كان معاصرًا للخليفة الفاطمى المستنصر بالله .

٣٠ - « مواد البيان » نسخة بمكتبة فاتح باستانبول برقم ٤١٢٨ ، كتبت فى القرن السابع تقريبًا ، فى ٢٠١ ق ، مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٨٤٢ أدب .

- خضر (الشيخ) : الشيخ خضر بن أبى بكر بن أحمد « من رجال الربع الثانى من القرن السابع الهجرى » .

٣١ – « كتاب الوظائف المعزية » فى السياسة الشرعية ، والمناقب المعزية فى إصلاح الراعى والرعية ، ألفه للملك المعز أيبك التركمانى (تولى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وتوفى سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٠م) ، مخطوط قديم بدار الكتب المصرية برقم ٤٧٥ الخزانة التركية .

– ابن دقماق (صارم الدين) : إبراهيم بن محمد إبن إيدمر بن دقماق القاهرى الحنفى ، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م .

٣٢ – « الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » ، ألفه بإشارة السلطان الظاهر برقوق . مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ١٤٩٢ ومنه نسخة أخرى بدار الكتب أيضًا برقم ١٥٨٧ تاريخ ومنه عدة نسخ أخرى مصورة عن مكتبات تركيا بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٢٠٨ تاريخ و ٦٤٣ تاريخ . طبع أخيرًا بالقاهرة .

– الدوادار (المنصورى) : ركن الدين بيبرس المنصورى الدوادار المصرى ، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م . (ابن حجر : الدرر ، ١: ٥٠٩ – ٥١٠) .

٣٣ – « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » وهو تاريخ كبير مرتب على السنين ، فى ١١ مجلدًا استعان فيه بكاتبه ابن كبر النصرانى ، وانتهى فيه إلى سنة ٧٢٤هـ منه الأجزاء ٤ ، ٥ ، ٦ ، ١٠ مصورة فى مكاتب المتحف البريطانى بلندن ، ومكتبة أكسفورد بانجلترا ، والمكتبة الأهلية بباريس ، ومعهد المخطوطات بالقاهرة ، برقم ٢٧٦ تاريخ وبمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٦ ، ٢٤٠٢٧ ، ٢٤٠٢٨ وهناك مختصر لهذا الكتاب بعنوان « مختصر الأخبار » ، مخطوط بمكتبة الأمبروزيانا بإيطاليا ومصور بمعهد المخطوطات برقم ١٢٠٢ .

٣٤ – « التحفة الملوكية فى الدولة التركية » ذيل به على كتابه « زبدة الفكرة » الذى انتهى فيه إلى بدء الدولة التركية بعد انقراض الدولة الأيوبية . وبدأ فى هذا الذيل بذكر الدولة المعزية (عز الدين أيبك التركمانى) إلى انتهاء دولة الملك المنصور قلاوون . مخطوط ق ٩ هـ ، بمكتبة فينا ، فى ١٥٠ ق ، ومصور بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٩ وبمعهد المخطوطات برقم ٦١٤ تاريخ . طبع أخيرًا بالقاهرة .

– ابن أبى الدم (الحموى) : إبراهيم بن عبد الله بن عبد المؤمن ، شهاب الدين الشافعى ، ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٤م .

٣٥ – « التاريخ المظفرى » بدأه من الهجرة إلى سنة ٦٤٢هـ ، مخطوط بمكتبة البلدية بالإسكندرية برقم ١٢٩٢ ب ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٦٠٤ تاريخ . ومنه نسخة أخرى بمكتبة خدابخش بتنه بالهند رقم ٢٨٦٨ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٩٦٦ تاريخ .

– ابن الديباجى (موفق الدين) : أبو على الحسن بن أبى المكارم أحمد بن الحسين ، المنعوت بالموفق ابن الديباجى الكاتب ، ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م . صاحب ديوان الإنشاء فى عهد السلطان الكامل الأيوبى (المنذرى : التكملة ج ٥ ، ص ٢٤) .

٣٦ – « من ترسل القاضى الفاضل » الجزء الأول منه مخطوط بخط جامعه الديباجى ، بمكتبة بشير أغا أيوب باستانبول برقم ١٢٦ فى ١٥٢ ق ، وهو مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٨٠٨ أدب .

– ابن الزبير (القاضى الرشيد) : أحمد بن على بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن محمد المصرى الغسانى ، ويعرف بالرشيد الأسوانى ، ت ٥٦٣هـ / ١١٦٧م من مشاهير كتاب الإنشاء فى نهاية العصر الفاطمى .

٣٧ - « المقامة اليحصبية وشرحها » فى المفاخرة والمفاضلة بين الفنون وأربابها ، مخطوط فى ١٠٧ ق بدار الكتب المصرية برقم ١٣٤٦٩ ز ، ومنها نسخة بمكتبة بلدية الإسكندرية .

٣٨ - « أمنية الألمعى ومنية المدعى » ، مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة برقم ٢٢٨٥١ أدب .

- ابن الرفعة المصرى : أحمد بن محمد بن الرفعة المصرى الشافعى ، نجم الدين ، محتسب القاهرة ، ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م . (ابن حجر : الدرر ، ١: ٢٨٤ - ٢٨٧) .

٣٩ - « بذل النصائح الشرعية فيما على السلطان وولاة الأمور وسائر الرعية ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٢٤٥١ وبمكتبة غوطا برقم ١٢١٩ .

- الرماح (نجم الدين) حسن الأحْدَبَ الرماح ، كان موجودًا فى القرن السابع (بروكلمن ، ملحق ١: ٩٠٥) .

٤٠ - « الفروسية والمناصب الحربية » أخذ مادته عن أبيه وأجداده الأستاذين فى هذه الصناعة ، وعمن صحبهم ، كما جاء بصفحة العنوان ، نسخة خزائنية لعلها كتبت فى القرن الـ ٩ هـ ، فى ٢٢٠ ق بمكتبة الحرم المكى الشريف برقم ٥٠ تاريخ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٨ معارف عامة .

- ابن الساعاتى (بهاء الدين) : على بن رستم بن هرذور ، أبو الحسن ، الشاعر الشهير ، ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م.

٤١ - « مقطعات النيل » وهو ديوان شعر ، غير ديوانه المشهور المطبوع فى مجلدين ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٢٨ أدب .

- سبط ابن الجوزى (أبو المظفر) : يوسف بن قزاوغلى بن عبد الله البغدادى ، ثم الدمشقى شمس الدين ، ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م .

٤٢ - « كنز الملوك فى كيفية السلوك » مخطوط بمكتبة ميخائيل عواد بالعراق .

- السخاوى (شمس الدين) : محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر ابن عثمان بن محمد السخاوى الأصل القاهرى الشافعى ، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م . (السخاوى : الضوء ، ٨: ٢ - ٣٢) .

٤٣ - « عمدة الناس فى مناقب سيدنا العباس » ألفه للخليفة العباسى بمصر المتوكل على الله كما ذكر فى مقدمة الكتاب . وفرغ من تأليفه سنة ٨٩١هـ / ١٤٨٦م . نسخة كتبت سنة ٨٩١هـ ، فى ١٤٢ ق بدار الكتب المصرية برقم ١٥٦٩ تاريخ .

٤٤ - « كتاب استجلاب ارتقاء الغرف ، بحب أقرباء الرسول وذوى الشرف » ، فرغ من تصنيفه سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م . منذ نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٨٠٤٩ ولعلها مصورة عن النسخة التى ذكرها بروكلمن بمكتبة ليبزج بألمانيا برقم ٦٤٨ .

٤٥ - « الدرة المضية فى المآثر الأشرفية » وهى سيرة للسلطان الأشرف قايتباى ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦١ تاريخ ورقم ٨٥٥٤ ح وبالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٦١٥,٣٠ وهذه النسخ الثلاث منسوبة للسخاوى . وثمة نسخة أخرى من الكتاب منسوبة للسيوطى بمكتبة الجامع الأزهر برقم ٣٨٥ أباظة والصواب نسبتها للسخاوى .

٤٦ - « رجحان الكفة فى أخبار أهل الصفة » وهى رسالة هامة جدًا فى دراسة نشأة التصوف فى الإسلام . نسخة وحيدة فى ٣٢ ق بمكتبة الجمعية الأسيوية بالهند برقم ٣٢١ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٠٦٣ .

– ابن سعيد (المغربي) : على بن موسى بن عبد الملك بن سعيد العنسى ، الأندلسى الغرناطى المغربى ، أبو الحسن، ت ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م .

٤٧ – « المغرب فى حلى المغرب » الجزء الثانى وعنوانه « الروض المهضوب فى حلى دولة بنى أيوب » والجزء الثالث وعنوانه « كتاب الاغتباط فى حلى مدينة الفسطاط » ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٧١٢ تاريخ .

٤٨ – « المشرق فى حلى أهل المشرق » مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٢٥٣٢ ، ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٤٧٧ تاريخ .

– السلامى (أبو عبد الله) : محمد بن إبراهيم السلامى البيرى الأصل الحلبى الشافعى ت ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م . (السخاوى : الضوء ، ٦ : ٢٧٥ – ٢٧٦) .

٤٩ – « طاعة السلطان وإغاثة اللهفان » مخطوط بمكتبة بغداد كشك برقم ٩٣ ، عن نسخة كتبت برسم الملك الأشرف قايتباى سنة ٨٨٠هـ / ١٤٧٥م ، وهى مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة ، برقم ٣٨ سياسة واجتماع .

– السلفى (أبو الطاهر) : أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سلفة السلفى الأصفهانى ، ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م .

٥٠ – « معجم السَفَر » مخطوط بمكتبة البلدية بالإسكندرية ومصورة فى ٢٤٤ لوحة بدار الكتب المصرية برقم ٣٩٣٢ تاريخ ، وطبع أخيرًا .

٥١ – « كتاب المشيخة البغدادية » مخطوط بمكتبة الأسكور يال بأسبانيا برقم ١٧٨٣ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٤٧٩ تاريخ .

– السنامى (ابن عوض) : عمر بن محمد بن عوض السنامى ، ت . بين سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩م وسنة ٩١٢هـ / ١٥٠٦م . (كوركيس عواد : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، ج – ص ٤٣٣ – ٤٣٨) .

٥٢ – « نصاب الاحتساب » نسخة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ١٨٩، اجتماع تيمور . ونسخة أخرى بدار الكتب أيضًا (فهرس الكتبخانة الخديوية ٣: ١٤٣) . وطبع أخيرًا بالرياض .

– السيوطى (جلال الدين) : عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن أبى بكر بن عثمان بن محمد بن خضر ابن أيوب بن محمد بن همام الدين الخضيرى الأصل ، الطولونى ، المصرى الشافعى ، أبو الفضل ، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م .

٥٣ – « الرتبة المنيفة فى فضل السلطنة الشريفة » . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٦٥ مجاميع ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٢٣ سياسة واجتماع . ومنه نسخة خطية أخرى بمكتبة الزيتونة بتونس .

– ابن شاكر (الكتبى) : محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبى ، الدارانى الأصل ، الدمشقى الشافعى ، صلاح الدين ، ت ٧٦٤هـ / ١٦٨٧م .

٥٤ – « عيون التواريخ » وهو تاريخ ضخم على السنين من صدر الإسلام إلى سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م ، منه أجزاء من نسخة بخط المصنف بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ١٣٧١ تاريخ ومنه أجزاء أخرى من نسخة ملوكية كتبت للخزانة العالية المولوية الناصرية ق ٨ هـ ، فيها من سنة ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م إلى سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م، بدار الكتب المصرية أيضًا برقم ١٤٩٧ تاريخ . ومنه أجزاء أخرى بالمكتبة الظاهرية بدمشق ومكتبات أستانبول ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٤٥ تاريخ .

– ابن شادان : أحمد بن جعفر بن شادان ، ت. قبل سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٥م .

٥٥ – « آداب الوزارة » انتهى من تأليفه سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م . نسخة كتبت سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م في ١٢٧ ق بمكتبة ليدن بهولندا برقم ٧٠١٧ (١) .

– ابن شاهنشاه (الأيوبي) : الملك المنصور أبي المعالي محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه ، ت ٦١٧هـ / ١٢٠٢م .

٥٦ – « أخبار الملوك » ، ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين والمحدثين وذكر مختصر من أخبارهم ومختار أشعارهم ومن تلاهم من الشعراء إلى هذا الزمان والأوان . أملاه مؤلفه سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م . نسخة خزانية كتبت سنة ٦٠٢هـ ؛ عن نسخة من إملاء مصنف الكتاب في مجالس أخرها يوم الأربعاء ٢٣ ربيع آخر ، سنة ٦٠٢ في دار المزة من قلعة حماة . مخطوط بمكتبة ليدن بهولندا برقم ٦٣٩ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٨٧٥ تاريخ .

– ابن شداد (بهاء الدين) : يوسف بن رافع بن تميم ، أبو المحاسن الحلبي ، ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٩م .

٥٧ – « ملجأ الحكام عند اختلاف الأحكام » مخطوط بدار الكتب المصرية في ١٧٠ ق برقم ٤٦ فقه شافعي م .

٥٨ – « فضائل الجهاد » ألفه وأهداه للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، مخطوط بمكتبة كوبرلي باستانبول برقم ٧٦٤ .

– ابن الشعار (الموصلي) : المبارك بن أبي بكر بن حمدان الموصلي ، كمال الدين أبو البركات ، ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م .

٥٩ – « عقود الجمان في شعراء هذا الزمان » (أجزاء من ١ – ١٠) مخطوطة بمكتبة أسعد أفندي باستانبول ينقص منها جزءان الثاني والثامن ، وهي مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٣٩ تاريخ و ٣٣٢٣ – ٢٣٣٠ تاريخ .

– الشيرازي (المكي) : علي بن أحمد بن محمد الشيرازي ، ثم المكي الشافعي ت ٨٦١هـ / ١٤٥٦م . (السخاوي : الضوء ، ٥: ١٨٩) .

٦٠ – « تحفة الملوك والسلاطين في الخلافة والسلطنة والوزارة » ألفه للسلطان جقمق سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٣ إجتماع تيمور .

– أبو صالح (الأرمني) : أبو المكارم جرجس بن مسعود ويعرف بالشيخ أبي صالح الأرمني ، ويدعى أبو صالح كان معاصرًا لصلاح الدين الأيوبي (سركيس : معجم المطبوعات ، ١: ٣٤٧ ، لويس شيخو : المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ص ٢١) .

٦١ – « تاريخ أبو صالح الأرمني » عن تاريخ مصر وتوسع في ذكر أحوالها الدينية ولاسيما أديارها ، كذلك ذكر فيه أخبار الكنائس بمصر . وغيرها من البلاد الرومية وبر الشام . منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية برقم ٤٠٢٨ تاريخ ، وكانت منه نسخة خطية كاملة أخرى بمكتبة جرجس فيلو تاؤس عوض صاحب المجلة القبطية ، والمطبوع من هذا الكتاب جزء واحد ذكر فيه أخبار من نواحي مصر وإقطاعها . طبع مع الترجمة الإنجليزية لايفتس B.L.A. Evetts مع حواشي للمستشرق بتلر ، طبع بأكسفورد . ١٩٨٤م .

- الصالحي (ابن يحيى) : عبد الصمد بن يحيى بن أحمد بن يحيى الصالحي ت بعد سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م . (بروكلمن ، ملحق ٣: ١٦٦) .

٦٢ - « هدية العبد القاصر للسلطان الملك الناصر » ألفه للسلطان الملك الناصر أبو السعادات (٩٠١هـ / ١٤٩٥م - ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م) . مخطو بخط المؤلف سنة ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م . بمكتبة كوبرلى برقم ٢٩٥ مصور بدار الكتب المصرية برقم ٢٦٠٢ تاريخ بالخزانة الزكية ومنه نسخة أخرى مصورة عن مكتبة كوبنهاجن كتبت سنة ٩٧٣هـ / ١٥٦٥م ، مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٣٠٠ تاريخ .

- ابن الطحان (المصرى) : يحيى بن على بن محمد بن إبراهيم الحضرمى ، المصرى ، أبو القاسم . ت. ٤١٦هـ / ١٠٢٥م . (الزركلى : الاعلام ٩: ١٩٦ ، يوسف العش : مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، ١٦: ٣٢٦ - ٣٢٩) .

٦٣ - « تاريخ علماء أهل مصر » مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق برقم ١١٦ تاريخ ، ضمن مجموعة خطية من ق ٢٤٠ - ٢٥٩ .

- الطرسوسى : مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى (معاصر للسلطان صلاح الدين الأيوبى) .

٦٤ - « كتاب التذكر فى كيفية النجاة فى الفروسية فى أمور السلطنة » ، أو « تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونشر أعلام الاعلام ، فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء » ألفه لمولانا وسيدنا الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان قامع عبدة الصلبان ، صلاح الدين والدنيا .. أبا المظفر يوسف بن أيوب .. ، منه نسخة مخطوطة سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م ، فى ١٧١ ق بمكتبة آياصوفيا باستانبول برقم ٣٨٤٨ . ومصورة بمعهد المخطوطات برقم ١٠ فنون حربية وفروسية . ومنه نسخة بمكتبة المتحف الحربى بالقاهرة ، ونشر كلود كاهين جزء منه فى .B.E.O .

- الطرسوسى (نجم الدين) : إبراهيم بن على بن أحمد الطرسوسى الحنفى ت ٧٥٨هـ / ١٣٥٦م . (ابن حجر : الدرر ، ١: ٤٣) .

٦٥ - « تحفة الترك فيما يجب أن يعمل فى الملك » مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٢٤٤٥ ، وبمكتبة برلين برقم ٥٦١٤ ، ومكتبة آياصوفيا باستانبول برقم ٢٨٥٤ . وبمكتبة جامعة القاهرة فى ٢٩ ق برقم ١٩٤٧٤ .

- ابن طلحة (النصيبى) محمد بن طلحة القرشى النصيبى ، كما الدين ، الوزير الأيوبى بالشام ، ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م .

٦٦ - « نفائس العناصر لمجالس الملك الناصر » ، ألفه للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز الأيوبى ، صاحب حلب . منه نسخة خطية بالمتحف البريطانى برقم ١٥٣٠ ، ومنه نسخة خطية أخرى ضمن مجموعة خطية بمكتبة برلين برقم ٨٧٧٩,٩٠ ، وبرقم ٥٦٤٤ (١١) .

- ابن طولون (الصالحى) : محمد بن على بن محمد الشهير بابن طولون الدمشقى الصالحى الحنفى ، شمس الدين أبو عبد الله ، ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م .

٦٧ - « العقود الدررية فى الأمراء المصرية » وهو مختصر يشتمل على دولة الأتراك وسلاطينهم بمصر . نسخة بخط المؤلف سنة ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م فى ٧ ورقات ، مكتبة بلدية الإسكندرية رقم ٢٢٠٨ تاريخ .

- ابن ظافر (الأزدى) : على بن ظافر بن الحسين الأزدى ، المصرى ، المالكى ، جمال الدين أبو الحسن ، ت ٦١٣هـ / ١٢١٦م .

٦٨ - « الدول المنقطعة » الموجود منه جزء ناقص من أوله . ويبتدىء من أثناء أخبار الدولة الحمدانية ، ثم أخبار الدولة الزيدية بالجبال ، وأخبار الدولة الطولونية ، وأخبار الدولة الفاطمية بأفريقية ومصر والشام واليمن ، والصنهاجية بأفريقية والأندلس ، وفى أخبار الدولة العباسية . نسخة بخط قديم بدار الكتب المصرية برقم ٨٩٠ تاريخ مصورة عن المتحف البريطانى ، ومصورة أيضًا بمعهد المخطوطات برقم ٩٦٤ تاريخ . وطبع منه جزء بالمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة .

٦٩ - « أساس السياسة » مخطوط بمكتبة برلين برقم ٥٦٤٤ (٨) ضمن مجموعة .

- ابن العديم (الحنفى) : عمر بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد الحلبى الحنفى ، ويعرف بابن العديم . ق ٩ هـ / ١٥ م . (السخاوى : الضوء ٦: ٩٣ - ٩٤) .

٧٠ - « سوق الفاضل فى مناقب القاضى الفاضل » جمع فيه ما ذكر فى الكتب عن القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م وزير صلاح الدين ، وذكر من عاصره من الأدباء ومن أخذ عنه أو نحى نحوه . نسخة بخط المؤلف فى ٢٠٠ ق بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة برقم ٤١٠ تاريخ ومصوره بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٠٩٩ تاريخ .

- ابن العديم (الحلبى) : عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أبى جرادة صاحب على بن أبى طالب، العقيلى ، الحلبى الحنفى ، كمال الدين أبو القاسم ، ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م .

٧١ - « بغية الطلب فى تاريخ حلب » هو تراجم لأهل حلب ومن دخلها ، رتبه على حروف المعجم ، منه نسخة بخط المؤلف بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ٢٩٢٥ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٩٠ تاريخ . وطبع أخيرًا .

- ابن أبى عذيبة (المقدسى) : أحمد بن محمد بن عمر ، شهاب الدين الشافعى ت ٨٥٦هـ / ١٤٥٢م . (السخاوى : الضوء ، ٢: ١٦٣ - ١٦٣ ، العزاوى التعريف بالمؤرخين ، ٢٣٦ - ٢٣٨) .

٧٢ - « إنسان العيون فى مشاهير سادس القروس » منه نسخة بخط المؤلف بخزانة قرا جلبى باستانبول ، ومنه نسخة بالمكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية . نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٤١٠ تاريخ عن مخطوطة جامعة بغداد رقم ٢٤٨ فى ١٩٥ ق . وقد اهتم الكتاب بصفة خاصة بأخبار الملك الناصر داود ابن الملك العادل عيسى بن محمد بن أيوب .

- العز (ابن عبد السلام) : عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن المهذب السلمى الدمشقى الشافعى ، عز الدين أبو محمد . ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م .

٧٣ - « ملحة الاقتصاد فى الاعتقاد » مخطوط فى ٧ ق بدار الكتب المصرية برقم ٦٥١ علم كلام .

- ابن العميد (الشيخ المكين) : جرجس بن العميد بن إلياس ، ت ٦٧١ هـ / ١٢٧٢م .

٧٤ - « تاريخ ابن العميد » مخطوط فى ١٣٦ ق بدار الكتب المصرية برقم ٥٠١ تاريخ ومنه نسخة أخرى مصورة عن مخطوط بالمتحف القبطى بالقاهرة فى ١٣٥ لوحة بدار الكتب المصرية برقم ٣٧٤٠ تاريخ ونشر جزء منه كلود كاهين فى .B.E.O .

- ابن عساكر (الحافظ) : على بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقى الشافعى ، أبو القاسم ثقة الدين ، ت ٥٧١هـ / ١١٧٦م .

٧٥ - « تاريخ مدينة دمشق » يشتمل على ذكر من حلها أو اجتاز بها ، رتبه على حروف المعجم . منه نسخة كاملة بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، وأجزاء فى دار الكتب المصرية برقم ٤٩٢ تاريخ وبمكتبة الجامع الأزهر الشريف برقم ٧١٤ ع ومنه نسخة ملفقة من أجزاء مخطوطة باستانبول مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٢٥ تاريخ . وطبع أخيرًا .

- ابن عطية (الحموى) : علوان بن عطية الحموى ، ت ٩٣٦هـ / ٢٥٢٩م . (الغزى : الكواكب السائرة ، ٢: ٢٠٦ - ٢١٣) .

٧٦ - « كتاب النصائح المهمة للملوك والأئمة » مخطوط بمكتبة خالص أفندى باستانبول .

- العماد (الكاتب) : محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن هبة الله المعروف بالعماد الكاتب الأصبهانى ويعرف بابن أخى العزيز ، عماد الدين أبو عبد الله . ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م .

٧٧ - « البرق الشامى » منه ثلاث قطع مخطوطة استخدمنا ثلاثتها فى دراستنا ، وهى المجلد الثالث ، مخطوط البودليانة برقم Bruce II ، والمجلد الخامس مخطوط البودليانة برقم Marsh 452 وقطعة مخطوطة بمكتبة ليدن بهولندا برقم ١٥٩٢ .

- العمرى (شهاب الدين) : أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشى ، العدوى العمرى ، الدمشقى الشافعى ، أبو العباس ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م . (ابن حجر : الدرر ، ١: ٣٣١ - ٣٣٣) .

٧٨ - « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » نسخة مصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٩ معارف عامة عن إحدى النسخ المحفوظة بمكتبات استانبول ، ورجعنا بصفة خاصة للجزئين الأول والثانى .

- العينى (بدر الدين) : محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن يوسف ، أبو محمد ، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م .

٧٩ - « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ١٩ جزء ، منه نسخة بخط المؤلف بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ٢٩١١ ومصور بمعهد المخطوطات برقم ٣٣٤ تاريخ وبرقم ٧٣٨ تاريخ . وطبع منه أجزاء أخيرًا .

- الغزى (الشافعى) : عبد الله بن محمد الغزى الشافعى ، ت ق ٩ هـ / ١٥م (السخاوى: الضوء، ٥: ٨٥) .

٨٠ - « الأدلة القطعية فى عقود الولايات والسياسة الشرعية » مخطوط بمكتبة كوجك أفندى باستانبول .

- الغيطى (نجم الدين) : محمد بن أحمد بن على بن أبى بكر السكندرى ، ثم المصرى ، الغيطى الشافعى أبو المواهب ، ت ٩٨١هـ / ١٥٧٣م .

٨١ - « التأييدات العلية للأوقاف المصرية » رسالة فى ٩ ورقات بدار الكتب المصرية برقم ١١٦٢ فقه شافعى ، ومنها نسخة أخرى برقم ٦٦٥ فقه تيمور .

- أبو الفدا (الملك المؤيد) : إسماعيل بن على بن أيوب ، الملك المؤيد ، صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م .

٨٢ - « التبر المسبوك فى تواريخ أكابر الملوك » رسالة فى ١٩ ق بدار الكتب المصرية ، برقم ٥٤٧ الخزانة الزكية .

- ابن الفرات (المصرى) : محمد بن عبد الرحيم بن على بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد الحنفى . ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م .

٨٣ - « تاريخ الدول والملوك » بدأه من سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م ووصل فيه إلى سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م مصور بدار الكتب المصرية برقم ٣١٩٧ تاريخ عن مخطوطه فينا ، ومصور أيضًا بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١١٤ تاريخ ومنه نسخة أخرى بدار الكتب المصرية برقم ٢١١٠ تاريخ . وطبع منه أجزاء أخيرًا .

- ابن أبي الفوارس (الخزرجي) : محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي الفوارس عبد العزيز الأنصارى (الخزرجى) ق ٧ هـ / ١٣ م .

٨٤ - « تاريخ دولة الأكراد والأتراك » مصور بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٨٨١ فى مجلدين ١٠٠ ، ٩٩ لوحة ، عن النسخة المخطوطة بمكتبة حكيم أوغلو على بالاستانة برقم ٦٩٥ . وهو مصور أيضًا بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة برقم ٨٩٤ تاريخ .

- قدامه (ابن جعفر) : قدامه بن جعفر بن قدامة ، ابو الفرج ، ت ٣٣٧هـ / ٩٤٨م .

٨٥ - « كتاب الخراج » مصور بدار الكتب المصرية برقم ١٩٧١ فقه حنفى عن المكتبة الأهلية بباريس . وطبع كاملاً اخيرًا .

- القفطى (ابن الحاج) : شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة العبادى ، ضياء الدين أبو الحسن ، ت ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م . (القفطى : انباه الرواه ، ٣ : ٧٣ - ٧٤) .

٨٦ - « تهذيب ذهن الواعى فى إصلاح الرعية والراعى » ألفه للسلطان صلاح الدين الأيوبى . مخطوط ضمن مجموعة خطية بمكتبة برلين برقم ٥٦٤٤ ، ٧٣ .

- القفطى (جمال الدين) : على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيبانى القفطى ، ويعرف بالقاضى الأكرم ، أبو الحسن ، وزير أيوبى ، ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م .

٨٧ - « أساس السياسة » ، مخطوط بمكتبة خالص باستانبول .

- الكافيجى (محى الدين) : محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى ، أبو عبد الله ، ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م . (السخاوى : الضوء ، ١١: ١٩٦) .

٨٨ - « سيف الملوك والحكام » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٢٦٣ ب .

- ابن كنان (الخلوتى) : محمد بن زين التقاه عيسى بن محمود بن محمد بن كنان الحنبلى الصالحى الدمشقى ، ت ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م (المرادى : سلك الدرر ٤: ٨٥ - ٨٦) .

٨٩ - « حدائق الياسمين فى ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٦٨٨٩ أدب ، ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٩ ، سياسة واجتماع .

- مجهول : (معاصر للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، ق ٦ هـ / ١٢ م .

٩٠ - « المقامة الصلاحية فى الخيل والبيطرة والفروسية » ألفها للسلطان صلاح الدين الأيوبى . مخطوطة فى ١٥ ق بدار الكتب المصرية برقم ٨١ فروسية تيمور .

- مجهول : (معاصر للسلطان العزيز عثمان الأيوبى) ق ٦ هـ / ١٢ م .

٩١ - « كتاب محاسن الملوك » ألفه للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، ت ٥٩١هـ / ١١٩٤م مخطوط بمكتبة طوبقبو سراى باستانبول كتب سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م برقم ٢٦٣ - ٣٠٥٢ ، ومصور بالفوتستات بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٩٨ أدب ، فى ١٣١ لوحة .

- مجهول : (معاصر للملك الصالح اسماعيل الأيوبى ، والسلطان الصالح نجم الدين أيوب) ق ٧ هـ / ١٣م .

٩٢ - « كتاب التحقيق فى شراء الرقيق » ، ألفه للملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل أبو بكر بن أيوب . مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية برقم ٤٨ فضائل ، فى ٢٥٠ ق ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٩٤ تصوف وأداب شرعية .

- مجهول (معاصر للوزير الفاطمى الصالح طلائع بن رزيك) ق ٦هـ / ١٢م .

٩٣ - « كتاب تنبية الملوك والمكائد » ، ألفه للوزير الفاطمى الملك الصالح طلائع بن رزيك . نسخة كتبت سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م محفوظة بمكتبة كوبرلى باستانبول برقم ١٠٦٥ ، فى ٤٤٠ق ومصورة بدار الكتب المصرية برقم ٢٣٥٤ أدب وبمعهد المخطوطات برقم ١٦ سياسة واجتماع .

- مجهول : (عاش فى العصر المماليكى) ق ٨ - ٩ هـ / ١٤م تقريبًا .

٩٤ - « نزهة المناظر وراحة الخاطر » ، مختصر الدر المطلوب فى تاريخ بنى أيوب مخطوط بمكتبة فينا برقم ٣٢٥ .

- مجهول :

٩٥ - « مجموعة رسائل القاضى الفاضل » مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٦٠٢٤ ، وبمكتبة دهده روشيد برقم ٢٨٧ ، وبمكتبة برلين برقم ٨٦٢١ ، وبمكتبة مدرسة أويس بالموصل .

- مجهول :

٩٦ - « الرسائل الحجازية » وهى تحتوى على مكاتبات القاضى الفاضل . مخطوطة بمكتبة الفاتيكان بأسبانيا برقم ٩٤٦ .

- مجهول :

٩٧ - « مكاتبات القاضى الفاضل » مخطوط بالمتحف البريطانى برقم ٢٥٧٥٧ .

- مجهول :

٩٨ - « مراسلات فاضلى » مخطوط بالمتحف البريطانى برقم ٧٤٦٥ .

- مجهول :

٩٩ - « الرسائل الأدبية للقاضى الفاضل » مخطوطة بمكتبة الجامع الأزهر رقم ٤٣ أباظة ، ٧٠٣٥ أدب .

- مجهول : معاصر لدول المماليك بمصر والشام ، ق ٩ هـ / ١٥م . (بروكلمن ٢: ٢٧٢ ، الملحق ٢: ٢٩٤ ، حاجى خليفة : كشف الظنون ٣: ١٥٢٣) .

١٠٠ - « كوكب الترك وموكب الملك » مخطوط بمكتبة غوطا برقم ١٨٨٥ وبمكتبة شهيد على باستانبول برقم ٢٧٠٩,٥ ، وبمكتبة كمبردج برقم ٩٥٤ .

- مجهول : معاصر للملك الأشرف ق ٩ هـ / ١٥م .

١٠١ - « سياسة الملوك » ألفه برسم الملك الأشرف . مخطوط بمكتبة خالص باستانبول .

- مجهول : معاصر للملك الأشرف قايتباى ، ق ٩ هـ / ١٥م .

١٠٢ - « تحفة الملوك وعمدة المملوك » الفه برسم الملك الأشرف قايتباى . مخطوط بمكتبة أياصوفيا باستانبول .

- مجهول : معاصر للسلطان قانصوه الغورى ، ق ١٠هـ / ١٦م .

١٠٣ - « السلوك فى تدبير الملوك » مخطوط بمكتبة أيا صوفيا برقم ١٨٥٤ فى ١١٢ ق ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٥ سياسة واجتماع .

- مجهول :

١٠٤ - « اللؤلؤ المنثور لنصيحة ولاة الأمور » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٥ اجتماع تيمور .

- مجهول :

١٠٥ - « حدائق السلوك فى سياسة الملوك » مخطوط بمكتبة فاتح باستانبول برقم ٣٥٠٢ ،.مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٩ سياسة .

- مجهول : عاش فى العصر المماليكى ق ٨ - ١٠هـ / ١٤ - ١٥م .

١٠٦ - « شرح اللمعة » كتاب فى تاريخ مصر أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك ، آخره بتاريخ سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م . مصور بالفوتستات بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٢٢ عن مخطوطة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا .

- مجهول : كان موجودًا سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م .

١٠٧ - « أخبار الصالحين والزهاد والعارفين والعباد » فى تراجم الصوفية ، رتبه على حروف المعجم ، مبتدأ بالمحمدين . مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٧٧٤ عام . وذكر المؤلف فى ق ٩٥ و ق ١٠٢ إن الذى ألبسه خرقة التصوف هو أبو عبد الله عمر بن ميمون السهرودى ، ت ٦٣٢هـ .

- المحبى (لعلها المحلى) المصرى : حسين بن محمد (لعله الحسين بن محمد المحلى المصرى الشافعى) ، فقيه فرضى رياضى ، ت ١١٧٠هـ / ١٧٥٧م) .

١٠٨ - « عدة السالك فى سياسة الممالك » مخطوط بمكتبة خالص باستانبول .

- ابن المحق (الموصلى) : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر المبارك ابن الرضوان المعروف بابن المحق الموصلى .

١٠٩ - « النصح فى الدين ومآرب القاصدين فى مواعظ الملوك والسلاطين » مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستانبول برقم ٦٢٠٢ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٥٥ سياسة واجتماع .

- المخزومى (أبو الحسن) : على بن أبى عمر عثمان بن يوسف بن إبراهيم بن أحمد بن يعقوب القرشى المخزومى الشافعى ، القاضى الأجل السعيد ولد بالقاهرة سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م وتوفى بها سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م . (المنذرى : التكملة لوفيات النقلة ، ١: ١٨٩) .

١١٠ - « كتاب المنهاج فى صناعة خراج مصر »، مخطوطة بمكتبة المتحف البريطانى بلندن برقم ٢٣٤٨٣ .

- ابن مرتفع (المقرى) : محمد بن مرتفع بن جبريل المقرى . كان حيًا سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م .

١١١ - « سبل الرشاد فى فضائل الجهاد » نسخة بخط المؤلف كتبت سنة ٦٤٧هـ مخطوطة بجامعة استانبول برقم ١٣٩٦ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٢٥٢ تصوف وآداب شرعية .

- ابن المظفر (الرازى) : أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازى الحنفى ت ٦٣١هـ / ١٣٣٤م . (كحالة : معجم المؤلفين ، ٢: ١٥٨) .

١١٢ - « ذخيرة الملوك فى علم السلوك » نسخة كتبت فى سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م ، وقوبلت على نسخة المؤلف ، فى ١٣ ق بمكتبة لاله لى باستانبول برقم ٣٣٧٩/ ٢ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٥٩ تصوف وآداب شرعية .

- ابن أبى المفاخر (مجد الدين) : محمد بن أبى المفاخر داود الملك الناصر صاحب الكرك ق ٧ هـ / ١٣م .

١١٣ - « الفوائد الجلية فى الفرائد الناصرية » وهو مجموع رسائل وشعر السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أبى المفاخر داود ابن السلطان المظفر عيسى بن نجم الدين أيوب ، ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م . محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٢٢٩٣ أدب ، وهى مصورة عن استانبول فى ٢٩١ ق .

- المقريزى (تقى الدين) : أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم ابن عبد الصمد المحيوى الحسينى العبيدى البعلى الأصل المصرى المولد والدار والوفاة ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م .

١١٤ - « المقفى » كتاب فى تراجم ملوك وعلماء ومشاهير مصر الإسلامية والواردين عليها منذ الفتح العربى وحتى عصر المؤلف ، مرتب على حروف المعجم . منه أربع مجلدات بدار الكتب المصرية برقم ٥٣٧٢ تاريخ . والجزء الأول منه مخطوط بالمكتبة السليمية باستانبول برقم ٤٩٦ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٥١٠ تاريخ . ومنه مجلد آخر من مسودة المؤلف بمكتبة ليدن برقم ١٣٦٦ مصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٢٤٦ تاريخ .

١١٥ - « المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدينة » مصور بجامعة القاهرة برقم ٢٦٢٤٧ / ٩ ، عن المكتبة الوليدية بالآستانة .

١١٦ - « رسالة فى الموازين الشرعية » مخطوط بدار الكتب المصرية .

- ابن مماتى (الأسعد) : أسعد بن المهذب بن مينا بن ذكريا بن مماتى ، أبو المكارم ، ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩ م .

١١٧ - « مختصر من متبلج الأنوار ومتعرج النوار » ، فى المكاتبة إلى الملوك والوزراء والعلماء ، مما جمعه ابن مماتى ، من قول القاضى الفاضل . مخطوط ضمن مجموعة خطية بمكتبة الفاتيكان بإيطاليا برقم ١٠٩٩,٧ .

- المناوى (زين الدين) : عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن على بن زين العابدين الحدادى المناوى القاهرى الشافعى ، ت ١٠٣١هـ / ١٦٢١م . (المحبى : خلاصة الأثر ، ٢ : ٤١٢ - ٤١٦) .

١١٨ - « الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية » وتعرف بطبقات المناوى الكبرى ، رتبها على أحد عشر طبقة ، وجعل كل طبقة مائة سنة ، ورتب كل طبقة على حروف المعجم ، مصور بمعهد المخطوطات برقم ٧٦٧ تاريخ .

- ابن منجب (الصيرفى) : على بن منجب بن سليمان المصرى ، أبو القاسم متولى ديوان الإنشاء الفاطمى بمصر ، ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م . (ياقوت : معجم الأدباء ، ١٥ : ٧٩ - ٨١) .

١١٩ - « الأفضليات » وهى خمس رسائل مؤلفة إلى الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، كالآتى « رسالة فى العفو » ، ق ١ - ١٢ ، « درر المظالم » ، ق ٢١ - ٥٦ ، « لمع الملح » ، ق ٥٦ - ١٢٣ ، « مناهج القرائح » ق ١٢٣ - ١٦٠ « مناجاة شهر رمضان » ، ق ١٦٠ - ١١٦ ، « عقائل الفضائل» ق ١٦٦ - ٢١٣ ، « التدلى على التسلى » ، ق ٢٦٣ - ٢٦٢ ق بمكتبة فاتح باستانبول برقم ٥٤١٠ ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٣٩ تصوف وأداب شرعية .

- المنجنيقى (نجم الدين) : يعقوب بن صابر بن بركات ، أبو يوسف ، ت ٦٢٦هـ / ١٢٤٨م (ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٨ - ١١ ، ابن خلكان : وفيات ٢: ٣٣٧) .

١٢٠ - « عمدة السالك فى سياسة الممالك » ، يتضمن أحوال الحروب والفروسية وحيلهما ، وفتح الثغور وبناء المعامل وهندستها . ألفه - أغلب الظن - للخليفة العباسي الناصر لدين الله . مخطوط بمكتبة برلين برقم ٥٦٤٤ (٩) ضمن مجموعة خطية .

- النابلسى (علاء الدين) : عثمان بن إبراهيم بن خالد بن محمد بن المسلم القرشى ، النابلسى المحتد المصرى الدار والوفاة والمولد الشافعى الكاتب الأديب . ولد سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م بالقاهرة وتوفى بها سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م . (اليونينى : ذيل مرآة الزمان ، ١: ٥٠٤ - ٥٠٥) .

١٢١ - « كتاب تجريد سيف الهمة لاستخراج ما فى ذمة أهل الذمة » مخطوط بمكتبة الزيتونة بتونس برقم ١٦٤٥ أنظر ١٧,٧٤,١٩٢٢ ومنه نسخة خطية أخرى بمكتبة آياصوفيا باستانبول .

- ابن نباته (المصرى) : محمد بن محمد بن الحسن الجذامى الفارقى الأصل المصى أبو الفضائل ، أبو الفتح ، أبو بكر ، ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م . (ابن حجر : الدرر ، ٤: ٢١٦ - ٢٢٤) .

١٢٢ - « المختار الفاضل من كلام القاضى الفاضل » ، مخطوط بالمتحف البريطانى برقم ٧٣٠٧ ، وهو مصور بدار الكتب المصرية برقم ٣٨٨٢ أدب ، وبمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٧٥٠ أدب .

١٢٣ - «المختار من إنشاء القاضى الفاضل» مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر رقم ٤٦٩ أباظة ، ٧٠٦٥ أدب .

١٢٤ - « المختار من كتاب تدبير الدول » نسخة كتبت ق ٨هـ ، فى ٨٤ ق ، بمكتبة أسعد أفندى باستانبول برقم ١٨٢٢ .

- ابن نجم (المصرى) : إبراهيم بن محمد ، زين الدين ، الحنفى ، ت ٩٧٠هـ / ١٥٢٦م (ابن العماد : شذرات الذهب ، ٨: ٣٥٨) .

١٢٥ - « رسالة فى أحكام السياسة الشرعية » مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١١٦٠ .

١٢٦ - «رسالة التحفة المرضية فى الأراضى المصرية» مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٤٧٩ ، ٣٣ مجاميع.

١٢٧ - «رسالة فى بيان الإقطاعات ومحلها ومن يستحقها» ، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٣٣ مجاميع .

- النويرى (شهاب الدين) : أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الوهاب بن عبادة البكرى النويرى الشافعى ، أبو العباس ، ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م .

١٢٨ - « نهاية الأرب فى فنون الأدب » الجزء ٢٧ ، مصور بالفوتستات بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

- الهروى (أبو الحسن) : على بن أبى بكر بن على الهروى الموصلى نزيل حلب الرحالة الشهير ، ت ٦١١هـ / ١٢١٥م .

١٢٩ - « التذكرة الهروية فى الحيل الحربية » وهى فى السياسة الشرعية وتدبير الملك والحيل الحربية ، مخطوط بمكتبة عاطف أفندى باستانبول برقم ٢٠١٨ ، ومصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ١٧ فروسية . وحقق أخيرًا بدمشق .

- ابن أبى الهيجاء (؟) معاصر للسلطان صلاح الدين الأيوبى ق ٦هـ / ١٢م .

١٣٠ - « تاريخ ابن أبى الهيجاء » بدأ منذ صدر الإسلام وانتهى بحروب صلاح الدين . مخطوط بالمكتبة الأحمدية بتونس برقم ٤٩١٥ ومصور بمعهد المخطوطات بالقاهرة برقم ٩٤٦ .

- ابن واصل (الحموى) : محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل المازنى التميمى الحموى الشافعى ، جمال الدين ، أبو عبد الله ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م .

١٣١ - « التاريخ الصالحى » مخطوط بمكتبة فاتح باستانبول برقم ٤٢٢٤ ومصور بالتصوير الشمسى بمكتبة كلية الأداب جامعة الإسكندرية برقم ٢٣١١ .

- ابن وصيف شاه (المصرى) : إبراهيم بن وصيف شاه المصرى ، ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م (كحالة : معجم المؤلفين ، ١: ١٢٠) .

١٣٢ - « تاريخ أخبار الديار المصرية » وما فى ذلك من جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٧ تاريخ .

- اليافعى (المصرى) : الحسن بن إبراهيم بن محمد اليافعى (؟) من علماء القرن التاسع الهجرى / ١٣م كان معاصرًا للسلطان قلاوون .

١٣٣ - « جامع التواريخ المصرية فى ذكر الملوك والخلفاء والسلاطين الإسلامية » ألفه للسلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفى الصالحى . ابتداء بحوادث سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م ، وانتهى فيه إلى سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م ، فى سلطنة المنصور المذكور ، ورتب هذا التاريخ على الحوادث والوفيات . مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٥٤٣ ومصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم ١٠١٦ تاريخ .

- يوساب (أسقف فوه) : الأنبا يوساب أسقف فوه ، كان معاصرًا للدولة الأيوبية ق ٦ هـ / ١٢م . كما أفاد أكثر من مرة أثناء كتابه (سير بطاركة كرسى الإسكندرية) .

١٣٤ - « سير بطاركة كرسى الإسكندرية » مخطوط بمكتبة المتحف القبطى بالقاهرة برقم ٥٣٢٨ . ومنه نسخة خطية أخرى قديمة بدير السريان بوادى النطرون .

ثانيًا : المصادر العربية المطبوعة[1] :

- ابن الأثير (عز الدين) : على بن محمد ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م .

---

(١) ثمة بعض مصادر ، لم تؤلف فى العصر الأيوبى ، وقد رجعنا إليها قليلاً لتحقيق الأسماء والأعلام ولم نذكرها فى هذه القائمة لكثرة تداولها .

١ –الكامل فى التاريخ ، ١٣ جزءًا ، طبع دار صادر ، بيروت ، سنة ١٩٦٥م .
٢ – الباهر فى تاريخ الدولة الأتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات ، القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .
– ابن الأثير (ضياء الدين) : نصر الله بن محمد ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م .
٣ – رسائل ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق أنيس المقدسى ، بيروت ١٩٥٩م .
٤ – الوشى المرقوم فى حل المنظوم ، مطبعة ثمرات الفنون ، سنة ١٢٨٩هـ .
٥ – المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، طبع المطبعة البهية بالقاهرة سنة
– الأدفوى (ت ٧٤٨هـ) :
٦ – الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن ، القاهرة ، ١٩٦٦م ، الهيئة العامة للكتاب ، سلسلة تراثنا .
– ابن الأزرق (الأندلسى) أبو عبد الله بن الأزرق ق ١٠هـ / ١٦م .
٧ – بدائع السلك فى طبائع الملك ، تحقيق على سامى النشار ،
– الإسحاقى (المنوفى) : محمد بن عبد المعطى ت ١٠٦٩هـ / ١٦٥٠م .
٨ – لطائف أخبار الأول ، فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، طبع مصر .
– الأسفرايينى (أبو المظفر) : شهبور بن طاهر ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م .
٩ – التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، طبع القاهرة ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .
– الإسكافى (الخطيب) محمد بن عبد الله ت ٤٢١هـ .
١٠ – لطف التدبير فى تدبير الرئاسة ، تحقيق أحمد عبد الباقى ، نشر مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة الخانجى بالقاهرة ، ١٩٦٤م .
– الأشعرى (أبو الحسن) : على بن إسماعيل ت ٣٣٠هـ / ٩٤٢م .
١١ – الإبانة فى أصول الديانة ، طبع بدائرة المعارف العثمانية بالهند ، ١٣٠٤هـ ، ضمن مجموعة رسائل بعنوان ، الرسائل السبعة فى العقائد ، رقم ٤ فى المجموعة .
١٢ – مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحقيق هلموت ريتر ، طبع فى مجموعة النشريات الإسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .
–الأهوازى (المصرى) : على بن بلبان الفارسى المصرى الحنفى ، أبو الحسن (٦٧٥هـ ٧٣٩هـ) (ابن حجر : الدرر الكامنة ٣: ٣٣ ؛ القرشى : الجواهر المضية ص ٣٥٤)
١٣ – التبر المنسبك فى تدبير الملك ، ويشتمل على تهذيب الرياسة وترتيب السياسة ، طبع بمطبعة التمدن بمصر ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م ، وطبع حديثًا بعنوان التحفة الملوكية فى الآداب السياسية ، منسوبًا لأبى الحسن الماوردى ، بتحقيق فؤاد عبد المنعم ، القاهرة ١٩٧٧م .
– الأنصارى : عمر بن إبراهيم (ق ٨ – ٩هـ / ١٤ – ١٥م) .
١٤ – « تفريج الكروب فى تدبير الحروب » ، ألفه فى عهد السلطان ، فرج بن برقوق (٨٠١هـ – ٨١٤هـ) تحقيق جورج سكانلوت ، منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٦١م .

- ابن إياس (التركمانى المصرى) محمد بن أحمد بن إياس الحنفى التركمانى ، ولد ٨٥٢هـ ، وبدأ تأليف كتابه بدائع الزهور سنة ٩٠١ هـ .
١٥ - « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » تاريخ حولى من سنة ٨٥٧هـ إلى سنة ٩٢١هـ (ج ١ - ٤) ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١م - ١٩٦٠م .
- ابن أيبك (الدوادار) أبو بكر بن عبد الله ت بعد سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م .
١٦ - « الدر المطلوب فى تاريخ بنى أيوب » ، تحقيق سعيد عاشور ، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م .
- الباقلانى (أبو بكر) : محمد بن الطيب ٤٠٣هـ / ١٠١٣م .
١٧ - « التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة » ، تحقيق محمود محمد الخضيرى، ومحمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ، ونشر مرة أخرى ببيروت ١٩٥٧م ، بتحقيق يوسف مكارثى اليسوعى .
١٨ - «الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به» ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، القاهري ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .
- بامخرمه (العدنى) : الطيب بن عبد الله ت ٩٤٧هـ / ١٥٤٠م .
١٩ - « تاريخ ثغر عدن (ج ١ - ٣) » ، تحقيق أوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٣٦م .
- البدليسى : شرف خان ، (عاش فى العصر العثمانى ق ١٠ هـ - ١٤هـ / ١٦ - ٢٠م) .
٢٠ - « الشرفنامة الكردية ، ألفه بالفارسية » ، ترجمه إلى العربية محمد على عونى ، راجعه وقدم له يحيى الخشاب ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البلبابى الحلبى د. ت .
- ابن بسام (التنيسى) : محمد بن أحمد المحتسب (أواخرق ٦هـ / ٧ م) .
٢١ - « كتاب أنيس الجيس فى أخبار تنيس » ، حققه جمال الدين الشيال ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، ج ١٤ ، ١٩٦٧ ، ص ١٥١ - ١٨٩ .
- ابن بعره (الذهبى) : منصور بن بعره الذهبى الكاملى ق ٦ هـ / ١٢ م .
٢٢ - « كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية » ، طبع بالمجلس الإسلامى الأعلى بالقاهرة ١٩٦٧م، بتحقيق عبد الرحمن فهمى .
- البغدادى (أبو منصور) : عبد القاهر بن طاهر ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م .
٢٣ - « الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم » ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى، طبع القاهرة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م .
٢٤ - كتاب « أصول الدين » طبع استانبول ١٣٤٦هـ / ١٩٢٨م .
- البغدادى (موفق الدين) : عبد اللطيف بن يوسف ت ٦٢٩هـ م ١٢٣١م .
٢٥ - كتاب « الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » ، طبع بمصر ، د. ت. بمطبعة المجلة الجديدة لصاحبها سلامة موسى .
-البندارى (الأصفهانى) الفتح بن على ت ٦٤٣هـ / ١٢٤٥م .
٢٦ - « تاريخ دولة آل سلجوق » ، طبع بمطبعة الموسوعات بمصر ، ١٩٠٠م .

٢٧ – « سنى البرق الشامى » (٥٦٢هـ / ١١٦٦م – ٥٨٣هـ / ١١٨٧م) ، تحقيق فتحية النبراوى ، القاهرة ١٩٧٩م .

– بنيامين التطيلى (الرحالة اليهودى الأندلسى) ق ٦هـ / ١٢م .

٢٨ – «رحلة بنيامين التطيلى» ، ترجمها إلى العربية عزرًا حداد ، تصدير عباس العزاوى ، بغداد ، ١٩٤٥م .

– البهاء زهير (المصرى) : زهير بن محمد ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م .

٢٩ – « ديوان البهاء زهير » ، طبع مصر ١٢٩٧هـ ، وطبع بيروت ١٩٦٤م .

– البوصيرى (شرف الدين) : محمد بن سعيد ت ٦٨٦هـ / ١٢٩٦م .

٣٠ – « ديوان البوصيرى » ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، طبع مصر ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .

– ابن البيطار (ضياء الدين) عبد الله بن أحمد المالقى ت ٦٤٦هـ / ١٩٤٨م .

٣١ – « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، (ج ١ – ٤) طبع ببولاق ١٢٩١ هـ فى مجلدين .

– ابن التعاويذى (سبط) : محمد بن عبيد الله ، ت ٥٨٣هـ / ١١٨٧م .

٣٢ – « ديوان سبط ابن التعاويذى » ، تحقيق مرجليوث ، مطبعة المقتطف بمصر ، ١٩٠٣م .

– ابن تغرى بردى (أبو المحاسن) : يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الظاهرى ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م .

٣٣ – « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ، تحقيق محمد رمزى وآخرون ، طبع دار الكتب المصرية، ابتداء من سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م ، ج ١ – ١٦ ، وبصفة خاصة (ج ٦) .

– التوحيدى (أبو حيان) : على بن محمد ، كان حيًا سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م .

٣٤ – « رسالة فى علم الكتابة » ، تحقيق إبراهيم الكيلانى ، ضمن مجموعة رسائل طبعت بعنوان : « ثلاث رسائل لأبى حيان التوحيدى » ، مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بدمشق ، ١٩٥١م .

٣٥ – « مثالث الوزيرين » ، أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد ، تحقيق إبراهيم الكيلانى ، دمشق ١٩٦١م .

٣٦ – « أخلاق الوزيرين » ، مثالث الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٦٥م .

– التيفاشى (القفصى) : أحمد بن يوسف ت ٦٥١هـ / ١٢٥٣م .

٣٧ – « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » ، طبع القاهرة سنة ١٩٧٧م ، ضمن مطبوعات الهيئة المصرية العامة للكتاب ، تحقيق محمد يوسف حسن ومحمد بسيونى خفاجى .

– ابن تيمية (تقى الدين) : أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٨م .

٣٨ – السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، تحقيق على سامى النشار ، وأحمد زكى عطية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥١م .

٣٩ – « الحسبة فى الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية » ، القاهرة ، المطبعة المؤيدية ، ١٣١٨هـ .

– الثعالبى (أبو منصور) : عبد الملك بن إسماعيل النيسابورى ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٨م .

٤٠ – « كتاب تحفة الوزراء » ، تحقيق ريجينا هاينكه ، بيروت ١٩٧٥م .

- الجاحظ (عمرو بن بحر البغدادى المعتزلى) ق ٣ هـ .
٤١ - « رسالة فى فضل الترك » ، تحقيق عبد السلام هارون ، نشر مكتبة الخانجى ، فى مجموعة رسائل الجاحظ ، القاهرة ١٩٦٥م .
- ابن جبير (الأندلسى) : محمد بن أحمد الكنانى البلنسى الشاطبى ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م .
٤٢ - « رحلة ابن جبير » ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
- الجهشيارى (أبو عبد الله) : محمد بن عبدوس الكوفى ت ٣٣١هـ / ٩٤٣م .
٤٣ - كتاب « الوزراء والكتاب » ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م .
٤٤ - « نصوص ضائعة من كتاب الوزراء والكتاب » ، جمعها ميخائيل عواد ، دار الكتاب اللبنانى ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
- الجواليقى (أبو منصور) : موهوب بن أحمد ت ٥٤٠هـ / ١١٤٥م .
٤٥ - « المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم » ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٦١هـ .
٤٦ - « شرح أدب الكاتب » ، نشر مع مقدمة وتصدير لمصطفى صادق الرافعى ، مكتبة القدسى ، ١٣٥٠هـ .
- (جوانفيل) مؤرخ لاتينى صليبى ت ق ٦هـ / ١٢م .
٤٧ - « مذكرات جوانفيل ، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام » ، ترجمة وتحقيق حسن حبشى، الطبعة الأولى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨م .
- ابن الجوزى (أبو الفرج) : عبد الرحمن بن على ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م .
٤٨ - « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » ، نشر منه الأجزاء من (٥ - ١٠) بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٥٧هـ .
-الجوينى (إمام الحرمين) : عبد الملك بن عبد الله ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م .
٤٩ - « غياث الأمم فى التياث الظلم » ، الفه للوزير نظام الملك السلجوقى ، تحقيق فؤاد عبد المنعم ومصطفى حلمى ، القاهرة ١٩٧٩م .
٥٠ - « العقيدة النظامية » ألفها للوزير نظام الملك السلجوقى ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، طبع بمطبعة الأنوار بمصر ، ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .
٥١ - « لمع الأدلة فى قواعد عقائد أهل السنة والجماعة » تحقيق فوقية حسين ، طبع القاهرة ١٣٥٨هـ / ١٩٦٥م .
٥٢ - « كتاب الإرشاد فى أصول الدين » ، تحقيق أحمد فؤاد الأهوانى ، طبع دار المعارف بمصر .
- ابن الجيعان (شرف الدين) يحى بن شاكر ، ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م .
٥٣ - « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ، نشر مورتز ، القاهرة ، ١٨٩٨م .

- ابن حاتم (الرازى) اليمنى (ق ٦ / ١٢م) .
٥٤ - العقد الغالى الثمن فى أخبار ملوك الغز باليمن ، تحقيق ج ، ركس سمث .
- ابن الحبال (المصرى) : الحافظ إبراهيم بن سعيد (أبو إسحاق) ت ٤٨٢هـ ١٠٨٩م .
٥٥ - « وفيات المصريين » تحقيق صلاح الدين المنجد ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثانى ، الجزء الثالث ، نوفمبر ١٩٥٦م ، ص ٢٨٦ - ٣٣٨ .
-ابن حجر (العسقلانى) : أحمد بن على الكنانى المصرى ، ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م .
٥٦ - « رفع الأصر عن قضاة مصر » ، (ج ١ - ٢) تحقيق حامد عبد المجيد وآخرون ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧م .
- ابن حسول (أبو العلاء) : الوزير السلجوقى (ق ٥هـ / ١١م) .
٥٧ - « كتاب تفضيل الأتراك على سائر الأجناد » ، ومناقب الحضرة العالية السلطانية ، تحقيق عباس العزاوى ، مطبعة المعارف باستانبول ١٩٤٠م .
- الحلبى (شهاب الدين): محمود بن سليمان الحنفى ، أبو الثناء ، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق ، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م .
٥٨ - « كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ، طبع بمطبعة هندية بدرب الجنينة ، بغيط النوبى بمصر ، ١٣١٥هـ .
- الحموى (ابن حجة) : على بن عبد الله ، ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٤م .
٥٩ - « كتاب ثمرات الأوراق » ، طبع بمطبعة المعاهد بالجمالية ، ١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م ، على هامش كتاب (المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهى) .
- الحموى (أبو الفضائل) محمد بن علىّ بن نظيف ت . بعد سنة ٦١٣هـ / ١٢٣٣م .
٦٠ - « التاريخ المنصورى » ، تلخيص الكشف والبيان فى حوادث الزمان ، تحقيق أبو العيددودو ، مراجعة عدنان درويش ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- الخفاجى (الشهاب) : أحمد بن محمد بن عمر المصرى ت ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م .
٦١ - « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل » ، طبع بمصر .
- ابن خلدون (الأشبيلى) : عبد الرحمن بن محمد الحضرمى ت ٨٠٨هـ /١٤٠٦م .
٦٢ - « المقدمة » ، طبع بالمطبعة الأدبية ببيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٠٠م .
- ابن خلكان (الأربلى) : أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م .
٦٣ - « وفيات الأعيان » ، تحقيق إحسان عباس ، (ج ١ - ٨) ، طبع بيروت ١٩٦٨م ، كما رجعنا أحيانًا لطبعة بولاق القديمة فى مجلدين .
- ابن دحية (الكلبى) : عمر بن الحسن الأندلسى ، ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م .
٦٤ - « النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس » ، تحقيق عباس العزاوى ، بغداد ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .
-ابن درباس (ضياء الدين) : عمر بن عيسى بن درباس الهذبانى المارانى المصرى ، قاضى قضاة مصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى ت ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م .

٦٥ - « رسالة فى الذب عن العقيدة الأشعرية » ، ألفها للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، طبعت ضمن مجموعة الرسائل السبع فى العقائد ، الهند سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .

- ابن دُقماق (صارم الدين) : إبراهيم بن محمد بن أيدمر بن دقماق القاهرى ، مؤرخ الديار المصرية فى وقته (٧٥٠هـ - ٨٠٩هـ) .

٦٦ - « الإنتصار لواسطة عقد الأمصار » ، جزآن منه ، (الرابع والخامس) ، طبعا ببولاق ، ١٣٠٩هـ ١٣١٤هـ .

- ابن أبى الدم (الحموى) : إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم ، ت : ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م .

٦٧ - « كتاب أدب القضاء ، أو الدرر المنظومات فى الأقضية والحكومات »، تحقيق محمد مصطفى الزحيلى، دمشق ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

- الدمشقى (أبو الفضل) : جعفر بن على الدمشقى (ق ٦ هـ / ١٢م) .

٦٨ - « الإشارة إلى محاسن التجارة » ، طبع بمطبعة المؤيد بمصر ١٣١٨هـ ، وحققه ودرسه السيد محمد عاشور ، تحت عنوان : دراسة فى الفكر الاقتصادى العربى ، أبو الفضل جعفر بن على الدمشقى (أبو الاقتصاد) ، الطبعة الأولى ١٩٧٣م ، وطبع مرة ثالثة بالقاهرة بتحقيق البشرى الشوربجى ، ١٩٧٧م .

- الرازى (فخر الدين) : محمد بن عمر الطبرستانى ت ٦٠٦هـ / ١٢١٠م .

٦٩ - « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » ، تحقيق مصطفى عبد الرازق ، القاهرة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م.

٧٠ - « أساس التقديس فى علم الكلام » ، أهداه للملك العادل الأول ، سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، طبع بمصر ١٩٥٤هـ / ١٩٣٥م .

-ابن الراهب (القبطى) : بطرس بن أبى الكرم ابن المهذب ، المعروف بابن الراهب القبطى ت ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م .

٧١ - « كتاب تاريخ ابن الراهب » ، حققه لويس شيخو اليسوعى ، بيروت ١٩٠٣م .

-الراوندى (أبو بكر) محمد بن سليمان ت : بعد سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٦م .

٧٢ - « راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية » ، ترجمة عن الفارسية الشواربى وحسنين والصياد ، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .

- ابن أبى الربيع (شهاب الدين) : أحمد بن محمد بن أبى الربيع (ق ٣هـ / ٩م) .

٧٣ - « سلوك المالك فى تدبير الممالك » ، ألفه للخليفة المعتصم بالله العباسى ، طبع على نفقة محى الدين صبرى الكردى ، بمطبعة كردستان العلمية بالجمالية بمصر ، سنة ١٣٢٩هـ .

-الرومى (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى) ، المتوفى سنة ٦٢٦هـ (الزركلى : الإعلام ٩: ١٥٧) .

٧٤ - « معجم البلدان » ، طبع ليبزج ، ١٨٧٠م (ج ١ - ٦) .

٧٥ - « معجم الأدباء » ، طبعة فريد رفاعى ، ٢٠ جزءًا ، القاهرة ١٩٣٦م .

- الزركشي (أبو عبد الله) : (ق ٩هـ / ١٥م) .

٧٦ - « تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية » ، طبع بالمطبعة العتيقة بتونس ١٩٦٦م .

-الزبيدى (المرتضى) : محمد بن محمد الحسينى ت ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م .

٧٧ - « كتاب ترويح القلوب فى ذكر ملوك بنى أيوب » ، طبع بدمشق ، بتحقيق صلاح الدين المنجد سنة ١٩٧١م .

- الساعاتي (ابن انجب) : أحمد بن على البغدادى ت ٦٧٤هـ / ١٢٧٥م .

٧٨ - « الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير » ، نشر الجزء التاسع منه فى بغداد سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م ، بتحقيق مصطفى جواد .

- ابن الساعاتي (الشاعر) : على بن رستم ت ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م .

٧٩ - « ديوان ابن الساعاتى » ، تحقيق أنيس المقدسي ، المطبعة الأمريكانية بدمشق سنة ١٩٣٨م .

- سبط ابن الجوزى (أبو المظفر) : يوسف بن قزاوغلى ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م .

٨٠ - « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » ، نشر الجزء الثامن منه فى قسمين ، بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

- السبكى (تاج الدين) عبد الوهاب بن على ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م .

٨١ - « معيد النعم ومبيد النقم » ، تحقيق محمد على النجار وآخرون ، القاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .

- ابن أبى السرور (السروجى) : على بن عبد الله بن أبى عبد الله ت ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م .

٨٢ - « بلغة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء » ، طبع بمطبعة النجاح بمصر ، ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .

- ابن سمرة (الجعدى) : عمر بن على ت ٥٨٦هـ / ١١٩٠م .

٨٣ - « طبقات فقهاء اليمن » ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ، مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٥٧م .

-ابن سناء الملك (الشاعر) : هبة الله بن جعفر ، ت ٦٨٠هـ / ١٢٨١م .

٨٤ - « ديوان ابن سناء الملك » ، تحقيق محمد عبد الحق ، طبع بالهند سنة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م .

- السيوطى (جلال الدين) عبد الرحمن بن أبى بكر ، ت ٩١٢هـ / ١٥٠٦م .

٨٥ - « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (ج ١ - ٢) طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة .

٨٦ - « الوسائل إلى مسامرة الأوائل » ، تحقيق أسعد طلس ، بغداد ١٩٥٠م .

- ابن شاهنشاه (الأيوبى) الملك المظفر تقى الدين عمر صاحب حماه . ت ٥٨٧هـ / ١١٩١م .

٨٧ - « تاريخ حماه » ، طبعت منه منتخبات فى ذيل كتاب النوادر السلطانية لبهاء الدين ابن شداد ، بمطبعة صبيح بالأزهر ١٣٤٦هـ ، ص ٢٥٣ - ٣١١، وإن كنت أشك فى صحة نسبة هذه المنتخبات لهذا التاريخ .

- ابن شاهنشاه (الأيوبى) مؤرخ ، ابن الملك تقى الدين عمر صاحب حماه ، ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م .

٨٨ - « مضمار الحقائق وسر الخلائق » ، تحقيق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٨م .

- أبو شامة الأصفهانى : (شهاب الدين) عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة ، المتوفى سنة ٦٦٥هـ :
٨٩ - « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » ، طبع قديمًا فى جزئين ، بمطبعة وادى النيل بالقاهرة ١٢٨٧هـ - ١٢٨٨هـ ، وطبع طبعة حديثة بتحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، ٢/١ من الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦م .
٩٠ - « ذيل الروضتين » ، طبع بعنوان : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .
- ابن شاهين الظاهرى : غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى المتوفى سنة ٨٧٢هـ :
٩١ - « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » ، تحقيق بولس راويس ، طبع باريس ١٨٩٤م .
-ابن شداد : (بهاء الدين) : يوسف بن رافع بن تميم ، ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م .
٩٢ - « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م .
- ابن شداد (عز الدين) : محمد بن إبراهيم الأنصارى ، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م .
٩٣ - « الاعلاق الخطيرة فى تاريخ أمراء الشام والجزيرة » ، (ج ١ - ٣) ، طبع بتحقيق دومينيك سورديل ، وسامى الدهان ، مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بدمشق ، ١٣٧٢هـ - ١٣٨٢هـ / ١٩٥٣م - ١٩٦٣م .
- ابن شكر (صفى الدين) : عبد الله بن على الشيبى الدميرى الملقب بالصاحب ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م .
٩٤ - « المقامة المولوية الصاحبية » ، نشرها ريشر ، أنظر :
W.Z.K.M.: Rescher, Beitr Z. Maqamenlit IV, Stambul 1913, 153-199.
- الشهرستانى (أبو الفتح) : محمد بن عبد الكريم ، ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م .
٩٥ - « الملل والنحل » ، طبع بالقاهرة بالمطبعة الأدبية ١٣١٧هـ على هامش كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهرى ، ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م .
٩٦ - « نهاية الأقدام فى علم الكلام » ، تحقيق الفردجيوم ، وإعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد ، د. ت .
- الشيرازى (المؤيد فى الدين) : هبة الله بن موسى ، ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م .
٩٧ - « ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة » ، تحقيق محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى ، ١٩٤٩م.
٩٨ - « سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة » (ترجمة ذاتية) ، تحقيق محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى ، ١٩٤٩م .
- الشيزرى (الشافعى) : عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله بن محمد ، (معاصر لصلاح الدين الأيوبى ، ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م) .
٩٩ - « كتاب المنهج المسلوك فى سياسة الملوك » ، ألفه للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى ، طبع بمطبعة الظاهر بالقاهرة ١٣٢٦هـ ، على نفقة أحمد زكى أبو شادى .
١٠٠ - « كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ، تحقيق السيد الباز العرينى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

- الصابى (أبو الحسن) : الهلال بن المحسن الحرانى ت ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م .
١٠١ - « تاريخ الوزراء » ، تحقيق عبد الستار فراج ، القاهرة ١٩٥٨م .
- أبو صالح (الأرمنى) : أبو المكارم جرجس بن مسعود ، ويعرف بالشيخ أبى صالح ت بعد سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م .
١٠٢ - « كتاب الكنائس » ، نشر جزء منه ايفتس B.L.A.Evetts بأكسفورد .
- الصولى (أبو بكر) : محمد بن يحيى الشطرنجى ت ٣٣٥هـ / ٩٤٦م .
١٠٣ - « أدب الكاتب » ، تحقيق محمد بهجت الأثرى ، مراجعة محمود شكرى الألوسى ، نشر المكتبة العربية ببغداد ، والمطبعة السلفية بمصر ، القاهرة ١٣٤١هـ .
- ابن أبى أصيبعة (موفق الدين) أحمد بن القاسم ، ت ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م .
١٠٤ - « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ، طبع بيروت ، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م .
- الطرسوسى (مرضى بن مرضى) ، معاصر لصلاح الدين الأيوبى .
١٠٥ - « تبصرة ألباب الألباب » ، فى صناعة الأسلحة والحيل الحربية، ألفه وأهداه للسلطان صلاح الدين، حقق جزء منه كلود كاهين ، أنظر : B.E.O. Tome XII, 1947-1948
- الطرطوشى (أبو بكر) : محمد بن الوليد القرشى الفهرى الأندلسى ، ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م .
١٠٦ - « سراج الملوك » ، مطبعة بولاق ١٢٨٩هـ . وطبع بمصر ، بالمطبعة المحمودية بالأزهر ، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م .
- ابن طلحة (النصيبى) : محمد بن طلحة القرشى ، كمال الدين الوزير الأيوبى بالشام ، ت ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م .
١٠٧ - « كتاب العقد الفريد للملك السعيد » ، ألفه للملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز الأيوبى ، صاحب حلب ، طبع بالقاهرة ، بتحقيق عبد الهادى موسى البولاقى ١٣١٠هـ .
- ابن الطقطقى (العلوى) : محمد بن على بن طباطبا ، ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م .
١٠٨ - « الفخرى فى الأداب السلطانية والدول الإسلامية » ، طبع فى مدينة عز يفزولد سنة ١٨٥٨م .
- ابن ظفر (الصقلى) : محمد بن عبد الله المكى ، ت ٥٦٥هـ / ١١٧٠م .
١٠٩ - « سلوان المطاع فى عدوان الاتباع » ، مطبعة الدولة التونسية بتونس ١٢٧٩هـ .
- العباسى (ابن العباس) : الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر بن .. عبد الله بن العباس رضى الله عنه ت بعد سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م .
١١٠ - « آثار الأول فى ترتيب الدول » ، ألفه سنة ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م ، للسلطان المظفر ركن الدين بيبرس الثانى ، طبع بمطبعة بولاق ، بعناية محمد قاسم ، ١٢٩٥هـ .
- ابن العبرى (أبو الفرج) : غر يغوريوس بن هارون الملطى السريانى ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م .
١١١ - « مختصر الدول » ، طبع بيروت سنة
- العتبى (أبو نصر) : محمد بن عبد الجبار ت ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م .
١١٢ - « التاريخ اليمينى فى سيرة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى » ، اعتمدنا على شرح لهذا الكتاب للشيخ المنينى بعنوان « شرح اليمينى المسمى بالفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى » ، طبع بالمطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٦هـ .

- ابن العديم (كمال الدين) : عمر بن أحمد العقيلى الحلبى ت ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م .
١١٣ - « زبدة الحلب فى تاريخ حلب » ، تحقيق سامى الدهان (١ - ٣) مطبوعات المعهد العلمى الفرنسى بدمشق ١٣٧٠هـ - ١٣٧٣هـ / ١٩٥١م - ١٩٥٤م .
- ابن عذارى (أبو عبد الله) : محمد المراكشى الأندلسى ، ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م .
١١٤ - « البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب » ، طبع بيروت د. ت ، عن طبعة ج . س. كولان وا . ليفى بروفنسال .
- ابن عربى (محى الدين) : محمد بن على ، الشيخ الأكبر ، ت ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م .
١١٥ - « ديوان محى الدين بن عربى » ، طبع بولاق ١٢٧١هـ .
- ابن عساكر (الحافظ) : على بن الحسن بن هبة الله الدمشقى ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م .
١١٦ - « تبين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى » ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧هـ .
- العسكرى (أبو هلال) : الحسن بن عبد الله بن سهل بن يحى بن مهران ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م .
١١٧ - « كتاب الصناعتين » ، الكتابة والشعر ، تحقيق على البجاوى وأبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
- العماد (الأصبهانى) : محمد بن محمد ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م .
١١٨ - « الفتح القسى » ، فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة د. ت.
١١٩ - « خريدة القصر وجريدة العصر » . القسم الخاص بشعراء مصر (١ - ٢) ، تحقيق أحمد أمين وشوقى ضيف ، القاهرة ١٩٥١م . القسم الخاص بشعراء الشام ، تحقيق شكرى فيصل دمشق ١٩٥٥م، ١٩٥٩م ، ١٩٦٤م . القسم الخاص بشعراء العراق (١ - ٣) تحقيق محمد بهجة الأثرى ، بغداد ١٩٥٥م ، ١٩٦٤م ، ١٩٧٣م . القسم الخاص بشعراء المغرب والأندلس (١- ٣) تحقيق الجيلانى بن الحاج يحى وآخرون تونس ١٩٦٦م ، ١٩٧١م ، ١٩٧٣م .
- العمرى (شهاب الدين) : أحمد بن يحى بن فضل الله القرشى الدمشقى ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م .
١٢٠ - « التعريف بالمصطلح الشريف » ، مصر ١٣١٢هـ .
١٢١ - « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ، القاهرة ١٩٢٤م ، الجزء الأول ، تحقيق أحمد زكى باشا .
- ابن العميد (المكين) : جرجس بن العميد بن إلياس ، المعروف بالشيخ المكين ، ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م .
١٢٢ -« تاريخ المسلمين » ، بداه من بدء الإسلام إلى عصر الملك الظاهر بيبرس ، حقق منه كلود كاهين ، جزء صغير مبتور الأول ، تفادى فيه عصر صلاح الدين ، وبدأ النص من سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م فى عهد الملك العادل الأول ونشره بعنوان « أخبار الأيوبيين » ونشرها فى منشورات المجمع العلمى الفرنسى بدمشق .
- ابن عنين : محمد بن نصر الله الأنصارى الدمشقى ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م . تولى الكتابة والوزارة للملك المعظم عيسى الأيوبى بدمشق .
١٢٣ - « ديوان ابن عنين » تحقيق خليل مردم ، مطبعة دمشق ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م .

- الغزالى (حجة الإسلام) : محمد بن محمد ، أبو حامد ت ٥٠٥هـ / ١١١١م .
١٢٤ - « رسالة العقائد والوعظ » ، ألفها للسلطان ملكشاه السلجوقى ، تحقيق بدر الدين الحلبى ، ضمن مجموعة رسائل للغزالى ، ص ٦١ - ٧٩ ، بمكتبة الخانجى بمصر ، ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م .
١٢٥ - « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، ألفه أيضًا للسلطان ملكشاه السلجوقى بالفارسية طبع بالعربية بمصر سنة ١٣١٧هـ ، مطبعة الآداب والمؤيد .
١٢٦ - « فضائح الباطنية » ، تحقيق جولد تسيهر ، طبع ليدن ١٩١٦م ،
١٢٧ - « إحياء علوم الدين » ، طبع مرارًا بمصر عند الحلبى وغيره .
١٢٨ - « الاقتصاد فى الاعتقاد » ، طبع مصطفى الحلبى ، الطبعة الأخيرة ، د. ت.
١٢٩ - « المنقذ من الضلال » ، تحقيق عبد الحليم محمود ، طبع مصر ١٣٨٥هـ .
- ابن الفارض : عمر بن على ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م .
١٣٠ - « ديوان ابن الفارض » ، طبع بالقاهرة أكثر من مرة .
- الفارقى : (ابن الأزرق : المتوفى سنة ٥٩٠هـ) .
١٣١ - « تاريخ ميافارقين » ، وهو تاريخ محلى على السنين ، سبق ابن القلانسى فى ذيل تاريخ دمشق ، وقد توفى سنة ٥٥٥هـ ، ولحقه ابن العديم فى زبدة الحلب وقد توفى ٦٩٩هـ .
- أبو الفدا : إسماعيل بن على الأيوبى ، صاحب حماة ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م .
١٣٢ - « المختصر فى أخبار البشر » ،طبع بالقسطنطينية ١٢٨٦هـ ، أربعة أجزاء فى مجلدين .
١٣٣ - « تقويم البلدان » ، طبع باريس ١٨٤٠م .
- ابن الفرات (المصرى) محمد بن عبد الرحيم الحنفى ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م .
١٣٤ - « تاريخ ابن الفرات » ، نشر قسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٤٢م .
- ابن أبى الفضائل (القبطى) : المفضل بن أبى الفضائل القبطى المصرى ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م .
١٣٥ - « النهج السديد فى ذيل تاريخ ابن العميد » ، وهو يؤرخ للعصر المماليكى ، من عهد الملك الظاهر بيبرس ت ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م إلى عهد الناصر محمد بن قلاوون ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠م . طبع مع ترجمة فرنسية بعناية Blochet ، أنظر : Pat: or T, XII, Fasc. 3, Paris, 1911-1913
- ابن فضلان : أحمد بن فضلان بن العباسى بن راشد بن حماد ، كان حيًا سنة ٣٠٩هـ / ٩٢١م .
١٣٦ - « رسالة فى وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة » ، تحقيق سامى الدهان ، طبع دمشق ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .
- ابن الفوطى (كمال الدين) .
١٣٧ - « الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة » ، نشر بعناية محمد رضا الشبيبى ، بغداد ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م .
- القاضى (الفاضل) : عبد الرحيم البيسانى ، ت ٥٩٦هـ / ١١٩٩م .
١٣٨ - ديوان القاضى الفاضل ، (ج ١ - ٢) ، تحقيق أحمد أحمد بدوى ، مجموعة تراثنا ، القاهرة ١٩٦١م .

- ابن قلاقس (الإسكندرى) نصر الله بن عبد الله اللخمى ت ٥٦٧هـ / ١١٧٢م .
١٣٩ - « ديوان ابن قلاقس » ، تحقيق خليل مطران ، مطبعة الجوائب بمصر .
- القشيرى (أبو القاسم) : عبد الكريم بن هوازن النيسابورى ت ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م .
١٤٠ - « الرسالة القشيرية » ، طبعت بمصر ببولاق ١٢٨٤هـ ، ثم طبعت مرارًا .
- ابن القطان (أبو على) ق ٧هـ / ١٣م .
١٤١ - « نظم الجمان » ، تحقيق محمود على مكى ، طبع الرباط ، ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة محمد الخامس ، د. ت.
- القفطى (جمال الدين) : على بن يوسف ت ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م .
١٤٢ - « أنباء الرواه على أنباه النحاه » (١ - ٤) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .
١٤٣ - « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ، طبع فى ليبسك ١٩٠٣م ، وبمطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦هـ ، وقد اعتمدنا على الطبعة المصرية .
١٤٤ - « أخبار المحمدين من الشعراء » ، تحقيق حمد الجاسر ، بيروت ١٩٧٠م .
- ابن القلانسى (أبو يعلى) : حمزة بن أسد الدمشقى ، ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م .
١٤٥ - « ذيل تاريخ دمشق » ، نشر فى بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٨م .
- القلقشندى (أبو العباس) أحمد بن على ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م .
١٤٦ - « مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » ، تحقيق عبد الستار فراج ، (١ - ٣) ، الكويت ١٩٦٤م .
١٤٧ - « قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان » ، تحقيق إبراهيم الإبيارى القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .
١٤٨ - « صبح الأعشى » ، فى صناعة الإنشاء ، ١٤ جزء ، القاهرة ١٩١٣/ ١٣٣١هـ .
- ابن القيم (الجوزية) : محمد بن أبى بكر ، شمس الدين ت ٧٥١هـ / ١٣٥٠م .
١٤٩ - « الطرق الحكمية فى إصلاح الراعى والرعية » ، تحقيق محمد حامد الفقى ، القاهرة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م .
١٥٠ - « أحكام أهل الذمة » (ج ١ - ٢) . مطبعة جامعة دمشق ، ١٩٦١م .
- ابن كثير (عماد الدين) : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م .
١٥١ - « البداية والنهاية » ، وهو تاريخ حولى ضخم ، طبع بمطبعة السعادة بالقاهرة فى ١٤ مجلد .
- المالكى (البرمكى) : محمد بن هبة الله البرمكى ، الحموى الشافعى ، تاج الدين ، كان حيًا سنة ٥٧٧هـ .
١٥٢ - « حدائق الفصول وجواهر الأصول » ، وهى أرجوزة نظمها للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، وضمنها علم الكلام على أصول الإمام أبى الحسن الأشعرى ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .
- الماوردى (أبو الحسن) : على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م .
١٥٣ - « الأحكام السلطانية » ، تصحيح محمد عبد القادر ، مطبعة الوطن بمصر ١٢٩٨هـ .

١٥٤ – « أدب الوزارة » ، أو قوانين الوزارة ، نشر مكتبة الخانجى بمصر سنة

١٥٥ – « أدب الدنيا والدين » ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .

– ابن المجاور (النيسابورى) : بن محمد بن مسعود بن على ، كان حيًا سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م .

١٥٦ – « صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز » ، المعروف بـ « تاريخ المستبصر » ، تحقيق أوسكر لوفجرين ، ليدن ١٩٥١م .

– مجهول : (ق ٥ – ٦ هـ / ١١ – ١٢م) .

١٥٧ – « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس » ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ١٩٥٨م .

– مجهول : (ق ٦ – ٧ هـ / ١٢ – ١٣م) .

١٥٨ – « البستان الجامع » ، نشر كلود كاهين جزء منه ، فى حوليات المعهد العلمى الفرنسى بدمشق ، B.E.O. ، عدد ٧ – ٨ سنة ١٩٣٧ ص ١١٣ – ١٥٨ .

– مجهول : (كاتب مراكشى من كتاب ق ٦هـ / ١٢م) .

١٥٩ – « كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار » ، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب ، وقد نص صاحب هذه الرحلة فى رحلته أنه عاصر السلطان صلاح الدين الأيوبى والخليفة ابن عبد المؤمن الموحدى المغربى ، تحقيق سعد زغلوب عبد الحميد ، الإسكندرية ١٩٥٨م .

– مجهول :

١٦٠ – « إنشاءات القاضى الفاضل » ، تحقيق فتحية النبراوى ، القاهرة ١٩٨٠م .

– مجهول :

١٦١ – « بين أبى العلاء المعرى ، وداعى الدعاة الفاطمى » ، خمس رسائل نشرتها المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٩هـ .

– مجهول :

١٦٢ – « السجلات المستنصرية » ، تحقيق عبد المنعم ماجد ، القاهرة ١٩٥٤م .

– محى الدين (ابن عبد الظاهر) : على بن محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر المصرى ت ٧١٧هـ / ١٣١٧م .

١٦٣ – « الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم » ، تحقيق أحمد أحمد بدوى ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م .

– المراكشى (محى الدين) : عبد الواحد بن على التميمى ، المالكى ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م .

١٦٤ – « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

– المرتضى (الزبيدى) : محمد بن محمد الحسينى ، ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م .

١٦٥ – « ترويح القلوب فى ذكر ملوك بنى أيوب » ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٧١م .

– ابن مطروح (جمال الدين) : يحى بن عيسى ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م .

١٦٦ – ديوان ابن مطروح ، طبع بالقسطنطينية ، بعد ديوان العباس بن الأحنف ، ١٢٩٨هـ .

– المغربى (الوزير) : الحسين بن على ، أبو القاسم ت ٤١٨هـ / ١٠٢٧م .

١٦٧ – « كتاب فى السياسة » ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م .
– المغربى (ابن حيون) : النعمان بن أبى عبد الله ، التميمى ، أبو حنيفة ، القاضى ، قاضى وداعى الفاطميين ، ت ٣٦٣هـ / ٩٧٤م .
١٦٨ – « دعائم الإسلام » ، تحيق آصف فيضى ، القاهرة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .
– المقريزى (تقى الدين) : أحمد بن على ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م .
١٦٩ – « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، طبع دار الكتب ١٩٣٤م ؛ وصدرت بقية أجزائه تحت إشراف سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة .
١٧٠ – « اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفاء » ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨م ؛ ثم حققه محمد حلمى محمد أحمد ، (ج ١ – ٣) ، بالقاهرة ، ١٩٩٣هـ – ١٩٧٣م .
١٧١ – « كتاب الخطط المقريزية (١ – ٤) » ، طبع مطبعة النيل بمصر ١٣٢٤هـ ، ورجعنا أحيانًا لطبعة بولاق فى مجلدين .
١٧٢ – « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ، نشر زيادة والشيال ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧م .
١٧٣ – « شذور العقود فى ذكر النقود » ، نشر اوربا ١٧٩٧م .
١٧٤ – « خلاصة الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك » ، تحقيق جمال الدين الشيال ، مكتبة المقريزى الصغيرة ، القاهرة ١٩٦٠م .
١٧٥ – « البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب » ، نشرة وستفلد ، جوتنجن ، ١٨٤٧ ونشر بالقاهرة بتحقيق عبد المجيد عابدين .
– المالكى (البرمكى) : محمد بن هبة الله البرمكى ، الحموى الشافعى ، تاج الدين ، كان حيًا ٥٧٧هـ / ١١٨١م .
١٧٦ – « حدائق الفصول وجواهر الأصول » ، وهى أرجوزة نظمها للسلطان صلاح الدين الأيوبى ، وضمنها علم الكلام على أصول الإمام أبى الحسن الأشعرى ، طبع القاهرة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م .
– ابن مماتى (الأسعد) : أسعد بن المهذب بن مينا بن زكريا ، أبو المكارم ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م .
١٧٧ – « قوانين الدواوين » ، تحقيق عزيز سوريال عطية ، طبع الجمعية الزراعية المصرية ، مصر، ١٩٤٣م.
١٧٨ – « الفاشوشى فى حكم قراقوش » ، تحقيق ودراسة عبد اللطيف حمزة ، القاهرة ١٩٤٥ ، بعنوان « حكم قراقوش » . والطبعة الثانية ١٩٥٥م .
– ابن منجب (الصيرفى) : على بن منجب بن سليمان ، الشهير بابن الصيرفى ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م .
١٧٩ – « قانون ديوان الرسائل » ، تحقيق على بهجت ، مطبعة المواعظ بمصر ١٩٠٥م .
١٨٠ – « الإشارة إلى من نال الوزارة » ، تحقيق عبد الله مخلص ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى ، القاهرة ١٩٢٣م .
– المنذرى (الحافظ) : عبد العظيم بن عبد القوى ، أبو محمد ، زكى الدين ، ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م .
١٨١ – « كتاب التكملة لوفيات النقلة (١ – ٥) » ، تحقيق بشار معروف ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

- ابن منقذ (الشيزرى) : أسامة بن مرشد بن منقذ الكنانى الكلبى ، ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م .
١٨٢ - « ديوان أسامة بن منقذ » ، تحقيق أحمد أحمد بدوى ، القاهرة ١٩٥٣م .
١٨٣ - « كتاب الاعتبار » ، أو سيرة أسامة ، تحقيق فيليب حتى .
- النابلسى (علاء الديـن) : عثمـان بـن إبراهيـم بـن خـالد القرشى النابلسـى المصـرى الشـافعى ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م .
١٨٤ - « كتاب لمع القوانين المضية فى دواوين الديار المصرية » ، نشـرة كلـود كـاهين فـى حوليـات المعهـد الفرنسى للدراسات الشرقية بدمشق ، المجلد ١٦ ، سنة ١٩٥٨ - ١٩٦٠ ، ص ١٢٢ .
١٨٥ - « كتاب إظهار صنعة الحى القيوم فى تراتيب بلاد الفيوم » ، تحقيق مورتـز B. Moritz طبع المكتبة الخديوية بمصر ١٨٩٩م .
- ناصر خسرو علوى (الرحالة الفارسى الشهير) ق ٥هـ / ١١م .
١٨٦ - « سفر نامة » ، ترجمة يحى الخشاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م ، وطبعة بـيروت ١٩٧٠م .
- ابن النبيه (كمال الدين) : على بن محمد بن الحسن المصرى ت ٦١٩هـ / ١٢٢٢م .
١٨٧ - « ديوان ابن النبيه » ، شرح وتعليق عبد الله باشا فكرى ، طبع مصر ١٢٨٠هـ .
- ابن النديم (الوراق) : محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق البغدادى ت ٤٣٨هـ / ١٠٤٧م .
١٨٨ - « كتاب الفهرست » ، طبع المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٨هـ .
- النسوى (المنشىء) : محمد بن أحمد أو ابن عبد الواحد بن محمد ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م .
١٨٩ - « سيرة جلال الدين منكبرتى » ، تحقيق أحمد حافظ حمدى ، القاهرة ١٩٥٣م .
- نظام الملك (الطوسى) : الحسن بن على بن إسحاق ، الوزير السلجوقى ، ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م .
١٩٠ - « كتاب سياسة نامه » ، ترجمة السيد محمد العزاوى ، القاهرة ١٩٧٥م .
- النعيمى : عبد القادر بن محمد بن عمر بن نعيم الدمشقى ، ت ٩٢٧هـ .
١٩١ - « الدارس فى تاريخ المدارس » . (ج ١ - ٣) طبع دمشق ١٩٥٦م .
- النويرى (شهاب الدين) : أحمد بن عبد الوهاب البكرى الشافعى ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م .
١٩٢ - « نهاية الأرب فى فنون الأدب » (ج ١ - ١٩) ، طبع دار الكتب المصرية ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م .
- ابن واصل (الحموى) : محمد بن سالم بن نصر الله المازنى التميمى ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م .
١٩٣ - « مفـرج الكـروب فـى أخبـار بنـى أيـوب » ، ج ١ - ٣ ، تحقيـق جمـال الديـن الشـيال ، القـاهرة ١٩٥٣م ؛ ج ٤ - ٥ ، تحقيق حسنين ربيع ، القاهرة ١٩٧٢م .
- ابن وهب (الكاتب) ، إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الشيعى ، ت بعد سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م .
١٩٤ - « البرهان فى وجوه البيان » ، تحقيق مطلوب والحديثى ، بغداد ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- الوهرانى (ركن الدين) : محمد بن محمد بن محرز ت ٥٧٥هـ / ١١٧٩م .
١٩٥ - « منامات الوهرانى ، ومقاماته ورسائله » ، تحقيق إبراهيم شعلان ، محمد نغش ، القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م .

- ابن يحى (البيروتى) : صالح بن يحى بن الحسين ت ق ٩هـ / ١٥م .
١٩٦ - « تاريخ بيروت ، وأخبار الأمراء البحتريين » ، نشره لويس شيخو اليسوعى ، بيروت ، ١٩٢٧م .
- ابن أبي يعلى (الحنبلي) : محمد بن محمد بن الحسين ، ت ٥٢٦هـ / ١١٣١م .
١٩٧ - « الأحكام السلطانية » ، تحقيق حامد الفقى ، الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
- اليمانى (ابن أبي القبائل) : محمد بن مالك الحمادى ، ق ٥هـ / ١١م .
١٩٨ - « كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » ، تحقيق محمد زاهد الكوثرى ، طبع بذيل كتاب « التبصير » للأسفرانى ، القاهرة ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م ، وقد ورد اسم المؤلف فى النسخة المطبوعة ، ابن أبى الفضائل ، وهو تصحيف .
- اليمنى (عمارة) : نجم الدين ، أبو محمد عمارة بن أبى الحسن الحكمى ت ٥٦٩هـ / ١١٧٤م .
١٩٩ - « النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية » ، تحقيق درنبرغ بمدينة شالون ، ١٨٩٧م .
٢٠٠ - « ديوان عمارة اليمنى » ، تحقيق درنبرغ ، ١٩٠٢م .
٢٠١ - « ديوان اليمن » ، تحقيق كاى ، لندن ١٣٠٩ ، تحقيق حسن سليمان محمود بالقاهرة ١٩٥٧م .
- اليونينى (البعلبكى) : موسى بن محمد بن أحمد الحنبلى ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م .
٢٠٢ - ذيل مرآة الزمان ، طبع بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بالهند ، ١٣٤٧هـ / ١٩٥٤م ، فى أربعة أجزاء .

ثالثاً : المراجع العربية الحديثة :

- أرنولد (توماس) :
١ - « الدعوة إلى الإسلام » ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧١م .
- أمين (محمد محمد) :
٢ - « الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م » ، دار النهضة العربية بالقاهرة ، ١٩٨٠م .
٣ - « السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٨م .
- الباشا (حسن) :
٤ - « الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار » ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧م .
٥ - « الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية » (١ - ٣) ، القاهرة ١٩٦٥م .
٦ - « فن التصوير فى مصر الإسلامية » ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٦م .
- بدوى (أحمد أحمد) :
٧ - « الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام » ، القاهرة ١٩٥٢م .
٨ - « الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام » ، القاهرة ١٩٥٢ .
٩ - « مأمون بنى أيوب (المعظم عيسى) » ، القاهرة ١٩٥٣م .
١٠ - « القاضى الفاضل » دراسة ونماذج ، القاهرة ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م .

١١ – « صلاح الدين بين شعراء عصره وكتابه » ، القاهرة ١٩٦٠م .
– بيلى (أحمد) :
١٢ – « حياة صلاح الدين الأيوبى » ، القاهرة ١٩٢٦ (الطبعة الثانية) .
– بيومى (على أحمد) :
١٣ – « قيام الدولة الأيوبية » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة سنة ١٩٤٦م ، ونشرت بالقاهرة، ١٩٥٢م .
– تيمور (أحمد تيمور باشا) :
١٤ – « التذكرة التيمورية » ، معجم الفوائد ، ونوادر المسائل ، لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٣م .
– تامر (عارف) :
١٥ – « سنان وصلاح الدين » ، قصة تاريخية ، بيروت ١٩٥٦م .
– جروهمان (أدولف) :
١٦ – « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » ، (١ – ٦) ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين ، القاهرة ١٩٣٤م . وما بعدها .
– رجب (السيرها ملتون أ. جب) :
١٧ – « صلاح الدين الأيوبى » ، دراسات فى التايخ الإسلامى ، حررها يوسف إيبش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٣م .
أبو حديد (محمد فريد) :
١٧ مكرر – « صلاح الدين الأيوبى البطل الذى انتصر على الغرب » ، كتاب الهلال ، العدد ٨٧ ، ذو القعدة ١٣٧٧هـ / يونيه ١٩٥٨م .
– الحلبى (داود) :
١٨ – « كتاب مخطوطات الموصل » ، مطبعة الفرات ببغداد ، ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م .
– حسن (على إبراهيم) :
١٩ – « مصر فى عصر دولة المماليك البحرية » ، القاهرة ١٩٦٧م .
– حسنى (فوزى نجيب) :
٢٠ – « صلاح الدين وتوحيد الجبهة الإسلامية زمن الصليبيين » ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٥٩م .
– حسين (محمد كامل) :
٢١ – « دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين » ، القاهرة ١٩٥٧م .
٢٢ – « فى أدب مصر الفاطمية » ، القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .
٢٣ – « أدب مصر الإسلامية » (عصر الولاة) ، د. ت.
– حسين (محمد أحمد) :
٢٤ – « الوثائق التاريخية » ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٤م .
– حلمى (عباس اسماعيل) :
٢٥ – « السياسة الداخلية للسلطان الملك العادل الأيوبى » ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٤٣م .

٢٦ - « السياسة الداخلية للدولة الأيوبية فى مصر » ، بعد السلطان العادل ، رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٥٥م .

- حمزة (عبد اللطيف) :

٢٧ - « صلاح الدين » ، القاهرة ١٩٤٤م ؛ ثم طبع بالقاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٧٣م .

٢٨ - « حكم قراقوش » ، القاهرة.١٩٤٥م .

٢٩ - « أدب الحروب الصليبية » ، القاهرة ١٩٤٩م .

٣٠ - « الحياة الفكرية فى مصر ، فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول » ، القاهرة ١٩٤٧م .

٣١ - « القلقشندى فى كتابة صبح الأعشى » ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

- حميد الله (محمد الحيدر آبادى) :

٣٢ - « مجموعة الوثائق السياسية » ، للعهد النبوى والخلافة الراشدة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م .

- حسن (حسن إبراهيم) :

٣٣ - « النظم الإسلامية » ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

- دراج (أحمد) :

٣٤ - « المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى / ١٥م » ، دار الفكر العربى ١٩٦١م .

٣٥ - « وثائق دير صهيون بالقدس الشريف » ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٨م .

- دسوقى (عمر) :

٣٦ - « الفتوة عند العرب » ، القاهرة ، د. ت.

- دقش (محمد محمود على) :

٣٧ - « الكتابة الديوانية بمصر فى عصر الدولة الأيوبية » ، رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٧٣م.

- ربيع (محمد حسنن) :

٣٨ - « النظم المالية فى العصر الأيوبى » ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ، ونشرت بالقاهرة ١٩٦٤م .

- الرمزى (م) :

٣٩ - « تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار ، فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار » ، طبع سنة ١٩٠٨م .

- الريس (محمد ضياء الدين) :

٤٠ - « النظريات السياسية الإسلامية » ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ١٩٥٧م .

٤١ - « الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية » ، الطبعة الثانية ، ١٩٦١م .

- زامباور (المستشرق) :

٤٢ - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٢م .

- زياده (محمد مصطفى) :
٤٣ - « حملة لويس التاسع على مصر، وهزيمته فى المنصورة » ، القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .
٤٤ - « المؤرخون فى مصر ، فى القرن الخامس عشر الميلادى ، التاسع الهجرى » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٤م .
- زيان (حامد غانم) :
٤٥ - « العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبى (أسرة شيخ الشيوخ) » القاهرة ١٩٧٨م .
- سالم (سيد عبد العزيز) :
٤٦ - « تاريخ مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى » ، الطبعة الأولى ، الثانية ١٩٦٩م .
٤٧ - « تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام » ، بيروت ١٩٧١ (بالاشتراك) .
- سعد (سامى سلطان) :
٤٨ - « أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية » ، من سنة ١١٠٠ إلى ١٤٠٠م ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٥٨م .
- سعداوى (نظير حسان) :
٤٩ - « نظام البريد فى الدولة الإسلامية » ، القاهرة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م .
٥٠ - « التاريخ الحربى المصرى فى أيام صلاح الدين » ، رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٥١م ، ونشرت ١٩٧٥م .
٥١ - « جيش مصر فى أيام صلاح الدين » ، القاهرة ١٩٥٦م .
- سلام (سعد زغلول) :
٥٢ - « الأدب فى عصر صلاح الدين » ، القاهرة ١٩٥٩م .
٥٣ - « الأدب فى العصر الأيوبى » ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٩٠م ، ص ٥٩٦ .
- سليمان (أحمد السعيد) :
٥٤ - « تاريخ الدول الإسلامية ، ومعجم الأسرات الحاكمة » ، دار المعارف بمصر ١٩٧٢م .
- سيد (أحمد فؤاد) :
٥٥ - « نظم الحكم والإدارة فى العصر الأيوبى بمصر (٥٦٧هـ - ٦٤٨هـ) » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بكلية الآداب جامعة عين شمس ، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- سيد الأهل (عبد العزيز) :
٥٦ - « صلاح الدين الأيوبى » ، طبع القاهرة ١٩٦٠م ، مطبوعات المجلس الإسلامى الأعلى بالقاهرة ، لجنة التعريف بالإسلام ، طبع بالمكتب التجارى ببيروت ١٩٦١م ، ص ٢٥٩ .
- شافعى (على بك) :
٥٧ - « رى الفيوم كما وصفه النابلسى (٦٤٢هـ / ١٢٤٥م) » ، ومعه مذكرة عن رى الفيوم الحالى ، وعن بحيرة مورس ، مطبعة مصر ١٩٤٠م .

- شافعي (فريد) :
٥٨ - « العمارة العربية فى مصر الإسلامية » ، عصر الولاة ، القاهرة ١٩٧٠م .
- شلتوت (محمود) :
٥٩ - « من توجيهات الإسلام » ، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .
- الشيال (محمد جمال الدين) :
٦٠ - « جمال الدين بن واصل » ، وكتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، رسالة دكتوراه لم تطبع ، نوقشت بجامعة الإسكندرية .
٦١ - « مصر والشام بين دولتين » ، القاهرة ، ١٩٤٥م .
٦٢ - « مجمل تاريخ دمياط » ، الإسكندرية ، ١٩٤٩م .
٦٣ - « الإسكندرية » ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، القاهرة ١٩٥٢م .
٦٤ - « مجموعة الوثائق الفاطمية » ، القاهرة ١٩٥٨م .
٦٥ - « أعلام مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى » ، القاهرة ١٩٦٥م .
٦٦ - « دراسات فى التاريخ الإسلامى » ، بيروت ١٩٦٦م .
٦٧ - « تاريخ مصر الإسلامية » ، القاهرة ١٩٦٧م .
- صبرة (عفاف سيد) :
٦٨ - « ديوان الإنشاء وتطوره فى عصر الأيوبيين والمماليك » ، مع تحقيق مخطوط البرد الموشى فى صناعة الإنشا للموصلى ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ١٩٧١م .
- صفوت (أحمد زكى) :
٦٩ - « جمرة رسائل العرب » ، طبع الحلبى ، القاهرة ١٩٣٧م .
- طرخان (إبراهيم على) :
٧٠ - « النظم الإقطاعية فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى » ، دار الكاتب العربى ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
٧١ - « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
- عاشور (سعيد عبد الفتاح) :
٧٢ - « المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك » ، القاهرة ١٩٦٢م .
٧٣ - « الحركة الصليبية (١ - ٢) » ، القاهرة ١٩٦٣م ؛ ثم طبع مرة أخرى ١٩٨٦م .
٧٤ - « مصر فى عصر دولة المماليك البحرية » ، القاهرة ١٩٥٩م .
٧٥ - « الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام » القاهرة ، ١٩٧٠م .
٧٦ - « العصر المماليكى فى مصر والشام » ، ١٩٧٦م .
- العبادى (أحمد مختار) :
٧٧ - « قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام » ، بيروت ١٩٦٩ .

٧٨ - « تاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام » ، بيروت ١٩٧١ (بالاشتراك) .
- عبد العاطى (عبد الغنى محمود) :
٧٩ - « التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك » ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٧٥م .
- عبد الكريم (دولت عبد الله) :
٨٠ - « الخوانق فى مصر فى العصرين الأيوبى والمماليكى » ، رسالة دكتوراه ، نوقشت بكلية الآثار ، ١٩٧٣م .
- عبد الوهاب (حسن) :
٨١ - « تاريخ المساجد الأثرية » ، جزءان ، القاهرة ١٩٤٦م .
٨٢ - « جامع السلطان حسن وما حوله » ، المكتبة الثقافية رقم ٥٦ ، سنة ١٩٦٢م .
- العرينى (السيد الباز) :
٨٣ - « مصر فى عصر الأيوبيين » ، القاهرة ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م .
٨٤ - « مؤرخو الحروب الصليبية » ، القاهرة ١٩٦٣م .
- العزاوى (عباس) :
٨٥ - « التعريف بالمؤرخين ، فى عهد المغول والتركمان » ٦٠١هـ - ١٢٠٤م / ٩٤١هـ - ١٥٣٤م ، طبع ببغداد ، ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م .
- عطا (زبيدة محمد) :
٨٦ - « الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٦٩م .
- عطية (سليمان إسحاق) :
٨٧ - « تاريخ التعليم فى فلسطين من الفتح العربى إلى آخر الأيوبيين » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة ، ١٩٥٣م .
- العقاد (عباس محمود) :
٨٨ - « الديمقراطية فى الإسلام » ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٠م .
٨٩ - « أثر الحضارة العربية فى الحضارة الأوربية » ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٢م .
- علوبه (محمد على باشا) :
٩٠ - « الإسلام والديمقراطية » ، نشر لجنة البيان العربى ، القاهرة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .
- على (محمد كرد على) :
٩١ - « أمراء البيان » ، طبع سنة ١٩٣٧م .
٩٢ - « الإدارة الإسلامية فى عز الغرب » ، طبع
- عمران (محمود سعيد) :

٩٣ - « الحملة الصليبية الخامسة » ، حملة جان دى برين على مصر ، ٦١٥ - ٦١٨هـ / ١٢١٨ - ١٢٢١م ، الهيئة العامة للكتاب، فرع الإسكندرية ١٩٧٨م .
- عنان (محمد عبد الله) :
٩٤ - « مصر الإسلامية » ، القاهرة ١٩٣١م .
٩٥ - « مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى » ، القاهرة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م .
- عنبر (أحمد محمد) :
٩٦ - « جولة مع ضياء الدين بن الأثير ، فى كتابه المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » ، القاهرة ١٩٥٤م .
- غنيمة (محمد عبد الرحيم) :
٩٧ - « مقدمة لتاريخ التعليم الجامعى فى الإسلام » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٥٣م .
- فكرى (أحمد) :
٩٨ - « مساجد القاهرة ومدارسها » ، الجزء الثانى ، العصر الأيوبى ، دار المعارف بمصر ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م .
- فهمى (عبد الرحمن) :
٩٩ - « النقود العربية ماضيها وحاضرها » ، المكتبة الثقافية ١٠٣ ، القاهرة فبراير ١٩٦٤م .
- القوصى (عطية أحمد محمود) :
١٠٠ - « بنو الكنز » ، دراسة تاريخية ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة القاهرة ١٩٧٠م .
- كانار (ماريوس) :
١٠١ - « نخب تاريخية وأدبية ، جامعة لأخبار الأمير سيف الدولة الحمدانى » ، طبع الجزائر ، ١٩٣٤م .
- كازانوفا (بول) :
١٠٢ - « تاريخ ووصف قلعة الجبل » ، ترجمة أحمد دراج ، القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
- الكتانى (عبد الحى الفاسى) :
١٠٣ - « كتاب التراتيب الإدارية ، والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية ، التى كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية فى المدينة العلية » ، (١ - ٣) طبع الرباط ١٣٤٦هـ .
- الكرملى (إنستاس مارى) :
١٠٤ - « النقود العربية وعلم النميات » ، القاهرة ١٩٣٩م .
- كرويزويل (ك . م) :
١٠٥ - « وصف قلعة الجبل » ، ترجمة جمال محرز ، القاهرة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
- كوبرلى (محمد فؤاد) :
١٠٦ - « قيام الدولة العثمانية » ، دار الكاتب العربى ، ١٩٦٧م .
- كيلانى (محمد سيد) :

١٠٧ – « الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام » ، القاهرة ١٩٤٩م .
– لسترنج (المستشرق) :
١٠٨ – « بلدان الخلافة الشرقية » ، طبع بغداد ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .
– ماجد (عبد المنعم) :
١٠٩ – « نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر (١ – ٢) » ، الأنجلو المصرية ١٩٥٣م .
١١٠ – « نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر » (١ – ٢) ، الأنجلو المصرية ١٩٦٤م .
١١١ – « ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر » ، دار المعارف بالأسكندرية ١٩٦٨م .
١١٢ – « الناصر صلاح الدين الأيوبى » ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧م .
– متز (آدم) :
١١٣ – « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ، ترجمة أبو ريدة ، القاهرة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م .
– متولى (عبد الحميد) :
١١٤ – « مبادىء نظام الحكم فى الإسلام مع مقارنته بالمبادىء الدستورية الحديثة » ، دار المعارف بالأسكندرية ١٩٦٥م .
١١٥ – « أزمة الفكر السياسى الإسلامى فى العصر الحديث » ، المكتب المصرى الحديث ، ١٩٧٠م .
– محرز (جمال محمد) :
١١٦ – « التصوير الإسلامى ومدارسه » ، المكتبة الثقافية ، مايو ١٩٦٢م .
– محمود (رزق محمود) :
١١٧ – « العلاقات بين أرناط أمير الكرك وصلاح الدين الأيوبى » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة عين شمس ، ١٩٧٣م .
– مرزوق (محمد عبد العزيز) :
١١٨ – « الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى » ، المكتبة الثقافية ، رقم ٣٠ ، مارس ١٩٦٣م .
– المصرى (جابر سلامة) :
١١٩ – « الزراعة فى مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك » ، رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة ، ١٩٧٥م .
– موسى (إقبال بن علاوة) :
١٢٠ – « الحسبة فى المغرب مع بعض نصوص خاصة بها » ، رسالة ماجستير ، نوقشت بجامعة عين شمس ، ١٩٦٨م .
– نصار (حسين) :
١٢١ – « نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى » ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦م .
– وافى (على عبد الواحد) :
١٢٢ – « حقوق الإنسان فى الإسلام »، دار نهضة مصر ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٩م.

رابعًا : مقالات بالمجلات والدوريات العربية :

- إبراهيم (عبد اللطيف) :

١ - « الوثائق فى خدمة الآثار » ، العصر المماليكى ، سلسلة الدراسات الوثائقية ، (١) ، جامعة الدول العربية ، الإدارة الثقافية ، طبع القاهرة ١٩٥٨م ، ص ٢٠٥ - ١٧٨.

- الأثرى (محمد بهجة) :

٢ - « كاتب الدولتين النورية والصلاحية » ، (العماد الأصفهانى) ، مجلة المجمع العلمى العراقى ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م ، ص ١٦ - ٣٤ .

- أمين (أحمد) :

٣ - « الفتوة فى الإسلام » ، مجلة كلية الآداب ، المجلد السادس ، الجزء الأول ، مايو ١٩٤٢م ، الطبعة الثانية ١٩٥٣ ، ص ١ - ٢١ .

- باقى (واصف) :

٤ - « القدس وصلاح الدين » ، مقال بمجلة منار الإسلام ، العدد ٧ ، رجب ١٤١٣هـ ، يناير ١٩٩٣م ، ص ١٠٦ - ١١٠ .

- البحيرى (صلاح) :

٥ - « ديوان الجيش فى الدولة الأيوبية » ، الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٦ - ١٩٧٧ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ١٦٩ - ١٩٠ .

- البرصان (أحمد) :

٦ - « البعد الاستراتيجى عند صلاح الدين الأيوبى » ، مقال بمجلة الفيصل ، العدد ٩٩ ، رمضان ١٤٠٥هـ يونيو ١٩٨٥م ، ص ١٣٩ - ١٤١ .

- بركات (وفيق) :

٧ - « صفحات مشرقة من تراثنا البحرى : الأسطول البحرى فى الفكر العسكرى للناصر صلاح الدين الأيوبى » ، مقال بمجلة التراث العربى ، العدد ٣٥ - ٣٦ ، رمضان - ذو الحجة ١٤٠٩هـ / إبريل يوليو ١٩٨٩م ، ص ١١٧ - ١٣٨م .

- برهان (العابد) :

٨ - « أرناط الفارس اللص » ، مقال بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١١٩ - ١٢٠ ، محرم - صفر ١٤٠٩هـ / سبتمبر أكتوبر ١٩٨٨م ، ص ١٢ - ٢٣ .

- البوزيدى (علال) :

٩ - « صلاح الدين الأيوبى المثل الأعلى فى البطولة والخُلق العظيم ، مقال بمجلة المجلة العربية ، العدد ٩٥ ذو الحجة ١٤٠٥هـ / سبتمبر ١٩٨٥م ، ص ١١٣ .

- البيومى (محمد رجب) :

١٠ - « عماد الدين زنكى » ، مقال بمجلة الأزهر ، العدد ١٨ ، ربيع الآخر ١٣٧٤هـ / ديسمبر ١٩٥٤م ، ص ٤٥٣ - ٤٥٦ .

- تيمور (أحمد) :

١١ - « تفسير الألفاظ العباسية فى نشوار المحاضرة »، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق، ج ١١، ج ٢ ، ١٣٤١ / ١٩٢٢م .

- جاكسون (دافيد) :

١٢ - « صلاح الدين : معركة حطين والاستيلاء على القدس (وجهة نظر) » ، مقال بالكتاب التذكارى : ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والدور العربى المشترك ، القاهرة ، دار الشروق ، ١٤٠٩، ١٩٨٩م ، ٨٥ - ٩٣ .

- الجنحانى (الحبيب) :

١٣ - « حطين رمز الوحدة والتحرر » ، مقال بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٠٥ - ١٠٦ ، ذو القعدة - ذو الحجة ١٤٠٧هـ تموز - أب ١٩٨٧م ، ص ٤١ - ٤٧ .

١٤ - « حطين رمز الوحدة والتحرر » ، مقال بمجلة المؤرخ العربى ، العدد ٣٩ ، ١٤٠٩ - ١٩٨٩م ، ص ١٧٧ - ١٨٥ .

- حسن (زكى محمد) :

١٥ - « قلعة الجبل » ، مجلة الكتاب ، القاهرة ، أكتوبر ١٩٤٦ ، ٨٧٣ - ٨٨٢ .

- حسن (على إبراهيم) :

١٦ - « آراء فى تاريخ دولة المماليك البحرية » ، بحث فى مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد السابع ، ١٩٤٤م .

- حسن (محمد عبد الغنى) :

١٧ - « والد الملوك الأيوبية » ، مجلة الرسالة ، السنة التاسعة ، ص ٩٩١ ، وتعقيب لجمال الدين الشيال ، السنة التاسعة من الرسالة أيضًا ، ص ١٠٧٩ - ١٠٨٠ .

- حسين (محمد الخضر) :

١٨ - « الشعر المصرى فى عهد الدولة الأيوبية » ، مجلة الهداية الإسلامية ، المجلد التاسع ، الجزء السادس ، ذى الحجة ١٣٥٥هـ - فبراير ١٩٣٧م ، ص ٣٢١ - ٣٣١ .

- الحسينى (الأمير جعفر) :

١٩ - « مظاهر الحضارة الإسلامية فى دمشق وحلب » ، أبحاث مؤتمر الآثار فى البلاد العربية المنعقد فى دمشق ١٩٤٧م ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٤٨م ، ص ٥٧ - ٦٧ .

- حمدى (أحمد ممدوح) :

٢٠ - « الطراز الأيوبى فى مصر » ، جامعة الدول العربية ، الإدارة الثقافية ، المؤتمر الخامس للآثار فى البلاد العربية ، ١٩٦٩م ص ٨٠٩ - ٨٢١ .

- الخشاب (يحى) :
٢١ - « ضبط وتحقيق الألفاظ الاصطلاحية التاريخية الواردة فى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى » (بالاشتراك مع الباز العرينى) ، المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٥٨م ، المجلد السابع ، ص ١٦١ - ٣١٢ .
- دار الشروق :
٢٢ - « ملامح خطة صلاح الدين العسكرية لتحرير القدس » ، مقال نشر بالكتاب التذكارى : ٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والعمل العربى المشترك ، دار الشروق ، القاهرة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م ، ص ١١١ - ١٢٧ .
- دراج (أحمد) :
٢٣ - « الوثائق العربية المحفوظة فى دور الأرشيف الأوربية » ، (مصر الإسلامية) ، مقال ضمن أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ١٩٦٩، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٠م .
- الدسوقى (محمد كمال) :
٢٤ - « أهمية الحجاز فى مطلع العصور الحديثة » ، مقال بمجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة ، العدد ٣ ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م ، ص ٣٩٧ - ٤٣٠ .
- ربيع (حسنين) :
٢٥ - « نشر ودراسة حجة تمليك ووقف مؤرخة سنة ٦٤٩هـ ومحفوظة بمحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة » ، محفظة رقم ١ ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٦٤ ، ١٩١ - ٢٠٢ .
- رشيد (ناظم) :
٢٦ - « الأدب عند بنى أيوب » ، مجلة المورد العراقية ، المجلد الخامس ، العدد الثالث ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، ص ٣٥ - ٤٠ .
- رضا (محمد رشيد) :
٢٧ - «ذكرى صلاح الدين ومعركة حطين» ، مقال بمجلة المنار ، مصر ، العدد ٨ ، جمادى الأولى ١٣٥١هـ - سبتمبر ١٩٣٢م ص ٥٩٣ - ٦٠٦ .
- زكار (سهيل) :
٢٨ - « وقائع معركة حطين » ، مقال بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٠٥ - ١٠٦ ، ذو القعدة - ذو الحجة ١٤٠٧هـ - تموز - أب ١٩٨٧م ، ص ٧٠ - ٨١ .
- زكى (عبد الرحمن) :
٢٩ - « العمارة العسكرية فى العصور الوسطى بين العرب والصليبيين » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع ، ١٩٥٨ ، ص ١٠٦ - ١٣٣ .
٣٠ - « القلاع فى الحروب الصليبية » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس عشر ١٩٦٩ ، ص ٤٩ - ٩٧ .
٣١ - « مدارس الدين فى أيام الأيوبيين » ، مجلة منبر الإسلام ، السنة ٢١ ، العدد الأول ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م . ص ١٦١ - ١٦٤ .

٣٢ - « نشأة القاهرة وامتدادها في أيام الأيوبيين » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثامن عشر ، ١٩٧١م . ص ١١١ - ١٦٠ .

٣٣ - « نقد لكتاب الاستيلاء على دمياط » ، للمؤرخ الصليبي اللاتيني ، أليفر ، الذي صاحب الحملة الصليبية الـ ٥ على مصر سنة ٦١٤هـ . المجلة التاريخية المصرية المجلد الثالث العدد الأول ، مايو ١٩٥٠ ، ٢٤٦ - ٢٤٩ .

- أبو زهرة (محمد) :

٣٤ - « الاقتصاد الإسلامي » ، سلسلة مقالات في مجلة رسالة الإسلام ، السنة الحادية عشر ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٩م ، العدد الأول ، ص ٢٣ - ٣٦ ، العدد الثاني ، ص ١٢٠ - ١٤٠ ، الرابع ، ص ٣٦٠ ، ٣٧٢ ... إلخ .

٣٥ - « محاضرات في الوقف » ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٥٩م .

- زيادة (محمد مصطفى) :

٣٦ - « الدولة الأيوبية » ، مقال في كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » ، العصر اليوناني والروماني والإسلامي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، د. ت ، ج ٢ ، ص ٤٥٨ - ٤٨٠ .

٣٧ - « ديوان الزكاة » ، مقال بمجلة الثقافة ، العدد ٢١١ ، يناير ١٩٤٣م .

٣٨ - « نقد لكتاب مؤلف الطرسوسي في التاريخ الحربي على عهد الأيوبيين » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثاني ، العدد الأول ، ١٩٤٩ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .

٣٩ - « نقد لكتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » ، تحقيق جمال الدين الشيال ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، ١٩٥١ ، ص ٢٥٢ - ٢٥٧ .

٤٠ - بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك » ، مجلة كلية الأداب - جامعة فؤاد الأول ، المجلد الرابع ، الجزء الأول ١٩٣٦ ، الطبعة الثانية ١٩٥٣م ، ص ٧١ - ٨٨ .

٤١ - « يوم حطين » قال بمجلة العربي ، الكويت ، العدد ٥٩ ، جمادى الأولى ١٣٨٣هـ - أكتوبر ١٩٦٣م، ص ٣٦ ، ٤٦ .

- السباعي (مصطفى حُسني) :

٤٢ - « صلاح الدين » ، مقال بمجلة المسلمون ، العدد ٣ ، شوال سنة ١٣٧٧هـ - آيار سنة ١٩٥٨م . ص ١ - ١٠ .

- سليمان (حسين) :

٤٣ - « نبذة تاريخية عن معركة حطين : الرمز والعظة ومدخل التحرير » ، مقال بمجلة لواء الإسلام ، العدد ٣ ، شوال سنة ١٣٩٩هـ - سبتمبر سنة ١٩٧٩م ، ص ٤١ - ٤٥ .

- شبكة (محمود محمد) :

٤٤ - « من أدَب الحروب الصليبية » ، مقال بمجلة الأزهر ، العدد ٦ ، شعبان سنة ١٣٩٢م - سبتمبر سنة ١٩٧٢م ، ص ٥٧٦ - ٥٨١ ، ٥٨٤ .

- الشبيبي (محمد رضا) :
٤٥ - « الألفاظ الأيوبية فى كتاب تقويم النديم » ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثامن ، مطبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٥٥م ، ٣٤٠ - ٣٤٤ ، ونشر نفس المقال فى مجلة الرسالة العدد ٩١٦ ، بتاريخ ١٩٥١/١/٢٢م .
- شراب (محمد حسن) :
٤٦ - « القاضى الفاضل الوزير الناصح والعقل الراجح » ، مقال بمجلة الحرس الوطنى ، العدد ٨٩ ، رجب سنة ١٤١٠ هـ - فبراير سنة ١٩٩٠م ص ٣٩ - ٤١ .
- شعث (شوقى) :
٤٧ - « الجيش العربى الإسلامى فى عصر موقعة حطين ووسائل الإسناد الأخرى » ، مقال بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١١١ - ١١٢ جمادى الأولى وجمادى الثانية سنة ١٤٠٨هـ - يناير وفبراير سنة ١٩٨٨م ص ٤٤ - ٥٤ .
٤٨ - القدس الشريف بين احتلالين ... » ، مقال بمجلة المنهل ، العدد ٤٦٢ ، شعبان سنة ١٤٠٨هـ - إبريل سنة ١٩٨٨م ص ١٠٩ - ١١٣ .
- شمس الدين (وجيه) :
٤٩ - « حطين وصلاح الدين وأولى القبلتين » ، مقال بمجلة الموقف ، لبنان ، العدد ٧٧ ، ذو القعدة سنة ١٤١١هـ يونيو سنة ١٩٩١م . ص ٤٠ - ٤٣ .
- الشيال (جمال الدين) :
٥٠ - « شاعر من البيت الأيوبى » ، تاج الملوك بورى ، مقال بمجلة الثقافة ، العدد ١٣٠ ، ٢٤ يونيو ١٩٤١م .
٥١ - « نظام الوزارة فى العصر الفاطمى » ، مقال بمجلة الثقافة العدد ٦٣٨ ، ١٩ مارس ١٩٥١م .
٥٢ - « الجاسوسية فى حروب بنى أيوب » ، دراسات فى التاريخ الإسلامى ، بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م ، ص ٧٣ - ٧٨ .
٥٣ - « طريقة مسح الأراضى وتقدير الخراج فى مصر الإسلامية » ، مجلة الثقافة ، السنة الثانية ، العدد ٩٧ ، ١٩٤٠م .
- صبره (عفاف سيد) :
٥٤ - « بهاء الدين قراقوش الوزير المُفترى عليه » ، مقال بمجلة الدارة ، العدد ٢ ، محرم سنة ١٤٠٨هـ - أغسطس سنة ١٩٨٧هـ ، ص ١٣٦ - ١٨١ .
- الصعيدى (عز الدين) :
٥٥ - « صوت من الماضى إلى الحاضر » ، مقال بمجلة المختار الإسلامى ، العدد ٧٦ ، شوال سنة ١٤٠٩هـ - مايو ١٩٨٩م ، ص ٥٢ - ٥٣ .
- طرخان (إبراهيم على) :
٥٦ - « الإقطاع الإسلامى، أصوله وتطوره ، دراسة مقارنة » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السادس ، ١٩٥٧ ، ص ٤٧ - ٧٦ .

- الطيان (سعيد) :
٥٧ - « موقعة حطين : دراسة عسكرية » : مقال بمجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد ١٠٥ - ١٠٦ ، ذو القعدة - ذو الحجة سنة ١٤٠٧هـ - تموز - آب ١٩٨٧م ، ص ٣٤ - ٤٠ .
- عابدين (محمد صبرى) :
٥٨ - « الأردن فى أيام الحروب الصليبية » ، مقال بمجلة الأزهر ، العدد ١ ، محرم سنة ١٣٧٣هـ - سبتمبر ١٩٥٣م ، ص ٥٩ - ٦٢ .
- عارف (محمود) :
٥٩ - « من أعلام البطولة والقيادة فى الإسلام : صلاح الدين الأيوبى » : مقال بمجلة المنهل ، العدد ١٠ - ١١ ، ذو القعدة - ذو الحجة سنة ١٣٧١هـ = يوليو - أغسطس سنة ١٩٥٣م ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ .
- عاشور (سعيد عبد الفتاح) :
٦٠ - « البنية البشرية لجيوش صلاح الدين » ، مقال بمجلة المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد ٣٧ ، سنة ١٩٩٠م ، ص ٨ - ٣١ .
٦١ - « الفلاح والإقطاع فى عصر الأيوبيين والمماليك » ، الموسم الثقافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢١١ - ٢٢٤ .
٦٢ - « الإمبراطور فردريك الثانى والشرق العربى » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الحادى عشر ، ١٩٦٣ ، ص ١٩٥ - ٢١٣ .
- عاشور (فايد) :
٦٢ مكرر - « الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين » ، مقال بمجلة الأمة ، قطر ، العدد ٤٦ ، شوال سنة ١٤٠٤هـ / يوليو سنة ١٩٨٤م ، ص ٤٦ .
- العبادى (عبد الحميد) :
٦٣ - « كتب الحسبة وفائدتها فى وضع المعجمين الوسيط والكبير » ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثامن ، مطبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٥٥م ، ص ٤٢٢ - ٤٢٧ .
- عبد الحق (عادل سليمان) :
٦٤ - « مدرج مسرح بصرى وقلعتها » ، المؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية ، تونس ١٩٦٣م ، ص ٢٦٥ - ٢٩٨ .
- عبد الحميد (سعد زغلول) :
٦٥ - « العلاقة بين صلاح الدين ، وأبى يوسف يعقوب » ، مجلة كلية الأداب بالإسكندرية ١٩٥٣م .
- عبد الحى (سعيد) :
٦٦ - « صلاح الدين شخصية فى سطور » ، مقال بمجلة الأزهر ، العدد ٧ ، رجب سنة ١٤٠١هـ - مايو ١٩٨١م ، ص ١٣٣١ - ١٣٣٣ .
- عبد المنعم (محمد فيصل) :
٦٧ - « قائد ومعركة : القائد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى » ، مقال بمجلة الحرس الوطنى ، العدد ٢ ، شوال سنة ١٤٠٠هـ - أغسطس سنة ١٩٨٠م ص ١٢٠ - ١٢٦ .
٦٨ - « الملك مظفر الدين كوكبرى الذئب الأزرق » ، مقال بمجلة الحرس الوطنى ، العدد ٩ رجب سنة ١٤٠٣هـ - إبريل سنة ١٩٨٣ ، ص ١٠٠ - ١٠٣ ، وعدد ١٠ ، شوال سنة ١٤٠٣هـ - يوليو سنة ١٩٨٣م ، ص ١٦ - ١٨ .

- عبد الوهاب (حسن) :
٦٩ - « العمارة الإسلامية » ، العصر الأيوبى ، مجلة العمارة ، العدد ٧ ، ٨ ، سنة ١٩٤٠م .
٧٠ - « العمارة الإسلامية » ، عصر المماليك البحرية ، مجلة العمارة ، العدد ٩ ، ١٠ ، سنة ١٩٤٠ .
٧١ - « من روائع العمارة الإسلامية فى مصر والشام » ، جامعة الدول العربية ، المؤتمر الرابع للآثار فى البلاد العربية ، ١٩٦٣م ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥م ، ص ٢٩٨ - ٣٢٠ .
٧٢ - « الإسكندرية فى العصر الإسلامى » ، مجلة الكتاب ، السنة الثانية ، المجلد الثالث ، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م ، ص ٣٧٩ - ٣٩٣ .
٧٣ - « مميزات العمارة الإسلامية فى القاهرة » ، مؤتمر الآثار فى البلاد العربية ، سنة ١٩٤٧م ، ص ١٧٩ - ١٨١ .
٧٤ - « الدولة الأيوبية وعمارتها » ، مجلة منبر الإسلام ، السنة ١٩ ، العدد (١٠) ، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م ، ص ٧١ - ٧٧ .
٧٥ - « نشأة المدارس بمصر » ، مجلة منبر الإسلام ، السنة ١٩ ، العدد ٧ ، سنة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، ص ٩٠ - ٩١ .
- العيدى (عبد العزيز بن راشد) :
٧٦ - « جهود صلاح الدين الأيوبى فى بناء الجبهة الإسلامية وتأسيس الدولة الأيوبية حتى سنة ٥٧٣هـ » ، مقال بمجلة مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد ٦ ، محرم سنة ١٤١٣هـ - يوليو سنة ١٩٩٣م ، ص ٤٤٧ - ٥٣١ .
- العرينى (السيد الباز) :
٧٧ - « الإقطاع فى الشرق الأوسط ، منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادى » ، حوليات كلية الأداب ، جامعة عين شمس ، العدد الرابع ، ١٩٥٧م .
- عزام (عبد الوهاب) :
٧٨ - « الألفاظ الفارسية والتركية فى اللغة العامية المصرية » ، مجلة مجمع اللغة العربية ، الجزء الثامن ، مطبعة وزارة التربية والتعليم ، ١٩٥٥ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٥ .
- أبو العز (صفى الدين) :
٧٩ - « معركة حطين : الإطار والنتائج » ، مقال نُشر فى الكتاب التذكارى المعنون بـ (٨٠٠ عام حطين صلاح الدين والعمل العربى المشترك) ، القاهرة : دار الشروق ، سنة ١٤٠٩ - ١٩٨٩م .
- العقاد (عباس محمود) :
٨٠ - « صلاح الدين » ، مقال بمجلة العربى - الكويت ، العدد ١ ، جمادى الأولى سنة ١٣٧٨هـ / ديسمبر سنة ١٩٥٨م ، ص ٥٣ - ٥٩ .
- علي (عبد الرحمن بله) :
٨١ - « البحث عن سيف صلاح الدين » مقال بمجلة الجامعة الإسلامية ، العدد ١، محرم - صفر - ربيع الأول، سنة ١٤٠٠هـ ، ص ١٨٣ - ١٨٦ .

- عنان (محمد عبد الله) :
٨٢ - « ابن خلدون وميكيافلى » ، مجلة الرسالة ، العدد ٢٠ ، السنة الأولى ، ١٣٥٢هـ ١٩٣٣م ، ص ٢٠ - ٢١ .
- عنان (محمد عبد الله عنان) :
٨٣ - « ترجم لكل من : صلاح الدين الأيوبى ، ووزيره بهاء الدين قرقوش ، والملكة شجرة الدرر ، وللفقيه الطرطوشى ، والرحالة ابن جبير الذى زار مصر فى عهد صلاح الدين الأيوبى : راجع كتابه : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ، سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .
- عواد (كوركيس) :
٨٤ - « مؤلف معالم الكتابة ومغانم الإصابة ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، عدد ؟؟ ، سنة ؟؟؟؟، ص ٣٧٨ - ٣٧٩.
٨٥ - « الحسبة فى خزانة الكتب العربية » ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد ٧/ ٢ . سنة ١٩٤٢م ، ص ٤١٧ - ٤٢٨.
٨٦ - « نصاب الاحتساب » ، مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلد ١٧ ، سنة ١٩٤٢م ، ص ٤٣٣ - ٤٤٤ . (عرف هذا الكتاب ومؤلفه حاجى خليفة فى كشف الظنون تحت اسم : « نصاب الاحتساب » . (أحمد) .
- عويس (عبد الحليم) :
٨٧ - «قامت على يد واحد من أعظم الرجال وانتهت على يد امرأة» ، مقال بمجلة المجتمع ، العدد ١٢٧ ، شوال سنة ١٣٩٢م - نوفمبر ١٩٧٣م .
- عيسى (أحمد محمد) :
٨٨ - « مخطوطات ووثائق دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء » ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس ، ١٩٥٦م .
- غربال (محمد شفيق) :
٨٩ - « مصر عند مفترق الطرق (١٧٩٨هـ / ١٨٠١) » ، المقالة الأولى ، « ترتيب الديار المصرية فى عهد الدولة العثمانية كما شرحه حسين افندى ، أحمد أفندية الروزنامة فى عهد الحملة الفرنسية » ، القاهرة ١٩٣٨م ، بحث مستخرج من مجلة كلية الأداب ، بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة .
- الفول (محمود) :
٩٠ - « حفيدات بلقيس » ، مقال بمجلة العربى ، العدد ٦٣ ، شعبان سنة ١٣٨٣هـ - يناير سنة ١٩٦٤م، ص ٢٤ - ٣١ .
- فروخ (عمر) :
٩١ - « صلاح الدين قبل معركة حطين » ، مقال بمجلة الباحث ، لبنان ، العدد ٤ ، أكتوبر - ديسمبر سنة ١٩٨٧م ، ص ٦٥ - ٧١ .
- فكرى (أحمد) :
٩٢ - « خصائص عمارة القاهرة فى العصر الأيوبى » ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ١٩٦٩ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٧٠م ، ص ١٦٣ - ١٩٢ .

- فهمي (عبد الرحمن) :
٩٣ - « من فضة الأيوبيين إلى نحاس المماليك » ، مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، العدد ٣ ، م ٧ ، ١٩٦٤ ، ص ٥٩ وما بعدها .
- القرني (عبد الحفيظ فرغلي) :
٩٤ - « أشدّ الساعات حلكة أقربها إلى طلوع الفجر » ، مقال بمجلة الأزهر ، العدد ٣٤ ، ربيع الثاني سنة ١٤٠٣هـ - فبراير سنة ١٩٨٣م ، ص ٣٢ - ٣٣ .
- الكرملي (إنستاس ماري) :
٩٥ - «مقامات ابن حمويه الجويني» ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ١٨ ، ص ٤٠٦ - ٥١٠ ، (ثلاث مقالات تباعًا) .
- اللبابيدي (محمود) :
٩٦ - « نظام الإسلام السياسي » وعلاقة الدين بالدولة في هذا النظام ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الرابعة ، العدد الرابع ، محرم سنة ١٣٧٢هـ / أكتوبر ١٩٥٢م ، ص ٣٧٦ - ٤٠٢ .
٩٧ - « الاقتصاد الإسلامي ، مقامة بين الاقتصاديين الرأسمالي والشيوعي والاشتراكي » ، مجلة رسالة الإسلام ، السنة الثالثة ، العدد الثالث ، رمضان ١٣٨٠هـ / ١٩٥١ ص ٢٥٨ - ٢٨٠ ..
- لبيب (صبحي يني) :
٩٨ - « التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى » ، المجلة التاريخية المصرية المجلد الرابع ، العدد الثاني ١٩٥٢ ، ص ٥ - ٦٣ .
- ماجد (عبد المنعم) :
٩٩ - « أضواء جديدة على موقعة عين جالوت » ، الموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٧٦ - ١٩٧٧ ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ١٥١ - ١٦٨ .
- ماهر (سعاد) :
١٠٠ - « مجرى مياه فم الخليج » ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد السابع ، ١٩٥٨م ، ص ١٣٤ - ١٤٩ .
- مخلص (عبد الله) :
١٠١ - « التواليف الإسلامية في العلوم السياسية والإدارية » ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ٧ ، الجزء الـ ٧ والـ ٨ ، سنة ١٩٤٣م ، ص ٣٣٩ - ٣٤٤ (عدد تموز آب - جمادى الآخرة رجب) .
- مرزوق (محمد عبد العزيز) :
١٠٢ - « طراز الإسكندرية » ، أبحاث مؤتمر الآثار في البلاد العربية المنعقد بدمشق ، ١٩٤٧م ، طبع القاهرة ١٩٤٧م ، ص ١٦٥ - ١٧٥ .
- يوسف (جوزيف نسيم) :
١٠٣ - « دراسة في وثائق العصرين الفاطمي والأيوبي ، المحفوظة بمكتبة دير سانت كاترين في سيناء » ، فصله من مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلد ١٨ ، ١٩٦٤م ، ص ١٧٩ - ٢٠١ .

خامسا: أهم المراجع الأجنبية :

- Amari (Michele):
  1- Diplomi Arabi del R. Archivio Fiorentino, Testo Originale, con la Traduzione Lettêrale E Illustraziono Di Michele Amari, in Firenze, 1873.
  2- Storia dei Musulmani di Sicilia (1-4) Firenze, 1858.
- Berchem (Van) :
  3- Materiaux Pour un Gorpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, I, Paris 1903.
- Cahein (c.):
  4- Makhzumiyyat. Etude sur l'histoire économique et financiére de l'Egypte medievale, Leiden E J. Brill, 1977.
- Elbeheiry (Salah):
  5-Les Institutions de L'Eypte au temps des Ayyübides. Thése Princiipal de Doctorat d'Etat sou-tenue en Sorbone 1971 et Publiée Par l'Université de Lille III, 1972.
- Ernst (H.)
  6- Die mamlukischen Sultan Zur Kuden des Sinaiklosters, wiesbaden, 1960.
- Gotts chalk:
  7- Al-Malik Al-Kamil, Von Eguypten, Un seine zeit, Otto Harrasowitz wiesbaden, 1958.
- Helbing, (N.):
  8- Al-QadisAl-Fadil, der Wezir Saladin, eine Biographie, Berlin, 1909.
- Lane-Poole:
  9- Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem. London 1898.
- rabie (Hassanein):
  10- The Financiel System of Egypt, A.H. 564-741/A.D. 1169-1341, London Oriental Serie. Volume 25, Oxford University, Press, 1972.
- Ricakie (J):
  11- La Poesie Profane sous les Ayyoubides et ses Principaux representant, Paris, 1949.
- Pautey (Edmon):
  12- Les Bois Sculptés Jusqu' a l'epoque Ayyoubide, Catalogue general du Musée Arabe du Caire. 1931.
- Sauvaget, Wiet, Combe:
  13- Repertoire Chronologique D'epigraphie Arabe, Le Caire, Mc MXXXVII, T. 9-10.
- Weill (Jean David):
  14- Catalogue General du Musée Arabe du Caire, Les Bois á Epigraphie Jusqu'a l'epoque Mamlouke, le Caire, 1931.
- Wiet (G.) :
  15- L' Egypte Arabe (Histoire de la Nation Egyptienne, Par Hanateau, T. IV.).

سادساً: أهم المقالات بالدوريات الأجنبية :

- Abdul Hak (M.):

1- Al Qadi ul fadil and his diary, Proc. 10th Al-india or. Conf., 1940, pp 724-725.

- Abel (A):

2- La Sitadelle Ayyubida de Bosra, Annales Archéologiques de Syrie VI, 1956.

- Ashtor (E):

3- Saladin and the Jews, HVCA, Hebrew Union College Annual, V. 27 (1956).

- Balog (P):

4- Dirhems Ayyoubites inédits du Yemen, B.I.E. 36 (1953-54) pp, 347-355.

5- Ayyubid Jetons, Atti Del Terzo Congresso Di Studi Arabi E Islamica, Ravello, 1966, Instituto Universtario Orientale, Napoli, 1967, P 121-125.

6- Dinars of Muâzzam Shams al-Din Turanshâh and al-Aziz, Tugthegen, Ayyubid Princes of the Yemen, Amere, Num, Soc. Museum notes 9, (1960) pp 237-240.

7- Etudes Numismatiques de l'Egypte Musulmane, La Trouvaille de Fayoum, Dirhems Ayoubites, du Premier Roi Mamelouk Aybek et D'Imitation Arabe des Groisés, Extrait du B.I.E.T. 34, 1951-1952.

8- Monnaies Islamiques Rares Fatimides et Ayoubites. B.I.E.T. 36, Le Caire 1955, P. 327-346.

9- Deux dinars inédits du dernier Roi Quyoubite d'Egypte, Al-Malek Al-Achraf aboul Fath Moussa. B.I.E.XXXI, P. 187-190, Le Caire 1949.

10- Etudes Numuimatiques de l'Egypte Musulmane, Fatimites, Ayoubites, Premiers Mamlouks, B.I.E., Session 1952-1953, Le Caire 1954.

11- Etude Numismatiques de l'Eypte Musulmane, Périodc Fatimides et Ayoubites B.I.E., 1952.

- Basetti-Sani (G.):

12- Conditions de l'apostolat en Egypte au debut de XIII^{em} siecle. Cah. hist. eg. 5 (1953) pp. 193-216.

- Brinner (W. M.):

13- The Banu Sasra: a study in the transmission of a scholarhy tradition Arabica 7 (1970) pp, 167-195.

- Casanova (P):

14- Les Derviers Fatimides. Memoires de la Mission Archéologique Française du Caire, Tome VI, 1893. PP. 415-445.

15- Notes sur un texte copte du XIII^{e} siecle, B.I.F.O. I (1901) pp. 113-137.

- Cahein (C.):

16- Une source pour l'histoire des croisades: Les memoires du saed ad-Din ibn Hamawiyya Huwaini, dans bulletin de la Faculté des lettres de Strasbourg. 1950.

17- La Correspondance de Diyead-Din Ibn al'Athir, Liste de Lettres et textes de diplômes, B.S.O.A.S., 14 (1952), pp. 34-43.

18- L'Evolution de l'iqta, etc. dans, Annales Economies-Sociétés-Civilisations, 1953.

19- Le Regine des Impots de la Fayyum Ayyubide, Arabica, 3 (1956) pp. 8-30.

20- Un traité Financier inedit d'Epoque Fatimide Ayyubide, JESHO. Vol, v Part II, 1962.

21- Douanes et Commerce dans les portes Mediterranéens, JESHO, 7, 1964.

22- L'administration financiere de l'armée fatimide d'aprés al Makhzumi (JESHO), 15, 1972.

- Cooper (S.):

23- A note on the dinar J'ayshi, JESHO, 16 (1973).

- Creswell (K.):

24- La sitadelle Ayyubide du Bosra, Annales Archeologiques de Syrie, VI (1956).

25- The Origins of the Cruciform plan of Cairene Modrasahs, bulletin de l'institut Français d'Archeologie orientale Tom 21, p. 1-54, Le Caire, 1922.

- Dietrich (A.):

26- Eine Arabische Eheurhunde aus der Aiyyubidenzeit, Doc. isl. ined, 1952, pp. 121-154.

- Demombynes (G.):

27- Une lettre de Saladin au Calife Almohade. Mil. R. Basset II, 1925, pp. 279-304.

- Ehrenkrentz (A.S.):

28 - The Standand of fineness of gold coins circulating in Egypt at the times of the Ctusades J.A.O.S., 74 (1954) pp. 162-166.

29- Contributions to the knowledge of the fiscal administration of Egypt in the Middle Ages, B.S.O.A.S, 16 (1954), pp. 502-514.

30- Extracts from the Technical Mannal on the Ayyubid Mint in Cairo (B.S.O.A.S.), 1953, 15. pp. 424-447.

31- The place of Saladin in the naval history of the Miditerranean see in the Middle Ages J.A.O.S. 75 (1955) pp.100-110.

32- The Crisis of dinar in the Egypt of Saladin J.A.O.S. 76 (1956) pp. 178-184.

33- The Standard of Fineness of Western and Exstern Dinars before the Crusades, J.E.S.H.O., V. VI, (1963), Part I.

34- Byzantine Tetartera and Islamic Dinars, J.E.S.H.O, V. VII, (1964), part II.

35- Arabic Dinars Struck by the Crusaders, JESHO, V. VII (1964) part I.

- Elbeheiry (Salah):

36- Le Decret de nomination de l'historien Ibn Wasil au poste de professeur de la mosqué al-Aqmar, communicationfaute au XXIX[e] congres International des Orientalistes, Paris, 1973, in Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire, 1973.

37- Les Lettres d'un-Nasir Daud, Communication faite au XXVII[e] Congres International Orientalistes, Michigan, 1969, publié dans ARABICA, T. XV, fasc. 2, 1968.

- Fink, (H.S):

38- Mawdud I of Mosul precuror of Saladin, M. W. B. (1953), pp. 18-27.

- Gibb (H. A. R.):

39- The achievement of saladin, Bull, J. R. Lib. 35 (1952), pp. 44-60.

40- Notes on the arabic materials for the History of the Eraly Croisades, B.S.O.A.S. VII: 1935. p. 739-754.

41- The armies of Saladin, Cah, Hist, eg. 3 (1961) pp. 304-320.

42- The Arabic Sources of the life of Saladin, speculum 25 (1950) pp. 58-72.

43- Al-Barq al Shami: the History of Saladin by the Katib Imad ad-Din al-Isfahani, W.Z.K.M. (52) 1953, pp 93-115.

- Goitein (S.D.):

44- The Cairo geniza as a source for the history of muslime civilization, SI (Studia Islamica) V. III, 1955.

45- The Documents of the Cairo geniza as a source for mediterranean social History, in JAOS., Vol. 80, 1960.

46- From the Mediterranean to India, documents on the Trade to India, south Arabia and East Africa from the eleventh and Twelfth centuries, Speculum (29), 1954 (181-191).

47- Letters and documents on the India Trade in Medieval Times. IC. (Islamic Culture), V. 37. (1963).

48- Slaves and Slavegirls in the Cairo Geniza Records, Arabica, (1962) pp. 1-20.

49- The eschange of gold and silves money in Fatimid and Ayyubid times. JESHO., V, VIII, 1965.

50- Evidence on the Muslim poll tax from non-Muslim sources. Ageniza Study, JESHO. V. VI, (1963) part, I.

- Godard (André):

51- L'origine de la Medrasah, de la Mosquée et du Caravansérail à quatre Iwan, in Ars Islamica, vol. XV-Xv, 1951 pp. 1-9.

- Gottschalk (XL):

52- Die Aulad saih as-Suyur (Banu Hamawiya) wzkm (53) 1956, pp. 37-87.

- Guyord:

53- Un grand maitre des Assassins au temps de saladin, Journal Asiatique, VII[e] serie, 1877.

- Herz (Max):

54- Les Sépultures Abbasides prés de la mosquée d'el-Sayeda Nafisa, Bulletin du Comité de Con-servation des Monuments Arabes, Le Caire, 1911.

55- Mosquées et Tombeau du sultan salah Negm el-Dyn Ayyoub, Bulletin du comité de conservation de Monuments Arabes, Le Caire, 1902, Reprinted in Bulletin de L'Institut d'Egypte, 4[e] serie, No. 5, pp. 25-31, Le Caire, 1904.

- Kahle (p):

56- Eine wichtige Quelle Sur geschichte des sultans saladin, W. O. I. (1947-1952) pp. 299-301.

- Lapidus (I. M.):

57- Ayyubid Religious Policy (in colloque Internationaal sur l'histoire du Caire, p. 279-286).

- Lauffray (J.) ;

58- Une madrasah Ayyoubid de la syrie du Nord, La Sultaniya d'Alep, Etude Architecturale, Annales Archeologique de Syrie, tome III, 1953.

- Lewis (Bernard):

59- The Sources for the History of Syrian Assassins (speculum, 1952, XXVIII/4).

60- Saladin and the Assassins, BSOAS., 15 (1953) pp. 239-245.

- Massé (H):

61- Remarques sur le Fath el Qassi d'imad ed-din el-Isfahani, 22 Congrés or. 1951, II (1957)p. 196.

- Mile (G.G.):

62- The Ayyubid of the Yemen and their Coinage, Num. Chron. 5^{e} ser, 19 (1939), pp. 69-94.

- Minoreskey (V.):

63- Prehistory of Saladin, dans studies in Caucasian History, Cambridge 1953, pp. 107-128.

- La Monte, J.L.:

64- Takieddin prince of Hama, N.W. 31 (1941) pp. 149-160.

- Poliak:

65- The Ayyubid Feudalisme, JRAS., 1939, pp. 428-432.

- Rice (s):

66- Islamic Studies in metalwork, bull. of the school of or. st. XIV-XVII, 1952-1955.

- Richard, J.:

67- La chanson de syracon et la légende de Saladin. J.A. 237 (1949) pp. 155-158.

- Sadek (Hassan):

68- Salah el Din's fort on Ras el-Gindi in Sinai. BIE 2(1920) pp. 111-119.

- Sauvaget:

69- Le Cénotaphe de Saladin, Revue des Arts Asiatiques. Paris, 1938.

- Shafek (Ali):

70- Fayoum Irrigation as discribed by Nabulsi in 1245 A.D. Bulletin de la société Royale de Geographie d'Egypte, Tome XX, 1939, pp. 283-326.

- Salmon (Mr George):

71- Repertoire geographique de la Province du fayyoum d'apres kitab Tarikh al-Fayyoum d'an Naboulsi Bulletin d'institut Français d'Archeologique Orientale, Tome I. Le laine 1908.

- Sourdel (Thomine J.);

72- Le Peuplement de la region des villes mortes (syrie du Nord) a l'epoque ayyubides. Arabica I (1954) pp. 187-2000.

73- Les professeurs du Madrasa a Alep au 12^{e} et 13^{e} siecle, Revue d'Etudes Oriental de Damas XIII, 1949-1950.

- Stern (S. M.):

74- The succession of the Fatimid iman Al-Amir, The Claims of the Later Fatimids to Imamate, And the Rise of Tayyibi Ismailism, Oriens, Vol 4, No 2, pp. 193 ff.

- Taeschner (f):

75- الفتوة والخليفة الناصر : مقال كتبه بالفرنسية (ترجمه صلاح الدين منجد) فى كتابه المنتقى من دراسات المستشرقين ، القاهرة ، ١٩٥٥، ص ١٨٩ – ٢٠٧.

- Tewhid (A):

76- Monnaies des Eyoubites de Hisn- Keifa, Extr. des Mem. du Congres internat. de Numismatique... etc, Bruscelles, 1910.

- Wiet (Gaston):

77- Les E nscriptions du Mausolée de chafai, Bulletin de institut d'Egypte, Come XV. Le Caire. 1933.

- Zaki (Ahmed Pacha):

78- Coupe magique dedieé a salah ed-Din (Saladin) B.I.E. 5th ser. 10 (1916) pp. 241-287.

عروبة للطباعة والنشر
7 & 10 شارع السلام أرض اللواء المهندسين
تليفون : 3256098 - 3251043